ارتين مادويان

حياة على المتراس

تقديم جورج حاوي



الفارابي

حياة على المتراس

ذكريات ومشاهدات



أرتين مادويان

حياة على المتراس

ذكريات ومشاهدات

قدم له

جورج حاوي

دار الفارابي

الكتاب: حياة على المتراس، ذكريات ومشاهدات
تأليف: أرتين مادويان
نقله عن الأرمنية: أرادشيس قيومجيان
مراجعة الصياغة العربية: نبيل هادي
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 1986
الطبعة الثانية 2011
ISBN: 978-9953-71-614-5

باحترام وإجلال أقدّم هذا الكتاب إلى الذكرى الخالدة لشهداء الحزب الشيوعي اللبناني وذكرى رفاقي الرواد الأوائل، الذين حملوا لأول مرّة راية الشيوعية في بلادنا.



مقدمة الطبعة الثانية

لا مقدمة بعد مقدمة جورج حاوي، هذه كانت ردة فعلي الأولى عندما طلب مني أن أكتب مقدمة.

فكيف إذا كان جورج حاوي هو من يقدِّم ارتين مادويان...

"ننحني خشوعاً" أمام هؤلاء المناضلين"، هذا عنوان مقدمة هذا الكتاب بقلم جورج حاوي. عذراً أبو أنيس لأني، أولاً، أكتب بكل تواضع مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب. ثانياً، لأني أستخدم عنوان مقدمتك لأنك جزء لا يتجزأ من هؤلاء المناضلين الذين ننحني خشوعاً أمامهم.

واذا ترددت، أنت، قبل كتابة مقدمتك، فترددي أكبر بكثير لأن "شهادتي مجروحة" كما يقال في التاريخين.

فلكي لا أتخطى صلاحياتي واحترامي لهذين المناضلين الكبيرين، سوف أكتفي بما يشبه المقدمة، بل هي بمثابة شرح لأسباب إعادة طبع هذا الكتاب العظيم. هذه القطعة التاريخية الأدبية التي يفترض على كل مواطن لبناني أو عربي أكان شيوعياً، أم مهتماً بمعرفة التاريخ الحقيقي لجذور الحزب الشيوعي في منطقتنا، الذي هو جزء لا يتجزأ من تاريخ النضال وبناء دولة لبنان الحديث، عبر تجربة أرمني لبناني أممي ناضل وكافح من أجل الحريات والمساواة والعدالة ضد الظلم والاحتلالات على أرض لبنان والعالم العربي. داعياً لنصرة الشعب الأرمني، حالماً بعودة الأراضي الأرمنية المحتلة والاعتراف بالمجازر التركية التي تعرض لها الشعب الأرمني، والتي ينكرها التاريخ، دون أن يكون يوماً ذاك اللاجىء الأرمني على أرض الغريب. بل دافع بشتى الوسائل عن وطنه

الثاني، لبنان وعن الأمة العربية بقناعة المناضل الحقيقي من أجل القضية التحررية للشعوب العربية والعالم.

ففي ظل الحركات التحررية التي يشهدها اليوم وطننا العربي في كل أقطاره، لا بد أن نسترجع التاريخ لكي نستخلص العبر والدروس من مناضليه.

كتب جورج حاوي في مقدمته: "... لا بد أن يستطيع الحزب الشيوعي يوماً، وفي ظروف أكثر ملاءمة، من أن يكتب النسخة الحقيقية لتاريخه النضالي بالاستناد إلى منطلقات العلم وقواعده، وإلى الحقيقة الموضوعية المجردة المعززة بالوثائق والشواهد الحية والحسية... مهمة كتابة تاريخ الحزب تصبح اليوم أكثر الحاحاً من السابق لكونها لم تعد قضية تاريخ حزبي محض، بل هي تتعلق بتاريخ شعب وبلاد وأمة، بتاريخ طبقة عاملة وحركة ثورية شاملة في منطقتنا العربية..."

لم يكتب هذا التاريخ بعد. لذلك أردنا بغيابه أن نستعيد الكتابات الأكثر تصويباً حتى الآن، لكي نضع حداً لمحاولات إنكاره أو تزويره من جهة، ولتعريف الأجيال الصاعدة به من جهة أخرى، آملين أن لا يقف تفاعلهم عند الفخر بهذا التاريخ العريق، بل أن يستمروا في النضال "حتى تحقيق وحدة حقيقية للبلاد، شعباً وارضاً ومؤسسات على أسس وطنية".

ويبقى الهدف الأساسي من إصدار الطبعة الثانية من كتاب "حياة على المتراس"، هو تكريم المناضل الكبير أرتين مادويان بعد 21 عاماً على غيابه ، إذ إنه ليس أحد مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني - السوري فحسب، بل هو المساهم الأبرز في تاريخ الحركات التحررية الأممية.

لكن منذ 21 سنة تغيرت خريطة العالم، وبدلاً من الأممية التي كان يطمح إليها أرتين مادويان يعيش العالم اليوم عصر "العولمة"، التي هي نمط وطريقة انتاج، طريقة حياة، طريقة تطور في شتى المجالات. ولا بد

من خلق صراع في دائرة العولمة وليس ضدها لكي نصل الى نمط جديد يكون حصيلة نضال سائر شعوب وقوى وطاقات العالم، وذلك لن يكون مجرد علاقات سياسية دولية أكثر عدلاً بل كذلك علاقات انتاج وتوزيع، مادي وثقافي، أكثر عدلاً داخل كل بلد وعلى مستوى شعوب الارض. وهو ما يسمى "الأممية الجديدة" أم كما سماه جورج حاوي "الاشتراكية الجديدة". وذلك يكون تكملة لنضالات أرتين مادويان وسائر الأمميين الأوائل.

نارا حاوي
2011 /6 /6



مقدمة

ننحني خشوعاً أمام هؤلاء المناضلين

بقلم: جورج حاوي

لقد ترددت كثيراً قبل أن أكتب هذه المقدمة. وكان ترددي لسببين:

الأول فللعلاقات الخاصة التي تربطني بالرفيق العزيز أرتين مادويان فتجعل حكمي على ما يقوم به من أعمال مطبوعاً حتماً، وبشكل لاإرادي، بإعجابي الشديد بهذا الرفيق المناضل في جوانب حياته النضالية ومزاياه الشخصية على السواء.

أما السبب الثاني، فلخشيتي أن تفسر كتابتي من موقعي الحزبي الرسمي الراهن وكأنها موافقة على كل ما ورد في الكتاب، وتبنٍّ له، بما في ذلك ما يقرره من شؤون تاريخية تتناول الأحداث والأشخاص، لا أعطي لنفسي حق التقرير بشأنها. فهي شأن الحزب كله، الذي لا بدَّ له أن يستطيع يوماً ما، وفي ظروف أكثر ملاءمة، من أن يكتب النسخة الحقيقية لتاريخه النضالي بالاستناد إلى منطلقات العلم وقواعده، وإلى الحقيقة الموضوعية المجردة المعززة بالوثائق والشواهد الحية والحسية.

هذه المهمة، مهمة كتابة تاريخ الحزب تصبح اليوم أكثر إلحاحاً من السابق لكونها لم تعد قضية تاريخ حزبي محض، بل هي تتعلق بتاريخ

شعب وبلاد وأمّة، بتاريخ طبقة عاملة وحركة ثورية شاملة في منطقتنا العربية، وفي إحدى أكثر ساحاتها أهمية، الساحة اللبنانية ـ السورية بخاصة. فكتابة تاريخ لبنان الحقيقي، في إطار علاقاته القومية، وبخاصة علاقته بالشقيقة سوريا، تصبح اليوم، كما هو معروف مهمة وطنية ذات أولوية استثنائية يستحيل دونها تأمين وحدة حقيقية للبلاد، شعباً وأرضاً ومؤسسات، على أسس وطنية، بعدما مضى المستعمرون، والصهاينة والرجعيون العرب والانعزاليون تشويهاً في تاريخنا، فَطُمِس دور الجماهير وأنكر، وشُوّه دور الوطنيين وأهمل ومُجّدت الخيانة والتبعية والارتماء في أحضان الأجنبي، واستعداؤه على أبناء الوطن. فضاعت المقاييس في كثير من الأحيان حتى صارت الخيانة «وجهة نظر» وصارت الوطنية تهمة تقذف في وجه المناضلين، وجريمة يدفع مرتكبوها والمحرضون عليها ثمناً غالياً...

ولا شك أننا اليوم، إذ نخوض معركة الاستقلال الحقيقي للبلاد، وإذ نضع نصب أعيننا مهمة إعادة بنائها من جديد، بل إعادة تأسيسها، هوية وكياناً ونظاماً سياسياً ودستوراً وأنظمة وقوانين ومؤسسات...، نتطلع إلى ضرورة كتابة التاريخ بشكل صحيح ليكون الاتفاق بشأنه واحداً من أسس الاتفاق على الحل الوطني للأزمة اللبنانية، وليكون التثقيف به والتربية على أساسه، وتنشئة الأجيال الطالعة انطلاقاً من معطياته ضمانة وحدة الشعب ولحمته في المستقبل.

وعندما نقول كتابة تاريخ لبنان، في إطار انتمائه القومي، نقول حتماً: كتابة تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري.

وفي هذا الإطار تبدو أهمية الجهد الذي بذله عدد من الرفاق لإلقاء الضوء على جوانب هامة من تاريخ الحزب عبر كتابة مذكراتهم وسيرة حياتهم. وإلى جانب الأهمية العلمية لكتاب المؤرخ الفرنسي الرفيق والصديق جاك كولان، «تاريخ الحركة النقابية في لبنان»، وإضافة إلى

الجهد الذي يحظى بكل تقدير من قبل الرفيق العزيز محمد دكروب في كتابه «السنديانة الحمراء»، تأتي كتابات يوسف إبراهيم يزبك، ومذكرات يوسف خطّار الحلو، والياس البواري، ومصطفى العريس، وغيرهم من الرفاق لتشكل عناصر مهمة، ومواد أساسية في عملية كتابة التاريخ الحي لحزبنا وبلادنا.

ولعل أكثر المحاولات جدية تلك التي كان قد بدأها الرفيق العزيز والفقيد نقولا شاوي ولم يتمكن إلّا من إنجاز قسم ضئيل منها...

ونود أن نشير كذلك إلى أهمية مذكرات الرفيق «أبو داوود» محمود الأطرش، التي كتبها وسلّمها للحزب ولم تُنشر بعد.

وفي السياق نفسه تبدو أهمية هذا الإنجاز الكبير الذي حققه أرتين مادويان بكتابة مذكراته الشخصية. فهو أحد مؤسسي الحزب، وأحد روّاد وقادة النهضة الثورية المعاصرة في لبنان وسوريا والمنطقة. عاش الأحداث الكبيرة منذ بداية القرن، وشهد التحولات التاريخية العظيمة التي طبعت عصرنا بطابعها وفي مقدمتها ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى...

وساهم من موقع القيادة والتأثير في كل النضالات التي عرفتها البلاد منذ العشرينيات حتى هذه الساعة. جاب طوال أكثر من خمسة وستين عاماً كل شوارع وأزقة بيروت وطرابلس ودمشق وحلب وحمص... وكل مدن وقُرى لبنان وسوريا وفلسطين... ودخل بيوت ألوف العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين وسائر الكادحين، وزار كل سجون لبنان وسوريا والمنطقة المجاورة، فكان بين أول الشيوعيين الذين يحاكمون ويسجنون في لبنان، في عام 1926، كما كان آخر شيوعي يحاكم ويسجن في لبنان عام 1963 قبل أن يتمكن الحزب من انتزاع علنيته عام 1969. وبين عام 1926 وعام 1963 تتغير العهود، وتتغيّر الحدود، والسجن واحد، والسجان يلاحق أرتين مادويان فيظفر به حيناً، ويفلت

منه أحياناً... وأرتين مادويان يلاحق السجان دائماً، فيحاصره، ويطوقه ويحطم بقبضته الفولاذية قضبان سجنه، ويكتب بعرق جبينه، وبدمه، وبفكره ونضاله تاريخ التحرر والحرية في بلادنا...

ولعل جملة من العوامل الموضوعية والذاتية، قد أسهمت في جعل أرتين مادويان قادراً على لعب هذا الدور الرائد، في الإسهام بتأسيس حزبنا الشيوعي في لبنان وسوريا، والنضال الدؤوب والدائم في صفوفه، وفي مختلف المواقع القيادية فيه حتى يومنا هذا.

فأرتين مادويان، الابن البار للشعب الأرمني العريق بثقافته وتقاليده الثورية، قد ورث إلى جانب هذه التقاليد، تجربة نضالية غنية من تاريخ هذا الشعب المكافح على مدى مئات السنين من أجل الوصول إلى تحقيق أهدافه القومية، وهي تجربة فيها الخطأ وفيها الصواب على مستوى القيادة التاريخية المتعاقبة، ولكنها زاخرة دائماً بالزخم الجماهيري الاستثنائي والروح الكفاحية المدهشة. وهو من موقعه الأرمني، ومن تجربته الخاصة في مقاومة اضطهاد الرجعية التركية والوقوع ضحية المجازر الرهيبة التي نفذتها ضد هذا الشعب، ومن تتبعه لتاريخ الثوريين الأرمن، والوطنيين الأرمن وكل الذين نادوا بالحقوق القومية للأرمن، ومن خلال تفانيه، هو، من أجل تحقيق هذه الحقوق... قد وجد نفسه مندفعاً نحو الماركسية، نحو أفكار ماركس وإنجلس ولينين ونظريتهم الثورية التي تحمل وحدها، في عصرنا، مفتاح حل القضية القومية على أسس سليمة، لكونها وحدها الفهم الدياليكتيكي العلمي لمدخلي هذا الحل الصحيح، ألا وهما فعل الصراع الطبقي داخل الأمة، أي موقع كل من الطبقات الاجتماعية ودوره في النضال لتحقيق الأهداف القومية، من جهة، والترابط الدياليكتيكي بين الوطنية والأممية من جهة ثانية. وإذا كان المجال الآن لا يتسع لاستفاضة حول هذا الموضوع، فيكفي القول إن تجربة نضال الشعب الأرمني من أجل حقوقه القومية، التي أرست قيام جمهورية أرمينيا الاشتراكية السوفياتية القاعدة الراسخة والأساس

المتين لتحقيقها، إنما تؤكد بالملموس صحة ما نقول حول مفتاح الحل الصحيح للقضية القومية في عصرنا، في ضوء الماركسية ـ اللينينية، ومن خلالها.

* * *

إضافة إلى هذا العمق الذي استند إليه أرتين مادويان في شبابه، جاءت الظروف التي عاشتها الجماهير الأرمنية في لبنان، لتشكل تربة خصبة مؤاتية لنمو الأفكار الثورية التي اعتنقها أرتين مادويان ودافع عنها. في حين كانت الفئات الأرمنية الأخرى «تشكر» الشعب اللبناني، والسوري، على ضيافتهما وحسن استقبالهما للأرمن الذين نجوا من المجازر الهمجية على يد تركيا، من موقع المجاملة والعلاقات الإنسانية المحضة،... التي كانت تترجم بالنسبة إلى البورجوازية اللبنانية والسورية، والأوساط النافذة في البلدين نوعاً من «الشفقة»، تغلف بالنسبة إلى بعضهم نظرة طائفية معروفة، انطلق أرتين مادويان من منطلقات أخرى مختلفة تماماً. فهو يرفض أن تنطلق الجماهير الأرمنية من عقدة الخوف، والنقص لكونها لاجئة في بلد آخر، ذلك لأنها قد اضطرت اضطراراً إلى هذا اللجوء، ولا يمكن أن تدفع ثمن ذنب لم تقترفه. ثم إنه، من خلال نظرته الثورية أدرك عمق الرباط الذي يربطه، والذي يربط الجماهير الأرمنية أيضاً، بجماهير الشعبين اللبناني والسوري اللذين كانا يرزحان في ذلك الوقت تحت نير الانتداب الفرنسي، بعدما عانيا طويلاً نير السيطرة العثمانية. وإذا كانت الجماهير الأرمنية وجدت نفسها غريبة في هذين البلدين، فشعب البلدين هو كذلك «غريب» وإن كان على أرض وطنه، ثم إن جماهيرهما الشعبية الواسعة التي تعيش ظروفاً اجتماعية صعبة أكثر غربة داخل بلديها من بعض الغرباء عن بلدانهم، ودون أي تردد رأى أرتين مادويان أن «المصيبة تجمع» بين الجماهير الشعبية

الأرمنية والجماهير الشعبية في لبنان وسوريا، بل إن «القضية تجمع» وتوحِّد وللجانبين مصلحة واحدة وقضية واحدة ولا بدَّ من النضال المشترك للوصول إلى تحقيق هذه الأهداف...

ومنذ النشأة الأولى لشبيبة «سبارتاك» في إطار حزب الهنشاق اليساري، إلى تبلور هذا التيار بقيادة أرتين مادويان على أسس إيديولوجية متكاملة نسبياً، وعلى قواعد تنظيمية مستقلة تشكل رافداً من روافد تأسيس الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، إلى التقاء هذا الرافد الجدول المتدفق في ينابيعه الأولى على يد طليعة عمالية نقابية متمثلة بفؤاد شمالي ورفاقه، وطليعة من المثقفين الثوريين يرمز إليها يوسف يزبك وصحبه أولئك الذين التقوا في ذلك البيت المتواضع في الحدث يوم الرابع والعشرين من تشرين الأول عام 1924 ليعلنوا نشوء الحزب الشيوعي اللبناني (الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا)،.... إلى التقاء هذين الرافدين إذاً، في احتفال الأول من أيار عام 1925 في سينما كريستال حيث استكمل الحزب عملية نشوئه،... وعرف بداية انطلاقته الجماهيرية منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا... وعلى امتداد أكثر من ستين عاماً كاملة... لم يكن من قبيل الصدفة أن أرتين مادويان، ظل في الصفوف الطليعية من النضال داعية وحدة بين الجماهير الشعبية الأرمنية والجماهير الشعبية العربية، منطلقاً من قناعة راسخة بأن الجماهير الأرمنية في لبنان وسوريا تجد حلاً لمشاكلها بمقدار ما تجد الجماهير العربية في هذين البلدين حلاً لمشاكلها هي بالذات. وبذلك كان أرتين مادويان، ورفاقه المناضلون الأرمن، وطنيين لبنانيين، ووطنيين سوريين، بل «قوميين عرباً» حقيقيين، أي مناضلين حقيقيين من أجل القضية التحررية للشعوب العربية، من أجل قضية القومية العربية. والمذكرات التي كتبها أرتين مادويان تشكل في هذا السياق واحدة من أهم الوثائق حول تاريخ الأرمن في سوريا ولبنان، وحول نضال الجماهير الشعبية الأرمنية في البلدين، ودور هذا النضال في تحرر البلدين وفي المكاسب

السياسية والوطنية والاجتماعية التي حققها الشعبان اللبناني والسوري، وسائر شعوب أمتنا العربية: وهو في الحقيقة مناسبة لتكريم عشرات الشهداء الأرمن في صفوف حزبنا والحركة الوطنية لشعبنا، ممن أسهموا بدمائهم إلى جانب إسهام المئات غيرهم بعرق جبينهم وتضحياتهم الكبيرة، في بناء الصرح الشامخ لهذا الحزب، وفي تحقيق الإنجازات الهامة على الصعيد الوطني، وفي نشر أفكار الماركسية - اللينينية في ربوعنا العربية، وفي الدفاع عن حقوق الطبقة العاملة والجماهير الشعبية، وفي الدفاع عن جمهورية أرمينيا السوفياتية، الوطن الأم للأرمن، وواحدة من الجمهوريات المكوّنة للاتحاد السوفياتي، وفي رفع راية الصداقة العربية - السوفياتية، والتضامن الأممي الحقيقي مع كل شعوب الأرض المناضلة من أجل التحرر، ومع قوى البشرية المناضلة من أجل الحرية والتقدم الاجتماعي والاشتراكية والسلام.

إن حزبنا مدين لهؤلاء الرفاق الذين يذكرهم أرتين مادويان في كتابه بدءاً من الشهيد الأول (أرتين كولبنكيان) إلى الشهيد الأخير البطل سيمون، كما هو مدين لسواهم من المناضلين الذين خدموا الحزب في أقسى الظروف وفي أصعب المهمات. إن هؤلاء لم يسهموا فقط في بناء الحزب، بل هم في ظروف معيّنة أمنوا استمراره. وهذا استحقاق كبير ننظر إليه دائماً بفخر وإعجاب.

* * *

هل يسهُل الانتساب إلى «قوميتين» أو بالأحرى الالتزام بقضيتين قوميتين، القضية القومية الأرمنية، والقضية العربية، هل يسهل ذلك طريق الأممية؟

ربما. وهنا يكمن الوجه الثالث المتمم لشخصية أرتين مادويان، المناضل الأممي البارز، وعلى قاعدة الانسجام التام، والتعامل،

والتوحد الدياليكتيكي، بين الوجوه الثلاثة لشخصية أرتين مادويان يمكن النظر إلى حياته الغنية بالنضال والمستمرة في العطاء حتى يومنا هذا. فأرتين مادويان، الأرمني، اللبناني - العربي، الأممي، هو شديد الانسجام مع نفسه في نضاله فوق هذه الساحات الثلاث، في القضية القومية الأرمنية، وفي الساحة العربية، وعلى الصعيد الأممي. إنه، ليس فقط لا يعيش أي تناقض، أو تشاد، أو تجاذب بين الجوانب الثلاثة لشخصيته، بل، على العكس من ذلك، تشكل الأركان الثلاثة لهذه الشخصية أو الأقانيم الثلاثة إذا استعرنا التعبير اللاهوتي المسيحي، باستنادها إلى المنطلق الطبقي الصلب، وحدة متكاملة تحدد على أسس سليمة العلاقة الجدلية الخلاقة بين الوطني والأممي، وهو أحد الجوانب الهامة التي يؤكد عليها دائماً حزبنا الشيوعي اللبناني، وبخاصة منذ مؤتمره الثاني التاريخي، الذي أعاد الحزب في هذا المجال إلى الأصول التي عرفها في العشرينيات والثلاثينيات، والتي كان لأرتين مادويان دور أساسي فيها.

ولا شك أن للأممية الدور الأساسي في نشوء الحزب. ليس ذلك فقط من خلال السمة العالمية والتأثير العالمي لأفكار ماركس وأنجلس ولينين، وإن كانت هذه الأفكار العلمية تحمل في طياتها إسهام كل شعوب العالم في تطور المعرفة عبر العصور، بما في ذلك إسهام الفلسفة العربية والفكر العربي، وليس فقط من خلال وهج ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى وانعكاسها في بلادنا على الأوساط العمالية الطليعية، وعلى المثقفين الثوريين آنذاك... بل كذلك في المدى التنظيمي المباشر. فمبعوثو الأممية (الكومنترن) قد أسهموا إسهاماً مباشراً في جمع أبرز هؤلاء العمال الطليعيين والمثقفين الثوريين وأمنوا نشوء الحزب الشيوعي اللبناني. ولكنهم بذلك لعبوا دور المنشط والمشجع والمسرع والمنظم لنمو هذه الشجرة ذات البذور الوطنية، التي نمت في التربة الوطنية لبلادنا فشكلت نبتتها بداية مرحلة تاريخية جديدة لنضال شعبنا من أجل

تحقيق أهدافه التاريخية، في التحرر الناجز في جميع المجالات. فالحزب الشيوعي اللبناني (اللبناني - السوري) قد نشأ في رحم هذه الأرض العربية، من أب وأم وطنيين عربيين، يحمل شجرة عائلة طويلة طويلة، وعريقة عريقة، تجعله على صلة قربى مباشرة مع أول إنسان حلم في مجتمع سعيد فوق أرضنا الوطنية، ووارثاً شرعياً لأول ثوري طمح لتحقيق التحرر والتقدم لشعبنا، بل وارثاً شرعياً ومكملاً لنضال كل الثوريين في بلادنا العربية. وما دور ممثل الكومنترن في ولادة الحزب إلا دور «القابلة» وهو دور هام على كل حال.

وهكذا كان حزبنا منذ انطلاقته حزباً أممياً. غير أنه كان أممياً حقاً، لعبت أصالة نشأته دورها في جعله باحثاً عن إيجابيات انتمائه الأممي وأعطته مناعة حِيال بعض سلبيات هذا الانتماء، رغم اختلاف هذه المناعة بين فترة وأخرى، هذه السلبيات الناجمة عن الرؤية غير الصحيحة التي كانت تصدر أحياناً عن بعض مواقع «الأممية» حيال القضية الوطنية. ورغم أن بلادنا كانت تحت الانتداب الفرنسي، وفي فرنسا حزب شيوعي قومي، فإن النشوء المستقل لحزبنا جعله أكثر قدرة على الاستفادة من الدعم الإيجابي الذي قدّمه الحزب الشيوعي الفرنسي لنضاله، وأقل تأثراً بالأخطاء التي وقعت فيها أحزاب أخرى في البلدان المستعمرة والتابعة، فأهملت قضيتها الوطنية وتبنت شعارات الأحزاب في بلدان المتروبول...

كذلك لعبت الأممية دوراً إيجابياً في طرح قضية «تعريب الحزب» في الثلاثينيات، وهو توجه صحيح دون شك، وقرار ذو أهمية تاريخية يهدف إلى إعادة الحزب إلى أصالته الوطنية. وكون الرفيق أرتين مادويان قد قاد معركة التعريب بجرأة ونجاح، يؤكد من جهة مدى الوعي الأممي الحقيقي لدى الرفيق مادويان مما يجعله أكثر المتحمسين لـ «وطنية» الحزب، فهو يؤكد في المقابل أن معركة «التعريب» قد خيضت من جهة في وجه بعض ممثلي الأممية الذين جاؤوا من فلسطين، ومن أصول

يهودية، ومن جهة أخرى باتجاه تقديم قيادات عربية، على مختلف المستويات، إلى جانب القيادات الأرمنية التي استوعبت موضوعياً أهمية الدور الأساسي للقيادات العربية في توسيع صفوف الحزب بين الجماهير الواسعة. غير أن معركة التعريب، التي انطلقت من منطلق صحيح، وتمت ظاهرياً بشكل ناجح، لم تصل، برأيي إلى كامل بعدها في الجوهر، فالقضية لم تكن، فقط، الهوية «القومية» لهذا المسؤول أو ذاك. إن هذا مهم جداً، غير أن القضية الأهم هي في تحديد خط الحزب من القضية القومية بشكل سليم. وهنا يمكن القول إن الزخم الذي رافق معركة التعريب في الثلاثينيات قد انعكس إيجابياً في موقف الحزب من شعار الاستقلال، ومن شعار الوحدة مع سوريا (وقد كان الحزب حزباً واحداً في لبنان وسوريا تجسيداً لهذا الشعار) وبخاصة من شعار الوحدة العربية حيث كان الحزب خلّاقاً ومبدعاً في مؤتمر زحلة عام 1934، ليس في طرح الشعار فحسب، بل في رسم بداية برنامج نضالي لتحقيقه.

إن هذا الزخم لو استمر لتغير، برأيي، كثير من المعطيات في تطور المنطقة وفي تطور الحزب، ولما كان هناك ربما مبرر لقيام حركات وأحزاب أخرى لعبت لاحقاً وما زالت تلعب دوراً هاماً، إيجابياً وسلبياً، في حياة أمتنا العربية، ولكانت «الحركة القومية» الهادفة إلى التحرر الحقيقي وإلى الوحدة قد ظلت بقيادة الحزب، فسارت بثبات ونجاح على طريق تحقيق أهدافها، وفي أحسن الحالات، إذا لم يكن من الممكن موضوعياً منع نشوء تلك القوى أصلاً؛ فمما لا شك فيه أن دورها كان قد اختلف كماً ونوعاً، لو أن الحزب الشيوعي قد قام بدوره المطلوب كاملاً. ولعل في العرض الموضوعي الذي يقدمه أرتين مادويان لتطور موقف الحزب من القضية القومية من خلال الحديث عن مواقف الحزب في حقبات تاريخية معيّنة، وحيال قضايا معيَّنة، لعل في هذا العرض معالجة أولية، من جهة، ومادة تسمح بالمعالجة العلمية من جهة أخرى، استكمالاً لما طرحه بجرأة تقرير اللجنة المركزية أمام المؤتمر

الوطني الثاني التاريخي المنعقد عام 1968، الذي أعاد الاعتبار إلى الموقف الماركسي ـ اللينيني الحقيقي من القضية القومية، كما أعاد الاعتبار إلى الفهم الماركسي ـ اللينيني الحقيقي للعلاقة الجدلية بين القضية الوطنية القومية من جهة، والأممية البروليتارية من جهة أخرى. لذلك كان من الطبيعي ليس فقط أن يلعب الرفيق أرتين مادويان دوراً في انعقاد المؤتمر ونجاحه حسماً لأزمة الحزب آنذاك، إلى جانب الرفاق الآخرين ممثلي القيادة التاريخية في الحزب وفي مقدمتهم الرفيق نقولا شاوي، بل كان من الطبيعي أن يجد رفاق مناضلون قدماء ومجربون، مفعمون بالروح الأممية ومتفانون في الدفاع عن القضية الوطنية وعن مصالح الطبقة العاملة، من أمثال: نقولا شاوي وأرتين مادويان ويوسف خطّار الحلو وإلياس البواري ومصطفى العريس وسواهم من مناضلي الرعيل الأول، أن يجد هؤلاء في المؤتمر الثاني للحزب اندفاعة جديدة، ومناخاً صحياً يضع حدّاً لصراع داخلي يعانيه كل مناضل يجد نفسه في هذه الفترة أو تلك أمام تناقض مفتعل بين وطنيته وأمميته... لقد أعاد المؤتمر الثاني أصالة النشأة الوطنية إلى الحزب وأصالة الانتماء الأممي، فكان بذلك منسجماً مع القناعات الراسخة التي ميّزت شخصية الرفيق أرتين مادويان كمناضل وطني، وأممي، الأمر الذي يبرز بوضوح من مجمل ما كتبه أرتين مادويان في مذكراته.

* * *

إن المؤتمر الثاني للحزب وضع الأساس الصالح كذلك للقضاء على تناقض حاد، بل على صراع داخلي كان يمزق كل رفيق مخلص في مجال العلاقات الداخلية، التنظيمية للحزب.

ففي الفترة التي سادتها «عبادة الفرد» وانتفت فيها القواعد التنظيمية اللينينية في حياة الحزب الداخلية، كان الرفاق المخلصون، والأكفاء،

عرضة لأحد احتمالين إما أن يجاهروا بآرائهم، وملاحظاتهم كافة، ويوجهوا النقد للمسؤول فيتعرضوا لخطر الإبعاد عن الحزب... وإما السكوت عن النواقض والانخراط في عملية المديح المفرط للقائد، والإسهام في ضرب الرفاق الآخرين حسب مزاج المسؤول ورغبته... وبالتالي يفقدون الكثير من روح المبادرة وحرية الرأي والإسهام الخلّاق في العمل القيادي، ويصبحون جزءاً من وضع قيادي مصف للكوادر أياً كان موقفهم الشخصي من مسألة تطوير الكادر. وفي كثير من الحالات كان الرفاق الأكفاء والمخلصون يتعرضون لهذه الحالة، إضافة إلى تعرضهم الدائم للنقد اللاذع وغير الموضوعي، وإلى ما كان يسمى بعملية «الضرب» الحزبي التي تؤدي إلى إقصائهم عن مواقع القيادة موقتاً، أو كلياً، وحتى إلى إذلالهم معاشياً ومادياً...، وتنتهي «برسالة» نقد ذاتي لأهداف منها تحطيم الكادر المعني وإذلاله لتحويله إلى أداة طيعة...

عايش أرتين مادويان كل هذه المرحلة الصعبة فكان أحد ضحايا هذا الأسلوب وساهم بدوره، من خلال إخلاصه للحزب ومن موقع تعلقه بوحدة القيادة، في ممارسة هذا الأسلوب ضمن إطار الهيئات القيادية حيال الرفاق الآخرين فتألم بشكل مزدوج ووجد نفسه، في كثير من الحالات، أمام صراع داخلي حاد بين قناعاته السياسية والتنظيمية وحتى بين كرامته الشخصية من جهة، وبين ما كان يراه من قناعة مصلحة الحزب من جهة أخرى، كما فعل غيره من الرفاق القادة البارزين وفي مقدمتهم الرفيقان الكبيران فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي، وإن كان هذان القائدان، وخصوصاً فرج اللّه، أكثر الذين عانوا من هذا الأسلوب وأقل الذين ساهموا فيه. هذه المعاناة المرة وجدت في المؤتمر الثاني للحزب نهاية لها. لذلك كانت فرحة أرتين مادويان بالمؤتمر كبيرة. ولذلك أيضاً، يحتل الحديث عن هذا الأسلوب في حياة الحزب قبل المؤتمر الثاني حيزاً هاماً من مذكرات أرتين مادويان، حيث يكشف أرتين مادويان وقائع، وحوادث مؤلمة حقاً تعرض في خلالها رفاق مخلصون لحملات

تشكيك ولاتهامات ولانتقادات ظالمة ولإجراءات وعقوبات تصل إلى درجة الطرد من الحزب...

وقد تكون الذاكرة قد خانت أرتين مادويان فلم يذكر كل الحوادث، أو بالغ في ذكر بعضها، أو لم يتصف بعض ما ذكره بالدقة الكاملة... ولكن ألا يكفي ما يعرفه من أسلوب، ومن وقائع لإعطاء الصورة الكافية عما كان يجري، وبالتالي لإعطاء جزء من الجواب عن السؤال الذي كان يشكّل، وهو اليوم يشغل، قسماً رئيسياً من كوادر الحزب حول أسباب عدم تطور الحزب في الماضي، وبصورة متناسقة وثابتة، بمستوى ما كانت تسمح به الظروف الموضوعية المؤاتية في البلاد.

لقد وضع أرتين مادويان ما كتبه حول تلك المرحلة في تصرف قيادة الحزب، وترك لها القرار حول ملاءمة النشر أو عدم ملاءمته. وبما أن الموضوع يتعلق بمذكرات شخصية، لم يكن لقيادة الحزب الحق في أن تدقق، أو في أن تصلح، أو في أن تؤكد هذه أو تلك من الحوادث. فأرتين مادويان يتكلم عن هذه القضايا على مسؤوليته الشخصية. ومن غير المستحسن أن يشطب بعض ما كتب عن قناعة مراعاة لهذا الاعتبار أو ذاك. ولم يكن الهدف من الموافقة على النشر وقوفاً عند الماضي لمعالجته من هذه الزاوية أو تلك، بل كان الهدف أن يعي رفاقنا الجدد اليوم ما كان يجري في حزبهم من ممارسات، ليحصنوا الحزب ضدها في المستقبل من خلال التمسك بمقررات وبروح المؤتمر الوطني الثاني في هذا المجال، كي يكسب الحزب مناعة ضد الآفات والأمراض التي يلحق استشراؤها أكبر ضرر في مسيرته.

* * *

لقد تحمل أرتين مادويان الكثير. ولكن ميزة أرتين مادويان الأساسية هي هذه الروح الثورية المثابرة التي لا تعرف الكلال. إنه المناضل

«البولشفي» المثالي الذي لا حدود لتفاؤله التاريخي، ولا حدود لقناعته العملية بحتمية انتصار الاشتراكية، ولا حدود لتفانيه في ميدان النضال، وخدمة قضية الطبقة العاملة والإخلاص للحزب ولا تردد في مجال القيام بواجب أو تنفيذ مهمة، وبدقة مدهشة. إنه صاحب ثقافة ماركسية عميقة، ما زال يغذيها حتى اليوم بقراءات متنوعة يحتلّ لينين فيها باستمرار، حصة أساسية تسمح له أن ينطلق دائماً من منطلق طبقي في نظرته إلى الأحداث، وروح ثورية تزداد مع السنين ولا تهمد، وحس وطني مرهف وإخلاص أممي لا حدود له. ذلك هو أرتين مادويان الذي يقارب اليوم الثانية والثمانين من العمر، وهو ما زال يعطي بكل طاقاته وإمكانياته عطاءً مهماً، كمياً ونوعياً، للحزب، وللطبقة العاملة، وللبنان والأمة العربية، وللوطن الأم أرمينيا السوڤياتية، وللأممية. فهو، في عمر الشباب من حيث الحماسة، ومن حيث توقد الذهن، ومن حيث الثقة بما يطرح، وبما يجعله قادراً على نقل قناعاته إلى محدثه دون الكثير من العناء. فمن يحدث أرتين مادويان ويسأله رأيه في قضية ما، يلمس من جوابه فوراً الصدق، والقناعة، والإخلاص لما يعتقد وفيما يقول. ولن يجد القارئ لهذه المذكرات صعوبة في الوصول إلى هذا الاستنتاج.

* * *

ولنعد إلى البداية..

... قلت، إنني ترددت كثيراً قبل أن أكتب هذه المقدمة... إلى أن وجدتني أستيقظ باكراً، في صبيحة يوم الرابع والعشرين من تشرين الأول من العام الحالي 1985، في الذكرى الواحدة والستين لنشوء حزبنا الشيوعي اللبناني، فأبدأ بالكتابة، وقد تغلبت عندي الرغبة في الكتابة على كل تردد. فبالأمس عدت من مهرجان «الميناء» الذي أقيم إحياءً للذكرى الواحدة والستين، وتحية لطرابلس المحررة، وتكريماً لأبطال

الحزب، وجبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، أبطال تفجير وتدمير إذاعة العميل أنطوان لحد التي تشرف عليها المخابرات المركزية الأميركية والصهيونية.

إن الحزب الذي أسهم أرتين مادويان إسهاماً كبيراً في تأسيسه، والذي ما زال يعطيه حتى اليوم كل ما يملك، هو اليوم مالئ الدنيا وشاغل الناس. تتحدث عنه الإذاعات المحلية والدولية بإعجاب، ويمجد الكل بطولة مناضليه ودورهم في المقاومة الوطنية اللبنانية، هذه المفخرة التي تشكّل أنبل ظاهرة ثورية في تاريخنا العربي المعاصر. أستمع إلى ما يُقال، وأقرأ ما يكتب... فلا أستطيع إلّا أن أزهو وأن أسترسل في النشوة... فترتسم فجأة أمامي صورة أرتين مادويان أمام المحكمة عام (1932)، وأسمع بأذني صوت المدعي الفرنسي يطلب العقوبة القصوى لأرتين مادويان، ويلح في استئصال شأفته، هو ورفاقه، قبل أن يصبحوا قادرين على فعل ما بدأه رفاق لهم في فيتنام، ألهبوا تلك البلاد ثورة تحت أقدام الاستعمار الفرنسي وأرى على وجه أرتين مادويان، الشاب آنذاك، علامات الغضب والثورة مشفوعة بابتسامة تكشف عن الثقة غير المحدودة بالشعب، بالطبقة العاملة، وبالحزب... ذلك الحزب الذي كان يشق بصعوبة خطواته الأولى آنذاك... وأرتين مادويان يفكّر في الثورة، ويعمل من أجل الثورة، ويثق بنجاح الثورة ثقة مطلقة...

في مثل هذا اليوم المجيد من تاريخ حزبنا، يتوجّب علينا، نحن الشيوعيين اللبنانيين، أن ننحني خشوعاً أمام هؤلاء المناضلين الأوائل أرتين مادويان ورفاقه كما ننحني خشوعاً أمام ذكرى شهدائنا الأبطال. فهم قد شقوا الطريق الذي يبدو اليوم أمامنا عريضاً وفسيحاً. وهم قد صنعوا الراية الأولى ورفعوها وحموها بدمائهم، وبعرق جبينهم، وبآلامهم، إلى أن وصلت إلى الأيدي التي ترفعها اليوم فوق المناطق اللبنانية المحررة بإباء واعتزاز. هم قد كتبوا بالنضال هذا التاريخ المضيء لشعبنا ولحركتنا الوطنية ولحزبنا. وإذ يكتب أرتين مادويان اليوم بعضاً من

سيرة حياة قضاها «وراء المتراس» فهو يضعنا أمام ضرورات الوفاء لهذا التاريخ من جهة، وأمام العهد على متابعة النضال من وراء هذا المتراس دون كلال، إلى أن تنتصر القضية التي رفع هؤلاء المناضلون لواءها عالياً، قضية التحرر الناجز لبلادنا، قضية الديموقراطية والاشتراكية والسلم.

كلمتان عوضاً عن مقدمة

أيّ إنسان لا يتمنّى أن تبقى ذكراه، بعد وفاته، وأن تعيش في الناس على هذا النحو أو ذاك؟

إنّه شعور بديهي، ملاصق لطبيعة بني البشر.

إلّا أنني، على الرغم من هذه الحقيقة، لم أشرع في تدوين مذكراتي هذه، ولا سيّما في الجانب السياسي والحزبي، إلّا بعد إلحاح وإصرار متكرّرين من جانب الرفاق في الحزب، علّني أسهم بقسطي المتواضع، مع رفاق آخرين، في إنجاز تاريخ الحزب المتكامل مسهماً في الوقت عينه في تحضير المادة الأساسية لكتابة التاريخ الوطني والسياسي للأرمن في لبنان، وفي سوريا إلى حدّ بعيد، ذلك أن تاريخ الأرمن جزء من تاريخ الشعبين لا يتجزأ.

لقد كتبتُ هذه المذكرات في بيروت الغربية، خلال الحرب الأهلية. وبالأحرى خلال الاجتياح الإسرائيلي، وفي ظل الاحتلال بالذات:

أزمة متفاقمة؛ قصف متواصل؛ حالة عصبيّة مرهقة... إنها الظروف التي أتيح لي خلالها أن أمسك بالقلم وأشحذ ذاكرتي وأشرع في الكتابة!

بل أكثر من ذلك: في تلك الظروف القاسية اضطرّ الحزب، لدواعٍ أمنيّة، إلى إخفاء أرشيف الحزب وكنتُ في أمسّ الحاجة إليه لإنجاز مذكراتي: أوليست هذه المذكرات على خصوصيّتها وتنُّوعها، جزءاً من تاريخ الحزب؟

وبالرغم من هذا الواقع فلقد سعيتُ إلى قول الحقيقة، بتجرّد وبساطة، وبصراحة قد لا تخلو من القساوة حول هذا الحدث أو ذاك.

لكنني حاولتُ أن أعبّر بصدق، معطياً الصورة الحقيقية التي أراها منسجمة مع معطياتي عن الواقع التاريخي.

أعتقدُ أن ذاكرتي خانتني في بعض الأحداث والمشاهد. ويخالجني شعور بأنني نسيتُ أسماء غالية لرفاق وأصدقاء وطنيين عملوا معنا في مراحل معيّنة.

يتملّكني أسف عميق على ما غاب عن ذهني من صوَر.. ومن أسماء، وهذا هو الشيء الأساسي.

وأتمنّى على كلّ ذي مقدرة، أن يساعدني في المستقبل على تغطية هذا النقص، بل أكون له شاكراً وبه فخوراً.

1904 ـ 1922

ولدتُ في 10 نيسان من العام 1904. محافظة كيليكية، منطقة أضنة، في بقعة كان اسمها غانفصاف زاده (وهي اليوم سوجو زادي).

اسم عائلتي مارديروس، وكان والدي قد اتخذ من صناعة الأحذية حرفة له، ثم اشتغل في زراعة الكرمة وفي حفر آبار المياه، ثم أصبح عامل بناء وبعدها حمّالاً في توزيع القطن لفرزه في المنازل. وهذا كله حتى الخامسة والعشرين من عمره[1]. وكان يعيش في منزل والده دون أن يشارك في مصروف العائلة، بل يحتفظ بدخله لنفسه، الأمر الذي ساعده لاحقاً على إنشاء محل لصناعة الأحذية، مع أحد أرباب هذه المهنة ممّن يفتقر إلى المال. وما هي إلّا فترة قصيرة حتى تعلّم أبي أسرار المهنة، بمساعدة شريكه.

غير أنّ هذه الشراكة لم تدم طويلاً. فقد افترق أبي عن شريكه وفتح محلاً خاصاً به بمساعدة خالي ستيبان توتنجيان وعنايته، الذي كان يملك محلاً للأحذية ويتمتع بمكانة رفيعة في السوق.

برع والدي في مهنته مبتعداً عن الأسلوب التقليدي في صناعة الأحذية، وابتكر أسلوباً جديداً حتى اشتهر وذاع صيته. وبعد العام 1910 أصبح لديه عامل أو عاملان، أما في فترة الأعياد فكان العدد يزداد. وكانت عائلتنا على حظّ وافر من اليُسر. وعلى ما يرويه جدي فإن أسلافه

---

(1) كان القطن في أضنة يقطف بقشره، فيقوم أحد الحمالين بتوزيعه على العائلات التي تتولى فصل القطن عن قشرته، لقاء أجر، ثم ترجعه إلى الحمال نفسه.

قد وفِدوا من ديار بكر (يكراناكرت) قبل مئة وخمسين سنة، وحلّوا في أضنة حيث زاولوا الأعمال الزراعية وظلّوا على اتصال بأقاربهم في يكراناكرت المعروفين بإنتاج الحرير، وذلك حتى العام 1914.

كان والد جدّي، مارديروس، ملقباً بـ «خالو مادو»، ومن هنا أتى اسم عائلتنا «مادويان».

حيُّنا

كانت عائلتنا تسكن في حي شعبي ضمن مجموعة من السكان الأرمن والأشوريين والأتراك. وفي آخر الشارع كان سوق الخضار حيث كان يعيش العرب العلويون الذين عرفوا بالفلاحين، وكانت العلاقة بين المقيمين في شارعنا والعرب العلويين علاقة صداقة حتى 14 نيسان عام 1909، حين بدأت المجازر الجماعية ضد الأرمن والأشوريين.

كان تسعون بالمئة من السكان الأرمن والأشوريين يعملون في المعامل والمزارع وفي المهن الصغيرة. وكانت أكثرية السكان تنتقل في الصيف للعمل في حقول القطن حيث أقيمت لهم أكواخ خاصة يعملون من طلوع الشمس حتى الغسق في جمع القطن، أما حصتهم فعُشر ما يجمعون، وكان ممثل صاحب الأرض يُنقص عليهم بعض الوزن، وهو إلى ذلك، يبتاع حصتهم بثمنٍ متدنٍ.

أما عمال المصانع وعاملاتها فكان شغلهم على مقربة من الحيّ في معامل كوكيناكي ذوطوس ولوغوقيت بامبوكيان وشركائه، وهي معامل تتولى تنقية القطن، وكان ثمة فروع أخرى تُعنى بطحن الحبوب وإنتاج الثلج.

وكانت حياة العاملين والعاملات في غاية الصعوبة، فظروف العمل لم تكن صحيّة والرواتب منخفضة ولا توجد مساعدات مرضيّة ولا ضمانات ضد الحوادث والبطالة والشيخوخة، كما درج أصحاب المعامل

على إهانة الشغيلة ولا سيما العاملات. وكل ذلك في غياب أيّ شكل من أشكال التنظيم النقابي والعمالي.

انطباعات طفولتي الأولى

هناك ذكريات من طفولتي لا تزال مطبوعة في ذاكرتي بشكل واضح جداً.

خلال عام 1908-1909 ذهبت إلى روضة مدرسة ابكاريان في أضنة حيث سمعت للمرة الأولى في حياتي، الأناشيد الوطنية يؤدّيها التلاميذ بحماسة، ومن هذه الأغاني أتذكر:

«إرفع صوتك أيها الفدائي، لماذا أنت ساكت؟!».

و: «دوًى صوت من جبال أرضروم الأرمنية».

وهي أناشيد لا تزال محفورة في ذهني لم تُمح حتى اليوم.

المجزرة

وفي مخيلتي عن الطفولة أيضاً، يتراءى مشهد ثان مطبوع فيَّ ولا يفارقني ألا وهو مجزرة الأرمن الرهيبة التي نفّذت ما بين 14 و17 نيسان عام 1909 (التقويم القديم 1ـ4 نيسان) ثم المجازر الرهيبة التي تكررت اعتباراً من 25 نيسان، أو ما حكاه أهلي من تفاصيل حول هذه المجازر الدموية آنذاك.

لقد كانت أياماً مرعبة حقاً.

كان بيتنا في وسط حديقة؛ أما الجيران فكانوا: خالي استيبان مع أهله، العربجي كريكور زوج خالتي مريام، كريكور الطحّان، والميكانيكي البارع ابراهام وكان هذا الأخير أشورياً.

حركة غير عادية تدور في الحديقة. كان ذلك في الأول من نيسان، ونحن متكوّمون في البيت والنوافذ كلها مغلقة، ونراقب عبر شقوق

الشبابيك، براميل من السمن تتدحرج في الشارع. إنها بعض ما يُسرق من المحالّ الأرمنية المجاورة. وبقينا على هذه الحال وبوّابة الحديقة محصّنة بما يجعلها منيعة.

وما إن انتصف النهار حتى ابتدأ الهجوم البربري. صراخ وضجيج في كل صوب. أنظر إنهم يقتربون! لقد ضربوا بوابة الحديقة بالفؤوس وفتحوها، ودخل العدو، واقتحم الرعب قلوبنا. نحن الصغار كنا تحت أوامر الكبار نركع ونتلو بصوت مرتفع: «أبانا الذي في السموات». أما الكبار فكانوا يرقبون الباب، يرتعدون ويتساءلون: تُرى، هل تصل القوات الفرنسية والإنكليزية لإنقاذ الأرمن من المجزرة؟

كريكور الطحان أطلق النار من بندقية صيد على المهاجمين فأصاب أحدهم وأرداه. أثار هذا خوف المهاجمين وتضعضعوا وعرف من صراخهم أنهم يتراجعون، على أمل الرجوع بقوة أكبر. استغل الموجودون في الحديقة هذه الفرصة وخرجوا من الباب الخلفي وذهبوا إلى منزل القاضي كيفورك أفندي الموجود على بعد 200 متر من بيتنا. ومن هناك رأينا المهاجمين يعودون، ويعملون في البيوت التي أخليناها، نهباً وحرقاً.

كان النجار هوفسيب أفجيان يقوم بحماية مخبئنا ببارودة صيد. وبعد يومين من التصدي من جهتنا بدأ المهاجمون بشق حائط البناية من الخلف. وبدأت الحيرة في الداخل وأخذ الناس ينتقلون برعاية هوفسيب افجيان إلى منزل تشيفجي باشي كيورك آغا (وكيل مزرعة) على بعد حوالى 200 متر وكان بيتاً كبيراً. وقد قتل على الطريق العربجي كريكور وجرح أخي الصغير هاكوب الذي توفي لاحقاً متأثراً بجراحه.

خلال الهروب ضلّ خالي ستيبان توتنجيان الطريق ووقع بيد العدو الذي قتله. وقد كنا جميعاً نحبه ونحترمه، وبعد قليل قام العدو المتوحش بالهجوم عل ملجئنا الجديد بقيادة حارس الليل العبد، وقد عُرف لاحقاً أن الحارس كان قد وضع صحناً نحاسياً على صدره لحماية نفسه من

الرصاص، لكنه لم ينجُ من رصاص هوڤسيب افجيان فوقع على الأرض ممّا أتاح هروب المهاجمين على أمل الرجوع بعدد أكبر، كما أسلفنا.

في تلك الفترة توقفت المعارك وأُعلنت «مصالحة»، وصدر «عفو عام». لكن لم يكن للأمان وجود في حيِّنا، وكانت غالبية منازلنا مسروقة ومحروقة، فالتجأ الناس إلى الكنائس والمدارس الكائنة خارج الحي، وهذه الأماكن كانت تعتبر آمنة.

أما عائلتنا فقد لجأت مع عائلات أخرى إلى مدرسة اشخنيان للبنات، قرب كنيسة مار ستيبانوس للأرمن.

بعد عشرة أيام بدأت المجزرة من جديد، وهذه المرة بمشاركة «جيش التحرير الوطني» ـ اتحاد الأتراك القادم من سالونيك.

عندئذ، انتقل اللاجئون من مدرسة اشخنيان للبنات، إلى كنيسة مار ستيبانوس التي لم تتأثر بالحريق الذي تعرضت له المدرسة فيما بعد، ذلك أنها كانت مبنية بالحجر[1].

ثم انتقلنا إلى المدرسة الثانوية للآباء اليسوعيين (مار بوغوص) وتقع على بعد مئة متر من الأولى.

وعلى الطريق شاهدت الكثير من جثث الأرمن ملقاة على الأرض، والدخان لا يزال يتصاعد من المحالّ المحروقة.

أما الأرمن الذين نجوا من المجزرة فقد تجمعوا في مقهى «شافاك قهوسي» (مقهى الفجر)، الموجود على ضفاف نهر سيهون، وكنا من بين هذه العائلات، وكان هدف العدو ذبح الأرمن المجتمعين هناك، ورميهم في النهر.

في تلك الفترة عُزل السلطان عبد الحميد عن عرشه في اسطنبول

---

(1) في وقت لاحق قامت مكان هذه الكنيسة بناية كبيرة من طبقتين حيث تأسست شركة «أوروزديباك» التجارية، فقد تعرضت هذه البناية للحريق بعد خروج الأرمن من أضنة.

وخلفه السلطان رشاد الذي أعلن العفو عن الأرمن الذين نجوا. وقد تمّ إخلاء سبيلهم بعد إجبارهم على قول «باديشاهم تشوك ياشا» (يعيش ملكنا).

الرجوع إلى بيتنا كان مستحيلاً، فقد دمر الحريق كل شيء، الحي لم يكن آمناً. فنقلنا إلى أرض فسيحة قرب معمل التبغ، حيث بُنيت مساكن جديدة في وقت لاحق، وسميت المنطقة «يني محله» أي الحي الجديد، وقد عشنا على هذه الأرض في خيم كانت قد أقيمت هناك مصادفة، وهنا توفيت أختي يفيسابت، كما قضى كثيرون نتيجة للوضع المأسوي.

بعد حوالى أسبوعين انتقلنا مع آخرين إلى معمل كبير للنسيج في تريبانه، وكان صاحب المعمل يونانياً. وكان جدي قد التجأ إلى هذا المعمل أول أيام المجزرة مع ستيبان كالوستيان وبانوس كيبينليان، وهما زوجا ابنتيه، وكانا يشتغلان على أرض يملكها جدّي وتبعد كيلومترات قليلة عن المدينة.

كان الجدّ يشتغل في هذا المعمل منذ تأسيسه، ويعرف صاحبه وأبناءه والعاملين فيه. وبعد وقت قصير انتقلنا إلى مخزن القطن الموجود قبالة المعمل.

وفي صباح أحد الأيام، فتحْنا أعيُننا ويا لهول ما رأيناه: فلقد وجدنا على مقربة من المخزن ستة مواطنين أرمن معلقين على أعواد المشانق في الشارع العام، بينهم والد هوڤسيب افجيان وقريبنا كيفورك أوفجي (الصياد) كيفورك، والقصاب ميساك وكانوا جميعهم أبرياء، وقد شنق كيفورك مكان ابنه.

بقينا في شارع آريا بازار (سوق شعبي) حتى مطلع العام 1910 حيث انتقلنا إلى منزل جدي في الحي القديم الذي لم يتعرض للحرق.

وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها وبدأتُ الدراسة في روضة كنيسة العذراء.

الجو في بيتنا

لقد لعبت حكايات ليالي الشتاء في منزلنا دوراً مرموقاً في تكوين ملامح مشاعري الطفوليّة الأولى. فكان رجال الحيّ من جيران وأقارب ـ إذا جاء الشتاء بلياليه الطويلة ـ يتجمّعون في بيتنا، ولا سيّما ليالي أيام الآحاد، وكان البيت الفسيح يحتضن أحاديثهم الشائعة حول الشعب الأرمني، في ماضيه الناصع وفي حاضره الذي يلفّه الظلم والملاحقات، والمخاطر والمجازر. وكانوا يتطرّقون إلى التحركات الوطنية التحررية، إلى معارك زيتون وساسون المجيدة، فأبطال الشعب الأرمني والشخصيات السياسية والعسكرية المشهورة، يتجاذبون أطراف الحديث عن ذكريات مملكة كيليكيا والآثار الباقية، وعن مساعدة كيري (خالو) الروسي لتحقيق تحرير أرمينيا. وكانوا يصفون آلامهم ومتاعبهم اليومية، ويحكون عن حياة العمال والحرفيين والمزارعين الصعبة والمليئة بالعذاب، وفي المقابل، عن ظلم أصحاب المصانع والثروات وتعسُّفهم، وقيامهم بسرقة أراضي المزارعين الفقراء، والصراع بين هؤلاء المزارعين وكبار ملّاكي الأراضي.

جدّي لن يحلق لحيته إلا بعد التحرير!

كان لجدي، المعروف بـ «سكّالي أرتين» أي أرتين ذي اللحية، تأثير كبير في تكويني الوطني في مراحله الأولى. كان جدي لأمي يتكلم اللغة التركية كما هي حال سائر الأرمن في أضنة، وكان يتمتع بروح وطنية عالية، ولحيته طويلة مسترسلة تصل إلى خصره، وقد حلف ألّا يحلق لحيته إلّا بعد تحرير أرمينيا!.

وقد درج جدي، في فصل الشتاء على ارتياد دكان السّرّاج مدزيك، على مقربة من معمل كوكينا. وصار يذهب إلى هناك في كل يوم فيلتقي جاراً لصاحب الدكان اسمه مازمان أرتين، وهو من أوائل المنتسبين إلى

حزب الهنشاك في المدينة، وكان قد تعرّض للملاحقة ونُفي عن البلاد في عهد عبد الحميد. وكان مازمان أرتين لا ينفكّ يتحدّث عن المستجدّات السياسية اليومية، ويتناول ماضي الأرمن وحاضرهم ومستقبلهم. وكان هذا خير مساعد لجدّي على تكوين وعيه الوطني ومعرفته بالقضايا الأرمنيّة.

كل مساء، بعد عودتي من المدرسة وانتهائي من تحضير فروضي، كان جدي يجلسني بقربه ويقصّ عليّ ما سمعه في دكان مدزيك حتى وقت متأخر من الليل.

وتبيّن لي فيما بعد أن أخبار جدي وقصصه معظمها مكتوب في مؤلفات الأديب رافي.

وحدث أن آمال الأرمن عادت إلى الانتعاش خلال أعوام 1912ـ1914، لدى تجدُّد البحث عن القيام بإصلاحات في مناطق وجود الأرمن. كان جدي يشتري جريدة «الشرق» الصادرة في اسطنبول وكنت أقرأ له المواضيع التي تبحث في الإصلاحات المتوقع حصولها.

... عندما هزّني نداء الوطن المعذب

الأحداث المذكورة أعلاه انطبعت في خيالي وأخذت توجه مشاعري وأفكاري نحو القضايا الوطنية والاجتماعية. وبدأت أحب المظلومين وأكره الظلم، حتى في دكان والدي كنت أقف إلى جانب الشغيلة، وقد أكد هؤلاء هذا القول.

مأساة على دروب الحرب العالمية الأولى

إنه الأول من آب عام 1914. لقد اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى. الدولة العثمانية لم تدخل الحرب على الفور، إنما بادرت إلى إعلان التعبئة العامة، في جميع أنحاء السلطنة تحضيراً لانخراطها في الحرب، ثم ما لبثت أن دخلت أوار المعارك.

في تلك الآونة استُدعي إلى الخدمة العسكرية جميع الشُبّان الأرمن الذين تراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والأربعين. غير أن الأتراك لجأوا بعد حين، إلى نزع سلاح هؤلاء المجنّدين. وفرضوا عليهم الأشغال الشاقة ثم أجهزوا عليهم في وقت لاحق.

ولقد تبيّن أن الهدف من وراء جمع شباب الأرمن على هذا النحو، هو شلّ ما لدى الأرمن من قدرات للدفاع الذاتي، واضعاف طاقتهم على التصدّي للمجازر المتوقعة حيث بدأ تنفيذها في أواسط العام 1915.

أدى إعلان حالة الاستنفار العام إلى «كهربة» جوّ البلاد، وشرع الناس يهتمّون بالأخبار ويتابعون تطور الأحداث السياسية ساعة بعد ساعة. وكانت تصدر كل يوم جريدة «أبلاڤي» باللغة التركية فتنشر الأخبار الرسمية وكانت المصدر الإخباري الوحيد.

وكنتُ إذا جاءت العطلة الصيفية أمكثُ في محل الأحذية الذي يملكه أبي، وكنت الوحيد في سوق الأحذية الذي يستطيع قراءة اللغة التركية، وعند وصول الجريدة كان جيراننا الباعة يتجمّعون أمام دكان والدي، ويجلسونني على كرسي فأقرأ بصوت عال أخبار الجريدة الصادرة في اسطنبول، والجريدة التي تصدر في مدينتنا وتحمل اسم «الحياة».

وكان من شأن هذا المناخ أن يشحذ في نفسي الميل إلى السياسة.

خلال عاميّ 1914ـ1915 كنت أتعلم في مدرسة أبكاريان التي أقفلتها الدولة العثمانية وحولتها إلى مستشفى عسكري، فانتقلت إلى مدرسة الأرمن الكاثوليك التي أغلقت أبوابها، هي أيضاً، في وقت لاحق.

وهكذا فقد دخلتُ دكان أبي وجعلتُ أتلقن مهنة صناعة الأحذية، فاشتغلت ردحاً من الزمن تحت يد شغيل المحل هاكوب نيكتليان، ثم لدى ستراك نجاريان، وبقيت في محل أبي إلى حين بداية العام الدراسي 1919ـ1920.

وخلال عام 1915 بدأت حملة اعتقالات طالت الوجوه السياسية والاجتماعية والحزبية الأرمنية الذين تعرضوا للنفي. وهذا ما حصل بوجه خاص، في زيتون، وهاجن، ودورتيول، وأضنة ومناطق أخرى. وطُرد أهالي زيتون من بلدتهم وقد أرسلوا أولاً نحو قونيا ثم ألقي بهم إلى المجزرة في صحراء دير الزور.

وفي أضنة أيضاً بدأت عملية نفي الأرمن واستمرت ما بين أول آب 1915 و15 تشرين الأول.

يومئذ اعتقل ونفي الكثيرون من أقاربنا وأصحابنا، ولم يرجع من بينهم سوى اثنين على قيد الحياة، أحدهما كان قد هرب من منطقة دير الزور. أما جدّي فقد تعرّض للسلب، وقُتل على الطريق الموصل بين الإصلاحية ومرعش، عن عمر يناهز الخامسة والثمانين.

وحدث أن نجت عائلتنا من عملية النفي شأنها شأن معظم صنّاع الأحذية والخياطين والسمكرية وعمال الفخار وعمال معمل النسيج اليوناني، ذلك أنهم أصبحوا مجنّدين في الجيش يعملون في معامله لتموين العساكر بالملابس والأحذية، فلم يكن لدى الأتراك عمال مَهَرة مثلهم.

وكانت تصل من مناطق النفي أخبار رهيبة. وذات يوم رجع الأشوري هوفسيب شماس بمأذونية من الجيش، وكانت مناسبة للاطّلاع منه على حالة المنفيين، فقد كان آتياً من تلك المناطق وسمعناه يقول: «أن يشرب المرء سمّاً ويموت، فهذا أجدر به من الذهاب إلى المنفى».

وكان كل أرمني يتابع الأحداث العسكرية بشغف، يتمنى أن تخسر الدولة العثمانية وتقوم روسيا وحلفاؤها بإنقاذ الأرمن الباقين من خطر الموت الذي يحوم فوق رؤوسهم بفعل جحيم النفي، وبمنحهم الاستقلال. وقد عاش الأرمن على هذا الأمل لمدة أربع سنوات.

في أضنة كان أبي مشهوراً في مهنته، فكان يتقن صناعة الجزمات وأحذية الرجال، وعُرفت بضاعته بمتانتها.

هذا كلّه بالإضافة إلى حادثة أخرى أدّت إلى جعل أبي صانع الأحذية الخاصة للضباط وقائدهم رمزي باشا. وفي معمل الأحذية في المعسكر كان أبي يشتغل كمجند، وكان المسؤول عنه الباش شاويش محيي الدين الذي لا يعرف شيئاً عن صناعة الأحذية، ويحاول أن يظهر كأنه أحد أرباب المهنة، فأراد أن يصنع جزمة لرمزي باشا وبعد صنع الجانب السفلي في مكان آخر، أتى بها إلى محل أبي ليصنع القسم الأعلى، مستعملاً أدواتنا وكله أمل في أن يساعده والدي، لكن أبي تهرّب من إسداء المعونة له، فقام محيي الدين بصنعها خارج الدكان ريثما تجفّ. وكان مركز الجيش يقع على نحو خمسين متراً من محلنا، وبينما كان رمزي باشا يمّر أمام المحل جرياً على عادته وقعت عينه على الجزمة، فأخذها إليه محيي الدين ليجرّبها فإذا بها صغيرة الحجم، فاستشاط غضباً وأمر بإحضار والدي اعتقاداً منه بأنه صانعها.

فحضر والدي وهو يرتعد من الجزع، ونفى أن يكون هو صانع الجزمة وقال «للباشا»: سأحضر لك جزمة على قياس قدميك.

وافق الباشا على ذلك. وصنع له جزمة جديدة نالت إعجابه وإعجاب كبار الضباط، وأصبح الدي ينتج أحذية لجميع الضباط، وكانت تشترى منه بأسعار منخفضة. وهكذا تحوّل أبي إلى مجند تحت تصرف الجيش . وقد ساعده ذلك على الاحتفاظ بالمحل ليؤمن لعائلته الحياة ويبعد عنها الخطر.

عند انتهاء المجندين من أعمالهم بعد الظهر كان عمال الأحذية الخيّاطون يعملون في محالهم الخاصة، ولولا ذلك لافتقرت المنطقة إلى الأحذية والألبسة.. وفي المساء كان شغيلة المحال القريبة يتجمعون في دكاننا، لأنه يعتبر آمناً نسبياً، وكان أكبر من المحال الأخرى، وهكذا كنا نقفل أبواب المحل فيتحول من الداخل إلى ندوة لبحث مختلف أحداث العالم والأحداث المحلية. كانت الرغبة في العيش بأمان قد اختلطت مع الطموح إلى تحقيق الاستقلال.

هذه الاجتماعات علمتني الكثير، فقد كوّنت لدي انسجاماً في التفكير، وزادت من تأييدي للقضايا العمالية.

وجاء شتاء 1917 فيما كان العثمانيون قد شرعوا بتصفية الأرمن الباقين، فكانوا يلقون القبض على بعضهم ويأخذونهم خارج المدينة حيث يقومون بقتلهم، وكان الخطر يخيّم على رأس كل أرمني.

في يوم من تلك الأيام جاءنا أحد زبائن أبي وهو عسكري برتبة «يوزباشي» (نقيب)، عربي من دمشق واسمه أديب أفندي فأخذ أبي إلى خلف الدكان وقال له إن الأرمن جميعاً في خطر، ونصحه أن يتحوّل من دينه إلى دين الحاكم للحفاظ على سلامته وسلامة أسرته. لكن والدي رفض هذا الاقتراح، معبراً عن رفضه بكلمات ملطّفة.

هكذا كان وضع أسرتنا في تلك الآونة الصعبة. وتحت تأثير هذه الأجواء تكوّنت أحاسيسي وأفكاري، وأخذت ميولي تتبلور، فكنتُ أميل إلى الأمور السياسية وأندفع إلى السياسة وشؤونها، توّاقاً إلى الاستقلال وإلى الإصلاح الاجتماعي. وفي تلك الفترة انطلقت شرارة ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى التي هزّت العالم قاطبة.

نحو ثورة أكتوبر..

كانت الجرائد الآتية من إسطنبول، بالنسبة إليّ المصدر الوحيد لأخبار البلد والعالم. وكنت أطالعها من غير انقطاع. وعلى ما فيها من تشويه للأحداث، وافتعال لأخبار غير صحيحة، فقد كنتُ أستطيع أن أتلمَّس الحقيقة عبر خضم الأكاذيب، ذلك أن أفكاري كانت تتجه نحو درب الحقيقة دون سواها.

كانت هذه الجرائد تدافع عن أهل الحكم ورجال الإقطاع، وتعتمد أسلوباً ساخراً في مهاجمتها للبلاشفة الذين قلبوا نظام القياصرة وجعلوا يصادرون أراضي الإقطاع وكبار ملّاكي الأراضي والمواشي ويعطونها إلى الفقراء والمعدمين.

بدأت أميلُ إلى أولئك البلاشفة وأتطلّع بشغف إلى ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، إلى حكم العمال والفلاحين.. وأصبح شهر أكتوبر النجم الذي نوَّر طريقي وقادني في حياتي مسدِّداً خطاي للوصول إلى الحقيقة.

... وبعد الحرب: مع «الإفرنج» ضد «العثملّي»!

انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة السلطنة العثمانية، وباحتلال الحلفاء العراق وسوريا ووصولهم إلى حدود كيليكيا، وتحطّم الجيش العثماني، وفي 30 تشرين الأول عام 1918 تمَّ الاتفاق في مودروس بين ممثل الحلفاء والدولة العثمانية على وقف إطلاق النار. ومن بنود هذا الاتفاق وضع كيليكيا تحت سيطرة الجيوش الفرنسية.

كنتُ ما زلت أشتغل في دكان أبي. ووصلت بعض أعداد جريدة «صوت الأرمن» الأرمنية الصادرة في حلب إلى سوق الأحذية بواسطة العاملين الأرمن في سكّة الحديد. أتت هذه الجريدة بإشارات مشجعة وأخبار عن المتطوعين الأرمن في الجيوش الفرنسية، وعن الدور الشجاع والحاسم الذي قاموا به في جبهة «أرارا».

وتنفيذاً لاتفاقية مودروس انسحبت الجيوش العثمانية من أضنة في 21 كانون الأول عام 1918. ووصل فوراً الفريق الأول للمتطوعين الأرمن إلى أضنة. وتمركز في الميتم الأرمني قرب المحطة. كانت سعادة الأرمن كبيرة وكنت من أوائل هؤلاء السعداء.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المتطوعين الأرمن انضموا إلى الجيش الفرنسي ليس لخدمة أهداف الامبريالية وخططها، بل لمحاربة الدولة العثمانية التي قامت بالمجازر ضد الأرمن، وقتلت آباءهم وأمهاتهم وأخواتهم وأقاربهم. وكان هؤلاء وطنيين مخلصين، آمنوا بالوعد الذي قطعته فرنسا بمنح كيليكيا الأرمنية الحكم الذاتي عند تحقيق النصر في

الحرب، ولم يفقهوا نيات المستعمرين الذين خدعوهم واستخدموهم لتحقيق أهدافهم ومصالحهم الخاصة.

في 31 كانون الثاني 1919 وصل إلى مرسين في كيليكيا قائد القوات الفرنسية التي احتلت كيليكيا، الكولونيل بريمون، وأعلن في احتفال أقيم بالمناسبة ما يلي: «نحن أتينا إلى هنا لتنظيم هذه البلاد وتسليمها للأرمن، وسيكون المتطوعون الأرمن نواة الجيش الأرمني في كيليكيا». لكن الذي حصل في الحقيقة كان على نقيض ذلك، فما كادت تمرّ سنة على السيطرة الفرنسية حتى قام الفرنسيون بحل قوات المتطوعين الأرمن. وانتهى الاحتلال الفرنسي لكيليكيا وعادت السيطرة التركية.. وهُجر الأرمن نهائياً عن أرضهم الأم.

وفي أواخر العام 1922 انتقل أهلي من أضنة إلى بيروت للإقامة الدائمة، في ظروف رحيل الأرمن القسري من كيليكيا. في تلك الفترة كنت طالباً في اسطنبول .

ولقد أظهرت الأحداث أن المستعمرين الفرنسيين بما قاموا به من تنازل وتخلٍ عن المناطق كسباً لصداقة الكماليّين الأتراك، ساعين لإبعادهم عن روسيا السوفياتية وجعلهم أعداء لها.

في الأشهر الأولى من الاحتلال الفرنسي رجع الأرمن من مناطق نفيهم، ومن أنحاء أخرى في أراضي السلطنة العثمانية إلى كيليكيا بشكل كثيف، وارتفع عدد الأرمن إلى 125 ألفاً في أضنة وحدها وانتعشت الحياة الوطنية وازدهر الوضع الاقتصادي وتأسست هيئة وطنية بقيادة مركزية. وأعيد تنظيم الأحزاب وفتحت المدارس والأندية وصدرت صحف أرمنية وازدهرت الثقافة والرياضة.

كان الفرح يغمر قلوب الأرمن الذين أخذوا عل محمل الجدّ «مساعدة» الحلفاء لهم على إنشاء الحكم الذاتي الأرمني في كيليكيا، وكنت شخصياً من المتحمسين لتحقيق هذا الحلم.

في تلك الأيام كان الأرمن في كيليكيا بسطاء في السياسة، ولا

خبرة لديهم ولا يعرفون شيئاً عن السياسة الامبريالية المتآمرة، وعن الدول الاستعمارية التي تخدع الشعوب وتنهش ثرواتها فتجعلها ضحيّة لمصالح تلك الدول وسياستها الإجرامية واللاإنسانية.

في تلك الأيام كان السياسيون الأرمن في كيليكيا وخارجها، يؤمنون بالوعود الحماسيّة التي أغدقتها الشخصيات السياسية في بلدان الحلفاء، ولم يتبيَّنوا حقيقة هذه الوعود وما تؤول إليه من تأمين لمصالح الدولة الامبريالية دون أي اعتبار آخر.

ولا غرابة في ذلك، فقيادات الأحزاب الأرمنية ترعرعت وتثقّفت إيديولوجياً وسياسياً على أيدي أولئك المستعمرين إيّاهم، من أميركا إلى كيليكيا، من اسطنبول إلى مصر وفرنسا... وكان الانغلاق يسود الفكر الأرمني في ذلك الوقت سواءً في كيليكيا أم في خارجها. إن حبّ الوطن أضلّ التفكير وحجب عنه رؤية الحقيقة، وكأني بهم مصابون بالعمى في عقولهم، وقد عُبِّئوا بالتعصب القومي، فلم يقدروا على تلمّس حقيقة الرياح السياسيّة التي تأخذ مجرى مخالفاً لسُفن أحلامهم.

الوضع السياسي ونهج الأرمن في ذلك الوقت

قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها، كان الباب العالي يرتكب بحق الأرمن في أرمينيا الغربية وفي كيليكيا شتّى أعمال الإرهاب ومن غير حدود، كالإهانات القومية والتعذيب والإذلال والضغوط، وصولاً إلى المجازر، وخصوصاً في آخر مراحل الحرب حيث انتشرت المذابح العنصرية الوحشية في الأنحاء كلها. وقد استخدمت السلطة التركية شعارات شوفينيّة سامة وتشويهات قومية، وشعارات دينية إسلامية مزيفة، وذلك سعياً لتعبئة قطاعات من الجماهير التركية كانت غارقة في التخلف، ولدفعها إلى المشاركة في ارتكاب المجازر.

وقد أدت هذه الأعمال إلى استعداد لردّات فعل من جانب الأرمن. وهذه الاتجاهات لدى الأرمن ولدت بفعل تعصب سياسي، ونقص في

الواقعية والرؤية الصحيحة، وبفعل تصريحات من قبل «الحلفاء الامبرياليين» وقيادات هذه الدول التي كانت تغدق الوعود عل جميع الشعوب الخاضعة للاضطهاد العثماني، بمن فيهم الأرمن الذين تلقّوا وعداً «بتأمين مستقبل مشرق لهم بعد الحرب»، وهذا ما أسهم في تضليلهم.

برع الأرمن في الماضي بذكائهم السياسي ولكنهم تحت وقع هذه الظروف فقدوا القدرة على رؤية الحقيقة، غير مدركين أن في السياسة يجب العمل على حسب القدرة المتوافرة.

وساد في تلك الأيام الشعار القائل أنْ لا وجود فاعلاً لأرمينيا ما لم تشمل كيليكيا والولايات الست فضلاً عن أرمينيا المستقلة.

في نادي الطاشناك في أضنة كان المحامي قره بيت أزميرليان من مواليد مدينة حاجن وينتمي إلى حزب الطاشناك، قد ألقى محاضرة قال فيها: «إن مجموع الأرمن لا يكفي لحراسة ولحماية الولايات الست مع كيليكيا إذا انضمت هذه إلى أرمينيا».

عندئذ انبرى الحاضرون في النادي، بمن فيهم أعضاء الطاشناك، إلى مهاجمة المحاضر، ولم يدافع عنه أو يحميه سوى الحارس قره بيت زغفوني (عضو في حزب الطاشناك) حسب شهادة أزميرليان نفسه.

خلال الحرب العالمية الأولى سافرت مجموعة من الطلاب الأتراك من أضنة لمتابعة دراستها في ألمانيا. وفي أواخر الحرب العالمية انضم بعضهم إلى منظمة الشيوعيين الألمان «سبارتاكوس». وكان هؤلاء من أوائل المناضلين الثوريين في تركيا، وبعد عودتهم إلى أضنة أصدروا جريدة «أهنك» باللغة التركية التي نشرت في عددها الأول ـ والأخير ـ رسالة مفتوحة مُوَجَّهة إلى المفكِّرين الأرمن «تدعوهم للتفاهم». السلطات الفرنسية أغلقت الجريدة فوراً بعد إصدار العدد الأول. أما الصحافة الأرمنية من جهتها فقد عارضت هذه الرسالة ورفضت الحوار ورأت فيه «خطراً على المطالب القومية»، وعلى «أمن الأرمن وسلامتهم» .

في تلك الأيام وبواسطة المطران كيفورك أسلانيان قدم الأتراك

عرضاً للقاء أرمني ـ تركي للوصول إلى تفاهم. رداً على هذا العرض قرعت أجراس كنيسة العذراء لوقت طويل مناديةً الأرمن للتجمع في الكنيسة. وامتلأت حديقة الكنيسة بالجماهير وألقيت خطب عديدة من على شرفة غرفة المطران، وكلها ركّزت على رفض أيّ لقاء وتفاهم بين الأرمن والأتراك.

كان من المستحيل الوثوق بحسن نيات الأتراك وبصدقهم في الوصول إلى تفاهم. هذا صحيح، ولا سيما بعد محاولة اتحاد الأتراك المشاركة في الحوار، وفي أعقاب ما حصل من مجازر على يد الأتراك في مرعش وفي سواها من المناطق. لكن الصحيح أيضاً هو أنّ من الخطأ الردّ على هذا العرض بالرفض الحاسم والصارخ. فلقد كتب التاريخ على هذين الشعبين العيش جنباً إلى جنب على أرض واحدة.

كانت القيادات السياسية للأرمن في تلك الفترة لا تزال تؤمن بصداقة فرنسا الامبريالية وتأمل منها تحقيق الوعود السابقة. ولم تلاحظ أن سياسة حكومة باريس أصبحت لمصلحة حركة الكماليِّين، وأنها تستعد لترك الأرمن يواجهون مصيرهم في كيليكيا.

23 نيسان 1920

في تلك الأيام كنت أعيش في الأجواء الوطنية المذكورة أعلاه، وكنت أيضاً أفرح بوعود الحلفاء رغم ميلي للأفكار التقدمية. وفي 23 نيسان 1920 كنت في السادسة عشرة من عمري حين سجلت اسمي في حزب الهنشاك. ونظراً لحداثة سنّي فلم يُقبل طلبي. فتقرَّر إنشاء منظمة طلابية لحزب الهنشاك، وكلفتُ بتنفيذ هذا العمل. استطعتُ إقناع بعض زملائي في المدرسة وهم هاكوب قيومجيان وديران كلايجيان وغيرهما. وبعد وقت قصير تأسست الجميعة ومن مؤسسيها ديران كلايجيان، هاكوب قيومجيان، بادريك ونورمان كنجيان، ميهران سيفيريان، فهان

خورين، ارام يرتسيان وغيرهم. وأصبح مسؤول صفنا بنيامين جامكوتشيان المرشد السياسي للجمعية. وبعد قليل انضم إلى الجمعية همبرتسوم بربريان، ماسيس بانوسيان، بدروس بيكيان، هارتون مزمانيان، إسحاق كودراليان وأبراهام كراجيان وغيرهم.

وكان الاتجاه السائد يميل نحو اليسار ويؤيد ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا. وكثيراً ما كان الحديث يدور عن الكوادر الأساسية لحزب الهانشاك، المؤيدين للاشتراكيين الديموقراطيين الثوريين، وعن الجناح القومي المتطرف.

كان ديران كلاجيان من أهمّ الوجوه في جمعية الطلاب، وقد سافرت معه دوماً من أضنة على طريق كراداش ـ ميرسين، لأتوجه أنا بعدها إلى اسطنبول وهو إلى إزمير حيث مكث عند أحد أقاربه وهو خياط قمصان قرب الكنيسة الأرمنية. وكان غير راضٍ عن وضعه، وجلّ ما يتمنّاه هو أن ينتقل إلى روسيا السوفياتيّة. وكان يراسلني إبّان متابعتي الدراسة في مدرسة بيربريان في اسطنبول. كان ديران شاعراً وقد أرسل لي ذات يوم قصيدة ثورية نشرت في جريدة «يركير» الصادرة في اسطنبول.

كان ديران وعائلته ضحية الخراب الذي حصل في إزمير عند هجوم الأتراك الكماليّين واحتلالها في أيلول عام 1922. لقد نجح في الخروج من البلدة وهرب في مركب صغير على أمل الصعود في سفينة الحلفاء، لكن هذه السفينة الحليفة رفضت مساعدته، وبعد أن ضربوه بأعقاب البنادق رموه في البحر حيث مات غرقاً.

كانت جمعية الطلاب تصدر جريدة شهرية بعنوان «نور سرونت» (الجيل الجديد) وقد ساهمتُ بعدة مواضيع بتوقيعي أو باسمي المستعار «كراك».

وبعد أن منعت الحكومة صدور جريدة الحزب «دافروس» حلّت جريدة «نور سرونت» مكانها بإدارة رئيس التحرير سركيس دخروني.

وما لبثَ مُعظم أعضاء هذه الجمعية أن انضموا لاحقاً إلى الحركات الشيوعية في لبنان واليونان وفرنسا والولايات المحتدة وأميركا الجنوبية.

انتفاضة أيار وتأثيرها في أرمينيا

سنة 1920 كانت تصل أخبار مقلقة من أرمينيا، فقد نشبت الحرب بينها وبين أذربيجان، وكان يحصل في الوقت نفسه تمرد داخلي والفوضى سائدة، والخراب والمجاعة والفقر والأمراض منتشرة في كل حدب وصوب. وناصبت أرمينيا روسيا السوفياتيّة العداء وكانت تركيا على الحدود الغربية، فتحولت أرمينيا إلى جزيرة محاطة بالأعداء من كل الجهات. ورغم كلام المسؤولين القوي في تلك الأيام فقد بدا أن أرمينيا لا تستطيع حماية نفسها ضمن دائرة الأعداء هذه. وعبثاً راحت الحكومة تطرق الأبواب بحثاً عن حماية أجنبية. فلقد رفض الجميع حمايتها.

هذه كانت صورة أرمينيا المحكومة من قبل حزب الطاشناك في تلك الأيام. وكنت أعيش هذه الأجواء متأثراً بالحوادث الجارية حينئذ، وهذه حال كل أرمني. كانت القوات البريطانية موجودة في القفقاس وقد اتخذت موقفاً سلبياً كذلك إزاء أرمينيا وشعبها، ونشبت صدامات وقامت مجازر ضد الأرمن في باكو وغرباغ ولوري، كما أن سياسة فرنسا عرّضت الأرمن للمذابح في مراش بأرمينيا الغربية. ورفعت البعثتان الرسميتان الأميركيتان برئاسة القائد هاسكيل والجنرال هاربيرد تقارير في أرمينيا وفي أراضيها الغربية مناوئة لمصلحة أرمينيا. هذا كله أسهم في إقناع الأرمن أن لا مجال للاعتماد على الحلفاء لحماية أرمينيا .

ماذا سيكون، إذاً، مصير أرمينيا؟

سؤال كان يشغل بال الأرمن في ذلك الوقت. وكان يبعث فيَّ القلق. كيف لا ، وأنا في ريعان تفتّحي وإقبالي عل الحياة السياسية بحماسة لا توصف، يغذّيها تعصّبٌ وطني، حاملاً على منكبيَّ هموم أرمينيا ومصيرها الذي تتقاذفه الأنواء!..

كنتُ في هذه الحالة النفسية عندما حصلت انتفاضة أيار 1920 في أرمينيا، وانتشرت على جناح السرعة في المدن والمناطق. «إنها انتفاضة بلشفية» ـ قيل لي، يومئذ ـ «إنها استكمال لما حصل عند جيراننا الروس!»، إلخ. ورحت أفكِّر في روزنامة الأحداث. قبل سنوات ثلاث كانت ثورة أكتوبر. وبالأمس القريب، في شهر نيسان (1920) قامت أذربيجان بثورتها وأقامت سلطة سوفياتية، بعد أن قلبت حكم «حزب المساواة» المعروف بمجازره ضد الأرمن. هذا الحدث أسعد قلوب الأرمن قاطبة، وأثلج فؤادي. وكان بمثابة مشعل نور يضيء ذهني.. وتوضحت أفكاري وقد رأيت أن انتصار البلشفية في أرمينيا من شأنه أن يوفر لأرمينيا الحماية على يد روسيا البلاشفة، فيضمن الطمأنينة لشعبها.

عرضت أفكاري هذه على أستاذي بنيامين جمكوتشيان، لأنني كنت أؤمن بصدق أقواله، فأكد صحة استنتاجاتي. وكان هذا انعطافاً في تفكيري نحو انتفاضة أيار «البلشفية». ورأيت أن «البلشفية» أي مبادئ ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى هي الطريق الوحيد للخلاص الاجتماعي ولتحقيق العدالة الاجتماعية وهي أيضاً الطريق إلى التحرر الوطني.

كنت ما زلت عضواً في جمعية الطلاب داخل حزب الهنشاك (في تلك الفترة لم يتأسس حزب أو حركة شيوعية في أضنه)، ولكني كنت أميل بكل إحساسي وأفكاري وإيماني نحو البلشفية والشيوعية.

الدفاع عن الحي

في شهر تموز من سنة 1920 قام مسلحون كماليون أتراك بخطف عدة مواطنين أرمن في سوق الخضار بأضنه، ردّ عليهم الأرمن فهرب السكان الأتراك من البلدة، بدافع الخوف من جهة، ومن جهة أخرى بناء لأوامر من مركز الأتراك بشن هجوم على البلدة بمساعدة من الخارج. وهكذا فقد جاء الكماليون معززين بقوات من خارج المنطقة وحاصروا المدينة.

يا للمفارقة المفجعة! فالكماليون يعلنون أنهم يحاربون من أجل الاستقلال الوطني وضد الاستعمار ويعطون أنفسهم صفة تقدمية، وفي الوقت نفسه كانوا يرفضون الاعتراف بحقوق الأرمن الوطنية ويتابعون سياسة قومية متعصبة كسياسة العثمانيين واتحاد الأتراك ويقومون بالمجازر ضد الأرمن، وتقتل قواتهم المسلحة الأرمن الأبرياء العزل من السلاح في كل مكان. وفي هذه الحالة ماذا كان في وسع الأرمن أن يفعلوا غير أن يدافعوا عن أنفسهم؟!

هذه المفارقة المأسوية دفعت الأرمن إلى الاعتماد على الاحتلال الفرنسي لحمايتهم رغم كراهيتهم للامبريالية الفرنسية وسياستها المتآمرة على بني شعبهم.

كان حيّناً يقع في طرف المدينة وجبهة القتال وراء بيتنا حيث صار المسلحون الكماليون يحاولون اقتحام الحي. إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة إلينا. وكان أهالي الحي يدافعون عنه بشجاعة وكنت أشارك في هذه الجبهة إلى جانب والدي .

إعلان «الاستقلال»... والمزحة الدموية

وحدث أنّ ميناس فيراتزين، أحد قادة حزب الطاشناك ورئيس تحرير جريدة «كيليكيا» قام على رأس مجموعة من المسلحين الطاشناك من مدينة موش وأعلن في 2 آب 1921 «استقلال» كيليكيا وذلك في قرية «بويوك كابور» التركية المهجورة، الواقعة على بعد ساعات من أضنه. وقد رفعوا العلم الثلاثي الألوان على سطح أعلى منزل في القرية كعلامة لـ «الاستقلال». عندئذ قامت قوات الكماليين المتمركزة على ضفة النهر الثانية بالهجوم على «معلني استقلال كيليكيا» فقتلوا مجموعة قوامُها مسؤول وأحد عشر عنصراً. بعدها هرب فيراتزين ووصل إلى أضنه حيث قام بإعداد قداس وجناز في الكنيسة لراحة نفوس الشهداء. أما الهدف

المزري لهذه التظاهرة فهو إظهار الطاشناك على أنهم مؤسّسو استقلال كيليكيا.

وقد شهد ذلك اليوم نفسه مهزلة أخرى لإعلان استقلال كيليكيا. فلقد لجأ حزب الهانشاك المنهمك بإعادة تنظيم نفسه، ولم يكن يشكّل قوة ذات شأن، إلى إصدار بيان طُبع على الجيلاتين يعلن فيه، باسم مسؤول مجموعة منه، «استقلال كيليكيا»... «بحماية فرنسا»، وذلك ما بين نهري سيهون وجيهون.

«استقلال» 4 آب

وأصدرت الأحزاب الأرمنية بياناً رسمياً باسم «الجماهير المسيحية» تعلن فيه «استقلال» كيليكيا برعاية فرنسا حسب قول قائد الهنشاك انترانيك كنجيان الذي وقّع هذا البيان وقال إن فرنسا شجعت الأرمن على القيام بهذه الخطوة قبل توقيع اتفاقية سيفْر (Sèvres). وفي يوم إعلان الاستقلال قام شباب من حزب الهنشاك لابسين ربطات عنق حمراء مع قوات أرمنية بقيادة الضابط «ششملنيان» بمسيرة في المدينة وصولاً حتى القصر الحكومي ثم رجعوا. وقد كنت بين هؤلاء الشباب لابسي الياقات الحمراء. عاد الشباب إلى نادي الهنشاك وكانوا سيذهبون مرة أخرى إلى القصر الحكومي حيث كانت الأحزاب مجتمعة لإعلان «حكومة الاستقلال» على الشكل الآتي: مجلس للوزراء برئاسة ميهران دامادیان (رمغافار)، وعضوية قره بت نالبنغيان (هنشاك) وزيراً للتموين والزراعة ـ انترانيك كنجيان (هنشاك) وزيراً للمالية ـ الدكتور مناسغانيان (طاشناك) وزيراً للخارجية ـ الدكتور بيزيان (رمغافار) وزيراً للداخلية و الصحة ـ فاهان جامكوتشيان (هنشاك) وزيراً للدفاع الوطني ـ سيتراك كيبنليان (رمغافار) وزيراً للتربية.

وقد وصل أعضاء هذا المجلس إلى السراي الحكومي راكبين عربة،

و«طردوا» الوالي وحلّوا مكانه بعدما ترك لهم المقرّ، ليتمركزوا «ويمارسوا الحكم»!! لكن اللعبة لم تستمرّ أكثر من ساعة واحدة، إذ بأمر من الكولونيل الفرنسي بريمون، الشديد «الحبّ» للأرمن، وصلت قوة من السنغاليّين إلى السراي وأمر الضابط الذي يقودها حكومة «الاستقلال» بمغادرة القصر وإنهاء هذه المهزلة!

فردّ عليه ميهران داماديان: «نحن هنا بإرادة الشعب الأرمني ولن نخرج من هنا إلّا بقوة الحراب»! عندئذ شهر الضابط سيفه، وما هي إلّا لحظات حتى خرج المجلس من القصر! وهكذا انتهى «استقلال» كيليكيا.

تبلّغنَا هذا الخبر فانتقلنا إلى ملعب مدرسة الأرمن الكاثوليك حيث قمنا بعرض عسكري ثم تفرقنا.

متطوعون للدفاع عن حاجن

بقيت مدينة حاجن محاصرة من قِبل المسلحين الكماليّين الأتراك لعدة أشهر وكانت في طريقها إلى الدمار. وكان الأرمن في حالة حزن فأعدت فرقة خاصة من المتطوعين للذهاب لمساعدة حاجن وكان مركزها في قرية «آخارجا» فتطوعت في هذا الفريق، وفي صباح 23 أيلول 1920 كنت أحضِّر نفسي للذهاب إلى آخارجا عندما سمعنا أن القوات الفرنسية حاصرت القرية المذكورة، واعتقلت جميع العناصر المتطوعة، وأخذتهم إلى مرفأ كاراداش ووضعتهم على ظهر سفينة نقل فرنسية. وبعد أن عاملوهم بقساوة أرسلوهم إلى إزمير واسطنبول.

وقبل انطلاق الفريق حصل خلاف بين المتطوعين، فأعضاء حزب الهنشاك أصروا على أن يكون أرماغانيان قائدهم، فقد حارب تحت قيادة البطل القومي الجنرال أنترانيك، ويتمتّع بالخبرة وهو من الفرسان البارعين، أما أعضاء حزب الطاشناك فأصرّوا أن يكون القائد منهم رغم قلة عددهم. وفي الحقيقة كان أرماغانيان أفضلهم. ولكن مشروع هذا

الفريق كان مستحيلاً وخيالياً ومغامراً. فالمسافة بين أضنه وحاجن أكثر من مئة كيلومتر، وكان المسلحون الكماليون متمركزين في جميع المناطق عبر القُرى التركية، فالفريق في مسيرته إلى حاجن كان سيتعرض لهجمات الكماليين القرويين الأتراك وكان الفريق يتألف من ثلاثمائة عنصر. فكيف كانوا سيتمكّنون من الوصول إلى حاجن؟ ثم في حال وصولهم إليها فما الذي يسعهم أن يفعلوا والمدينة محاصرة والمجاعة خانقة، ولا تصلها أية مساعدة خارجية؟

بعد الصمود البطولي تعرضت مدينة حاجن لهجوم جديد وقوي فلم تستطع أن تصمد أكثر، فدخلها المهاجمون وكان عدد سكانها 8000 نسمة لم ينج منهم سوى 400 مقاتل استطاعوا الانسحاب إلى أضنه، أما باقي السكان فقتلوا جميعاً ودُمرت مدينتهم.

واستطاع سكان حاجن أن يبعثوا برسالة مع عاملة أميركية إلى البطريرك زافين في اسطنبول يعرضون فيها عليه الاتفاق مع الكماليين لإخلاء مدينة حاجن ونقل سكانها إلى مدينة سيس. كانت اسطنبول تحت احتلال الحلفاء. وبعد سقوط مدينة حاجن في 15 تشرين الأول 1920 اتهم البطريرك زافين بعدم الاكتراث لاقتراح أبناء حاجن، وبعدم إيلائه الاهتمام الكافي. وحصلت خلافات ومناقشات عديدة حول هذا الموضوع في المجلس الوطني الأرمني وتناقلته الصحف.

إلى اسطنبول

كان أبي أمياً. ولكنه كان متّقد الذكاء، بعيداً عن تأثير التقاليد الدينية. وكان يأسف لأميّته ويعاتب أباه لعدم إرساله إلى المدرسة. ولقد أصبح يتحرّق إلى توفير أعلى مستوى من العلم لولده. وشاءت الظروف أن يتاح له تحقيق أمنيته. وكانت هذه هي أمنيتي أيضاً، وهكذا، ارسلني إلى اسطنبول للدراسة.

قبلها كنت قد أنهيت الصف السادس في مدرسة أبكاريان في أضنه، وأكملت تحصيلي في مدرسة صيفية كان مديرها بنيامين جامكوتشيان في المدينة نفسها.

في آب 1920 فكت قوات الكماليين الحصار عن أضنة. وفي أواخر شهر أيلول قررت عائلتي أن أذهب إلى اسطنبول.

كانت سكة الحديد الموصلة بين أضنه وميرسين (مدينة رئيسية ولها مرفأ) قد تعرضت للتخريب على يد قوات الكماليين وتلاشت فيها الحركة. فسلكتُ طريق كراداش؛ وكراداش مرفأ على بعد 40 كلم من أضنه، وكان برفقتي ديران كلايجيان الذاهب إلى إزمير، وبعد يومين أبحرنا على باخرة صغيرة إلى ميرسين ومكثنا فيها عدة أيام. بعد سفر طويل على ظهر باخرة إيطالية وصلت إلى اسطنبول وكان ديران قد نزل على شواطئ إزمير.

في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الأول 1920، وصلت إلى اسطنبول فقصدتُ منزل أحد أبناء أضنه، ممّن يقطنون اسطنبول ومعي رسالة توصية. أخذني إلى مدرسة بربريان الثانوية في شارع سلامسز في إسكودار، وسُجِّلتُ في الصف الأول في 13 تشرين الأول. كان مدير المدرسة شاهان بربريان، نجْل مؤسسها ريطيوس بربريان، وناظر المدرسة أرميناك بغدتليان، أما مسؤول صفنا فهو سورين باباخيان الذي أتى إلى لبنان في وقت لاحق ومارس مهنة التعليم ثم رسم كاهناً وغادر إلى الولايات المتحدة (ديترويت) وكان أستاذ الرياضة الشاعر ماتيوس زاريفيان وقد كان في ذلك الوقت مصاباً بداء السل.

كان المناخ الوطني هو السائد في المدرسة، وهذا ما اتَّسمت به منذ تأسيسها. وجاء نبأ دخول جيوش الكماليين إلى أرمينيا واحتلال محافظتي كارس والكسندرابول، ليحمل الغمّ واليأس إلى المدرسة ومَنْ فيها. المدير والمعلمون والطلبة تكوَّنت لديهم قناعة جماعية مفادها أن السبيل الوحيد لخلاص أرمينيا هو انتصار النظام السوفياتي فيها.

ساعدني في الأيام الأولى من السنة الدراسية تلميذ في صفي اسمه أسديك كالطاكيان، من «شاناك قله» الواقعة على نهر الدردنيل، يعرف أبي من أضنه. وساعدني أيضاً أرداشيس ترزيان الذي تابع دراسة الهندسة الكهربائية في ألمانيا ثم انتقل إلى أرمينيا السوفياتية حيث أصبح هو المهندس الرئيسي في بناء محطة توليد الكهرباء في يريفان، وقد التقيته هناك في العام 1935.

تأقلمتُ بسرعة مع جو المدرسة وصادقت التلاميذ كلّهم تقريباً، وانتُخبتُ عضواً في الهيئة المسؤولة عن الصف وعُيّنتُ أمين الصندوق. وشاركت في تحرير جريدة الصف (إرادة) (كامك)، وكانت تُطبع على الجيلاتين، إلى جانب أسديك كالطاكيان، ينوارت اندرسيان أردو، سركيس تشاوشيان، وغيرهم. وكنت أكتب الشعر باسم مستعار، وهو (كافاراتسي) أي (ابن الريف)، وأشارك في جميع نشاطات المدرسة، وينادونني بـ«هاي فورتي» «ابن الأرمن». وقد عُرف عنّي آنذاك ميلي إلى روسيا السوفياتيّة وتأييدي لانتصار النظام السوفياتي في أرمينيا، فعُرفتُ أيضاً بالبلشفيك.. رغم أنني كنت رسمياً عضواً في حزب الهنشاك لكن قناعتي السياسية كانت بلشفيّة وقد جمعتني صداقة متينة مع «زاريه فوربوني» الذي أصبح فيما بعد كاتباً مشهوراً. وكان زاريه يصدر جريدة جيلاتينية باسم «غانطيغ» وكان ارداشيس بربريان أعز اصدقائي في المدرسة من مدينة روسي في بلغاريا، وكان في ذلك الوقت عضواً في الحزب الشيوعي البلغاري. وشاءت الأقدار، بعد ستين سنة من افتراقنا ان نعود و نلتقي في صوفيا في سنة 1979.

وهكذا كان لي ثلاثة أصدقاء أعزاء، هم أرداشيس تيرزيان، نزاريت أندونيان من مدينة مانيسه في منطقة إزمير ـ وقد مات جوعاً في اليونان خلال الحرب العالمية الثانية ـ وكريكور مومجيان من تفليس (جيورجيا) وهو درس كيمياء الجلد في فرنسا ثم عاد إلى يريفان واشتغل في معمل للجلد.

ها أنا أنخرط في الحياة السياسية

تعلقت بالحياة السياسية وبدأت أتابعها يومياً بشغف، خصوصاً الأمور المختصة بروسيا السوفياتية وأرمينيا السوفياتية. وكنت أطالع بشكل دائم جريدة «يركيد» اليومية الناطقة باسم الهنشاك وذات الميول اليسارية والتقدمية التي تدافع عن روسيا السوفياتية، وكان يساهم بسياسة هذه الجريدة الرفيق بيديك طوروسيان أحد قادة الحزب الشيوعي في أرمينيا، المقيم في اسطنبول بقرار من الحزب على أثر فشل انتفاضة أيار 1920 البلشفية في أرمينيا والتي شارك فيها. وكان يحرر المقالات بإمضاء بيديك. وقد مارس مهنة التعليم في اسطنبول في مدرسة «يديكولا» الأرمنية للأيتام. وكنت أفرح بالانتصارات التي يحققها الجيش الأحمر على جنرالات القوى المعادية للثورة، وعلى جيوش التدخل الامبريالي الغريب.

بدأت عملي السياسي خارج المدرسة في جريدة «يركيد» حيث حضرت كتلميذ من حزب الهنشاك من أبناء أضنه، وتعرفت إلى قادة حزب الهنشاك في ذلك الوقت: هرانت كيليكيان رئيس التحرير، يراونت تشوبوريان صاحب الامتياز، ستراك كاريان وجيرار ميرزاخانيان وليفون كاند. هؤلاء القادة كلهم، ما عدا ستراك كاريان، انتقلوا إلى أرمينيا السوفياتية بعد دخول القوات الكمالية اسطنبول ومنع صدور جريدة «يركيد» عام 1922. ومارس هؤلاء القادة مسؤوليات حكومية في أرمينيا السوفياتية.

ذات يوم قرأت في جريدة «يركيد» إعلاناً يدعو أعضاء الجمعية الطلابية لحزب الهنشاك للاجتماع، فذهبت إلى مكتب الجريدة ومن هناك أخذت إلى مكان الاجتماع الذي عُقد في الطبقة الأولى من مقهى في حيّ «كوم كابو»، ينتمي صاحبه إلى حزب الهنشاك. وانتُخبت رئيساً للاجتماع، وكان الجميع من أنصار سياسة بيديك طوروسيان. أما

الموضوع الرئيسي للجلسة فقد تركّز على إصدار مجلّة شهرية للجمعية الطلابيّة باسم «نور كايدز» (الشرارة الجديدة)، وهي المجلة التي كتبَ «بيديك طوروسيان» في عددها الأول مقالاً بتوقيع: «بيديك». ولم يصدر من المجلة سوى عددين اثنين، إذ منعت إصدارها الرقابة التابعة لجيش الحلفاء الذي يحتل اسطنبول.

إلى ذلك، فقد تضمّن جدول أعمال الاجتماع الموضوع التنظيميّ.

وتوطّدت علاقتي داخل الجمعية الطلابية للهنشاك مع مهران مظلميان الملقب بـ «تغسانيك»، وكان يكتب الشعر. شارك في العام 1923 بالانتفاضة المعادية للفاشيّة في بلغاريا ثم انتقل إلى فرنسا وانتسب إلى الحركة الشيوعية، وبقيتُ على اتصال به حتى أواخر العام 1925.

بيديك طوروسيان، خذني إلى الشيوعية

بعد الانتهاء من دروسي كنت أهتم بالمطالعة، فكنت أشتري الكتب مما تبقى من مصاريفي المدرسية، وقد اشتريت كتب رافي، وفاروجان وسيامانطو، وسمباد بوراد، كما كنت أشتري الروايات اليونانية والرومانية الكلاسيكية الصادرة بالأرمنية، وكتب أرمين شيرانيان الوطنية وكتب فيكتور هوغو وغوته وشيلر، وكُتّاب «الاشتراكية» لأرنست أونترمان. ولم يكن للكتب الماركسية أي وجود باللغة الأرمنية، وكنت أركّزُ بصورة خاصة على مطالعة كتب الأديب رافي.

في عام 1920 وصل أرام أسبيد إلى اسطنبول وقد كنت أعرفه من أضنه، جاء إلى اسطنبول لطبع «روزنامة كيليكيا» وقد نَشرت فيها بعض قصائدي. وكان أرام عضواً في حزب الهنشاك وكان أبوه من كوادر الهنشاك وقد شنق في غيساريا (قيصرية) عام 1915. كان أرام يميل لليسار وعلى صلة ببيديك طوروسيان.

في العام 1922 تعرفتُ إلى بيديك طوروسيان وذلك بواسطة أرام

أسبيد، وكان بيديك على صلة بقيادة الحركة الشيوعية في اسطنبول وعلى علاقة دائمة مع قيادة حزب الهنشاك. كانت علاقتي حميمة مع بيديك طوروسيان منذ اليوم الأول لتعارفنا، وبواسطته تأمنت صلتي بالحركة الشيوعية وانتسابي إليها.

كنت ألتقي الرفيق بيديك في منزله بقرية «أرناؤوط كوي» على مقربة من روبرت كوليج في اسطنبول. وتستقبلني سيدة قال بيديك إنها شقيقته. وعندما التقيته في يريڤان عام 1935 كان قد تبوّأ منصب النائب العام في جمهورية أرمينيا السوڤياتية.

في ذلك الوقت كنت أتردد إلى مطبعة «هيربنيك» (الوطن)، وهي مطبعة أرمنية تقع في شارع الباب العالي في اسطنبول فألتقي هناك عمالاً وعاملات في معمل للسجائر، وشابين من الأتراك الشيوعيين قدّما لي نسخة من «جريدة الشاب الشيوعي». «كانج كومونيست»، طباعة جيلاتينية وفيها صورة لمجموعة سجناء شيوعيين، وقد أحضرت معي هذه الجريدة إلى بيروت.

تجربة شعرية... في رزنامة كيليكيا

في كانون الثاني عام 1922 طبع في اسطنبول «رزنامة كيليكيا» ونُشرت فيها أول تجربة لي مع الشعر حاولت أن أعبّر فيها عن إحساسي وانتمائي السياسي والفكري:

أختي أعطتني قيثارتي

«أختي أعطيني قيثارتي
أعطيني قيثارتي لأغني أغانيَّ
ظلم جديد في عصر جديد
أعطيني قيثارتي لا تخافي

أغانيَّ ليست أغاني للقتال وليست للحزن والثأر
لأنني نذرت نفسي أمام
المذبح المقدس، لأهدافي الحمراء،
للأخوة وللمحبة.
لن أغني ولن أغنّي للكراهية
وللحزن، للتفرقة وللحقد
ولن أغني الأغاني المسمومة السوداء
سوف أغني للأخوّة. للحرية
المقدسة، وللمحبة والحياة..
للغد المشرق وللعمل البناء.
يا أختي أعطيني قيثارتي
أعطيني لأغني أغانيَّ
أنا يا أختي نذرتُ
أن أغني بقيثارتي لأرحِّب
بالنظام الجديد والنور
الجديد وللغد المشرق».

إنهض يا أخي

«إنهض يا أخي، انهض بسرعة
كفى نوماً، سنوات وقروناً!
انهض يا أخي، انهض كفى!
انهض، الشمس تشرق من شمالنا، من الشمال الكبير
المستقبل بين يديك!
قم أسرج حصانك،
إنه قرب الشجرة بانتظارك

انهض، مدّ يدك إلى الاشتراكي
العلم الأحمر يرفرف عالياً
انهض وأرخِ لجوادك العنان
وبارزْ بفخر الأنظمة الشريرة
وتقدّم بسرعة باتجاه الشمس المشرقة
باتجاه انتصار الخير!
انهض يا أخي، انهض يا عامل
أشْرَقَ يوم السعادة».

صيف أضنه الغامض

أمضيت عطلة صيف 1921 بين أهلي في أضنه، ثم عدت إلى المدرسة في اسطنبول. كان الوضع السياسي في أضنه غامضا ومستقبل الأرمن غير معروف، ولا أحد كان يفكّر في ذلك المصير المظلم الذي ينتظرهم.

فحزب الهنشاك كان قد ضعف بسبب الخلافات الداخلية وتُرك أمر الإهتمام بالحزب وبإصدار جريدة «نور سيرونت» (الجيل الجديد) للشاب سركيس دخروني دون سواه.

وفي طريق العودة إلى اسطنبول التقيت ديران كلايجيان الذي كان يشعر بالاشمئزاز واليأس وماكار كيبجيان ومجموعة من اليساريين الهنشاك الذين تركوا الحزب وأسّسوا فرقة شيوعية.

صيف 1922 في بيروت

في أواخر عام 1921 انتقل أهلي إلى بيروت. فبعد انسحاب الجيش الفرنسي، دخل الجيش التركي، وفرض خلال فترة الاحتلال الفرنسي لمنطقة كيليكيا تصاعد العداء بين الأرمن والأتراك إلى الذروة على أساس

شوفيني ومن منطلقات عرقية، وإلى درجة بات معها من المستحيل بقاء الأرمن تحت قبضة الحكم التركي العائد. ورحل الأرمن خوفاً من المجازر العنصرية المؤكدة الحدوث.

في ظل هذه الظروف وصلتُ إلى بيروت في شهر تموز 1922 لتمضية عطلة الصيف عند أهلي. أعضاء المنظمة الطلابية لحزب الهنشاك الذين تهجَّروا من أضنه إلى بيروت أعادوا تأسيس جمعيتهم. واشتركت في الاجتماع التأسيسي وانتخبت سكرتيراً للجمعية. وهذه الأخيرة لم تكن طلابية إلّا من حيث التسمية، ففي الحقيقة كانت غالبية أعضائها من العمال الشباب وكانت تعقد اجتماعاتها كل يوم أحد للبحث في المسائل السياسية والإيديولوجية وإلقاء محاضرات، ومناقشة مختلف المواضيع وتبادل الآراء وبحث الأعمال الأدبية الصادرة عن بعض الأعضاء.

كنت أشارك بشكل فعّال في المواضيع السياسية والإيديولوجية. وألقيت بعض المحاضرات مدافعاً عن ثورة أكتوبر في روسيا وعن الأممية الشيوعية الثالثة (الكومنترن)، وأكّدتُ على حتمية انتصار الثورة الاشتراكية. وكنت أطرح القضايا السياسية والإيديولوجية والاجتماعية ليس من منظار قومي ضيق، بل على أساس نظرية النضال الطبقي وكان غالبية أعضاء الجمعية الطلابية من مؤيدي هذا الاتجاه.

إلى اسطنبول.. إلى الرعب!!

رغم كل ما حصل كانت أمنيتي أن أعود إلى اسطنبول لمتابعة دراستي، ولكن أبي كان يصر على أن أتابعها في بيروت. وفي النهاية وافق الوالد على سفري. في الثامن من أيلول 1922 ركبت سفينة «شامبوليون» الفرنسية، وفي ساعات بعد الظهر غادرت وأصبحت بعيدة عن المرفأ، وعندئذ قام قبطان الباخرة بتهنئة مجموعة من الحجاج الأتراك العائدين من مكة قائلاً: «أهنئكم بانتصار جيش الكماليين واحتلالهم إزمير»!

وما إن وصلنا إلى محاذاة شواطئ إزمير حتى رأينا المهجرين يغادرون البلدة على متن سفن صغيرة هاربين إلى الجزر اليونانية القريبة.

وأخيراً، ها نحن في اسطنبول. الأتراك يحتفلون ويمرحون لانتصارهم. كان الجو متوتراً، وكانت المؤسسات اليونانية وجميع الفئات غير التركيَّة تتعرّض للهجمات.

وصلت إلى المدرسة بصعوبة. بدأت الدراسة وكان بين الأساتذة غوسطان زاريان .

وما لبث جيش الكماليين أن دخل بسرعة اسطنبول بغية الانتقال إلى تراقيا، ثم تمركز في اسطنبول. سيطر الرعب على المدرسة. مدير المدرسة شاهان بيربريان غادر مع عائلته على ظهر باخرة رومانية. وبدأ التلاميذ يتفرّقون في كل اتجاه. مجموعة منهم سافرت إلى ألمانيا للدراسة نظراً لانخفاض قيمة المارك الألماني في تلك الفترة فتغدو المعيشة رخيصة بالنسبة إلى الطلاب الأجانب. بعض هؤلاء الطلاب تخرجوا مهندسي كهرباء وبناء، وعادوا إلى أرمينيا السوفياتية. منهم أرداشيس تيرزيان ودكران مارغايان وغيرهما. الأساتذة أيضاً تركوا المدرسة وتوقفت الحياة المدرسية. وقام شاهان بيربريان عند تركه المدرسة بتسليم الإدارة إلى مسؤول الأساتذة ب.ب.تاشجيان.

وفي هذه الظروف اتصلت ببيديك طوروسيان الذي كان يعدّ نفسه للذهاب إلى أرمينيا السوفياتية. واتفقت معه على أن أذهب أيضاً إلى أرمينيا فأبقى هناك نهائياً. وكانت هويّتي لبنانية، فاستلمت من السفارة الفرنسية تأشيرة للدخول إلى باطوم وكنت بانتظار السفينة الإيطالية «بيرسيا» الآتية من باطوم لأنها السفينة الوحيدة التي تسافر إلى هناك، ولكنها لم تستطع العودة. السلطات السوفياتية منعتها لأنها نقلت بين المهجرين بعض العملاء الإنكليز فعلم السوفيات بالأمر وألقوا القبض عليهم، وأجبروا المهجرين على العودة إلى اسطنبول على ظهر سفينة «بيرسيا» وأغلق مرفأ باطوم موقّتاً.

ارتبكتُ واستشرت الرفيق بيديك، وأخيراً قرّرنا أن أعود إلى بيروت عند أهلي. وفي شهر تشرين الثاني عام 1922 وعلى ظهر سفينة «بورميدا» الإيطالية وصلت إلى بيروت بعد سفر طويل، وكان كيفورك شاطالباشيان على السفينة أيضاً.

في الساعات الأخيرة قبل سفري التقيت يتوارت تشوبوريان الذي كان يستعد للسفر إلى أرمينيا السوفياتية. فطلب مني أن أنقل معي مكتبة ومطبوعات الجمعية الطلابية لحزب الهنشاك إلى بيروت. ولكن لم يبقَ لديّ الوقت الكافي لنقل المطبوعات إلى السفينة فأخذت معي مشروع إرفورد[1] وأعداد ستّ سنوات من جريدة «جايتز» (الشرارة) وجريدة «هنشاك» (مجموعة «هنشاك» كانت في منزل بنيامين جامكوشيان). وأيضاً حملت عدة نسخ من خطاب لينين في المؤتمر الثالث للكومسومول وقد طبع هذا الخطاب في كُرّاس.

بعد وصولي إلى السفينة علمت أنها سوف تتأخر في الإبحار. فبعثتُ برسالة عاجلة إلى تشوبريان لإرسال كتب الجمعية الطلابية إلى السفينة. فوصل صندوق آخر من الكتب. ولكن عندما فتحته لاحقاً وجدتُ أنه يحوي كتاب فارت ميخاك «كارانغليان»: «انسحاب زيتون الأخير»، مع توصية بإرساله إلى المؤلف إلى حلب حيث كان يسكن هناك. وأحضرتُ معي أيضاً إلى بيروت مجموعة مهمة من المطبوعات الشيوعية باللغات الفرنسية والأرمنية والتركية، بينها أعداد من جريدة «لومانيته» للحزب الشيوعي الفرنسي «لاكورسبونداس انترناسيونال» (المراسلة الدولية)، و«أنترناسيونال كومونيست»، ومجلة «انترناسيونال روج» (الأممية الحمراء) وجريدة «موسكو» الصادرة في موسكو بالفرنسية، وكتب بالأرمنية صادرة في موسكو وكتاب لينين «الامبريالية...»، المترجم إلى اللغة الفرنسية...

---

(1) نشرة نقديّة لبرنامج الحزب الاشتراكي الديموقراطي في ألمانيا، تعالج برنامج الحزب الذي أقرّ في مدينة إرفورد.

ودون أية صعوبة استطعت إدخال جميع هذه الكتب الشيوعية إلى بيروت عبر جمارك المرفأ، لوجود مراقب أرمني من أضنه صديق لوالدي ومن زبائنه المقرّبين.

بعد عودتي استلمت مركزي كسكرتير للجمعيّة الطلابية لحزب الهنشاك، وكان معظم أعضاء الجمعية يميلون لليسار ويدافعون عن الأممية الشيوعية الثالثة.

في كانون الثاني 1923 جرى احتفال لمناسبة ذكرى تأسيس الجمعية الطلابية لحزب الهنشاك في قاعة الصغار في باحة كنيسة سورب نيشان بمحلة زقاق البلاط، وألقيت كلمات من قبل انترانيك كانجيان، فاهرام أرزوني وك.فايكيان وأنا.

كان موضوع خطابي طرح خط الكومنترن والدفاع عنه. وقد نشر الخطاب في جريدة «الصحافة السورية» «سورياكان مامول» التابعة لحزب الهنشاك التي تصدر في مدينة حلب، وذلك في عددين متتاليين في الشهر نفسه.

خلية شيوعية عام 1923

في مطلع عام 1923 بعثنا برسالة إلى مكتب تحرير جريدة «لومانيته» مطالبين بتزويدنا بالصحيفة. وكان هذا الطلب موقعاً من قِبل الخلية الشيوعية بأسماء أرتين مادويان، أرام يرتسيان، ڤاهان يرتسيان، وبادريك كينجيان. وكجواب على رسالتنا استلمنا بشكل منتظم جريدة «لومانيته» وكمية مهمة من المطبوعات الماركسية والشيوعية، منها «رأس المال» لكارل ماركس و«أنتي دوهرينغ» لأنجلس و«بؤس الفلسفة» لماركس، و«البيان الشيوعي» وكتب لينين باللغة الفرنسية وكتاب بوخارين «ألف باء الشيوعية». واستلمنا أيضاً صحيفة «بانفور» (العمال) الصادرة في أميركا وصحيفة «كارميرا رشالويس» (الفجر الأحمر) الصادرة في بلغاريا، وهما

صحيفتان شيوعيّتان. كان الأديب أنترانيك كينجيان من حزب الهنشاك صديقاً حميماً لي، وكان لديه اطلاع واسع وأحضر معه من اسطنبول مجموعة مهمة من الكتب والمطبوعات وكان من قُراء جريدة «لومانيته» والمطبوعات الشيوعية التي كانت تصل إلى الخلية. كان يدافع عن روسيا السوڤياتية بثبات، ولم يعارض توجهنا بل ساهم في تغذية أفكارنا اليسارية واتجاهنا الشيوعي، وكان في الوقت عينه وفيّاً لحزب الهنشاك.

استلمنا عام 1923 من أميركا كتاب لينين «الدولة والثورة»، «والبيان الشيوعي» باللغة الأرمنية ترجمة ف.ديريان.

بداية حياتي الجامعية ونهايتها

بعد عودتي إلى بيروت ساعدني أحد زبائن أبي وصديقه، الرجل الطيب الدكتور استيفان كارلو، في الدخول إلى جامعة القديس يوسف الفرنسية. وقد قُبلت في الدروس التحضيرية التي تعدّ الطالب لامتحانات الدخول إلى الجامعة. ونجحت في الدخول إلى كلية الطب في الجامعة حيث تابعت دراستي حتى 26 كانون الثاني عام 1926 حيث اعتُقلت وسجنت لأنني شيوعي. وهكذا انتهت حياتي الطلابية. أما الدكتور استيفان كارلو فأصبح من أصدقاء الحزب، وبقي صديقاً عزيزاً لعائلتنا، وهو أرمني من رودوستا من عائلة كارايان.

مولود شيوعي طليعي: إنه منظمة «سبارتاك»

بدأت الأعمال السياسية والإعلامية والفكرية للجمعية الطلابية لحزب الهنشاك تعطي ثمارها.حان الوقت لتأسيس منظمة شيوعية. ففي مطلع 1924 تأسست منظمة «سبارتاك» الشيوعية بمبادرة مني، وقد اشترك في تأسيسها أكثرية أعضاء الجمعية الطلابية بالإضافة إلى تلاميذ آخرين وعمال شباب لم تكن لهم أية صلة مع أية منظمة أخرى.

في 8 كانون الأول 1925 بعثت منظمة سبارتاك برسالة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا السوفياتية[1]. وكانت على الشكل الآتي:

«كون منظمتنا متألفة من أعضاء بروليتاريين، وإن كانوا عمالاً أو طلاباً أو موظفين، اختارت لنفسها هدفاً وهو جعل المنظمة قوة مكافحة في الأممية البروليتارية في الشرق تحت لواء الكومنترن، وذلك لجمع الشباب في المنطقة وتنظيمهم وتثقيفهم على إيديولوجية الكومنترن وتكتيكه على قاعدة طبقية. وقد أجبرتنا الظروف على تسمية المنظمة بـ «سبارتاك» وليس بالمنظمة الشيوعية، لأسباب محلية ولعدم وجود حزب شيوعي محلي. ونحن كلاجئين هنا قد اعتمدنا هذه التسمية كي لا تسعى القوى المغرقة في رجعيتها إلى ضرب تحركنا منذ البداية ومحاربتنا على الصعيدين الوطني والديني وتحريض العمال المحليين علينا، ونحن الآن على صلة مع الحزب الشيوعي الفرنسي ومع فريق العمل الأرمني».

وقّع هذه الرسالة أرام يرتسيان كرئيس وأرتين مادويان كسكرتير.

أما سبب اختيارنا لاسم «سبارتاك» فيعود لكون الكومسومول «الشبيبة الشيوعية» في أرمينيا عملت تحت هذا الاسم سابقاً. وأيضاً لأن الحزب الشيوعي الألماني كان قد عمل في السابق تحت اسم سبارتاكوس.

وبعد وقت قصير من إرسال الرسالة استلمنا رسالة تهنئة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي تُحيي تأسيس منظمة «سبارتاك»، وقد وقّع هذه الرسالة لوي سيلييه أمين عام الحزب في ذلك الوقت.

واستلمنا أيضاً رسالة تهنئة من منظمة الكومسومول في أرمينيا السوفياتية، موقعة من قِبل السكرتير العام للكومسومول كوميدين، وكانت الرسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة وتقع في ثماني صفحات، وفيها نصائح

---

(1) حصل المؤلف عل نسخة من هذه الرسالة من أرشيف الحكومة في أرمينيا السوفياتية. والنسخة (بالأرمنية) موجودة لديه.

للعمل الجماهيري، كما أشارت إلى ضرورة النضال ضد القوى اليمينية في الأحزاب الاشتراكية.

وأصدرت منظمة «سبارتاك» مشروعاً سياسياً وزعته في المدينة وفي الأحياء الأرمنية.

تأسس فرع لسبارتاك في زحلة بمبادرة من هايكازون بوياجيان وباشتراك خمسة عمال آخرين، وفرع آخر في حلب بمبادرة عامل الطباعة ماسيس بانوسيان، وستراك هايكازيان وستيبان كافافيان وحوالى 15 عاملاً. وفرع آخر في منطقة جبل موسى بمبادرة من ستراك هايكازيان ومشاركة أغوب دير بدروسيان وبانوس أرامايسيان وغيرهم، وفرع في الموصل بمبادرة هايكازون كاسكانيان وباشتراك خمسة أعضاء. وكانت صداقتي مع كاسكانيان تعود إلى الفترة التي كان فيها بالميتم الأميركي للأرمن في أنطلياس ، وقد ساهم لاحقاً في مساعدة الحزب الشيوعي العراقي .

وكنت أعرف ماسيس بانوسيان من أضنه وقد انتقل لاحقاً من حلب إلى القاهرة واشتغل في جريدة «آريف»، ونظم خلية شيوعية وقد اعتقل وأبعد إلى أوديسة ثم انتقل إلى أرمينيا والتقيته عام 1935 في يريڤان.

في المرحلة الأولى من تأسيس منظمة سبارتاك أعرتُ اهتماماً للأعمال الفكرية والسياسية بين الشباب والعمال ولاستقطابهم إلى صفوف المنظمة وتثقيفهم فكرياً وسياسياً وتنظيمياً.

قوبل إنشاء منظمة سبارتاك بردّ فعل عنيف من قبل الطاشناك وصحافتهم. فجريدة «بونيك» التابعة لهذا الحزب والصادرة في بيروت هاجمت منظمة سبارتاك مستغلّةً رسالة مرسلة من قِبل المنظمة نُشرت في جريدة أرمينيا السوڤياتية، مُحَرِّفةً محتوى الرسالة في محاولة للإساءة إلينا.

وفي اسطنبول هاجم مانوك أصلانيان رئيس تحرير جريدة «مارمارا»، منظمة سبارتاك وذلك في عددين من الجريدة.

من أعضاء منظمة سبارتاك في بيروت الذين انضموا إلى صفوف

الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا، كان كل من: أرتين مادويان ـ أرام برتسيان ـ أفاديس كنتوني ـ أفاديس كوشكريان ـ ميكايل انانيكيان ـ بيدروس بارديزبانيان ـ أرميناك أفاريان ـ فوسكان أوهانسيان ـ إسكندر كيريان ـ خاتشيك بابازيان ـ هايزافاك مامشيان ـ دكران ألطونيان ـ ساهاك ألطونيان ـ أوهانس ماجاريان ـ ميكايل كشيشيان ـ كيفورك تيكاهاغوبيان ـ شاوارش مهرانيان ـ كيفورك كراخانيان ـ هوفسب كريكيان ـ بيدروس بوغوصيان ـ «شاتول» يساي، كيراكوس اتشاباهيان ـ أريس أتشاباهيان ـ كريكور تاتيان ـ كراليان ـ قره بت أرزومانيان ـ لوهوفيت دمرجيان (الأسماء الثلاثة الأخيرة لطلاب في الجامعة الأميركية)، العامل ميناس، وعشرات آخرين، يؤسفني أنني نسيت أسماءهم. وكان الأعضاء من العمال، وكثيرون منهم تخرّجوا من دار أيتام «كالاكيان» للجمعية الخيرية، أو الميتم الأميركي في أنطلياس وجبيل وميتم الأرمن الكاثوليك ومعظمهم من فان ودرثيول.

تأبين الرفاق أ.مياسنيكيان، ك.اطاربيكوف وس.ك.موكيلفسكي

في 22 آذار 1925 استشهد في حادث طائرة في تفليس أمين عام الحزب الشيوعي في أرمينيا، أول رئيس وزراء في أرمينيا السوڤياتية وأمين عام اللجنة المركزية للأحزاب الشيوعية في جمهوريات القفقاس السوڤياتية، الوطني الكبير الرفيق الكسندر مياسنيكيان. استشهد معه الرفيق المناضل كيورك أطاربيكوف الذي لعب دوراً حاسماً في القضاء على القوى المضادة والمتآمرة على الثورة السوڤياتية، ومساعده الرفيق س.ك.موكيلفسكي من جيورجيا.

فور وصول نبأ استشهادهم قرَّرت منظمة سبارتاك إقامة احتفال تأبيني لذكراهم. هذا القرار الجريء لسبارتاك اعتمد على المودة التي تربط

الأرمن في المخيّمات، وخصوصاً في المخيم الكبير في بيروت، بأرمينيا السوفياتية والرفيق الكسندر مياسنيكيان.

قررنا إقامة الاحتفال التأبيني في باحة المدرسة التابعة لكنيسة سورب نيشان في زقاق البلاط. وكانت كنيسة سورب نيشان آنذاك تابعة لأبرشية القدس وبرعاية الأرشمندريت سورين كمهاجيان، الرجل النزيه الوطني من اسطنبول (أصبح مطراناً بعد عودته إلى القدس).

وجهنا كتاباً رسمياً باسم سبارتاك إلى الأرشمندريت راعي الكنيسة طالبين موافقته على قرارنا. وقد وعدنا بالإجابة بعد التفكير في هذا الموضوع.

كان موقفه إيجابياً لكنه تردد بقول نعم خصوصاً بعد أن استشار ابن مدينته، المفكر المحافظ ميكايل شامدانجيان. وثمّة سبب آخر لتردده، وهو ضغط الطاشناك ووجود ناديهم قرب الكنيسة.

في ظل هذه الأجواء ذهبت مع الرفيق أفاديس كانتوني لزيارة الأرشمندريت وأبلغناه القرار النهائي لسبارتاك بإقامة الحفل التأبيني في باحة الكنيسة يوم الأحد في العاشر من أيار.

وتقرر إصدار منشور يدعو الشعب للمشاركة في هذا الاحتفال، ووزع المنشور بكثافة في الأحياء والمخيمات الأرمنية. في الصباح الباكر من يوم الاحتفال علّق المنشور على جدران باحة الكنيسة وفي المناطق المجاورة، وقد لصقنا أفيشات كنتُ قد حضّرتها بنفسي.

معركة أمام كنيسة زقاق البلاط

جئت في الصباح الباكر إلى باحة الكنيسة للقيام بأعمال التحضير مع مجموعة رفاق من «سبارتاك» بينهم أفاديس كانتوني، وأفاديس كشكريان، وكان معنا عامل زنكوغراف من حزب الهنشاك، الصديق كيفورك كشيشيان. وبينما كنا نقوم بعملنا حضر إلى باحة الكنيسة حوالى أربعين

عنصراً من حزب الطاشناك مسلحين بالعصي ينتمون إلى القوى الإرهابية لحزب الطاشناك، وكان بينهم أرام ساهاكيان، بيدروس كابلانيان، إملوس، سرجنت ساهاك، المصور هارتيون وغيرهم.

كان هدفهم واضحاً: إفشال الاحتفال. وكنا ننتظر منهم هذا العمل لكننا وقعنا في الخطأ عندما اعتقدنا أن هجومهم سيقع بعد الساعة العاشرة، ذلك أن جريدتهم «بيونيك» ضللتنا فوجهت دعوة لأعضاء حزب الطاشناك للاجتماع في الساعة العاشرة في مركز الحزب قرب كنيسة سورب نيشان. وفي هذا الوقت يكون جميع رفاقنا وأصدقائنا قد حضروا وبإمكاننا مواجهتهم. لهذه الأسباب بقي العدد الأساسي من رفاقنا في المخيم لتعبئة الجماهير والدعوة للمشاركة في الاحتفال. لكن اعتقادنا لم يكن في محله.

كانت الأجواء مشحونة منذ الصباح في باحة الكنيسة. فلم ينتظر الطاشناك حتى الساعة العاشرة. وبدأوا هجومهم وأخذوا يمزّقون الأوراق والأفيشات المعلقة على الجدران، أما نحن فكنا نعلقها من جديد.

وعندما رأيت ملصقاً ممزقاً سألت من فعل ذلك؟ أجابني أنترانيك باليان وهو طاشناكيّ من حاجن: «أنا مزقته»! سألته: لماذا؟ فما كان منه إلّا أن أجابني بضربة كف. فرددت عليه بالمثل. عندئذ، هجم علي حاملو العصي، فأمسكتُ برقبة أنترانيك باليان وأخذت أضربه على وجهه بقوة بينما كان الآخرون يضربونني بالعصي على ظهري. وكذلك تعرض للضرب الرفيقان أفاديس كانتوني وأفاديس كشكيريان؛ وعلى درج الكنيسة كانت تدور معركة بين عامل الزنكوغراف الهنشاكي والمهاجمين.

توقف القتال من غير أن يدوم طويلاً، عندما وصل أعضاء سبارتاك والهنشاك وعدد كبير من المواطنين. وأمام هذا الهجوم هرب الطاشناك من باحة الكنيسة ومن النادي.

تجمع جمهور المحتفلين في باحة الكنيسة وبدأ الاحتفال. وقفتُ في مكان مرتفع وألقيت كلمة بدأتها بتأبين شهداء حادث الطائرة وتقويم

نضالهم، ثم نددتُ بالهجوم الإجرامي للطاشناك.. وأعلنت أن نضالنا سيستمر بصلابة وثبات وعناد. وكان رجال الشرطة حاضرين لكنهم لم يتدخلوا.

استطاع الطاشناكي مسروب سولاكيان أن يندس بين المجتمعين وقال لرجل الأمن إنني أهاجم الدولة بكلام بذيء في خطابي. فهجم عليه الجمهور ولم ينقذه سوى رجال الأمن.

وهكذا، انتهى الاحتفال بعد أن شارك فيه مهران أغازاريان، مهران دامريان، ميكايل شامرنجيان والدكتور هارتيون طوبجيان، وغيرهم من وجهاء الأبرشية.

كتبت جريدة الطاشناك في القاهرة عن الحادث وقالت: من لا يفهم بالكلام يفهم بالضرب!

لا شكّ أن بعضنا تعرض للاعتداءات والضرب، لكن الاحتفال تم بنجاح، وهذا انتصار سياسي وشعبي لمنظمة سبارتاك.

وعلى أثر هذه الحادثة ازدادت شعبية «سبارتاك» وتأثيرها في الأوساط الشعبية وحازت المنظمة احترام الوطنيين. وتعزز تحالفها مع حزب الهنشاك للنضال ضد الطاشناك.

الجذور التاريخية لنشوء الحزب الشيوعي اللبناني

أثبت التاريخ أن نشوء حزب شيوعي في بلدٍ ما يرتكز على وجود طبقة عاملة وتطور الوعي الطبقي لديها، وأيضاً على وجود مثقفين ثوريين مخلصين للطبقة العاملة ومرتبطين بها ومدافعين عنها ومعبرين عن مصالحها.

إن انتصار الثورة الاشتراكية العظمى في روسيا وانتشار المبادئ والأفكار الثورية الجديدة في العالم ووصول شرارتها إلى لبنان في بداية عام 1920، ساهمت في إنضاج الوعي السياسي والاجتماعي والطبقي وساعدت على نشوء الحزب الشيوعي اللبناني، فبدأت تنتشر في صفوف

العمال والشغيلة والفقراء أفكار سياسية واجتماعية جديدة. فقد عانوا ظلم العلاقات الاجتماعية في ذلك الوقت وشرعوا في البحث عن طريق يؤدي إلى تحسين ظروف حياتهم وإلى العيش بحرية وعدالة. وهكذا، بدأت نهضة الوعي الطبقي لديهم وتطوّر لاحقاً في المجال الفكري والتنظيمي وأدى إلى ولادة الحزب الشيوعي في مكانه الطبيعي، أي بين العمال العرب.

وكان الإضراب العمالي سنة 1920 أول إشارة لهذه النهضة. فقد أعلن عمال وشغيلة محطة رياق لسكة حديد بيروت ـ دمشق ـ حلب الإضراب وطالبوا بزيادة رواتبهم وتحسين ظروف عملهم وتخفيض ساعات العمل. وتكرّر الإضراب ثانية عام 1921 .

هنا تجدُرُ الإشارة إلى أن سكة الحديد كانت شركة رأسمالية تابعة للامبريالية الفرنسية، نشأت بينما كان لبنان خاضعاً لاحتلال الجيوش الفرنسية.

كان معظم عمال وموظفي سكة حديد رياق (في البقاع) يقطنون في زحلة، حيث كان يقيم أيضاً عمال طباعة ودباغة ومهن أخرى. بكلمة أخرى، كان الوعي الطبقي والنضال المطلبي يتطوران بشكل ملموس في زحلة.

خلال الحرب العالمية الأولى تعرضت هذه المدينة البقاعيّة للمجاعة، على غرار سائر المناطق اللبنانية. كما عانت ظلم الحكم العثماني. وقد توفي بسبب المجاعة أكثر من ثلث سكان جبل لبنان وتعرض الباقون لأشكال مختلفة من القهر والعذاب. وخلال المجاعة ظهرت بوضوح أنانية الأغنياء وبعض القيادات الروحية، ممّا أدى إلى خلق الكراهية والحقد عليهم من جانب الطبقات الفقيرة. وتحت تأثير ثورة أكتوبر والحركة العمالية نشأت في زحلة حركة من المثقفين سعت إلى الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية. وممّا لا شك فيه أن هذه الحركة كانت تنتمي في جذورها التاريخية وفي تواصُل نضالها، إلى

الحركات التس نشأت قبل الحرب العالمية الأولى في لبنان ساعية إلى تحقيق الاستقلال والديموقراطية والعلاقات الإنسانية. وكان أبرز من عبّر عنها مصطفى غلاييني وفيليكس فارس وداوود مجاعص وجريس نقولا باز وخيرالله خير الله وجبران خليل جبران وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة وغيرهم.

تجدر الإشارة إلى أن الحركة الناشئة في زحلة كانت متقدمة عن الحركات المشار إليها حيث كانت تدعو إلى الاشتراكية.. وإن اتسمت هذه الدعوات بنوع من التبسيط والبدائية.

في ظل هذه الظروف السياسية والفكرية صدر في زحلة في 28 أيلول 1922 العدد الأول من جريدة «الصحافي التائه». وكانت تصدر مرتين في الأسبوع وقد أعلنت عن نفسها بأنها «جريدة العمال والبؤساء». وكان صاحبها ومديرها المسؤول إسكندر رياشي، وقد حدد مواقفها السياسية والاجتماعية في مقال افتتاحي جاء فيه:

«هذه الجريدة تعترف بالتآخي بين الطبقات وأنه لحق طبيعي وصريح، وهي تكافح من أجل ذلك، وتحترم الفقير التعس أكثر من الغني والسعيد، لذلك تكون صديقة العامل والمزارع والضعيف وتدافع عن مصالح هؤلاء بكل قواها، وتعترف بأن المبادئ الاشتراكية المعتدلة قد جاء بها الكتابان الكريمان لعيسى ومحمد».

وفي الوقت نفسه حدّد سياسة الجريدة بأنها «مع الانتداب الفرنسي وضرورة إشرافه على البلاد». من الواضح أن إسكندر الرياشي كان مشوَّش الأفكار، وكان يخلط بين القضايا الاجتماعية والقضايا الطبقية، والمبادئ الاشتراكية، ويجهل مبادئ الاستقلال الوطني ويعترف بضرورة الانتداب الفرنسي. بالرغم من ذلك، لعبت جريدته دوراً إيجابياً لأنها خصصت صفحاتها لعدد من الشباب الذين أدّت تساؤلاتهم ومناقشاتهم والجهد التحليلي الذي بذله أحدهم إلى ولادة الحركة العمالية الحديثة في لبنان. وقد أكد هذا القول الباحث الفرنسي، جاك كولان.

أحد العناصر الأساسية من المحررين الشباب في جريدة الرياشي كان يوسف إبراهيم يزبك، وكان آنذاك في العشرين من عمره، ولم يكن مطلعاً على المبادئ الشيوعية، لكنه حدد موقفه بوضوح كمؤيد للأمميّة الثالثة وثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى ومدافع عن الفقراء والبؤساء والمحرومين والعمال ضد الأغنياء والمستبدين والظلم الاجتماعي. بهذه الروحية كان يوسف إبراهيم يزبك يكتب في جريدة الرياشي تحت اسم مستعار: «الشبح الباكي». وكان يكتب تحت توقيعه عبارة «عن الكوخ الأحمر في مدينة الأغنياء» واعتبر 7 أكتوبر 1922 تاريخ انطلاق الأممية الثالثة. وقد أخطأ بين تاريخ الأممية وتاريخ انتصار ثورة أكتوبر، لكنه صحَّح هذا الخطأ في مقالاته اللاحقة.

ومع الوقت، تعرَّف يوسف إبراهيم يزبك على الفكر الاشتراكي الحقيقي واعتبر نفسه بلشفياً. والحقيقة هي أن يوسف يزبك كان أول من حمل راية الاشتراكية بجرأة بين اللبنانيين العرب، ناشراً الفكر الاشتراكي العلمي في مرحلته الأولى. إن التطور الفكري لدى يوسف يزبك، وكذلك تطور الحركة العمالية، ساعدا يزبك على إنضاج وعيه الطبقي. هذا الموقف الفكري الذي تطور عند يوسف يزبك بالإضافة إلى نضج الحركة العمالية واهتمامه بها جعله من مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني في الوسط العربي.

الحركة النقابية عشية تأسيس الحزب الشيوعي

كان الانطلاق الأول للحزب الشيوعي اللبناني في الوسط العربي هو ظهور العمال على أثر تأسيس معامل الدخان (السجائر) في جبل لبنان وتأسيس نقابة عمالية على المبادئ الصحيحة للصراع الطبقي، وكانت أول نقابة للعمال في لبنان، وأيضاً في سوريا والعراق والأردن.

وقبل أن تسيطر شركة احتكار التبغ الفرنسية على جبل لبنان كان

بعض الرأسماليين (قاصوف، صوايا، وغيرهما) قد أسسوا في بكفيا وضهور الشوير والخنشارة وبتغرين وانطلياس والشياح وزحلة وفي أماكن أخرى معامل لإنتاج السجائر ومعالجة التبغ. وقد ظهر في هذه المناطق عمال معامل وصل عددهم إلى حوالى الألفين .

في تموز 1924 تأسست النقابة العمالية للتبغ، تحت اسم «النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان». وبعد وقت قصير أصبح لها فروع في المناطق العمالية المشار إليها أعلاه. وكان مركز النقابة في بكفيا بقيادة مجلس مركزي سكرتيره فؤاد الشمالي.

طردت السلطات البريطانية فؤاد الشمالي من مصر لأنه بلشفي، وقد أرسل إلى بيروت لكونه لبناني الأصل، وكان من مؤسسي الحزب الشيوعي في مصر ومن أعضاء لجنته المركزية، فوصل إلى لبنان في 23 آب 1923. وكان أيضاً من مؤسسي جمعية العمال اللبنانيين العاملين في معامل التبغ في مصر، ثم أصبح أحد قادة النقابة العامة لعمال التبغ في الإسكندرية، وعند حضوره إلى لبنان اشتغل في معمل السجائر في الشياح. ثم شارك في تأسيس نقابة عمال التبغ مع إبراهيم ستيفانوس وبطرس حشيمي وفريد طعمه وبشاره كامل، وغيرهم من العمال. وكان أكثر هؤلاء قادمين من مصر حيث اشتغلوا في معامل التبغ، وكانوا أعضاء نقابيين في مصر ومن أصدقاء فؤاد الشمالي.

هذه النقابة الفتية أصبح لها نفوذ بين عمال التبغ في جميع المناطق العمالية، وكان عامل التبغ أريس اتشاباهيان من أعضاء النقابة مع غيره من العمال الأرمن.

وفي وقت قصير، استطاعت هذه النقابة أن تجمع حولها المثقفين الديموقراطيين وكان هؤلاء يفتشون عن قاعدة شعبية، مثل المحامي إميل لحود الذي أصبح وزيراً في وقت لاحق، والمحامي المعروف يوسف السودا والكاتب أسعد منذر وهنري الجميل (لاحقاً سفير ليبيريا في لبنان)، والكثيرين غيرهم واحتلت نقابة عمال التبغ المركز الأول في

الحركة العمالية والنقابية في لبنان كله، وكانت تسعى لتوحيد الحركة النقابية في لبنان. ونضجت الظروف لتأسيس حزب شيوعي.

... وكانت الخلية الأولى للحزب الشيوعي في الوسط العربي

في تشرين الأول 1924 توفي الكاتب الفرنسي الكبير عضو الحزب الشيوعي أناتول فرانس. وصدر في بيروت مقال ليوسف إبراهيم يزبك في العدد المؤرخ في 19 تشرين الأول من جريدة «المعرض» التي يملكها ميشال زكور، وكان المقال بعنوان «مات أناتول فرانس» ومما جاء فيه: «مات صديق العمال والفلاحين، مات صديق المظلومين والفقراء، مات صديق الحرية ورسولها. مات أناتول فرانس. فمن أرض لبنان ومن أدباء لبنان سلام عليك، سلام عليك».

وفور صدور هذا المقال اتصل جوزف برغر، مراسل جريدة «انترناسيونال كورسبوندانس» وهي جريدة أسبوعية تصدر عن الكومنترن، بيوسف يزبك بعد أن أخذ عنوانه من مكتب تحرير جريدة «المعرض» وسأله: هل أنت اشتراكي؟ فأجابه يزبك: أنا بلشفي. فسأله: هل يوجد غيرك؟ فأجاب يزبك: هناك عدد من المثقفين. سأله برغر هل هناك عمال؟ عندئذ سمّى فؤاد الشمالي.

في تلك الأيام كان يوسف يزبك موظفاً في مرفأ بيروت في قسم مراقبة جوازات السفر، فتعرف إلى فؤاد المشالي عند حضوره إلى بيروت خلال مراقبة جواز سفره. وكان قد قرأ عنه قبل يوم واحد في جريدة «الأهرام» المصرية وعرف أنه بلشفي مطرود من مصر.

وقام يزبك أيضاً بتعريف برغر إلى فؤاد الشمالي وقرّروا عقد اجتماع.

عقد هذا الاجتماع في 24 تشرين الأول 1924 في بلدة الحدث من

ضواحي بيروت في منزل عبد اللّٰه الشدياق، أحد أقارب يزبك. حضر هذا الاجتماع إلى جانب جوزف برغر، كلّ من: يوسف يزبك، فؤاد الشمالي، شفيق مظهر (موظف) نمر هبّة (محام، وقد تولى لاحقاً ولفترة وجيزة منصب نقيب المحامين)، إلياس قشعمي (عامل)، إلياس أبو ناضر (شرطي سابق)، الياس جهشان (محام)، فريد طعمة (عامل). ورافق برغر شخص فلسطيني عربي.

غالبية المثقفين الحاضرين كانوا من أصدقاء يوسف يزبك وليس لديهم انتماء سياسي واضح ومحدد.

بحث المجتمعون ضمن جدول أعمالهم تأسيس حزب شيوعي، كما تداولوا إمكانيّة إصدار جريدة باللغة العربية. وحسبوا كلفة إصدار الجريدة بحوالى 2500 ليرة استرلينية (لم تصدر هذه الجريدة).

ولم يوافق على تأسيس حزب شيوعي إلّا فؤاد الشمالي ويوسف يزبك وفريد طعمه والياس قشعمي، وانضم إليهم في وقت لاحق عامل من بكفيّا هو بطرس حشيمي.

هؤلاء الروّاد كانوا أعضاء أول خلية شيوعية عربية في لبنان.

بعد أيام من تاريخ 24 تشرين الأول عقدت الخلية اجتماعها في بكفيا بحضور مجموعة من العمال، بالعدد نفسه وبحضور جوزف برغر وكان الجو تسوده الحماسة، وفيه أنشد المجتمعون القسم الأول من النشيد الأممي المترجم إلى العربية من قبل يوسف يزبك.

وقد حصلتُ على المعلومات المشار إليها أعلاه من فؤاد الشمالي وتأكدت من صحتها، وقد أكد يوسف يزبك صحة هذه المعلومات عندما التقيته عام 1964، ولاحقاً في تصريح أدلى به يزبك لجاك كولان بحضوري، وهذا التصريح يحتوي على تفاصيل أخرى كذلك.

وبناء على هذه المعلومات قرر الحزب الشيوعي اللبناني اعتبار 24 تشرين الأول 1924 تاريخ تأسيسه.

وحسب شهادة خالد بكداش فقد اطلع على رسالة موجودة في أرشيف الكومنترن في موسكو يعود تاريخها إلى 27 تشرين الأول 1924، تحتوي معلومات أولية عن تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني.

يجب قول الحقيقة أمام التاريخ وهي أن أول خلية شيوعية تأسست في سوريا كانت في دمشق صيف عام 1928 وكان أعضاؤها من العرب والأرمن. هذا إذا لم نأخذ في الاعتبار أن في العام 1925 وجدت خلايا شيوعية من الأرمن في حلب وجبل موسى، وهذه الخلايا كانت على اتصال دائم مع المركز في بيروت وكانت سابقاً في منظمة «سبارتاك».

ربما اعتبر الرفاق السوريون يوم 24 تشرين الأول 1924 تاريخاً لتأسيس الحزب الشيوعي السوري، لكون الحزب كان يوقع جميع المنشورات والبيانات منذ تأسيسه باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري.

الورثة الشرعيون لأفضل تراث

يزخر تاريخ لبنان بالنضالات الوطنية التحررية والاجتماعية. ولعلّ أهم هذه النضالات عاميّة انطلياس في المتن عام 1820، التي قام بها القرويون ضد الاستثمار والاضطهاد الإقطاعي، وانتفاضة الفلاحين المسلحة في لحفد 1821 في منطقة جبيل المعادية للاستثمار والكبت الإقطاعي، والثورة المسلحة عام 1858 بقيادة طانيوس شاهين وإعلان الجمهورية في كسروان. ثم في القرن الحالي النضال من أجل الاستقلال الوطني الذي ذهب ضحيته شهداء 1915ـ1916 خلال الحكم العثماني، أولئك الذين أمر جمال باشا السفاح بتعليقهم على أعواد المشانق.

ولقد أخذ الحزب الشيوعي اللبناني على عاتقه، منذ انطلاقته الأولى، أن ينهل من تراث العمل الشعبي والوطني وأن يكمل النضالات

التحررية والاجتماعية والمعارك الديموقراطية، ساعياً لتحقيق آمال الطبقة العاملة الفتيّة في التحرر والاستقلال والتقدم الاجتماعي والاشتراكية.

بادر الحزب الشيوعي اللبناني إلى تطوير الحركة العمالية الفتيّة وتنظيمها ودعا العمال للانضمام إلى النقابات وإنشاء نقابات جديدة وتطوير الوعي الطبقي بروحية نضالية والتنظيم السياسي الفكري والثوري عند العمال، وتثقيفهم بمبادئ الاشتراكية العلمية انطلاقاً من تعريفهم بالفكر الماركسي ـ اللينيني؛ ومن ثم تنظيم العناصر الواعية طبقياً وسياسياً وإيديولوجياً داخل صفوف الحزب الشيوعي.

إنها بعبارة أخرى، مهمّة إيجاد حزب شيوعي قوي وقادر مع الطبقة العاملة والشغيلة وجماهير واسعة من شعبنا على تحرير المجتمع اللبناني وتحقيق الاستقلال الوطني والتطور الديموقراطي والتقدم الاجتماعي وصولاً إلى الاشتراكية.

شهادة يوسف يزبك مناقشة بين الشيوعيين الأوائل

في أول تشرين الثاني عام 1964 التقيت يوسف يزبك وأدلى بالشهادة التالية:

«في 24 تشرين الأول 1924 في اجتماع الحدث وافق فؤاد الشمالي، يوسف يزبك، فريد طعمه، والياس قشعمي فقط على تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني، وأما بقية الحاضرين فكانوا معنا بدافع الفضول وكان بين هؤلاء المدعو الياس أبو ناضر وهو مفوض سابق في الشرطة. وقد انضم لاحقاً إلى الفرقة الشيوعية عامل التبغ بطرس حشيمي.

ولم يتقرر كما لم يطلب، لا في اجتماع الحدث ولا لاحقاً، الانضمام إلى الأممية الشيوعية، وذلك لأن الأممية الشيوعية لم تكن تعلم بأمرنا. وقد أعلن برغر أننا كنا نُعتبر فرعاً من الحزب الشيوعي الفلسطيني من منظمة حيفا. وهكذا كنا نعتبر (أبو زيام) قائدنا لكونه رئيس

الحزب الشيوعي الفلسطيني. وقد نوقش في اجتماع الحدث أمر إصدار جريدة يومية باللغة العربية، بموازنة قدرها 12000 ل.ل. وقد حصلت في الاجتماع نفسه مناقشة حادة حول قبول أو رفض قرار سلطة الانتداب الفرنسي بجمع السلاح من الفلاحين، فقد رفض البعض هذا القرار، ووافق البعض الآخر قائلاً إن حاملي السلاح من الفلاحين هم تحت نفوذ الإقطاعيين ومن الممكن أن تستخدم أسلحتهم لمصلحة الإقطاعيين. اقترحت في الاجتماع تركيز نضالنا ضد الفرنسيين، لكن برغر لم يوافق على اقتراحي ودعا للوقوف ضد الإقطاعية والبورجوازية العربية.

لم يكن لدى الفرقة الشيوعية التي تأسست آنذاك أية فروع أو امتدادات حتّى انضمام الأرمن سنة 1925 وقبل اتحادنا مع الأرمن لم يكن لنا فرقة شيوعية في حلب».

ويضيف يوسف يزبك: «في شباط 1925 ذهبت إلى حيفا للاتصال بأبي زيام وطلبت منه أن يكون لنا وجود مستقل، وقد انزعج «أبو زيام» لأنني قدمت اقتراحي بوجود آخرين.

وفي حيفا طلبتُ من «أبو زيام» أن يصحح الموقف من وعد بلفور، فلم يتجاوب معي في ذلك... ثم سألته بسذاجة متى تبدأ ثورتنا؟ فضحك أبو زيام.

في تموز 1925 التقيت صدفة «أبو زيام» في باريس. قال لي: «لا تبحث شيئاً مع الحزب الشيوعي الفرنسي».

ويضيف يوسف يزبك في شهادته: عل كل حال، يجب أن أشير إلى أنه خلال فترة وجودي داخل الحزب لم أعلم أننا أصبحنا فرعاً في الأممية الشيوعية.

وكانت نقابة عمال التبغ قد تأسَّست قبل أشهر من اجتماع الحدث، بمبادرة من فؤاد الشمالي. لا أذكر بوضوح تاريخ وصول فؤاد الشمالي إلى لبنان آتياً من مصر. الأرجح أنه وصل في آب 1923. بعد عودته إلى لبنان سكن في الشياح واشتغل في معمل التبغ لمدةً سنة أو سنة ونصف

السنة. وحسب معلوماتي لم يكن يفكر في تأسيس حزب شيوعي. لكنه كان يهتم بمطالب عمال التبغ»[1].

تأسيس «حزب الشعب اللبناني»

بعد فترة وجيزة على تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني الذي ارتكز على نقابة عمال التبغ ونفوذها كقاعدة أساسية له، جرت المبادرة لتأسيس «حزب الشعب اللبناني» ليكون بمثابة الوجه العلني لعمل الشيوعيين، وقد استحصل على رخصة قانونية للعمل السياسي والشعبي والتنظيمي.

وأصبح للحزب فروع في كل المناطق التي كانت فيها فروع لنقابة عمال التبغ، مثل بكفيا، الخنشارة، بتغرين، الشياح، زحلة، بيروت.

وكان من أعضاء فرع بيروت كل من إلياس أبو ناضر والياس جهشان واميل لحود ونمر هبّة والموظف شفيق مظهر وهنري الجميل.

وأصبحت بكفيّا مركز الحزب الجديد وكان أعضاؤه يوسف يزبك وفؤاد الشمالي ومخايل أبي حنا ونقولا شيخاني، ونسيم الشمالي وبطرس حشيمي وهنري جميل وتوفيق كبوش (صاحب مكتبة) وبشارة كامل ووديع ماضي وفارس معتوق والياس قشعمي والياس سرور وفريد طعمه (ممثل لدى الحكومة) وثلاثة أشخاص لا أذكر أسماءهم. وكان الجميع أعضاء في نقابة عمال التبغ ما عدا هؤلاء الثلاثة.

وكما في نقابة عمال التبغ كذلك في حزب الشعب الجديد، كانت العناصر الأساسية والقيادية من الشيوعيين.

وبعد مرور عدة أشهر على تأسيس حزب الشعب وعدم قيامه بأي نشاط علني، تقدم في 30 نيسان 1925 بطلب إلى «حاكم لبنان الكبير» الفرنسي ليون كايلا للحصول على ترخيص للعمل.

---

(1) وقد أكد يوسف إبراهيم يزبك صحة هذه المعلومات مرة ثانية بوجود المستشرق الفرنسي الرفيق جاك كولان، وبحضوري وحضور ر.ف.، وذلك في تشرين الأول 1965.

حرر طلب الترخيص باللغة الفرنسية وبخط يد يوسف يزبك ووقع الطلب أعضاء اللجنة التنفيذية المذكورة أسماؤهم في الطلب، وهم: يوسف يزبك ومخايل داود أبو حنا وبطرس حشيمي وبشارة كامل وفارس معتوق والياس قشعمي والياس سرور وفريد طعمه، وجميعهم من بكفيا وأعضاء في نقابة عمال التبغ ما عدا يوسف يزبك.

واستبعد توقيع فؤاد الشمالي لتجنب التعرض لخطر المنع من الحكومة، لكونه معروفاً بانتمائه «البولشفيكي» وكان محتوى الطلب الموجه إلى ليون كايلا على الوجه الآتي:

[لقد أسَّسنا حزباً يحمل اسم (حزب الشعب اللبناني)، غايته الإسهام بجميع الوسائل في تنمية الصناعة والزراعة والتجارة في لبنان، ونشر روح الإخاء في الأمة اللبنانية ومنع الإكليروس من استخدام نفوذه على حساب المصلحة العامة، ودعم المدارس الوطنية وتوحيد برامج التعليم العلماني، وجمع العمال والفلاحين في نقابات للدفاع عن مصالحهم المشتركة، والإفادة من كل ما لنا من نفوذ لأجل فرض الضريبة على الرساميل والتركات واعتبار الأوقاف أملاكاً وطنية تحت إشراف الحكومة وتحرير المرأة].

هذا الموجز عن برنامج حزب الشعب اللبناني يعبِّر عن المبادئ والأفكار التي عبّر عنها الليبراليون في الصحافة اللبنانية خلال سنوات 1922ـ1924، وكانت خطوة متقدمة في برنامج مطلبي وديمقراطي لا يخلو من الروح الثورية.

وكانت هذه أول مرة يتقدم فيها حزب في لبنان ببرنامج يدافع عن حقوق العمال والفلاحين وتنظيمهم في نقابات. (كما أشار وأكد جاك كولان).

التلاقي: أول أيار وحّد الشيوعيين من عرب وأرمن

يتضح ممّا ورد في الصفحات السابقة من معلومات أن حركتين شيوعيتين منفصلتين نشأتا في لبنان، لا تعرف الواحدة بوجود الأخرى.

إحداهما «الحزب الشيوعي اللبناني» الذي تأسس بين العرب في 24 تشرين الأول 1924، والثانية منظمة «سبارتاك» الشيوعية التي تأسست في مطلع عام 1924 بين الأرمن.

في 29 نيسان عام 1925 قرأت في جريدة «لاسيري» باللغة الفرنسية دعوة مقتضبة موجهة إلى العمال والشغيلة تدعوهم لوقف العمل والمشاركة في احتفال أول أيار، يوم العمال العالمي. هذا النبأ المفاجأة كان فرحة كبيرة لنا نحن السبارتاكيين. وبدأنا نفكر بطريقة ننضم بها إلى رفاقنا العرب الذين يشاركوننا في أفكارنا. وقد اقتنعنا أن احتفال أول أيار سوف يجري بموافقة وترخيص من السلطة، خصوصاً وأن الدعوة إلى الاحتفال صدرت في الجريدة الفرنسية «لاسيري» الناطقة باسم المفوضية العليا الفرنسية.

وتكوّنت لدينا قناعة بأن الاحتفال ربما يجري على شكل تظاهرة أو احتفال في ساحة عامة أو مهرجان. وكان السؤال من أين ستنطلق المسيرة وأين سيكون الاجتماع؟

وكان أعضاء «سبارتاك» قد درجوا على التجمع في أول أيار من كل سنة داخل المدينة وخارجها في البرّية، الأعضاء منهم والمؤيدون، وذلك للاحتفال بيوم العمال العالمي.

في عام 1925 قررت منظمة «سبارتاك» التجمع قرب المخيم الكبير للأرمن في منطقة مار مخايل قرب شركة الكهرباء في سهل يقع إلى جانب الطريق الآتي من جبل لبنان. كنا نعرف أن هناك الكثير من معامل التبغ في جبل لبنان وبالتالي فهناك الكثير من التجمعات العمالية قد تتوافد على المدينة للاحتفال بأول أيار.

وكان تقديرنا صحيحاً. ففي الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة أول أيار سنة 1925 ظهرت عشرات السيارات على طريق النهر تسير ببطء وتطلق الشعارات وترفع رايات حمراء، ويافطات كتب عليها «عاش أول أيار»، و«عاش حزب الشعب اللبناني»... فانضممنا إلى مسيرة أول

أيار المنتظرة، وكنا حوالى خمسين شخصاً من أعضاء «سبارتاك» وأصدقائه، ومشى الجميع باتجاه ساحة البُرج وعند مدرسة الفرير اتجهوا إلى اليمين، ثم انعطفوا إلى اليسار، وصولاً إلى خان الصيفي حيث انضم إلى المسيرة بعض العمال الهنشاك العاملين في شق الطرقات، وتابعت المسيرة طريقها، ووصلت إلى باب إدريس، ثم انعطفت نحو اليسار قرب كنيسة اللاتين مروراً بشارع سوق الخضار (حالياً ساحة رياض الصلح) قرب قصر العدل.

وسارت حول حديقة البرج (ساحة البرج) ثم مرّت أمام السراي الصغير (حالياً ليس له وجود)، ومن هناك اتجهت إلى سينما كريستال. وجرى احتفال حماسي داخل القاعة بحضور حوالى 600ـ700 شخص. وكانت الحماسة تغمرنا نحن الأرمن المشاركين في المهرجان.

بعد انتهاء الاحتفال تقدم منا اثنان من الخطباء هما يوسف يزبك وفؤاد الشمالي وقمنا بالتعارف بصفتنا شيوعيين واتفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي في دكان الخياط الهنشاكي ميساك فيهروني في باب إدريس، حيث كنت أذهب باستمرار لاستلام أعداد جريدة «لومانيته» وبعض المطبوعات والصحف الشيوعية المرسلة على عنوان أنترانيك كبنجيان ـ صندوق بريد رقم 427. وجرى اللقاء بحضور إيلي تيبر (علمنا لاحقاً أنه ممثل الكومنترن لدى الحزب الشيوعي اللبناني) في الجزء الخلفي من دكان فيهروني، وقد اتُفق مبدئياً على توحيد منظمة «سبارتاك» والحزب الشيوعي اللبناني.

في الليلة نفسها عقدت منظمة «سبارتاك» اجتماعاً عاماً بحضور جميع أعضائها حيث وافقوا على قرار التوحيد. وفي اليوم التالي حصل اللقاء الرسمي بين التنظيمين الشيوعيين في المقهى العربي ـ شارع فرنسا مقابل مقابر اللاتين. حضر الاجتماع يوسف يزبك وفؤاد المشالي وإيلي تيبر وهيكازون بوياجيان وأرتين مادويان وقررنا تحقيق وحدة التنظيمين

الشيوعيين في إطار حزب شيوعي سمّي «الحزب الشيوعي اللبناني السوري».

باقتراح من «إيلي تيبر» شكلت لجنة مركزية للحزب من يوسف يزبك سكرتيراً وفؤاد الشمالي وايلي تيبر وأرتين مادويان وهيكازون بوياجيان وفريد طعمه أعضاء. بناء على هذا الاتفاق انضمت منظمات «سبارتاك» بيروت وزحلة وجبل موسى وحلب إلى الحزب الشيوعي اللبناني السوري معاهدين على النضال المتفاني في خدمة الحزب.

وحسب شهادة نقولا شاوي فإن أرتين مادويان «أنشأ تنظيم (شبيبة سبارتاك) الذي التحم بالحزب الشيوعي الناشئ في لبنان وتأسس الحزب الشيوعي اللبناني»، كما ورد في جريدة «النداء» عدد 15 نيسان 1979 في كلمة ألقاها الرفيق نقولا شاوي في مأدبة غداء بمناسبة عيد ميلادي الخامس والسبعين. وهي الكلمة التي ستكون لنا عودة إليها في جانب آخر من هذا الكتاب.

احتفال أول أيار ومغزاه السياسي

اقتصرت مشاركتنا في الاحتفال الذي جرى بمناسبة الأول من أيار على انضمامنا إلى التظاهرة التي توافدت على سينما كريستال كما أسلفنا. وانطلاقاً من هذه الحقيقة، يمكن الاكتفاء بالأسطر المشار إليها سابقاً وذلك استناداً إلى الذاكرة، ووفق المعطيات التي في حوزتنا.

غير أن البحث إذا بقي على هذا النحو المقتضب، وبهذا المحتوى المجتزأ، فهو لن يكون كافياً أو مجدياً. فيجب أن نتناول احتفال عيد الأول من أيار بمحتواه السياسي والإيديولوجي، حيث كانت مرحلة تاريخية ذات أهميّة بالنسبة إلى الحركة الشيوعية اللبنانية والحزب الشيوعي والحركة العمالية.

هنا نلفت النظر إلى أن ثمّة معلومات كثيرة لن تتسع لها هذه

المذكرات، وهي أيضاً من النوع الذي ينبغي عدم إهماله. لأن مذكّراتي هذه، وإن كانت جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الحزب الشيوعي والحركة العمالية في مراحلها الأولى فيجب الانتباه في المستقبل إلى ضرورة استكمال معطياتها بالأعمال اللاحقة للمناضلين الشيوعيين، وإلّا فلن تكون مذكراتنا مترابطة وسوف تخلق فراغاً في مرحلة مهمة من تاريخ حزبنا. لذا، فضلت في هذه المذكرات تخصيص الجزء الأول لشرح كيف تم التحضير لمهرجان الأول من أيار، وكيف جرى الاحتفال في سينما كريستال ومحتواه السياسي والإيديولوجي وأهمية القرارات السياسية والتاريخية التي اتُخذت في المهرجان. في كتابة هذا الجزء من المذكرات استفدنا من جريدة «زحلة الفتاة» ومن مذكرات يوسف يزبك وفؤاد الشمالي، وبشكل خاص من العمل المدروس والجيد والمركب من قبل جاك كولان، الذي يؤكد معلوماتنا.

كان الاحتفال بأول أيار 1925، كما هو معروف لدينا، بمبادرة من الشيوعيّين وتحت قيادتهم باسم حزب الشعب اللبناني، المستند إلى القوى العمالية في نقابة التبغ.

وقد ساعدت الظروف والأجواء السياسية آنذاك، حزب الشعب على المبادرة إلى الحصول على ترخيص للاحتفال. ففي عام 1924 جرت انتخابات نيابية في فرنسا وانتصر التجمع اليساري وقام بتأليف حكومة. فكان أن واجهت هذه الحكومة ضغوطاً على جميع الصعد من قبل اليمين والكنيسة الكاثوليكية، واستدعت الحكومة اليسارية الجنرال «ويغان» إلى فرنسا من لبنان وسوريا وأنهت خدمات المفوض السامي. لقد كان الجنرال «ويغان» يمينياً ورجعياً، وكان محسوباً على اليسوعيين في الكنيسة الكاثوليكية. وعيّن مكانه الجنرال ساراي الذي كان محسوباً على اليسار وكان ماسونياً مستقلاً.

استقبل الجنرال ساراي في بيروت «البناؤون الأحرار» (الماسونيون) بقوس نصر خاص كتب عليه شعار: «حرية ــ مساواة ــ أخوّة». بينما

اليسوعيون في لبنان والرجعية الكاثوليكية وقادة الانتداب والجهاز السياسي الموجود والمتمركز في السلطة مع اليمين الرجعي المحلي، أخذوا يتحركون من أجل فرض قيود وعراقيل في وجه الجنرال ساراي، الذي بات يعاني صعوبات كثيرة وراح يفتش عن قاعدة شعبية لأن الماسونيين لم تكن قوتهم كبيرة. كان بحاجة إلى قوى لمساندته في معركته لمواجهة اليسوعيين والكنيسة الكاثوليكية.

عين الجنرال ساراي حاكماً على لبنان هو ليون كايلا، صديق شكري بخاش صاحب ومدير جريدة «زحلة الفتاة». في هذه الأجواء السياسية استغل شكري بخاش صداقته مع كايلا فنجح في إقناع هذا الأخير بإعطاء ترخيص للاحتفال بعيد الأول من أيار. وهو بهذا الأسلوب حاول إعطاء دليل على «الحريات التي سوف تمنحها السلطات الفرنسية»، سعياً لكسب الجماهير الشعبية وجعلها قاعدة لمصالحه.

هذه هي الأجواء التي كانت سائدة عشية الأول من أيار. (حزب الشعب اللبناني) أصدر بياناً وزّع بشكل واسع في جبل لبنان وفي بيروت بين العمال والشغيلة وفي الأوساط الشعبية، وكذلك في وسط المثقفين الأحرار. وقد مَهَّدَ ذلك الأجواء لاحتفالات الأول من أيار.

دعا البيان العمال للإضراب العام والتظاهر بمناسبة أول أيار يوم العمال العالمي، وتضمن الشعارات التالية: «نريد: 8 ساعات عمل، 8 ساعات تنزيه وتعليم، 8 ساعات نوم»، «العمال يمثلون طبقة ولهم الحق بيوم راحة يوم الأحد كما الطبقات الأخرى في مجتمعنا».

وقد نشرت جريدة «زحلة الفتاة» التي كانت تصدر يومياً في بيروت مصنفة نفسها بأنها جريدة «علمانية واشتراكية»، البيان الصادر عن حزب الشعب اللبناني إلى العمال والفلاحين، تحت عنوان: «الحركة الاشتراكية في لبنان»، فقالت: «يوم أول أيار تجمّع عمال التبغ المحليون ووفود عمالية من ضهور الشوير والخنشارة وبتغرين ومن القرى المجاورة، وأقيم مهرجان صغير تكلم فيه فؤاد المشالي». شارك أيضاً في هذا المهرجان

الرفيق أريس اتشابهيان وعمال آخرون من الأرمن عاملون في التبغ. (وفي وقت لاحق أصبح أريس اتشابهيان أحد مؤسسي نقابة النجارين، وأضحى من القياديين في الحركة النقابية).

ومن ثم تجمع المتظاهرون طابوراً وانطلقوا باتجاه بيروت رافعين العلم الأحمر ويافطات أخرى. التحقت بالطابور مجموعات أخرى في انطلياس

كنا أشرنا في صفحات سابقة إلى التظاهرة في بيروت، وما لبث الموكب أن وصل إلى مكان المهرجان في سينما كريستال.

سوف نشرح المحتوى السياسي للمهرجان والخطب التي ألقيت، ولكن يجب ذكر المشاركين في المهرجان من الشخصيات الديموقراطية المعروفة.

حضر مهرجان الكريستال جبران تويني (مؤسس الجريدة اليومية "الأحرار» ثم «النهار»، وعيّن وزيراً في فترة لاحقة)، وديع عقل (صاحب جريدة «الوطن»)، ميشال زكور (صاحب الجريدة الأسبوعية «المعرض»، عيّن لاحقاً وزيراً للداخلية)، حبيب أبو شهلا (محام ونائب، وفيما بعد رئيس مجلس النواب ووزير الداخلية)، أديب مظهر (شاعر)، نمر هبّة (محام، نقيب المحامين لاحقاً)، إلياس أبو شبكة (شاعر)، هنري الجميل (لاحقاً سفير ليبيريا لدى لبنان) بالإضافة إلى شخصيات اجتماعية أخرى.

وألقيت في المهرجان كلمات لكلّ من يوسف يزبك، فؤاد الشمالي، خير الله خير الله، شكري بخاش، وديع شيخاني، حنا أبو راشد والتاجر إلياس متى، وصديق الحزب الشيوعي الشاعر إلياس أبو شبكة الذي ألقى قصيدة عنوانها «العمال الثوريون».

وقد قامت جريدة «زحلة الفتاة» في عددها الصادر بعد المهرجان بتغطية المهرجان ونشرت كلمتي شكري بخاش وفؤاد الشمالي.

شكري بخاش تمثل بالمسيح الذي طرد التجار من الهيكل وقال:

«اتهمني بعض الناس منذ ثلاثة أعوام بأنني بلشفيكي، ماذا تعني البلشفية بالنسبة إلي؟ اعتناق مبادئ الثورة الفرنسية والنطق بالحق في حضرة سلطان جائر. نعم أيها العمال، إن المستقبل هو لكم. والإنسانية بأجمعها سائرة نحو مبادئ ڤولتير وروسو وكارل ماركس...» ثم أشار في كلمته إلى حرية التعبير بعيداً عن قيود الشرطة، وذلك بفضل السلطة اللبنانية والفرنسية لأن الحاكم ليون كايلا سمح بإقامة المهرجان.

استهل فؤاد الشمالي كلمته بالاعتذار إلى المثقفين بسبب لغته، لأنه عامل سيتحدث للعمال وطلب من الحاضرين الوقوف ثلاث دقائق صمت تكريماً للشهداء العمال. ثم وجّه كلامه إلى جمهور القاعة وغالبيتهم من العمال ودخل في صلب الموضوع قائلاً:

أيها الرفاق،

«فهل من قوة في العالم تتمكن من صدّنا عن طريقنا؟ لا ثم لا أيها الرفاق، إن أعظم قوة تضعف وتتلاشى أمام قوى الشعب، وأقوى أداة في العالم يجب أن تخضع صاغرة ذليلة متى قال العمال هذه إرادتنا. إن صوت الشعب من صوت اللّه. وإرادة الشعب تدك العروش وتحطّم التيجان. نحن في العالم كل شيء فيجب أن يكون لنا كل شيء. ولكن متى يكون للشعب صوت وللعمل إرادة؟ إن ذلك يكون حين يوحِّد الشعب كلمته وينظم العمال صفهم. وبمعنى آخر حين يتَّحد المجموع في سبيل مصلحة المجموع:

(...) يجب أن نتحد بالنقابات. فعلى كل عامل منّا أن يسرع بالانضمام إلى نقابة تضم أبناء صناعته وحرفته حتى يصبح لكل صناعة نقابة ولكل حرفة نقابة، ثم تتجمع جميع النقابات فتتفاهم وتتّفق كلمتها على الاتحاد العام. فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة نكون قد وضعنا الحجر الأساس لنبني عليه حياتنا المقبلة، أي حياة الحرية الصحيحة.

«إنما يجب الانتباه أيها الإخوان إلى أمر هو من الأهمية بمكان، وهو أن تحاذروا الدخلاء الذين يندسُّون بينكم بدعوى أنهم يريدون

خدمتكم وما هم بالحقيقة سوى ذئاب تندسُّ بين قطعان الغنم فتغشّها وتسير بها في السبيل الذي تتمكن به من امتصاص دمائها. حذار أيها الرفاق تلك الذئاب وانبذوها من بين صفوفكم بكل احتقار وازدراء.

«فإذا كنا نريد أن نصل إلى ما نريد فيجب ألّا نسمح لغير العمال أن ينضمّوا إلى نقابتنا».

وفي نهاية المهرجان قدم برنامجاً مطلبياً كما يلي:

«1 ـ تحديد أوقات العمل بـ 8 ساعات في اليوم.

«2 ـ تحديد قيمة دنيا للأجور شريطة أن تكون كافية لحياة العمال.

«3 ـ سَنُّ نظام يحمي العمال.

«4 ـ أن تكون تربية الأطفال، ومعيشة الشيوخ والعمال المشوهين بسبب أعمالهم ـ على عاتق أصحاب الأعمال والهيئات الاجتماعية.

«5 ـ منع الشغل الليلي.

«6 ـ أن يظلّ قرار لجنة الأجور سارياً على العمّال.

«7 ـ إحياء المشاريع الاقتصادية».

ولقد كان للمهرجان صدىً وتأثير كبيران لدى العمال والشغيلة وأيضاً في الوضع السياسي في ذلك الوقت ولدى المثقفين الديموقراطيين الأحرار. كان المهرجان أول منبر أتاح لفؤاد الشمالي التحدث بحزم وبلغة مفهومة للعمال والشغيلة، شارحاً الأهداف النضالية للحركة النقابية مؤكداً أن النضال الطبقي الثوري هو الطريق الصحيح لتحقيقها. أما مقررات المهرجان فقد طرحت لأول مرة في لقاء علني مطالب الطبقة العاملة والشغلية، من اجتماعية وسياسية، بأسلوب يجعلها قابلة للتطوير.

ولقد استطاعت الطبقة العاملة وجماهير الشغيلة بفضل النضالات الشاقة والمتواصلة أن تحقق هذه المطالب على الصُعد النقابية والاجتماعية، كما انتزعت عدداً من المكاسب الأخرى بالممارسة الدؤوبة والعمل المتفاني.

ولا بدَّ لنا من أن نذكر أن أول احتفال في العالم العربي ليوم الأول من أيار كان قد جرى عام 1907 في لقاء محدود أقيم قرب انطلياس، في الضبية، على مقربة من شركة المياه. شارك في ذلك الاحتفال العمال الذين يشتغلون في الشركة وتكلم فيه كل من خير الله خير الله، مصطفى غلاييني، داود مجاعص، فيليكس فارس، وجرجي نقولا باز. وبهذه المناسبة زرعوا شجرة في مكان الاحتفال سمّيت «شجرة الحرية».

وفي اليوم نفسه، وبالمناسبة عينها، وبمبادرة من الخطباء أنفسهم وبمشاركتهم جرى احتفال صغير في بيروت بمنطقة الروشة على التلال الرملية.

وقد احتفل في زحلة عام 1923 بلقاء عمالي صغير في يوم الأول من أيار.

انضمام شباب جدد من الهنشاك إلى الحركة الشيوعية

بعد أن حلت الجمعية الطلابية للهنشاك وبعد تأسيس «سبارتاك» المنظمة الشيوعية، كلف اثنان من أعضاء الجمعية السابقين هما مارديروس أفاريان وزاديك دادوريان إعادة تنظيم المنظمة الطلابية للهنشاك، ولم تكن عند الاثنين تجربة تنظيمية في حزب الهنشاك ولا كانا على علم بأجواء الحزب.

وكانت جاذبية منظمة «سبارتاك» وتأثيرها التنظيمي والسياسي والإيديولوجي قد طغيا في ذلك الحين، وبدأت اتصالات مع المنظمة الطلابية للهنشاك بغية انضمامها إلى «سبارتاك» وقد أدَّت المباحثات إلى قرار بانضمام المنظمة الطلابية بجميع عناصرها إلى «سبارتاك» بعد تأهيلهم وتثقيفهم إيديولوجياً وسياسياً والقيام بنشاطات مشتركة بين «سبارتاك» والجمعية الطلابية بعد ظهر الأحد في 10 أيار 1925. وكان قد أقيم قبل ظهر اليوم نفسه، في ساحة كنيسة سورب نيشان، قداس

وجناز احتفاليان لراحة نفس الرفاق الذين سقطوا بحادث طائرة وهم ألكسندر ميسانيكيان، كيورك أترباكيان، وموغيلفسكي، كما ذكرنا آنفاً.

وجاءت المشاركة الجماهيرية في حضور الجناز انتصاراً سياسياً وتنظيمياً على حزب الطاشناك، خلف جواً حماسياً لدى الفئات الشعبية ولا سيما لدى الشباب الذين التفّوا حول «سبارتاك».

وكان نجاح تظاهرات الأول من أيار واحتفال سينما كريستال قد أحدثا مدّاً سياسياً تقدمياً. وفي ذروة هذا الاندفاع الجماهيري انعقد في العاشر من أيار؛ بعد ظهر ذلك الأحد، اجتماع مشترك بين «سبارتاك» والمنظمة الطلابية لحزب الهانشاك والشباب المسرّحين من ميتم «كيليكيان» في حوش المنازل في حي السيوفي. وفي جو حماسي موحد أقرّت وحدة المنظمة الطلابية للهانشاك مع منظمة «سبارتاك». كذلك تحت تأثير الاحتفال بالجناز اندفع الشاب زاديك دادوريان إلى اقتراح تسمية المنظمة بـ «منظمة الشباب الشيوعي» بدل «سبارتاك». وتجدر الملاحظة أن منظمة سبارتاك كانت قد حلّت نفسها قبل ثمانية أيام وانضمت إلى الحزب الشيوعي اللبناني.

قبلها بأشهر كتبت رسالة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا السوفياتية أطلعهم فيها أننا اخترنا، تحت راية الأممية الشيوعية، أن نتوحد «مع العمال الشباب في أماكن وجودنا، تجمعنا مبادئ وتكتيك الأممية الشيوعية على قاعدة طبقية مسلحين بمبادئ تنظيميّة، نسعى لنكون إحدى القواعد المناضلة تحت راية أممية البروليتاريا في الشرق».

وفي الواقع، فبعد أن اندمجنا في الحزب الشيوعي كقوى ناضجة أسَّسنا «جمعية الشباب الشيوعي» من عناصر شابة نسبياً مع عدد آخر من الشباب وكانت «جمعية الشباب الشيوعي» الجديدة تنفذ المهمات الحزبية ثم اندمجت كلّياً في صفوف الحزب.

«الإنسانية» أول جريدة شيوعية باللغة العربية

بعد نجاح احتفال الأول من أيار والأجواء العارمة التي نتجت عنه، رأى الحزب ضرورة وإمكانية إيجاد جريدة علنية مرخص بها. ومن المعروف أن الحزب كان يمارس نضاله العلني في ذلك الوقت من خلال حزب الشعب اللبناني، وبقرار من اللجنة التنفيذية لهذا الحزب كلّف يوسف يزبك العمل للاستحصال على ترخيص قانوني لصحيفة أسبوعية، وبفضل علاقاته الشخصية تمكن يوسف يزبك في غضون أيام من الوصول إلى تنفيذ هذا القرار، بعدما تمَّ جمع الأموال اللازمة لتأمين الكفالة القانونية في هذا المضمار.

«الإنسانية». هذا هو اسم أول جريدة شيوعية في العالم العربي، وهو ترجمة حرفية لاسم الجريدة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي «لومانيته». حيث إن هذه التسمية حددت الهوية السياسية لهذه الصحيفة. صدر العدد الأول في 15 أيار 1925 وتولّى يوسف يزبك رئاسة التحرير يعاونه فؤاد الشمالي في القضايا العمالية والنقابية وعلى أساس التوجه السياسي والإيديولوجي الذي يتطلبه الظرف في تلك الحقبة. كانت «الإنسانية» تصدر بإشراف من الحزب الشيوعي اللبناني لتشكل الجريدة الشيوعية الأولى في العالم العربي.

العدد الأول من «الإنسانية» حدد خطها السياسي حيث ورد تحت اسمها أنها «صحيفة أسبوعية أنشئت لخدمة العمال والفلاحين والدفاع عن حقوقهم وتنظيم صفوفهم». وإلى يسار الاسم شعار آخر في مجال تحديد هوية الصحيفة. إنها «للفقير على الغنيّ وللعامل على الرأسمالي». وفوق اسم الإنسانية شعار «اتحدوا أيها العمال». وفي الجهة السفلى: «هي جريدتك أيها العامل فاقرأها وأعطها لغيرك ليقرأها».

المقال الافتتاحي في العدد الأول «للإنسانية» أشار إلى أن الهدف

ليس مجرّد التعبير عن استيائنا، بل كيفية العمل على توحيد العمال والفلاحين وتنظيمهم لأن الهدف هو مواجهة أطماع الرأسمالية.

أما في ما يتعلق بالأعداد اللاحقة لجريدة «الإنسانية» فأخذت تعطي المقررات المطلبية التي طرحت في سينما كريستال حيّزاً من الاهتمام، كالمطالبة بثماني ساعات عمل في اليوم، إلى جانب المطالبة بزيادة الأجور للعمال. وما يلفت الانتباه أن بنهاية كل مقال، كانت «الإنسانية» توضح أن للوصول إلى هذه المطالب لا بدَّ للعمال من الانتساب إلى النقابات المهنية الموجودة، والعمل أو المبادرة إلى تأسيس نقابات عمالية للقطاعات التي لا يوجد لها نقابات. والملاحظ أن واقع الحركة النقابية في ذلك الوقت كان سيئاً حيث كان أصحاب المؤسسات في نقابات عمال المطابع والنجارين والحلاقين ممثّلين في الهيئات القيادية إلى جانب العمال. وهذا الواقع كان يُبعد العمال عن الحركة العمالية وتنظيمها النقابي. فما كان من «الإنسانية»، الصحيفة الشيوعية، إلّا أن دعت العمال إلى تطهير النقابات من أصحاب المؤسسات ومن «قبضايات» السلطة وإعادة تنظيمها على أساس طبقي، ليتم جمعها في إطار اتحاد عمالي عام، حيث عاد وتحقّق هذا الإطار بين عامي 1945ـ1946، وذلك بفضل النضال الطويل والمتواصل للحزب الشيوعي اللبناني. وكان رئيس الاتحاد العمالي العام في تلك المرحلة الرفيق مصطفى العريس.

❁ في هذا الظرف التاريخي إذاً، وفي غمرة انفتاح العمال وتلمس طريقهم التنظيمي صدرت جريدة «الإنسانية» التي أكدت وتبنَّت الخط العمالي والنقابي، والتي أصبحت على علاقة مع العمال عبر مراسلاتهم، أمثال بولس فارس كفوري وأنطوان سركيس ممّن عبّروا عن انزعاجهم من وجود أرباب العمل في قيادة النقابات.

وخلال مرحلة قصيرة من صدور «الإنسانية» تحولت إلى مركز صلة مع عدد من العمال الثوريين والمثقفين الذين أصبحوا لاحقاً في صفوف

الحزب الشيوعي اللبناني. من هؤلاء سليم خياطة من طرابلس، الذي أصبح معروفاً على نطاق عربي ككاتب ثوري وكممثل للحزب. ومن هؤلاء أيضاً أنطوان سركيس الذي انضم إلى الحزب الشيوعي اللبناني وأصبح من قياديي الحزب مشرفاً على نقابة عمال المطابع التي كانت في طليعة النقابات للدفاع عن الحركة النقابية في لبنان بعد نقابة عمال التبغ.

ووصل صدى «الإنسانية» إلى سوريا وانتشر شذاها الطيب هناك، وأخذت الصحف الصادرة في الشام وحلب، كجريدة «الميزان» الدمشقية، تنقل عن لسان جريدة «الإنسانية» دعوتها العمال السوريين لتنظيم أنفسهم في نقابات.

ولم تغب الجريدة عن أرض الكنانة، وكان يراسلها من الإسكندرية العامل نجيب الشمالي شقيق فؤاد الشمالي، وكان على صلة مع جريدة «حيفا» الصادرة في مدينة حيفا بفلسطين.

وخطت «الإنسانية» خطوة سياسية جديدة بنقلها مقالاً عن جريدة «لومانيته» الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي بقلم أندريه برتيني النائب الشيوعي، يدافع عن «ثورة الريف» في المغرب، مشيداً بهذه الحركة التحررية الوطنية المعادية للامبريالية الفرنسية بقيادة عبدالكريم. ثمَّ تصاعدت لهجتها فهاجمت الفاشية الإيطالية بقسوة وأدانت اغتيال النائب الاشتراكي الإيطالي ماتيوني.

وشنت الجريدة هجوماً شديداً على حكم الإعدام الذي أصدره البريطانيون بحق ثمانية من الوطنيين المصريّين بتهمة تنظيم محاولة اغتيال سردار، متعاطفة مع مشاعرهم الوطنية من غير أن تشاطرهم الرأي في أساليبهم، ولم تتوان في التنديد العنيف بالانتداب الفرنسي والسلطات المحلية لقرارهما إجراء انتخابات نيابية وتوزيع المقاعد على أساس طائفي. وقد أعلن حزب الشعب اللبناني مقاطعته لهذه الانتخابات لأنها لا تسمح بتمثيل العمال والفلاحين.

لكن لم يصدر من «الإنسانية» سوى خمسة أعداد فقط، قبل أن

يُصدر المفوض السامي الجنرال ساراي قراراً حمل توقيع «الكويسير» وسكرتيره العام بول لاييس يقضي بتعطيل الجريدة بحجة تنديدها بالحكم على المتهمين المصريين الثمانية. وفي الواقع لم تعد السلطات الامبريالية المشرفة على الانتداب تطيق استمرار جريدة الإنسانية.

كان يوسف يزبك يحرر افتتاحية الجريدة عند خير الدين الأحدب المعروف كوجه وطني معارض، والذي كان محرراً في جريدة «الأحد الجديد» في مكاتبها الكائنة بمحلة باب إدريس حيث يتردّد يوسف يزبك باستمرار لزيارته هناك.

بعد أسبوعين على إغلاق «الإنسانية» سافر يوسف يزبك خارج البلاد قاصداً فرنسا، محتفظاً بصلة مع الحزب الشيوعي الفرنسي وقد حلَّ مكانه في اللجنة المركزية للحزب فريد طعمه.

ولقد أتيح لنا في العام 1962 الحصول على نسخة من كل عدد من أعداد الإنسانية من عند يوسف يزبك، فاحتفظنا بها في «أرشيف» الحزب.

ولا يسعني، في ختام هذا الحيّز من البحث، إلا أن أنوه بالصداقة الحميمة التي جمعتني بيوسف يزبك حتى آخر حياته الزاخرة بالعطاء المبدع.

«الفنار الجديد» (نور باروس)

أول جريدة صدرت باللغة الأرمنية باسم الحزب الشيوعي اللبناني هي جريدة «الفنار الجديد». صدر العدد الأول في حزيران 1925. وكنت رئيساً لتحريرها. وقد صدر العدد الثاني والأخير في شهر تموز. وتقع جريدة «الفنار» في ست صفحات صغيرة الحجم، طباعة جيلاتينية. حررت افتتاحية العدد الأول عن انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا وما أحدثته من انعطاف كبير في تاريخ البشرية.

في العدد نفسه نشرنا صور الرفاق الشهداء الكسندر مياسنيكيان، كيورك اطارباكوف وموغيلفسكي وشاركني في إعداد وتحضير العددين من الجريدة الرفاق هيكازون بوياجيان (كان يوقع باسم «سانتس»)، أفاديس كنتوني، زاديك دادوريان، كيراكوس اتشابهيان. وزعت جريدة «نورباروس» (الفنار الجديد) في بيروت وجرى إرسال أعداد منها إلى زحلة وحلب وإلى الخلية الحزبية في جبل موسى.

سحق تظاهرة 20 تموز وأول بيان للحزب

نحن الآن في صيف 1925. العشرون من تموز ساحة البرج في بيروت (ساحة الشهداء)، تظاهرة صاخبة بدعوة من لجنة المستأجرين. التظاهرة الشعبيّة تملأ باحة «السراي الصغير» حيث تتمركز الحكومة وسلطة الدولة. وحدث ما لم يكن بالحسبان، لقد خرجت التظاهرة عن إطار الداعين إليها وتحولت إلى تحرك سياسي واسع مناهض للامبريالية الفرنسية، واتخذت منحى سياسياً واضحاً في مواجهة فرنسا وحلفائها والمتعاملين معها.

أقيمت التظاهرة في أجواء مشحونة ومعادية لفرنسا بعد ورود أنباء عن انطلاقة الثورة السورية، في 12 تموز في جبل الدروز بقيادة سلطان باشا الأطرش، وهي الثورة العربية المعادية للاستعمار الفرنسي والمنادية باستقلال سوريا. انتشرت بسرعة في جميع أنحاء سوريا وانتقلت إلى لبنان في مناطق حاصبيا وجبل الشيخ وراشيا الوادي ومنطقة الهرمل وخلقت جواً سياسياً مكهرباً ومشحوناً.

شارك في التظاهرة فئات واسعة من شعبنا مؤيدة للثورة ومعادية لفرنسا ولسلطة الانتداب، وكذلك شارك رفاقنا وأصدقاؤنا بشكل كثيف.

المتظاهرون أطلقوا شعارات معادية للاستعمار الفرنسي ولسلطة الانتداب، في أجواء حماسية وثورية وحطموا جميع نوافذ القصر

الحكومي وأبوابه. حراس القصر والشرطة «الجندرمة» الإضافية التي أتت لحماية القصر لم يستطيعوا مواجهة جماهير المتظاهرين، فجرت الاستعانة بقوات سنغالية من الجيش الفرنسي: نار غزيرة على المتظاهرين. عدد كبير من الشهداء والجرحى، اعتقال عدد كبير من المتظاهرين.

وعقد اجتماع استثنائي للجنة المركزية للحزب الشيوعي لبحث الثورة المندلعة في جبل الدروز وانتشارها في لبنان، تلك الثورة الوطنية المعادية للامبريالية التي خلقت أجواء جديدة في البلاد. وبحث نتائج تظاهرة المستأجرين بساحة البرج من الجانب السياسي والمطلبي. الاجتماع يقرر ما يلي:

1 ـ تأييد الثورة الوطنية السورية من أجل الاستقلال والتحرر ودعم الثورة المنتشرة في الأراضي اللبنانية.

2 ـ تأييد المطالب المحقة للمستأجرين ومعاقبة المسؤول عن إطلاق النار على المتظاهرين وإطلاق سراح جميع المعتقلين.

صدر بيان بهذا المضمون باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني السوري في أواخر تموز عام 1925، وكان هذا أول بيان للحزب وقد تولّيتُ طبعه على الجيلاتين، كما توليتُ تنظيم توزيعه. وقد شاركني مباشرة في نسخ البيان عامل المطعم أنيس الشمالي.

وزع البيان في منطقة بيروت وبشكل خاص في الخندق الغميق والأحياء القريبة منه حيث إن أكثرية سكان هذا الشارع من الفئات المعادية لفرنسا وحكومة الانتداب، والمؤيدة لثورة جبل الدروز وطرحها السياسي. وغالبية السكان في هذه المنطقة من العمال والفقراء. وزع البيان في المنازل وأُلصق على الجدران في الشوارع، كم وزع في بيروت وسوريا على الصحف بواسطة البريد وعُمّم على الشخصيات السياسية بالطريقة نفسها. كتبت عن البيان الصحف العربية والفرنسية الصادرة في ذلك الوقت، مثلاً جريدة «الرڤاي» الفرنسية أوردت الخبر في عدة

أسطر، وجريدة «لاسيري» الصادرة في بيروت كتبت مقالاً مطولاً عن البيان بسخرية ظاهرة.

لقد جاء بيان الحزب معبّراً عن دعم النضالات العمالية والنقابية والديموقراطية المطلبية. وإذا أخذنا في الاعتبار ما جاء في المقال الذي نشرته جريدة الإنسانية بمناسبة إعدام ثمانية من الوطنيين المصريين، وكذلك ما نقل عن جريدة «الأومانيتيه» بقلم أندريه برتون، فيكون البيان العلني الصادر عن الحزب دليلاً واضحاً وجلياً على وعي رفيع شكّل تحولاً تاريخياً في خطّ الحزب السياسي وخطوة ثورية في نضاله، وقد سجّل صدور هذا البيان مرحلة جديدة في عمله السياسي، ومنعطفاً ثورياً، وتكريساً لموقف جذري ولنضج في خطّه السياسي، مؤيداً حركة التحرر الوطني ومشاركاً فيها من أجل الاستقلال وضد الإمبريالية، مع استمراره في خوض النضال بزخم أكبر للمطالبة بحريات ديموقراطية وتنظيم النقابات، والعمل بين العمال لتوعيتهم وتنظيم الدفاع عن مصالحهم.

إن الظروف السياسية المستجدّة والتطورات التاريخية قد تلاقت لتسهم في بلورة هذا الموقف السياسي المميّز لدى الحزب على غير صعيد. والبيان الذي أشرنا إليه يشكل نقلةً نوعية في اتجاه تطوير موقف الحزب ومنطلقاته إزاء ثورة جبل الدروز، سواء في سوريا أم في لبنان، في سياق معادٍ للامبريالية وفي خضم ثورة وطنيّة مسلحة استقطبت فئات وطنية لبنانية واسعة، وزخمٍ من الاستعدادات النضالية والثورية المناهضة للامبريالية كان يأخذ مداه تحت تأثير الأحداث الجارية.

من واقع الأرمن اللبنانيين:
الأسباب الموضوعية والتاريخية لنشوء الحركة الشيوعية

بقيام منظمة «سبارتاك» في مطلع عام 1924، ابتدأت الحركة

الشيوعية بين الأرمن اللبنانيين وشقت طريقها بعناد وسط ظروف صعبة، وبنضال دؤوب تخطّت جميع القيود وواجهت جميع أنواع الظلم والملاحقات.

استشهد العديد منا وتعرضنا للاعتقال والنفي، وبالرغم من جميع أنواع الحرمان، تطور هذا التنظيم خلال سنوات إلى حركة شيوعية جماهيرية في جميع بلاد الاغتراب.

إن ولادة الحركة الشيوعية بين الأرمن اللبنانيين، كما عند جميع الشعوب، لم تكن مجرد صدفة ولم تنبع من مبادرة فردية في معزل عن العوامل التي أنتجتها أو احتضنتها. إنها نتيجة لظروف موضوعية وتاريخية محددة لدى الأرمن اللبنانيين. إن الظروف الاجتماعية والفكرية والسياسية أدّت إلى نضج الشعب الأرمني، وكانت الحركة الشيوعية وتنظيمها تعبيراً حياً عن هذا الاختمار الفكري والاجتماعي والسياسي لدى الأرمن اللبنانيين.

أما بشأن الظروف والأسباب الموضوعية الأخرى فيجدر بنا في هذا السياق أن نركّز على الملاحظات الآتية:

أولاً: انتصار الثورة الاشتراكية العظمى في روسيا وتأثيرها لدى الشعوب الأخرى. فلقد كان للشعب الأرمني في لبنان نصيبه من التأثير بكل الأفكار والمنطلقات والمبادئ السياسية الجديدة في مضمار المسألة القومية، كمنهج ثوري للعمل. وهو ما فسح في المجال أمام نشوء حركات شيوعية، ولا سيما في صفوف العمال والشغيلة ولدى فئات واسعة من فقراء شعبنا وبين الناشئة من المثقفين الشباب.

ثانياً: وجود أرمينيا السوفياتية لعب دوراً قومياً وإيديولوجياً وسياسياً بارزاً لدى الأرمن اللبنانيين، وساهم في انتشار مبادئ ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى التي وضعت أرمينيا على طريق الخلاص، فتوافق ذلك مع تطلعات الشعب الأرمني وتلاقى مع مصالحه القومية

والاجتماعية نحو التحرر والسلام وساعد على تقوية الحركة الشيوعية بين الجماهير الأرمنية في لبنان.

ثالثاً: في أواخر العام 1921 وأوائل العام 1922 استوطن الأرمن لبنان وغالبيتهم من العمال والشغيلة والفئات المعدمة، وقد شكّل وضعهم الاجتماعي ومتطلباتهم الحياتية والفكرية قاعدة ومنطلقاً لنشوء الحركة الشيوعية، هذا مع العلم بأن المسألة الاجتماعية والطبقية بالنسبة إلى الأرمن في لبنان حديثة العهد وقد برزت مع وجودهم في لبنان.

وهكذا فخلال ستين سنة من النضال الدؤوب في ظروف صعبة للدفاع عن مصالح العمال والشغيلة، وفي سبيل الحريات الديموقراطية ودفاعاً عن القضايا الاجتماعية والقومية، ولأجل غد أفضل، فقد كان على الحزب الشيوعي اللبناني أن يخوض غمار المعارك والتحديات على اختلافها، منذ نعومة أظفاره، مسترشداً بخط وطني وسياسي صحيح أسهم في إنضاج الوعي الفكري لدى شعبنا... وعبر طريقه الصعب والمجيد كان على الحزب الشيوعي أن يتفاعل في أوقات لاحقة، مع حركة وطنية لديها قدرات نضالية وفكرية كبيرة، وهي الحركة التي أسهمت في وضع لبناتها الأولى وإعلاء شأنها، سواء أيام العهود الاستعمارية أم بعد الاستقلال وفي ظل المواجهات الجديدة.

والحزب الشيوعي وجد نفسه مدعواً، في كل مرحلة، وهو مدعو اليوم بشكل أكثر إلحاحاً، للقيام بدوره الأساسي والطليعي في نضالات العمال والشغيلة والفئات الواسعة من شعبنا، دون تراجع لتحقيق أهدافنا الوطنية والاجتماعية والسياسية وانتزاع مكاسب جديدة وصيانة المكتسبات السابقة وتطويرها.

وعبر المراحل المتعددة من تاريخ حزبنا وشعبنا تركزت قناعاتنا أكثر فأكثر بأن فئات واسعة من الأرمن، مثلما هو شأن العرب، تشعر بأن الحزب الشيوعي يعبّر عن مصالحها وتطلعاتها الوطنية والاجتماعية، بنهجه وممارسته لتحسين أوضاع جميع اللبنانيين بمن فيهم الأرمن.

وسوف يتبيّن معنا، عبر صفحات هذا الكتاب، أن نهج الحزب الشيوعي اللبناني وانتصاراته إنما تؤمن للأرمن الحفاظ على هويتهم الوطنية وتطورها وتطور ثقافتهم مع الثقافة العربية والحصول على حقوقهم الوطنية المتساوية ضمن المجتمع اللبناني، وسوف يتضح أيضاً كيف أن تعزيز العلاقات على كل الصعد مع أرمينيا السوفياتية، الوطن الأم لجميع الأرمن إنما يساعد على توحيد الموقف الأرمني حول قضيتنا وحقوقنا القومية وملاحقتها بأسلوب صحيح.

رابعاً: إن الدعم الأخوي والدور المتحرّر الذي قامت به روسيا السوفياتية، قد أنقذ أرمينيا من فناء حتمي وساعد على ولادة جمهورية أرمينيا السوفياتية .

لقد تركّز إحساس وتفكير شعبنا على مبادئ ثورة أكتوبر الاشتراكية، وبكلمة أخرى فقد توحّدت أحاسيس شعبنا في الميدان الاجتماعي والفكري وتثبتت وانتشرت هذه المبادئ وتجذرت بين الأرمن اللبنانيين معبّرة عن نفسها في حركة شيوعية.

خامساً: إن الأرمن اللبنانيين الذين شاركوا في تأسيس الحركة الشيوعية حاملين معهم تراث نضال الشعب الأرمني وتجارب الثورة التحررية والاجتماعية وخبرة التجارب الماضية، إن هؤلاء الشيوعيين الأرمن في لبنان هم الممثلون الحقيقيون لتراثهم الوطني والمستمرون بحمل هذا التراث في ظروف جديدة مستفيدين من الدروس السابقة ومسلّحين بفكر علمي جديد أكثر تكاملاً من أجل حياة فضلى.

سادساً: إن ضمان المصالح الوطنية للشعب الأرمني في لبنان وسوريا يقتضي وحدة نضالية معادية للامبريالية، كما يتطلب النضال من أجل الاستقلال الوطني جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب. هذه السياسة هي ضرورة وطنية، والشيوعيون وحدهم قادرون على تنفيذ هذه الأهداف وتحقيقها.

وحدهم الشيوعيون الأرمن كانوا روّاداً في طرح هذا الخط التحرري

بينما كانت قيادة حزب الطاشناك في ذلك الوقت عميلة للامبريالية الفرنسية ولسلطات الانتداب، تحاول بشتى الوسائل تضليل الشعب الأرمني في سوريا ولبنان على ما رأيناه بشكل خاص في شهر حزيران سنة 1925، وجر الشعب الأرمني إلى مواقف معادية للثورة الوطنية التحررية في تلك الآونة وبعدها.

سابعاً: بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى نكثت بلدان التحالف الامبريالي ولا سيّما فرنسا وبريطانيا العظمى، وعودها إزاء تحرير أرمينيا من الحكم التركي. وخانت الأرمن، بل أكثر من ذلك، فهي قد ساعدت سلطة مصطفى كمال في تركيا على التقدم باتجاه أرمينيا لمحاربة روسيا السوفياتية، مضحّية بأرض أرمينيا الحالية لمصلحة تركيا وسلمت كيليكيا إلى مصطفى كمال بعد إفراغها من سكانها الأرمن وإبعادهم عن ترابهم الوطني.

تعرض المهجرون الأرمن لجميع أنواع المآسي وتشردوا في شتى أنحاء العالم. وفي 24 تموز 1923 وقّعت دول التحالف الامبريالي في لوزان اتفاقاً معيباً ومذلاً تنكرت بموجبه كلياً ونهائياً للقضية الأرمنية ولجميع حقوق الشعب الأرمني، وخصوصاً حقه بترابه الوطني، وتغاضت عن المجازر العنصرية. هذه المآسي والحقائق لا يمكن أن ينساها الأرمن وخصوصاً الأرمن الذين رحلوا من كيليكيا نتيجة للتآمر الفرنسي البريطاني والمعبّئين بالكراهية والعداء للامبريالية الفرنسية والبريطانية. كذلك كان الشعب العربي بدوره يعاني سياسة التآمر وإنكار جميع الوعود السابقة الواعدة بالتحرر والاستقلال، فكانت المطالبة بتنفيذ التعهدات السابقة تُقمع من غير رحمة. لقد جمع الشعبين العربي والأرمني شعور موحّد بالعداء للدول الامبريالية، الأمر الذي أرسى في لبنان وسوريا قاعدة للنضال من أجل الاستقلال الوطني والتحرر. هذه الحقيقة، وهذا الواقع السياسي الأرمني أسهما في إيجاد حركة شيوعية وتأسيس حزب مناضل. فوحده هذا الحزب يستطيع أن يجمع بين العرب والأرمن ويوحّد

أواصرهم للدفاع عن مصالحهم ضدّ الامبريالية موفراً الضمانة للحفاظ على الحقوق الوطنية للأرمن في لبنان وسوريا وسائر البلدان العربية.

إن هذا الموقف قد تعزّز بوجود أرمينيا السوڤياتية إلى جانب روسيا السوڤياتية والجمهوريات السوڤياتية الأخرى في جبهة مشتركة للنضال ضد الامبريالية، داعماً نضال الشعوب العربية وحركة التحرر الوطني المعادية للامبريالية. واليوم فلا يمكن نفي حقيقة كون الشيوعيين الأرمن هُمْ أول من حمل بين الأرمن راية الاستقلال الوطني في لبنان وسوريا، وناضلوا إلى جانب الشعب العربي من أجل الاستقلال الوطني.

إن هذا الخط ينمو ويتصاعد يوماً بعد يوم ويغدو بمثابة النهج الوطني الغالب بين الأرمن الموجودين في لبنان وسوريا.

تشكيل «لجنة تنظيمية نقابية»

في الأول من أيلول 1925 وصل إلى بيروت أندريه هركلي وهو أحد قادة الاتحاد العمالي العام الموحّد الفرنسي (س.ج.ت)، وأحد أعضاء المكتب التنفيذي للأممية النقابية الحمراء. وخلال الزيارة عقد اجتماعاً مع فؤاد الشمالي وإيلي تابت، وكان الأخير عضواً نقابياً في المطبعة الكاثوليكية (الآباء اليسوعيين) قرب طريق الشام، لدراسة وضع الحركة النقابية في لبنان وكيفية تطويرها وتقويتها بمساعدة من حزبنا. وقد سارع الحزب إلى اتخاذ قرار يقضي بالعمل الجادّ في هذا القطاع الأساسي، معتمداً إجراءات تنظيميَّة جديدة لتحقيق هذا الهدف وتنفيذ المقررات المتفق عليها في غضون أسبوعين أو ثلاثة. فتشكلت هيئة تأسيسية لتنظيم العمال في النقابات قوامها فؤاد الشمالي سكرتير نقابة عمال التبغ، برجيس أبو صالح (نجار)، فريد طعمة (عامل تبغ)، جورج عيّان (حلاق)، نسيم الشمالي (طباخ)، ميكايل كشيشيان (عامل أحذية)، كيفورك كراخانيان (نجّار) وغيرهم، واتصل نسيم الشمالي بصاحب ومدير

جريدة «العمال» سجيع الأسمر وعقد معه اتفاقاً على أن يكون مسؤولاً عن التحرير وتحتفظ الجريدة بمضمون نقابي ويكتب هو الافتتاحية، ولكن في الواقع كان فؤاد الشمالي هو الذي يحرر الافتتاحية، وقد صدر العدد الأول وفيه نداء اللجنة النقابية، التي تأسست حديثاً، موجَّهاً إلى العمال شارحاً مطالبهم العمالية داعياً إياهم لتوحيد الصفوف وللانتظام داخل النقابات وتعبئة القوى لخوض نضالات لتحقيق مطالبهم.

لكن بعد صدور العدد الأول تراجع صاحب الجريدة سجيع الأسمر عن الاتفاق نزولاً عند ضغط مارسته السلطة.

نداء إلى الشعب الأرمني
لدعم الثورة العربية المسلحة وتأييدها

اندلعت الثورة المعادية للاستعمار الفرنسي ولسلطات الانتداب في سوريا كلها وانتشرت في أجزاء من لبنان. في ذلك الوقت كان العملاء والمأجورون من الأرمن يروّجون أخباراً وقصصاً أن الثورة خطر على وجود الشعب الأرمني في لبنان وسوريا، وذلك بغية إخافة الأرمن وخلق جو معاد للثورة الوطنية ومؤيديها من العرب والأرمن، وجعل أرمن سوريا ولبنان قاعدة للدفاع عن الاستعمار الفرنسي ضد ثورة حركة التحرر الوطني للشعوب العربية من أجل الاستقلال ودعوة الأرمن للانخراط في صفوف الجيش الفرنسي.

لا مناص لنا من الاعتراف بأن الدعاية المغرضة تمكّنت آنذاك من خلق شكوك إزاء الثورة العربية وطابعها الوطني والتقدمي. ولكن، رغم ما اعترى الأرمن من وضع غامض وملبّد في سوريا ولبنان، فإنهم يفتخرون بكونهم أحبطوا محاولات الاستعمار الفرنسي وأفشلوا مخططاته لجرّهم إلى اتخاذ موقف مناهض للثورة.

ذلك أن الأرمن في لبنان وسوريا اتخذوا موقفاً صحيحاً ومستقيماً

ولم يكن لهم موقف معاد للشعب العربي وثورته التحررية، ما عدا قلّة ضئيلة من العملاء والمأجورين للاستعمار الفرنسي وهم بشكل خاص من دوائر حزب الطاشناك.

لقد شكّك الأرمن بالنيات الكامنة وراء دعاية الاستعمار الفرنسي وعروضه «السخيَّة» نحوهم. أوليس المستعمرون الفرنسيّون هم أنفسهم الذين خانوا الشعب الأرمني وقضيته الوطنية؟ كيف لهم أن يصدّقوهم؟ وهل يُلدغ المؤمن من الجحر المرّة تلو المرّة؟!

لكن رغم هذه الحقيقة المطلقة كان ضرورياً توضيح الطابع التحرري والتقدمي للثورة العربية وتصحيح الموقف الأرمني، والتعامل بإيجابيَّة مع هذه الثورة انطلاقاً من المصالح العليا للأرمن وضمان أمنهم في العيش المشترك. تأكيداً لهذه القناعة صدر في 12 تشرين الثاني 1925 بيان موجَّه إلى الأرمن من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني السوري، وقد قمتُ بتحريره وطبعه على الجيلاتين، ونظمتُ توزيعه وشاركتُ مباشرةً في هذا التوزيع.

أوضح البيان خطّ الثورة العربية المناهض للاستعمار، ونهجها التحرّري والتقدمي، وأكدّ أن ليس لها طابع معاد للأرمن. ونبّه البيان الأرمن، إلى مغبّة تصديق أكاذيب الاستعمار الفرنسي، مهيباً بهم أن لا يكونوا ضحيته، وأن يُحجموا عن الانجرار وراء العملاء ودعوتهم المغرضة، وينبُذوا فكرة الانضمام إلى صفوف الجيش الفرنسي، وعليهم بمساندة الثورة العربية لأنها تجسد المصالح الوطنية للشعب الأرمني.

وزع البيان في أماكن تمركز الأرمن وكان له صدى كبير. كما وزع أيضاً في حلب وقُرى جبل موسى.

تضعضعت الهيئة المعيّنة «لكنيسة الصليب المقدّس الأرمني» بقيادة وتأثير أشود كاسرجيان من حزب الطاشناك وكان ألعوبة في يد المندوبية العامة الفرنسية، وإذ به يسارع، ملعثم اللسان، إلى «نفض يده» أمام

أسياده من توزيع البيان، زاعماً أن وراء البيان المذكور أشخاصاً غير مسؤولين وفوضويّين موالين للعرب. وأن الأرمن ما زالوا يمحضون السلطات الفرنسية الولاء والطاعة.

في تلك الأيام كان موسيس دير كالوستيان مسؤول حزب الطاشناك في قرى جبل موسى ينصح الفلاحين الأرمن بالتطوع في الجيش الفرنسي ومقاتلة الثورة. فبادرت المنظمة الأرمنية للحزب الشيوعي في قرى جبل موسى بقيادة الرفاق ستراك هيكازيان واكوب دربدروسيان وبانوس أرامايسيان، بوحي وتأثير من البيان الصادر من الحزب، إلى القيام بتحرك بنّاء وحرّضت الفلاحين الأرمن على رفض الانخراط في صفوف الجيش الفرنسي وعدم مقاتلة الثورة العربية المندلعة، وإفشال مشروع شق الطرقات حيث كان موسيس دير كالوستيان قد درج بالتفاهم مع السلطات الفرنسية على تسخير الفلاحين للعمل فيها مجاناً دون مقابل. وبهذا المعنى أُلصِق بيان بخط اليد على الجدران في القرى. نتيجة لنشاط رفاقنا انتفض الفلاحون على العمل الإجباري الشاق فتمّ إلغاؤه نهائياً.

حدث سياسي مهم:
الحزب يجمع قادة الاستقلال اللبناني والثورة السورية (اتفاقية نهر الكلب)

في أول أيلول 1920 أعلن الجنرال غورو قائد القوات الفرنسية المحتلة من على مدرج البطريركية المارونية في بكركي إنشاء «دولة لبنان الكبير» بضم طرابلس وعكار وسهل البقاع الغربي والشرقي ومنطقة صيدا التي كانت جزءاً من سوريا في ذلك الوقت إلى لبنان الصغير (المتصرفية) تحت سيطرة الفرنسيين وحمايتهم. على أنّ غالبية سكان هذه المناطق، من المسلمين المعادين لسلطات الانتداب وبشكل خاص من أصحاب

الاتجاهات المناهضة للامبرياليّة الفرنسية، وقفوا ضد الانضمام إلى لبنان الصغير. وطالبوا بالانضمام إلى سوريا، رافضين الاعتراف بلبنان الكبير.

وكانت البطريركية المارونيّة تتعامل باسم المسيحيّين مع الانتداب الفرنسي بمرونة، وكان تيّار المارونيّة السياسية يشهد تطوراً مميّزاً في صفوف الموارنة الذين يمثلون أكبر طائفة مسيحية، باتجاه مؤيد لبقاء الامبريالية الفرنسية، بينما كان سكان الأقضية المنضمّة إلى «لبنان الصغير»، شأنهم شأن الفئات الدرزية والإسلامية الموجودة فيه يتّخذون موقفاً معادياً للامبريالية الفرنسية، ومؤيداً للكفاح التحرّري الذي يأخذ مجراه في سوريا في سبيل الاستقلال الوطني.

هذا الوضع خلق حالة انقسام في الدولة الناشئة، لبنان الكبير، فارتدى طابعاً طائفياً بين مسيحيين ومسلمين. واستغلّ المستعمرون الفرنسيون هذا الوضع الذي أمَّن لهم سيطرة دائمة وظهروا بمظهر المدافع عن المسيحيين، وجُلّ اهتمامهم إيجاد وضع يحُول دون الوصول إلى الاستقلال الوطني.

وفيما كانت سوريا ترفع راية الاستقلال الوطني بوجه الامبريالية الفرنسية، كانت الأوساط الموجهة من قبل الاستعمار أو المرتبطة به على هذا النحو أو ذاك تعمل بحماسة في لبنان، بما فيه الأقضية المنضمة حديثاً، في سبيل ديمومة السيطرة الفرنسية، تعاونها في ذلك أوساط من الرجعية المارونيّة.

الموقف التاريخي الذي كان يفرض نفسه هو الدعوة للحفاظ على الوحدة بين أبناء الشعب كافة، وإزالة مخاوف المسيحيين غير المبرّرة وإعطاؤهم الضمانات الضرورية شرط أن لا يؤيدوا المحتل الفرنسي ومساعي تحويل لبنان إلى قاعدة للاستعمار معادية للشعوب العربية ونضالها من أجل التحرر الوطني، الذي كان يتطور بسرعة آنذاك في سوريا والعراق والبلدان العربية الأخرى.

بيد أن المفرح والمشجّع هو أن في أوساط الطوائف المسيحية وفي

وسط الطائفة المارونية، كانت هناك قوى سياسية ترغب في التفاهم مع المسلمين اللبنانيين للخروج من السيطرة الامبريالية وإنشاء دولة وطنية مستقلة. ولقد عبرت عن هذه الحقيقة ولادة حزب الشعب اللبناني وانتشاره السريع، وتحوّله في الفترة نفسها إلى حزب شيوعي. إضافة إلى وجود قوى وطنية ديموقراطية وتيارات استقلالية داخل الطائفة المارونية، أمثال المحامي والوجه الاجتماعي البارز يوسف السودا الذي جمعتني به صلات شخصية، وكان على علاقة برفاقنا في بكفيّا. وجرى بمبادرة من حزبنا ترتيب لقاء بين يوسف السودا وبين وجه معروف من الثورة العربية التحررية هو الزعيم الدرزي علي ناصر الدين. جرى اللقاء في 18 تشرين الثاني 1925 في نهر الكلب قرب الجسر على المنعطف باتجاه جونيه في عِلِّيَّة مقهى صغير يملكه أحد أصدقائنا.

انتهى اللقاء بين الرجلين بنجاح وتوصّلا إلى الاتفاق الآتي:

1 ـ يلتزم المسلمون باستقلال لبنان الوطني ضمن حدوده الحالية ويتنازلون عن المطالبة بإعادة الأراضي المنضمة إلى سوريا والتنازل عن طلب الوحدة مع سوريا.

2 ـ يلتزم المسيحيّون من جانبهم بعدم تحويل لبنان إلى قاعدة للمستعمرين في الشرق العربي، ويحافظون على طابعه العربي ويقطعون علاقته مع المستعمر ليتحوّل إلى دولة ذات سيادة وطنية، تضمن العيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين على أساس حقوق سياسية متساوية.

صحيح أن الاتفاق لم يعطِ نتيجة عملية، لكن هذا الحدث كان له أهمية سياسية وتاريخيّة، وقد فتح أمام مستقبل لبنان أفقاً سياسياً جديداً وطريقاً مشرقاً. ولعلّ هذا الإطار العام للاتفاق عاد واعتُمد بعد ذلك بثماني عشرة سنة، في الاستقلال السياسي الذي تمَّ التوصل إليه في العام 1943 بين بشارة الخوري ورياض الصلح. ومهما تكن سلبيات هذا الاتفاق الأخير وحدوده، فينبغي القول إن الجانب الأساسي منه كان اجتذاب جماهير مسيحية واسعة لجانب الموقف المعادي للاستعمار

الفرنسي، ومنع تفاقم الانقسام الطائفي الذي كان يستغلّه الانتداب لتركيز سيطرته، إضافة إلى خلقه شروطاً إيجابية جديدة للنضال من أجل الاستقلال الحقيقي المنسجم مع المصلحة الوطنيّة ومن منظار غير طائفي.

للأمانة التاريخية نقول إن حزبنا في عام 1925 عمل وناضل من أجل تنفيذ اتفاقية نهر الكلب، ويجب الإعلان أن علي ناصر الدين في تلك الأيام كان على علاقة مع حزبنا، وكان صلة الوصل بين حزبنا والثورة العربية الوطنية المندلعة في سوريا. والصحيح أيضاً أن حزبنا في تلك الفترة كان لا يملك الإمكانيات للمشاركة في الثورة، لكنه اتّخذ موقفاً مؤيداً لها من خلال تحركه السياسي وعمله للتعبئة وللتحريض في داخل البلاد وفي الساحة الدولية، وكان هذا عملاً مهماً وأعطى نتائج مثمرة.

في تلك الأثناء، في اجتماع مشترك لمجلسي النواب والشيوخ في فرنسا أطلق أحد النواب الشيوعيين في خطابه شعار «سوريا للسوريين» كان لهذا الشعار صدى واسع في فرنسا، وكذلك استقبل بفرح وارتياح من قبل الثورة الوطنية في البلاد العربية كلها.

وفي الفترة نفسها أصدرت الأممية الشيوعية بياناً حول الثورة الوطنية المعادية للاستعمار في الريف بشمالي أفريقيا، معلنةً تأييدها تحت قيادة عبد الكريم.

نداء إلى جنود الجيش الفرنسي!

في تشرين الثاني من سنة 1925، وبقرار من اللجنة المركزية للحزب حرر نداء باللغة الفرنسية، طبع على الجيلاتين بأعداد كبيرة وقمتُ بتنظيم توزيعه.

النداء موجه إلى جنود الجيش الفرنسي يدعوهم إلى تأييد الثورة السورية والتآخي معها، وتحويل سلاحهم بوجه ضباطهم والنداء موقّع

باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري واللبناني، ووزع في مراكز تجمع الجيش الفرنسي بشكل خاص في بيروت وقرب ثكنة رياق العسكرية، وفي مدينة زحلة حيث يوجد بشكل دائم أعداد كثيفة من الجنود الفرنسين، وكذلك في مدينة حلب، وأرسلنا عدة نسخ من النداء إلى دمشق على عنوان أحد أعضاء حزب الهنشاك، لكن الأخير خاف أن يشكل له النداء المتاعب، فأتلفه حرقاً.

وأوردت جريدة «الأومانيته» الشيوعية الفرنسية خبر النداء.

ويتذكّر يوسف يزبك البيان بعد اعتقاله عام 1926 وخلال التحقيق معه من قبل المحقق العسكري الفرنسي السيد مياندييه، ويقول في شهادته عن النداء المذكور:

«بيان بلون أحمر قدمه لي قاضي التحقيق وقال: إقرأ. أتذكر الكلمات التالية في البيان؟ كأنه أمامي الآن. أيها الجنود، يا أبناء العمال والفلاحين، هؤلاء الثوار الذين ستقتلونهم وستدمرون بيوتهم بأمر من الامبرياليين، هؤلاء مثلكم ومثل آبائكم عمال وفلاحون. بدلاً من أن توجهوا بنادقكم إلى صدورهم فمن واجباتكم أن توجهوا بنادقكم إلى صدور الجنرالات وأصحاب الرساميل الذين يمصّون دماءكم من أجل مصالحهم»[1].

بيان 7 تشرين الثاني

وصدر باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني السوري بيان بمناسبة انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى في 7 تشرين الثاني، شارحاً المعاني التاريخية والعالمية لهذه الثورة، كركيزة لنضالات حركة

---

(1) راجع جريدة «النداء»، العدد الخاص بالأول من أيار، صادر في 2 أيار 1982، ص 29.

التحرر الوطني في العالم. كما أوضح البيان الطابع الوطني والتحرري للثورة السورية المعادية للاستعمار، داعياً الجماهير للانضمام إليها ودعمها بشتّى الوسائل.

وهذا البيان توليتُ طبعه وشاركت في توزيعه.

أكتوبر وأرمينيا.. ومعركتنا الوطنية

وأقمنا في العام نفسه وبمناسبة 7 تشرين الاثاني احتفالاً قرب مستشفى الروم في مبنى القناطر ـ الطابق الأرضي، بحضور نحو مئة شخص وقف قسم منهم خارج القاعة. جرى الاحتفال في جوّ حماسي وتكلم فيه فؤاد المشالي وأنا عن أهمية ثورة أكتوبر وعن إنشاء دولة أرمينيا السوفياتية في 29 تشرين الثاني، والمستجدات في الوضع السياسي، كما تناولنا المطالب العمالية وتطرقنا إلى العلاقة الأخوية الأرمنية ـ العربية. وأشرت في كلمتي إلى النضالات التي خاضها الشعب الأرمني والعربي من أجل الاستقلال الوطني. وتحدثت عن الثورة الوطنية السورية وقلت بشكل خاص: «إن ضمان أمن ومستقبل الشعب الأرمني في الشرق العربي إنما يكمن بوحدته مع الشعب العربي، ونضاله جزء لا يتجزّأ من نضال الشعب العربي المعادي للاستعمار من أجل التحرر والاستقلال الوطني»[1].

كوكبا.. والطائفية

في تشرين الثاني 1925 حدثت مجزرة في قرية كوكبا في الجنوب اللبناني، حاولت السلطات الفرنسية استغلالها وإعطاءها الطابع الطائفي

(1) انظر جريدة «يريفان» الباريسية ـ مقال بقلم أرتين مادويان موقّع باسم مستعار: «لينيني».

بغية الإساءة لسمعة الثورة الوطنية في سوريا ولإحداث بلبلة وتأجيج النعرات الطائفية. عندئذ صدر نداء خاص من اللجنة المركزية للحزب دعا الجماهير إلى عدم الانجرار للدعوات الطائفية، وأدان الجريمة.

وقد طبعت النداء طباعة جيلاتينية واشتركت في توزيعه مع عدد من الرفاق.

انعقاد أول «كونفرانس» للحزب

عقد أول اجتماع موسع للحزب الشيوعي السوري اللبناني في أول من شهر كانون الأول عام 1925 في بيروت، قبالة شركة الكهرباء والتراموای في منزل يروانت دادوريان، عضو اللجنة الطلابية لحزب الهنشاك وكان على صلة وصداقة مع الحزب الشيوعي.

حضر الاجتماع الموسع الرفاق فؤاد الشمالي، أرتين مادويان، إيلي تيبر، وهيكازون بوياجيان وفريد طعمه ونسيم شمالي عمال التبغ من بكفيا (وبعض عمال المطابع من بيروت)، ماسيس بانوسيان (عامل طباعة من حلب)، مارديروس أفاريان (عامل مطبعة من بيروت) وثلاثة رفاق آخرين لم أعد أذكر أسماءهم.

أما جدول الأعمال فجاء على الوجه الآتي:

أولاً: تقرير اللجنة المركزية ـ الوضع السياسي ـ نشاط الحزب والمهمّات السياسية والتنظيمية.

ثانياً: قراءة إيلي تيبر الرسالة الموجهة من الأممية الشيوعية إلى الحزب الشيوعي، والمتضمنة الموافقة على خطه السياسي.

ثالثاً: انتخاب اللجنة المركزية.

انتهى الاجتماع الموسع باتخاذ القرارات التالية: الموافقة على سياسة اللجنة المركزية وموقفها المؤيد للثورة الوطنية السورية والممتدة إلى أجزاء من لبنان. واستمرار النضال ضد الاستعمار للوصول إلى

الاستقلال الوطني وإقامة الدولة الديموقراطية، والنضال من أجل الحريات الديموقراطية والنضال من أجل تحقيق المطالب العمالية، وتقوية الحركة النقابية، واتخاذ الإجراءات الضرورية لتعزيز الوضع التنظيمي للحزب. المطالبة بوضع الأرض تحت تصرف الفلاحين العاملين فيها. مصادرة أراضي الإقطاعيين باستثناء الموالين للثورة الوطنية المندلعة. وجدد الاجتماع انتخاب أعضاء اللجنة المركزية للحزب.

يجب أن نؤكد أن هذا الاجتماع الموسع (الكونفرانس) للحزب الشيوعي السوري اللبناني وهو أول لقاء من نوعه، لم يكن بمثابة مؤتمر ولا يصح اعتباره مؤتمراً. ويخطئ رفاقنا السوريون خطأً فادحاً باعتبارهم هذا الاجتماع على أنه المؤتمر الأول. والانطلاق من ذلك في ترقيم المؤتمرات اللاحقة. لم ينعقد اجتماع آخر في سوريا في ذلك الوقت، ولم يكن ذلك ممكناً أصلاً حيث لم يكن يوجد في سوريا في تلك الفترة سوى فرقتين شيوعيتين، في حلب وفي جبل موسى وكانتا فرعين «لسبارتاك». والمؤسف أن رفاقنا السوريين يتجاهلون وجود هاتين الفرقتين عندما يتحدثون عن تاريخ حزبهم.

«أول غيث» الاعتقالات

بعد انعقاد الكونفرانس الحزبي مباشرة تقدّم فؤاد الشمالي بطلب من الأمن العام الفرنسي للحصول على جواز سفر استعداداً للذهاب إلى فلسطين بمبادرة شخصية منه، لعرض نتائج الكونفرانس مع قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني. وفي 12 كانون الأول عام 1925 ألقي القبض على فؤاد الشمالي، بينما كان متوجهاً لزيارة مكتب المحامي نمر هبه الكائن في باب إدريس ـ الطبقة الثانية من البناية الواقعة قرب «أوتيل رويال».

وكان نمر هبه وهو عضو في حزب الشعب اللبناني قد أبلغ فؤاد الشمالي بأنه ومكتبه واقعان تحت المراقبة نظراً للأجواء السائدة في تلك

الأيام. وكان هذا أمراً طبيعياً بعد تظاهرة الأول من أيار وإغلاق جريدة «الإنسانية». لكن بعد مغادرة يوسف يزبك البلاد وبروز فؤاد الشمالي على الصعيد العلني كمناضل نقابي معروف، صار هذا الأخير يتصرف على أساس أن السلطة لن تعتقله إلّا في حال قيامه بعمل غير قانوني وضبطه بالجرم المشهود في هذا المجال. وبدوره كان إيلي تيبر قد اعتُقل قبل القبض على فؤاد الشمالي، وذلك إثر دخوله إلى مكتب نمر هبه حسبما أخبرني إيلي تيبر فيما بعد.

وفي اعتقادي، وبناء على المعطيات المتوافرة لديّ، كان ينقص الرفيق تيبر الحذر. إن إنساناً ثورياً وذا تجربة لا يجوز أن يقع في خطأ كهذا. لقد كان يعلم أن مكتب هبه مراقب ومع ذلك كان يتردّد إليه، وكان فؤاد الشمالي يفعل ذلك أيضاً.

يوسف يزبك يعود..

تلقّى الحزب ضربة مؤلمة باعتقال فؤاد الشمالي وإيلي تيبر. لم يبق خارج الاعتقال من أعضاء اللجنة المركزية سوى هيكازون بوياجيان وأنا. وانقطعت علاقاتنا مع الجهات التي كان فؤاد الشمالي على اتصال بها وأصبحنا في وضع صعب. وحدث في بداية شهر كانون الثاني 1926 أن عاد يوسف يزبك من فرنسا. اتصلنا به على الفور فأظهر استعداداً للعمل معنا واستأنفنا العمل. كان يوسف يزبك على صلة بالحزب الشيوعي الفرنسي. وعبر يزبك جدّدنا علاقتنا بعلي ناصر الدين.

احتجاج على اعتقال فؤاد الشمالي واعتقالات جديدة

نشر نسيم الشمالي مدير إدارة جريدة «العمال» بمبادرة منه في 24 كانون الثاني سنة1926، احتجاجاً باسم الشعب اللبناني على اعتقال أمينه العام.

لم نكن نعلم أن فؤاد الشمالي وإيلي تيبر موجودان في سجن الجيش الفرنسي.

في 26 كانون الثاني سنة 1926 تلقى الحزب ضربة جديدة. في تلك الليلة اعتقل الأمن العام الفرنسي كلاً من أرتين مادويان وهيكازون بوياجيان ويوسف يزبك وعلي ناصر الدين، وهذا الأخير كان قد ناضل في فلسطين ضد السلطة البريطانية وضد الصهيونية وأبعد من فلسطين إلى لبنان حيث بقي تحت مراقبة السلطات الفرنسية.

في الحقيقة كنا ضحيّة خطّة حيكت ضدّنا. كانت تنقصنا اليقظة الثورية، واستغل أعداؤنا عدم وجود تجربة لدينا. وكان سهلاً عليهم اختراق صفوفنا باستعمالهم أساليب مختلفة.

إن سذاجتنا السياسية لم تسمح لنا أن نشك في واحد مثل فارت بدريك الذي كنا قد حميناه على امتداد سنة كاملة من هجمات الطاشناك ووقفنا إلى جانبه في عرض عمله الفني. لقد غشّنا بواسطة بطاقته الحزبية الفرنسية! حتى إنه كاد يورّطنا، مستغلاً سذاجتنا الثورية، بالقيام بعمل غير مدروس هو تفجير المبنى الرئيسي لمركز الأمن الفرنسي!

بعد اعتقالنا اختفى الخائن من لبنان. ذُكر اسمه مرةً في البرازيل، ثم ما لبث أن اختفى مجدداً.

بعد اعتقالي فتّشوا منزلي فلم يجدوا سوى رسائل شخصية وبعض أعداد جريدة «لومانيته». لم يجدوا أي دليل أو وثيقة حزبية. حتى الرسائل لم تكن تحوي مواضيع حزبية. في صباح اليوم التالي لاعتقالي ذهب الخائن إلى منزل والدتي منتحلاً صفة حزبية واستطاع إقناعها بأسلوب الغش، واستلم منها بعض الأوراق التي كنت محتفظاً بها في منزل جاري وقريبي. تتضمّن هذه الأوراق بيانات صادرة باسم الحزب. أما السلطة فقد أعلنت أنها صادرت «أرشيف الحزب»، لكن الأرشيف المذكور لم يكن يحوي أية أوراق ثبوتية لمحاضر حزبية أو عناوين أو أسماء. ذلك أنّني قد أتلفت جميع المستندات والأوراق الحزبية انطلاقاً

من حرصي على المحافظة على الحزب لأن الأجواء السياسية السائدة آنذاك كانت تتطلب ذلك.

أما ما ذكر من كونه أرشيفاً، أي البيانات الصادرة عن الحزب، فإنّ أهم وأخطر ما فيها كان البيان الموجّه للجيش الفرنسي مطبوعاً على الجيلاتين باللغة الفرنسية بخط يدي. وضعونا في مركز الشرطة اللبنانية في باحة قذرة وأحضروا إلى المكان نفسه فؤاد الشمالي وإيلي تيبر. نمنا على لوح خشبيّ دون أغطية. في اليوم التالي نقلوني مع هيكازون بوياجيان إلى مبنى قريب من السراي الحكومي حيث المركز الرئيسي للأمن الفرنسي للتحقيق معنا. استعملوا أسلوب التهديد بالتعذيب الجسدي، وفي الوقت نفسه حاولوا مسايرتنا وخداعنا باستنفار أحاسيسنا ومشاعرنا الأرمنيّة باتجاه معادٍ للعرب، وللمسلمين منهم بشكل خاص. ولقد حاولوا الاطلاع على نشاط الحزب ومعرفة أسماء الأشخاص الحزبيين ونوع العلاقة بين يوسف يزبك وعلي ناصر الدين. أخذوا من البيانات الصادرة عن الحزب حجة لاتهامنا بالمشاركة في الثورة، واتهموني شخصياً بذلك بصفتي أحد قادة الحزب، ووجدوا في ما صادروه من بيانات حزبية دليلاً لاتهامي وتحميلي المسؤولية. وقد أنكرنا خلال التحقيق جميع التُهم الموجهة إلينا، ولم يأتوا على ذكر مشروع التفجير لأن العميل الواقف وراء المشروع بات مكشوفاً. كذلك جرى التحقيق مع الرفاق المعتقلين وانتهى بفشل كلي للمحقّقين.

بعد انقضاء ثمانية أيام على وجودنا في سجن الشرطة نقلونا إلى قصر العدل للمثول أمام المدعي العام، الذي وجّه تهمة «قلب النظام الحالي بالقوة، خوض انتفاضة مسلحة، وتحريض الشعب على التمرد». إن عقوبة هذه التهم هي الإعدام بناءً على المواد 55 ـ 56 ـ 57 من قانون العقوبات العثماني. وأمر المدعي العام بإدخالنا إلى السجن وتحويل الدعوى إلى محكمة الجنايات الاستئنائية.

كان قاضي التحقيق في هذه المحكمة ميندييه، فرنسي الجنسية.

والمعروف أن محكمة الجنايات الاستثنائية أنشئت خلال الثورة وكانت تحكم بعقوبات قاسية، وتنفذ الأحكام الصادرة عنها خلال 24 ساعة.

«تحيى الوحدة السورية» بين جدران سجن البرج!

نُقلنا من قصر العدل إلى السجن المركزي في ساحة البرج تحت السراي الصغير. كان السجن معتماً، نادراً ما تدخله الشمس، رطباً ووسخاً، تنبعث منه باستمرار رائحة الدخان ممزوجة برائحة المخدّرات.

في اليوم الأول بعد وصولنا رحّب بنا السجناء، وفسحوا لنا في المكان للنوم. عاملونا باحترام لكوننا سجناء سياسيين.

وتقدمنا صباح اليوم التالي بطلب جماعي إلى إدارة السجن مطالبين بحقوقنا كسجناء سياسيّين، بما يعني فصلنا عن السجناء الآخرين ووضعنا في مكان مستقل والسماح لنا بمطالعة الصحف السياسية. نجحنا في الحصول على حقوقنا بعد جدال حاد. والمؤكد أن مدير السجن حصل على موافقة المحقق. اسم مدير السجن إسكندر علوش، جندي سابق في الجيش الفرنسي شارك في القتال في الجبهة الشرقية. لم يكن رجلاً سيئاً. وأخيراً، وُضع كلّ واحد منا في زنزانة إفرادية. هذه الغرف مخصصة للمتهمين بجرائم خطرة. في كل الأحوال كان كل شيء يسير بانتظام. كنا نستلم الصحف السياسية حتى جريدة «لومانيته» الفرنسية ومجلة «كورسبوندانس انترناسيونال» الأسبوعية وجريدة «أرمينيا السوفياتية» وجريدة «مارداكوتش»... وحصلنا من خارج السجن على حاجيات النوم وكذل على الطعام. وعلى جدران السجن كتبنا باللغة الفرنسية وبخط عريض: «تحيى الوحدة السورية». هذا الشعار كان يعبِّر عن توجّهنا السياسي الذي استمر للسنوات اللاحقة.

كان أول ما شغل تفكيرنا ونحن في السجن، كيفية الاتصال بالرفاق في الخارج وإعطائهم التوجيهات اللازمة لتبليغ الحزب الشيوعي الفرنسي

وجريدة «لومانيته» خبر اعتقالنا. ورحنا نفكّر في كيفية تنظيم احتجاج عالمي، ولا سيما في فرنسا، على اعتقالنا. وجَعلْنَا نبحث عن وسيلة لبلوغ ذلك.

وأخيراً نجحنا في تأمين الصلة من خلال شقيقتي يخسابث (اليزابيت). كانت تأتينا ظهر كلّ يوم ومعها طعام الغداء ونتبادل الكلام من مسافة قريبة عند باب السجن. وهكذا فقد أفَدْنا من شتى الوسائل المتاحة لنا لتأمين صلة بالخارج، ونجحنا بمراسلة الحزب الشيوعي الفرنسي الذي نظم على صفحات جريدة «لومانيته» حملة استنكار كبيرة ضد اعتقالنا.

وفي السياق عينه، ونتيجة لجهودنا فقد عيِّن للدفاع عنَّا الرفيق المحامي جاك سادول، الوجه السياسي المعروف في فرنسا. خبر قدوم جاك سادول إلى بيروت عزّز موقفنا السياسي أمام المحقق الفرنسي وأمام السلطات الفرنسية وأعطانا إمكانية لإرجاء المحاكمة وهذا ما كنا نتمنّاه، حيث إن حركة الاحتجاج أخذت تتّسع في فرنسا، وبالفعل شرع قاضي التحقيق في تأجيل جلسات المحاكمة بفضل الضغط الذي مارسه الحزب الشيوعي الفرنسي على الحكومة المركزية ومن ثمّ على السلطة الفرنسية المحلية.

بعد ثلاثة أشهر نُقل يزبك وناصر الدين إلى مستشفى السجن. وسعياً لتأجيل المحاكمة وكسباً لمزيد من الوقت فقد أنكرتُ، من جهتي، أن تكون جميع الرسائل خاصةً بي، وطلبتُ إلى المحقّق ترجمتها.

في غضون ذلك، ابتدأنا بالعمل التثقيفي. تثقيف ذاتي وجماعي. كُلّفتُ بإعداد محاضرات حول اللينينية.

كان من أوّل واجباتنا بعد دخولنا السجن أن نراجع أعمالنا السابقة ونكتشف الأخطاء التي أدّت إلى اعتقالنا. وأجرينا نقداً ذاتياً قاسياً لضمان عدم تكرار هذه الأخطاء. وفي الواقع، بعد اعتقال أعضاء اللجنة المركزية أصبح الحزب دون رأس وبلا قيادة.

في شهر آذار من العام 1926 اعتقل الرفيقان خاتشيك بابازيان وبدروس باردزبانيان وأُلحقا بنا، وهما من المجنّدين في الجيش الفرنسي، اعتقلا وهما يوزعان نداء إلى الجنود الفرنسيين أصدرته لجنة العمل الثورية لشمال أفريقيا، حيث اندلعت آنذاك في منطقة الريف المغربي التابعة للسيطرة الإسبانية ثورة تحررية بقيادة عبد الكريم. وقد حقق الثوار انتصارات جدية ضد القوات الإسبانية ممّا أقلق الإمبريالية الفرنسية لأن القتال كان يجري في شمالي أفريقيا على حدود المستعمرات الفرنسية. وما لبثت العدوى أن انتقلت إلى داخل هذه المستعمرات. وعمدت فرنسا إلى شنّ هجوم على قوات عبد الكريم. وبادر الحزب الشيوعي الفرنسي في المناسبة إلى تنظيم حملة شعبية ضد العدوان، دفاعاً عن الثورة الوطنية بقيادة عبد الكريم، مطالباً بوقف العمليات العسكرية في الريف. وأصدرت الأممية الشيوعية بياناً رسمياً بهذا المضمون نشر في جريدة «لومانيته».

وقد حُكم على الجنود المعتقلين في العام 1927 بالسجن سنة واحدة بتهمة استلام النداء المذكور وتوزيعه. وكان بين هؤلاء أيضاً الرفيقان ميكايل أنانيكيان وكالوست نرانيسان.

وضع الحزب خارج قضبان السجن

بعد اعتقالنا تضعضع الرفاق وكانوا أمام صعوبات جمّة، لكنهم تخطوا هذا الوضع ونظموا حياتهم الحزبيّة وتابعوا تنفيذ المهمات الحزبية ضمن إطار إمكانياتهم بقيادة الرفاق فوسكان أوهانسيان وميكايل أنانيكيان وبدروس باردزبانيان. غير أن الرفيقين الآخرين اعتقلا بعد فترة، كما أسلفنا، وزجّ بهما في السجن. أما مارديروس أفاريان وزاديك دادوريان فقد حاولا استغلال أسباب اعتقال الرفاق لخلق حالة من السخط والاستياء في صفوف المنظمات الحزبية والرفاق، بدلاً من لملمة صفوف

الجزب في هذه الظروف الصعبة وتكريس وحدة الرفاق والعمل الجماعي لمتابعة النشاط الحزبي. وبفضل إخلاص الرفاق الثلاثة وتفانيهم وعملهم الدؤوب استطاعوا عزل الأخيرين. وهرب مارديروس أفاريان إلى فرنسا وكتب في جريدة «نور يرغير» (الدنيا الجديدة) التابعة لحزب الهنشاك والمعادية للسوفيات في ذلك الوقت، متهجماً علينا بأسلوب بذيء. أما زاديك دادوريان فانعزل منكفئاً في زحلة. في الحقيقة لا يوجد أي سبب مباشر لفرارهما. صحيح أننا ارتكبنا أخطاء، غير أن أخطاءنا ناتجة عن عدم انتباه، ونحن نتحمل المسؤولية أمام الحزب وكان يمكن مناقشة هذه المواضيع جميعها بعد خروجنا من السجن، ولكن من غير المقبول استغلال أخطائنا لخلق جو عصيب وذرّ الاستياء والشعور المعادي للحزب، وهذا عمل تخريبي يؤدي في حال نجاحه إلى انهيار التنظيم الحزبي ويضع العراقيل أمام نشاط الحزب.

إنني أسجل بفرح أن زاديك دادوريان عاد بعد أشهر إلى بيروت واتصل بالرفيق فوسكان أوهانسيان معتذراً عن الأخطاء التي ارتكبها ومجدّداً نشاطه الحزبي. بلّغني أوهانسيان هذا الموضوع خلال زيارته لي في مركز الشرطة قبل صدور قرار بنفيي. كان برفقة زاديك دادوريان وقد تبادلنا الحديث عبر النافذة. وفي الواقع، بعد قرار نفينا نقلونا من السجن إلى مركز الشرطة، وضعونا في غرفة مطلة على الشارع لها نافذة مشبكة بالحديد، ومن خلالها كنت أتحدث مع الرفاق الذين زاروني في هذا المكان، وهم زاديك دادوريان وفوسكان أوهانسيان وميكايل انانيان وأوهانس ماجاريان وغيرهم.

بعد ذلك قام الرفاق بعمل مفيد، إذ استأجروا مركزاً في حي الكرنتينا لتنشيط المنظمة وللقيام بأعمال تثقيفية وإعلامية، واستمر هذا المركز إلى حين عودتي حراً طليقاً من المنفى.

في تلك الفترة كانت الصلة مقطوعة بين رفاقنا في بيروت وبين رفاقنا في بكفيا نسيم شمالي، زهران غريب وغيرهما ممّن يهتمون

بالقضايا النقابية. صحيح أنهم زارونا في السجن عدة مرّات لكننا كنا نشعر أنهم تحت المراقبة.

في الفترة نفسها قَدِم مندوب الحزب الشيوعي الفرنسي ديزيس كلاد إلى بيروت بغية الاتصال بالحزب ودراسة الوضع عن قرب. اتصل بنسيم الشمالي الذي عرفه برشيد شمالي. وقد تبيّن لاحقاً أن هذا الأخير على صلة وطيدة بالأمن العام. تعرفت إلى الرفيق ديزيس كلاد في السجن لفترة وجيزة، أبعد بعدها إلى فرنسا.

منشار في السجن

كنا نتوقع صدور أحكام قاسية، بحقّ بعضنا على الأقل. لذا لم نجد أمامنا سوى الفرار من السجن وبدأنا التمهيد لهذه العملية، وبعد تفكير وتمحيص قررنا نشر حديد النافذة، ولهذه الغاية كان يلزمنا منشار حديدي، وقد وجدنا المنشار! كيف كان ذلك؟

بين نزلاء السجن كان هناك مصوّر تركي شاب، حذق ومثقف اسمه فريدون محكوم بثماني سنوات سجناً. كان يصوّر من يرغب من السجناء لقاء دراهم يوزع قسماً منها على إداريّي السجن، وكان يكبّر صور المدير والمسؤولين الكبار في السجن دون مقابل. لذلك كان مميزاً عن باقي السجناء ولديه غرفة خاصة، توطدت بيني وبينه علاقة زمالة وأصبحنا صديقين. وتطورت صداقتنا إلى درجة أصبحنا معها نتبادل الثقة. وقد حدَّثته عن رغبتنا في الفرار واتفقت معه على إحضار منشار حديد إلى السجن. ووجدتُ الطريقة، إذ كان يُسمح لصاحبنا فريدون بالحصول على علب من الكرتون تحوي أوراقاً خاصة بالصور، من غير أن تمرّ على التفتيش. استفدتُ من هذا الأمر وطلبتُ من رفاقنا الموجودين خارج السجن شراء علبة من النوع نفسه، من مؤسسة سارافيان في باب إدريس، على أن يوضع مكان الورق ستة مناشير مع «العدة» اللازمة. تمّ تحضير

العلبة بشكل متقن وبأيدٍ ماهرة. وطلبت من أخي هاكوب أن يحضر في اليوم المحدد ويكون أمام باب السجن منتظراً إشارة لإحضار العلبة. وهكذا كان. في هذه اللحظة توسَّل فريدون إلى مديرة السجن أن يكلّف أحد الواقفين أمام مدخل السجن بشراء علبة ورق من محال سارافيان. فطلب مدير السجن من هاكوب شراء العلبة من المحل المطلوب، فنفذ الطلب بترحاب وإذا به يعود بعد قليل ومعه «علبة الورق» المحتوية على المنشار، وسلمها إلى المدير الذي سلّمها بدوره إلى فريدون. وهكذا أصبح المنشار داخل السجن، فأخفيناه في غرفة المصور.

وصودف أننا بعد مدة خرجنا من السجن بعد صدور قرار بـ«تبرئتنا». فكان أن تعرض فريدون، وقد بقي هناك منشار في زنزانته، لوشاية من قِبل أحد المساجين الأتراك. ففُتح تحقيق في الموضوع. في التحقيق قال فريدون إن مدير السجن سلّمني المنشار وقبض رشوة مقدارها خمسون ليرة. وهذه الفكرة أوعز بها مهران أغازاريان، عضو المجلس الملي الأرمني المحلي والملقى به زُوراً في السجن بتهمة اغتيال فاهران ڤارتابديان من حزب الطاشناك.

على أثر التحقيق اكتشفت عملية تزوير وأعمال غير قانونية، فاعتقل مدير السجن اسكندر علوش ومسؤولون آخرون وسجنوا!

بعد هذه الحادثة وُضع السجن تحت إشراف وإدارة الشرطة العسكرية، وتمَّ على جناح السرعة إنجاز بناء سجن الرمل ونقل جميع المساجين إلى هناك.

وكان مدير هذا السجن الجديد عمر قريطم، والد حسن (حسن قريطم كان طفلاً في ذلك الوقت) يعامل السجناء السياسيين معاملة حسنة لأنه كان يكنّ الكراهية للسلطة الفرنسية.

وبمرور السنين صارت جدران هذا السجن تهرم بدورها، وفسحة النُور تضيق على المساجين... أما الظلم والجور والتعسف فقد استمرت، بل تزايدت، سواء على يد دولة الانتداب الأجنبي أم على يد السلطة

اللبنانية بعد الاستقلال. وبعد نصف قرن بالضبط وخلال معارك 1976 اقتحم الشعب هذا السجن ودمّره، وأطلق سراح جميع المعتقلين والسجناء.

من السجن إلى الرقة

في الفترة الأخيرة من مكوثنا في السجن توقف التحقيق معنا، ونقلونا في شهر حزيران 1926 من سجن السراي الصغير إلى سجن مخصص للأجانب يقع تحت مبنى البلدية، حيث تقوم حالياً بناية ستاركو.

كنا نتمتع بقدر أوسع من الحرية إذ كنا نرى الشمس. بعد حوالى عشرة أيام نقلونا إلى المخفر. لم يكن مدير المخفر يعرف شيئاً عنا ولا عن سبب مجيئنا إلى مخفره. وضعونا في غرفة مريحة نسبياً، وكنا نتصل برفاقنا من خلال النافذة «المبخشة» المطلة على الطريق وكنا نتحدث معهم بحرية. وتبيّن لنا فيما بعد أن المحقق تلقى أمراً خاصاً من باريس بالإفراج عنا.

وفي الواقع كان اليمين الفرنسي بقيادة هنري كيريليس قد بدأ هجومه ضد حكومة التجمع اليساري التي كانت تعاني صعوبات جدية. في هذه الأجواء كان مقرراً أن تجري انتخابات فرعية في باريس لاختيار نائبين. وكان من شأن نتيجة الانتخاب أن تقرِّر مصير الحكومة اليسارية. لذلك استنفر رئيس الحكومة إدوارد هيريو جميع الوسائل لتوحيد صفوف اليسار أملاً في تحقيق انتصار على اليمين. الحزب الشيوعي الفرنسي المشارك في هذ التجمّع استنفر جميع قدراته لإحراز الانتصار. انتهت الانتخابات بفوز مرشحي اليسار. وقد ورد في مذكرات الرفيق النائب البارز جاك ديكلو أن الشيوعيين الفرنسيِّين فرضوا فرضاً إطلاق سراحنا مستغلين هذه المناسبة. ولعلّ هذا هو السر في الإفراج عنّا دون شروط، في الوقت

الذي كنا فيه نواجه حكم الإعدام، وخصوصاً بالنسبة إلي أنا الذي حرّرت البيان الموجه إلى الجيش الفرنسي وأخرجته إلى النور. إن إطلاق سراحنا قد تحقق بفضل الحزب الشيوعي الفرنسي ونتيجة دعمه الأممي منذ اليوم الأول لاعتقالنا دون انقطاع. ولكن المفوض السامي الفرنسي في لبنان لم يرغبْ في الإفراج الكامل عنّا لذلك فرض علينا الإقامة الجبرية. أرسل يوسف يزبك إلى أميون وفؤاد الشمالي مع علي ناصر الدين إلى القدموس. وبعد أسبوع نقلوني مع الرفاق هيكازون بوياجيان وبدروس برديزبانيان وخاتشيك بابازيان عبر حمص وحلب إلى الرقة، للإقامة الجبرية هناك.

مررنا بمركز الشرطة الفرنسية في حمص، بمرافقة الشرطة اللبنانية، فاستقبلنا كابتن فرنسي، وعندما تأكد أننا شيوعيون قذَفَنا بجميع أنواع السباب. ولدى احتجاجنا على هذا الكلام ردّ علينا قائلاً إنكم تستحقون اثنتي عشرة طلقة رصاص، ولا شيء آخر!!

سلّمونا إلى الشرطة السورية التي نقلتنا إلى الحبس المدني لتمضية الليل قبل إكمال طريقنا صباح اليوم التالي، وكان الانتقال يتمّ بواسطة القطار. استقبلنا السجناء بحرارة وأعدّوا لنا مائدة طعام، كنا نفهم سبب تقديرهم هذا، كوننا سجناء سياسيين مناوئين للامبريالية الفرنسية، ومناصرين للثورة الوطنية السورية. وصلنا في اليوم التالي إلى حلب فنُقلنا إلى السجن موقتاً وأُلقي بنا في زنزانة لا تعرف العين فيها طعم النوم، لأن البق يسرح ويتطاير في جميع جنباتها وهكذا فلم يغمض لنا جفن، وفي الصباح قدمنا احتجاجاً فنقلونا إلى غرفة خالية من البق، وبعد يومين سلمونا إلى شرطيين سوريين لمرافقتنا إلى الرقة، وبعد أن تعارفنا تصرّفا معنا كصديقين، حتى أنني التقيت لاحقاً سركيس دخروني في حلب في مقهى صغير مقابل كنيسة كارسون مانوك برفقة الدركيّين نفسهما. من ثمّ أمرونا بالتوجه إلى الرقة على أن ندفع نحن نفقات الانتقال عن أنفسنا

وعن الدركيين! رفضنا وعبرنا عن احتجاجنا ولكن من غير طائل. قالوا: حسناً، إذهبوا إذاً سيراً على الأقدام! عندئذ حملنا أغراضنا وهممنا بالسير على أقدامنا، من قبيل الاحتجاج. وخرجنا من حلب ولكنهم لم يتراجعوا ولم يأبهوا لوضعنا. وبالطبع فلم يكن بوسعنا أن نمشي إلى الرقة.. فرضخنا لأمرهم ودفعنا مصاريف الانتقال. استقللنا شاحنة محملة وجلسنا على سطحها فوق الأغراض. وصلنا إلى الرقة في ساعة متأخرة. أخذونا إلى مركز للشرطة بقيادة ضابط فرنسي سلّمنا بدوره إلى رئيس بلدية الرقة، الذي قادنا إلى خانٍ ووضعنا في غرفة تعجّ بالعناكب قائلاً: دبروا أمركم بأنفسكم.

أخذنا نتجول في المدينة، فتعرفنا إلى بعض الأرمن وبمساعدتهم استأجرنا غرفة لتمضية فترة الصيف إلى حين عودة أصحابها. وكنا نزور يومياً مكتب المسؤول الفرنسي لتأكيد وجودنا.

وبدأنا نعاني صعوبات مالية، خصوصاً مع تقلّص المبالغ المتواضعة التي كنت قد حملتها. طعامنا الأساسي كان اللبن مع المقتي (القثاء). قدمنا رسالة احتجاج إلى المفوض السامي الفرنسي طالبين منه أن يؤمن لنا وسيلة للعيش. وبعد انقضاء شهرين بدأنا نستلم من السلطة المحلية في الرقة ستين غرشاً يومياً لكل شخص. من هذا المبلغ كنا نقتصد شهرياً خمس ليرات سوريَّة وندفعها لصندوق الحزب. كنا نرسل المبلغ إلى رفاقنا في بيروت لدفع مصاريفهم وبين هذه النفقات بدل إيجار الغرفة (المركز) في الكرنتينا.

وفي آخر الصيف وجدْنا، نحن الأربعة، غرفة استأجرناها في بناية سكنية وصودف أن كان بين الجيران قره بت فارطانيان، والد المطران هاكوب راعي أبرشية مارسيليا الأرمنية حالياً. كان هاكوب طفلاً وصرتُ أعاونه في فروضه المدرسية. كان يعيش في الرقة عدد كبير من الأرمن القادمين من أورفا وبعض العائلات القادمة من منطقة ساسون. الفرن الوحيد في المدينة كان عماله من الأرمن، صاحبه رجل طيب يدعى

ورطان، وهو خباز وطني وعطوف كان يتمنى الذهاب إلى وطنه أرمينيا، لكنه مات دون أن يحقق حلمه. سنة 1947 غادرت عائلته وعلى رأسها ابنه الشاب إلى أرمينيا السوفياتية وأصبح أفرادها مواطنين صالحين لوطنهم الأم.

كان يوجد في الرقة مدرسة ابتدائية أرمنية فيها أستاذ شاب من حلب ينتمي إلى حزب الطاشناك. التقيتُه مصادفة في الشارع وتحدثنا. وصودف في تلك اللحظات مرور ضابط فرنسي هو الكابتن لاروش، فما كان من هذا الأخير إلّا أن استدعاه فوراً وأمره بالعودة إلى حلب من غير رجعة!

عاملنا السكان الأرمن من الرقة بعطف ومحبة وكنا نحتفل معاً بمناسبة الأعياد الأرمنية، ودرجوا على زيارتنا من غير انقطاع.

أما وقد أوتي لنا الاستقرار في المنزل فقد جعلنا نفكّر في إيجاد وسيلة للاتصال برفاقنا في حلب، وعبرهم الاتصال برفاقنا في بيروت. وبدأنا ببذل جهود في مجال التثقيف الحزبي.

كانت وسائل النقل الكبيرة والصغيرة بين الرقة وحلب تعتمد على سواقين أرمن. عرّفنا قره بت فرطانيان إلى أحد السائقين ومن خلاله اتصلنا بواسطة الرسائل بالرفيق استيبيان كافافيان في حلب. ومن ثم استلمنا منه ورقاً لإصدار جريدة جيلاتينية. وأتاح لنا السائق أن نستقبل الرفيق كافافيان واستضفناه لمدة أسبوع، قضينا هذه الفترة في جو تثقيفي محاولين إيجاد أفضل الطرق النظرية والعلميّة لرفع مستوى العمل الحزبي.

بعثت برسالة بواسطة البريد إلى رفاقنا في باريس طالباً إرسال مطبوعات شيوعية عديدة، بينها «لومانيته» و«لافي أوفريير» (الحياة العمالية)، وهاتان الصحيفتان كتبتا عدة مرّات عن قضيتنا وقدّمتا احتجاجاً للسلطة الفرنسية، منتقدتين تصرف المندوبيّة العامة في لبنان تجاهنا، وقد وصفتاه بالتصرف الجارح وغير اللائق. كما نشرت «لومانيته» الاحتجاج الذي بعثنا به إلى المفوض السامي الفرنسي مطالبين بحرّيتنا.

واستلمنا بناءً على طلبنا الجريدة اليومية «أرمينيا السوفياتية» من يريفان وجريدة «مارداغوتش» الصادرة في تفليس. ولكن، كيف كنا نحصل على هذا كلّه دون قيود؟

في الواقع كانت رقابة السلطة الفرنسية شبه معدومة. أما مركز البريد فقوامه غرفة واحدة بإدارة موظف واحد متقدم في السن ولا يلمّ باللغة الفرنسية؛ وكان بحاجة لمساعدتنا كيما نقرأ له عناوين الرسائل المكتوبة بالفرنسية. ولم يكن محباً لفرنسا. وبفضل صداقتنا له كنّا نعرف موعد وصول البريد ونستلم جميع الرسائل والمطبوعات والصحف الموجهة إلينا لحظة وصولها إلى المركز، يتردّد العجوز أحياناً لكنه في النهاية يسلمنا المطبوعات كلّها. أما في الفترة الأخيرة فقد طلبت الرقابة الفرنسية من العجوز أن يحضر لها جميع ما يأتي بأسمائنا لمراقبته.

صدور جريدة «سبارتاك»

بعد أن استلمنا ورقاً للطباعة الجيلاتينية أصدرنا عددين من جريدة «سبارتاك». صدر العدد الأول في كانون الثاني عام 1927 بمناسبة ذكرى الثورة الروسية الأولى عام 1905. وصدر العدد الثاني أواخر كانون الثاني من العام نفسه بمناسبة ذكرى وفاة لينين. وكان عنوان العدد الثاني: «مات لينين فلتحيَ اللينينية». ونشرت الجريدة مقالاً مكتوباً بَعثَ به الرفيق فوسكان هوفانسيان من بيروت ومقالاً حول إضراب عمال النسيج في حمص وحلب. أرسلنا جميع أعداد «سبارتاك» إلى حلب، كما استطعنا إرسال قسم منها إلى بيروت. واحتفظنا بنسخة واحدة من كل عدد.

وفي الوقت نفسه قمنا بتحضير مخبأ صغير بمساعدة سمكريّ أرمني عُرف بأمانته، لحفظ أدوات الطباعة على الجيلاتين وبعض الأوراق السرية والكتب الثمينة.

وكان المخبأ كناية عن صفيحة كاز مقسومة إلى قسمين: القسم الأعلى للكاز، أما الأسفل فجعلنا له غطاء متقن الصنع، لا مجال للشك في وضعه، وكنا نفتحه عند الضرورة فقط.

الاتصال بسركيس دخروني

في تلك الآونة علمنا أن سركيس دخروني، رئيس التحرير والمحرّر الوحيد لجريدة «سورياكان مامول» (الصحيفة السورية)، وهي المطبوعة اليومية الصادرة عن حزب الهنشاك في حلب، منعزل في الجريدة في أعقاب مناقشات وخلافات حادة دارت بينه وبين آغاوات حزب الهنشاك، وفي الواقع، كان دخروني يخوض معركته معهم من خلال موقعه الصلب في جريدة «سورياكان مامول»، ومن خلال قاعة المحاضرات التابعة لمدرسة كيليكيان الأرمنية، حيث كان يلقي محاضرة وطنية حماسية كل نهار أحد دفاعاً عن أرمينيا السوفياتية والاتحاد السوفياتي، متهجماً على حزب الطاشناك لأنه ضد أرمينيا وضد الاتحاد السوفياتي. كان دخروني مدعوماً من الشباب داخل حزب الهنشاك لكنه لم يستطع تغيير الواقع وأصبح معزولاً. لذلك فكّر في ترك الجريدة والعمل في وظيفة مكتبية، وقدّم طلباً إلى إدارة مؤسسة سكّة الحديد.

بعثت له برسالة بالطرق السرية أسأله إذا كان يرغب في العمل هنا في الرقّة، وفي حال الموافقة فنحن مستعدون لتأمين وصوله والتباحث عن قرب حول هذا الموضوع. وطلبنا منه أن يرسل لنا الجواب بالطريقة نفسها وعبر الشخص عينه، وحذّرناه من اللجوء إلى البريد الرسمي.

تأخر الجواب لأنه بعد استلامه الرسالة ذهب إلى الإسكندرون لقضاء فترة من الراحة. وبعد رجوعه إلى حلب زاره رسولنا عدة مرّات للحصول على الجواب. وفي آخر زيارة قال له إنني بعثت بالجواب. وكان قد أرسله، مع الأسف، بواسطة البريد الرسمي. ولا شك أن هذا التصرف قد أقلقنا.

استدعاني مكتب الأمن الفرنسي بعد فترة وسلمني رسالة قائلاً: «هذه الرسالة لك». عدت إلى منزلي ونظرت إلى المغلّف فوجدت عليه عدة أختام بريديّة من حلب والرقة وبيروت... لهذه الأسباب تأخرت الرسالة أكثر من شهر، والمؤكد أنها مرّت على مركز الأمن الفرنسي في بيروت. كانت هذه رسالة سركيس دخروني .

قرأتها وأمعنتُ النظر في ما تحتويه، كانت طويلة يفسّر فيها أعماله الإيديولوجيّة والسياسية معتبراً نفسه مثلنا شيوعياً وهو متأكد أنه شوكة في أعين الفرنسيين، لأن الطاشناك كانوا يرسلون تقارير عنه إلى السلطة الفرنسية.

كانت هذه الرسالة الدليل الملموس لدى الأمن العام الفرنسي لاعتقال دخروني. وقد أرسل إلى قلعة القدموس بعد توقيفه لعدة أيام في مخفر الدرك.

بعد اعتقال دخروني، إذ بباب غرفتنا يُقرع بشكل همجي في أحد أيام شهر آذار، واقتحم الغرفة قائد الأمن الفرنسي في الرقة الكابتن لاروش يرافقه أربعة أشخاص مدنيين شرعوا في تفتيش المنزل، اعترضت وطلبت كشف هويتهم . فأوضح الكابتن لاروش أن مدير الأمن العام الفرنسي بول بوشيت بنفسه يفتش الغرفة. وافقنا على التفتيش، وجدوا في البيت كتباً فرنسية غير مخبأة وبعض أعداد من جريدتي «لومانيته» و«لافي أوفريير». وجدوا أيضاً نسخة من المقررات الصادرة عن مؤتمر علني للعصبة المعادية للإمبريالية بمشاركة مندوبين عرب برئاسة شكيب أرسلان.

صرخ بوشيت: نحن ننتظر من شهر ونصف الشهر هذه المقررات بفارغ صبر، يبدو أنكم استلمتموها. قبلنا! وأخذها من على الطاولة مع بعض الأوراق البيضاء التي ليس لها علاقة بجريدة «سبارتاك» ولا تشبه أوراق الجريدة. وسألني بوشيت أين تطبع «سبارتاك» وأين هي أدوات الطباعة؟ طبيعي أنني أنكرت معرفتنا بهذا الموضوع. وأكمل حديثه قائلاً: «إذن سوف ترون قريباً محرّر «سبارتاك» الموجود في حلب».

تبيّن لنا فيما بعد أنه كان يقصد سركيس دخروني، وكان يعتقد أيضاً أن «سبارتاك» طبعت في حلب بإشراف دخروني.

كانت أعداد «سبارتاك» في الواقع تُرسل إلى حلب بالبريد حيث كان صندوق البريد مراقباً.

مجدداً نحن في قلعة القدموس

اعتقلونا نحن الأربعة وأخذونا إلى مكتب الاستخبارات الفرنسية حيث تمّ استجوابنا على يد بوشيت شخصياً، ووجهوا لنا تهديدات لم نكن نسمع بها. وضعنا في غرفة وأمر العسكر بإغلاق الشبابيك. كان يحاول أن يلقي الرعب في قلوبنا. حقق معنا ودوّن في سجل التحقيق: وجدنا في منزلهم كميات كبيرة من الورق تستخدم لنشر جريدة «سبارتاك»! وطلب منا التوقيع على هذا التحقيق لتأكيد مصداقيّة التقرير. ورفضنا التوقيع قائلين: لا يوجد كميات كبيرة من الورق في منزلنا وليس لنا علاقة بإصدار الجريدة. هدّدنا بالتعذيب الجسدي إذا لم نوقع فأجبناه أننا سنكون مضطرين للدفاع عن أنفسنا وسوف نواجهكم بالرغم من أنكم أنتم أقوى منّا، وسوف تنجحون في تعذيبنا! غيَّر بوشيت الأسلوب، استخدم الحيلة قائلاً: إن توقيعكم لا يعني حتماً أنكم تؤكدون ما جاء في المحضر. ورفضنا التوقيع ولم نقع في الفخ. قلنا: نوقّع إذا ألغيتم الفقرة المتعلقة بوجود أوراق تُستخدم لإصدار جريدة «سبارتاك». وانتهى التحقيق بإلغاء هذه الفقرة وذلك بالرغم من أننا كنا نستخدم فعلاً هذه الأوراق لتحضير الموادّ المراد نشرها .

أطلقوا سراحنا بعد أن أمضينا أحد عشر يوماً في غرفة الاعتقال. ولكن بعد عشرة أيام عادوا واعتقلونا من جديد وأرسلونا على نفقتنا عبر حلب ـ حمص ـ السليمانية ـ إلى قلعة القدموس في منطقة العلويين.

إنها قلعة تقع على تلة ارتفاعها حوالى ثلاثين متراً، حوَّلها الفرنسيُّون إلى سجن بحراسة فرقة عسكرية.

التقينا هناك زملاءنا السجناء فؤاد الشمالي، سركيس دخروني، علي ناصر الدين، نسيم الشمالي، زهران غريب ومحيي الدين كوسا (اعتقل بتهمة الشيوعية). ولاحقاً جاؤوا بجورج عازار. كانت القلعة محاطة بشريط شائك وتحت حراسة دائمة من قبل الجيش الفرنسي من العناصر السنيغالية. للسجن مدير مدني، فضلاً عن وجود شاب من بلدة القدموس كان يشتري لنا ما نحتاج إليه من مواد غذائية.

جريدة في السجن «نور باستيل» (الباستيل الجديد)

وقد أصدرنا جريدة محرّرة بخط اليد سميناها «نور باستيل»، كتب فيها فؤاد الشمالي باللغة العربية كما حرّر فيها أرتين مادويان وسركيس دخروني وهيكازون بوياجيان باللغة الأرمنية. وكان كل كاتب يكتب مقاله بخط يده.

يومئذ كتبت في مقالي أن ليس هناك قوة تستطيع أن تقف في وجه تطور التاريخ. أرسلنا نسخاً من الجريدة إلى المفوض السامي الفرنسي وألصقنا نسخة على باب مطبخ السجن. وفي وقت لاحق قدم فؤاد الشمالي نسخة من الجريدة إلى أرشيف المكتبة الوطنية في بيروت وسجلت «نور باستيل» بين الصحف الصادرة في ذلك الوقت.

على أن نشرتنا المتواضعة لم يصدر منها إلّا عدد واحد. والمضحك هو أن المندوبية العامة الفرنسية في لبنان أصدرت أمراً رسمياً يمنع بموجبه صدور جريدة «نور باستيل».

الفرار من القلعة!

خلال شهر آب زار السجن مدير عام الأمن العام الفرنسي بول بوشيت وصرح بأن بعضنا سيطلق سراحه. وقد تهيأ لي، بل كنت متأكداً أنني لن أكون بين المحررين. بدأنا التفكير في كيفية الفرار من القلعة.

أحضرنا كمية لا بأس بها من الحبال لمساعدتنا على النزول من القلعة وللقفز خارج الأسلاك الشائكة. وفكرنا في طريقة ثانية للفرار حيث كنا نخرج مرّة في الأسبوع، كل سجينين على حدة وبحراسة عسكري للتنزُّه خارج القلعة.

وكان مسؤول حامية الجنود الفرنسية في القلعة ضابطاً شاباً خفيف الظل، يتملكه الملل لوحدته، ويشعر بالراحة عندما يزورنا في السجن حيث كنا نرحب به ونقوم بواجب الضيافة مما خلق علاقة إيجابية بيننا. هذه العلاقة سمحت لنا بالخروج للتنزه: ثلاثة سجناء بمرافقة جندي سنغالي. اعترض مدير السجن على خروجنا لكن إرادة الضابط الفرنسي نفّذت.

اغتنمنا هذه الفرصة فقررنا الفرار بعد أن أخبرنا رفاقنا بخطتنا.

خرجت مع هيكازون بوياجيان ومحيي الدين عبد الرحمن كوسا، بمرافقة الجندي السنغالي خارج القلعة. وبعد أن أصبحنا خارج البلدة ووصلنا فوق تلة قرب مركز عبادة للعلويين في مكان منعزل وبعيد عن البيوت، هجمنا حسب الاتفاق على العسكري وألقيناه أرضاً على وجهه، وربطنا يديه بحبل خلف ظهره واتجهنا صعوداً نحو الأحراج. كان الوقت متأخراً. بعد استراحة قصيرة أكملنا سيرنا عبر الوديان. ولكن بعد مرور ثماني عشرة ساعة ألقي القبض علينا وأعادونا إلى القلعة!

حقق معنا الكابتن نوفال ضابط الأمن الفرنسي، فاتّهمنا بالاعتداء على العسكري وضربه بقساوة حيث أن العسكري السنغالي استطاع تخليص يديه وتنظيف ثيابه من الغبار، ثم حمل بقايا الحبل وعاد إلى القلعة.

خلال التحقيق صرّحنا للمحقق بأن وجودنا في السجن غير قانوني ولا يوجد حكم في حقنا، لذلك ففرارنا ليس جريمة ولم نعتدِ على العسكري بل استفدنا، بكل بساطة، من عدم انتباهه وفررنا. وضعونا في زنزانة منعزلة تحت حراسة مشدّدة لمدة اثني عشر يوماً. بعد ذلك نقلونا

إلى بيروت ووضعونا في السجن العسكري وأحالونا على المحكمة العسكرية برئاسة المحقّق الكابتن فرج حيث أوقفنا، واحداً جنب الآخر، بحضور العسكري المعتدى عليه وطلب منه تفاصيل ما جرى معه. لم يقل العسكري الحقيقة، لكنه قال وهو يشير إليّ بإصبعه: «هذا هو الذي رماني على الأرض والآخران ربطا يدي». فقلت: كما ترى يا حضرة المحقق، العسكري متين الجسم وقوي ويحمل سيفاً وأنا ليس باستطاعتي وحدي أن أرميه أرضاً. خصوصاً وأنه كان بإمكانه أن يستخدم سيفه للدفاع عن نفسه، ولو كان هناك سابق تصور وتصميم للفرار لاشتركنا نحن الثلاثة في الهجوم عليه دون أن أخاطر بنفسي منفرداً. نحن لم نكبله ولم نضربه.

وفي الواقع، لقد أخطأ العسكري بتركيز الاتهام عليّ وحدي. كان المحقق إنساناً طيباً لم يقتنع بأقوال العسكري ولم يصدق روايته، مقتنعاً بأننا اغتنَمْنا إهماله وعدم انتباهه وفررنا. وأعلن براءتنا من هذه التهمة. وهكذا فبعد مرور واحد وسبعين يوماً عدنا إلى وضعنا السابق، في أول كانون الأول سنة 1927 .

بناءً على الترتيبات الإدارية، تقرّر نقلنا إلى قلعة في جزيرة أرواد المواجهة لمدينة طرطوس حيث كان تمّ نقل الرفاق من قلعة القدموس إلى هناك لدواعٍ أمنية.

حاول العسكريون المرافقون وضع قيد في أيدينا. اعترضت ومنعت العسكري فهجم علَيَّ حراس السجن، أحدهم آلمني. شدّ يدي إلى الخلف بقوة، وأمام هذا الواقع لم يعد أمامي سوى الانصياع، وكُبِّلَتْ يداي.

في 18 كانون الثاني 1928 أبلغنا بقرار العفو الصادر عن السلطة الفرنسية عن جميع السجناء السياسيين في لبنان وسوريا. وهكذا فقد خرجنا من قلعة جزيرة أرواد أحراراً ورجعنا إلى بيروت.

في تلك الأيام كانت السلطة الفرنسية تعاني عزلة نتيجة لتأثير ثورة

جبل الدروز التي استثارت لدى فئات واسعة من شعبنا عداء للسلطة الفرنسية. فأصدرت قرار العفو عن المساجين لتحييد هذه الفئات، ولإظهار حسن نيتها وخلّق جو سياسي ملائم للتعامل مع الكتلة الوطنية. استفدنا من هذه الأجواء وحصلنا من جديد على حريتنا.

الأحداث المرتبطة بانتخاب المجلس الملّي الأرمني

المجلس الملي الأرمني في لبنان هيئة شبيهة بمجلس النواب، له نظام ودستور، ينتخب من قبل الأرمن اللبنانيين الذين سددوا اشتراكهم المالي. وذو سلطة قانونية وتنفيذية على الكنائس والمدارس الأرمنية في لبنان عبر لجان الأحياء.

ينتخب المجلس الملي مجلساً سياسياً وتنفيذياً. ويحقّ لأعضاء المجلس الملّي إلى جانب المندوبين من قبل الكنائس، المشاركة في انتخاب كاثوليكوس (بطريرك) كيليكيا.

جرى انتخاب المجلس الملي في لبنان في صيف عام 1926 عندما كنا في المنفى في الرقة، وحصل تزوير صارخ، وفازت لائحة الطاشناك في بيروت بفارق خمسين صوتاً من أصل مجموع الأصوات رغم تزوير 350 صوتاً لمصلحتهم.

مهران أغازاريان المنتخب عن صيدا مناضل قديم، على علاقة وطيدة مع حزبنا، ومع كوركين طاهمزيان، الشيوعي الأول بين الأرمن المقيمين في فرنسا والوجه الاجتماعي المعروف.

وقد نجح أغازاريان، الإنسان القوي، الثوري، المتنافي والمؤيد دون تردد لأرمينيا السوڤياتية وللاتحاد السوڤياتي والمناضل ضد أعمال حزب الطاشناك المعادية للأرمن، نجح خلال اجتماع المجلس الملي في خلق جو معاد للطاشناك وتشكيل جبهة عريضة من الهنشاك والرمغافار والشيوعيين ومن الوطنيين المستقلين ومن شخصيات بارزة.

انعقدت جلسة المجلس الملّي الأرمني، وبموجب الدستور كان على

المجلس أن يؤكد صحة وقانونية انتخابه، وأن يبحث في أيّ طعن بقانونية الاقتراع. لهذه الغاية شكلت لجنة لإقرار قانونية الانتخاب، غير أن مهران أغازاريان كان يملك الدليل على عملية تزوير ثلاثمائة وخمسين صوتاً، فطالب بتشكيل لجنة للتدقيق في نتائج الانتخاب. اعترض الطاشناك على هذا الاقتراح خوفاً ممّا يمكن أن ينجم عنه، وطالبوا بإحالة هذا الموضوع على الكاثوليكوس ساهاك خابايان وتخويله اتخاذ القرار الذي يراه مناسباً. تكلم مهران أغازاريان فقال: «حسب دستور المجلس الملي ليس الكاثوليكوس هو الذي يؤكد صحة الانتخابات أو بطلانها، بل المجلس الملي باجتماعه العام يؤكد قانونية الانتخاب ومن واجبه تشكيل لجنة تحقيق للبحث في أية شكوى أو طعن. أنتم منتخبون بناء على دستور المجلس الملي وعليكم التقيد بهذه القوانين، وإلا فعليكم حلّ هذا المجلس وإجراء انتخاب جديد على أساس دستور جديد».

رفض مندوبو حزب الطاشناك كلام مهران أغازاريان وردوا عليه بعنف. تأجلت الجلسة دون نتيجة لأن أغازاريان أصرّ على موقفه. الجلسة الثانية كما الأولى انتهت دون أية نتيجة. أما في الجلسة الثالثة فقد حضر الطاشناك برفقة بعض «الزعران» من حزبهم واعتدوا بالضرب على مهران أغازاريان الذي حضر الجلسة من غير مرافقين، حتى سقط على الأرض يتخبّط في دمه.

على أثر هذا الحادث تكهرب الجو وابتدأت المعارك الدامية في صفوف الجالية الأرمنية في أماكن وجودها، بين حزب الطاشناك والقوى الوطنية. عقد المجلس الملي اجتماعاً في منزل الكاثوليكوس ساهاك، وكان هذا هو الاجتماع الأخير، حيث استحصل الطاشناك على إقرار خطي من البطريرك بشرعية انتخاب المجلس، وطرحوا انتخاب المجلس السياسي فاعترض مهران أغازاريان محتجاً لأن قرار الكاثوليكوس غير قانوني، ومخالف للدستور، وغادر قاعة الاجتماع إلى منزله الصيفي في

عاليه. بعد مغادرة أغازاريان اقتحمت القاعة مجموعة من الشبان وأطلق أحد المهاجمين النار من مسدسه وأطفأ النور. مندوبو الطاشناك اختبأوا تحت الطاولات ما عدا ڤاهان فار طابويان الذي هجم على المسلح وحاول إمساكه، الأمر الذي دفع المسلح إلى إطلاق النار وإصابة ڤاهان إصابة قاتلة. ونتيجة لشهادة زور اتهم مهران أغازاريان بالاشتراك في الهجوم وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، لكنه استأنف الحكم، وصدر الحكم النهائي بنفيه لمدة أربع سنوات خارج بيروت ووضعه في الإقامة الجبرية في طرابلس. هناك اكتشف محاولة لاغتياله فأحبطها. على الأثر نقلته السلطة من طرابلس إلى بيت الدين (رئيس تحرير جريدة «الشعب» الصادرة في دمشق الرفيق أحمد أفيوني تطرق في مذكراته إلى مهران أغازاريان وكتب في «الشعب» حول القضية الأرمنية كاشفاً أعمال الطاشناك المضرّة).

لكن نزولاً عند الضغط الشعبي جمّد الكاثوليكوس ساهاك أعمال المجلس الملي.

كان الطاشناك قد زوروا انتخابات حلب بمساعدة السلطة الفرنسية وضموا أبرشية حلب إلى الكرسي البطريركي في كيليكيا.. لهذا السبب فقد تعاون معهم الكاثوليكوس ساهاك. وبعد قراره بتجميد المجلس الملّي لجأ الطاشناك إلى تنظيم مهرجان معاد له واتهموه بالتسلط وانتهاك الدستور.

لماذا تعاون البطريرك ساهاك موقتاً مع حزب الطاشناك؟ بعد أن أفرغت كيليكيا من سكانها الأرمن نزح كاثوليكوس كيليكيا ولم يبق تحت رعايته إلا أبرشية حلب وقبرص. كانت أبرشية بيروت والشام تابعة لمطرانية القدس، فاستعمل ساهاك جميع الوسائل لإعادة تنظيم كاثوليكوسية كيليكيا[1]. مهران أغازاريان لم يكن متحمساً لمشروع

---

(1) جاء في جريدة «عاصفة» في عددها الصادر في 4 آب 1933 مقال بعنوان «كيف نظمت الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان في ظروف سرية»، وقد جاء في الفقرة

ساهاك، لأن الوضع السياسي القائم آنذاك وتدخّل السلطة سوف يضعان هذا المقام الديني الرفيع تحت سيطرة الطاشناك ونفوذهم فيكون معادياً لكاثوليكوسية اتشميازين لعموم الأرمن، ومقرها في أرمينيا، فيكون بالتالي معادياً لأرمينيا السوفياتية. وهذا هو سر تأييد الطاشناك لمشروع ساهاك وتعاونه الموقت معهم. ولهذه الأسباب صادق هذا الأخير على الانتخاب المزوَّر.

هل ارتكب مهران أغازاريان خطأ تكتيكياً في اعتراضه على مشروع البطريرك ساهاك، وعدم التعاون معه؟ قد يعتبر البعض تصرفه خاطئاً.. إلّا أن الأحداث اللاحقة بعد عدة عقود من السنين، جاءت تؤكد صحة مخاوفه. وحسبُنا الإشارة إلى أن في فترة حكم كميل شمعون جرى احتلال كاثوليكوسية كيليكيا بواسطة أربعمائة دركي وسلّمت إلى حزب الطاشناك. أما موقفها السياسي فمعادٍ لأرمينيا. ولعبت دوراً محزناً وما فتئت تواظب عليه رغم ما حصل في السنوات الأخيرة من تحسّن للعلاقة مع اتشميازين، إذ إن ذلك لم يُعطِ نتائج عملية تُذكر. الأبرشيات المسلوخة عن اتشميازين بقيت على ما هي عليه.

لقد جئت على ذكر قضية انتخاب المجلس الملي الأرمني في لبنان في مذكراتي هذه لأنها إحدى حلقات عملنا السياسي في وسط الأرمن.

إعادة إحياء منظمات الحزب

بعد عدة أيام من صدور العفو العام وعودتنا أحراراً إلى بيروت انعقد الاجتماع الأول للّجنة المركزية وبحث وضع الحزب التنظيمي. تبيَّن

= من المقال الذي كتبه فؤاد الشمالي، أن «بعد عودتي من موسكو مباشرةً عقد اجتماع للجنة المركزية للحزب وتقرّر تسمية الحزب «الحزب الشيوعي السوري». والحقيقة أن فؤاد الشمالي عاد من موسكو عام 1928. ولم ينعقد اجتماع من هذا النوع ولم يتخذ أي قرار بهذا المضمون.

أن المنظمة العربية للحزب في بكفيا تمارس نشاطاً محدوداً ضمن نقابة عمال التبغ وليس ثمة صلة بينها وبين رفاقنا الأرمن. المنظمة الأرمنية، من جهتها حافظت على وضعها التنظيمي وانتسب إليها رفاق جدد وقامت بأعمال دعائية.

تقرر في الاجتماع اتخاذ الإجراءات الضرورية لتقوية المنظمات الحزبية وإحياء اللجنة النقابية، وتجنب صدور بيانات باسم الحزب موقتاً حتى إعادة تنظيم المنظمات الحزبية، وإصدار بيانات باسم تكتل العمال والفلاحين إلى حين عقد كونفرانس للحزب. وخلال فترة وجيزة أعيد تنظيم اللجنة النقابية وقد ضمت القطاعات التالية: عمال صفّ الأحرف (طباعة)، النجارين، صناعة الأحذية، الطباخين، الدخان، الحلاقين وعمال الفنادق. تمثلت هذه القطاعات بفؤاد الشمالي، فريد طعمه، أنيس الشمالي، نسيم الشمالي، زهران غريب، جورج عيان، ميكايل كشيشيان، أريس اجاباهيان، كيفورك كلدراخانيان، وغيرهم...

في صيف 1928 استقر هيكازون بوياجيان في دمشق في حي شعبي حيث فتح عيادة طب أسنان ومارس المهنة «دون شهادة». ونجح في تنظيم فرقتين شيوعيتين، إحداهما رفاق عرب والثانية من رفاق أرمن . الفرقة العربية كان أكثرية أعضائها من عمال النسيج، والفرقة الأرمنية قوامها كلّ من: ماركار ماركاريان، كيفورك تكيهكوبيان، يساين (من جبل موسى) وهؤلاء قادمون من بيروت أعيد تنظيمهم، ميساك دلاليان عامل بشركة الكهرباء، وأرسين برسخيان معلم مدرسة.

ذهبت في صيف تلك السنة لإلقاء محاضرات على الفرقتين الناشئتين اللتين تشكلان أول فرقتين شيوعيتين في دمشق.

□ في أواخر عام 1928 وأوائل عام 1929 انضم إلى منظمة الحزب الشيوعي في دمشق الرفاق علي خلقي، بشير فلاحة مصطفى (جود)، أبو محمود (شقيق داود آغا)، ناصر حدّة، فوزي الزعيم، نظمي

رفاعي (من بعلبك) طالب يدرس في الشام، وعبد القادر عياش وغيرهم.

□ انتسب خالد بكداش إلى منظمة الحزب الشيوعي في دمشق في أواخر عام 1929 أو أول عام 1930 على يد ناصر حدّه. غالبية الرفاق المذكورة أسماؤهم انتسبوا إلى الحزب بجهود الرفيقين ناصر حدّه وفوزي الزعيم.

بين أواخر عام 1928 وأوائل 1929 أنشئت منظمة قوية للحزب في طرابلس أبرز أعضائها سليم خياطه، الأب والابن، ثيودور الديك، بشارة نعوم، نعمة قاروطه، مصطفى سنجقدار، عبد الله فلاح، ديب أمين، جورج سعادة، محمد أدهمي، محمود أدهمي، الدكتور سميح علم الدين، أحمد زكي أفيوني، وهيب ملك، أكرم عويضه، حليم خياطة، سهيل ترسيسي (قائمقام لاحقاً)، نعيم أميوني الذي اخترع جهازاً باستطاعته التقاط إذاعة موسكو. وعبره استلم الحزب أول جهاز طباعة من ألمانيا، وقد طبع على هذا الجهاز أول جريدة للحزب باللغة العربية. انضم نعيم أفيوني إلى اللجنة المركزية عام 1931 حتى آخر العام 1932. وقد عُيِّن لاحقاً سفيراً للبنان لدى الاتحاد السوڤياتي. (التقيته في موسكو).

في الفترة نفسها تأسست منظمة للحزب في زحلة من الرفاق لويس صعب، الياس عقيص، رشيد عاصي حداد، توفيق جبور، حليم فاخوري، مخايل طراد، إلياس قرعوني، وموظف في سكة حديد رياق لم أعد أذكر اسمه، وغيرهم.

□ منظمة للحزب في بعلبك بمبادرة من نظمي رفاعي، عادت وتوسعت فيما بعد.

□ منظمة حزبيّة أخرى في سوريا، تأسست في القرى الواقعة بين النبك ويَبْرود بمبادرة من ناصر حدّه.

نموّ ملحوظ للمنظمة الأرمنية في بيروت وتشكيل فرق حزبية عربية،

أذكر من أسماء هؤلاء الرفاق: خليل الحلو وجورج أبو الشباب (عاملا مطبعة)، جورج عيان (حلاق)، خير الدين معن (طالب)، أنيس شمالي (طباخ) وغيرهم.

من جهتها، الفرقة الحزبية في بكفيا تحوّلت إلى منظمة نشيطة في عمل النقابات.

فؤاد الشمالي في موسكو

في شهر تموز سنة 1928 سافر فؤاد الشمالي بجواز سفر علني إلى اسطنبول مستقلاً القطار مروراً بحلب، وأكمل طريقه من هناك إلى موسكو حيث شارك في المؤتمر السادس للأممية الشيوعية (الكومنترن) ممثلاً الحزب الشيوعي اللبناني السوري، وقد رافقه من طرابلس وهيب ملك للدراسة بجامعة شعوب الشرق للشيوعيين (جوتف).

وعاد بعد عدة أشهر من الاتحاد السوفياتي يرافقه علي مغربي من شمال أفريقيا موفداً من قبل الحزب الشيوعي الفرنسي لمساعدتنا، وهو مفكر ومتخرّج من جامعة «جوتف» في موسكو. ولم يُتح له المكوث طويلاً معنا لأنه اعتُقل وطرد من البلاد. وثمة معلومات تفيد بأنه أقام في السعودية فيما بعد.

وصول بيرغر واعتقاله

عام 1929 وصل إلى بيروت جوزف بيرغر واتصل بي وبفؤاد الشمالي. وسكن في شارع جورج بيكو مكان بناية ستاركو حالياً، في غرفة بزاروب مقفل. كعادتي في كل شهر ذهبت يوم السبت إلى منزل الرفيق ليون لاستلام مبلغ من المال بدل اشتراكه الشهري. يقع منزل الرفيق ليون في الزاروب نفسه الذي يقع فيه منزل بيرغر، ولا يبعد عنه أكثر من مئة متر. إثر خروجي من منزل ليون ووصولي إلى الشارع العام

على بعد ثلاثين متراً من الزاروب، التقيت مفتش الأمن العام غبريال ميرزا، فبادرني بالسؤال: من أين أنت قادم؟ قلت من عند صديقي، دون أن أسميه. لم يطل الكلام وتركني أكمل طريقي.

ولقد أحسست كأنه يعلم بوجود بيرغر في هذا المحيط. لكنه كان بعيداً عن مدخل المنزل. بحثت هذا الموضوع مع فؤاد الشمالي. وصلنا إلى استنتاج أن اعتقال بيرغر أمر وارد وباستطاعتهم اكتشاف محل وجوده لذا قررنا تغيير مكان سكنه. بعثنا له برسالة مختصرة مع الرفيق هوفسيب كركيان وشرحنا له ضرورة الابتعاد عن الغرفة ومرافقة الرفيق بيرغر إلى مكان آمن. نقله الرفيق كركيان إلى منزل عائلة أرمنية في غزير مع رسالة تتمنى عليها استضافته. واتفقت مع فؤاد الشمالي على إيجاد مكان آمن لسكن بيرغر. نجح فؤاد في اليوم التالي باستئجار غرفة في الكسليك ونقله إلى هناك.

في تلك الأيام وصل أبو زيام أمين عام الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى بيروت بطريقه إلى أوروبا. اتصل بنا واتفقنا على عقد اجتماع، أنا وفؤاد الشمالي وبيرغر في غرفة الأخير في الكسليك.

بعد انتهاء الاجتماع كان أبو زيام أول من غادر المكان بأمان. ثم نزلنا وفؤاد الشمالي إلى جونيه. استقللنا سيارة متوجهة إلى بيروت، نزل فؤاد من السيارة عند أول جسر بيروت، وعند وصول السيارة إلى منتصف الجسر فوجئت بوجود حاجز للتفتيش. عندما رآني مفتش الأمن العام رشيد صرخ على الفور منادياً زميلاً له: «سيد دحداح، إنه هنا!» أما السيد دحداح فهو مسؤول في الأمن العام. واعتقلوني وتوجّهوا بي إلى مركز الأمن العام. سألوني من أين أتيت فقلت: جئت من حفلة زفاف أحد أقاربي في جونيه. لم يصدقوني، سألوا السائق من أين صعد معك؟ فأجاب: من جونيه. قال الصوت نفسه: «أين اليهودي»؟ موجهاً لي السؤال: أجبته أن لا علم لي بهذا الموضوع.

قال: «نحن نعرف كيف نجده». وأطلق سراحي.

بعدئذ علمتُ أن غبريال ميرزا مفتش الأمن العام كان ينوي زيارتي

في منزلي لقضاء الليل للحؤول دون قيامي بتبليغ بيرغر بما حصل، لكنه صرف النظر عن المجيء.

واتضح أن فؤاد الشمالي الذي شاهد ما حدث معي واعتقالي على يد الأم العام عاد فوراً إلى الكسليك، ونقل بيرغر إلى المعاملتين عند إحدى العائلات لتمضية ليلة هناك، وفي اليوم التَالي تواعدا للقاء في ضبية في مقهى مكشوف، وبينما كان بيرغر ينتظر قدوم الشمالي اعتقل من قِبل الأمن العام وبعد سجنه خمسة عشر يوماً أبعد من لبنان.

انقطاعي عن الدراسة لرفض الجامعة إعادة تسجيلي

في السنة الدراسية الجديدة تقدمتُ بطلب إلى الأب شانتيور عميد معهد الطب الفرنسي لتكملة دروسي، راجياً إعادة تسجيلي. تلقيت جواباً مختصراً من الأب شانتيور: «أنت مرفوض. إعادتك إلى الجامعة غير ممكنة لأسباب سياسية». الأب شانتيور يميني عاد وطرد من لبنان في عهد السلطة الديغوليّة.

قررت الدخول إلى محل والدي لأتعلم خياطة وجه الأحذية، مع استمراري في العمل الحزبي، تعلّمت المهنة في وقت قصير وابتدأت بالشغل.. ثم علّمتُ أخي الصغير هذه الصنعة وسلمته المحل وتفرغتُ كلياً للعمل الحزبي.

انتخاب هيئة محلية لكمب الأرمن

صيف 1928 جرت إعادة انتخاب لجنة لكنيسة «سورب خاتش» في الكمب الكبير(1) ولغاية تاريخه كانت اللجنة بقيادة حزب الطاشناك. فشكلت قائمة مناهضة للطاشناك، من حزب الهنشاك وأبناء أضنة. لعب

---

(1) وهو المخيم الكبير للأرمن وكان يقوم بين محلة مارمخايل وشركة الكهرباء (طريق النهر). وسيأتي ذكره في مكان لاحق، بمناسبة احتراقه في العام 1933.

دوراً حاسماً بتشكيل هذه الجبهة الخوري هارتيون كبنليان، إذ كان ذا نفوذ بين المتحدرين من أضنة وتربطني به علاقة قرابة وصداقة، كما شارك في الحملة الانتخابية سركيس دخروني وهو وجه معروف وله تأثير في حزب الهنشاك. اتفق الاثنان على تشكيل لائحة موحدة. من جهتنا اشتغلنا لإنجاح هذه القائمة وطلبنا من رفاقنا وأصدقائنا انتخابها، كنا نعرف مسبقاً أن الطاشناك سوف يُفشلون الانتخابات بعملية تخريبية، وسيلجأون إلى العنف للسيطرة على الانتخاب، لذلك شكلنا مجموعة من أربعين عنصراً لتكون جاهزة للرد على أي استفزاز من الطاشناك. في الواقع حاول الطاشناك الهجوم على مركز الاقتراع لكن الهجوم دحر بفضل تصدي قواتنا وبمشاركة من الهنشاك والأهالي.

حققت اللائحة الموحدة انتصاراً حاسماً نتيجة لمشاركتنا الفعالة، ممّا أدّى إلى سيطرة حزب الهنشاك على لجنة كنيسة سورب خاتش ومدرسة ساحقيان المعروفة الآن بـ «مدرسة ساحقيان وليون مكردتشيان».

هذا الانتصار الذي حصل بمساهمتنا الفعالة، سمح لنا بالحصول على إذن من اللجنة المسؤولة الجديدة لاستخدام صالة المدرسة لنشاطنا الجماهيري.

لم تكن الشرطة تجرؤ على دخول المخيم تجنباً لصدام مع الأهالي، حيث دخلت في بداية إنشاء المخيم مجموعة من الشرطة واشتبكت مع الأهالي، فوقع العديد من الجرحى وسقط أحد عناصر الشرطة في البحر، وقد شارك في الاشتباك صاموئيل كابنليان ابن عمتي، الذي هاجر لاحقاً إلى الأرجنتين وتوفي بعد سنوات في بيونس إيرس.

«نادي ناييري»: «جاء دوركم أنتم الشباب»

في النصف الثاني من العام 1928 أصبح لدينا نادٍ باسم «ناييري»، مؤلف من صالة كبيرة وخمس غرف، يقع على الطريق العام مقابل مدرسة البنات «سانت فامي».. كيف توفّر لنا هذا النادي؟

كان النادي لخرّيجي مدرسة أيتام كيليكيان التابع للجمعية الخيرية الأرمنية. كانت الجمعية تدفع إيجار النادي عبر روبين ازادجيان، وكان أكثرية أعضاء النادي من الشيوعيين والأصدقاء، كذلك بالنسبة إلى الهيئة الإدارية، مما فسح لنا في المجال للعمل السري في النادي وإقامة نشاط جماهيري.

وفي هذا الجو الحماسي دعت إحدى الخلايا الحزبية داخل النادي لسهرة احتفالية موسعة شارك فيها أحد قدماء حزب الهنشاك، المناضل س. ڤاهاك، فألقى كلمة تنسجم مع جو السهرة وقال: يا رفاق، نحن تقدمنا في السن وشاب شعرنا وتعطّل دماغنا والآن جاء دوركم أنتم الشباب أهنئكم وأتمنى لكم النجاح.

على أثر هذه الحفلة توقفت الجمعية الخيرية عن دفع الإيجار وقد حللنا هذه المشكلة، بأن أجّرنا الغرف لرفاقنا الشباب ولعائلات صغيرة من رفاقنا. فتحرّر النادي من القيود وأصبح كلياً تحت تصرفنا وتحول إلى مركز لنشاطنا الجماهيري.

احتفلنا بمناسبتي 7 و29 تشرين الثاني، ذكرى ثورة أكتوبر ويوم أرمينيا السوڤياتية، وألقيت كلمة بهذا الشأن وكذلك فعل سركيس دخروني.

وشارك في أعمال النادي من مدينة ڤان الرفيق شاهباز شهباز الذي هاجر لاحقاً إلى أرمينيا السوڤياتية.

الشباب الأيتام يأتون إلينا

في أواسط 1929 وصل من حلب إلى بيروت مجموعة من الأيتام الأرمن المطرودين من ثانوية ملكونيان في قبرص لأسباب تتعلق بـ «عدم الانضباط». بسرعة أمّنا إقامتهم في نادي ناييري؛ غالبيتهم نظّموا في الحزب والقسم الباقي ظلوا أصدقاء. بين المنتسبين إلى الحزب أوهانس

أغباشيان الذي حسب قوله كان على صلة مع الرفاق الشيوعيين في حلب لكنه لم يكن عضواً في الحزب.

معركة مع «الزعران»

في تلك السنة وبعدها بدأ الطاشناك يقومون بأعمال إرهابية منظمة ضد الشيوعيين وأصدقائهم، منها هجمات مركّزة على الأحياء التي يوجد فيها شيوعيون، بغية خنق الحركة الشيوعية ومنع انتشارها. بادرنا إلى تنظيم فرقة قتالية خاصة لمواجهة إرهاب الطاشناك. نتيجة للمعارك أصيب الكثيرون من الطاشناك بجروح، وقتل واحد، أما بين صفوفنا فسقط بعض الجرحى. تألفت الفرقة القتالية من أبناء المناطق التالية: درتيول، أضنة ومرعش التي ينتمي إليها رفاقنا المقاتلون ميكايل كشيشيان، هاكوب بدويان، أرسين مردينيان، بوغوص درابزوني، ومن جبل موسى بدروس بوغوسيان (تشاتول)، تشاتال، جورج بغديشيان، أتام يغياغان، أوهانس فاجاريان، كيورك تكي هاغوبيان، ساهاك ودكران الطونيان، أرام كازنجيان، مرعش أوهانس، نازار سمباديان، انترانيك كشيشيان من مدينة فان فاهي، وحوالى العشرين غيرهم ويؤسفني أنني لم أعد أذكر أسماءهم.

وانضم إلى المجموعة القتالية في فترة لاحقة الرفاق التالية أسماؤهم: هاكوب باغجيان، انطون طوغلاجيان، بارور بلكجيان، خاتشيك برتيسليان، بولشفيك أرتين، انترانيك الطونيان، ياسايه كيوسبكيان، كيورك كاراخانيان، قدموس بلكجيان، كاوبوي هاكوب، هاكوب ناتايان، هاكوب شوبانيان، ساهاك رزيان، اسكندر كوجويان، كيورك وهاكوب كاراخانيان، ورفاق آخرون جميعهم من الرفاق الأبطال.

تنمية صفوف الحزب

خلال العام 1929 نمت صفوف الحزب في كل مكان وشكلت

منظمات جديدة، عملنا بشكل خاص في بيروت لزيادة عدد الشيوعيين العرب، حصلنا على نتائج ملموسة، على أن عدد الشيوعيين الأرمن كان يتزايد بسرعة في هذه الفترة، وقدم من جبل موسى إلى بيروت الرفيقان هاكوب ديربدروسيان وبانوس أرامايسبيان.

.. ورأيت سركيس دخروني مضرّجاً بدمائه!

كان ذلك عصر يوم 7 كانون الثاني، أي بعد مرور سنة على إطلاق سراحنا من قلعة جزيرة أرواد، عندما أطلق مجرمو حزب الطاشناك رصاصة غادرة وجبانة، من الخلف على رأس الابن البار للشعب الأرمني والوطني الكبير سركيس دخروني.

وكعادتهم برّر الطاشناك أمام الرأي العام هذا العمل الجبان بصفته رداً على مقتل فاهان قرطبديان سنة 1926 خلال اجتماع المجلس الملي الأرمني.

والحقيقة أن سركيس دخروني تميّز بخطة السياسي النشيط مدافعاً عن أرمينيا السوفياتية والاتحاد السوفياتي، ومناضلاً عنيداً دون هوادة ضد نهج الطاشناك المعادي لمصالح الشعب الأرمني.

قبل أيام من اغتياله مر عليّ في المحل وأبدى رغبته في إجراء لقاء مع فؤاد الشمالي بحضوري.

ذهبت لتحديد الموعد مع الشمالي فلم أجده في المنزل. قررت زيارة منزل سركيس دخروني للاتفاق على موعد جديد. كانت العتمة شديدة. ما إن وصلتُ إلى الفرن الكائن على مقربة من منزله حتى طلب مني أحد رجال الشرطة تغيير وجهة سيري، فألقيت نظرة أمامي ورأيت سركيس دخروني ممدداً على الأرض تسيل منه الدماء .

وصلت إلى بيته فرأيت شقيقته وأفراد عائلته يبكون ويولولون، ولتهدئتهم والتخفيف عنهم قلت إن سركيس لم يمت، إذ لم أكن متأكداً من وفاته.

انتقلتُ إلى نادي نايبري وشرحتُ الحدث للرفاق وذهبتُ برفقة مجموعة منهم إلى مستشفى أوتيل ديو حيث نقل. وهناك أبلغونا خبر وفاته.

عدت مع الرفاق إلى المخيم وقابلت قيادة حزب الهنشاك في ذلك الوقت، اقترحت عليهم الاستنفار والرد الحاسم والفوري على الجريمة، إذ لا يجوز أن يكون الرد من جانبنا دون تنسيق ومشاركة من حزب الهنشاك.

عدت إلى منزلي، التقيت في اليوم التالي الرفاق في نادي نايبري واتفقنا على كتابة يافطات بالفرنسية والأرمنية تدين الجريمة والمجرمين وحزب الطاشناك.

انتقلت من هناك إلى منزل سركيس دخروني حيث التقيت أحد قادة حزب الهنشاك مهران سافريان واتفقنا على اتخاذ عدة إجراءات، منها إصدار بيان يدين الجريمة ويدعو سكان المخيم إلى إعلان الحداد العام وإغلاق المحال تعبيراً عن إدانة الجريمة وشجبها، وطبع البيان في مطبعة جوزف أجاميان ووزّع بشكل واسع في المدينة وفي المخيم، أشرت على الرفاق المقاتلين بالنزول إلى المخيم ودعوة الأهالي للمشاركة في مراسم الدفن، وحماية المشاركين وحفظ الأمن.

انطلقت المسيرة من أول المخيم، كان رفاقنا يحملون يافطات باللغتين الفرنسية والأرمنية تدين الجريمة الفاشية للطاشناك وتطالب السلطة بمعاقبة المجرمين والمخططين لها، تدخّلت الشرطة لنزع اليافطات فواجهناها ولم نرضخ لمحاولتها. انضم شباب الهنشاك وقيادتهم إلينا وسارت جماهير الناس كالموج وراء النعش.

وقد رثاه كلّ من مهران دامديان، ميساك ڤاهوني، مهران سفريان، وكذلك فؤاد الشمالي ويوسف يزبك، وهما العربيان الوحيدان، وتكلمت أنا فأدنتُ الجريمة واتهمت حزب الطاشناك بالتخطيط لها ووصفتُ

سركيس دخروني بالوجه السياسي الوطني، وطلبت الكشف عن المجرمين والمخططين واتخاذ الإجراءات اللازمة لمعاقبتهم، وختمت كلمتي بالدعوة إلى اليقظة والوعي ورصّ الصفوف لإحباط أية جريمة محتملة الوقوع.

وقد وزع فؤاد الشمالي الخبر على الصحف العربية بواسطة المراسل الصحافي فؤاد ميداني.

الصحف العربية أدانت الجريمة واستمر يوسف يزبك في حملته على حزب الطاشناك في جريدة «الأحرار» حيث كان محرراً فيها.

نظراً لصداقتنا الحميمة كان دخروني قد أطلعني قبل اغتياله بأيام، على رسالة بخط يده موجهة إلى منظمات الهنشاك تقع في أربعين صفحة كبيرة، ردّ فيها على مقالات كريكور يركيان المنشور في جريدة «نور يرغير» الصادرة في باريس. والمذكور كان عضواً قديماً في حزب الهنشاك إلّا أنه قاد حملة مسعورة ضد أرمينيا السوڤياتية والاتحاد السوڤياتي.

طُرد يريكيان من صفوف حزب الهنشاك في المؤتمر العاشر للحزب بعد اتهامه بالتجسس والعمالة للمخابرات البريطانية والشاهنشاهية.

وقد نشرت جريدة الهنشاك في أميركا (يريداسرت هايستان) بدورها مقالات كريكور يريكيان.

رسالة دخروني كانت تعبر عن مبادئ حزب الهنشاك وإخلاصه لهذا الخط والدفاع عنه، وكذلك الدفاع عن أرمينيا السوڤياتية والاتحاد السوڤياتي.

كان سركيس دخروني قد صاغ رسالته بهلجة قاسية، وقد لفتُّ انتباهه لهذا الموضوع فوافقني وقرر حذف الفقرات القاسية... لكنه اغتيل قبل أن يسلم رسالته المفتوحة إلى الصحف.

لقد ارتكزت سياسة دخروني على وحدة العمل والتنسيق بين حزب الهنشاك والحزب الشيوعي، والملاحظ أنه لم يكن تحت تصرّف دخروني

مطبوعات ماركسية وأسس مبادئ الشيوعية، وقد أعرته في القدموس كتاب فريديريك انجلس «انتي دوهرينغ» باللغة الفرنسية وقد بادر إلى ترجمة جزءين من الكتاب إلى اللغة الأرمنية، بعد عودتنا إلى بيروت احتفظ بالكتاب لعدة أشهر رغبةً في مطالعته.

المحاولة الأولى لاغتيال مهران اغازاريان

قام الطاشناك في صيف 1928 بأول محاولة لاغتيال مهران أغازاريان الموجود في طرابلس في الإقامة الجبرية.

فشلت محاولة الاغتيال قُبيل التنفيذ بفضل ياغيشه هينايكيان الذي كشف المحاولة بطريقته السرية وأبلغني بالأمر، وأفشلنا الخطة. وتم إلقاء القبض على المجرم المكلف بتنفيذ الجريمة لكنه سجن لمدة شهرين بتهمة.. حمل سلاح غير مرخص!

بحثت هذا الموضوع مع سركيس دخروني وقرَّرنا إصدار بيان علني يشجب محاولة الاغتيال المدبرة من قبل حزب الطاشناك، حرر دخروني بياناً بهذا المحتوى باسم التكتل الشعبي ووزعه رفاقنا في بيروت بشكل واسع.

انتخاب بلدية بكفيا

في ربيع 1929 جرى انتخاب بلدية بكفيا. شاركنا في المعركة ضمن جبهة وطنية موحّدة، لقد تألفت لائحة من قوى ديمقراطية مختلفة فرشحنا في اللائحة عامل التبغ وعضو اللجنة النقابية وعضو اللجنة المركزية الرفيق فريد طعمة، انتهى الانتخاب بفوز اللائحة الديموقراطية. هذا الانتخاب فسح لنا في المجال لطرح برنامجنا بشكل علني. طبعنا باسم مرشحنا بياناً من خمسة عشر ألف نسخة ووزعناه داخل بكفيا وخارجها. ويتضمّن البيان الدفاع عن مصالح ومطالب العمال والفئات المتوسطة

الحال. ويطالب بالحريات النقابية وبقانون للعمل، وبضريبة نسبية على الإرث وضريبة نسبية على أرباح الأغنياء.

وقد تألمنا لموقف الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي اتهمنا بالانتهازية لمشاركتنا في انتخاب البلدية واستخدام المناسبة لطرح برنامجنا السياسي والديموقراطي.

تظاهرة لعمال السجائر اعتُبرت ضد الحرب!!

في شهر آب من السنة نفسها بادر الحزب، عبر رفاقنا في نقابة التبغ إلى دعوة العمال للتظاهر في ساحة البرج أمام السراي الحكومي الصغير. وقد شارك في التظاهرة حوالى أربعة آلاف عامل وكانت الشعارات الأساسية معادية لمسعى شركة حصر التبغ (الفرنسية) لفرض الاحتكار على جبل لبنان وإلحاقه بالاحتكار في بيروت، كذلك طالبوا بحريات نقابية وبقانون للعمل.

وفي الواقع كان من شأن فرضِ احتكار التبغ على جبل لبنان أيضاً أن يؤدي إلى إغلاق المعامل الصغيرة وتشريد عدد من العمال والإجهاز على المراكز العمالية القائمة. يومئذ وقفت البرجوازية الوطنية ضد نضال العمال وأصحاب معامل الدخان في الجبل، ووسعت السلطات المنتدبة الاحتكار ليشمل جبل لبنان مما أدّى إل إفلاس غالبية أصحاب مؤسسات التبغ وتشريد عمالها، وزيادة عدد العاطلين عن العمل.

عشية التظاهرة أُلقي القبض عليّ وعلى فؤاد الشمالي وأودعنا مخفر الشرطة لمدة يومين بحجة أننا نعمل لتنظيم تظاهرة ضد الحرب، في أول شهر آب بمناسبة ذكرى بدء الحرب العالمية الأولى.

كرّاس حول التنظيم النقابي

في شتاء 1929 صدر كتاب فؤاد الشمالي الذي أعده في قلعة

قدموس فكان أول كتاب نظري مبسط ومفهوم للعمال، حتى للبسطاء منهم، عن كيفية تنظيم اتحاد النقابات مع اقتراح تصميم هرمي للنقابات.

«تكتل العمال والفلاحين»

وصدر في السنة نفسها بيانان من قِبل اللجنة المركزية للحزب باسم تكتل العمال والفلاحين، جاء أحدهما احتجاجاً على سلطات الانتداب لتعليقها أعمال المجلس الدستوري المنتخب حديثاً.

«نخمن» في بيروت

في أواخر العام 1929 انتقل نخمن ليستفنسكي أحد قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى بيروت مع عائلته، بغية مساعدتنا على سد النقص الموجود.

وقد انضم إلى اللجنة المركزية للحزب وإلى السكرتاريا وقام بنشاط مثمر، على أنه لعب دوراً سلبياً وارتكب أخطاء وشجع الموقف المناهض لتعريب الحزب، وعمل لمنع التعريب ـ وهو الوضع الذي سنتطرّق إليه مفصلاً في الصفحات القادمة.

جريدة علنية للنقابات

عدنا وعقدنا اتفاقاً جديداً مع سجيع الأسمر حول جريدته «العمال» وعُيِّن فؤاد الشمالي مديراً لتحريرها.

كان واضحاً أن الجريدة سوف تطرح خطاً نقابياً يعكس خطنا السياسي.

صدر العدد الأول، ويحمل الرقم 72، في منتصف كانون الأول عام 1929. ولقد لعبت جريدة «العمال» دوراً دعائياً واسعاً وأحدثت

تأثيراً بارزاً لدى العمال واستمرت بالصدور حتى العدد 76 في أواخر كانون الثاني حيث توقفت بأمر من السلطة.

بعدها وفي 17 آذار من العام 1930، صدرت الجريدة العمالية «صوت العمال» باسم فؤاد الشمالي، الذي تولى رئاسة تحريرها وقامت بدور مهم في تطوير الحركة النقابية وتنظيمها بمحتوى سياسي.

انتشر صداها بين العمال في بيروت، وفي أنحاء لبنان كله، وكذلك في سوريا، لكن لم يصدر منها سوى أعداد أربعة، في 17 آذار و31 منه و17 نيسان و8 أيار وقررت السلطات تعطيلها.

الوضع التنظيمي للحزب عشية 1930

كان العام 1929 عام نهوض وغليان حيث نمتْ منظمات الحزب بصورة ملحوظة وأنشئت خلايا حزبية جديدة في أوساط الأرمن والعرب على السواء، ونُظّم التثقيف الحزبي، وفي أوائل عام 1930 كان عندنا منظمات حزبية عاملة في بيروت، طرابلس، زحلة، بكفيا، رياق، عكار، حلبا، بينو، الشام، حلب، النبك، يبرود، إسكندرون وجبل موسى.

قاد منظمة الحزب في منطقة حلبا وعكار الرفيق أنيس بيطار وهو رفيق صلب، عملي، نظامي، اعتقل وسجن عدّة مرّات لأسباب حزبية.

وفي سنة 1931 انتشر الحزب بين الفلاحين في منطقة عكار، وبقيادته خاض الفلاحون نضالات ضد الإقطاعية.

برقية إلى مؤتمر العمال العرب

في 11 كانون الثاني عام 1930 انعقد مؤتمر العمال العرب في حيفا (فلسطين)، وقد أُرسلت في اليوم نفسه برقية باسم عمال لبنان حيّت المؤتمر ونُشرت في الكتاب الذي صدر عنه.

فرج الله الحلو في صفوف الحزب

في عام 1930 انتسب فرج الله الحلو رسمياً إلى صفوف الحزب وكان قبل انتسابه على صلة بالرفيق ناصر حدّة في حمص. وقد أصبح فيما بعد أميناً عاماً للحزب ثم صار شهيد الحزب الكبير.

تصاعد النضال التحرري الوطني السوري

في شهر تموز 1928، وبناء على الاتفاق المعقود مع سلطات الانتداب الفرنسي، جرى انتخاب المجلس الدستوري وانتهى بانتصار ساحق للكتلة الوطنية. وقد شددت الخطوط العريضة لمشروع الدستور الجديد على الاستقلال الوطني وعدم الاعتراف بالانتداب الفرنسي، وبكلمة أخرى رفض أية وصاية. كما أكدت أيضاً على وحدة الأراضي السورية المطلقة حيث إن سلطات الانتداب الفرنسي جزّأت البلاد إلى عدة دويلات خاضعة لحكم ذاتي: جبل الدروز، منطقة العلويين، لواء الاسكندرون، وعُزلت هذه المناطق عن سوريا.

في ذلك الوقت حضر مندوب المفوّض السامي الفرنسي جلسة المجلس معطياً نفسه حق الوصاية، فوجّه إليه رئيس المجلس الدستوري من على منبر القاعة سؤالاً حول من يمثل وبأية صفة يحضر جلسة المجلس الدستوري، وأعلن: إن مجلسنا سيد نفسه ولا يعترف بأية وصاية وإشراف.

أما زعيم الكتلة الوطنية، فوزي غازي، فقال من على منبر المجلس: «أقصّ يدي ولا أوقّع على تجزئة أراضي سوريا».

صعد بعده إلى المنبر ممثل دويلة لواء الاسكندرون المنتخب بضغط من السلطات الفرنسية، زعيم حزب الطاشناك موسيس دير كالوستيان وطالب بفصل لواء الاسكندرون عن سوريا والحفاظ على الحكم الذاتي.

وللأمانة التاريخية يجدر بنا القول إنّ تركيا احتلت لواء الاسكندرون

مستغلة كلام موسيس دير كالوستيان، فكلمته من على منصة المجلس الدستوري أحدثت بلبلة وغضباً داخل المجلس ولدى الرأي العام العربي، وفي الصحف، كما أحدثت قلقاً في صفوف الأرمن. وكان غضب الجماهير العربية قابلاً للتحول إلى عداء للشعب الأرمني لولا استنكار وشجب الشعب الأرمني لما أدلى به دير كالوستيان. ولدرء هذا الخطر أعلن الأرمن السوريون تأييدهم لوحدة أراضي سوريا واستقلالها الوطني، وقد شكّل رفاقنا في دمشق وفداً بمبادرة من هيكازون بوياجيان ومشاركة أرمن غير حزبيين، وتوجهوا إلى المجلس الدستوري وإلى الصحف مستنكرين حديث دير كالوستيان ومعربين عن إخلاصهم لوطنهم سوريا ووقوفهم إلى جانب قضيتهم الوطنية. استقبل موقفهم بالارتياح من قبل المجلس الدستوري والرأي العام العربي وعلى صعيد الصحافة.

وتواصلت خلال جلسات المجلس الدستوري الحملة على سلطات الانتداب الفرنسي وعلى مندوبهم في المجلس، ولا سيما من جانب رئيس المجلس، الأمر الذي أغضب الانتداب الفرنسي فأمر بتعليق جلسات المجلس الدستوري قبل أن يكرس شرعيّته!

وقد قوبل تعليق أعمال المجلس باستياء عارم لدى الجماهير السورية وانتشرت التظاهرات والإضرابات في أنحاء سوريا كلها، فيما واصلت السلطات الفرنسية مساعيها مع الكتلة الوطنية بأمل الوصول إلى تفاهم على أساس «تنازل متبادل»، بما يعني بقاء الانتداب الفرنسي على سوريا، ولكن محاولات الانتداب هذه لم تؤدِّ إلى أية نتيجة.

شددت سلطات الانتداب الفرنسية إجراءاتها القمعية، ومن ضمن سياستها الامبريالية المعهودة، وأصدرت أمراً جديداً بحل المجلس الدستوري، جاء هذا الإجراء التعسفي لينشر حالة من الغضب لدى الشعب السوري، فعمّت التظاهرات جميع أنحاء سوريا، وأعلن الإضراب العام وساد جوّ مناهض للامبريالية وتصاعد النضال من أجل التحرر والاستقلال الوطني.

المجلس الوطني الثاني للحزب (كونفرنس)

خلال تصاعد معركة التحرر الوطني المعادي للامبريالية في سوريا وتعاظم النضال ضد سلطات الانتداب في لبنان، انعقد المجلس الوطني الثاني للحزب في أواخر نيسان 1930 في إحدى غرف نادي نايبري، بعد أن اتخذنا الإجراءات الأمنية اللازمة للحفاظ على سلامة الاجتماع.

شارك في اجتماع المجلس الوطني فؤاد الشمالي، أرتين مادويان نُخمن ليستفنسكي، ناصر حدّة من دمشق ورفيقان من فلاحي قريتي النبك ويبرود (سوريا)، نظمي الرفاعي من بعلبك، رشيد عاصي (حداد) من زحلة، إلياس قرعوني من زحلة، ستراك هيكازيان من حلب، هاكوب دير بدروسيان من بيروت وآخرون. وحضر الاجتماع زاديك دادوريان بصفته سكرتيراً لمنظمة الشبيبة الشيوعية.

قدمت اللجنة المركزية للمجلس الوطني تقريراً عن أعمالها، وشرحت الوضع السياسي الراهن وقدمت اقتراحات حول المهمات السياسية والتنظيمية في الحركة النقابية وحول مسؤولية الشيوعيين داخل النقابات، وطرحت مشروع برنامج بشأن مبادئ مطلبية للحركة العمالية، وحيّت اللجنة المركزية النضال الوطني التحرري والمعادي للامبريالية المتصاعد في سوريا وأعلنت مشاركة الحزب في هذا النضال.

ووافق المجتمعون بعد المناقشة وتبادل الآراء، على تقرير اللجنة المركزية وعلى المشروع المطلبي العمالي، وكذلك على المهمات السياسية والتنظيمية المقبلة المستندة إلى التحليل السياسي.

قرر المجلس الوطني الثالث إعادة إصدار بيانات باسم «الحزب الشيوعي اللبناني السوري» حيث كان الحزب قد توقف عن إصدار بيانات باسمه منذ عام 1928. كان هذا قراراً مهماً، وفتح صفحة جديدة أمام عمل الحزب السياسي. وبكلمة أخرى أمَّن عودة الحزب إلى الساحة السياسية باسمه الحقيقي.

وقد انتخب المجلس الوطني الثالث بالاقتراع السري أعضاء اللجنة المركزية الرفاق الآتية أسماؤهم: فؤاد الشمالي، أرتين مادويان، نخمن ليستفنسكي، ناصر حدّة، نظمي الرفاعي، هيكازون بوياجيان، هاكوب ديربدروسيان، وعُيِّن فؤاد الشمالي أميناً عاماً، وأرتين مادويان ونخمن ليستفنسكي أمينين (سكرتيرين) .

على أثر المجلس الوطني الثاني (الكونفرنس) صدر في أواخر شهر حزيران 1930 بيان سياسي باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، يحتوي على برنامج الحزب النضالي. وقد شارك في صياغة البيان الرفيق وهيب ملك الذي وصل حديثاً من موسكو. كان اسمه السري هناك «حسن».

وجاء في البيان النقاط الأساسية التالية: النضال من أجل الاستقلال الوطني ـ حكومة عمّال وفلاحين ـ حريات ديموقراطية على صعيد التنظيم والاجتماع ـ حق الإضراب وحرية العمل النقابي ـ 8 ساعات عمل ـ قانون عمل ـ تأميم الاحتكارات الأجنبية ـ توزيع أراضي الحكومة والإقطاع على الفلاحين المحرومين من الأرض.

طبع من البيان أربعة آلاف نسخة بواسطة الرفيق جان تابت وهو عامل مطبعة، ووزع في السابع من حزيران عام 1930 على نطاق واسع في المدن وبعض بلدات وقرى لبنان وسوريا، وجرى تحديد رفاق وإرسالهم لتوزيع البيان في بعض المناطق التي لا يوجد فيها منظمات حزبية. وقد وزع البيان في اليوم نفسه وفي الوقت نفسه تقريباً.

في لواء الاسكندرون اعتقل الدرك الرفيق هوفانس ماجاريان للاشتباه فيه واتهموه بنقل البيان من بيروت، كما تولى مدير الأمن العام قره بت تشيشكليان (زغكوني) ممارسة التعذيب الوحشي بحق هوفانس ماجاريان الذي واجه رجال القمع ببطولة مثالية نادرة. وقد أطلق سراحه فيما بعد لعدم وجود دليل حسي ضده.

أما في الاسكندرون فقد وزع الرفاق المحليون البيان.

لقي البيان صدى كبيراً في لبنان وسوريا وزاد من وزن الحزب وتأثيره في الأوساط السياسية وكذلك في الصحافة.

في سجون حيفا والقدس

ذهبت بعد 7 تموز مع فؤاد الشمالي إلى دمشق ثم انضم إلينا الرفيق وهيب ملك. وبجهودنا وعملنا الجماعي نحن الثلاثة أصدرنا بياناً باسم اللجنة المركزية للحزب بمناسبة أول آب، ذكرى اندلاع الحرب العالمية الأولى. وكان البيان معادياً للحرب ومدافعاً عن الاتحاد السوڤياتي، ووزع في اليوم نفسه في لبنان وسوريا.

التقينا في دمشق أحد مسؤولي منظمتنا الرفيق فوزي الزعيم وآخرين، فأبلغونا بانتساب عضو جديد إلى المنظمة، وهو الشاب الرفيق خالد بكداش المنهمك في حينه بالامتحانات الرسمية، وتوقعوا له مستقبلاً جيداً في الحزب.

أما الهدف من ذهابنا إلى دمشق فكان السفر إلى فلسطين، ومن هناك إلى موسكو، للمشاركة في مؤتمر الأممية النقابية الحمراء بناء على قرار اللجنة المركزية للحزب. وكانت باخرة نقل سوڤياتية ترسو في مرفأ يافا كل أسبوعين مرة.

غير أننا لم نجد وسيلة للانتقال من دمشق إلى فلسطين فعدنا أدراجنا إلى بيروت.

ثم انتقلنا بشكل سري، وبمرافقة دليل من النبطية بواسطة الخيل، واجتزنا حدود فلسطين ووصلنا إلى صفد، ومن صفد وصلنا إلى القدس بواسطة سيارة، وبعد سفر طويل ذهبنا إلى العنوان المحدد (عيادة طبيب) فرفضت سكرتيرته تقديم المساعدة لنا، غير أننا نجحنا بطريقتنا الخاصة في تأمين الاتصال واللقاء مع جوزف بيرغر، الذي كان يقطن الطبقة الأخيرة من بناء مؤلف من عدة طبقات، ومن ثم انتقلنا إلى يافا.

اجتمعنا للمرة الأولى بالرفيق «أبو داوود» (محمد مغربي ـ معروف باسم: محمود الأطرش) وانتقلنا برفقته إلى تل أبيب لتأمين سكن لنا في الحي العربي قرب منزل أحد الرفاق العرب، سبقنا أبو داوود ليتأكد من المنزل المستهدف، فوجد فيه سكاناً جدداً ارتابوا في أمره، فتخلص منهم بصعوبة وعاد إلينا مسرعاً وأخبرنا بخطورة وضعنا، فابتعدنا بسرعة عن المكان.

وأخيراً استطعنا تأمين مكان لإقامتنا بمساعدة الحزب.

وبينما كان رفاقنا الفلسطينيون بصدد تحضير تذاكر لنا بأسماء مستعارة للسفر بواسطتها، اعتقلنا في صباح اليوم المحدد للسفر وذلك في مكان إقامتنا الجديد قبل استلام التذاكر ولا شك أننا كنّا ضحية وشاية.

وتجدر بنا الإشارة، ارتباطاً بهذا الموضوع، إلى أن سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، نجاتي صدقي، سافر إلى موسكو، بعد اعتقالنا، للمشاركة متحدثاً باسم لبنان وسوريا. في الأشهر الأولى من بداية الحرب العالمية الثانية سقط القناع عن وجه نجاتي صدقي وتبيّن أنه من المخابرات البريطانية.

أمضينا خمسة عشر يوماً في السجن بين حيفا والقدس، بعد ذلك نقلونا إلى الناقورة على الحدود اللبنانية وسلمونا للأمن العام.

كان المسؤول «داريل» فرنسي الجنسية، فاشياً متوحشاً. احتفظ بنا عنده لمدة 48 ساعة في غرفة رطبة غير صالحة للنوم وامتنع عن تزويدنا بالطعام، وقرر إرسالنا إلى بيروت سيراً على الأقدام رغم اعتراضنا واستعدادنا لدفع مصاريف السيارة. انطلقنا باتجاه بيروت مقيّدي الأيدي تحت الشمس المحرقة بمرافقة عنصرين من الدرك يُستبدلان من مخفر إلى مخفر آخر.

الكابتن فؤاد شهاب خشي أن نموت على الطريق

مشينا حتى العصر وأمضينا ليلتنا في مخفر عدلون. في اليوم الثاني استأنفنا سيرنا إلى صيدا ثم باتجاه الدامور، ووصلنا إلى مخفر وادي الزينة منهوكي القوى، وأثناء وجودنا في المخفر حضر «كابتن» في الجيش مع زوجته الفرنسية، وعندما أبصرنا في حالة إرهاق سأل الدركي من نكون ولماذا نسير على الأقدام. أجابه الشرطي مرتبكاً: لا أعرف، فمع الشرطة المرافقة أمر خطي على ورقة عادية يأمر بإيصالهم إلى بيروت سيراً على الأقدام من غير تفاصيل. قال الكابتن: «هذا غير مقبول. من يتحمل المسؤولية إذا مات هؤلاء في الطريق؟» دعانا الكابتن لصعود سيارته بعد أن أمر بفكّ قيودنا ونقلنا إلى مفرزة الجيش في الدامور، وأعطى الأوامر لرئيس المخفر ليؤمّن لنا الطعام وحوائج النوم. وفي اليوم التالي أرسلنا بمرافقة دركيين وبواسطة سيارة إلى بيروت.

وقد علمنا فيما بعد أن الكابتن المذكور هو فؤاد شهاب، الذي أصبح بعد استقلال لبنان قائداً للجيش، وانتخب عام 1958 رئيساً للجمهورية اللبنانية.

بعد وصولنا إلى بيروت حقق معنا مفتش الأمن العام درويش دحداح وأحالنا على المحكمة المختلطة. كان المحقق فرنسياً يدعى دزوفسكلي، أمر بوضعنا في حبس الرمل، وبعد سجننا شهراً ونصف الشهر أطلق سراحنا.

صدر في أواخر عام 1930 بيان باسم لجنة نقابة عمال التبغ في جبل لبنان، ضد احتكار التبغ ومن أجل مطالب عمالية عامة أخرى. وقع البيان بالإضافة إلى أعضاء اللجنة المحامي إميل لحود الذي دافع عن رفاقنا بمناسبتين أمام المحكمة المختلطة.

وأعلن في أواخر عام 1930 إضراب عام لعمال النسيج في دمشق وقد شارك رفاقنا في قيادته. تألفت في بيروت لجنة عمالية لجمع

التبرعات دعماً للعمال المضربين وسلمت التبرعات إلى الهيئة القياديّة للإضراب في دمشق. وكان أعضاء اللجنة جورج أبو الشباب، محيي الدين كوسا، من عمال الباعة، وكيورك كاراخانيان وآخرون.

مداخلتنا في الاجتماع الموسع للكتلة الوطنية

شهد شهر كانون الثاني من العام 1931 تصاعداً للمدّ الوطني لدى الفئات الشعبية وفي أوساط واسعة من المثقفين الوطنيين والثوريين. ولقد سعت سلطات الانتداب إلى الحد من تصاعد النضال الوطني فقررت إجراء انتخابات نيابية مبكّرة. واتخذت الكتلة الوطنية، وهي حزب البورجوازية الوطنية قراراً بخوض الانتخابات علّها تحقّق انتصاراً على غرار ما حصل في العام 1928، يساعد على تحقيق الأهداف المرجوّة. لذا دخلت الكتلة الوطنية في مفاوضات مع المستعمر الفرنسي، فأبدت سلطات الانتداب استعدادها للتعاون مع البورجوازية الوطنية مقابل تنازلات خلال الانتخابات وبعدها. وقد فرضت أسماء بعض المرشحين وأسماء غالبية الوزراء في الحكومة الجديدة وهم من عملاء الامبريالية.

قوَّم حزبنا الوضع السياسي في ظل تعاون البورجوازية الوطنية مع المستعمر الفرنسي، ورأى في الوضع أخطاراً جمّة. فالتصالح مع الأجنبي الذي يحتل بلادنا سوف يؤثر في النضال الذي نخوضه ضده، ويؤدي إلى ارتخاء في وتيرة النضال المتصاعد لحركة التحرر الوطني. فرأى الحزب، بالتالي، ضرورة القيام بعمل سياسي لمواجهة هذا الخطر. إننا سنُقدم على تحرك جريء يستحق المجازفة نظراً للصدى الإيجابي الذي سيحدثه، بلا شك، على الصعيد السياسي: وهو بمثابة وسيلة ضغط على الكتلة الوطنية بوجه خاص وعلى الأطراف التي لديها استعداد للمصالحة. في ذلك الوقت كان مقرراً عقد اجتماع علني موسع للكتلة الوطنية بحضور جميع قادتها في دار جريدة «الأيام» الوطنية في القاعة الكبرى التابعة لتحرير الصحيفة.

وقد ذهبنا بهذه المناسبة إلى دمشق مع فؤاد الشمالي واجتمعنا بخالد بكداش في حي شالان في غرفة في بناية أغلب سكانها من الشيوعيين وأصدقائهم. شارك في الاجتماع سليم خياطة، الذي كنت التقيته عند يوسف يزبك في مكتب تحرير جريدة «الأحرار» سنة 1929. تقرر مشاركة رفاقنا في لقاء «الأيام» وأن يلقي خالد بكداش كلمة من على منبر الاجتماع لأنه من مواطني دمشق، ويتميز بلهجة خطابية وله معارف وصداقات في أوساط الكتلة الوطنية، ممّا يسهّل له المشاركة في الاجتماع وإلقاء كلمة وقد تضمنت الكلمة، ما اقترحته من تأكيد بأننا قادرون على الوصول إلى استقلالنا الوطني ليس عن طريق المصالحة مع المستعمرين بل بخوضنا النضال الثوري.

نجح خالد بكداش في الوصول إلى المنبر وإلقاء كلمته واستطاع طرح شعاراتنا الأساسية، مما خلق عاصفة في القاعة، وفاجأ منظمي الاحتفال فمنعوه من إكمال كلمته وأنزلوه عنوة من على المنبر، وأبعدوه مع فؤاد الشمالي ورفاق آخرين إلى خارج قاعة الاجتماع.

وجرى الانتخاب، وحصل تزوير فاضح منظم من قِبل السلطات الفرنسية في كل مكان.

التزوير!

عبّر الشعب عن استنكاره للتزوير في دمشق بمهاجمة بعض صناديق الاقتراع وتحطيمها. إضراب وتظاهرات في جميع أنحاء البلاد. استياء عارم يلفّ المدن والدساكر.. مما اضطر الفرنسيين لإعادة الانتخاب في دمشق وفي مناطق أخرى.

وبإعادة الانتخاب، استطاعت الكتلة الوطنية الوصول إلى المجلس وشكّلت كتلة صغيرة داخله. ولقد شارك رفاقنا بشكل فعّال في التظاهرات الشعبية.

خالد بكداش سكرتيراً لمنظمة دمشق في السجن

انتخب خالد بكداش في أوائل عام 1931 سكرتيراً لمنظمة الحزب في دمشق، وكان في السابق عضواً نشيطاً في شباب الكتلة الوطنية، شارك بفعالية في التظاهرات الوطنية المعادية لفرنسا. كان موظفاً في شركة حصر التبغ، وقد ترك عمله وتفرّغ للعمل الحزبي. اشتغل فترة في جريدة «القبس» ذات النهج الوطني. استقبل الرفاق عمله الحزبيّ بارتياح. لكنه لم يستطع ممارسة مسؤوليته الجديدة طويلاً لأنه اعتقل مع رشاد عيسى وهيكازون بوياجيان في منزله أثناء قيامهم بطبع جريدة «دمشق الحمراء» على الجيلاتين، بوشاية من العميل حسن شاهين الذي استطاع اختراق صفوف الحزب مستفيداً من وضعه كعامل نسيج. لماذا وجد ثلاثة رفاق في منزل خالد بكداش لطبع جريدة؟ ولماذا علم حسن شاهين بطبع الجريدة وليست له أية علاقة بهذا الموضوع؟ حصل هذا لعدم وجود تجربة لدى الرفاق وقد خرج الرفاق الثلاثة من السجن قبل إكمال مدة العقوبة لصدور عفو عام عن السجناء.

«الفجر الجديد» على الجيلاتين

في أوائل عام 1931 صدرت في بيروت جريدة «الفجر الجديد» ناطقة باسم اللجنة المركزية للحزب، بالطباعة الجيلاتينية وباللغتين العربية والأرمنية. صدر من الجريدة أربعة أعداد بالعربية وأربعة أعداد بالأرمنية. كنت مسؤول تحرير الطبعة الأرمنية، وقد شاركني في التحرير زاديك دادوريان. أما مقالات اللغة العربية للطباعة الجيلاتنية فقد نسخها جورج بتروني الذي انتسب إلى الحزب لكونه عاملاً ثورياً وأميناً، وعلى معرفة قديمة بفؤاد الشمالي.

الخلايا العربية تتلاشى

في مطلع عام 1931 ضمت منظمة الحزب في بيروت سبع خلايا حزبية عربية، وكان هذا مصدر سعادة وارتياح لدينا. كذلك توسعت المنظمة الأرمنية بشكل ملموس. خليل الحلو عامل المطبعة وتوفيق حداد عامل الميكانيك ورشاد إمام المستخدم في الصيدلية،.. كانوا من أبرز الرفاق العرب. عُيِّن زاديك دادوريان مسؤولاً لمنظمة المدينة، لكن لم تمضِ فترة قصيرة على ممارسته مهامه حتى تلاشت الخلايا العربية، وهذا ما أحزن اللجنة المركزية وممّا زاد الطين بلّة، وأثار استغرابنا في ذلك الوقت، عدم اهتمام اللجنة القيادية للمدينة بإضراب صيادي السمك الذي استمر شهراً ونصف الشهر. عندما انتقدت اللجنة المركزية زاديك دادوريان لتقصيره في هذا الموضوع، اقترح زاديك في اجتماع لجنة المدينة تكليف أمين عام الحزب فؤاد الشمالي وأنا، سكرتير اللجنة المركزية، الاتصال بصيادي السمك فصدر قرار بذلك وقمنا بالاتصال بالصيادين ولكن بعد فوات الأوان، وقد حُلت لجنة المدينة بقرار من اللجنة المركزية بسبب انهيار الخلايا العربية، واللامبالاة حيال صيادي السمك.

هذا القرار أثار حفيظة زاديك الذي اعتبره إهانة لشخصه. عينت اللجنة المركزية لجنة جديدة للمدينة غالبية أعضائها من الرفاق العرب وهم خليل الحلو (عامل مطبعة)، توفيق حداد (ميكانيكي)، رشيد إمام (عامل في صيدلية)، بانوس ارامايسيان، ورفيق آخر أرمني لم أعد أذكر اسمه مع الأسف. وشكل ذلك بداية ازدياد دور الرفاق العرب داخل الحزب وستكون لنا عودة إلى هذا الموضوع في الصفحات المقبلة.

أمام المحكمة العسكرية: عاصفة تصفيق لأندريه برتون

قبل أن تسوء علاقتنا مع دادوريان وفي ظل هذه الأجواء أعدّ

دادوريان تقريراً سياسياً مخصصاً لمنظمة الشبيبة الشيوعية كلفتني اللجنة المركزية بمهمة الاطلاع عليه ومناقشته. ذهبت وزاديك إلى حي يقع خلف كنيسة الأرمن الكاثوليك وقصدنا غرفة صغيرة مخصّصة لاجتماعات اللجنة المركزية.

حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر دخل فؤاد الشمالي فجأة إلى الغرفة، دون موعد سابق وبلا سبب. وبعد خروجه بعشر دقائق قررنا مغادرة الغرفة.

خرجنا من الغرفة إلى باحة البناء حيث كان يسكن سائق عربة، يضع عربته في الباحة التي كان بابها مفتوحاً على مصراعيه. لمحتُ على الطريق مفتش الأمن العام الفرنسي دارول دحدح؛ حاولتُ الاختفاء عن نظره لكنه رآني فنادى السيد دوسيه قائلاً: «هؤلاء موجودون هنا. دخل مسؤول الأمن العام الفرنسي دوسيه باحة المنزل وسألني من أين خرجت، فأجبته بأني لم أخرج من أيّ مكان بل كنت عند السائق فلم يصدّق، وصعد باتجاه الغرفة على الدرج فتكوّن لديَّ انطباع بأنهم على علم بوجود غرفة لاجتماعاتنا وهكذا تمّ إلقاء القبض علينا. اعتقل الرفيق هاكوب ديربدروسيان المتطوع بالجيش الفرنسي، المقيم في الغرفة نفسها واعتقل أيضاً بانوس اراماييسيان وهو عامل مطبخ في مركز البحرية الفرنسية، كما اعتُقل جورج بتروني. وأحالونا على محقّق المحكمة العسكرية الفرنسية الذي أمر بوضعنا في السجن العسكري.

جاءت إفادة جورج بتروني بعيدة عن الحقيقة وموجّهة ضدّي. لم تنجح محاولتنا في السجن لإقناعه بتغيير إفادته. وفي اليوم التالي لاعتقالنا نشرت جريدة «الأوريان» الفرنسية خبر اعتقالنا مضافاً إليه موعد اجتماع اللجنة المركزية مساء يوم اعتقالنا وإذا بالمعلومات صحيحة، ونشرت أيضاً النقاط الأساسية في جدول أعمال الاجتماع، وكانت المعلومات أيضاً صحيحة. حصل هذا في آذار 1931.

وضعونا في «قاووش» مستقل كسجناء سياسيين ولكننا لم نتمتع

بحقوق السجين السياسي. ووجهت لنا تهمة قلب النظام بالقوة. وقد توجهنا إلى لجنة النجدة الحمراء في فرنسا لتكليف محامٍ للدفاع عنّا.

قبل محاكمتنا في شهر آب حصلت مشاجرة مع درك السجن الذي وجَّه إلينا كلمات جارحة، وعلى الأثر وضعونا في غرف انفرادية. أحدثنا ضجيجاً وانهلنا بالضرب بقوة على الأبواب الحديدية محدثين صخباً، وأطلقنا شعارات معادية للاستعمار وأنشدنا النشيد الأممي، فعاقبونا بمنع الطعام عنا باستثناء الخبز والماء. لكن موزع الطعام وهو سجين تونسي مسموح له بالتجول في السجن، كان يؤمن لنا الطعام أحياناً أما الحارس، السرجنت الفرنسي، فكان إيجابياً معنا وحاول التودُّد إلينا لكننا ثابرنا على إثارة الضجيج دون توقف ثمانية عشر يوماً، إلى حين موعد المحاكمة.

أرسل رفاقنا في فرنسا النائب الشيوعي المحامي اللامع أندريه برتون إلى بيروت للدفاع عنا. جرت المحاكمة في المحكمة العسكرية الفرنسية في 18 آب ودافع عنا المحامي الفرنسي برتون واللبناني إميل قشعمي.

كانت تلك سنوات الرعب الامبريالي. كنا متهمين بمحاولة قلب النظام بالقوة، وقد طلبت المحكمة العسكرية بلهجة قاسية سجننا عشر سنوات. أنا وزاديك دافعنا عن نفسينا. جريدة «لومانيته» الناطقة باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي كتبت تقول في عددها الصادر في آب حول هذا الموضوع: أكد أرتين مادويان أمام المحكمة العسكرية وبصوت عال انتماءه إلى الحزب الشيوعي وتحمل مسؤولية جميع الأعمال والمواقف السياسية والمنشورات الحزبية والصحف الصادرة باسم الحزب الشقيق، وأكد أمام المحكمة العسكرية حق الحزب الشيوعي بطرح شعاراته وطرح زاديك دادوريان، العضو في منظمة الشباب، مطالب الشبيبة.

وهكذا تحولت محاكمتنا إلى محاكمة الحزب الشيوعي، تحملتُ من جهتي مسؤولية جميع أعمال الحزب ونشاطه، ودافعت عنه وأخذتُ على

عاتقي تبعة جميع الشعارات المطروحة من قبل الحزب، الشعارات الرئيسية عن الاستقلال الوطني والحريات الديموقراطية ودافعت عن حقنا في الثورة مؤكداً أن عندما يكون للشعب مطالب كما عندنا مطالب، فإن لم تتحقق بالوسائل السلمية واصطدم ذلك بالعراقيل، فمن حقّ الشعب أن يلجأ ساعتئذٍ إلى كل الوسائل الضرورية لإزالة الموانع التي تعيق نضاله الديموقراطي ولحماية هذا النضال.

خلال فترة اعتقالنا نجح الأمن العام في الاستيلاء على البيان السياسي المحضر من قبل زاديك دادوريان للشبيبة الشيوعية، فنسبوه إلي وقالوا إنه بخطّ يدي، فأخذت البيان وقلت إن هذه الوثيقة ليست لي وليست بخط يدي، ولكن، إن كان محتواها يتلاءم مع مبادئ حزبنا التي طرحتُها منذ قليل فأنا مستعد لتبنّي مسؤوليتها. رافع أندريه برتون لمدة ساعة ونصف الساعة، بقوة نادرة وبلاغة مؤثرة.

رفعت الجلسة قليلاً وبعد التشاور بين هيئة المحكمة صدر الحكم الآتي: أرتين مادويان وزاديك دادوريان ثلاث سنوات سجن مع الأشغال الشاقة مع وقف التنفيذ، إلا إذا صدر بحقهما في المستقبل حكم آخر فينفَّذ الحكمان معاً، أما ميساك كرامانيان فقد حكم عليه بالبراءة. وفي اليوم نفسه كتبت جريدة «لومانيته»: حكم على رفاقنا بسبب انتمائهم إلى تنظيم غير شرعي بتهمة العمل لتغيير النظام بالقوة.

تجمع عدد كبير من الرفاق والأصدقاء أمام مبنى المحكمة العسكرية، وعند خروجنا مع أندريه برتون حيّانا الرفاق بالتصفيق وبالنشيد الأممي. وقد أطلق سراحنا من السجن في اليوم عينه. حضور محاكمتنا وحضور أندريه برتون أحدثا صدى كبيراً في لبنان وسوريا. وقد حصلت تغطية صحافية لمحاكمتنا في صحيفة «الصياد» وكذلك في جريدة «لسان الحال» وجريدة «الأحرار» من قبل يوسف يزبك، كما تلقى أندريه برتون العديد من البرقيات من المدن اللبنانية والسورية.

مقاطعة لشركة الكهرباء وحرب على «الطليان»

خلال وجودنا في السجن جرت مقاطعة شعبية وتظاهرات غاضبة، ضد الشركة الاحتكارية الفرنسية «شركة الجرّ والتنوير» (الترامواي والكهرباء) في بيروت، وواجهت الحركة الشعبية ارتفاع أسعار نقل الترامواي ورسوم الكهرباء. أخذت الحملة بعداً معادياً للامبريالية الفرنسية ولسلطات الانتداب، وقد شارك رفاقنا بشكل فعّال في الحركة الشعبية.

إبان احتلال القوات الفاشية الإيطالية لليبيا، وبمناسبة اغتيال قائد الحركة الثورية المعادية للامبريالية عمر المختار، عمّ العالم العربي الحزن والغضب وقامت بهذه المناسبة حركة احتجاج شعبية وتظاهرات في دمشق وطرابلس. وقد نظم رفاقنا تظاهرة طرابلس بقيادة الرفيق أحمد زكي أفيوني وخلال المسيرة أطلقت شعارات معادية للفاشية. واعتقل أحمد أفيوني وياسر الأدهمي ورفاق آخرون ممّن شاركوا في التظاهرة، وحكم على أحمد أفيوني بالسجن ثمانية أشهر. وقد ذهبت لزيارته في سجن بعبدا وكان معه ياسر الأدهمي أما بقية الرفاق فنقلوا إلى سجن طرابلس.

وثيقة للنقاش والتباسات:
لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟
(أو الحزب الشيوعي اللبناني السوري)؟

في فترة اعتقالي في السجن العسكري وسط ظروف قاسية، صدر كرّاس بعنوان «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟ جاء في الصفحة الأولى منه ما يلي: «صدرت هذه الوثيقة بمناسبة مرور سنة على تأسيس الحزب الشيوعي السوري في 7 تموز 1930».

وفي الحقيقة لا يجوز السكوت على هذه الأخطاء، وخصوصاً لجهة

تحديد اسم الحزب وتاريخ تأسيسه (مناسبة مرور سنة على تأسيس الحزب) فلا يجوز تزوير الحقيقة المثبتة بناء على الوثائق التاريخية الأكيدة المتوافرة لدينا. مع العلم بأن تلك الفترة تميّزت بالجمود الانعزالي في الفكر السياسي وسوف نعلّق على هذا الموضوع بعد الاطلاع على مضمون الكرّاس.

ارتكزت هذه الوثيقة على أساس مضمون بيان الحزب الصادر في 7 تموز 1930 في الاجتماع الوطني الثاني للحزب الشيوعي اللبناني السوري. وبالرغم من الأخطاء التاريخية والسياسية والتعصب السياسي، التي أشرنا إليها، وما يشوبها من تعصب وجمود، فقد حللت هذه الوثيقة ـ البرنامج الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في لبنان وسوريا على أساس طبقي، وحددت المهام أمام الحزب في تلك الفترة وكان لها أهمية تاريخية، وتطرقت كذلك إلى الثورات الشعبية في سوريا (وإلى حدّ ما في لبنان) في الأعوام 1920 ـ 1921 ـ 1925 ـ 1927.

لقد حددت الوثيقة المهام أمام الحزب في سوريا (يجب أن يُذكر لبنان وسوريا) وطنياً وسياسياً وعلى المستويين الاجتماعي والاقتصادي، على الشكل الآتي:

1 ـ وحدة واستقلال سوريا (يجب أن يكون استقلال لبنان وسوريا ـ (أ.م.)، وضرورة تحديد وحدة أراضي سوريا (وهذا ما ورد في الفقرة السادسة من الوثيقة بشأن الأجزاء التي اقتطعت من سوريا في ظل الانتداب الفرنسي وهي: منطقة جبل الدروز، ومنطقة العلويين، ولواء اسكندرون..).

2 ـ انسحاب الجيوش الاستعمارية.

3 ـ إلغاء الانتداب.

4 ـ إلغاء قانون الضرائب الموروث عن أيام العثمانيين.

5 ـ إلغاء الشركات الأجنبية ومصادرة ممتلكاتها.

6 ـ إلغاء الحدود المصطنعة المفروضة من قبل الاستعمار وإلغاء دويلات جبل الدروز ومنطقة العلويين ولواء اسكندرون.

7 ـ إن تحرير سوريا (يجب أن تقرأ لبنان وسوريا) من السيطرة الاستعمارية هو مسؤولية ومهمة كل فرد من الشعب العامل.

8 ـ الحريات الصحافية وحرية التنظيم والاجتماع والتظاهر والإضراب، وحق إصدار جرائد عمالية.

9 ـ إطلاق سراح السجناء السياسيين.

10 ـ قانون عمل ـ 8 ساعات عمل ـ زيادة الأجور ـ ضمان للعمال ـ تحسين مستوى العائلة ـ تحسين وضع العمل ـ تحسين الوضع الصحي ـ ضمان للعمال من قبل أصحاب العمل والدولة ـ مساعدة العاطلين عن العمل ـ سلوك إنساني من قبل أرباب العمل إزاء العمال ـ عطلة سنوية مدفوعة الأجر لمدة شهر ـ تعيين موعد محدّد لدفع أجور العمال اليومي أو الشهري دون تأجيل ـ منع صرف العمال دون إنذار مسبق...

11 ـ إلغاء الضريبة على الفلاحين الصغار وعدم سجنهم بسببها ـ إلغاء الضريبة العشرية وسائر الضرائب ـ إعفاء الفلاحين الصغار من الضرائب ـ مساعدات حكومية للفلاحين لتحسين معيشتهم ـ توفير البذور وحرية الصيد البحري والبري، وحق استخدام حطب الأحراج لاحتياجاتهم ـ توفير المياه للمزارعين وإلغاء ضريبة الطرق ـ قانون للعمال الزراعيين وتوفير ضمانات اجتماعية لهم ومساعدة العاطلين عن العمل وتوزيع الأراضي على الفلاحين ومصادرة أراضي الشركات والإقطاع وتوزيعها على الفلاحين الفقراء، وإلغاء جميع امتيازات الإقطاع.

12 ـ بناء مدارس ومستشفيات.

13 ـ الدفاع عن المستأجرين وتخفيض أجور السكن وأسعار الماء والكهرباء والنقل بالتراماوي.

14 ـ طرد الموظفين الأجانب.

15 ـ إلغاء ضريبة الجيش.

16 ـ جبهة موحدة للدول العربية المناهضة للامبريالية.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ما جاء في الوثيقة من أن الاستقلال والحرية الكاملة لسوريا (يجب كتابة: لبنان وسوريا ـ (أ.م.)) يكونان بتغيير النظام الرأسمالي وإلغاء السيطرة الاستعمارية وتأليف حكومة عمال وفلاحين في سوريا (يجب كتابة: لبنان وسوريا ـ (أ.م.)) وإقامة نظام اشتراكي.

يلاحظ، هنا، أن أصحاب الوثيقة البرنامجية وضعوا في الموقع نفسه الاستعمار وخدامه، ورجال الدين والإقطاعيين، والبورجوازية الوطنية، إشارة إلى الكتلة الوطنية، ولم يميّزوا أو لم يرغبوا في رؤية الحقيقة التي مفادها أن البورجوازية وممثلتها الكتلة الوطنية قد قامتا بدور قيادي، من منطلق سياسي بورجوازي، على رأس الحركات الشعبية للوصول إلى استقلال سوريا الوطني.

وإنصافاً للحقيقة التاريخية ولكي ندرك المجريات السياسية، يجب ألّا ننكر دور الكتلة الوطنية، وقيادتها للنضال الوطني المعادي للاستعمار، ومشاركة الحزب الشيوعي في جميع الإمكانيات المتوافرة لديه في هذا النضال.

ولا غرو أنّ الكتلة الوطنية السورية المتحالفة مع الوطنيين اللبنانيين ساهمت في الوصول بلبنان إلى الاستقلال الوطني بالتفاهم مع فريق أساسي من البورجوازيّة المسيحية في لبنان.

وفي اعتقادي أنّ من الطبيعي أن يتجلى بعض الانحراف في الوثيقة المذكورة، شأنها شأن الوثائق والبيانات الصادرة في أواخر العام 1929. ذلك أن تطرفاً سياسياً كان يشوب خط الحزب، يتحمّل تبعَتهُ الحزب كله وبشكل جماعي. حصل هذا الانحراف في لبنان وسوريا في مرحلة النهوض الثوري، في ظل نوع من الفهم الخاطئ وكذلك التعبير الخاطئ

الذي تطرقنا إليه في الصفحات الماضية. نخص بالذكر، هنا، موقف الحزب لجهة الإصرار على شعار «حكومة العمال والفلاحين». وعندما نتحدّث عن انحرافات بارزة في سياسة الحزب ومسؤوليتنا الجماعية عن هذا الموضوع لا يجوز طمس الحقيقة، بل يجب التركيز على المسؤولين الأساسيين عن الانحرافات. وأرى في هذا المجال أن المسؤول الأساسي هو الرفيق «نخمن» حسب قول العاملين معه في تلك الفترة.

وفي إطار أوسع، فالحركة الشيوعية العالمية في ذلك الوقت كانت في حالة جمود عقائدي وانحراف، وارتكبت أخطاء كبيرة. انعكست علينا هذه الأجواء وخصوصاً بالنظر إلى أن نسبة وعينا السياسي والإيديولوجي للفكر الماركسي اللينيني في ذلك الحين، لم تكن تسمح لنا بتصحيح خطأ كهذا.

ويؤسفني التأكيد في ما يتعلق بالكتاب الكرّاس «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟»، أن هذه الوثيقة أخطأت بتاريخ تأسيس الحزب وكذلك اسمه. وهذا خطأ غير مسموح به مطلقاً، لوجود حقيقة تاريخية ثابتة لا سبيل إلى مناقشتها. وأعتقد أن المسؤول الرئيسي عن هذا الموضوع كان نخمن صاحب الاسم السري «السوري» نسبة إلى الوثيقة التي صمّمها، ووافق عليها بعض أعضاء اللجنة المركزية وفؤاد الشمالي بغياب بعض الأعضاء، كذلك وافق على هذا التوجّه من القيادة الجديدة للحزب خالد بكداش، الذي لم يكن بعد عضواً في اللجنة المركزية وليس على اطلاع كاف على ماضي الحزب.

اسم الحزب

إن اسم الحزب كان وبقي «الحزب الشيوعي اللبناني السوري» إلى حين انعقاد المؤتمر الأول للحزب[1]. لكن اللجنة المركزية للحزب قررت

(1) جاء في جريدة «عاصفة»... (راجع الكتاب الأصلي)، ص118.

في اجتماعها، عام 1930 إصدار البيانات التي تعالج الأحداث الجارية في سوريا باسم «الحزب الشيوعي السوري»، على أساس هذا القرار صدر بيان في 7 تموز 1930 بتوقيع «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري»، وبيان عام 1934 بمناسبة ذكرى معركة ميسلون وبيان آخر في العام 1936 بمناسبة الإضراب العام في سوريا، الذي استمر خمسين يوماً.

هنا لا بدَّ من ملاحظة ما يأتي:

أولاً: صدر بيان في أول آب 1930، بمناسبة الذكرى السنوية لاندلاع الحرب العالمية الأولى، يدعو للنضال ضد الحروب الاستعمارية، وهو بتوقيع «الحزب الشيوعي السوري». وكان يجب أن يوقع باسم «الحزب الشيوعي اللبناني السوري». في تلك الأيام كنت مع فؤاد الشمالي في فلسطين.

ثانياً: بمناسبة أول أيار 1931 صدر بيان بالتوقيع نفسه.

ثالثاً: في 7 تموز 1931 صدرت وثيقة بعنوان «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟» ولم يذكر اسم لبنان، ولكن الوثيقة عالجت الوضعين السوري واللبناني وطرحت مطالب ومهمات نضالية.

رابعاً: صدرت وثيقة حزبية في 4 كانون الثاني 1933 في مجلة «كورسبوندانس انترناسيونال» الأسبوعية التي تصدر عن الكومنترن، في العدد الأول في تلك السنة: بيان صادر باسم الحزب الشيوعي السوري والفلسطيني ـ بعد اجتماع مشترك لممثلي الحزبين صدر نداء مشترك موجه إلى البلدان العربية المناضلة من أجل الاستقلال والمحتلة من قبل فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وأسبانيا. دعا البيان العرب للاتحاد وإنشاء دولة عربية كبيرة وموحدة[1].

---

(1) حسب مصادر الرفيق محمد دكروب، فإن الاجتماع الوطني انعقد عام 1931 والبيان الصادر عنه نُشر في «كورسبوندانس انترناسيونال» في عددها الصادر في=

وكما يلاحظ المرء بسهولة، فقد تناسى هذا البيان اسم الحزب الشيوعي اللبناني. وكان حرياً به أن يأتي تحت عنوان: بيان صادر عن ممثلي الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري وممثلي الحزب الشيوعي الفلسطيني.

وكما ذكرنا أعلاه فإن تصحيح هذا الخطأ هو من الأهمية بمكان.

أما توقيع البيانات باسم الحزب الشيوعي السوري كما أسلفنا، فيعود إلى أن قيادة الحزب الشيوعي اللبناني السوري كانت قد قررت إصدار البيانات باسم الحزب الشيوعي السوري عندما كانت الأمور تتعلق بالقضايا الوطنية الخاصة بسوريا. وقد ترافق هذا القرار مع تصعيد النضال التحرري في سوريا ضد الاستعمار ومن أجل الاستقلال الوطني ومع اتساع التأييد السياسي والجماهيري في لبنان لهذا النضال وللوحدة مع سوريا، وأتى (هذا القرار) ليؤكد موقف الحزب المؤيد للوحدة مع سوريا. ولم يكن ثمة وجود آنذاك للحزب الشيوعي السوري كحزب مستقل، بل كان هناك حزب واحد في سوريا ولبنان هو الحزب الشيوعي

= 4 كانون الثاني 1934. كيف يمكن تفسير هذا الأمر؟ الاجتماع الوطني حصل خلال عام 1931 يصدر بيانه بعد سنتين ونصف السنة في مجلة «كورسبوندانس انترناسيونال»؟! بالإضافة إلى ذلك كان قد صدر في تموز 1931 وثيقة «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري». وأنا أطلق سراحي من السجن في 18 آب 1931 وأعيد اعتقالي في 7 تشرين الثاني عام 1932، وخلال هذه الفترة لم يعقد اجتماع من هذا النوع. هل من الممكن أن هذا الاجتماع قد انعقد خلال الفترة من 7 تموز إلى 18 آب 1931؟ أيضاً غاب عن هذا البيان شعارنا «سلطة العمال والفلاحين»، كان شعارنا الذي اعتمدناه لغاية 1934، وهذا الشعار ورد في الوثيقة: «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري»، إني أشجع الرفيق دكروب على المضيّ في أبحاثه للكشف عن جميع المصادر، بحيث تساعد الأبحاث الجارية على الكشف عن تاريخ الحزب الشيوعي، ولكن، مع الأسف فإن بعض مصادره لا تخلو من الأخطاء.

اللبناني السوري. إذن، يأتي وجود هذه البيانات الموقعة باسم الحزب الشيوعي السوري نتيجة لقرار قيادة الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري.

في الحقيقة، إن حزبنا كان وبقي «الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري» إلى حين انعقاد المؤتمر الأول للحزب حيث تقرّر إنشاء حزبين شيوعيين منفصلين باسم «الحزب الشيوعي اللبناني» «والحزب الشيوعي السوري».

إن صدور البيانات المشار إليها، ولا سيَّما الوثيقة «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟» والبيان المشترك مع الحزب الشيوعي الفلسطيني وغياب اسم الحزب الشيوعي اللبناني، كل ذلك قد أعطى فكرة خاطئة والتباساً لفترة قصيرة لدى بعض الأطراف المهتمّة بتاريخ حزبنا، ولدى بعض رفاقنا في الاتحاد السوڤياتي وكذلك رفاقنا في الحزب الشيوعي الفرنسي وجريدته المركزية «لومانيته»، فقد تعرضوا للالتباس نفسه. وإذا بمحاكمة الشيوعيين اللبنانيين أمام المحكمة العسكرية الفرنسية تؤخذُ على أنها محاكمة للحزب الشيوعي السوري.

لا حاجة بنا إلى التذكير بأن الاجتماع التأسيسي كان قد اتفق على تسمية الحزب بـ «الحزب الشيوعي اللبناني»، وبعد فترة صار اسمه «الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري». وصدر في أواخر تموز 1925 البيان الأول باسم «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري» باللغات العربية والأرمنية والفرنسية. بعد هذا التاريخ صدرت جميع البيانات بهذا الاسم واستمرت هكذا حتى صدور البيانات التي أشرنا إليها.

في الحقيقة لم يُتخذ في الاجتماع الوطني الأول والثاني وفي اجتماعات اللجنة المركزية اللاحقة، أي قرار أو يبحث في تغيير اسم الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري.

الخطأ الثاني: تاريخ تأسيس الحزب

الخطأ الثاني الذي جاء في وثيقة «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟» وَردَ في الصفحة الأولى: «طُبع هذا الكتيب لذكرى إعلان الحزب الشيوعي السوري (7 تموز 1930)»، الأمر الذي يعطي انطباعاً بأنّ حزبنا تأسس في 7 تموز 1930 .

وبالطبع، لا بدّ أن يصار إلى تصحيح هذا الخطأ، نظراً لما هو معلوم من أن حزبنا تأسس في 24 تشرين الأول سنة 1924.

في 4 آب 1933 صدر في مجلة «عاصفة» الدورية مقال لفؤاد الشمالي جاء فيه: «أوائل أيلول عام 1924 جرى اجتماع في بكفيا بحضور عشرة شيوعيين وبحثوا إمكانية إنشاء حزب شيوعي والاتصال بالأممية الشيوعية عبر مصر». لقد أطلعني فؤاد الشمالي على تاريخه السياسي ولكن لم يخبرني بوجود عشرة شيوعيين في بكفيا وأنه عقد اجتماعاً معهم. الغريب في الموضوع أنه لم يطلع أيضاً يوسف يزبك على هذا الأمر. ويوسف يزبك في لقائه جاك كولان بحضور ر.ف. وحضوري، كرّر ما صرّح لي به سابقاً، أن ليس له علم بأن فؤاد الشمالي كان يفكّر في إنشاء حزب شيوعي.

وأهم ما في الأمر، إذا كان وجود عشرة شيوعيين في بكفيا صحيحاً، فلماذا لم يبادروا إلى تنظيم حزب سيوعي أو لم يشاركوا في اجتماع الحدث في 24 تشرين الأول 1924، حيث إن ستة من بين المجتمعين في الحدث من أصل عشرة، كانوا من الماسونيين الذين رفضوا المشاركة في تأسيس حزب شيوعي. أربعة أشخاص فقط وافقوا على أن يصبحوا شيوعيين.

ثم بعد هذا الاجتماع أعلن انضمام عضو خامس من بكفيا.

في تلك الفترة، كان يوجد في بكفيا عمال نقابيّون أنصاراً للشيوعيين

ولكنهم لم ينضموا إلى صفوف الحزب الشيوعي، وفي السنوات اللاحقة لم يعلم الحزب بوجود شيوعيين آخرين.

في مقال فؤاد الشمالي توجد مغالطات أخرى.

هنا أريد أن أسجل المسؤولية الكبيرة والخطيرة التي تقع على «نخمن» حول هذا الموضوع. إنّي أتهم نخمن بأنه حاول تغيير تاريخ تأسيس الحزب. كنت أودّ أن أخفف الاتهام، وأن أقول ليس عنده اطلاع كافٍ على تاريخ الحزب، لو لم يدّعِ أنه هو الذي أسس الحزب ـ حسب شهادة أغباش الذي قال: «خلال انعقاد المجلس الوطني الثالث في أواسط 1933 جرت مناقشة موضوع تعريب الحزب ومحاسبة التكتل المعادي للتعريب (كنتُ في السجن)، وجّه المجلس الوطني الثالث انتقاداً شديداً لنخمن فقال دفاعاً عن نفسه إنه هو الذي أسس الحزب. ولكن الاجتماع الوطني الثالث انتقد ورفض قول نخمن هذا، لأن ليس له أساس من الصحة». حول هذا الموضوع أيضاً يجب أن نسجل الحدث التالي، وهو أنه في سنة 1934 ونتيجة لعدم اطلاعه على تاريخ الحزب بالإضافة إلى «تشويش» نخمن، قدَّم خالد بكداش تقريراً إلى الكومنترن يقول فيه إن الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري تأسس سنة 1930.

ولكن خالد بكداش نفسه قال في الخطب الجماهيرية التي ألقيت في دمشق عام 1937 إن الحزب تأسس عام 1924. وعام 1960 حاول بكداش أن يطرح فكرة مفادها أنه شارك في تأسيس الحزب الشيوعي السوري، وأنه هو الذي شارك في تأسيس أول تنظيم حزبي في دمشق. هذا ليس صحيحاً، وقد تناولنا الموضوع في الصفحات الماضية.

غير أن خالد بكداش أعلن في عام 1974 أن الحزب الشيوعي السوري تأسَّس في 24 تشرين الأول 1924، وهذا إقرار منه بأن الحزب الشيوعي اللبناني تأسَّس في التاريخ نفسه.

إذن، لا مناص من تصحيح الحقيقة التاريخية وعدم ترك مجال

للالتباس ولعدم الوضوح والبلبلة وطمس الحقيقة حول اسم الحزب وتاريخ تأسيسه.

وينبغي القول إن تاريخ تأسيس الحزب الشيوعي السوري هو، في الحقيقة، نفس تاريخ تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني، الذي اتّخذ، في عام 1925، اسم «الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا». وكانت المنظمات الشيوعية الأولى قد تأسست في سوريا عام 1925 في حلب وجبل موسى، وعام 1928 في دمشق. وكانت هذه المنظمات مرتبطة مباشرة بالحزب الشيوعي في لبنان وسوريا، وبلجنته المركزية التي اتخذت من بيروت مقراً لها.

ذكرى أكتوبر.. والصدام في ساحة المعرض

بمناسبة ذكرى ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى في 7 تشرين الثاني عام 1931، دعا الحزب الشيوعي إلى تظاهرة في ساحة المعرض أمام مبنى مجلس النواب. وقد كلفني الحزب بالإعداد لهذه التظاهرة، وفي الساعة المحدَّدة تجمهر الرفاق في الشوارع المؤدية إلى ساحة المعرض، تقدّموا باتجاه الساحة وهم ينشدون النشيد الأممي، ويطلقون الشعارات. وصل رجال الدرك بأعداد كبيرة إلى مكان التظاهرة واصطدموا مع المتظاهرين، فاعتقل العديد من الرفاق وصدرت أحكام بحقهم، وهم الرفاق: أوهانس أغباشيان سنة سجن، أنترانيك أوهانيان وجورج عيان وعبد الهادي ذيبان ثلاثة أشهر.

ثم أبعد أوهانيان من لبنان بعد خروجه من السجن، بحجة أنه لا يملك الجنسية اللبنانية. فأقام في العراق وكانت مطبعة الحزب الشيوعي العراقي السرية في منزله إلى أن كشفته السلطة العراقية. وضع في السجن لمدة طويلة وبعد إطلاق سراحه سافر مع عائلته إلى أرمينيا السوفياتية.

المؤتمر العمالي

استلمنا دعوة للمشاركة في مؤتمر اتحاد النقابات العام الفرنسي CGT المزمع عقده في باريس في 8ـ15 تشرين الأول 1931. وبالرغم من استلامنا الدعوة متأخرة فقد قررنا التحضير للمشاركة. وجرت بالمناسبة لقاءات عمالية في بيروت وطرابلس ودمشق.. وأسفرت هذه اللقاءات عن انتخاب مندوبين يتولّون بدورهم انتخاب الوفد الذي سيشارك في المؤتمر.

حول اللقاء العمالي في بيروت كتبت جريدة «لبنان» الأرمنية في عددها الصادر في 31 تشرين الثاني 1931 فقالت: «قبل أيام عقد اجتماع عمالي في صالة كوكب السياح، شارك فيه عمال من كل الملل لانتخاب أعضاء الوفد إلى مؤتمر العمال العالمي الذي سيجري في باريس في 8ـ15 تشرين الثاني. ألقيت خطب، وانتخب السادة فؤاد الشمالي، أرتين مادويان، أنيس محيو، رشاد الإمام... وهؤلاء سينتخبون مندوب لبنان. شكل العمال الأرمن مجموعة وقطعوا ساحة البرج وهم ينشدون باللغة الأرمنية «أيها الرفاق لنتخلص من القوانين القديمة».

وعقد في الحدث في ضاحية بيروت مؤتمر بمشاركة المندوبين المنتخبين من الاجتماعات العمالية في بيروت وطرابلس ودمشق ووفد النقابات العمالية في حماه وحمص، ومعه مذكرة. شارك في المؤتمر فؤاد الشمالي، أرتين مادويان، رشاد الإمام وجورج عيان من بيروت، خالد بكداش وفوزي الزعيم من دمشق، مصطفى سنجقدار وفؤاد رفاعي من طرابلس، جورج حلبي ووفد نقابات حماه وحمص.

بحث المؤتمر القضايا العمالية وحدد المطالب العمالية وانتخب وفداً إلى مؤتمر باريس من ثلاثة أعضاء، هم فؤاد الشمالي و خالد بكداش وارتين مادويان. على أن السفارة الفرنسية لم تمنح أعضاء الوفد تأشيرة دخول. فلم يستطع الوفد الذهاب إلى باريس.

جمعية عمالية في زحلة

في عام 1923 كان قد تأسَّس في زحلة جمعية مرخصة باسم الجمعية العمالية في زحلة، ولكن بعد فترة قصيرة توقف نشاطها ولم يبقَ منها سوى الرخصة.

عام 1931 استفاد رفاقنا من وجود رخصة قانونية للجمعية وأعادوا تنظيمها. وقد أنشئت على وجه السرعة فروع لها خارج زحلة حتى وصل عدد أعضائها إلى الألفي عضو، لكنها لم تعش طويلاً إذ ألغت السلطة الترخيص وحَلَّت الجمعية.

«نادي أنترانيك»

كان مركز اتحاد شباب النهر قرب سكة الحديد ـ محطة الكرنتينا. أما مؤسسو اتحاد شباب الأرمن فهُم الرفاق يبرم الليزيان، أرسين كريكوريان، هراتش غاغويان، هذه المجموعة كانت علاقتها وطيدة بهاكوب أعمجيان. ويلاحظ أن مؤرخي الرمغافار ينكرون حقيقة مؤسسي النادي المذكور.

وكانت الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية تعتبر نفسها مسؤولة معنوياً تجاه النادي وكانت تسدّد بدل الإيجار ومعاش السكرتير وكذلك الحارس. لكن رفاقنا كانوا هم القيادة الأساسية للنادي. وكان لدى النادي فرقة لكرة القدم غالبية أعضائها من رفاقنا وأصدقائنا وتعتبر من فرق الدرجة الأولى، وتشارك الجماهير الوطنية الأرمنية بحضور مبارياتها. وما لبث فريق واسع من أعضاء النادي أن انضم إلى الحزب، أما باقي الأعضاء فتحولوا إلى أصدقاء.

في السنوات الأخيرة من حياة النادي انزعج الرمغافار من الوضع السياسي السائد فيه، وبضغط منهم تخلت الجمعية العمومية الأرمنية عن دفع المساعدات المالية.

في ظل أجواء بداية الحرب العالمية الثانية والقيود والملاحقات المفروضة على الشيوعيين وأصدقائهم، ولكون مركز النادي مستأجراً باسم البروفسور باروناك توماسيان، أسَّس الرمغافار فروعاً للنادي في أماكن وجود الأرمن وهكذا فقد أصبح النادي تحت سيطرتهم.

مركز لجمعية خرّيجي دور الأيتام

أسَّست «اللجنة الأميركية لمساعدة شعوب الشرق» دوراً للأيتام من الأطفال الناجين من المجزرة وذلك في جبيل وأنطلياس ونهر إبراهيم وفي أماكن أخرى.

كان لنا تأثير سياسي بشكل خاص في مركز أيتام انطلياس، أما مركز جبيل فكان تحت تأثير الطاشناك لأن مدير الميتم أميركي وقد طرد جميع الأساتذة غير المنتمين إلى الطاشناك ومنهم سركيس دخروني، كما طرد الأيتام المعادين للطاشناك، وبالرغم من ذلك فقد انضم بعض الأيتام هناك إلى صفوفنا. وتحول عدد منهم من تلامذة ميتم نهر إبراهيم ودار أيتام الكاثوليك إلى أصدقاء لنا.

وتأسَّس في السنوات اللاحقة مركز خاص للأيتام باسم جمعية خريجي دور الأيتام الأرمن، التابعة للجنة الأميركية لمساعدة أيتام الشرق. وكان مركز هذه الجمعية خلف شركة الكهرباء قرب شاطئ البحر في منزل مؤلف من عدة غرف مع باحة كبيرة. جرى تنافس للسيطرة على هذه الجمعية بين الطاشناك وأصدقائهم من جهة، ورفاقنا وأصدقائنا من الجهة الثانية، وحصل تصادم دموي بين الفريقين ووقع عدة جرحى من الطاشناك. سيطر رفاقنا على المركز وانضم أعضاء جدد إلى صفوف الحزب.

خلية حزبية في حلب

تأسست في حلب في العام 1931 خلية حزبية بينها عدد من الرفاق

العرب. شرعت الخلية في توزيع بيانات باللغة العربية. وكانت العناصر الرئيسية في الخلية من عمال الأحذية ذوي التأثير بين زملائهم، وهم ستراك هايكازيان، كيورك باغجيان «ساسكين ايكوني»، جورج قرابديان وستيبان كفافيان.

مخبر في صفوف الحزب

كانت جمعية مرعش في حلب جمعية قوية، ذات مواقف وطنية مؤيدة دائماً لموقف حزبنا. أحد المسؤولين الإداريين للجمعية المثقف بوغوص بلادوني انتسب إلى صفوف الحزب مستغلاً موقعه في الجمعية، كونه عضواً نشيطاً ومتحمساً. اعتقل في حلب الرفاق ستراك هايكازيان وكيورك باغجيان وجورج كرابتيان. ذهبت إلى حلب للتحقق من هذا الموضوع والوقوف على أسباب وطريقة اعتقالهم. اتصلت هناك بالرفيق هارتيون ماخيان وبوغوص بلادوني واتجهنا معاً إلى السجن لزيارة الرفاق المعتقلين. عندها طلب الرفاق المعتقلون لقاء منفرداً معي، أبلغوني خلاله أن برفقتي مخبراً... هو بوغوص بلادوني!

بعد انتهاء الزيارة حددتُ موعداً شكلياً للقاء مع بوغوص، فلم يصدق، إذ أحس أنه بات مكشوفاً لدينا. وجعل يبحث عنّا مع مسؤول الأمن في حلب. أما نحن فقد تمكنّا، في اللحظة الأخيرة، من إخفاء أثرنا باختبائنا في منزل رفيق من الاسكندرون هو هايك نارينيان، حيث بتنا ليلة هناك وابتعدنا في الصباح عن حلب.

وقد اتضحت لنا كيفية اعتقال الرفاق. لقد لجأ بوغوص بلادوني إلى وضع كيس في محل جورج كربديان بداخله بيان باللغة العربية، وبعد قليل حضر مفتش الأمن العام واعتقل جورج. والمخبر نفسه كان وراء اعتقال الرفاق الآخرين، وقد حكم على رفاقنا بالسجن عدة أشهر.

اعتقال نخمن

في أواخر العام 1931 التقى نخمن وفؤاد الشمالي في منزل الرفيق أرسين أرسلنيان بالأشرفية قرب حاووز «دحدلي». إثر اللقاء، غادر فؤاد الشمالي المنزل. وبعدها بعشر دقائق انصرف نخمن أيضاً؛ وبعد ابتعاده عن المنزل نحو خمسين متراً اعتقل على يد مفتش الأمن العام. وفرضت عليه الإقامة الجبرية ثم نُفي إلى اسكندرون.

في اليوم التالي لاعتقاله نشرت الصحف جدول أعمال الاجتماع والمواضيع التي تطرق إليها البحث، خصوصاً الجانب السياسي لإنشاء شركة التابلاين وتمديد خط أنابيب البترول العراق ـ طرابلس وبناء مصفاة في طرابلس، وهذه المعلومات التي نشرت كانت تعبّر عن جوهر الاجتماع.

يوم ضدّ الحرب

في الأول من آب سنة 1931 وبمناسبة ذكرى بداية الحرب العالمية الأولى، صدر بيان في هذا الصدد مناوئ للحروب الامبريالية ومدافع عن الاتحاد السوفياتي، كما طالب بتحقيق استقلال لبنان وسوريا.

«سلطة العمال والفلاحين» شعار خاطئ

كان الحزب قد أقرّ في الاجتماع الوطني العام سنة 1925 توجّهاً سياسيّاً هو النضال من أجل جمهورية ديموقراطية في لبنان وسوريا. لكن الاجتماع الوطني الثالث للحزب عام 1930 بدّل هذا الشعار بشعار «سلطة العمال والفلاحين». إن هذا الشعار خاطئ وغير دقيق ولا يتجاوب مع الواقع التاريخي الملموس في البلدين. في تلك الفترة كانت الحركة الثورية في البلدين ذات محتوى ثوري، تحرّري وطني معاد للامبريالية

ولم يكن لها طابع الثورة الاشتراكية. كما أنها لم تكن مرحلة تمهيد للثورة الاشتراكية.

كان واضحاً أن هذا الشعار لا يساعد الحزب على التحول إلى حزب جماهيري، كما أنه لا يساعد على تشكيل جبهة عريضة تضم جميع القوى المناضلة ضدّ الاستعمار، في إطار حركة تحرُّر وطني من أجل الاستقلال، ولعلّ شعار سلطة العمال والفلاحين قد تقرر تحت تأثير نخمن والجمود العقائدي المسيطر على الكومنترن.

ولقد حصل نقد ذاتي في المؤتمر السابع للكومنترن وفي المؤتمرات اللاحقة. وعندنا في الحزب ظل شعار «سلطة العمال والفلاحين» مطروحاً حتى أوائل العام 1933 .

الأساليب المختلفة لعمل الحزب السياسي والتعبوي في مختلف المراحل

ابتداءً من العام 1929 حتى العام 1937 استخدمنا المناسبات الاجتماعية الخاصة والعامة مثل الولادة والزواج والمعمودية، الأعياد الرسمية، والدفن، وما إليها من مناسبات، لنشر سياسة الحزب والقيام بأعمال تعبوية. كنا دائماً نحول مجرى الحديث لشرح سياسة الحزب.

وركّزنا ابتداءً من أواسط عام 1935 على أماكن التجمعات العمالية. ففي الصباح، قبل الشروع بالعمل أمام شركة الكهرباء والتراموای، وأمام المرفأ، وأماكن أخرى، كنا ننظم تظاهرات خطابية طيّارة على الشكل التالي: يقوم رفيق بإلقاء كلمة ويتولى رفاق آخرون حمايته. يبدأ الرفيق كلامه ويطلق الشعارات السياسية والعمالية، شارحاً إياها إذا فسح له في المجال، ثم يبتعد بسرعة عن المكان.

كنا ندرس وضع كل قطاع عمالي على حدة: ظروف العمل، المطاليب العمالية، إلخ... وعلى هذا الأساس نطبع باسم الخلية الحزبية

بياناً أو منشوراً ونوزّعه على عمال القطاع المحدد وأمام المؤسسات التي يعملون فيها.

أحياناً كنا نوزع البيان في الصباح الباكر قبل بزوغ الفجر وأحياناً داخل المؤسسة بشكل سري، كما كنا نوزع منشورات الحزب في مراكز التجمعات، كشارع المعرض، نحدد لكل رفيق الشارع والكمية التي عليه توزيعها، بعد أن نفسر له محتوى البيان وأهميته.

بعض المنشورات الحزبية كانت توزّع في صالات السينما من خلال رفاق مخصصين لهذا العمل، يقذفون بكميّة المناشير داخل الصالة عندما تطفأ الأنوار.

بمناسبة الأعياد المعروفة مثل أول أيار وذكرى ثورة أكتوبر في 7 تشرين الثاني، وذكرى تأسيس دولة أرمينيا السوڤياتية في 29 تشرين الثاني...؛ كنا نرفع العلم الأحمر والشعارات المناسبة على أسلاك الكهرباء في بعض شوارع العاصمة، وأحياناً شعار المنجل والمطرقة.

كانت الخلية الحزبية تجتمع مرة في الأسبوع. تقرير سياسي مقتضب ثمّ توزّع المهمات المحددة لكل رفيق. وكانت المهمة الأساسية الاتصال بالمراكز العمالية والحرفية والاتصال بأصدقائنا لشرح سياسة الحزب، والعمل لضم رفاق جدد إلى منظمات الحزب وتوزيع النشرات السرية وجباية مالية منظمة. وفي الاجتماع التالي يحاسب كل رفيق عن المهمات التي كلّف بها.

وكانت كل خلية تعقد بشكل دوري كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، اجتماعاً تثقيفياً مستفيدة من تجارب الرفاق لتلافي النواقص واتخاذ التوجيهات الضرورية.

إلى ذلك، كانت شعارات الحزب ترفع على جدران المباني في الشوارع الرئيسية. وكنتُ، من جهتي، أحضر كل يوم اجتماع خلية من الخلايا في بيروت.

التعريب.. والمخاض الصعب

كان الحزب يمر في مرحلة مصيرية وتاريخية والأمور لا تحتمل التأجيل.

كنا أمام قضية تأمين تطور الحزب للمرحلة المقبلة. بكلمة أخرى، كنا أمام مهمة تعريب الحزب، بغية إيجاد قيادة من رفاق عرب تستطيع تنظيم فئات ثورية واسعة من شعبنا للمشاركة في قيادة حركة التحرر الوطني من أجل الاستقلال الوطني، وجمع كل القوى الثورية في جبهة عريضة، توحيداً للنضال الوطني في سبيل التحرر وانتزاع الحريات الديموقراطية وضدّ الامبريالية.

كنا أمام مرحلة تاريخية لا يمكن تأجيلها تسمح للحزب بتنظيم فئات واسعة من المواطنين العرب. هذه المرحلة كانت تتطلب وجود رفاق عرب في عضوية اللجنة المركزية وفي لجان المدن والكوادر الأساسية للحزب. وكانت منظمة بيروت في تلك الفترة، القاعدة الأساسية للحزب وغالبية أعضائها من الأرمن وتشكل القوة المهيمنة داخل اللجنة المركزية. فأكثرية أعضاء قيادة بيروت من الأرمن، وهم رفاق متفانون في خدمة الحزب، لكن ليس باستطاعتهم القيام بالمهمة التاريخية المطروحة من قبل الحزب كما أشرنا. إن تطوير الكوادر العربية أصبح ضرورة تاريخية، وكذلك التخلي عن المقاييس الجامدة تحت تأثير متطلبات الواقع القائم. كان ينبغي الانطلاق من المبادئ اللينينية للعمل التنظيمي بوسائل بنّاءة وخطوات جريئة بغية تطوير كادرات جديدة من الرفاق العرب، رغم أنهم ليسوا قدماء ومجربين مثل الرفاق الأرمن، وبسبب عدم وجود مستوى سياسي وتجربة تنظيمية لديهم على غرار الأرمن؛ يمكننا تعريب الحزب وتطويره، الأمر الذي سيجعلنا نصطدم بعراقيل في المراحل المقبلة.

كان من الضروري أن يُدرس ويُلاحق في اللجنة المركزية موضوع

تعريب الحزب. وفي الحقيقة فتعريب الحزب يقوّيه ويجعله مبادراً ومؤثراً في الواقع العربي. ويزيد في إمكانياته للمحافظة على قضية الأرمن الوطنية، وبالتالي يضاعف نفوذه في الأوساط الأرمنية. إن العمل للتعريب ـ وبكلمة أصح: النضال من أجل التعريب، بدأ داخل حياة الحزب عام 1931، وكان قد سبق للكومنترن أن طرح هذا الموضوع أمام الحزب الشيوعي الفلسطيني قبل هذا التاريخ.

نضج موضوع التعريب عندنا عام 1931. أول خطوة في عملية التعريب تمثلت في حل لجنة مدينة بيروت التي كان سكرتيرها زاديك دادوريان، بسبب انهيار الخلايا الحزبية العربية وموقفه من إضراب صيّادي السمك، ولعدم اهتمامه ومبالاته بملاحظات اللجنة المركزية. عيّنت هيئة حزبية جديدة لمدينة بيروت من ثلاثة رفاق عرب وأرمنيَّين اثنين. على الرغم من حداثة الرفاق العرب وعدم خبرتهم فإنهم تحلّوا بالإخلاص والتفاني وكانت لهم صلة بفئات واسعة.

وكما ذكرت سابقاً، استثارت هذه الترتيبات التنظيميّة الضرورية اشمئزازاً ومعارضة لدى زاديك دادوريان الذي لم يستوعب خط الحزب باتجاه التعريب، وبشكل خاص كيفية تحقيق هذه المهمة. نظم معارضة ونجح لفترة قصيرة بجذب الرفاق هاكوب ديربدروسيان وبانوس أرامايسيان وميساك تللاليان؛ وقد استطاع هؤلاء الرفاق خلق القلاقل وتشويه الحقائق وألّفوا تكتّلاً داخل الحزب. كان بالإمكان مناقشة وجهات النظر المختلفة ضمن إطار وحدة الحزب، لكن لم يكن ممكناً السماح بنشوء تكتل للقيام بأعمال تخريبية داخل الحزب.

وما لبث ميساك تللاليان أن تراجع وانضم إلى خط الحزب. وقد اشتد الصراع خلال عام 1932 واستمر حتّى خريف 1933. يجب أن نشير إلى أن غالبية الكوادر الأرمنية كالرفاق كيورك باغجيان وأوهانس أغباشيان وأوهانس ماجاريان ودكران وساهاك ألطونيان ويبرم الليزيان وأرسين كريكوريان وغيرهم، وقفوا إلى جانب تعريب الحزب.

في شهر تموز 1932 وبعد صدام مع الطاشناك، كنت ملاحقاً من قِبل الدرك وكنت مختفياً في غرفة سرية ومستمراً في عملي الحزبي من خلال اتصالات خاصة. وكان أغباشيان الذي أطلق سراحه حديثاً من السجن يؤمن اتصالي بمنظمات الحزب. وحسب قول أغباشيان، فإن هاكوب ديربدروسيان حاول إقناعه بعدم الاتصال بي.

إن موقف الرفاق في المعارضة كان ينطلق من مبدأ ضرورة تعيين أو انتخاب الهيئات المسؤولة من الرفاق القدماء ذوي التجربة السياسية والتنظيمية، ومن المستحسن أن يكونوا ممن دخلوا السجن. إنها وجهة نظر صحيحة، ولكن التطبيق الجامد لهذه النظرية في واقعنا الحالي كان من شأنه أن يحُول دون تعريب الحزب، حيث إن أقْدَمَ الرفاق في بيروت آنذاك، ممن اكتسبوا خبرة سياسية وتنظيميّة وصقلَتْهم تجربة السجون، هم من الرفاق الأرمن.

اشتد الصراع والعمل التكتّلي ضد التعريب عام 1932. إن الرفاق المعارضين كانوا في الحقيقة رفاقاً مخلصين ومرتبطين بالحزب. وقد وقفوا نظرياً مع التعريب لكن ممارستهم العملية كانت تمنع تحقيق التعريب.

كان زاديك مميزاً. كانت عنده موهبة للتحدث والإقناع والكتابة. وخلال عمله اليومي ونتيجة لتصرفاته كان الرفاق يرتبطون بشخصه أكثر من ارتباطهم بنهج الحزب. ولقد تعنّت الرفاق المعارضون بموقفهم. فالغرور البورجوازي (النزعة الذاتية) جرّهم إلى المعارضة والعمل التكتّلي. وفي تقدير الحزب أنني قمت بدور حاسم في تعريب الحزب، والحقيقة أن خالد بكداش لعب دوراً حاسماً في هذا الموضوع.

في أواسط عام 1933 عندما كنت في السجن، بعث الكومنترن برسالة مطولة حول تعريب الحزب مطالباً بالإسراع في محاسبة التكتل المعادي للتعريب.

وعقد كونفرانس استثنائي تحت تأثير تدخل الكومنترن، وبحث

موضوع الصراع المعادي للتعريب من جميع جوانبه. أدان الكونفرانس العمل المناوئ للتعريب وطلب من التكتل وقف هذا الصراع فوراً وإنهاؤه والكف عن العمل التخريبي. وقد عوقب المسؤولون عن التكتل بعد الإدانة والانتقاد الشديد. فأبعد عن اللجنة المركزية زاديك دادوريان و هاكوب دير بدروسيان وبانوس أرامايسيان وطلب من زاديك دادوريان إنهاء العمل التكتلي وإلا فسوف يطرد من الحزب.

شارك في الكونفرانس أبو داوود القادم من فلسطين (محمود الأطرش) وهو رفيق جاء للإقامة الدائمة في لبنان، كما شارك في الكونفرانس الرفيق فيكتور من قبل الكومنترن.

أضيف إلى اللجنة المركزية في هذا الاجتماع الرفيقان أبو داوود وأوهانس أغباشيان.

وفي ما يختص بزاديك فهو لم يحترم الإنذار الموجه إليه من قبل الكونفرانس واستمر في عمله التكتلي وتابع اتصالاته، ولذلك فقد أُبعد عن الحزب.

وانتقل زاديك إلى فلسطين وسافر بعد فترة إلى فرنسا، وبمساعدة ميساك مانوشيان أخذ توجهاً صحيحاً وانضم إلى صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي في فترة الاحتلال الهتلري لفرنسا، وشارك في حركة المقاومة واعتقل وزجّ به في المعسكرات النازية. وبعد الانتصار أصبح أحد أعضاء قيادة الجبهة الوطنية ورئيس تحرير جريدة «الشعب» في باريس.

خالد بكداش في اللجنة المركزية ومن ثم أميناً عاماً للحزب

انضم خالد بكداش إلى اللجنة المركزية في النصف الثاني من العام 1931 لملء الفراغ الحاصل في اللجنة المركزية. وفي أوائل عام 1932

وباقتراح وإلحاح منّي، انتخب أميناً عاماً للحزب. لم يكن لدينا حلّ آخر في تلك الآونة، أخذاً في الاعتبار الواقع التنظيمي. وفي كل الأحوال استُقبل انضمامه إلى اللجنة المركزية وانتخابه أميناً عاماً للحزب بارتياح في أوساط الحزب كعنصر شاب حيويّ قابل للتطور، وثوري مثقف آت من دمشق مركز النضال المعادي للامبريالية ومن أجل التحرُّر، ومن بين الشباب الثوريين الوطنيين، رابطاً مصيره بمصير الحزب، وكنا متأكدين من إمكانيّاته.

كان باستطاعته، من غير شك، أن يجسّد صلة بين الحزب والقوى الوطنية العربية، وبإمكانه القيام بدور رئيسي في تعريب الحزب. كانت علاقتي وثيقة بخالد بكداش، وهو من جانبه عاملني بالأسلوب نفسه فكنا منسجمين في عملنا الحزبي.

قدم خالد بكداش خدمات كثيرة للحزب على جميع المستويات، لكنه في المراحل اللاحقة أضرّ كثيراً. فقد ولدت عنده تصورات عبادة الفرد، وسوف نتكلم مطولاً حول هذا الموضوع في الصفحات المقبلة.

نجاح تنظيمي جديد في الأوساط العربية

خلال العام 1932، إبان عمليّة تعريب الحزب، أعيد تنظيم الخلايا العربية في بيروت وانضم رفاق عرب إلى الحزب في الأشرفية والكرنتينا وفي أوساط عمال المطابع، ومع الأسف فقد غابت أسماؤهم عن ذهني. قامت منظمة جديدة وقوية في عماطور بمبادرة وقيادة سامي أبو شقرا، وفي شرتون أنشئت منظمة بقيادة جريس الشرتوني. وانضم رفاق جدد من العرب إلى منظمات طرابلس وزحلة وبعلبك ودمشق.

الاجتماع الوطني لدعم المعتقلين السياسيين

في الفترة نفسها انعقد مؤتمر لدعم السجناء السياسيين في لبنان،

بمشاركة ممثل النجدة الحمراء وذلك تحضيراً للمشاركة في المؤتمر العالمي لمساعدة السجناء السياسيين (موبر) الذي كان سيعقد في موسكو برئاسة اللبنينية الثورية القديمة هيلين أسباسوفا. وهكذا، ففي بيروت بشارع المونسيور شبلي، في منزل جورج عيان انعقد مؤتمر لدعم السجناء السياسيين وانتخب قيادة مركزية جديدة وأصدر بياناً باسم المؤتمرين. شارك في المؤتمر ممثلون عن جميع اللجان الفرعية وساده موقف موحَّد وكانت غالبية الحضور من الرفاق العرب. ومن المشاركين يوسف خطّار الحلو وأحمد أفيوني وأنا.

معركة مع حزب الطاشناك

افتتح يراونت دادوريان شقيق زاديك، محلاً لبيع المرطبات قرب منزلي، وبجانب كنيسة مار مخايل. وكان رفاقنا يتجمهرون أمام هذا المحل لشراء المرطبات. وبعد ظهر يوم أحد في أوائل شهر تموز كان رفاقنا يتجمّعون كعادتهم أمام المحل. وكانت الأجواء متوترة حيث كان يجري صدام في الأحياء بيننا وبين الطاشناك. مرَّ أمام المحل ثلاثة عناصر رئيسية من حزب الطاشناك وافتعلوا مناقشة حادة مع يراونت دادوريان. طوق رفاقنا المتخاصمين وتدخلت أنا لمنع حدوث مضاعفات، وانتهت المماحكة بسلام. ولكن، في اللحظة نفسها سحب الطاشناك خناجرهم وهجموا علينا فسحب الرفيق ميكايل كشيشيان بلطة تستعمل لتكسير الثلج وهجم على الطاشناك. هرب اثنان منهم فلحق بهما الرفيق ميكايل حتى وصل إلى سكة الترامواي. أما الثالث، هاكوب ڤابيجيان، فكان شاهراً الخنجر ويحركه يميناً ويساراً فابتعد عنه رفاقنا وشكلوا حلقة حوله وجعلوا يرشقونه بالحجارة، لكنه هجم عليّ محاولاً طعني بالخنجر فضربه الرفيق مارديروس (ماردو) خوجيكيان بخشبة ثقيلة على رأسه قبل أن يتمكن من طعني، فوقع المعتدي على الأرض، فانتزع أحد رفاقنا

الخنجر من يده وجرحه. وصل رجال الدرك وحاولوا اعتقالي مع الرفيق ميكايل، ففررنا بسرعة من المكان وتحوَّلنا إلى مطلوبين.

ذهبنا إلى شرتون وبقينا في منزل الشرتوني يومين، ومن ثم انتقلنا إلى شحيم ومكثنا في منزل رفيق درزي يومين آخرين ثم عدنا إلى بيروت. وبمساعدة الرفيق وهيب الملك تأمن سكني في منزل أخيه خالد الملك وهو بيت قديم في شارع المصارف تجاه العدلية. وقد حكم عليّ غيابياً بالسجن أربعة أشهر وحكم على ميكايل بالسجن شهراً ونصف الشهر.

فرار نخمن من منفاه

في أوائل شهر تشرين الأول عام 1932 نظمنا فرار نخمن من منفاه في الاسكندرون عبر رفيق سائق هو ڤارطان بيدنيان، الذي ساعد هاكوب ديربدروسيان على ترتيب عمليّة الفرار. وعقدت اللجنة المركزية بعد عودته اجتماعاً في غرفتي، وقد شارك نخمن في الاجتماع وهو كان يدعم ويشجع بشكل خفي العناصر المعادية للتعريب. وبعد الكونفرانس الثالث عام 1933 سافر نخمن نهائياً واستقرّ في فرنسا.

اعتقالات ومحاكمات جديدة

في 6 تشرين الثاني عام 1932 أمضى خالد بكداش ليلته في غرفتي لمناقشة مواضيع حزبية آنية. وفي صباح اليوم التالي اقتحمت مجموعة من رجال الدرك غرفتي واعتقلوني مع خالد بكداش، وتبيَّن أن خالد الملك الذي كان قد اعتقل في طرابلس، وشى بي لقوى الأمن وقادهم إلى غرفتي ولم يكونوا على علم بوجود بكداش عندي، وقد اتهمني بإعطائه منشورات حزبية. بعد ثلاثة عشر يوماً في الاعتقال بدأت محاكمتنا أمام المحكمة المختلطة ويرئسها فرنسي. حضر المحاكمة نقولا شاوي والمحامية نينا طراد التي تزوجت لاحقاً المحامي شارل حلو (رئيس

الجمهورية السابق)، والمحامي حبيب أبي شهلا الذي أصبح فيما بعد وزيراً، ومجموعة من الرفاق والمهتمين.

لم يجدوا في غرفتي سوى صورة سلطان باشا الأطرش وصورة الدكتور شهبندر. ورغم اعتقالنا وزع رفاقنا البيان الصادر عن الحزب بمناسبة ثورة أكتوبر ورفعوا العلم الأحمر على أسلاك الكهرباء.

اتهمتنا المحكمة بتوزيع بيان باسم الحزب. والدليل كان نسخة من البيان الملصق على الجدران، نزعوه وقالوا إنه وجد في غرفتي، واتهموني بإعطاء بيانات لخالد ملك.

أما أنا فصرحت أمام المحكمة: «إن خالد بكداش ضيفي وجميع محتويات الغرفة تخصني وأنا مسؤول عنها». ثم أعلنت عدم وجود بيانات في غرفتي، أمّا البيان الذي سلمه الشرطي للمحكمة فإذا نظرنا إليه بانتباه، لأمكن أن نرى على قفاه بقايا صمغ تدل على أنه مأخوذ من الجدار.

بالنسبة إلى اتهام خالد الملك فقلت إنه يكذب، وحدّقت إليه «بنظرة جافة» لحثّه على البوح بالحقيقة والتراجع عن أقواله. لكنني لم أنجح حيث أن رئيس المحكمة لم يسمح لي بالاستمرار في طرح أسئلة مباشرة على خالد الملك. كما أن القاضي الفرنسي دورلاك هدّد خالد الملك بأنه في حال تبديل إفادته سيحاكم بتهمة الإدلاء بشهادة زور. وشعرتُ بأن الملك متردّد لكن القاضي منعني من محاولتي تغيير إفادته؛ وقد طالبت بإطلاق سراحي.

أما خالد بكداش فقال: لا يوجد أي اتهام أو دليل ضدي. لم أكن سوى ضيف في هذه الغرفة فإذا حكم عليَّ فسيكون الحكم على قناعاتي السياسية.

وقد طالبت بإطلاق سراح خالد بكداش. وطلب القاضي دورلاك إنزال أشد العقوبات قائلاً: «رفاق هؤلاء في الهند الصينية يريقون الدماء! فيجب معاقبة هؤلاء بشدة حتى لا يكرروا ذلك عندنا». وقد تطرق

دورلاك إلى أحداث الهند الصينيّة لأن النضال التحرري من أجل الاستقلال الوطني، كان قد بدأ هناك بقيادة الشيوعيين. حكمت المحكمة عليّ بالسجن لمدة سنة. وتقرر إطلاق سراح خالد بكداش. وفي الوقت نفسه حكم غيابياً على بكداش في دمشق بالسجن ثمانية أشهر بتهمة مشاركته في تظاهرة معادية للاستعمار، وذلك نتيجة شهادة كاذبة أدلى بها القومسيير في الأمن العام قره بت متهماً خالد بكداش بإطلاق الشعارات، وهو أمر لم يحصل. وحدث أن أطلق سراح بكداش في اليوم نفسه، حيث إن المحكمة ومدير السجن في بيروت لم يكونا على علم بالحكم الصادر بحق بكداش في دمشق.

بعد فترة قصيرة صدر حكم عن محكمة الاستئناف المحلية في قضية الصدام مع الطاشناك، بتخفيض الحكم السابق بحقي من أربعة أشهر إلى شهر ونصف الشهر، وقد أمضيت فترة العقوبة في سجن الرمل والتحقت بقسم مهني واشتغلت كعامل أحذية، وقد ساعدني على الحصول على ماكينة خياطة الأحذية السجين أحمد سروجي الذي علمته المهنة.

أهم أحداث 1933 أثناء وجودي في السجن

أمضيت عام 1933 في السجن، ورغم ذلك يجب أن أسجل في مذكراتي القضايا المهمة وبعض الأحداث الخاصة بالأرمن كما أتذكرها. خلال عام 1933 نجح تعريب الحزب وحققنا نجاحات جديدة بازدياد عدد الرفاق العرب. لقد انتسب إلى صفوف الحزب الرفاق سعد الدين مومنة، مصطفى العريس، حنا الزرقا، توفيق جمال، الياس بواري، رامز دميانوس، نجيب شلهوب، ميشال عازار، جان ثابت، وفؤاد ناصر الدين، وجميعهم كوادر في نقابة عمال الطباعة، ورفيق سائق اسمه توفيق الأسود وهو ثوري حازم نشيط متفانٍ، ربط مصيره بمصير الحزب.

انتسب الرفيقان سعد الدين مومنة ومصطفى العريس إلى صفوف

الحزب مع غالبية هؤلاء الرفاق في فترة الإضراب العام لعمال المطابع سنة 1933 وقادوا هذا الإضراب. ففي شهر آب 1933 أعلن إضراب لعمال الطباعة في بيروت استمر تسعة أيام بقيادة الحزب، وبجهد خاص من قيادته. وقد كان ملحوظاً طوال السنوات السابقة أن هذه النقابة لعبت دوراً مهماً في النضال من أجل الحريات النقابية والديموقراطية، وطرحت مطالب اقتصادية واجتماعية ونشطت في الميدان السياسي، مما أقلق السلطات الفرنسية وصدر قرار من السلطة المحلية بحل نقابة عمال المطابع. أعلن العمال الإضراب العام ضد القرار التعسفي المعادي للعمال والمعادي للديموقراطية. واتخذ الدرك إجراءات استثنائية لإفشال الإضراب وجرت اعتقالات وملاحقات للعمال ارتباطاً بالإضراب، ولكن الإضراب صمد بوجه جميع المحاولات وشُكلت لجان خاصة لقيادة الإضراب. أما الهيئة القيادية للإضراب فكانت تجتمع في رأس بيروت في المنطقة الرملية، وكانت على اتصال دائم مع خالد بكداش ومحمود الأطرش وهيكازون بوياجيان. وكانت الهيئة القيادية تعقد جمعيات عمومية للمضربين للبحث في سير الإضراب وأخذ موافقة العمال على الخطوات اللاحقة. أعلن عمال المطابع في سوريا الإضراب تضامناً مع رفاقهم في بيروت. كذلك حظي الإضراب بدعم من الاتحاد العام الفرنسي للعمل (C.G.T) فأرسل برقية تأييد للعمال المضربين، بتوقيع بنوا فراشون وراكامون.

وجهت الهيئة القيادية للإضراب بياناً للرأي العام يشرح أهداف العمال ومطالبهم. وبعد إضراب دام تسعة أيام تنازلت السلطة وبدأت مفاوضات مع المضربين، ووافقت على إعطاء رخصة لنقابة عمال المطابع باسم «جمعية عمال المطابع». قام بمفاوضة الشرطة لجنة من عمال المطابع مؤلفة من سعد الدين مومنة، مصطفى العريس، أرسين أرسانيان، جان ثابت، أنطوان سركيس، جورج جرجورة، ميشال عازار، توفيق جمال. انتهى الإضراب بانتصار العمال.

وكان عمال الطباعة يعتبرون أنفسهم دائماً نقابة وليس جمعية. واستمر نضال عمال الطباعة سنوات، وعام 1938 تحت التهديد بإعلان الإضراب العام حصلوا على ترخيص باسم النقابة. في تلك الفترة كان رئيس عمال الطباعة نسيب المتني الذي انتسب لفترة قصيرة إلى صفوف الحزب، ثم أسس جريدة «التلغراف» وأصبح رئيس تحريرها، واغتيل في عام 1958 فكان اغتياله السبب المباشر في انتفاضة وطنية مسلحة معادية للرئيس كميل شمعون، الذي وافق أمام الكونغرس الأميركي باسم لبنان على مشروع أيزنهاور، فجاءت الانتفاضة في حقيقتها ضد هذا المشروع.

لم يشارك في الإضراب عمال مطابع جريدة «الأوريان» الفرنسية، ولهذه الأسباب تمَّ تكسير المطبعة وقد شارك في هذا العمل توفيق الأسود، حيث كانت سيارته تحت تصرف العمال المضربين. حكم على المتهمين بتحطيم مطبعة «الأوريان» ستة أشهر سجناً، وقد تعرفتُ إلى حنّا الزرقا ورامز دميانوس في السجن.

بعد هذا الإضراب العام أصبحت نقابة عمال المطابع في طليعة مناضلي ومنظمي نضال الطبقة العاملة. ولقد خاضت الطبقة العاملة النضالات من أجل مطالب اجتماعية وأهداف سياسية، دفاعاً عن الحريات الديموقراطية والنقابية، ومن أجل إيجاد قانون عمل ووقف الإجراءات التعسفية بحق الصحف. وكان ذلك في النتيجة نضالاً من أجل الاستقلال الوطني. وقد أصبح في ما بعد مصطفى العريس رئيساً لنقابة عمال المطابع، ثم تلاه سعد الدين مومنة.

في السنة نفسها جرى إضراب عام للسواقين مطالباً بإلغاء الأعمال التعسُّفية من قبل الدرك والتوقف عن فرض غرامات غير قانونية، وطالب باستصدار عفو عن المخالفات السابقة. أيد حزبنا مطالب السائقين ووقف إلى جانبهم وأصدر بياناً بهذا المعنى وزَّعه الرفيق بانوس آرامايسيان خلال جمعية عمومية للسائقين.

وفي السنة نفسها صدر لأول مرة في بيروت وباللغة العربية كتاب «البيان الشيوعي»، ترجمة خالد بكداش.

وفي السنة نفسها جرت محاكمة جورجي ديمتروف في ألمانيا الفاشية. واحتجاجاً على هذه المحاكمة وتضامناً مع الرفيق ديمتروف، صدر بيان عن الحزب وهوجمت السفارة الألمانية وكتبت على جدرانها شعارات معادية للفاشية تطالب بإطلاق سراح ديمتروف.

وفي العام نفسه انتسب إلى صفوف الحزب رفاق أرمن جدد، أبرزهم الرفيق هاكوب بربريان وكان أحد القادة النشيطين في جمعية مساعدة أرمينيا. تحوّل بسرعة إلى كادر من الكوادر الأساسية في الحزب وأصبح فيما بعد عضواً مرشحاً للجنة المركزية وبقي مدة سكرتيراً للفروع الأرمنية. وقد أنشأ مؤسسة صغيرة لإنتاج الجلود، لمواجهة كبار منتجي الجلود في السوق فاشتغل فوق طاقته الجسدية ومرض بالسل. وفي عام 1946، فترة عودة الأرمن إلى أرمينيا، سافر عبر بيروت إلى أرمينيا السوڤياتية وتوفّي هناك.

اغتيال مهران أغازاريان

في شهر تشرين الثاني 1933 اغتالت عصابات الطاشناك مهران أغازاريان، بينما كان عائداً من زيارة لأفراد عائلته.

أما الطاشناكيّ الذي نفذ الجريمة فهو نفسه هاكوب كببجيان الذي تحدثنا عنه عندما تطرّقنا إلى الصدام مع الطاشناك. وقد نجح، بمساعدة السلطة في الفرار إلى إيران.

لقد أثار اغتيال مهران أغازاريان استياء واستنكاراً واسعين في الأوساط الأرمنية في لبنان وسوريا، والأحرى في جميع أماكن اغتراب الأرمن. ويوم تشييعه أقفلت جميع الأحياء الأرمنية والمدارس احتجاجاً على الجريمة، وشاركت في المأتم جموع غفيرة وقد لعب رفاقنا دوراً

كبيراً في تنظيم المأتم. شارك أيضاً في الدفن شخصيات اجتماعية معروفة بالإضافة إلى قيادة حزبي الهانشاك والرمغفار وقيادة حزبنا.

احتراق الكمب الكبير

وحدث في تشرين الثاني من السنة نفسها أن اندلع حريق في المخيم الكبير للأرمن فأجهز على مجموع المساكن. يومئذ تأكد تقاعس إطفائية السلطة عن القيام بواجبها، وكان واضحاً أن السلطة حاولت التخلص من هذا المخيم، الذي كانت قد حاولت تدميره المرة تلو المرة وتراجعت نتيجة لتصدي سكانه.

إطلاق سراحي

خرجت من السجن في 11 كانون الأول عام 1933 بعد أن أمضيت ثلاثة عشر شهراً ونصف الشهر. انعقد اجتماع استثنائي للجنة المركزية في غرفة أبو داوود وبحث الوضع السياسي واتخذ عدة مقررات. أهمها الآتي:

1 ـ إرسال خالد بكداش وهيكازون بوياجيان إلى موسكو للدراسة في جامعة شيوعيّي شعوب الشرق. وهكذا ففي 21 كانون الأول سافر خالد بكداش من حيفا عبر فرنسا إلى موسكو.

2 ـ المشاركة في الانتخابات النيابية وترشيح سعد الدين مومنة وأنا في الانتخابات التي كانت ستجري في كانون الثاني حيث كان مجلس النواب محلولاً.

3 ـ سُجل انتقاد شديد لخالد بكداش بسبب تصرف غير لائق وشرس، هو استخدام القوة ضد هيكازون بوياجيان.

4 ـ تعليق عضوية أوهانس أغباشيان في اللجنة المركزية لمدة ثمانية أشهر لعدم قيامه بالمسؤولية الموكولة إليه وهي تأمين الصلة بين أعضاء القيادة. وكان ذلك خطأ كبيراً في تلك الأيام.

وفي سنة 1933 صدر الكتاب الشهير «حميّات في الغرب» لسليم خياطة، وهو كتاب جديد على صعيد الفكر والسياسة فيه تحليل ثوري عميق ونظرة واقعية إلى التطور السياسي في أوروبا.

التعرُّف إلى نقولا شاوي

في أواخر كانون الأول عام 1933 أو أوائل كانون الثاني 1934 تعرفت إلى الرفيق نقولا شاوي في منزل سليم خياطة في شارع عبدالوهاب الإنكليزي. انتسب الرفيق نقولا إلى الحزب في كانون الأول 1933. انخرط في الحزب لإيمانه بمبادئه، وربط مصيره بمصير الحزب. كان نضجه السياسي واضحاً، مع قابليّة للتطور والتدرج السريع بالمسؤولية.

كان قد تعرف إلى يوسف يزبك وسليم خياطة الابن في مأتم جبران خليل جبران في بشري، وكان على علاقة حميمة وصداقة متينة مع سليم خياطة منذ العام 1930. شارك عام 1931 في تظاهرة نظمها الحزب في طرابلس استنكاراً لاغتيال عمر المختار. هذه التظاهرة المعادية للفاشية تركت كبير الأثر في نفسه. كلَّفه سليم خياطة عام 1932 كتابة مقالة باللغة الفرنسية للمجلة الشيوعية «كومون» الصادرة في باريس. حضر محاكمتي عام 1932 مع خالد بكداش في المحكمة المختلطة .

في تلك الفترة كان الحزب بحاجة إلى الشباب من أمثال نقولا شاوي.

وضع اللجنة المركزية عام 1934

بعد سفر خالد بكداش وهيكازون بوياجيان إلى موسكو للدراسة، وتجميد عضوية أوهانس أغباشيان موقتاً، بقي من أعضاء اللجنة المركزية في بيروت أبو داوود (محمود الأطرش) وأنا، وناصر حده الذي كان في

دمشق. وكنا في وضع صعب. ومن أجل تخطي هذه الصعوبات وطّدنا علاقتنا مع سليم خياطة الذي كان يسكن في شارع عبد الوهاب الإنكليزي. وكذلك توطدت علاقتنا مع نقولا شاوي.

الحزب في الانتخابات النيابية في لبنان

جرت انتخابات نيابية في لبنان في 21ـ22 كانون الثاني عام 1934، فكانت مناسبة مهمة لنشر سياسة الحزب ونهجه بالرغم من الحواجز والضغوط التي فرضتها السلطة. كانت فرصة لطرح وإيصال شعاراتنا إلى الجماهير وإلى الفئات العمالية الواسعة على أساس سياستنا الاجتماعية والمطلبية والوطنية.

لهذه الاعتبارات قررت اللجنة المركزية أن يشارك الحزب في الانتخابات النيابية، بترشيح الرفيقين أرتين مادويان وسعد الدين مومنة باسم «لائحة العمال والفلاحين»، كان الحزب يشارك لأول مرة في تاريخه بترشيح أعضاء منه في الانتخابات النيابية. وشكّلنا لائحة انتخابية مع الصحافي إبراهيم حداد الذي كان في تلك الأيام مدعوماً من الشباب.

تقدم مرشحو حزبنا باسم «تحالف العمال والفلاحين» وأصدروا بياناً انتخابياً تضمن جميع الشعارات والمطالب المطروحة من قبل الحزب آنذاك، السياسية منها والاجتماعية، كشعار الاستقلال الوطني والحريات الديموقراطية وحرية العمل النقابي وقانون العمل، والعمل 8 ساعات في اليوم، وتحسين وضع العمال المعيشي، والقضايا التي تهم الفلاحين ومطالب أخرى...

البرنامج الانتخابي وملصقات الشعارات الأساسية وزعت ونشرت على نطاق واسع في الدوائر الانتخابية كلها. عشرات الألوف من البيانات وصلت إلى الناس عشية الانتخاب وفي يوم الاقتراع بالذات. ونظم، بالمناسبة، العديد من الاجتماعات في الأحياء. وبمبادرة من سليم خياطة

أصدر لفيف من المفكرين العرب بياناً يدعو الشعب لتأييد لائحتنا والاقتراع لها. ورشح حزبا الهنشاك والرمغفار ڤاهرام ليلاكيان، وهو غير حزبي، نتيجة اتفاق عقد بينهما في اللحظة الأخيرة. وأيّد فريق من الوطنيين الأرمن هذا الترشيح أملاً في الانتصار على مرشح الطاشناك، الدكتور أنترانيك شاوشيان، وهذا الأخير لم يكن عضواً في الطاشناك، وكان ذا اتجاه وطني غير أنه تحت تأثير مغريات النيابة وأمام إحاطة الطاشناك به ضعف أمام الكرسي، فوافق على أن يكون مرشح الطاشناك. لكنه ندم فيما بعد على هذا الضعف.

بعد خروجي من السجن كان يتوجب عليّ دفع رسوم المحاكمة. وقد اعتقلني رجال الدرك يوم السبت قبل يوم واحد من موعد الانتخاب بحجة عدم تسديدي الرسوم! واقتادوني إلى القاضي ديمتري حايك طالبين مني دفعها على الفور. كانت الدوائر الحكومية مقفلة بعد ظهر السبت، ومن الواضح أن الشرطة تقصّدت إبقائي قيد الاعتقال إلى ما بعد الانتهاء من عملية الانتخاب. شرحت للقاضي الأهداف التي يتوخّاها الدرك، وطلبت إليه حلاً منصفاً يحبط هذه المكيدة.

وصودف أن القاضي ديمتري الحايك كان أثناء تلقيه الدراسة في فرنسا صديقاً لانطوان الحاج، اللبناني الأصل والعضو الفاعل في الحزب الشيوعي الفرنسي، فتصرف كصديق للحزب وأخذ موقفاً عادلاً وشريفاً فطلب من رجال الأمن الانصراف وأبقاني عنده، وأطلق سراحي واقترح عليّ دفع مصاريف المحكمة بواسطة البريد باسم الجباية المالية.

وفي الساعات الأخيرة جرت لقاءات ومناقشات مع حزب الهنشاك فطلبوا مني الانسحاب لمصلحة مرشحهم الذي لم يكن معروفاً بعد.

ولقد كان واضحاً أننا لسنا في وارد الانسحاب من المعركة. ولم تكن لدينا، في الوقت نفسه، أوهام بإمكانية الفوز وحدنا، خصوصاً في ظل ما وضعته السلطة من موانع. كانت وسائل القمع على أشدها مع سيطرة التزوير والرشوة وشراء الأصوات على جو الانتخاب.

في لقاءاتنا ومناقشاتنا مع الهنشاك خلال السهرات الانتخابية في الأحياء، كنا ندافع عن منطلقاتنا السياسية مستخدمين مناسبة الانتخاب وسيلة علنية ومنبراً يحدّ من العوائق أمام تقوية النضال الشعبي والضغط على السلطة، من أجل فرض سياسة وطنية ومكاسب اجتماعية واقتصادية ومن أجل الحريات الديموقراطية. فلا سبيل إلى تحقيق المطالب إلّا بتعزيز نضال الجماهير الشعبية وتحت تأثيرها الضاغط. كنا نهيب بالجماهير أن تنحو هذا المنحى توسيعاً لتوفير إمكانيات أفضل للكفاح الشعبي للقاعدة المعادية للطاشناك، حيث كانت سياستهم مناوئة لأرمينيا ومحفوفة بالضرر وأعمالهم استفزازية. لهذه الأسباب دعونا لانتخاب لائحتنا.

في ذلك الحين لم يكن ثمة مرشح عنده برنامج انتخابي، سياسي ووطني واجتماعي واقتصادي، سواء بين العرب أم الأرمن باستثناء مرشحي حزبنا. وقد أشارت بعض الصحف إلى هذا الموضوع. جرت الانتخابات في موعدها المحدد، ولم يحصل أي مرشح على الأصوات المطلوبة للفوز حسب القانون. جميع المرشحين نالوا أصواتاً نسبية. حصلت لائحتنا على 500 صوت، بينهم فريق من عمال وشباب الهنشاك صوتوا لمصلحتنا.

تجدر بنا الإشارة إلى عدم تمكننا من انتداب مراقب من قبلنا على كل صندوق اقتراع لمنع التزوير والغش. وهكذا فقد استطاع ممثلو السلطة ضمّ أصوات ناخبينا إلى مرشحيهم، وهذا أمر معهود في الانتخابات رغم ذلك، فرضت الخمسمائة صوت التي حصلنا عليها إعادة الانتخاب، لعدم حصول أية فئة على الأصوات المطلوبة. أعيد الانتخاب نهار الأحد التالي فأعطينا أصواتنا للمرشح فاهرام ليلاكيان وسعينا لإفشال مرشح الطاشناك. وهكذا فقد استفدنا من مناسبة الانتخاب في ترسيخ علنية نشاطنا الحزبي.

نتيجة للمرحلة الثانية من الاقتراع، فاز فهرام ليلاكيان وفشل مرشح

الطاشناك. واستقبلت جماهيرنا بحماسة شديدة انتصار ليلاكيان كمرشح مناهض للطاشناك. وتوجهت الجماهير المحتشدة أمام مخفر الدرك في النهر بقيادة رفاقنا إلى منزلي القريب من المخفر، حيث ألقيت كلمة حيّيتُ فيها هذا الانتصار وأطلقت نداء بضرورة العمل الموحّد بشكل دائم. أطلقت الجماهير شعارات «مادويان رَبَّها»، «مادويان أبو الفقير»، «حلق ليلاكيان».. هذه الهتافات، وخصوصاً الشعارين الأولين ما فتئت تتكرر في شتى المناسبات لسنوات لاحقة.

لقد زادت هذه السياسة الانتخابية في قدرات حزبنا وفي دوره المبادر، فتضاعف تأثيرنا في الجماهير ولدى الرأي العام، وازدادت قدراتنا التنظيمية.

في الأشرفية انضم العديد من الشباب والعمال العرب إلى صفوف حزبنا من أوساط تجمع الشباب المؤيد لإبراهيم حداد. كذلك في نقابة عمال المطابع وفي منطقة الكرنتينا ومنطقة المدور. وانتسب إلى الحزب عدد جديد من الأرمن، توطدت العلاقة بين النائب الجديد ڤاهرام ليلاكيان وحزبنا، فقدم لنا خدمات عديدة وساعدنا على الحصول على الترخيص من السلطة لنشاطاتنا المختلفة.

وقد لعب نقولا شاوي دوراً واسعاً في تنظيم الانتخاب في المصيطبة. وأشرف على عملية الانتخاب بمساعدة والدي مرديروس مادويان حيث كانت لديه معارف من أضنه في صفوف السريان، وسكان منطقة المصيطبة بصورة عامة.

كذلك لعب دوراً جيداً أوهانس أغباشيان، الذي نظم تظاهرة للجماهير الشعبية أمام منزلي. وبعدها أعيدت عضويته في اللجنة المركزية.

سليم خياطة ومجلة «الدهور»

استلم سليم خياطة رئاسة تحرير مجلة «الدهور» من صاحبها إبراهيم حداد في كانون الثاني عام 1934. وكانت المجلة تصدر منذ العام

1931. أما سليم خياطة الماركسي الخلاق ذو الرؤية المتقدمة، فقد جاءت افتتاحياته وسائر مقالاته تنبض بأفكار جديدة على الدوام، إيديولوجياً وأدبياً. وإذا بـ «الدهور» تغدو في نظر الأدباء العرب منارة للحرية والاستقلال الوطني والتقدم ومشعلاً للنضال التحرري نظرياً وعملياً. وقد خلقت تياراً ومنهجاً جديداً وظلّت على تطور دائم وما هي إلّا فترة وجيزة حتى تجمّع حول سليم خياطه، و«الدهور»، مفكرون تقدميّون وديموقراطيون وأدباء وشعراء مبدعون.

تعاون الرفيق نقولا شاوي مع سليم خياطة و«الدهور»، وأدى فؤاد قازان إسهامه مركزاً على الاهتمام بالطباعة، فيما عمل مصطفى العريس منضّداً للأحرف إلى حين اعتقاله في دمشق.

لم تتحمل سلطات الانتداب الاستعمارية افتتاحيات سليم خياطه والتوجه السياسي لمجلة «الدهور» فاعتقلته، وبعد تعذيبه طرد من لبنان إلى فلسطين في كانون الأول 1934 بحجة كونه أميركي الجنسية، رغم أنه لبناني الأصل.

والد سليم خياطة الذي يحمل الاسم نفسه كان قد هاجر إلى أميركا وسكن هناك مدة طويلة وحصل على الجنسية مع أفراد عائلته وعاد في العام 1920 إلى وطنه الأم لبنان وسكن في طرابلس.

أسس سليم خياطة مطبعة صغيرة لتأمين صدور مجلة «الدهور»، بمساعدة مالية من والده وذلك في مبنى قديم بمحلة باب إدريس قرب شاطئ البحر. بعد إبعاد سليم خياطه من لبنان أغلقت بلدية بيروت المطبعة بأمر من سلطات الانتداب بحجة عدم وجود رخصة من البلدية. وبقي سليم خياطة على صلة مستمرة بالحزب وكان يرسل مقترحات جديدة من فلسطين.

انهضي أيتها الأمة: مؤتمر في زحلة لحركة التحرر العربية

في أواخر شهر آذار عام 1934 انعقد في زحلة في منزل يوسف

الهراوي مؤتمر التحرر الوطني العربي من أجل الاستقلال وضد الاستعمار.

كان الأول من نوعه. وقد عقد المؤتمر بمبادرة من الحزب الشيوعي وبمشاركة «عصبة العمل القومي»، الحزب العربي الوطني التقدمي السوري. شارك في المؤتمر ثلاثون مندوباً بينهم أساتذة من جامعة دمشق كالدكتور كامل عياد الذي كان على اتصال وثيق مع الحزب الشيوعي، والدكتور جميل صليبا، وميشال عفلق وصلاح الدين البيطار (هذان الأخيران أسَّسا حزب البعث العربي لاحقاً) ومنير سليمان من عصبة العمل القومي والأديب إبراهيم كيلاني.. كما شارك في المؤتمر الرفاق سليم خياطه ويوسف خطّار الحلو ورشاد عيسى ومصطفى العريس.

ركّز المؤتمر على تطوير الثقافة والتمدُّن في الأمة العربية وأعطى صورة عن تاريخ الوطن العربي وحدوده، مشيراً إلى أن الانقسام والدويلات هي من صنع الدول الاستعمارية المسيطرة لنهب خيراتنا وإخضاع شعوبنا، وتشكيل حكومات خاضعة لوصايتها.

وأعلن المؤتمر أن القضية العربية قضية قومية وهي قضية الأمة العربية كلها، وأن هدف القضية العربية هو إيقاظ قوى أمتنا وتنظيم عناصرها في دولة مستقلة متحدة متحضرة، يحتفظ ضمنها كل بلد بالاستقلال الذاتي في حين تتولى سلطة مركزية شؤون السياسة الخارجية والدفاع والقوات المسلحة والمال والاقتصاد. وأعلن المؤتمر أن أشد أعداء الأمة العربية الاستعمار والفقر والجهل والرجعية الاجتماعية والتعصب الديني، ودعا لمحاربة هؤلاء الأعداء بكل الإمكانيات. وأعلن المؤتمر النضال ضد الصهيونية ليس على أساس ديني بل على أساس كونها قوة إمبريالية تعمل للسيطرة على المنطقة.

وأكد المؤتمر أن على كل دولة عربية أن تناضل لأجل استقلالها الوطني والحفاظ على علاقتها الوحدوية مع البلدان الشقيقة، داعماً نضالها الوطني التحرري، واختتم المؤتمر بموافقة الجميع على البرنامج

المقترح على أساس النضال من أجل الاستقلال وتحقيق وحدة النضال ضد الاستعمار ومحاربة الفقر والتخلف والتعصب الديني.

وكما أشرنا، فإن الحزب الشيوعي هو الذي بادر ونظم المؤتمر، ولعب دوراً رئيسياً في ذلك الرفيق سليم خياطة، بمساعدة الرفيق نقولا شاوي.

إن المقررات الصادرة عن المؤتمر بفضل الدور الذي قام به الحزب، قد أحدثت انعطافاً بالنضال الوطني التحرري العربي وهي ما زالت صالحة حتى اليوم.

شاوي مسؤول بيروت و«أبو داوود» إلى موسكو

كان الرفيق نقولا شاوي على علاقة يومية مع الرفيق أبو داوود ومعي. وقد عين سكرتيراً «للنجدة الحمراء للسجناء السياسيين»، وبعد فترة وجيزة عين سكرتيراً للجنة منظمة بيروت في الحزب. وقد قام بأعباء المسؤولية بنجاح منفّذاً هذه المهام على أكمل وجه.

وفي أوائل شهر نيسان 1934 سافر أبو داوود إلى موسكو في مهمة خاصة، باسم مستعار، مستقلاً القطار عبر اسطنبول وأوديسا إلى موسكو، فبقيت وحدي من أعضاء اللجنة المركزية. وقد استعنت بالرفيقين سليم خياطة ونقولا شاوي في هذه الفترة العصيبة واعتبرتهما عضوين في اللجنة المركزية ولهما الحقوق نفسها في تقرير المواضيع المطروحة. وكان قد سافر مع الرفيق أبو داوود إلى موسكو الرفيق مصطفى العريس، بقرار من الحزب لحضور احتفالات أول أيار في الساحة الحمراء.

كلمة عند مدافن الأرمن

في العام 1934 قررنا التجمّع في يوم تذكار الموتى (اثنين الفصح). كعادتنا في كل سنة وذلك عند مقابر الأرمن وإلقاء كلمة سياسية وتعبوية

لشرح خط الحزب. كنتُ أنا مكلفاً بهذا العمل. وقفتُ في مكان مرتفع قرب ضريح سركيس دخروني أمام الحشود المجتمعة وندّدت بقوة بالذين اغتالوا صاحب الكلمة الوطنية دخروني ومهران أغازاريان اللذين قتلا بأيدي عصابات الطاشناك، وقدمت لمحة سريعة عن سياسة الحزب الراهنة عارضاً مطالبنا الوطنية والاجتماعية مستنتجاً المهمّات الآتية:

وحدة الصف الوطني للوقوف بوجه عصابات الطاشناك ولتحقيق المطالب الشعبية السياسية والاجتماعية المعادية للاستعمار. كان هناك حضور كثيف لرفاقنا. كذلك شوهدت مجموعة من رجال الشرطة بقيادة أحد الضباط لعلمهم بأن احتفالاً خطابياً يُقام في مثل هذه المناسبة من كل عام، فجاؤوا لمنعنا من الكلام ولتفشيل عملنا. في بداية كلمتي حاولوا منعي فلم يسمح لهم الرفاق بالاقتراب مني. ولقد أنهيت كلمتي وابتعدت عن المكان بحماية الرفاق.

الشاهد الوحيد الباقي على قيد الحياة هو الرفيق بارور يرتسيان.

استفزاز لكنيسة دمشقية

الغالبية الساحقة من الأرمن الموجودين في دمشق كانوا ولا يزالون وطنيين، وقد أفشلوا بشكل دائم جميع محاولات الطاشناك للسيطرة على المؤسسات الأرمنية. وكنيسة مار سركيس كانت ولا تزال مركزاً للوطنيين الأرمن.

يوم عيد الفصح المجيد استغلت مجموعة من الطاشناك المناسبة وبشكل استفزازي فدخلت باحة الكنيسة رافعة علمها. اشمأزت الجماهير الوطنية من هذا التصرف واعترضت الطاشناك، ومزق رفيقنا أوهانس كاجيان علمهم. أطلق أحد عناصر الزمرة النار عليه فأصابه بجرح بالغ وقفز فوق سور الكنيسة هارباً، وفرَّ معه بقية عناصر الطاشناك وسط غضب الجماهير واستيائها. وقامت تظاهرة كبيرة احتجاجاً على جريمة

الطاشناك في دمشق، وتشكل وفد من المتظاهرين التقى السلطة والصحافة وطالب بمعاقبة المجرمين. وصل خبر الجريمة إلى بيروت وخلق أيضاً استياء لدى الأرمن الوطنيين وفي جميع الأوساط الأرمنية.

ذهبت إلى دمشق بقرار من الحزب لنقل تضامن الأرمن في بيروت مع الوطنيين الأرمن في دمشق، وللإعراب عن تضامننا معهم والتعبير عن إدانتنا واستنكارنا لجريمة الطاشناك. وقد بحثنا الوضع مع الرفاق المحليين وقررنا اتخاذ الإجراءات الضرورية والتحرك المشترك.

زرت الرفيق الجريح في المستشفى وكان جرحه بالغاً، ففرحت لأن الخطر قد زال عنه. الرفيق أوهانس كادجيان سافر عام 1936 إلى أرمينيا السوڤياتية واستقر هناك بمساعدة خاصة من قبل الحزب.

جسر الحديد... والنار!

يوم الأحد الذي أعقب جريمة دمشق جرت تظاهرة جماهيرية حاشدة في بيروت، حمل خلالها المتظاهرون يافطات تدين الجريمة وتطالب باعتقال الفاعلين ومعاقبتهم. انطلقت التظاهرة من حي كمب حاجن إلى شارع النهر بمبادرة وقيادة رفاقنا.

حصل صدام حام قرب جسر الحديد. الشرطة تحاول «فرط» التظاهرة واعتقال القائمين بها. الشارع ميدان معركة. حجارة تنهال على رجال القمع. سبعة منهم يجرحون. ضابطان من الشرطة أيضاً. الرفيق ميساك تيلاليان يعتقل وتحكم عليه المحكمة المختلطة بالحبس ستة أشهر. بعد هذه التظاهرة ابتدأت الشرطة بحمل وسائل دفاع حديدية لمثل هذه المناسبات. وقد أحدثت التظاهرة صدى سياسياً كبيراً.

حلب والنسيج

بعد التظاهرة ذهبت إلى حلب حيث كان حوالى 12 ألف عامل

نسيج قد أعلنوا الإضراب. جئت لمساعدة رفاقنا حيث كان لنا عدد منهم في نقابة عمال النسيج وقد لعبوا دوراً فعّالاً في تنظيم الإضراب.

كانت مطالب العمال المضربين تحسين ظروف العمل وزيادة الأجور والتخفيف من ساعات العمل. وقد حصل المضربون على معظم مطالبهم.

.. ومنظمة في راشيا: فايز يارد وقلعة وثوار

انضم إلى صفوف الحزب فايز يارد في بيروت في عام 1934. درس في الجامعة الأميركية في بيروت وأسس فيما بعد خلية حزبية في الجامعة، وهو وجه مرموق ومحبوب في منطقته راشيا الوادي، وشيوعي ذو مستوى سياسي وإيديولوجي مرتفع في تلك الأيام وله علاقات واسعة في وسط المثقفين، كان أديباً وكاتباً اجتماعياً. كتب في عام 1934 حول القضية الفلسطينية. عرف بالصهيونية وكشف أهدافها، فكان أول بحث جدي يصدر في هذا الشأن. كنت على صلة دائمة به كما كانت علاقته راسخة بالرفيقين سليم خياطة ونقولا شاوي.

في السنة نفسها، وبمبادرة من فايز يارد ورفاق جدد آخرين بينهم يوسف أبو مالك ونقولا اللحام وغيرهم، تأسست منظمة للحزب الشيوعي في منطقة راشيا الوادي. ثم تأسست بعد فترة وجيزة بقيادة فايز يارد وجهود نقولا اللحام منظمات أخرى في منطقة راشيا الوادي، في عين حرشة وقرى أخرى. يجب أن نضيف أن يوسف أبو مالك كان قد شارك في الثورة الوطنية التحررية المندلعة عام 1925 في جبل الدروز ضد الاستعمار الفرنسي. وبعد قمع الثورة سافر بطريقة سرية إلى الأرجنتين وانتسب إلى صفوف الحزب الشيوعي هناك. وكان قد حكم عليه بالإعدام من قبل المحكمة العسكرية في لبنان، فاستفاد من صدور عفو عام فيما بعد وعاد إلى راشيا الوادي. وهو نفسه الذي عدنا ورأيناه يلقي كلمة تحية في المؤتمر الثالث للحزب سنة 1972.

رشح الحزب فاير يارد في الانتخابات النيابية عام 1937 عن البقاع الغربي. نشط بين الفلاحين في هذه المنطقة كمرشح منفرد خارج اللوائح ونال 1900 صوت، وهي نتيجة جيدة في تلك الظروف.

سافر فايز يارد بقرار من الحزب في كانون الأول 1938 للمشاركة في مؤتمر الطلاب العالمي في باريس، ثم في كانون الثاني عام 1939 توجه إلى بروكسل وشارك في مؤتمر الطلاب العرب، وبعدها سافر إلى كندا ولم يستطع الرجوع إلى لبنان بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية، فانتقل من كندا إلى البرازيل وارتبط هناك بشكل ثابت مع الحزب الشيوعي.

الترامواي يُضرب

سنة 1934 تأسست منظمة للحزب بين عمال الترامواي في بيروت تضم عدداً كبيراً من الرفاق وحظيت باحترام العمال وثقتهم. وكان عندنا قبل ذلك خلية حزبية في شركة الكهرباء مسؤولها موظف في الشركة هو الرفيق كيورك باغنجيان. وقد بادرت منظمة الحزب إلى تنظيم وقيادة إضراب عمال الترامواي الذي أعلن في أيار عام 1934، وفيه طالب العمال بتحسين وضع العمل، واختصار ساعات الشغل، وزيادة الأجور. وقد تجمع عمال الترامواي في منزل أحد الرفاق لإنجاح الإضراب العام الشامل. وانتهى الإضراب بتحقيق جميع المطالب.

وتجدر الإشارة إلى أن الرفيق نقولا شاوي لعب دوراً أساسياً في تنظيم الإضراب في جميع مراحله، كما كان يصدر باسم الخلية الحزبية بيانات حزبية فتوزّع بشكل واسع بين عمال شركة الترامواي والكهرباء، إضافة إلى بيانات خاصة تدافع عن مصالح عمال الترامواي والكهرباء، كان توزيع المناشير يتم في الصباح الباكر أمام مدخل الشركة. هذه النضالات بقيت حية في نفوس عمال الشركة.

«نضال الشعب» وضجيج الماكينة القديمة

في شهر أيار عام 1934 صدرت جريدة سرية ناطقة باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني السوري هي «نضال الشعب» (طباعة روتاتور). وكنت قد اقترحت اسم الجريدة التي تولى مسؤولية تحريرها الرفيق نقولا شاوي وتلاه فيما بعد الرفيق فرج الله الحلو.

خلال عام 1935 نجحنا في تأسيس مطبعة سرية عند طرف «بيروت الغربية» بمنطقة الرمل[1]، في منزل محايد. كانت آلة الطباعة قديمة فلا يمكن تشغيلها في وسط المدينة لشدة ما يصدر عنها من ضجيج. لم يكن وضعنا المالي يسمح بشراء آلة حديثة فاشترينا هذه الماكينة بواسطة الرفيق سعد الدين مومنة. عمل في هذه المطبعة الرفيق خليل الحلو العائد حديثاً من موسكو من «الجامعة الشيوعية لشعوب الشرق» (جوتف)، وكان يشتغل في الطباعة الأرمنية عامل الطباعة الرفيق هارتيون ماخيان. وكانت المطبوعات تنقل إلى منزل الرفيق دانيال إيماجيان وهناك ينظّم التوزيع . وهكذا بدأ صدور «نضال الشعب» ذات طباعة مزخرفة وأحياناً ملوّنة. أما الفضل في زخرفة الجريدة فكان للرفيق نقولا شاوي.

استمرت «نضال الشعب» في الصدور حتى عام 1937، إلى أن أصدر الحزب جريدة أسبوعية علنية هي «صوت الشعب» في 15 أيار 1937. وكانت تصدر عن المطبعة أيضاً، بالإضافة إلى الجريدة، كراريس ومنشورات أخرى للحزب من عربية وأرمنية. استمر صدور «صوت الشعب» حتى بعد أن صدر قرار بتعطيلها في أواخر أيلول عام 1939 بالرغم من الظروف الصعبة والسرية التي عاناها الحزب.

جريدة «نداء النضال» الأرمنية «مارداغوتش»

في الشهر عينه صدرت على الروتاتور جريدة اللجنة المركزية باللغة

---

(1) هي منطقة الروشة الحالية.

الأرمنية "مارداغوتش" أو «نداء النضال» وكنت رئيس تحريرها. في العدد الأول خُصص مكان بارز لجريمة دمشق وتظاهرة النهر الاحتجاجية الشعبية واعتقال الرفيق سيسال تيلاليان وآخرين وحول محاكمتهم. وقد صدر من جريدة «مارداغوتش» أربعة أعداد.

طلاب جدد إلى جامعة شيوعيي الشرق

بهاجس زيادة كوادر الحزب المثقفة، أرسلنا للدراسة عام 1934 في «الجامعة الشيوعية لشعوب الشرق» في موسكو الرفاق: عامل المطبعة خليل الحلو، وعاملاً سابقاً في المرفأ اسمه عزيز وقد اتخذ لنفسه اسماً سرياً في الجامعة هو «لونوار»، وعامل الجلد هاكوب بربريان من بيروت والعامل طه سقاف، وأحد الطلاب من دمشق. بقي طه سقاف فترة الحرب في موسكو وعمل كمذيع باللغة العربية في إذاعة موسكو، ثم عاد موقتاً أواخر عام 1945 إلى دمشق، وأعلن رغبته في لقائي للتعبير عن استيائه من تصرف خالد بكداش فلم أفسح له في المجال، واقترحت عليه لقاء خالد بكداش، فرفض.

مؤتمر لتطوير الحركة النقابية

سعياً إلى تطوير النضال العمالي والحركة النقابية، انعقد خلال شهر أيار 1934 مؤتمر عمالي في منزل أهل عامل الطباعة الرفيق رامز دميانوس، بحضور حوالى خمسين مندوباً نقابياً وعاملاً يمثلون النقابات التالية: نقابة الطباعة، النجارين، الميكانيك، الحلاقين، وباعة الكاز. في ذلك الوقت كانت التنظيمات النقابية محدودة حيث إن السلطة لم تكن تعطي تراخيص لتأسيس النقابات. وقد شكّل النضال من أجل تطوير العمل النقابي إحدى مهمّات الحزب الرئيسية، كتنظيم نقابات في مراكز التجمعات العمالية، وإيجاد صلة مع العمال في مختلف القطاعات وتوعية العمال وتطوير الوعي الطبقي لديهم...

استفدنا في مراحل عملنا من الأفكار والتوجيهات الواردة في كتاب لينين «ما العمل». وقد شارك أيضاً في المؤتمر عمال معظمهم من التجمعات العمالية، مثل الترامواي، شركة الكهرباء، عمال نجارة الموبيليا من السيوفي، وعمال الأحذية، عمال البناء وعمال المرفأ والمستخدمين في الصيدليات... وكان كل عامل مفوضاً من قِبل العمال في القطاع الذي يعمل فيه بواسطة عريضة موقعة من عشرات العمال.

بحث المؤتمر الوضع العمالي، وظروف العمل والأجور ومراحل تطوير الحركة النقابية بغية دفع المطالب والنضالات العمالية ثم وضع أهدافاً نضالية أساسية: 8 ساعات عمل، زيادة الأجور، حرية التنظيم النقابي، تحسين ظروف العمل، والدفاع عن حقوق العمال في حوادث العمل وحالات المرض والصرف الكيفي، ومساعدة العمال المصروفين ووضع قانون ضمان اجتماعي للعمال.

انتخب المؤتمر هيئة قيادية لملاحقة تنفيذ المقررات من الأشخاص التالية أسماؤهم: سعد الدين مومنة، حنا الزرقا، توفيق جمال، توفيق حداد، رامز دميانوس، أرتين مادويان، وآخرون...

وفي الإطار نفسه كان قد عقد مؤتمر عمالي في دمشق.

عقدت الهيئة العليا المنتخبة في لبنان وسوريا اجتماعاً مشتركاً في منزل الرفيق توفيق جمال، وانتخب المجتمعون قيادة للعمل المشترك.

اللجنة المركزية... ومندوبون إلى الكومنترن

في أوائل حزيران عام 1934 عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً موسعاً في بيروت في ظروف سرية، بمشاركة من تبقى من أعضائها والكوادر الأساسية للحزب في المناطق. شارك في هذا الاجتماع الرفيق نقولا شاوي، وتناول البحث الوضع السياسي والأعمال التي قام بها الحزب والوضع التنظيمي والمهمات المطروحة. وتقرر استمرار سياسة اللجنة

المركزية في مختلف القطاعات على الصعد السياسية والتنظيمية وفي العمل النقابي وبين العمال. الاجتماع الموسع للجنة المركزية عقد في إطار التحضير للمشاركة في المؤتمر السابع للكومنترن.

بعد هذا الاجتماع الموسع مباشرة انعقد اجتماع اللجنة المركزية فشارك فيه الرفيقان سليم خياطة ونقولا شاوي، وانتخب الاجتماع مندوبين للمشاركة في المؤتمر السابع للكومنترن باسم الحزب الشيوعي اللبناني السوري، وهم الرفاق خالد بكداش وأبو داوود (الموجودان في موسكو) وأرتين مادويان.

إلى ميسلون.. نحن الشيوعيين ورثة الثورة العربية

24 تموز عام 1920 هو يوم تدخل جيش المستعمر الفرنسي لاحتلال سوريا الدولة المستقلة الوطنية الفتية. لقد خاضت سوريا، بقواتها المسلحة معركة بطولية ضد القوات الغازية، واستشهد البطل الوطني التحرري وزير الدفاع يوسف العظمة على أرض المعركة التي دارت رحاها في ميسلون على بعد 25 كيلومتراً غربي دمشق.

وشيّد في ذلك المكان ضريح ليوسف العظمة الذي سمي، بحق، بطل النضال الوطني وشهيد النضال من أجل الاستقلال في مقارعة الامبريالية. وتحول ضريحه إلى رمز للنضال تزوره قيادات الكتلة الوطنية وسائر الوطنيين في الرابع والعشرين من تموز من كل سنة تعبيراً عن احترامهم وإحياء للذكرى.

هذا اليوم الوطني للمناضلين يحفّزنا على القيام بواجبنا الثوري في إحياء تراث وطني راسخ في معمعان معركة الاستقلال وطرد الجيوش الغازية، وإسهاماً في هذه المهمة وتعزيزاً لأرضيّة التعاون بين حزبنا وسائر قوى حركة التحرر العربية وصولاً إلى جبهة وطنية موحّدة قرّر الحزب للمرة الأولى، ووسط إجراءات استثنائية، الاحتفال بيوم ميسلون في العام 1934.

وصدر بهذه المناسبة بيان باسم لجنة الحزب المركزية تكلم عن المعركة البطولية في ميسلون ضد القوات الفرنسية الغازية والراغبة في استعباد الشعب ونهب خيرات البلاد. للمرة الأولى في تاريخ الحزب أعلن في البيان: «نحن الشيوعيين العرب نعتبر أنفسنا ورثة الثورة الوطنية العربية وعلينا المتابعة بطرق وأساليب مستحدثة».

أعتقد أن كشف الحقيقة التاريخية عن موقفنا من الثورة العربية التحررية وما اتخذه الحزب من مبادرات في هذا المضمار ليس منافياً للتواضع. وهذه الأفكار اقترحتها في دمشق أثناء تحضير البيان. وختم البيان بنداء إلى جميع القوى الثورية لرصّ الصفوف في النضال من أجل الاستقلال الوطني، ومن أجل التحرير والنضال ضد الامبريالية.

في 24 تموز انطلق رفاقنا من بيروت إلى دمشق، وانضم إليهم في الطريق الرفاق والأصدقاء، وأصبحت القافلة مؤلفة من خمسة أوتوبيسات كبيرة. بعد دورة حول دمشق اتجه الموكب إلى ميسلون ووضع أكاليل على ضريح يوسف العظمة. وألقى الرفيق فؤاد قازان كلمة ثورية وحماسية، كما ألقى الرفيق مصطفى العريس كلمة أيضاً إلّا أنه ما أن انتهى الاحتفال حتى حضرت قوات أمنية من دمشق بالإضافة إلى القوى المحلية من الدرك واعتقلت، بعد صدام دام، مصطفى العريس ونقلته إلى دمشق.

عاد رفاقنا، بقيادة فؤاد قازان، إلى دمشق وتظاهروا أمام مركز الدرك احتجاجاً على اعتقال مصطفى العريس، ممّا أدى إلى اعتقال فؤاد قازان أيضاً. وجرت المحاكمة في دمشق أمام محكمة مختلطة برئاسة قضاة فرنسيين وحكم على الرفاق بالسجن سنة. كان محاميي الدفاع عدنان الأتاسي وعز الدين المأمون. استأنف الرفاق الحكم على أساس إعادة المحاكمة وحضور المحامي الشيوعي الفرنسي أنطوان الحاج للدفاع عنهم.

وصل أنطوان الحاج إلى بيروت، لكن لم يُسمح له بالانتقال إلى

سوريا، كما لم يُسمح له بالبقاء طويلاً في بيروت إذ أُبعد بأمر من المفوّض السامي الفرنسي. وسوف نتكلم على هذا الموضوع بالتفصيل لاحقاً. في هذه الأجواء جرت محاكمة الرفيقين في حلب حيث نقلا إلى هناك، فحكمت المحكمة عليهما بالسجن سنتين بدلاً من سنة واحدة! وكان محامي الدفاع هو الحقوقي والمناصر لحركة التحرير الوطني الأستاذ إدمون رباط.

تصرف رفاقنا في دمشق وحلب، خلال المحاكمة، تصرف الشيوعي الثوري. كان موقفهم صلباً. دافعوا بعناد عن حزبهم وعن انتمائهم الشيوعي، وعن حقّهم بخوض النضال من أجل الاستقلال الوطني ومن أجل الحرية، وضد سلطات الانتداب.

في تلك الفترة كان في سجون حلب قادة الكتلة الوطنية، سعد الله الجابري وفؤاد إبراهيم باشا وغيرهما، حيث ينفّذون حكماً بالسجن لمدة ثمانية أشهر وستة أشهر، صادراً بحقهم من جانب المحكمة المختلطة.

عندما علموا بوجود مصطفى العريس وفؤاد قازان في السجن وسمعوا بموقفهما السياسي الصلب المناهض للاستعمار والمعلن بجرأة أمام المحكمة، اتخذوا الإجراءات الضرورية مع إدارة السجن بإحضار الطعام الجيد للرفيقين قازان والعريس، اللذين نقلا فيما بعد إلى حمص ودرعا. خاض الرفيقان النضالات في السجون من أجل تحسين الوضع الحياتي للمساجين واصطدما مع إدارة السجون، باستثناء سجن حلب. واهتما أيضاً بتعليم اللغة العربية للسجناء وإعطائهم الدروس بذلك.

وقد أورد الرفيق مصطفى العريس في مذكراته تفاصيل وافية حول هذه القضايا.

كانت مسيرتنا إلى ميسلون قد تركت أثراً سياسياً حسناً لدى أوساط واسعة من الوطنيين ولدى الرأي العام، كما كان لمحاكمة رفاقنا وموقفهم الصلب صدى واسع. ويجب أن نشير إلى أن الرفيق نقولا شاوي كان قائد ومنظم مسيرة ميسلون من بيروت.

إلى موسكو.. وقصة مع الهنشاك

في 5 تموز عام 1934 توجهت إلى موسكو باسم مستعار من دمشق للاشتراك في المؤتمر السابع للكومنترن. قطعت الحدود السورية عبر جسر بنات يعقوب إلى فلسطين. وصلت إلى صفد وانتقلت بسيارة إلى حيفا حيث كانت الباخرة «شامبوليون» واصلة حديثاً من بيروت، وكنت قد حصلت على بطاقة سفر بيروت ـ مرسيليا قبل انطلاقي.

بعد أسبوع من السفر وصلت إلى مرسيليا عبر الإسكندرية. وضعت حقيبتي في المكان المخصص لحفظ الحوائج في المحطة، لأنني سأتوجه من هناك إلى باريس. ثم اتصلت برفاقنا الأرمن في مرسيليا، وتحديداً برفيق عامل أحذية نسيت اسمه مع الأسف، أبقاني على الغداء في منزله، واطلعت منه خلال الحديث على وضع رفاقنا الحزبيين وأحوال الأرمن في مرسيليا. في اليوم نفسه كان ينعقد الاجتماع العام لمندوبي حزب الهنشاك، فانتدب الاجتماع يغيا سيروارت كموفد إلى الكومنترن لإجراء محادثات حول علاقة الأممية الشيوعية وحزب الهنشاك. سافر سيروارت إلى موسكو وعقد اتفاقية باسم حزب الهنشاك مع الكومنترن، باعتباره حزباً صديقاً. جاء في الاتفاق أن جميع فروع حزب الهنشاك في الاغتراب سوف تحتفظ بعلاقة خاصة في أماكن وجودها مع الأحزاب الشيوعية. ولم يلتزم حزب الهنشاك بهذا البند الأخير. وقد التقيت أنترانيك كنجيان وهو من المندوبين إلى الاجتماع العام، وسبق أن جمعتني صداقة به في بيروت، حيث كان يشجّع خطواتنا الأولى إبان انطلاقة حركتنا. والملاحظ أن أنترانيك كنجيان انسحب من اجتماع المندوبين في أواخر الجلسة احتجاجاً على موقفهم من صاحب ومدير تحرير «نور يركير» حيث كان موقفاً متصالحاً وسموحاً رغم الاتهامات السياسية المثبتة ضده، وقد اتهم كنجيان صاحب الجريدة ومديرها بأنه زود الدرك بوثائق سرية، ولديه الإثبات على ذلك، وهي وثائق تضر

بكانجيان شخصياً. وفي يوم الاجتماع بالذات نشرت جريدة «نور يركير» مقالات معادية للاتحاد السوڤياتي.

على أن هذا المتهم، شأنه شأن كريكور يفيكيان، الإيراني الجنسية ومن الهنشاك القدماء، ما لبث أن طرد من حزب الهنشاك في المؤتمر العاشر بتهمة التجسس لمصلحة بريطانيا وشاه إيران.

.. في باريس مع البطل المقاوم مانوشيان؟

في الليلة نفسها غادرت مرسيليا باتجاه باريس فوصلت صباحاً وذهبت إلى العنوان المحدّد فلم أجد أحداً، ربما بسبب خطأ ما، أو لأن المعنيين غادروا المكان. توجهت إلى مركز النجدة الحمراء في شارع «ماتيرن مورو»، وهناك ساعدتني إحدى الرفيقات على الاتصال مع الحزب. فرتبت إقامتي في أحد الفنادق، في شارع دانفير روشرو. مكثت في باريس عشرة أيام. خلال هذه الفترة التقيت للمرة الأولى في محل للخياطة الرفيق كوركين طاهمازيان، وهو أول شيوعي فرنسي أرمني، ومؤسس ورئيس تحرير أول جريدة شيوعية أرمنية في فرنسا باسم «عامل باريس»، وأحد مؤسسي جمعية مساعدة أرمينيا. ولقد توفّي هذا العالِم القانوني خلال الحرب العالمية الثانية.

زرت مركز جمعية مساعدة أرمينيا والتقيت رئيس الجمعية الدكتور هايك ڤالجيان، وتعرفت إلى الأديب الشهير أڤاديك اسحاقيان الذي كان في تلك الأيام في باريس، وسألته هل انتهى من تأليف كتاب «عودة أسطا غارو». وعبرت له عن إعجابي وحبي لأدبه منذ أيام الدراسة. وقد أمّن طاهمازيان لي رفيقاً شاباً لمرافقتي كدليل إلى الأماكن السياحية المهمة، وهو شاب كان يوجد عادةً في مركز جمعية مساعدة أرمينيا. كان دقيقاً في مواعيده، لطيف المعشر، ولكن وضعه المالي كان سيئاً. أصبحنا أصدقاء، وفي وقت متأخر من الليل كنا نذهب إلى غرفته الفقيرة

على سطح البناية. فكنا نرقد في السرير نفسه، شرط أن أرحل باكراً قبل أن يراني صاحب المُلك.

يؤسفني أنني لا أذكر اسم ذلك الشاب الشجاع. لكن محيّاه ومسلكه، حسبما سمعتُ واطلعتُ لاحقاً، يلحّان عليّ بسؤال لا يفارقني: هل تراه يكون هو الشهيد البطل ميساك مانوشيان؟

لقد شاءت الصدف أن التقي أخيراً، في باريس، زوجة ميساك مانوشيان ورفيقته في مضمار مقاومة المحتل الهتلري، البطلة الباسلة ميلينا مانوشيان. وعندما عرضتُ عليها الملامح التي تعيش في ذاكرتي فما كان منها إلّا أن استنتجت بأن اعتقادي في محله. إنه الشهيد ميساك نفسه.

نعود إلى العام 1934. منتصف تموز. دعاني أنترانيك كنجيان إلى الغداء في منزله في «إيسي لو مولينو»، ثم رافقني نجله ومكمّل رسالته بادريك كنجيان الذي كان في أول عهده في حركتنا، في جولة على الأماكن السياحية بالمدينة.

سافرت من باريس إلى بروكسيل، ومن هناك إلى أنفرس وبقيت هناك أسبوعاً في منزل رفيق من أنفرس، وانتقلت إلى لينينغراد حيث استقبلني أحد الرفاق في المرفأ، في صباح ذلك اليوم، وتوجهت وإيّاه إلى أوتيل أوروبا.

عصر اليوم نفسه سافرت في القطار إلى موسكو فوصلت في 13 أيلول. استقبلني في المحطة رفيق يتكلم العربية فذهبنا إلى شارع نفرسكايا، رقم 13 حيث التقينا هناك خالد بكداش وذهبنا معاً إلى المركز الرئيسي للكومنترن. كان في استقبالنا الرفيق مسؤول البحرية سابقاً كاديلنكوف الذي كان مسؤولاً عن تثقيف كوادر الأحزاب الشيوعية العربية. وقد علمت أن مؤتمر الكومنترن قد أرجئ إلى أجل غير مسمّى، فعاد الرفيقان أبو داوود وفرج الله الحلو إلى لبنان.

مكثنا عدة أيام في بيت الراحة التابع للعاملين في الكومنترن، الكائن

في منطقة حُرْجِيّة على بعد 30كلم تقريباً من موسكو. كانت مناسبة سعيدة لأنني تعرفت هناك إلى الرفيق جورجي دميتروف، الذي كان قد وصل حديثاً إلى موسكو بعد انتصاره الرائع في محاكمة لايبزغ حيث أطلق سراحه من السجن الهتلري، فجاء للاستجمام في القصر الكبير. وفي المكان نفسه تعرفت إلى أحد قادة الحزب الشيوعي الألماني وأول رئيس جمهورية لألمانيا الديموقراطية الرفيق وليم بيك، مع ابنه، وقد كان يسكن في شقة مستقلة. كذلك كان يمضي فترة للراحة هناك أحد قادة الحزب الشيوعي اليوناني، وأحد الرفاق المسؤولين في المكسيك، والرفيق ون مين أحد قادة الحزب الشيوعي الصيني. ثم انتقلت إلى موسكو والتقيت في مبنى الكومنترن، أنا والرفيق خالد بكداش الرفيق ديمتري منوالسكي الذي أمر في نهاية الاجتماع بإعطائي معطفاً لحمايتي من البرد. في تلك الفترة كان الرفيق خالد بكداش طالباً في جامعة شيوعيي الشرق، وقد أتاحت لي إدارة الجامعة في موسكو البقاء هناك وحضور المحاضرات في الجامعة إلى حين انعقاد مؤتمر الكومنترن. سكنت في شارع فرسكويا في شقة للرفاق الطلاب من لبنان وسوريا. كان مسؤول هذا القسم رفيقاً أصله من مدينة ڤان، هو قره بت كلجيان. يلم باللغة العربية؛ رفيق هادئ ولطيف، يتحلّى بالصبر، يتفانى في خدمة الطلاب والاهتمام بشؤونهم؛ ويتميز إلى ذلك بسعة اطلاعه وبوعيه السياسي والإيديولوجي والتاريخي وإتقانه معرفة التاريخ وجميع القضايا الحزبية، وكان يتمتع باحترام الطلاب جميعاً. وقد استشهد في العام 1941 في معارك الدفاع عن موسكو.

محاضرتي أمام الرفيق ميف

وعقد لقاء ترأسه المسؤول السياسي للعلاقة مع الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية الرفيق ميف وحضره كوادر هذا القسم، حيث ألقيت

محاضرة عن الوضع السياسي في لبنان وسوريا ووضع الحزب وحول مواضيع أخرى. حضر الاجتماع الرفيق خالد بكداش وترجم كلمتي إلى اللغة الروسية. كان الرفيق ميف أيضاً مسؤول العلاقات مع الصينيين ونشر كتيباً حول هذا الموضوع.

7 تشرين الثاني ولقاء كوسينين

بمناسبة ذكرى ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى يوم 7 تشرين الثاني كتبت مقالاً في جريدة الحائط المخصصة للرفاق العاملين في مركز الكومنترن، وذلك باللغتين الروسية والفرنسية. أشرتُ في المقال إلى تأثير ثورة أكتوبر في سير تطور حركة التحرر العربية وانخراط الأحزاب الشيوعية العربية في هذه الحركة. وفي المناسبة نفسها حضرت العرض الاحتفالي في الساحة الحمراء قرب ضريح لينين إلى جانب المدعوين.الرفيق خالد بكداش وأنا عقدنا لقاء خاصاً مع قائد ومؤسس الحزب الشيوعي الفنلندي الرفيق كوسينين، الذي عمل إلى جانب لينين وكان عضو اللجنة التنفيذية للكومنترن؛ له معرفة وإلمام واسعان بالقضايا القومية ولديه مبادرات عديدة في هذا المجال، وهو قد أعطانا توجيهات ثمينة حول المسائل القومية. وكان يعيش في الاتحاد السوڤياتي باسم جاك بيار.

في تلك المرحلة كنت أوقع المراسلات التي أبعث بها من بيروت إلى الكومنترن باسم «حمزة»، وأستعمل في لبنان اسم «أزاد».

خالد بكداش ممثل البلدان العربية لدى الكومنترن

كان لا بدَّ من تعيين ممثل دائم للأحزاب الشيوعية العربية في الكومنترن. الموضوع بحث عدة مرات، في مقر الأممية الشيوعية وعندنا. وقد طرح أيضاً في فترة وجودي بموسكو. وافق الكومنترن وطلب تقديم

مرشح لهذا المنصب فكان مرشحي خالد بكداش، لأنه موجود في موسكو وكنت مقتنعاً بأنه أفضل مرشح لهذا المنصب. اقترح خالد بكداش ترشيح أبو داوود لكنني أصررت على اقتراحي. وباسم حزبنا تقدمت بطلب خطي مقترحاً ترشيح بكداش. دعيت مع هذا الأخير إلى حضور اجتماع اللجنة التنفيذية للكومنترن بحضور الرفاق دمتري مانولسكي ـ بياطنتسكي ـ كوسينين ـ وليم بيك ـ جوتوالد ـ أركولي ـ تولياتّي ـ ممثل الحزب الشيوعي الصيني ون مين (بقي أميناً لمبادئ الماركسية اللينينة والأممية البروليتارية وصديقاً دائماً للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، وبهذه الروحية كتب انتقاداً شديداً لنهج ماوتسي تونغ). دافعت عن اقتراحي، وأصرّ خالد بكداش على اقتراحه. تدخل مانولسكي إلى جانب اقتراحي وتمت الموافقة عليه بإجماع الحضور.

وهكذا عُيِّن خالد بكداش ممثلاً للأحزاب الشيوعية العربية لدى الأممية الشيوعية.

وكان الاسم المستعار لخالد بكداش لدى الكومنترن وفي الاتحاد السوفياتي هو «رمزي».

فكرة اتحاد الأحزاب الشيوعية العربية

وسط ظروف صعبة لدى قيادة حزبنا وكذلك لدى بعض القيادات في الحزب الشيوعي الفلسطيني، كانت تطرح فكرة إقامة «اتحاد الأحزاب الشيوعية العربية». ووفقاً لهذه الفكرة كان ينبغي إيجاد قيادة مركزية لهذا الاتحاد على أساس ممثلين للأحزاب. وقد طُرحت هذه الأفكار في الكومنترن أثناء فترة وجودي هناك. الكومنترن رأى أن هذا الاقتراح غير عملي، واعتبره أيضاً اقتراحاً محفوفاً بالخطر على أمن الأحزاب الشيوعية المشاركة في هذا الاتحاد، إذ إنهم موجودون في دول يسيطر عليها الاستعمار، وأجهزة مخابرات الامبريالية منتشرة وتعمل بنشاط وبإمكان

عملائها اختراق صفوف الأحزاب الشيوعية وخصوصاً في بعض بلداننا. وفي الحقيقة ثبتت صحة وجهة نظر الكومنترن حيث إنها مرتكزة على تجارب غنية.

محاضرة موريس توريز: نقاش صاخب ومثمر

خلال تشرين الثاني (لم أتذكر اليوم بالتحديد) عقد في مركز الكومنترن اجتماع عام للاستماع إلى محاضرة يلقيها الرفيق موريس توريز. كان عنوان المحاضرة تشكيل جبهة موحَّدة بين الحزبين الشيوعي والاشتراكي في فرنسا، وانضمام الأحزاب اليسارية الأخرى على قاعدة عمالية ونقابية. دار البحث حول الجبهة الموحدة المستندة إلى الشيوعيين والاشتراكيين وقيام جبهة شعبية في فرنسا كمهمة أمام الحزب الشيوعي الفرنسي. وأوضح موريس توريز حقيقة المحاولة الانقلابية الفاشية في 6 شباط 1934 في باريس التي حاولت قلب النظام وفشلت بمبادرة من الحزب الشيوعي، حيث هبّ في ذلك اليوم خمسون ألف عامل وخاضوا معارك بطولية ضد هذه المحاولة. وقد شارك العمال الاشتراكيون في المعارك إلى جانب الشيوعيين ثم تبلورت الحركة وتصاعدت، ونفّذ إضراب عمالي عام بقرار من النقابات، فاضطرت القوى الفاشية للتراجع. إن النضال ضد الخطر الفاشي قد جمع الشيوعيين والعمال الاشتراكيين في جبهة واحدة في ساحة المعركة، وخلق أرضية لإنشاء جبهة موحدة مكرسة رسمياً، بينما كانت قيادة الحزب الاشتراكي تتهرب من هذا الموضوع قبل السادس من شباط.

أكمل موريس توريز محاضرته مؤكداً أن المحاولة الانقلابية الفاشية في 6 شباط كانت موجهة لقلب النظام في الجمهورية وإبداله بنظام دكتاتوري فاشي. وهذا الانقلاب لم يكن ضد الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي فقط، بل كان موجهاً ضد سائر القوى الاشتراكية

والديموقراطية أيضاً. هذا الحدث خلف جواً إيجابياً وأوجد ظروفاً ملائمة لتشكيل جبهة شعبية بمشاركة الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي والمخلصين للنظام الجمهوري والديموقراطي والمعادين للهجمة الفاشية .

استنتج موريس توريز أن الحزب الشيوعي الفرنسي يعتبر أن مهمته الرئيسية والأساسية، وجوهر سياسته وأعماله يجب أن ينصبّا على تحقيق الجبهة الشعبية. وأضاف أن الحزب الشيوعي الفرنسي يعتبر أن تشكيل مثل هذه الجبهة سوف يساعد على تطوير الحياة الديموقراطية، وعلى تحقيق مكاسب عادلة للعمال، وسوف يكون له أيضاً تأثير على النطاق العالمي إلى جانب دوره الكبير في الدفاع عن الحريات الديموقراطية ومقاومة الفاشية، وقد أثبت التطور اللاحق للأحداث صحة آراء الحزب الشيوعي الفرنسي وموقف أمينه العام موريس توريز.

يومئذ حضر الندوة بيلاكون أحد قادة الحزب الشيوعي المجري، ولم يكن متحمساً للمواقف السياسية التي طرحها توريز، ووقف إلى جانب بيلاكون السكرتير العام للشباب الشيوعي «كومسومول» تشامادانوف.

لكن الأمين العام للكومنترن مانوليسكي انتقد بشدة موقف بيلاكون وتشامادانوف، وقال: «يا رفيق توريز، سياستكم صحيحة، أكمل حديثك دون إعطاء أهمية للانتقادات السلبية».

هذا الاجتماع الشهير حضرته مع خالد بكداش.

إلى يريڤان ولقائي أغاشي خانجيان

كانت الحرارة تقارب الأربعين تحت الصفر في مدينة موسكو عندما غادرناها بالقطار في 5 كانون الثاني عام 1935 في رحلة تعارف قمنا بها إلى باكو، ومن ثمّ إلى أرمينيا السوڤياتية. كنا مجموعة من الطلاب اللبنانيين والسوريين بصحبة الرفيق قره بت كلجيان.

استغرقت رحلتنا للوصول إلى باكو ثلاثة أيام ومكثنا فيها عشرة أيام

حيث استقبلنا وزير الثقافة وحضرنا جلسة مجلس السوفيات الأعلى في أذربيجان وشاهدنا عروضاً مسرحية أذربيجانية وأرمنية، وحضرنا حفلة غنائية أذربيجانية كان خلالها قائد الفرقة الموسيقية أرمنياً، كما زرنا متحف الثورة وتوجهنا إلى آبار البترول وجلسنا مع العمال الشباب. وكذلك زرنا نادي استيبان شاهوميان الثقافي والرياضي الكبير التابع لعمال آبار البترول. وزرنا داراً للنشر بإدارة مواطن من أصل ألباني وتعرفت، إلى الشقيق الأكبر لهاكوب أجاميان من بيروت وكان مسؤول القسم الأرمني للنشر، وقمنا بجولة عبر الأماكن السياحية في باكو.

ثم انتقل فريق الطلبة بالقطار عبر تفليس إلي يريفان وبقينا هناك عشرة أيام، زرنا في خلالها متحف الثورة ومعمل الكاوتشوك الذي كان قيد الإنشاء، ومعامل الكونياك والصابون والدخان، والأماكن السياحية التي كانت محدودة في ذلك الوقت. وقمنا بزيارة رئيس القضاء الأعلى للجمهورية الرفيق باديك طوروسيان، وكنت على معرفة سابقة به في اسطنبول. وقد أتاح لنا حضور جلسة محاكمة وزيارة السجن. تحدثنا بحرية مع السجناء واستمعنا إلى شكواهم. هناك مكتبة تحت تصرف السجناء وقاعة كبيرة للمسرح، وكان السجناء يحضّرون ويتولّون إعداد مسرحيات بأنفسهم.

أخبرنا باديك طوروسيان أن لصاً خطيراً كان بين السجناء باسم «وازو». ونتيجة الاهتمام الخاص به تحوّل إلى متعاون مع سلطات الأمن، وبمساعدته تمّ القضاء على عمليات اللصوص المنظمة في يريڤان.

وفي ضواحي يريفان زرنا ورشة إعمار حيث كان سد كاناكير قيد الإنشاء، وأيضاً سدّ تسوراكيس ومعمل الكيمياء في كيروفاكان وبيت الراحة فيها وزرنا مناجم النحاس في بلدة «الله ڤرديه»، وصنوبرة أوهانس تومانيان الشهيرة، والكنيسة الأم اتشميازين ومتحفها، وأحد الكلخوزات. كانت مجموعتنا تبيت في بيت الفلاحين بالقرب من الجريدة اليومية «أرمينيا السوڤياتية» حيث كان آنذاك مبنى التحرير على مقربة منّا.

وبمساعدة الرفيق قره بت كلجيان تعرفت إلى الأدباء والشعراء كوركين مهرّي، كيورك أيوف و أزد ويشتوني.

رجعت الفرقة إلى موسكو وبقيت أنا في يريڤان باقتراح من إيلين ستاسوڤا رئيسة جمعية السجناء الملاحقين السياسيين العالمية (موبر) وهي من البلاشفة القدماء وكانت مساعدة للينين، لأكون ممثل لبنان وسوريا ضمن وفد «موبر» العالمي للاحتفال بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس الجمعية في أرمينيا السوڤياتية. شارك في الوفد المناضل الشيوعي الإيطالي الكاتب جرما نيتو، ومن إسبانيا لاغيرا الذي شارك في الحرب الأهلية في أسبانيا عام 1936 كمفوض سياسي للميليشيات الثورية. كما شارك أيضاً في الوفد ممثل من ألمانيا ومن النمسا. افتتح الاحتفال في 1 شباط في قاعة المسرح، الحديثة البناء، قبالة سينما موسكوڤا. شاركت أنا في الافتتاح وألقيت كلمة باسم مستعار «بيار» استغرقت حوالى عشر دقائق. في الليلة نفسها أقيم عرض أوبرا أرشاك الثاني حيث تحدث جرما نيتو فأثنى على هذا العمل القيّم.

كان رئيس «موبر» في أرمينيا السوڤياتية الرفيق ييغور الذي شارك في أوائل عام 1921 في الحرب الأهلية ضد المناشفة من أجل إعادة منطقة لوري إلى أرمينيا، واشترك في المعارك إلى أن تمّ دحر سلطة المناشفة في تفليس. كان الرفيق ماكار كببجيان أمين عام جمعية السجناء السياسيين وكنت على معرفة قديمة به من كيليكيا وإزمير قبل احتلالهما على يد القوات الكمالية. والرفيق كببجيان عامل عاد مع المتطوعين الأرمن من أميركا للدفاع عن كيليكيا، نفته السلطات الفرنسية إلى إزمير، وهناك قام مع التقدميين الهنشاك بتأسيس الفرقة الشيوعية. وإبان احتلال الكماليين لإزمير وقع أسيراً في قبضتهم. تعرض لشتّى أنواع التعذيب. ثم حرّر مع سجناء آخرين وأقام في اليونان ومن هناك انتقل إلى أرمينيا السوڤياتية. الرفيق كببجيان متميّز بإلقاء الخطب وثوري متفان وكان يراسلني من يريڤان.

اتصلت هاتفياً بالرفيق أغاشي خانجيان السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا السوڤياتية الذي كان يستعد للمغادرة إلى موسكو للاشتراك في جلسة مجلس السوڤيات الأعلى. طلب مني البقاء في يريڤان إلى حين عودته .

عاد وفد اللجنة العالمية للدفاع عن المساجين السياسيين (موبر) إلى موسكو، وبقيت في يريڤان حوالى الشهر فانتقلت من بيت الفلاحين إلى فندق حديث اسمه «يريڤان» قبالة سينما موسكوڤا. التقيت في تلك الأيام رئيس اللجنة المركزية لجمعية مساعدة أرمينيا الرفيق كريكور فارطانيان، وتحدثنا عن وضع الجمعية ومواضيع أخرى ولا سيما وضع المغتربين الأرمن، خصوصاً في لبنان وسوريا وبحثنا سبل تطوير العلاقات بين الأرمن في المهجر وفي الوطن الأم وقد جرى اللقاء في جو ودي.

وبمساعدة كريكور فارطانيان زرت قرية سوڤياتاشن والتقيت غافروش حيث كان عائداً إلى الوطن من اليونان، وكان عامل طباعة في أضنه في جريدة صادرة هناك باسم «دافروس».

التقيت مدير دار النشر الحكومية إدوار شوبوريان وكنت أعرفه من اسطنبول، وحضرت اجتماعاً للأدباء تحدثت فيه الأديبة الكبيرة زابل يسايان. كما حضرت لقاء للرسامين تكلّم فيه الفنان الكبير بانوس ترلمازيان، مقترحاً في كلمته إنقاذ المخطوطات الأثرية الأرمنية من بين غبار اتشميازين، وتأليف لجنة خاصة من قبل السلطة لاستلامها والمحافظة عليها، وكان بين الحاضرين في هذا اللقاء الرسام البارز كوتشويان.

إلى ذلك حضرت اجتماعاً عقدته لجنة مكافحة الملاريا..

خلال هذه الفترة عاد من موسكو الرفيق اغاشي خانجيان فاتصلت به تليفونياً وحدد لي موعداً، واستقبلني في مقر الحكومة الحالي في الطبقة الأولى حيث كان البناء غير ناجز بعد. كان هناك مقر اللجنة المركزية. استمع إليّ باهتمام. شرحت أنا وضع الأرمن في لبنان وسوريا والوضع

السياسي والتيارات السياسية والنضالات التي تخوضها وأعمال الطاشناك المعادية لأرمينيا، وواقع العلاقة مع أرمينيا السوفياتية والعوائق التي تضعها السلطات الفرنسية أمام هذه العلاقة. وقلت إن رغم هذه الموانع يجب جمع الأرمن حول أرمينيا بروح وطنية. شرحت أيضاً واقع الأرمن في بلدان أخرى معتمداً على معلوماتي الأكيدة. وكان الرفيق أغاشي خانجيان يعطي أهمية لتطوير وتعزيز العلاقات بين الأرمن المغتربين ووطنهم الأم.

جرى اللقاء في جو ودي وقد أهدى إلي نسخة من كتابه الصادر حديثاً وعليه إهداء بخط يده. أبقيت الكتاب في موسكو بسبب الظروف السرية التي كنا نعيشها في لبنان، ومع الأسف الشديد فإن الكتاب فقد في موسكو عام 1937.

وقد أمر الرفيق أغاشي خانجيان مسؤول مستودع دار نشر أرمينيا باستقبالي وإعطائي كل ما يلزمني من الكتب. زرت المستودع الكائن خلف المتحف التاريخي الحالي، واخترت مجموعة كبيرة من الكتب وطلبت من مسؤول المستودع إرسالها إلى بيروت وحدَّدت له العنوان. وقد استلمت أول دفعة من هذه الكتب وبينها كتاب كارل ماركس «رأس المال» الجزء الأول، المترجم إلى الأرمنية.

بعد مغادرتي مكتب الرفيق خانجيان التقيت الرفيق ليفيك أريسيان مسؤول الدعاية والتحريض في اللجنة المركزية للحزب وتناقشت معه.

استقللت القطار ووصلت إلى موسكو بعد أربعة أيام، تعرفت صدفة في القطار إلى مسافر من يريفان إلى تفليس هو س. سنار وكان قبل ذلك في أميركا، وأحد أقطاب الطاشناك سابقاً، بعد انتصار سلطة السوفيات في أرمينيا وبشكل خاص بعد مغامرة الطاشناك المعادية للثورة في شهر شباط، انسحب فريق من المثقفين مع مجموعة كبيرة من العمال من حزب الطاشناك، وكان بينهم أوهانس كازنجيان وقره بت سيدال وتشولوكيان، وأدانوا هذا العمل المعادي للثورة والوطن كما أدانوا

السياسة المعادية للاتحاد السوفياتي، وقد ألّفوا لفترة وجيزة «اتحاد العاملين» ثم اتحدوا في الحركة الشيوعية وهو قد عاد لاحقاً وبشكل نهائي إلى أرمينيا السوفياتية.

اعتقالات في دمشق

وصل إلى موسكور خبرٌ عن اعتقال كوادر الحزب في دمشق. كان ذلك بمثابة ضربة كبيرة لمنظمة الحزب هناك. وقد اتضح لاحقاً أن هذه الاعتقالات جرت بوشاية من الياس شاتيلا.

والياس المذكور كان عضواً في الحزب، درس في فرنسا، وتبيّن أنه لا يتحمل الحياة القاسية ولا معيشة السجون. كان يحب الكيف وقد لاحظ مسؤول الأمن الكوميسيير قره بت سلوك الياس فاستخدم نقاط ضعفه وسيطر عليه محوّلاً إياه إلى مخبر، وقد تعرف إليه مسؤول الأمن قره بت في عيادة طبيب أسنان من أنسبائه، لا شك أنه قد أسهم في تحضير ذلك اللقاء بينهما.

أنطوان الحاج في بيروت

في النصف الثاني من شهر آذار 1935، وصل إلى بيروت المحامي أنطوان الحاج مرسلاً من قبل «النجدة الحمراء» الفرنسية للدفاع عن الرفيقين فؤاد قازان ومصطفى العريس أمام محكمة الاستئناف، وعن الرفاق المعتقلين أخيراً في دمشق.

الرفيق أنطوان الحاج لبناني الأصل ويحمل الجنسية الفرنسية وهو عضو نشيط ومناضل ثابت في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، ومحامٍ قدير. وكان من الطبيعي أن يلتقي قيادة الحزب عند وصوله إلى بيروت وقد التقى أيضاً المحامي عزيز هاشم بطلب من هذا الأخير. كان عزيز هاشم رئيس حزب الاستقلال الجمهوري ومركزه قرب باب إدريس وفيه

قاعة كبيرة، وقد تحول هذا المركز لاحقاً إلى مقر لـ «جمعية شباب الأرمن». وبدعوة من عزيز هاشم ألقى أنطوان الحاج محاضرة في مركز حزب الاستقلال الجمهوري أمام حشد كبير، وانتقد سلطة الانتداب الفرنسي وحمل عليها بشدة، وبلور فكرة الاستقلال مطالباً بالحريات الديموقراطية للشعبين اللبناني والسوري. ولم يفكّر أنطوان الحاج في أخذ موافقة الحزب على هذا العمل. وهو قد قام بهذا قبل استلامه رسمياً توكيل المحاكمة فكان هذا خطأً سياسياً. والحزب الشيوعي الفرنسي شاطرنا هذا التقويم. واستغلت سلطات الانتداب هذا الخطأ السياسي فاستصدرت أمراً خاصاً قام بموجبه مفتش الأمن بإبعاد أنطوان الحاج عن لبنان عنوة قبل أن يتمكن من الدفاع عن رفاقنا السجناء.

يجب أن نأخذ في الاعتبار أن انتخاب مجلس النواب لم يكن قد جرى بعد، ولم تكن الجبهة الشعبية قد انتصرت في فرنسا، ولم تكن قد تشكلت حكومة الجبهة الشعبية بعد، لكن ينبغي التنويه بأن انطوان الحاج مناضل شيوعي متفان من أجل الحزب. وفي فترة الانتفاضة المسلحة في فرنسا أعدم رمياً بالرصاص من قبل السلطات النازية المجرمة نتيجة عمله المعادي للهتلرية ونشاطه الثوري.

وصودف أنني عدت من موسكو إلى بيروت قبل يوم واحد من إبعاد أنطوان الحاج عن لبنان.

قرار بعودتي... ومهمّتان

بعد فترة وجيزة من عودتي من يريڤان إلى موسكو، أبلغني أمين عام الكومنترن الرفيق ديمتري مانويلسكي ضرورة عودتي إلى لبنان لتنفيذ مهمتين، أولاهما تتعلق بتقوية الحركة النضالية المعادية للفاشية الإيطالية التي تستعد للهجوم على إثيوبيا، وذلك في لبنان وسوريا، وفي مصر ولا سيما عبر شريط مدن منطقة قناة السويس؛ أما الثانية فهي الاستعداد

للمشاركة في المؤتمر السابع للكومنترن وتحضير مندوبين عن الأحزاب الشيوعية في لبنان والعراق وفلسطين ومصر، ولم يكن تاريخ المؤتمر قد حُدِّدَ بعد! (أما المندوب السوري فكان موجوداً في موسكو وهو الرفيق خالد بكداش).

مغامرة السفر

بدأت الرحلة بعد يومين. وفي أعقاب ثلاثة أيام من السفر في القطار وصلت إلى نوفوروسيسك فاستُقبلت في المحطة. كنت أنوي السفر كمرحلة أولى في باخرة إيطالية كانت قد وصلت إلى المرفأ. وكان الرفيق الذي استقبلني مُجَهّزاً بطاقة السفر. وصلنا إلى الباخرة، وكان معي 240 روبلاً أعطيتها إلى الرفيق الذي استقبلني وطلبت منه تسليمها إلى جمعية السجناء السياسيين العالمية، أما جواز سفري فكان باسم مستعار غير أرمني، ومن بلد لا يحتاج مواطنوه لتأشيرة دخول إلى أراضي إيطاليا، لكن بعد صعودي إلى الباخرة طلب مني القبطان «فيزا» إيطاليّة. وقد أصررت مع الرفيق الذي أوصلني إلى الباخرة على أني لست بحاجة لتأشيرة دخول، وقد سافرت دون فيزا. بعد وصول الباخرة إلى مرفأ باطون أصرّ السفير الإيطالي هناك بناء على برقية استلمها من نوفوروسيسك على ضرورة استحصالي على فيزا لدخول إيطاليا. وافقت رغماً عني، إذ لم يكن أمامي خيار آخر، وذلك مع أن الأوضاع كانت تقضي بأن لا يكون على جواز سفري أية إشارة تدل على أني كنت في الاتحاد السوفياتي، لأن سفري كان يتم بشكل سري، وخصوصاً عند دخولي إلى الأراضي اللبنانية.

وصلت الباخرة إلى اسطنبول وصودف يوم عطلة رسمية في تركيا. حاولت الحصول على ڤيزا «ترانزيت» تركية كي لا أسافر إلى إيطاليا، فأتوجه من اسطنبول مباشرة إلى بيروت، فلم أوفق. كررت المحاولة في

مرفأ إزمير ثم في سيلانيك وقابلت السفير التركي أيضاً ولم أوفق. في نهاية المطاف وصلت السفينة إلى مرفأ برنديزي في إيطاليا. وبعد سفر طويل في القطار وصلت إلى ميلانو ونمت في فندق من الدرجة الثانية لعدة أيام لتأمين تأشيرة للمرور إلى بلدان البلقان وتركيا للسفر عبر هذه البلدان إلى بيروت، وكذلك لتأمين بطاقة سفر بالقطار. وأخيراً وصلت إلى الحدود السورية في محطة «ميدان أكبز»، وهي محطّة خاضعة للأمن الفرنسي برئاسة هاكوب صالجيان الذي كان يعرفني. وحسب العادة كان صالجيان يدقق في الجوازات. كنت في خطر ففكرت للحظة بأن أتلف جوازي وأن أحضر أمامه باسمي الحقيقي معلناً أن جوازي قد فقد. علمت مصادفة في تلك اللحظة أن مطران أبرشية الأرمن في حلب أردافاست سورموليان قد وصل في زيارة لتفقّد الرعايا الأرمن في محيط ميدان أكبز، وكان هاكوب صالجيان برفقة المطران ولم يكن في المحطة؛ وهكذا فقد زال عنّي الخطر. وقبل وصولي من ميدان أكبز إلى حلب تخلّصت من الجواز. ولكن، ما إن وصلت إلى محطة الكرنتينا في بيروت حتى حصل حادث غير منتظر.

كان من المفروض أن أنزل في هذه المحطة؛ ولكن كان على متن القطار شخصية رسمية يستقبلها مدير الأمن العام، بول بوشيت، مع عملائه وجميعهم يعرفونني. وكدت أقع في قبضتهم. غير أني «تلكأت» في القطار، حتى دخلوا صالة المحطة فخرجت مسرعاً دون المرور بالصالة إلى منزل والدي القريب من المحطة.

من أجل الدفاع عن إثيوبيا بوجه الهجوم الفاشي

بناءً على المهمة الموكل إليّ القيام بها والتي عدت من أجل تنفيذها إلى بيروت، قدمت تقريراً إلى اللجنة المركزية حيث شارك الرفيق نقولا شاوي في الاجتماع. تقرر القيام بعمل إعلاميّ واسع في الصحف وتنظيم

سهرات واجتماعات جماهيرية لبلورة حركة شعبية عامة واستنفار قدرات الحزب. كلف الرفيق شاوي بوضع هذه المقررات وتنفيذها لكونه السكرتير السياسي لمنظمة الحزب في بيروت. وتجدر الإشارة إلى أن الرفيق شاوي قام بالمهمة بنجاح. فخلال فترة قصيرة أشرف على تأليف هيئة للدفاع عن إثيوبيا إزاء الهجوم الفاشي المحتم، تحت اسم «هيئة النضال الشعبي للدفاع عن إثيوبيا» قوامها عدد من الوطنيين المقربين من الحزب، بينهم محمد رستم طبارة وعبد الرحمن العدو وغيرهما. هذه الهيئة نجحت في دورها السياسي والدعائي على صعيد بلورة حركة شعبية واسعة. أصدرت عدة بيانات وأحدثت صدى لدى الرأي العام المحلي. ونظمت لقاءات شعبية بمساعدة منظمتنا الحزبية.

كان الرفيق نقولا شاوي يهتم عن قرب بأعمال اللجنة. بالإضافة إلى ذلك، قامت الجريدة اليومية، «رابطة الشغيلة»، بحملة متواصلة في هذا الإطار. وبالمضمون نفسه، بادر الرفيق محمد علي فخرو، عامل المطبعة، إلى الخطابة مرتين بعد صلاة الجمعة في الجامع العمري الكبير في بيروت، فكان لكلامه ولهذه التظاهرة صدى واسع لدى المسلمين في لبنان وكذلك في المحيط العربي.

وكلّف الرفيق نقولا شاوي الذهاب إلى فلسطين والاتصال بالرفيق سليم خياطة للمشاركة في هذه الحملة، مع اقتراح بأن يذهب سليم إلى مصر ليقوم بالاتصالات اللازمة ويعمل لإيجاد حركة للدفاع عن إثيوبيا في وجه الهجوم الفاشي المحتوم في محيط قناة السويس. الرفيق سليم خياطة أعرب عن عدم استطاعته القيام بهذا العمل واقترح أن يشارك في الحملة السياسية بتأليف كتاب في أقرب وقت. وبالفعل، بدأ بالكتابة فوراً وأنشأ كتاباً بعنوان «الحبشة المظلومة». هذا الكتاب غنيّ بالأدلة وبمحتواه السياسي. كان يرسل مواد الكتاب جزءاً جزءاً لتطبع في بيروت بإشراف نقولا شاوي. صدر الكتاب في موعده وكان له صدى سياسي كبير في العالم العربي، وبشكل خاص لدى المثقفين.

مكث الرفيق نقولا شاوي في فلسطين خمسة عشر يوماً وشارك في أحد اجتماعات الكادر للحزب الشيوعي الفلسطيني للتوسط في حل بعض الخلافات السياسيّة.

في تلك الأيام صدر بيان رسمي باسم اللجنة المركزية للحزب مندّداً بالهجوم الفاشي الإيطالي الحتمي على إثيوبيا، داعياً للنضال من أجل الدفاع عنها مهيباً بجميع الوطنيين العرب والعمال والمثقفين والجماهير الشعبية للنضال ضد الامبريالية وتنظيم حركات احتجاج ونضال للدفاع عن إثيوبيا من الهجوم المرتقب.

في هذا البيان وباقتراح مني وردت عبارة تقول: «إن الانتصار على الفاشية الإيطالية في إثيوبيا واجب علينا لإضعاف الفاشية وإضعاف الامبريالية، وهذا يعزّز نضالنا لتحقيق الانتصار والاستقلال الوطني».

ولقد وردت هذه الفقرة أيضاً في البيان الصادر عن الكومنترن باللغة الفرنسية. وفي وقت لاحق أكد خالد بكداش مراراً وتكراراً اعتزازه بذلك، مذكّراً رفاقنا دائماً بهذا الحدث.

اعتقال أبو داوود مرتين وسفره النهائي إلى فرنسا

اعتقل أبو داوود في أواخر أيام 1935 في دمشق بينما كان في مهمة حزبية، وبعد سجنه عدة أيام أبعدته السلطة إلى فلسطين حيث لم تجد أي دليل ضده. تأكد لدينا أن اعتقاله ناتج عن وشاية من الياس شاتيلا حيث وشى هذا الأخير سابقاً برفاق آخرين قبله في دمشق ولكنه لم يكن مكشوفاً لدينا. وقد تناولنا هذا الموضوع في الصفحات الماضية. بعد اعتقال أبو داوود ازداد شكّنا، ثم ركّزنا على الياس شاتيلا، فاستدعيناه إلى بيروت وحققت معه أنا والرفيق خليل حلو. استمعنا أولاً إلى تقريره حول ملابسات اعتقال أبو داوود وكنا قد استلمنا من هذا الأخير تفاصيل اعتقاله، فكان في حديث الياس شاتيلا تناقض واجهناه به فلم يستطع

التهرب فانتكس وتضعضع، وتأكدنا من أنه وشى بأبي داوود والرفاق الآخرين. وانكشف وجه الخائن فهرب إلى فرنسا. عاد أبو داوود بعد فترة بطريقة سرية إلى بيروت. الاعتقال الثاني لأبي داوود تمّ في أوائل 1936 في بيروت. كان يسكن في الأشرفية قرب مستشفى رزق في حي البرجاوي، بالطبقة الأولى من إحدى البنايات. كانت علاقته بالحزب تتم عبر توفيق فغالي. اعتقل أبو داوود في غرفته من قبل مسؤول الأمن. لم يجدوا لديه كذلك أية وثائق أو أدلة. قبل اعتقاله بيوم واحد وصل رفيقان درزيّان من جبل الدروز غايتهما السفر إلى «الجامعة الشيوعية لشعوب الشرق» في موسكو. استقبلهما أبو داوود في غرفته واعتقل في اليوم التالي. اشتبهنا بالرفيقين وأعدناهما إلى جبل الدروز. وقد تبيّن لنا فيما بعد براءة هذين الرفيقين، فالمخبر كان توفيق فغالي. في الفترة نفسها وشى أيضاً بشأن مكان غرفة يوسف خطار الحلو، وفي بداية الحرب العالمية الثانية، تأكد لنا أن توفيق فغالي عميل وعلى صلة دائمة بمسؤول الأمن العام الفرنسي. ودافع عن أبي داوود أمام المحكمة المحامي شارل حلو، الذي انتخب لاحقاً رئيساً للجمهورية اللبنانية. وكان في ذلك الوقت رئيس تحرير جريدة «لوسوار» اليومية، الصادرة، بالفرنسية. هذه الجريدة كانت تنتهج خطّ الحزب الدستوري بقيادة الرئيس بشارة الخوري. في تلك الفترة كانت تجمعنا به علاقة صداقة. كنت ألتقيه في مكتب تحرير الجريدة فكان يشارك أحياناً في التبرع المالي للسجناء السياسيين وأحياناً كنا نوصل إليه مطبوعتنا باللغة الفرنسية. حكم على أبي داوود بالسجن خمسة عشر يوماً لدخوله الأراضي اللبنانية خلسة، ثم أبعد إلى فلسطين. وعاد أيضاً إلى بيروت بطريقة سرية وبقي فيها لفترة وجيزة فشارك في الاجتماع الموسع للجنة المركزية ثم غادر لبنان نهائياً باسم مستعار. سافر إلى فرنسا وانتقل من هناك إلى موسكو و مارس مسؤولية حزبية. ومن هناك سافر إلى الجزائر وأصبح أحد قادة الحزب الشيوعي في الجزائر. التقيته في برلين عام 1969، وفي بيروت عام 1974 حيث

شارك في احتفالات الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب. أبو داوود من الأوائل الذين درسوا في جامعة شيوعيي الشرق فامتلك ومارس المبادىء الماركسية - الليلينية بشكل خلاق. ولقد وجه سياسة الحزب بشكل سليم. أما علاقتي معه فكانت ودية ومثالية ورفاقية. يشعر المرء تجاهه بحب واحترام وود. وقد وافته المنية عام 1978 في برلين.

يوسف خطار الحلو مندوب لبنان إلى المؤتمر السابع للكومنترن

تبلغنا أن المؤتمر السابع للكومنترن يدعو الأعضاء المنتخبين للحضور في النصف الثاني من تموز عام 1935، وقد عقد المؤتمر في 25 تموز 1935 واستمر حتى 22 آب.

كان أبو داوود غائباً، ولم يكن من الجائز حزبياً أن اتغيب أنا أيضاً للمشاركة في المؤتمر. ففي الواقع لم تكن قيادة الحزب في وضع يسمح بغيابي. اقترحت ان يمثل الحزب الشيوعي اللبناني في مؤتمر الكومنترن الرفيق يوسف خطار الحلو فوافق الرفاق على اقتراحي. وكان الرفيق يوسف في بلدته حصرايل من أعمال بلاد جبيل فدعوته ليأتي على الفور بقرار من الحزب، وبلغته قرار السفر إلى موسكو عبر اسطنبول حيث ينبغي له الحصول على التأشيرة هناك. سافر الرفيق في أوائل تموز 1935 من بيروت، وكان اسمه المستعار في موسكو "نادر". ومثل سوريا في المؤتمر الرفيق خالد بكداش حيث كان في موسكو، وعبر بيروت سافر الرفيق قاسم حسن ممثل الحزب الشيوعي العراقي لحضور المؤتمر. كنت قد اتصلت أيضاً بالحزب الشيوعي الفلسطيني فسافر أمين عام اللجنة المركزية، رضوان الحلو، إلى موسكو للاشتراك في المؤتمر. ولم نستطع الاتصال بمصر فشارك في المؤتمر ممثلاً لمصر الطالب في جامعة شيوعيي الشرق في تلك الفترة الرفيق عزيز، من منشأ عمالي، وكان

اسمه في الجامعة "لونوار"، وكان الرفيق عزيز قد أرسل إلى الجامعة للدراسة من قبل حزبنا.

المؤتمر السابع للكومنترن

انعقد المؤتمر الجديد للكومنترن في فترة نجاح الخطة الخمسية الثانية في الاتحاد السوفياتي، حيث تركز بناء المجتمع الاشتراكي وتعززت قدرة الاتحاد السوفياتي الاقتصادية والدفاعية. وازداد دوره السياسي على النطاق العالمي وأنشأ علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة الأميركية وانتسب إلى عصبة الأمم، ولكنه لم يعترف بالبند الذي يعطي دول الانتداب الحق في السيطرة على الشعوب، أي عملياً الحق في إقامة المستعمرات.

كان للمؤتمر السابع للكومنترن تأثير عالمي وقد أحدث انعطافاً تاريخياً، وصحح جميع الأخطاء والنواقص في سياسة الكومنترن حتى ذلك الوقت. واستفاد من تجارب فرنسا وإسبانيا حول تشكيل وانتصار الجبهات الشعبية المعادية للفاشية، ودفاعاً عن الحريات الديموقراطية، وفتح الطريق أمام التحالف الشيوعي الاشتراكي بمشاركة سائر القوى الديموقراطية، واستنفار الجماهير الشعبية الواسعة من أجل الديموقراطية والحرية ودفاعاً عن السلام وضد الفاشية، وبشكل خاص ضد النازية التي كانت تستعد للحرب العالمية الثانية. وهو بذلك قد فتح الطريق لتحوّل الأحزاب الشيوعية إلى أحزاب جماهيرية. وقد انتهج أيضاً بشأن حركة التحرر الوطني سياسة تؤمن التحالف بين الأحزاب الشيوعية وحركات التحرر الوطني الثورية؛ وقد صادف في تلك الفترة انتصار الثورة الوطنية التحررية في ڤيتنام والصين.

الكلمة الرئيسية في المؤتمر ألقاها الرفيق جيورجي ديمتروف؛ وقد

أحدثت هذه الكلمة الرائعة انعطافاً تاريخياً. لقد أشار إلى الدور العالمي الذي لعبه الكومنترن بدعم وتطوير الحركات الثورية وتنظيم الأحزاب الشيوعية وتطوير كادراتها، وأشاد بالحركات الثورية والنضال المعادي للامبريالية والدور العظيم للكومنترن. ثم انتقد الأخطاء السياسية وأسلوب العمل والنواقص والسلبيّات في عمل الكومنترن، وبعدها اقترح التوجه السياسي والخط التنفيذي الذي أشرنا إليه. ترجم خطاب الرفيق ديمتروف إلى اللغة العربية من قبل الرفيق نقولا شاوي، الذي أشرف أيضاً على طبعه في بيروت. وانتخب الرفيق خالد بكداش (رمزي) في الهيئة التنفيذية في الكومنترن. وقد ألقيت في المؤتمر كلمة من قبل الرفيق توغلياتي حول الحرب، وكلمة من الرفيق كارلوس برشي حول المسألة القومية.

عودة فرج الله الحلو إلى بيروت

بعد عودة الرفيق فرج الله الحلو من موسكو بقرار حزبي ذهب إلى حلب وسكن هناك بغية تنظيم كوادر الحزب وتثقيفها. وبكلمة أخرى فقد لعب دوراً قيادياً لرفع المستوى والدور السياسي للحزب. بعد الاعتقال الثاني لأبي داوود دعوت الرفيق فرج الله أن يأتي إلى بيروت وأوضحت له وضع قيادة الحزب، وطلبت منه أن يسكن في بيروت ليشارك في أعمال قيادة الحزب. جاء وسكن في بيروت بمحلة الزيتونة في بناية مستأجرة من رفاق من جبل موسى. كنت ألتقيه يومياً، ومثل الرفيق نقولا شاوي كان تعاملي معه متيناً على جميع الصعد القيادية. في تلك الفترة كان يقوم عملياً بدور أمين عام اللجنة المركزية، كما كان مسؤول التحرير لجريدة الحزب المركزية «نضال الشعب» التي كان الرفيق نقولا شاوي منذ البداية رئيساً لتحريرها إلى أن سافر في الفترة الأخيرة إلى فلسطين وقام بعد عودته بمهمة حزبية أخرى فاستلم الرفيق فرج اللّه تحرير الجريدة.

كان الرفيق فرج اللّه الحلو معلماً في المدرسة الإنجيلية في حمص سنة 1930ـ1931. وكان صديقاً للمعلم في المدرسة نفسها الأستاذ ناصر حدَّة الذي كان شيوعياً. فكان انتساب فرج اللّه الحلو إلى الحزب الشيوعي بواسطة ناصر حدَّة. وعام 1931 أسس أول خلية شيوعية في بلاد جبيل. وكان من بين مؤسسي هذه الخلية بالإضافة إلى الرفيق فرج اللّه الحلو الرفيق توفيق نجم، بطرس حنا، حنا نمر، يوسف خطّار الحلو. أنتخب فرج اللّه الحلو سكرتيراً لهذه الخلية. وكان توفيق نجم يعرف أحد الشيوعيين الأرمن في مستشفى ضهر الباشق، وبواسطة هذا الرفيق الأرمني نظم الرفيق توفيق نجم صلة بقيادة الحزب الشيوعي اللبناني، مع فؤاد الشمالي. ورفيق أرمني اسمه أواديس كانتوني كان أحد مؤسسي المنظمة الشيوعية «سبارتاك» وفيما بعد عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني.

«الطليعة» منبر «للفكر الحر»

خلال العام 1935 قام الحزب بعمل سياسي مهم بإصدار مجلة «الطليعة». وقد تصدّرت صفحتها الأولى بشكل دائم، قرب اسم المجلة، عبارة: «منبر للفكر الحر» .

كانت الطليعة بمثابة تكملة لمؤتمر زحلة عام 1934 حول حركة التحرر العربية، وللأعمال السياسية التي ابتدأت من خلاله. كما كانت أيضاً استمراراً لمجلة «الدهور» بخطها السياسي والإيديولوجي.

لقد كانت هذه المجلة الفكرية موجهاً لحركة التحرر العربي في لبنان وسوريا وفي البلدان العربية، وقد طورت الفكر النضالي القومي والاجتماعي من أجل الاستقلال الوطني وضد الإقطاع والرأسمال الأجنبي والبورجوازية المرتبطة مع الاحتكارات. لقد كانت أيضاً تكشف العملاء ودورهم في خدمة الامبريالية في القطاع الفكري. لقد كانت

«الطليعة» منبراً للنضال من أجل الاستقلال الوطني والحريات الديموقراطية وضد الفاشية. وتركت «الطليعة» أثراً سياسياً كبيراً في المفكرين التقدميين والوطنيين العرب، في لبنان وسوريا بصورة خاصة وعلى الصعيد العربي بوجه عام.

كانت «الطليعة» تدافع عن الصداقة العربية ـ السوڤياتية وتعتبرها إحدى ركائز الانتصار على الامبريالية في نضال حركة التحرر العربية.

كان رئيس تحريرها ومديرها المسؤول هو المثقف والمربي المعروف رجا حوراني. وعمل في «الطليعة» أو شارك في تحريرها البروفسور كامل عياد، الكاتب والأديب المعروف رئيف خوري، فايز يارد، منير سليمان، ميشال عفلق، صلاح البيطار وفؤاد الشايب وغيرهم.

كان الرفيق نقولا الشاوي يهتم "بالطليعة" عن قرب، وبعده اهتم الرفيق فرج الله الحلو بهذا العمل. استمر صدور المجلة إلى العام 1939 بداية اندلاع الحرب العالمية الثانية.

سجون فلسطين ... والإضراب عن الطعام

في ربيع عام 1935 أعلن رفاقنا في سجون فلسطين إضراباً عاماً عن الطعام، وكانت قد صدرت بحقهم أحكام من قبل المحاكم البريطانية. عددهم كان كبيراً من عرب و يهود وأرمن. أما المطالب فكانت: حق السجين السياسي، سلوك إنساني تجاههم، وإطلاق سراحهم.

كان بين السجناء الأرمن الرفيق زاديك دادوريان الذي كان الحزب الشيوعي الفلسطيني يستفيد منه في مجالات التكتيك. قررنا فوراً التضامن مع رفاقنا المضربين عن الطعام وإقامة حركة احتجاج. أرسلنا برقية احتجاج بمبادرة من الرفيق شاوي. كما أبرق للغاية نفسها صاحب الجريدة الأسبوعية "المعرض" ووزير الداخلية والوجه الديمقراطي ميشال

زكور، ومجموعة من المثقفين... وقمنا بتظاهرة استنكار غاضبة أمام السفارة البريطانية في شارع فردان ورشقنا السفارة بالحجارة، وكتبنا شعارات تطالب بالحرية للمضربين عن الطعام وشعارات معادية لبريطانيا. بقيت هذه الشعارات لسنوات طويلة على حائط السفارة. وبادر الرفيق ماردو خوجيكيان المشارك في التظاهرة إلى إنزال شعار بريطانيا العظمى المعدني من فوق مبنى السفارة.

قبلان مكرزل في الطريق إلى موسكو

كان الرفيق قبلان مكرزل يسكن في انطلياس؛ وهو شاعر وخطيب ويتمتع بالاحترام في محيطه، أرسلناه في خريف العام 1935 إلى موسكو مع رفيقته للدراسة في جامعة الشرق للشيوعيين. كانت زوجته مثقفة ورفيقة نشيطة في الحزب وتقود الحركة النسائية آنذاك.

الرفيق قبلان مكرزل هو الذي ترجم مجموعة أغان ثورية سوفياتية إلى العربية، كان رفاقنا ينشدونها خلال السهرات، إلى جانب أناشيد عربية من تأليفه.

وقد حصل في موسكو حادث مزعج بينه وبين الرفيق خالد بكداش كان سبباً في ابتعاد قبلان مكرزل تدريجاً عن صفوف الحزب، لكنه بقي مخلصاً وأميناً للحزب وللمبادىء الشيوعية وبقي على صداقته للحزب.

حاول خالد بكداش عام 1937 معالجة الحادث المؤسف لكنه لم ينجح.

زواجي

تزوجت في 26 كانون الثاني 1936، وقد صادف ذلك احتفالي بمرور ثلاث عشرة سنة على سجني للمرة الأولى. شريكة حياتي ابنة عائلة وطنية، حاصلة على دراسة متوسطة، هي فرجيني ليون ناجاريان.

علي ان اسجل فخري بها لصبرها وتحملها الحياة القاسية بمحبة وطول بال خلال المراحل الصعبة ووجودي في السجن بشكل متواصل، وكانت مساعدة أمينة لي في كل الظروف وخصوصاً الظروف السرية. وشاركت مشاركة فعالة في العمل الحزبي في القطاع النسائي. وهي، إلى ذلك، كانت امرأة نزيهة ورفيقة لحياتي وأماً اهتمت بتثقيف أبنائها واهتمت بشؤون دراستهم. بكلمة أخرى، قد أهدت إلي عائلة وحياة سعيدة.. أسجل هذا لأنه جزء لا يتجزأ وتكملة لحياتي الحزبية والسياسية.

تصاعد معركة الاستقلال... مرحلة جديدة وخمسون يوماً من الاضراب العام في سوريا

في عام 1936 تصاعد النضال الوطني من أجل الاستقلال ووصل إلى ذروته بإعلان الإضراب العام المعروف بإضراب الخمسين يوماً في طول البلاد السورية وعرضها، وأخذ طابعاً شعبياً نضالياً. وبكلمة، فالنضال الوطني من أجل الاستقلال بلغ منعطفاً جديداً حيث فرض على الاستعمار الفرنسي للمرة الأولى توقيع معاهدة تعترف بسيادة سوريا ووحدتها واستقلالها الوطني، بالرغم من عدم إنهاء الوجود الامبريالي الفرنسي في ميادين مهمة. وهذا يعني حصول سوريا على استقلال وطني جزئي. أما الاستقلال السياسي الوطني الكامل فتحقق في العام 1945.

وما حصل هو أن المفوض السامي الفرنسي "بونسو" كان قد أمر بإجراء تعديل دستوري بإضافة فقرة إلى الدستور الذي أقر في 14 آذار 1930 في المجلس الوطني في سوريا عام 1928. كانت المادة 115 تنص على ما يلي: الاستقلال الوطني الكامل لسوريا وتحقيق وحدة أراضيها. فأضيفت المادة 116 التي تلغي المادة السابقة وتنص على ما يلي: لا يحق للسلطات السورية تعديل الدستور إلا بعد موافقة سلطات

الانتداب الفرنسي. هذا البند ألغى عملياً، استقلال سوريا ووحدة أراضيها.

انتشرت حركات الاحتجاج والإضراب والتظاهرات في جميع انحاء سوريا. في هذه الأجواء قررت الكتلة الوطنية عدم الاعتراف بالمادة التي أضيفت.

وقررت سلطات الاستعمار الفرنسي بعد تحضيرات مكثفة، فرض سيطرتها بصورة قسرية ودون تفرقة بين النواب المنتخبين بالتزوير والإكراه والنواب الآخرين، حيث جرت انتخابات نيابية في 20 كانون الأول 1931 وكان هدف الفرنسيّين اختيار نواب لمصلحتهم. حصل تزوير صارخ وشامل في هذه الانتخابات، وكانت صناديق الاقتراع «مملوءة» سلفاً لمصلحة مرشحي سلطات الانتداب. لكن الجماهير لم تتحمل هذه المسألة في أكثر المدن والمناطق، كما في دمشق حيث هوجمت صناديق الاقتراع وتمّ تدمير الكثير منها، وكذلك هوجم مركز الشرطة الرئيسي وأطلقت الشرطة والجيش الفرنسي النار على المتظاهرين فسقط العديد منهم بين قتيل وجريح.

أعلنت السلطة إلغاء الانتخاب في عدد من المناطق، بينها دمشق وحمص ومدن أخرى وشيّع القتلى في ظل حالة الطوارئ وطوقت الشرطة محيط منطقة المدافن. نجح رفاقنا في الحي الكردي في دمشق بتنظيم مأتم العامل الشهيد بمشاركة جماهير غفيرة رغم حالة التطويق والموانع المعرقلة. ألقى الرفيق خالد بكداش كلمة بالمناسبة.

في كانون الثاني عام 1932 جرت انتخابات فرعية في الأماكن التي ألغي فيها الانتخاب، وفيها تجنّبت السلطات الفرنسية التزوير رغبة في عدم هدم جميع الجسور مع الكتلة الوطنية، حيث كانت تأمنت الأكثرية النيابية لمصلحة الانتداب الفرنسي. ومهما تكن نتائج هذه الانتخابات الفرعية فالكتلة الوطنية حصلت على 17 نائباً من أصل مجموع المجلس النيابي، وعدد النواب المعيّنين من قِبل سلطات الانتداب 52 نائباً.

تجددت المباحثات بين الكتلة الوطنية والسلطات الفرنسية. وقد شكّل الحكومة رجل الفرنسيين حقي العظم. وشاركت الكتلة الوطنية في هذه الحكومة بوزيرين (المالية والتربية).

لم يحصل اتفاق بين الفرنسيين والكتلة الوطنية. ورغم استمرار المباحثات فإن السلطات الفرنسية كانت تفكّر في توقيع معاهدة مع سوريا وهي واثقة بتأييد غالبية مجلس النواب «الشرعي». توقفت المباحثات في 17 شباط 1933. انعقد مؤتمر للكتلة الوطنية في حلب وقرر استقالة الوزيرين من الحكومة، وعدم توقيع معاهدة مع فرنسا إلّا بعد إعلان الاستقلال الوطني وتحقيق وحدة أراضي سوريا. انتشرت التظاهرات والإضرابات في جميع أراضي سوريا تحت هذه الشعارات. في خريف عام 1933 استبدل المفوض السامي بانسو بمفوض آخر هو الكونت دي مارتيل، واستلم هذا الأخير سلطاته في شهر كانون الأول من السنة نفسها. وبادر المفوض الجديد إلى عقد معاهدة مع حكومة حقي العظم وعمل لإبرام المعاهدة في مجلس النواب، بعد موافقة حكومة العظم على المعاهدة المقترحة من قِبل المفوض السامي باسم «المعاهدة الفرنسية ـ السورية»، التي لم تعترف باستقلال سوريا وبوحدة أراضيها.

كان المفوض السامي مقتنعاً بأن غالبية النواب ستصدق على المعاهدة، حيث معظم هؤلاء النواب معيّنون من قبل السلطات الفرنسية.

لكن نتيجة المعارضة الشعبية والضغوط على النواب، والوفود النسائية التي زارت أعضاء البرلمان وخصوصاً مؤيدي فرنسا، تراجعوا عن تأييد هذه المعاهدة، وفي 21 تشرين الثاني صوت 52 نائباً ضد المعاهدة وأيدها 46، وهكذا سقطت المعاهدة التي كان يسعى الفرنسيون لفرضها على الشعب السوري.

صدام ودماء في ساحات سوريا

تصاعد النضال الوطني التحرري في البلاد بشكل خاص خلال أعوام

34ـ36، واستقالت حكومة حقي العظم وعيَّن الفرنسيون رئيس حكومة جديداً هو الشيخ تاج الدين، المخلص لسياستهم، فانطلقت موجة جديدة من التظاهرات الاحتجاجية، من شعبية وطلابية، وأعلن الإضراب في جميع أنحاء البلاد وجرت تظاهرات دامية في حلب ودمشق وحمص وحماه وأماكن أخرى.

شارك في تظاهرة حلب عمال النسيج بشكل كثيف حيث أعلنوا في اليوم نفسه الإضراب المفتوح، ولعب الشيوعيون دوراً بارزاً في قيادة العمال بمشاركة الرفاق الأرمن. شارك الشيوعيون بجميع إمكانيّاتهم وخصوصاً في حلب ودمشق. بعد التظاهرة الدامية في حلب تمَّ اعتقال قيادة الكتلة الوطنية. بين المعتقلين سعد اللّه الجابري وفؤاد إبراهيم باشا، ووجهاء آخرون معروفون في البلاد كما اعتقل العديد من المتظاهرين من أبناء الشعب.

وتجددت في شباط ـ آذار 1935 التظاهرات الشعبية والطلابية وهذه المرة بشعارات محددة، أبرزها معارضة المعاهدة المقترحة من قبل الفرنسيّين، وضدّ شركة التبغ الاحتكارية الفرنسية. كان هذا التحرك وهذا النضال يبرزان بوضوح تنامي العداء للسلطات الاستعمارية.

وظلّ النضال الوطني لأجل الاستقلال يتطور باتجاه معاد للامبريالية، ويتصاعد فيصل إلى مرحلة أعلى عام 1936. في 11 كانون الأول جرت تظاهرة شعبية واسعة ضد الاستعمار الفرنسي بمشاركة الطلاب في دمشق. وانعقد في اليوم نفسه مؤتمر وطني للكتلة الوطنية، في دمشق أيضاً، وصدر عنه ميثاق وطني باستقلال كامل لسوريا ووحدة أراضيها.

تصاعد النضال ضد سلطات الانتداب. وبناءً على بنود الميثاق الوطني لا يمكن تحقيق هذه البنود إلا بتفاوض مع الوطنيين السوريين. بدأت السلطات الفرنسية بحملة اعتقالات وفرض عقوبات. تجددت حركات الاحتجاج. تظاهرات، إضرابات وسهرات سياسية، صدامات دامية مع الدرك والجيش الفرنسي؛ توتر متصاعد؛ في 19 كانون الثاني

1936، عمّ الإضراب العام البلاد كلها؛ أغلقت جميع المؤسسات والمدارس والأسواق؛ وتعطلت جميع وسائل النقل وشلّت الحركة في جميع انحاء البلاد وجرت تظاهرات شعبية كبيرة ومهرجانات في الساحة العامة. دمر المتظاهرون قاطرات تراموای تملكها الاحتكارات الفرنسية. تحرك الجيش الفرنسي لقمع المتظاهرين بالدبابات فتعرض جنوده لحجارة المتظاهرين. اعتقل قادة من الكتلة الوطنية منهم سعدالله الجابري وجميل مردم ونعيم انطاكي وغيرهم. اعتُقلت أيضاً أعداد كبيرة من الطلبة والعمال وسائر الفئات الشعبية.

في 20 كانون الثاني توجه لمقابلة المفوض السامي الفرنسي وفد منتدب من القوى الوطنية، فطلب اعتراف الفرنسيين المسبق بمطلب استقلال سوريا ووحدة أراضيها وإطلاق سراح المعتقلين وإلغاء حالة الطوارىء في البلاد.

المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل وضع شوطه: أولاً، إنهاء الإضراب العام، ثم البدء بالمفاوضات. رفض الوفد الوطني الشروط الفرنسية. استمرت الصدامات في دمشق والمدن الأخرى بين الجيش الفرنسي والمتظاعرين. وعاد دي مارتيل باقتراح بدء المفاوضات. لكن الوفد الوطني السوري وضع شروطاً أساسية لبدئها:

1. تنفيذ الدستور المقرر سنة 1928 من قبل الاجتماع الوطني، دون أي تعديل أو تجميد لبنوده؛ ينهي هذا الدستور الاحتلال الفرنسي لسوريا ويعلن استقلالها الوطني ووحدة أراضيها.

2. بناء على هذا الدستور وضع نظام لمجلس النواب المنتخب والسلطة البرلمانية.

أعلن الوفد الوطني أنه لايدخل المفاوضات للوصول إلى معاهدة فرنسية - سورية إلا بعد تنفيذ هذه البنود.

وتصاعدت التحركات المعادية لفرنسا في بلدان عربية أخرى مؤيدة لنضال الشعب السوري مما اضطر السلطات الفرنسية لتقديم تنازلات.

بدأت في 28 شباط مفاوضات فرنسية - سورية في بيروت استمرت ثلاثة أيام، وفي آذار وقع المفوض السامي الكونت دي مارتيل ورئيس الوفد السوري هاشم الأتاسي المعاهدة على الأسس الآتية:

1. موافقة فرنسا على إعطاء سوريا الحقوق نفسها التي حصل عليها العراق ضمن اتفاقية عراقية - بريطانية.

2. تعلن فرنسا أن ليس لها مصلحة بتجزئة سوريا وتتمنى وحدة أراضيها، كما جاء في دستور 1928.

3. استمرار المفاوضات في باريس واسقبال الوفد السوري في فرنسا على مستوى عال.

4. ضرورة اعادة الحياة البرلمانية خلال فترة قصيرة وإجراء انتخابات شعبية حرة.

في اليوم نفسه أعلن إنهاء الإضراب العام في سوريا، بعد مرور 42 يوماً لكنه معروف باسم "إضراب الخمسين يوماً. ألغيت حالة الطوارىء، أعيد فتح الأسواق والمؤسسات والمدارس وعادت الحياة إلى طبيعتها في البلاد وسط جو شعبي حماسي عارم.

لكن رغم هذا الإنجاز الكبير باتجاه الاستقلال الوطني ووحدة الأراضي، فلم ينتبه الوجود الاستعماري الفرنسي في البلاد، ولم تحصل سوريا على استقلالها الناجز إلا في أواخر شهر أيار 1945 بعد الصدام المسلح مع الجيش الامبريالي الفرنسي. وسوف نذكر تفاصيل عنه في الصفحات اللاحقة. بناء على هذه الاتفاقية وصل إلى باريس في 26 آذار الوفد السوري برئاسة هاشم الأتاسي للمشاركة في اعمال الوفد. ووصل رياض الصلح إلى باريس قادماً من جنيف وهو خرج من لبنان بطريقة سرية متخفياً من السلطات الفرنسية.

لكن المباحثات مع الوفد السوري تأجلت وتكرر التأجيل، ومضت السلطة الفرنسية في المماطلة، وبات الوفد السوري في تلك الأيام منعزلاً وليس لديه أي عمل مُجدٍ.

وجاءت الانتخابات النيابية التي جرت في حزيران 1936 في فرنسا لتشهد انتصاراً ساحقاً لتحالف الأحزاب الاشتراكية والحزب الشيوعي، حيث حقق الحزب الشيوعي إنجازاً باهراً في هذه الانتخابات. وتشكلت حكومة جديدة برئاسة قائد الحزب الاشتراكي ليون بلوم. ومع أن الحزب الشيوعي لم يشارك في الحكومة فقد كان له وزن كبير وتأثير بارز في أعمال الحكومة وفي سياسة الدولة.

إنه انقلاب في الوضع. في تلك الآونة كان الرفيق خالد بكداش لا يزال يعمل في الأممية الشيوعية، وقد توجه إلى باريس باقتراح من الرفيق ديمتري مانولسكي الأمين العام للكومنترن للمشاركة في أعمال الوفد السوري تنشيطاً لأعمال الوفد وإنقاذاً له من حالة الجمود ودعماً له في تحقيق أهدافه.

وهكذا، وبمساعدة من الحزب الشيوعي الفرنسي وبمبادرة منه، شارك حزبنا في مفاوضات استقلال سوريا ووحدة أراضيها. وكان ذلك بمثابة تكريس لدورنا الوطني والشعبي في معمعان المعركة ضد المستعمر.

وقد قام الحزب الشيوعي الفرنسي في ما قدمه من دعم وما أجراه من مداخلات،بدور حاسم في إنجاح دور الوفد السوري الذي تخلص، بالتالي، من التأجيل المتواصل للاجتماع ونشطت المباحثات السورية - الفرنسية. ووقعت في التاسع من أيلول المعاهدة السورية - الفرنسية تحت اسم "معاهدة الصداقة".

في هذه الاتفاقية اعترفت فرنسا بالاستقلال السوري ووعدت بإلغاء الانتداب في غضون ثلاث سنوات من تنفيذ الاتفاقية. وتصبح سوريا المستقلة عضواً في عصبة الأمم. غير أن المعاهدة، رغم ذلك، تمنح الجيش الفرنسي حق البقاء في الأراضي السورية لمدة خمس سنوات، والحق في بناء ثلاثة مطارات عسكرية في جبل الدروز واللاذقية، كما تجيز للجيش الفرنسي الانتقال بحرية على الأراضي السورية وتسمح بزيارة الأسطول الحربي الفرنسي للموانئ السورية، وتتيح للجيش الفرنسي

الإشراف على الجيش السوري المؤلف من لواء مشاة ولواء من القوات المحمولة. ويحق لفرنسا في حالة نشوب حرب استخدام الطرق والاتصالات السلكية في سوريا، وتعيين مستشارين عسكريين فرنسيين في هذه القطاعات. وعلى الحكومة السورية استشارة الحكومة الفرنسية في أمور السياسة الخارجية. يحتفظ الفرنسيون بالوصاية على العملة السورية وربطها بالفرنك الفرنسي. وأخيراً يجب التصديق على الاتفاقية من قِبل مجلسي النواب في البلدين.

وخلاصة القول إنّ سوريا نالت استقلالاً شكلياً، حيث إن هذه الشروط تجعلها مرتبطة بفرنسا ولا تكون ذات سيادة.

رغم ذلك فالنجاحات التي حققتها سوريا في تلك الأيام كانت نجاحات ملموسة بلا شكّ، نسبة إلى الوضع السائد آنذاك.

أما الإنجاز الآخر فهو يتمثل في تحقيق وحدة الأراضي السورية، حيث أصدر المفوض السامي مرسوماً خاصاً بضمّ جبل الدروز واللاذقية إلى سوريا، لكنه حافظ على الوضع المالي الخاص وأجهزة الدولة القائمة. ومع الأسف فقد بقيت منطقة لواء الاسكندرون على وضعها السابق دون أن يصار إلى ضمها رسمياً لسوريا، واستغلت الدولة التركية هذا الوضع وضمّت المنطقة المذكورة إلى أراضيها آنذاك.

إلّا أن الاتفاقية تعتبر، رغم ذلك كله، متقدّمة في حينه، بصفتها خطوة باتجاه الوصول إلى الاستقلال الوطني الكامل لسوريا. وفي هذا الاتجاه كان تقويم الحزب الشيوعي الفرنسي للاتفاقية، وهكذا نظر إليها حزبنا وسائر القوى الوطنية والشعب السوري.

استقبل الوفد السوري العائد من باريس بحماسة شعبية منقطعة النظير. وفي الحفل المهيب الذي أقيم في الميدان المركزي بدمشق، وإلى جانب كلمات المرحّبين، ألقى الرفيق خالد بكداش كلمة باسم الحزب، وكان هذا في ذاته نجاحاً كبيراً.

شهد عمل الحزب في ظل الظروف الجديدة وفي غمرة التطور

السياسي العاصف تطوراً بارزاً، ودخل على الصعيد العملي مرحلة العمل العلني بالرغم من أنه لم يحصل على ترخيص رسمي.

نشطت الحركة العمالية والنقابية. ازداد تأثير الحزب بشكل ملموس في صفوف العمال والنقابات. وأخذت الوفود العمالية والنقابية تتقاطر على قيادة الحزب طالبة التوسط والضغط لتحقيق هذا المطلب الاجتماعي أو ذاك.

وكانت منظمات الحزب قد وقفت، إبان إضراب «الخمسين يوماً»، في الصفوف الأمامية إلى جانب جماهير شعبنا وقواه الوطنية وفي الدرجة الأولى الكتلة الوطنية. واتّسمت منظمات حزبنا في ذلك الوقت بنموّ مطّرد وكان لها وزنها ولا سيّما في دمشق وحلب وحمص.

وقد قام بدور قيادي في منظمة دمشق رفاق قياديون من لبنان وسوريا من أعضاء اللجنة المركزية أمثال ناصر حدّه وفوزي الزعيم وغيرهما. كان ناصر حدّه يزور بيروت أسبوعياً ويلتقي معي ومع الرفيقين فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي لتقديم تقرير عن الوضع السياسي، والتزوّد بالتوجهات السياسية والتنظيمية بناءً على التطورات والمستجدات. وصدرت باسم الحزب عدة بيانات وزعت في دمشق وحلب لأنها تختص بأحداث سوريا وموجهة للشعب السوري وتحمل توقيع الحزب الشيوعي السوري. عبّرت هذه البيانات عن موقف الحزب ومشاركته وتأييده للتحرك الوطني المتواصل وكانت تصر على النضال حتى النصر وتدعو للوحدة بين الفصائل الوطنية. كان لهذه البيانات أوسع الصدى لدى شعبنا وقواه الوطنية، وهو ما نوّه به الرفيق ناصر حدّه غير مرة.

خلال فترة الإضراب وبقرار من قيادة الحزب، توجه الرفيق فرج اللّه إلى دمشق ليكون على مقربة من الأحداث ويساعد رفاقنا في نشاطهم المثابر. لكنه، مع الأسف، لم يمكث طويلاً في دمشق، إذ كان الرفيق فرج اللّه الحلو يرتدي بنطلون «غولف»، وقد وشى به الجاسوس دالاً على لباسه فاعتقل في الشارع.

وكان لرفاقنا الحزبيين الأرمن في دمشق وحلب مع أصدقائهم من الأرمن الوطنيين، مشاركتهم الفعالة في النضال الوطني السوري إلى جانب رفاقنا العرب والجماهير العربية السورية بصورة عامة.

وصدر بيان خاص عن اللجنة الشعبية المركزية للأرمن السوريين معرباً عن تضامنه مع الشعب العربي حتى تحقيق النصر في معركة استقلال سوريا الوطني.

وقامت قيادة الكتلة الوطنية بعد تحقيق الانتصار بزيارة مقر أبرشية الأرمن في دمشق وحلب، تعبيراً عن شكرها وارتياحها للموقف الوطني الأرمني.

حقيقة تاريخية لا بدَّ من تسجيلها، أن في النصف الثاني من العام 1933 في الاجتماع الموسع للحزب، حسم الجدل وانتصر تعريب الحزب، وفي أوائل العام 1934 ابتدأ التنفيذ على الصعيد السياسي وشقّ طريقه في المجالات كافة. إنه النهج الذي شارك في إرسائه وتطويره في المجالين السياسي والعملي الرفاق أبو داوود وأرتين مادويان وسليم خياطه ونقولا شاوي وانخرط فيه الرفيق فرج اللّه الحلو، بدءاً من الربع الأخير من العام 1934.

وكما أسلفنا أعلاه فقد عقد بمبادرة من الحزب في آذار 1934 مؤتمر حركة التحرر العربية من أجل الاستقلال والنضال المعادي للاستعمار. هذا المؤتمر فتح آفاقاً جديدة للعمل السياسي والنضالي بمشاركة الحزب في الصفوف الأمامية لحركة التحرر الوطني العربية.

في السنة نفسها وكما ذكرنا، نظم الحزب زيارة ميلسون وصدر بيان للحزب في هذه المناسبة، وللمرة الأولى، مسجلاً فيه أننا ورثة النضال الوطني العربي الثوري. هذا فيما أحدث صمود الرفيقين المعتقلين في ميسلون فؤاد قازان ومصطفى العريس ودفاعهما أمام المحكمة وإصرارهما على المطالبة بالاستقلال الوطني وحق الوطنيين في النضال لأجل

التحرر، أحدث هذا الموقف الثوري الحازم صدى كبيراً لدى الرأي العام وكذلك لدى قيادة الكتلة الوطنية.

وفي السنة نفسها كان لكتابات الرفيق سليم خياطة في مجلة "الدهور" وقعٌ سياسي ونظري في أوساط المثقفين.

ولا شك أن النضال من أجل الاستقلال، الذي اكتسب زخماً مميزاً في الإضراب العام وأيامه "الخمسين"، قد بلور المشاركة الشعبية والقيادية لحزبنا في النهوض الوطني الشامل بالتضامن مع الكتلة الوطنية.

وأحدث دور الحزب انعطافاً في العلاقة بالكتلة الوطنية بشكل خاص وبحركة التحرر العربي بشكل عام، وفتح آفاقاً جديدة لتحقيق الاستقلال الوطني الناجز، وفي الوقت نفسه لبلورة الحريات الديموقراطية وتحقيق المطالب العمالية وتطوير الحركات العمالية والنقابية.

يجب أن نسجل، هنا، وقوف لبنان إلى جانب نضال سوريا الوطني، وما شارك فيه من حملات بارزة. نذكر، على سبيل المثال، إعلان إضراب في ساحة انطلياس تأييداً لنضال الشعب السوري وإقفال المحال لفترة وجيزة تضامناً مع سوريا. كان مسؤولو هذه المنظمة في حينه الرفاق طنوس دياب، كمال مكرزل، سليم أبو كرم، ميشال أبو حبيب، عساف، وغيرهم.

صدام في ساحة البرج مع المتظاهرين

سجل العام 1936 انتصاراً كبيراً لنهج الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان الرفيق موريس توريز قد عبر عنه أمام مؤتمر الأممية الشيوعية بموسكو في أواخر تشرين الثاني 1935.

ففي ربيع 1936 تشكلت الجبهة الشعبية بمشاركة الشيوعيين والأحزاب الاشتراكية مما أوجد جواً حماسياً في أوساط العمال

والفلاحين والجماهير الشعبية والمفكرين الديموقراطيين، وتبنوا النضال المعادي للفاشية من أجل الديموقراطية والدفاع عن الجمهورية وتحقيق مطامح العمال والفلاحين والمطالب الشعبية الواسعة. وجرت الانتخابات النيابية في أواسط أيار وانتهت بالانتصار الساحق للجبهة الشعبية على قوى اليمين، وحقق الحزب الشيوعي انتصاراً رائعاً بحصوله على عدد كبير من المقاعد النيابية (83 نائباً). وتشكلت حكومة جديدة برئاسة قائد الحزب الاشتراكي ليون بلوم.

وكان لا بد أن يخلق هذا الانتصار أجواء جديدة ويحدث في لبنان وسوريا تأثيره المنتظر.

هذا الحدث السياسي الجديد وضع حزبنا أمام مهمات جديدة للاستفادة من المناخات السياسية الإيجابية في فرنسا، ولا سيما لجهة ازدياد الوزن السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي. لقد توافرت ظروف افضل لنضالنا.. لعملنا الحزبي وصولاً إلى العمل لانتزاع حريات ديمقراطية وفرض علنية الحزب.

بناء على توجيهات قيادة حزبنا وبقيادته، قامت في 14 حزيران عام 1936 تظاهرة جماهيرية حاشدة في ساحة البرج تحية لانتصار الجبهة الشعبية في فرنسا. انطلقت التظاهرة من قرب سينما أمبير وطريق الشام وشوارع أخرى... في الموعد المحدد توجه الجميع إلى ساحة البرج (الشهداء). حملوا عدداً كبيراً من اليافطات دونت عليها شعارات ترحب بانتصار الجبهة الشعبية، وأخرى تطالب بالحريات الديمقراطية والسياسية ومطالب حياتية تهم العمال وفئات شعبنا كافة. تقدم المتظاهرون باتجاه مركز الشرطة في ساحة البرج. وإذا بقوة من رجال الشرطة تتقدم، بقيادة قائد التحري خريستو نفاع، عناصرها مزودون بـ"تروس" معدنية، يندفعون نحو المسيرة بغية اعتقال المشاركين في التظاهرة. المتظاهرون لم يتراجعوا أمام الشرطة. مواجهة. صدام كبير بين الفريقين. أما ابرز أسلحة المتظاهرين فكانت عصي اليافطات. وتبين أن أكثر الذين تعرضوا

لضربات المتظاهرين كان قائد التحري خريستو نفاع، المعروف عنه قبل هذا الحدث أنه عسكري مرعب و"شرس". وتمكن المتظاهرون من مصادرة سلاحه الأميري (السلاح الفردي). فجأة، تطلق الشرطة الرصاص على الجموع. الرفيق العامل سيروب سوبليكيان جرح في ركبته. المتظاهرون ينتشرون هنا وهناك وهنالك، فيما المحال مقفلة وقلب المدينة مقفر.

التقيتُ إثر التظاهرة الرفيق نقولا شاوي في مطبعة جريدة "الرابطة الشرقية" في باب ادريس، خلف كنيسة الكبوشية. تباحثنا وتبادلنا الرأي، أعد الرفيق نقولا ملحقاً خاصاً لجريدة "الرابطة الشرقية" طبع بأعداد ضخمة من النسخ، وكان مخصصاً للتظاهرة وشعاراتها، والصدام الذي وقع مع الشرطة، مستنكراً العمل الوحشي الذي نفذته قوة القمع ومطالباً بمعاقبة الذي أعطى الأوامر بإطلاق النار.

صدرت الجريدة بعد ثلاث ساعات فقط من انتهاء التظاهرة ووزعت بشكل واسع في جميع أنحاء المدينة وكذلك في ساحة البرج. في اليوم التالي تناولت الصحف الحدث وعبرت عن الدوي الكبير الذي أحدثه في الأوساط السياسية ولدى أوسع فئات شعبنا وجماهير العمال.

إنه انتصار سياسي كبير لحزبنا، ومِفصَل هام في حياته واطلاقة جديدة لتطوره التدريجي نحو الأفضل. وبكلمة أخرى فقد فسح في المجال للعمل العلني نسبياً وخلق أمامنا أجواء لفرض حريات ديموقراطية في البلاد مستغلين الوضع السياسي الجديد في فرنسا والدعم الأممي من جانب الحزب الشيوعي الفرنسي بشكل خاص.

اعتقال من جديد

بمناسبة الأول من أيار يوم العمال العالمي، أقام الحزب في ذلك العام رحلة إلى أحراج انطلياس. شارك فيها عدد كبير من الناس، كان

الجو مرحاً وانضم إلى الرحلة رفاقنا وأصدقاؤنا من أبناء انطلياس. وصلت إلى مكان الرحلة قوة من الدرك بقيادة ضابط. حاولت التدخل لدى الضابط لمنع تعكير جو الحفلة، حصلت مشادة كلامية بيني وبينه فاعتقلوني بتهمة إهانة الضابط وألبسوني هذه التهمة الكاذبة. كان النقاش حاداً، لكنه لم يتعدّ حدود الاحترام.

استمرت الرحلة حتى بعد اعتقالي. وُضعت في السجن وبعد يومين مثلت أمام المحكمة. كان محامي الدفاع الأستاذ شارل حلو الذي دافع عني بشكل جيد. كانت المحكمة مقتنعة بتلفيق التهمة ضدي لكنها لم ترغب في تكذيب الضابط الكبير، وحكم عليّ بالسجن 15 يوماً.

الأحزاب الأرمنية وطريق النضال التحرري من أجل الإنقاذ

الأحزاب الأرمنية الوطنية الموجودة في لبنان يرتبط تاريخ تأسيسها، في القسم الثاني من القرن التاسع عشر، بالنضال الوطني التحرري ضد ظلم العثمانيين، وضد الاحتلال التركي القسري الذي ظل مفروضاً على أراضي أرمينيا مع العلم بأن سكانها الأصليين كانوا من الأرمن على مرّ التاريخ.

كان ذلك منذ ألف سنة عندما قدمت للمرة الأولى، آتية من آسيا الوسطى، قبائل البرابرة الأتراك الذين اجتاحوا هذه الأراضي واستوطنوها وأبادوا بوحشية السكان الأصليين من أبناء الشعب الأرمني، وعملوا في الوقت نفسه على الاستفادة من قدرات الشعب الأرمني الخلّاق والمبدع على صعيد السلطة والتجارة والمال والصناعة والبناء، وفي المهن وفي الفن وعلى الصعيد الثقافي.

عرفت حركة التحرر الوطني الأرمني دفعاً نضالياً جديداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما وقعت اتفاقية سان استيفانو 1878 ـ اتفاقية السلام بين روسيا وتركيا وفي إطارها طرحت رسمياً لأول مرة،

وتحولت إلى قضية عالمية، قضية الولايات الأرمنية الست الواقعة تحت سيطرة تركيا، ووُضعت أسس للقيام بإصلاحات وحصل الشعب البلغاري على استقلاله وحقه بإنشاء دولة وطنية مستقلة، نتيجة لنضاله الثوري الوطني التحرري وبعد معارك ومواجهات دموية طويلة.

لكن اتفاقية سان استيفانو وما تضمنته من إيجابيات لمصلحة الأرمن عادت وتقلصت في اجتماع برلين للسلام عندما أعيد النظر في الاتفاقية حول الولايات الأرمنية الست، واستبدلت بمشروع غير علمي.

أدّى ذلك إلى ضياع آمال الأرمن، فطرحوا شعاراً عاماً يطالب بمعاملتهم أسوة بالبلغار.

ضمن هذه الأجواء، وبهدف إطلاق حركة التحرر الوطني الثوري تأسس حزب الهنشاك سنة 1887 وحزب الطاشناك سنة 1889. (هذان الحزبان يعملان حالياً في لبنان وفي مراكز تجمع الأرمن في العالم). وعلى أساس هذه الأهداف تأسس عام 1858 في مدينة ڤان، حزب «أرميناكان»، غير أنه عاد واختفى من الساحة ابتداءً من العام 1896.

هذه الأحزاب الوطنية الأرمنية نظمت وقادت نضالات بطولية. كان لديها مقاتلون فدائيون شجعان، متفانون لا يهابون الموت، واستشهد من بينهم المئات. ولكن هذه الأحزاب لم تستطع، حتى خلال عام 1915 إبان المجازر العرقية، تشكيل جبهة وطنية موحَّدة، فكان قادة حزب الطاشناك ينطلقون دائماً من حساباتهم الضيقة، ولهذه الأسباب فقد ضعفت المواجهة الوطنية.

إلى ذلك، تأسَّس في عام 1908 حزب الرمغافار «الديموقراطيون الأحرار»، وهو حزب بورجوازي محافظ يعمل اليوم في الساحة اللبنانية وفي بلدان الاغتراب.

ولقد لجأت السلطة التركية إلى ارتكاب مجزرة عنصرية ضد الشعب الأرمني مستفيدة من جميع إمكانيات السلطنة. جرى إبادة ثلاثماية ألف

أرمني عام 1896 و30 ألفاً سنة 1909، أما في عام 1915 إلى عام 1921 فمليوني ضحية دونما تمييز لا بالعمر ولا بالجنس.

ورغم التضحيات غير المحددة للشعب الأرمني وأعماله البطولية، فإن الأحزاب الوطنية الأرمنية وخطها السياسي، وقيادتها للنضال لم تؤدِّ إلى انتصار في النضال التحرري.

في المقابل، حقيقة مطلقة لا سبيل إلى إنكارها، وهي أن انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، قد أتاح، كما كان يتوقع فريدريك انجلس منذ عام 1894، انتصار النظام السوفياتي في أرمينيا في 29 تشرين الثاني 1920 بقيادة الحزب الشيوعي في أرمينيا، وبفضلهم وحدهم انتصرت القضية الوطنية والاجتماعية للشعب الأرمني بعد نضال استمر قروناً بأسرها. أصبح لدى الأرمن وطن عظيم هو أرمينيا السوفياتية.. وطن قوي، منيع أمنياً، يزدهر بسلام ويحقق تطوراً ونمواً على مستويات عالمية.

الحزب السوري القومي والمبعوث أندريكيان

تأسس الحزب السوري القومي الاجتماعي في عام 1935 بمبادرة من أنطون سعادة وبرئاسته وبقيادته، وهو ابن عائلة متفانية في الدفاع عن الحقوق الوطنية العربية مقيمة في البرازيل ومن منشأ لبناني.

تأسَّس هذا الحزب عندما كان الحزب الشيوعي مندفعاً إلى حركة التحرر الوطني العربي ويزداد نفوذه السياسي داخل البلاد وقدرته التنظيمية، محاطاً بالعمال والجماهير الشعبية والشباب المثقف. في تلك الفترة كان بعض الشباب المثقف الوطني المعادي للاستعمار في حالة ضياع حيال الموقف من النازية والفاشية، ولم يستطيعوا معرفة حقيقتهما ولم يدركوا أن انتصار الامبريالية النازية والفاشية لا يُمَكنُنا من التحرر من براثن الاستعمار.

البرنامج السياسي للحزب القومي السوري يهدف إلى وحدة سوريا في حدودها التاريخية. وقد اعتبر الرأي العام الوطني العربي هذا البرنامج تنازلاً عن الوحدة العربية الشاملة.

تأثر الحزب القومي سياسياً وإيديولوجياً في أسلوب عمله وتنظيمه، عند فترة نشوئه، بالمبادىء النازية والفاشية. وانطلاقاً من هذا الخطأ فقد اعتبروا أنهم اختاروا أفضل طريق لنضالهم القومي. وقع هذا الحزب تحت تأثير بعض القوميين العرب الذين دفعهم تطرفهم إلى أحضان النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين، هذا عدا صلات بعض قادتهم ممن اختاروا لأنفسهم خلال الحرب العالمية الثانية أماكن إقامة في روما وفي برلين لخوض النضال ضد المستعمرين الإنكليز والفرنسيين للوصول إلى أهدافهم العادلة، لكنهم نسوا أن النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين هم أكثر عداء لتحرر الشعوب العربية المناضلة، وكذلك لتحرر جميع الشعوب.

سلك الحزب القومي السوري نهجاً انقلابياً وقام بمحاولات انقلابية خالية من جدية التنظيم، عام 1949 ضد الرئيس بشارة الخوري وأوائل حكم اللواء فؤاد شهاب. وعام 1954 اغتالوا في دمشق بشكل إرهابي الضابط الشاب قائد الأركان الوطني عدنان المالكي. نشير هنا إلى أن حزبنا في سوريا أطلق بمناسبة هذا العمل الإرهابي شعار "وحدة الجيش والشعب".

اتخذ الحزب القومي منذ انطلاقه موقفاً عدائياً من الشيوعية ومناوئاً للحزب الشيوعي، وذلك دون تعمق ومعرفة لفكره وأهدافه ولسياسته وإنما على أساس قناعات مسبقة.

وفي الحقيقة، فانطلاقاً من سياسة الحزب القومي وربما نتيجة لاغتيال عدنان المالكي، تعرض هذا الحزب لضربة قاسية في سوريا ونشأ وضع صعب بالنسبة إليه. وسعياً لإيجاد وضع ملائم لعمله في لبنان لجأ الحزب في العام 1958 خلال فترة الانتفاضة الشعبية، إلى حمل

السلاح لمصلحة حزب الكتائب والطاشناك وقوات الشماعنة دفاعاً عن سلطة الرئيس كميل شمعون الذي كان مرتكزاً على مبادىء ايزنهاور حتى قبل إقرار الكونغرس الأميركي هذه المبادىء.

وفي تلك الأيام حصل ما لم يكن متوقعاً. حصلت مفاجأة. فقبل انتهاء الانتفاضة الشعبية بحوالى الشهرين، ولم يكن الجيش الاميركي قد نزل على الشواطىء اللبنانية، اتصل بي شخص أرمني اسمه اندريكيان مقترحاً لقاء معي على انفراد. وافقت على هذا الاقتراح. جرى اللقاء في بناية تقع خلف أوتيل نورماندي، واقترح اندريكيان باسم الحزب القومي أن أبلغ الحزب الشيوعي ما يلي: "الحزب القومي السوري مستعد للانضمام إلى الانتفاضة الشعبية وأن يقطع رقبة كميل شمعون إذا ضمن إطلاق سراح المعتقلين القوميين السوريين في سجون سوريا».

بلّغت هذا الاقتراح إلى حزبنا. ولكن، نتيجة قناعتنا المسبقة ونظرتنا إلى الحزب القومي ونهجه السياسي وممارسته، لم يأخذ حزبنا هذا الاقتراح على محمل الجد ولم يتابع هذا الموضوع.

هكذا انتهت مهمة أندريكيان. تُرى، هل من المعقول أن يكون هدف هذه المبادرة فقط هو إطلاق سراح المعتقلين من سجون سوريا؟ أم كان قد بدأ داخل قيادة هذا الحزب بروز مواقف وتيارات مختلفة في تلك الفترة؟

ما يستحق الإشارة إليه في هذا المضمار، هو أنه منذ عام 1959 وبعده حاول بعض قادة هذا الحزب الاتصال مع الاتحاد السوفياتي.. وجرت اتصالات بهذا الاتجاه.

أما المعلومات التي تكونت لدي عن أندريكيان فتفيد بأنه كان موضع ثقة قيادة الحزب القومي، وكان بعض قادة الحزب يقيم في منزله إبان فترة الانقلاب العسكري.

وكحقيقة إيجابية يجب أن ننوّه بارتياح بأن قادة في الحزب السوري

القومي الاجتماعي أخذوا يطرحون تدريجاً إعادة النظر في خطهم السياسي ونهجهم، نتيجة التطور التاريخي ومتطلبات الحياة.

وبفعل سياسة ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى وأهدافها المجيدة ونتيجة لسياسة الاتحاد السوڤياتي ودوره على النطاق العالمي في تفجير الثورة وإنهاء المستعمرات والمساعدة على تطوير النضال التحرري المعادي للامبريالية في جميع أنحاء العالم، ومنها على صعيد معركة شعب لبنان الوطنية والاجتماعية من أجل الديموقراطية والتقدم، وفي ظل تصاعد موجة النضال الوطني الديموقراطي حيث انوجد داخل البلاد وضع ثوري على المستوى الوطني والاجتماعي والسياسي، ونتيجة نمو الثورة الفلسطينيّة، والمواجهة المشتركة للمشروع الصهيوني ـ الانعزالي في لبنان... في هذه الأجواء لم يستطع الحزب القومي الوقوف موقف اللامبالاة ولم يشأ البقاء خارج المجرى التاريخي العاصف، وإنما قام بدوره في هذا الاتجاه، في ما ينبغي وصفه بأنه موقف بطولي وانعطاف تاريخي كبير. وهو قد قرّر التخلي عن توجّهه السابق الذي أثبت عدم صحته وليس له آفاق. وبدأ القوميون تدريجاً باتخاذ خطوات وتوجّهات جديدة وتحولوا إلى شريك في النضال الثوري في الجبهة التي تضم الحزب الشيوعي والحزب التقدمي الاشتراكي وسائر القوى الوطنية في النضال ضد الفاشية والرجعية وضد الامبريالية من أجل التقدم، ومن أجل لبنان عربي ومستقل وضد الاحتلال الإسرائيلي، ولمصلحة الوحدة مع سوريا؛ ومع إصلاح ديموقراطي، مع ثورة وطنية ديموقراطية في لبنان، وتحول إلى حزب صديق للاتحاد السوڤياتي.

ولاشك أن تحديد موقف صحيح من قبل حزبنا في مؤتمره الثاني من القضية الوطنية ومن النضال القومي، قد لعب دوراً في كسر طوق العداء للشيوعية لدى أوساط قومية شريفة واسعة، كما لعب كمال جنبلاط دوراً هاماً في توحيد القوى التقدمية والوطنية وفي تحقيق وحدة العمل بيننا وبين الحزب القومي.

حزب الكتائب

في عام 1933 كانت ألمانيا الهتلرية هي الواقفة بقفص الاتهام في محاكمة لايبزيغ، حيث وجه جورجي ديمتروف ضربة قاصمة إلى السلطة الهتلرية التي «تَشَرْشَحَتْ» عالمياً منذ ذلك الحين. ثم في عام 1935 الهجوم الإيطالي على إثيوبيا، وبعده انتصار الفاشية في إسبانيا سنة 1936... هذه التطورات جاءت تدفع إلى تصاعد النضال الشعبي المعادي للفاشيّة في لبنان بمبادرة من الحزب الشيوعي.

كان الحزب الشيوعي قبل حصوله على ترخيص رسمي يمارس نشاطاً واسعاً، فارضاً علنيته وتشهد المنظمات الحزبية نمواً ملموساً وخصوصاً في صفوف العمال والفلاحين وبين الجماهير الشعبية وأيضاً في أوساط المثقفين، وقد تضاعف دوره السياسي المبادر وتأثيره.

في فرنسا حققت الجبهة الشعبية انتصاراً كاسحاً في تلك الآونة. وفرض على حكومة ليون بلوم، بمبادرة من الحزب الشيوعي وبمشاركة فئات واسعة من العمال والجماهير الشعبية والمثقفين الوطنيين والقوى الديموقراطية، اتخاذ بعض الإجراءات المعادية للفاشية حيث كان بعض كبار المفوضين الفرنسيّين في بيروت في مواقع معادية لحكومة باريس الجديدة، ومؤيدين للفاشيين الفرنسيين وللرجعية والمكتب الثاني وأيدي التخريب. وقد بادر هؤلاء الفاشيون إلى تنظيم حركة فاشية في لبنان. واتصل مسؤول المكتب الثاني بالشيخ بيار الجميل الذي كان رياضياً معروفاً في الوسط الرياضي اللبناني، وفي حينه دُعِيَ بيار الجميل إلى ألمانيا الهتلرية لحضور مهرجان رياضي وعاد إلى لبنان تحت تأثير كبير من حركة الشباب الهتلرية، وقد فُتن بمبادئ النازية تنظيمياً وعملياً. كان مستعداً لنسخ ما شاهد وتطبيقه في لبنان. بعد اتفاقه مع رئيس المكتب الثاني الفرنسي وضع الأخير جميع الإمكانيات تحت تصرفه.

وأسس الشيخ بيار الجميل حزب الكتائب الطائفي سنة 1936 ليكون

حارساً أميناً لمصالح البورجوازية اللبنانية الكبرى وليعمل على أساس الأسلوب الفاشيّ ويقتبس النهج النازي. وهو قد تلقى مساعدات في المجال التنظيمي.

في البداية نظم وحدات عسكرية شبيهة بالقوات الهتلرية وتحولت في وقت لاحق إلى قوات فاشية مسلحة. وخلال الحرب الأهلية اللبنانية سمّوا أنفسهم «قوات لبنانية».

إذا كان الحزب القومي السوري قد نسخ الأسلوب النازي والفاشي في منهجه وتنظيمه وسلوكه وارتكز على النازيين الألمان والفاشيين الطليان في نضاله ضد المستعمرين الفرنسيين والإيطاليين لمقاتلتهم في الأراضي العربية المحتلة، فإن حزب الكتائب تأسس كحزب فاشي «نقيّ» على أساس أهداف رجعية نازية وفاشية وطائفية، فكراً وممارسة، وبصفته أداةً للاستعمار... لكل الامبرياليين، كقاعدة لهم وللرجعية الداخلية في لبنان، وكقاعدة للامبريالية في العالم العربي وللرجعية العربية.

أخذ حزب الكتائب الناشئ، المبادرة لإعلان دفاعه عن مصالح الفئة الميسورة والأكثر رجعية من المارونية السياسية، وبالتالي مصالح مجمل الفئات الرجعية في لبنان حتى ضد مصالح الفئات العمالية والشعبية من الموارنة.

استغل حزب الكتائب الناشئ طيبة المؤمنين الموارنة والمسيحيين عموماً، داعياً إياهم إلى التعصب ومعاداة العروبة، ناشراً الفكرة الانعزالية التي تجعل من لبنان كياناً معادياً للعروبة، وعمل لتكريس تناقضات طائفية ومذهبية بين اللبنانيين تحت شعار «لبنان المسيحي في خطر»، واستنفار الغرائز للدفاع عنه، وما إلى ذلك من شعارات مصطنعة.

وحزب الكتائب منذ نشوئه بدأ معادياً للشيوعية وللقوى الديموقراطية والوطنية، ومناوئاً للحركات العمالية والشعبية ومعادياً لمطالبها السياسية والاجتماعية ومناهضاً لحركات التحرّر الوطني التقدمي.

... ووسع حزب الكتائب تدريجاً إطار «خدماته» بدخوله مباشرة

مضمار التعامل مع الصهاينة وإسرائيل، مع الولايات المتحدة والقوى الامبريالية والأطلسية وما يرتبط بها من مؤسسات تجسس. ولجأ مع قوى رجعية عربية وعالمية إلى تنفيذ المؤامرة الدامية التخريبية في لبنان بإشعال الحرب الأهلية منذ 13 نيسان 1975.

أما تطوره اللاحق فسوف نتناوله بالتفصيل في صفحات لاحقة.

المعاهدة اللبنانية ـ الفرنسية و«النزاعات الطائفية»

تحت ضغط الانتصار النسبي الذي حققه النضال التحرُّري السوري من أجل الاستقلال، وفي مسعى لتطويق النضال الوطني من أجل استقلال لبنان اضطرت السلطات الفرنسية إلى وضع معاهدة لبنانية ـ فرنسية وقعتها في خريف عام 1936 مع حكومة بيروت المعينة من جانب الانتداب الفرنسي بالذات.

المعاهدة الجديدة لم تأتِ بجديد على صعيد الاستقلال السياسي والوطني ووضع السلطة وبقي الانتداب الفرنسي عملياً وقانونياً دون أي تعديل يُذكر.

في تلك المرحلة كان التيار المسيحي الأوسع، تحت تأثير البورجوازية والفئات الرجعية العليا من الطائفة المارونية وهي أكبر الطوائف المسيحية. كان هذا التيار على خلاف مع الطوائف المسيحية ومع الوطنيين المسيحيين حول الاستقلال الوطني وحول الموقف السياسي منه. وفي ظروف غياب الوحدة الوطنية، كان من الصعب عملياً تطوير النضال الوطني على غرار ما عاد وحصل في عام 1943 حيث رفضت مجمل الفئات اللبنانية الانتداب وشاركت الأكثرية المسيحية في معركة الاستقلال الوطني التام، الأمر الذي لعب دوراً حاسماً في إحراز النصر.

لقيت معاهدة 1936، التي رفضها المسلمون والمسيحيون الوطنيون،

ترحيباً حماسياً لدى المارونية السياسية والرجعية، ممن اتكلوا على سلطات الانتداب الفرنسي، فيما كانت فكرة «الدفاع عن الإسلام» تُطرح هي أيضاً بصورة خاطئة أحياناً.

وفي الواقع، فرغم مجمل الظروف المعيقة والانقسام الوطني الحاصل، فقد كانت تتركز في منتصف الثلاثينيات إمكانيات كبيرة لمتابعة معركة الاستقلال الوطني ومواجهة الانتداب وسياسته. لذا لجأت أجهزة الانتداب الفرنسي بمساعدة القوى الفاشيّة المحليّة، وانطلاقاً من سياسة «فرّق تسد»، إلى توقيع معاهدة جديدة علّها تخدم أهداف المستعمر وتستثير اشتباكات بين المسيحيين والمسلمين وتخلق نزاعات وأحقاداً بين الطوائف. وبهدف تنفيذ هذا المخطط فقد استخدموا ووجّهوا عملاءهم واستفادوا من التيار الماروني المتعصب والفئات المؤيدة للمعاهدة وأصحاب الطروحات المتشنجة من دعاة مقاتلة المسلمين والعرب. بل أكثر من ذلك، فبعد انتصار الجبهة الشعبية في فرنسا تبلورت مؤامرتهم عبر تنظيم ما يسمًى بالقمصان البيض، قوامه فريق من «المسيحيين» الموتورين ووفق أسس فاشية، وأكثرهم من اللصوص ومعظمهم من المرتزقة وعملاء المستعمر... ومع الأسف فقد شاركتهم أوساط سياسية مارونية انطلاقاً من التعصب الرجعي.

يوم توقيع المعاهدة اللبنانية ـ الفرنسية وتحت شعار التحضير للاحتفال بهذه المناسبة نظّمت تظاهرة استفزازية في الأحياء الإسلامية وصاروا يهتفون بشعارات استفزازية بغية جرّ المسلمين إلى رد فعل فوري. في الليلة نفسها حصل صدام مسلح على الطريق الذي يربط البسطة بالنهر عبر ساحة البرج، وحصلت عملية تخريب للمحال المجاورة لساحة الشهداء.

في عصر ذلك اليوم كنت مع عائلتي في زيارة منزل صديق لحزبنا هو هاغوب دردريان. ويقع المنزل قرب شارع النهر مكان معمل البيرة الحالي. لم نكن قد تبلّغنا الحادث ولم نتوقع صداماً. وفجأة ومع بداية

واجب الضيافة سمعت أصوات إطلاق نار... متظاهرون يهتفون ويصرخون... خرجت فوراً إلى الشارع، رأيت حشداً من الأرمن منطلقين من كمب حاجن والأحياء الأرمنية وهم يهتفون. وقفت أمام المتظاهرين فرأيت بعض الذين أعرفهم ويثقون بي يقودون التظاهرة. كانوا ضحية محرّض. أشرت إليهم بأن يهدأوا ثم طرحت عليهم السؤال: إلى أين أنتم سائرون؟ ولأي سبب؟! أجابوا: «إن المسلمين في أحيائهم أحرقوا الكنيسة الأرمنية وهجموا على منازل الأرمن، نحن ذاهبون للدفاع ولمساعدة المعتدى عليهم».. أجبتهم بأن هذه الأخبار كاذبة وصادرة عن أناس سيّئي النية بغية خلق عداوة بين الأرمن والمسلمين.. وهم لم يحرقوا كنيسة الأرمن ولم يعتدوا على منازلهم، يجب وقف التظاهرة والعودة فوراً إلى أحيائكم.. أوضحت لأبناء شعبنا هذه الحقيقة وهدأت من روعهم ونصحتهم بعدم الانجرار وراء الشائعات المغرضة. عاد المتظاهرون إلى أحيائهم ووعدوني بإبلاغ جميع السكان بالحقيقة، لتهدئة الوضع في الأحياء. ثم ذهبت إلى أحيائنا وجمعت رفاقنا وأوضحت لهم الوضع وطلبت منهم العمل الفوري للتوعية وتهدئة الناس جميعاً لعدم الانجرار وراء أكاذيب المحرضين والمغرضين.

تأكد لنا أن وراء هذه الإشاعات المغرضة العميل الملقب بـ «داوود شاووش»، من أصل أرمني، مأجور لدى سلطات الأمن الفرنسية. وصل إلى ساحة كمب حاجن وأطلق النار من مسدسه؛ تجمع الناس، فصرخ بهم قائلاً: «أيها الأرمن لماذا أنتم ساكتون؟! هبّوا لمساعدة إخوانكم الأرمن في الأحياء الإسلامية حيث أحرق المسلمون الكنيسة الأرمنية وبيوت الأرمن».

ولاذ العميل المذكور بالاختفاء عن الأنظار بعد تحريض السكان.

اتصلت فوراً بالرفاق فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي وفؤاد قازان، وكان هذا الأخير بعد خروجه من السجن كلف القيام بأعمال حزبية مسؤولة. واتخذنا القرارات اللازمة. كلف فؤاد قازان صياغة بيان باللغة

العربية، وصغتُ أنا بياناً بالأرمنية، طُبعا ووزعا بشكل علني: البيان العربي وزع في الأحياء المسيحية والإسلامية والبيان الأرمني في الأحياء الأرمنية. أوضحنا في البيانين أن وراء هذه الإشاعات والأحداث الجارية المستعمرين وعملاءهم الفاشيين لجر شعبنا إلى صدامات طائفية وضرب وحدة النضال الوطني من أجل الاستقلال . ودعوناهم لتجنّب الوقوع ضحية الإشاعات، والحفاظ على وحدة الصف الوطني والتنبّه للمؤامرات التي تحاك ضد نضالنا من أجل الاستقلال، والتيقُّظ للفتنة. إلى ذلك، نظمنا اجتماعات جماهيرية موسعة وتكلمت والرفيق فؤاد قازان موضحين الحقيقة للشعب داعين إياه للتصدي ومواجهة جميع المؤامرات والدعوات الصدامية بين المسلمين والمسيحيين، شاجبين محاولات التفرقة بين المسيحيين والمسلمين.

ووضعنا يافطات في الشوارع العامة تحمل المضمون السياسي نفسه. وركزنا على الأحياء الأرمنية وبشكل خاص في شارع النهر قرب كمب حاجن.

وأقمنا سهرة سياسية موسعة في المدرسة الابتدائية الأرمنية ساحقيان في كمب حاجن.

وبينما كان الرفيق فؤاد قازان يلقي كلمته حاول رجال الشرطة اعتقاله، فأكمل حديثه وحمل بشدة على المستعمر، وقد تصدّت الجماهير للشرطة ولم تسمح لهم بالاقتراب من الرفيق قازان لاعتقاله، وغادر المكان بحماية رفاقنا.

في اليوم التالي لحادث بيروت، وضمن إطار المخطط التآمري قام بزيارة منزل الدكتور ملكون هيرابديان في شارع النهر (حي مار مخايل) المدعو يوسف زخيا، وكنت أعرفه وهو شخص مرتبط بالسلطات الفرنسية، متعصب طائفياً مغلق في «مارونيته» شديد التزمّت، ويعتبر، نفسه وطنياً. جاء على رأس وفد اختار أعضاءه ليكونوا على صورته ومثاله، فكراً وممارسة، وقد وصلوا للتعبير عن «الصداقة المارونية تجاه

الأرمن». عندما علمت بأمر هذه الزيارة توجّهت على الفور بصحبة رفيقين إلى منزل الدكتور هيرابديان لحضور اللقاء ومعرفة ما يجري عن قرب. ابتدأ يوسف زخيا بالكلام وقال: «الأرمن والموارنة مصالحهم مشتركة. إن البطريرك الماروني ساعد الأرمن واستقبلهم في لبنان بكل ترحاب وقدم مساعدة وطنية كبيرة لهم». وأكمل: «إن المسلمين يشكلون خطراً على المسيحيين في لبنان». وأنهى حديثه باستنتاج يقول إنه «يجب على الأرمن والموارنة، كمسيحيين، أن يتوحدوا لمواجهة الخطر الإسلامي». وهو، بلا شك، حديث يشكل قمة الفتنة.

بعد انتهائه من الكلام سمحت لنفسي بالردّ وقلت: «صحيح أننا نحن الأرمن مسيحيون كما أنتم الموارنة مسيحيون مثل غيركم من الطوائف المسيحية ونعتز بالمساعدة الإنسانية للبطريرك الماروني صاحب القلب الكبير تجاه الأرمن، وكذلك نشكر الطائفة المارونية على مساعدتها للأرمن. ولكن، رغم ذلك فشعبنا اكتسب تجارب كبيرة خلال قرون وقرون، وانطلاقاً من هذه التجارب نعلن نحن الأرمن اعتراضنا بشكل مطلق على الدخول في المعارك الطائفية. نرفض أن نكون فريقاً في العداوة المصطنعة بين المسيحيين والمسلمين ونعتبر هذا خطراً على لبنان، ونناشد الأخوة اللبنانيين وحدة الصف والابتعاد عن التفرقة الطائفية».

استغرب الوفد ورئيسه يوسف زخيا سماع هذا الكلام غير المنتظر. حاولوا الدفاع عن آرائهم فلم يوفقوا، وغادروا المنزل باكتئاب. كان الدكتور صاحب المنزل في وضع لا يحسد عليه، وقد بدا عليه الارتباك لكنه سكت على مضض.

بناءً على هذا الحادث قررنا أن نكون على وعي تفصيلي بما يدور حولنا من فتن. ولاحظنا في الليلة نفسها تجمعاً من الناس في الكنيسة المارونية بالحي. قررنا إرسال الرفيق فؤاد قازان مع رفاق من الحي إلى داخل الكنيسة. في هذه الأجواء سمعنا إطلاق نار لتوتير الأجواء. دخل الرفيق قازان الكنيسة بثقة متكلاً على وجود رفاقنا داخل الكنيسة. وتكلم

موضحاً حقيقة الأحداث الجارية في تلك الأيام، داعياً لعدم الذهاب ضحية الفتن والدعايات الكاذبة المغرضة. حديثه خلق بلبلة داخل الكنيسة. هنا أيضاً أحبطت المؤامرة وانفرط عقد الاجتماع. كانت أجواء الفتنة مستمرة في المدينة، والصحف المؤيدة لهم استمرت بالكتابة حول حادث البرج وحاولت كسب الأرمن إلى جانب «المسيحيين» بهدف خلق شك لدى المسلمين إزاء الأرمن. تحت تأثير هذه الأجواء رأيت أن من الضرورة بمكان، اتخاذ قرار مناسب للتعبير عن موقف الأرمن الحقيقي من الأحداث الجارية. فبادرت إلى تشكيل وفد أرمني لزيارة القائد الوطني المسلم رياض الصلح، حيث كانت لي معرفة به. انطلاقاً من هاجسي الوطني والسياسي رأيت ضرورة مشاركة حزب الهنشاك في الوفد.

لم أفكّر في إشراك الطاشناك إذ كانت لهم مواقف سياسية لا تنسجم مع مواقفنا. أجريت مفاوضات استمرت ثلاثة أيام مع قيادة حزب الهنشاك لنيل موافقتهم على اقتراحنا لتسمية ممثليهم.

توجه الوفد بقيادتي إلى الأحياء الإسلامية حيث كان في انتظارنا مجموعة من الشباب المعروفة لدي للقيام بحراستنا. توجهنا إلى منزل رياض الصلح وطرحت هناك حقيقة الموقف الأرمني بحضور الشخصيات الإسلامية المعروفة، مفسراً الموقف من الأحداث الجارية ومحاولات الفتنة. قوبل موقفنا بالارتياح، وبكلام إيجابي بحق الأرمن من حيث أن الشخصيات الإسلامية كانت على علم بممارستنا العملية خلال هذه الأحداث، ويعرفون أن موقفنا ليس كلامياً فقط.

كانوا على علم بكيفية حماية الجامع قرب كمب حاجن ومعمل الطحين الذي تملكه عائلة إسلامية (براج) وكيف حماه رفاقنا من التدمير والحرق. ذلك أن العائلات الإسلامية القاطنة في الكرنتينا قرب كمب حاجن كانت على صلة برياض الصلح وقد أعلمته بتفاصيل هذه القضايا. وما لبثت جميع الأطراف الأرمنية أن تبنّت هذا النهج السياسي.

إضراب عمال الأفران

في صيف 1936 أعلن عمال الأفران الإضراب مطالبين بتحسين ظروف العمل الصحية حيث كانوا يشتغلون من 10 إلى 12 ساعة يومياً وبأجور متدنية. كانت مطاليبهم تتعلق بتحسين ظروف العمل الصحية، وتخفيض ساعات العمل، وزيادة الأجور.

استمر الإضراب أياماً كثيرة وبقي العمال المضربون موحَّدين ومصرِّين على مطاليبهم حتى تحققت. وقد نظم الإضراب وقاده كل من عارف خداج وكامل فقيه.

كوادر حزبية جديدة في بيروت وبين الأرمن

خلال أعوام 1934ـ1936 كانت الكوادر الحزبية النشيطة من الرفاق العرب تتألف من: يوسف خطار الحلو ـ فايز يارد ـ فؤاد قازان ـ مصطفى العريس ـ سعد الدين مومنة ـ حنا الزرقا ـ توفيق جمال ـ رامز دميانوس ـ ميشال عازار ـ رشيد إمام ـ جورج حداد ـ الياس بواري ـ عارف خداج ـ جورج قازان ـ أنطوان سركيس ـ فؤاد ناصر الدين ـ خليل الحلو ـ نجيب شلهوب ـ سليمان حلاق ـ جورج عيان ـ مجدلاني، ورفاق كثيرون غابت أسماؤهم عن ذاكرتي مع الأسف. وكنت على علاقة شخصية بهم جميعاً، ولا سيما النقابيون من كوادر نقابة الطباعة.

وفي تلك الفترة انضم إلى صفوف الشيوعيين الأرمن كوادر جديدة هم الرفاق يبرم الليزيان ـ أرسين كريكوريان ـ بارور يرتسيان ـ قره بت باشابزيان ـ هاكوب بيدويان ـ شاورش مهرانيان ـ مهران أوهانيان ـ مكرديش دلدميان ـ آرام كازنجيان ـ بارور بلكجيان ـ قدموس بلكجيان ـ يروانت مهرانيان ـ هاكوب ناجاريان ـ قره بت ماركاريان ـ موسيس ماركاريان، سركيس مرديريان ـ رفايل جمكوتشيان ـ سيبونيك

جمكوتشيان ـ كريكور كستنيان ـ كابريال أبيكيان ـ سروب ابيكيان ـ نوبار يانكيان ـ انطون طوغلاجيان ـ البير بوليسيان ـ بدروس تشمبديان ـ هاكوب بربريان ـ سروب سبكوكيان ـ سركيس بلوديان ـ هاكوب كاراخانيان ـ موسيس غازاريان ـ اريستاكيس (ذهب إلى اسبانيا وقاتل ضد الفاشية واستشهد هناك) ـ فاهيه (من بلاد ڤان) ـ قره بت بابازيان ـ يروانت بلوزيان ـ اطام يغيايان ـ كاوبوي هاكوب ـ كورك ماسريجيان ـ انترانيك ايمويان ـ ساهاك برزيان ـ والرفيقات ماري كيفدورليان ـ أرشالوز تيلاليان ـ برجوهي بلكجيان ـ ماري ازنافوريان، إلخ.. ومن الصعب أن أستطيع تذكر أسماء كثيرة.

استنتاج حول وضع الحزب ونشاطه في أعوام 34ـ36

من أوائل العام 1934 إلى أواخر العام 1936 عاش الحزب مرحلة نمو وحركة حزبية دائمة. اتسعت ميادين عمل الحزب سياسياً وشعبياً ونقابياً، تعاظم دور الحزب في مصاف القوى المناضلة في حركة التحرر العربي على قاعدة وحدة القوى في النضال المعادي للامبريالية ومن أجل الاستقلال والتحرر الوطني. بكلمة أخرى، فقد سلك حزبنا منهجاً سياسياً صحيحاً انطلاقاً من واقع بلادنا في تلك الفترة. ارتبط نضالنا التحرري بالنضال الديموقراطي الوطني المعادي للاستعمار بمحتوى ثوري. على هذه الأسس كمّل حزبنا خط ثورة حركة التحرر الوطني العربي المناهضة للامبريالية، متضامناً مع قوى عربية أخرى. كانت هذه بمثابة خطوة أولى للخروج من العزلة السياسية داخل حركة التحرر الوطني.

يجب التنويه بأن الرفيقين أبو داوود وسليم خياطة شاركا في بلورة هذا الخط وفي تنفيذه.

في تلك السنوات توسعت منظمات الحزب في جميع المناطق في الوسطين العربي والأرمني.

انضم إلى صفوف الحزب عدد كبير من الرفاق وتطورت كادراته وازداد وزنه ودوره القيادي لدى العمال والفئات الشعبية وفي بعض المناطق الريفية، وأيضاً بين المثقفين وفي الأوساط الوطنية.

... وبقيتُ وحيداً!

كما ذكرت في الصفحات الماضية، فابتداء من عام 1934 بقي من أعضاء اللجنة المركزية ثلاثة: أنا وأبو داوود في بيروت وناصر حدّه في دمشق.

كانت بيروت مركزنا. وكان ناصر حدّه يأتي إلى بيروت بشكل متقطع وكنت أذهب مرة في الأسبوع تقريباً إلى دمشق لتبادل الآراء مع ناصر حدّه والاطلاع على نشاط منظمتنا في دمشق.

بعد اعتقال أبو داوود في فترة غيابه وإبعاده عن البلاد بقيت لوحدي. كان الوضع صعباً جداً وغير طبيعي. ولتخطي الصعوبات وضمن إطار صلاحيات استثنائية فقد اعتبرتُ الرفاق سليم خياطة ونقولا شاوي وفرج اللّه الحلو بمستوى أعضاء اللجنة المركزية، فكنت على صلة دائمة بهم ورحنا نتباحث في كل المجالات قبل أن يكونوا رسمياً أعضاء في اللجنة المركزية. وابتداء من شهر آذار عام 1936 قام الرفيق فرج اللّه الحلو عملياً بأعباء منصب أمين عام اللجنة المركزية، وكنت في تلك الفترة على صلة دائمة أيضاً مع الرفيقين يوسف خطار الحلو ولويس صعب.

أول نشاط علني للشيوعيين الأرمن

قبل أن أنهي مذكراتي لفترة عام 1936 أود تسجيل نشاطين علنيّين قام بهما الحزب.

ففي تلك السنة تألفت وزارة جديدة برئاسة خير الدين الأحدب الذي كان يسعى لاكتساب «شعبية»، نظراً لافتقاره إلى قاعدة قوية تسانده. ولقد

رأينا، والحالة هذه، أن نقوم بزيارته باسم لجنة ثقافية أرمنية عارضين عليه رعاية احتفالنا. قبل هذا العرض بكل ترحاب وأمّن لنا ترخيصاً لهذا النشاط. كان احتفالنا تكريماً لذكرى المناضل الثوري الأرمني الديموقراطي الكبير المناضل من أجل الحرية ميكايل نالبانطيان. جرى الاحتفال في ملعب مدرسة ساحقيان الكبرى بحضور أكثر من ستة آلاف مشارك. كان هذا في الحقيقة أول نشاط علني بارز للشيوعيين الأرمن، وأيضاً أول نشاط ثقافي ذي محتوى سياسي.

وأقمنا في السنة نفسها، خلال شهر تشرين الثاني احتفالاً في قاعة مدرسة ساحقيان الكبرى من دون ترخيص مسبق. هذا الاحتفال الكبير الثاني أقامه الحزب تحية للكاتب الأرمني البارز أوهانس طومانيان بحضور جماهير غفيرة.

«الكونفرانس».. والمرحلة الجديدة

في كانون الثاني عام 1937 عاد الرفيق خالد بكداش من فرنسا. وعقد في شهر شباط الكونفرانس الجديد للحزب في دمشق. قدم الرفيق بكداش تقريراً حول تحركاته السياسية وأعماله وحول الوضع السياسي الراهن والمهمات المطروحة أمام الحزب. ولقد أحدث هذا الاجتماع انعطافاً في تاريخ الحزب.

شرعنا في العمل العلني رغم عدم الاستحصال على ترخيص رسمي للحزب. تحسنت علاقاتنا مع الكتلة الوطنية وعملنا لتوسيع قاعدتنا الجماهيرية ولا سيما في صفوف العمال على أساس الدفاع عن حقوقهم. بحثنا الوضع التنظيمي للحزب، وأضيف إلى أعضاء اللجنة المركزية الرفاق فرج الله الحلو، نقولا شاوي، رشاد عيسى، فؤاد قازان، يوسف خطّار الحلو وغيرهم.

بقي خالد بكداش أميناً عاماً للجنة الحزب المركزية وانتخب سكرتيران جديدان هما الرفيقان فرج الله الحلو ونقولا شاوي.

جاء القرار في محله، وتوافرت للحزب قيادة على أساس التعريب حيث كانت الأرضية جاهزة لمثل هذه الخطوة، بعد ثلاث سنوات من العمل الجماعي لقيادة الحزب على ما أوردناه آنفاً.

وهكذا فقد نفذتُ مهمتي التاريخية وأتيح لي أن أنجز بنجاح، بمعيّة الرفاق ومشاركتهم، عملية تعريب الحزب.

دشّن الاجتماع الموسع للحزب في شباط مرحلة جديدة في تطور الحزب. كانت مرحلة الحركة الديناميكية بقيادة اللجنة المركزية الجديدة وابتداء من أواخر عام 1936 وبشكل خاص في أوائل 1937 توافرت أوسع المجالات لعمل الحزب العلني.

كان توفير مثل هذه الظروف ثمرة سنوات مريرة من النضال من أجل الاستقلال الوطني ومن أجل الحرية. لقد ناضل شعبُنا من غير كلال، وكان حزبنا في الصفوف الأمامية، منظماً النضال ومشاركاً في قيادته إلى جانب الكتلة الوطنية والقوى المناضلة الأخرى.

ولا شك أن توقيع المعاهدة مع فرنسا ودور الحزب الإيجابي في تحقيق هذه المكاسب بفضل دعم الجبهة الشعبية المنتصرة في فرنسا حيث كان للحزب الشيوعي الفرنسي دور كبير ومؤثر، هذه الأسباب أمنت لحزبنا ولجماهير شعبنا إمكانية الاستفادة من الحريات الديموقراطية وخوض مضمار العمل السياسي العلني في لبنان وسوريا.

غير أن حزبنا، رغم ذلك، لم يكن حاصلاً على ترخيص رسمي من السلطة.

وبتعبير أدق كانت السلطة تتحمّل عملنا العلني في تلك الفترة، لكن كبار الضباط الفرنسيين وبينهم الكثير من الفاشيين كانوا يضعون الموانع والعراقيل أمام عمل الحزب وتطوره. لكن حزبنا استمر بثبات ودون تراجع، في النضال من أجل تحقيق مكاسب جديدة على صعيد الحريات الديموقراطية. وأنشئت في المدن الرئيسية مراكز علنية للحزب ساعدت على توسيع جماهيرية الحزب وتطوير نشاطه.

القرارات بين الصحة والخطأ

لقد تأكدت صحة القرارات المتخذة من قبل اللجنة المركزية في شهر شباط لجهة الحفاظ على المعاهدة الموقعة مع فرنسا وتأييد تصديقها من قبل مجلسي نواب البلدين، والممارسة اليومية للحزب في الدفاع عن مصالح العمال والشغيلة وسائر الفئات الشعبية والفلاحين في المجالين الاقتصادي والاجتماعي.

أتاحت هذه المقررات تعزيز صلات الحزب ومبادراته الخلّاقة وتوسيع روابطه مع الجماهير وتحسين وضعه التنظيمي. غير أن الصحيح أيضاً أن الحزب تحوّل إلى مؤيد كامل للمعاهدة الموقعة مع فرنسا رافعاً شعار الدفاع عن المعاهدة المذكورة، وانغلقنا سياسياً ضمن هذه الحدود. وقد تناسينا، عملياً، شعاراتنا الأساسية وما كنا نلحّ عليه بشأن الاستقلال الوطني الكامل وغير المنقوص، وهذا كان شعارنا على الدوام وكانت مهمة الحزب الأساسية تقضي بتطوير هذا الشعار وترسيخه.

استمرت هذه السياسة حتى بداية الحرب العالمية الثانية حيث توقف عمل الحزب العلني وبدأت الإجراءات القمعية الفاشية والملاحقات والاعتقالات ضد قادة حزبنا.

وأثبت التطور السياسي اللاحق صحة شعار الاستقلال الكامل والنضال من أجله، كشعار وطني أساسي. ولقد توقف حزبنا عن تطوير هذا الشعار، وأدى انكفاؤنا ضمن المعاهدة إلى عزلتنا وابتعاد القوى الوطنية الثورية المعادية للاستعمار عنا، وبشكل خاص في أوساط الطلاب والمفكرين والمناضلين من أجل الاستقلال الكامل، حيث بدأوا بالتفتيش عن التنظيم البديل. كان الأصح لو أن الحزب قَبِلَ المعاهدة وتحقيقها كمرحلة أولى فحسب والانتقال بعدها إلى تأكيد شعار الاستقلال الكامل كشعار ومهمة أساسية له.

صحيح أن هاجسنا في تلك الآونة كان المحافظة على علاقة جيدة

مع فرنسا الديموقراطية لتنفيذ المعاهدة الموقعة بشرف؛ وصحيح أن الخطر الحقيقي في حينه كان يتمثل في الخطر الامبريالي الفاشي الذي يسعى للسيطرة على العالم واستبعاده، وهذا الخطر كان موجهاً أيضاً ضد الشعوب العربية التي لم تكن في منأى عن هذا الهجوم وهذا الاجتياح... غير أن انشغال بالنا إزاء هذه المخاطر كان يجب أن لا يمنعنا من مناقشة فرنسا الديموقراطية ومطالبتها بالوقوف إلى جانب الشعوب العربية ومساعدتنا على الحصول على الاستقلال الكامل في لبنان وسوريا والبلدان العربية. كان الأمر يقتضي طرح هذا الموضوع مع فرنسا على اعتبار أن تحقيق الاستقلال الوطني لهذه الشعوب يعزز علاقة فرنسا ببلداننا، وإلا فكيف نثق بفرنسا التي لا تعترف باستقلال بلادنا الوطني حتى وإن كانت ديموقراطية!

في حالة كهذه كان لا بدَّ أن يكون وجود الحزب الشيوعي الفرنسي ووزنه وموقفه الأممي الحقيقي ثقلاً لمصلحتنا. فكما كان دائماً إلى جانبنا فسوف يكون أميناً لنضالنا الوطني من أجل الاستقلال وسوف يؤيد نضالنا. ورغم أن الحزب الشيوعي الفرنسي لم يكن صاحب السلطة، لكن كلمته كانت مسموعة ومحترمة ومن المؤكد أنه سوف يكون إلى جانب قضيتنا. ومن المؤكد أنه لو بادر حزبنا إلى طرح هذه المهام النضالية واستخدام قدراته ووزن تحالفاته، لكان دوره أقوى، ولكانت القوى الثورية معه ولا يعود الجيل الجديد من الشباب الوطني بحاجة للبحث عن بديل يرضي قناعاته.

أول أيار المتجدّد... والجريدة العلنية «صوت الشعب»

بعد مرور 12 سنة على الاحتفال الأول بعيد العمال احتفل في القاعة نفسها، سينما كريستال بساحة الشهداء، بعيد الأول من أيار عام 1937 فكان احتفالاً علنياً حضرته جماهير غفيرة من العمال والشغيلة ومن الأوساط الشعبية وعدد كبير من المثقفين.

قام سكرتير اللجنة المركزية الرفيق نقولا شاوي، بتوجيه من الحزب، وفي إطار الاستفادة من المناخ الديموقراطي، بتقديم طلب رخصة لإصدار جريدة إلى وزير الداخلية ميشال زكور الذي عُرف بانتمائه الديموقراطي والوطني وبصداقته الوفيّة لحزبنا.

وافق ميشال زكور فوراً على طلب الرخصة دون أن يأخذ رأي مسؤول أمن الدولة كما جرت العادة. وطلب إيصالاً بدفع مبلغ خمسمائة ليرة لبنانية لخزينة الدولة حسب القانون في تلك الفترة. ولكن لم يكن هذا المبلغ متوافراً لدينا. توجهت بموافقة الحزب إلى الرفيق هايك مردريان طالباً إليه المساعدة، فدفع المبلغ المطلوب دون تردّد وأنا بدوري سلمته للرفيق نقولا شاوي الذي دفعه إلى صندوق الدولة وسلّم الإيصال إلى وزير الداخلية، واستلم منه رخصة رسمية لإصدار جريدة باسم «صوت الشعب».

لكن كان ينقصنا المال الضروري لطبع الجريدة. أيضاً طلبنا من الرفيق هايك مردريان المساعدة فقدم لنا مجدداً مبلغ خمسمائة ليرة لبنانية. وكان هذان المبلغان هدية منه للحزب.

وهكذا صدرت في 15 أيار 1937 جريدة أسبوعية باسم «صوت الشعب» بعد 12 سنة من صدور «الإنسانية».

عودة سلطان الأطرش إلى سوريا

كانت المحكمة العسكرية الفرنسية قد حكمت بالإعدام غيابياً على سلطان الأطرش قائد قوات الثورة الوطنية التحررية لأجل استقلال سوريا في أعوام 1925ـ1927، وعلى رفاقه من أمثال الدكتور شهبندر. أما بعد المعاهدة الفرنسية ـ السورية فقد أُلغيت الأحكام وعادوا منتصرين إلى دمشق من الأردن مكان إقامتهم بعد انتهاء الثورة.

أرسل حزبنا وفداً للمشاركة في الاستقبال الشعبي للعائدين في درعا.

وشاركنا نحن الشيوعيين الأرمن في هذا الاستقبال باسم «الديموقراطيون الأرمن»، حاملين يافطة تحيّي الأبطال العائدين. الشعب كله شارك في الاستقبال. وكانت الجماهير تحيّينا عندما نمر من أمامها.

تجدر الإشارة هنا إلى الحكم الذي صدر خلال الثورة الوطنية السورية على رياض الصلح وشكيب أرسلان غيابياً بالإعدام من قِبل المحكمة العسكرية الفرنسية. كذلك فقد عادا منتصرين إلى بيروت.

الحزب وديموقراطيته: تقرير فريد لفرج اللّه الحلو

من 6 إلى 7 تموز عام 1937 عقد في دمشق اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - اللبناني، قدم الرفيق فرج الله الحلو سكرتير اللجنة المركزية تقريراً بعنوان: «بناء الحزب، التنظيم، والتقدمية». أقرّ المجتمعون التقرير بالإجماع وصدر باللغتين العربية والأرمنية على شكل كراس بعنوان: «قوة الحزب في تنظيمه الديموقراطي وقيادته الديموقراطية». إن تقرير فرج اللّه الحلو حول بناء الحزب وحول قيادته يعتبر فريداً في نوعه ومن أهم الوثائق في تاريخ حزبنا. ولا تزال الأبحاث والاقتراحات التي عُرضت في هذه الوثيقة سارية حتى يومنا هذا، ومحتفظة بأهميتها وجدّتها. ومن أهم الشعارات التي ركّز عليها التقرير: لا يمكن إجهاض المبادئ التحررية. نظريتنا مرتكزة على العلم. قوة حزبنا ترتكز على بنيته التنظيمية. حزبنا قوي ببنائه الديموقراطي. كل رفيق بإمكانه أن يكون قائداً. الحزب الشيوعي جسم واحد موحد. انضباط حديدي في الحزب. المنظمات تقرّر كل شيء. نحن لا نخفي أخطاءنا. نطلب رفاقاً قادة قادرين ومثقفين. يجب أن ندرس ونحلل تاريخنا وثقافتنا بشكل جيد. يجب أن نوزع المهام بين الرفاق. يجب اتخاذ القرارات الضرورية للأحداث المستجدة. قائد يعني أن تقود وتشارك. ما هو دور القائد؟ التثقيف الحزبي ـ الشيوعي من الشعب ولأجل الشعب، الشيوعي مثال، مبادر ونزيه.

وكان الرفيق فرج الله الحلو هو نفسه مثالاً رائعاً للشيوعي بنزاهته وعبقريته الفذة.

رغم ذلك، من المؤسف أن نؤكد في إطار الاعتراف بأخطائنا، أن في تلك الآونة لم تُحترم «ديموقراطية القيادة» في المبادئ اللينينية، ونتيجة لذلك مورس أسلوب عمل عبادة الفرد. ولا شك أن مبادئ القيادة الديموقراطية في حياة حزبنا أعيدت كلياً منذ انعقاد المؤتمر الثاني للحزب عام 1968 وجرت المثابرة على ممارستها دون انقطاع.

فؤاد قازان قائداً: لبنان الذي نريد...

في الاجتماع الدوري للجنة المركزية في شهر حزيران ألقى الرفيق فؤاد قازان تقريراً حول الوضع اللبناني، شارحاً الوضع الحزبي والسياسي والوضع الاقتصادي والمطالب الاجتماعية. وهو يتطابق في جوهره مع نقاشات اجتماع اللجنة المركزية في شهر شباط. نشر التقرير في كرّاس وكان أول نشرة شيوعية علنية، بعنوان: «الشيوعيون اللبنانيون، ماذا يريدون؟»، وقد وزّع بشكل واسع.

قررت اللجنة المركزية تعيين الرفيق فؤاد قازان سكرتيراً لمنظمة الحزب في بيروت وضواحيها. استأجر شقة صغيرة في شارع المعرض كمركز علني للحزب وكان الرفيق قازان يداوم باستمرار في هذا المركز.

كان فؤاد قازان يتمتع بصفات تؤهله للقيادة، ولكن لم تكن لديه خبرة تنظيمية كافية. وكنت دائماً إلى جانبه لأساعده عند الضرورة.

في أوائل عام 1938 سافر الرفيق قازان إلى فرنسا بقرار من الحزب وسكن في باريس ممثلاً للحزب ومؤمناً الصلة بالحزب الشيوعي الفرنسي.

خلال الحرب العالمية الثانية وفترة الاحتلال الهتلرية لفرنسا انضم فؤاد قازان إلى حركة المقاومة، وحصل على رتبة كابتن العسكرية. وعاد في عام 1945 إلى بيروت واحتل مكانه في عضوية اللجنة المركزية.

الفرع الأرمني

بالرغم من اتساع دور الحزب وصلاته داخل حركة التحرر الوطني وازدياد دوره القيادي والمبادر بشكل ملحوظ في السنوات الأربع السابقة، وازدياد عدد الرفاق العرب في صفوف الحزب، ومع أن جميع الهيئات القيادية واللجنة المركزية كانت بقيادة كادرات عربية، وشكلت سكرتيريا الحزب من الرفاق خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي، وبالرغم من ممارسة الحزب نهجاً سياسياً وطنياً عربياً، فالمؤسف أن بعض الفئات التقدمية والقومية وخصوصاً عند القوميين، كانت متأثرة بالدعاية التي ليس لها أساس، والموجهة ضد حزبنا من الدوائر الاستعمارية الفرنسية والصحف الرجعية، ومفادها أن حزبنا «حزب شيوعي أرمني». كانت إمكانياتنا الإعلامية محدودة آنذاك في ظل الظروف السرية والملاحقات، والإرهاب الموجه ضد حزبنا.

وسعياً لوضع حد نهائي لهذه الاتهامات الخاطئة والموظفة سياسياً ضد الحزب، قررت اللجنة المركزية تشكيل ثلاثة فروع أرمنية مستقلة في لبنان وسوريا (لبنان وحلب ودمشق). أي إن الشيوعيين الأرمن كانوا يعملون بين الجماهير الأرمنية ضمن الخط السياسي للحزب وكجزء لا يتجزأ من الحزب الشيوعي.

كان كل فرع حزبي أرمني مسؤولاً عن تنظيم العمل في الأوساط الأرمنية في محيطه ومسؤولاً عن الخلايا والفرق الحزبية وعن جميع النشاطات، وتابعاً مباشرة للجنة المركزية. هذا القرار لم يخلق صعوبات تنظيمية وذلك بسبب وجود فرق أرمنية داخل الأحياء الأرمنية وعدم وجود اختلاط تنظيمي بين الشيوعيين الأرمن والعرب.

لكن رغم التنظيم المستقل بقيت الفروع الأرمنية جزءاً لا يتجزأ من حياة الحزب التنظيمية، وشارك الأرمن في جميع النضالات والحملات التي خاضها الحزب إلى جانب رفاقهم العرب تحت قيادة لجنة الحزب

المركزية. وانتُخبت سكرتيراً للفرع الأرمني في لبنان مع استمراري في عضوية اللجنة المركزية. كان أعضاء القيادة الأرمنية في لبنان الرفاق: أوهانس أغباشيان، هاكوب بربريان، ميساك تليليان وغيرهم. وفي وقت لاحق انتخب مسيال تليليان سكرتيراً للفرع، ثم هاكوب بربريان، وفي الفترة الأخيرة أوهانس أغباشيان حيث أصبح في عضوية الهيئة كل من قره بت بشابزيان (مسؤول التنظيم)، باروير يرتسيان، يبرام الليزيان، بوغوص ناتريان، بانوس ارامايسيان. وبعد سنوات من تأسيس الفرع الأرمني وصل عدد الأعضاء الأرمن في الحزب الشيوعي اللبناني إلى أكثر من ألفين.

وبقرار من اللجنة المركزية للحزب حلّت الفروع الأرمنية في أوائل العام 1948 وعادت المنظمات الأرمنية إلى وضعها السابق، بعد زوال الأسباب السياسية التي أدّت إلى وجود منظمات أرمنية مستقلة.

كرّاس بالأرمنية: وحدة الأمة الأرمنية وازدهارها

انعقد في 2 أيلول عام 1937 اجتماع موسع للفرع الأرمني في الحزب الشيوعي اللبناني. وقد ألقيتُ تقريراً حول القضايا الأرمنية في لبنان وافق عليه المجتمعون بالإجماع. صدر التقرير في كرّاس بعنوان: «من أجل وحدة الأمة الأرمنية وازدهارها».

تطرقتُ في مقدمة الكتاب إلى تاريخ الشعب الأرمني، الغني بالنضالات التحررية: «رغم كل العواصف في التاريخ والتضحيات الكبيرة لم يتغيّر طريقهم في النضال من أجل الحرية». لم يعرفوا التردّد والوهن. واستمروا ومستمرون بشكل خلاق في نضالهم من أجل الحرية والتقدم. هم بناة أرمينيا السوڤياتية العظيمة وهذا فخر كبير لأمتنا. نحن الشيوعيين الأرمن أبناء هذا الشعب الخلّاق المبدع والمحب للحرية نحفظ ونصون بفخر قيمهم التاريخية وتراثهم العظيم ومستمرون بشرف في حمل ما ورثنا عنهم في البلدان التي هُم مقيمون فيها.

جاء في الصفحتين 30 و31 تحت عنوان: «نحن الشيوعيين نحب تاريخ شعبنا ومستمرون حاملين أفضل ما في تراثنا»، إن تاريخ شعبنا منهل قيّم لنا، نحبه وندرسه ويفخر نعلن أننا ورثة النضالات التي خاضوها من أجل الاستقلال الوطني وكل النضالات البطولية التحررية من أجل الاستقلال والتقدم.

صحيح أن البلدان الامبريالية نجحت مرّات كثيرة بتحويل الحركات الوطنية التحرُّرية لشعبنا عن أهدافها الحقيقية وتوظيفها في خدمة مصالحها الاستعمارية، ولكن هذه الحركات بجوهرها ومثلها العليا كانت وطنية تحررية ديموقراطية وتقدمية.

وكانت هذه الحركات الشعبية في الغالب عفوية وذات طابع ثوري.

نحن الشيوعيين نعلن بصوت عال أن آلاف المقاتلين من المثقفين والكادحين العمال والفلاحين، المعروفين والمجهولين ممّن ناضلوا واستشهدوا في معارك زيتون وساسون وسهول موش، استشهدوا من أجل سعادة شعبنا الأرمني وتقدّمه وتحرره، هؤلاء هم أسلافنا.

نحن مستمرون في هذا التراث في ظل الظروف الجديدة.

نحن مستمرون في التقدم باتجاه النور والحياة السعيدة مستفيدين من التجارب والدروس الماضية. نحن نعمل من أجل التقدم وتصحيح أخطائنا الماضية حاملين أفضل ما في تراثنا ومسلحين بالفكر السياسي الحديث المتكامل.

نحن نحتج ضد كل هؤلاء الذين يشوهون عن قصد سمعة أبطالنا ومناضلينا الوطنيين التحرريين.

أما عناوين الكراس فجاءت على الوجه الآتي: «الأرمن في لبنان وسوريا في مرحلة جديدة»، «مطالب الأرمن في سوريا ولبنان في المرحلة الجديدة»، «يجب أخذ إجراءات حازمة ضد غلاء المعيشة»، «تطهير البلاد من الموظفين الفاشيين في جميع الأجهزة العدلية والشرطة والأمن ومن عملائهم الرجعيين»، «حريات ديموقراطية أكثر»، «يجب

تحسين معيشة العمال»، «مساعدة الفلاحين الأرمن»، «حماية الحرفيين الأرمن وأصحاب الحوانيت وصغار التجار»، «حماية صحة الشباب الأرمن وتأمين سعادتهم»، «تحسين مدارس الأرمن»، «مساعدة المثقفين الأرمن»، «مساكن مساكن»، «صحة طرق إنارة»، «هجرة إلى أرمينيا السوڤياتية»، «نحن الشيوعيين نحب تاريخ شعبنا ونحمل أفضل تراثه»، «خدمة هتلر تعني خدمة أعداء الشعب الأرمني»، «تحقيق مطالب الشعب الأرمني في سوريا ولبنان»، «من أجل وحدة الأمة الأرمنية».

أما استنتاجات الكراس، فأبرزها:

ـ وحدة من أجل تحقيق المطالب الملحة لشعبنا: خبز، حرية.

ـ وحدة حول أرمينيا السوڤياتية من أجل حماية تقدمها بسلام والمشاركة في بنائها.

ـ وحدة ضد الحروب الامبريالية والنضال ضد الفاشية والدفاع عن السلام.

وكان هذا أول موقف معلن للحزب إزاء النضالات التي خاضها ويخوضها الشعب الأرمني من أجل التحرر الوطني.

هناك نسخة من هذا الكراس في أرشيف الحزب ونسخة لدى الرفيق فارتكيس همازاسيان رئيس لجنة العلاقات الثقافية بين أرمينيا والمغتربين الأرمن في يريڤان .

عصبة مكافحة الفاشية

في صيف عام 1937 وبمبادرة من الحزب تأسست «عصبة مكافحة الفاشستية» برئاسة المهندس الشهير والشخصية الاجتماعية أنطون تابت. شارك في أعمال العصبة عدد كبير من الشخصيات والفعاليات الوطنية والديموقراطية، منهم البروفسور الكيميائي ميشال بدورة والأديب والشاعر الكبير رئيف خوري...

وما هي إلّا فترة وجيزة حتى تمتعت عصبة مكافحة الفاشستية باحترام وتأييد فئات واسعة، من شخصيات سياسية وطنية ديموقراطية واجتماعية ومفكرين وأدباء وعدد كبير من الصحافيين البارزين. بعد دخول قوات التحالف لبنان سنة 1941 أصدرت العصبة مجلة شهرية علنية باسم «الطريق»، وهي لا تزال تصدر حتى يومنا هذا، حيث يصدر حالياً عدد مكثف كل شهرين، غني بالمواضيع السياسية والاجتماعية والأدبية، أشرف طويلاً على تحريرها الدكتور حسين مروةَ والكاتب محمد دكروب. و«الطريق» توسع انتشارها اليوم كما كانت تفعل في الماضي. وهي صاحبة مبادرات في العالم العربي على صعيد الفكر والسياسة والقضايا الوطنية والتقدمية والأدبية.

انتخابات عديدة لمجلس النواب

جرت في أوائل تشرين الثاني 1937 انتخابات نيابية في لبنان. رشح الحزب في منطقة بيروت الرفيق نقولا شاوي لمقعد الروم الأرثوذكس والرفيق سعد الدين مومنة عن السنّة وأنا لمقعد الأرمن الأرثوذكس. وكان رياض الصلح مرشحاً عن السنة، ورشح حزب الهنشاك مارديروس اسكندريان. اتصل حزبنا برياض الصلح واقترحنا أن يكون الرفيق نقولا شاوي على لائحته عن مقعد الروم الأرثوذكس، وفي المقابل سيعطي الحزب أصوات ناخبيه من أرمن ومن أرثوذكس وناخبين عرب بشكل عام، لهذه القائمة. كانت لائحة رياض الصلح بحاجة لمرشح أرمني والمرجح لهذا المقعد مارديروس اسكندريان. أجرينا لقاء مع حزب الهنشاك واتفقنا أن أسحب ترشيحي لمصلحة اسكندريان، على أساس أن يشترط حزب الهنشاك لانضمامه إلى قائمة رياض الصلح قبول نقولا شاوي على لائحته. لم يعطِ رياض الصلح جواباً نهائياً على الفور. ويبدو أنه شعرِ بموقف الهنشاك المتردّد. وفي اليوم الأخير من المهلة القانونية

لإعلان اللوائح «اختفت» قيادة حزب الهنشاك ومارديروس اسكندريان عن أنظارنا. التقيت في اليوم التالي قيادة حزب الهنشاك في مكتب جريدة «أرارات» وطرحت سؤالاً: أين كنتم بالأمس؟ وأين وصلتم بتشكيل اللائحة؟ ترددوا في الجواب وبعد انتظار طويل تكلم أجرأهم فحدّق إليهم قائلاً: «لماذا لا تتكلمون يا رفاق؟» عندئذ اضطروا إلى قول الحقيقة. لقد تبيّن أنهم كانوا في منزل رياض الصلح واتفقوا على ضم مارديروس اسكندريان إلى لائحته متراجعين عن اتفاقهم السابق معنا. في تلك الأيام كان قائد حزب الهنشاك في بيروت أرمناك أيلوليان.

شكلت السلطة لائحة منافسة للائحة رياض الصلح. كان حبيب أبو شهلا آنذاك وزيراً للداخلية، وقد استدعى مارديروس إسكندريان إلى مكتبه وطلب منه سحب ترشيحه، فوافق وانسحب من الساحة. يقال إن وزير الداخلية هدده بسحب جنسيته اللبنانية، إذ هو كان في السابق مواطناً عراقياً. هذا مع أن القانون لا يسمح لوزير الداخلية باتخاذ مثل هذا الإجراء.

حصلنا بعد ذلك على معلومات دقيقة حول ما دار من حديث بين الوزير والمرشح اسكندريان... حيث عُيِّن هذا الأخير في وقت لاحق مديراً مسؤولاً من قِبل الدولة على المدارس الأرمنية لتعليم اللغة العربية.

وقع رياض الصلح وحزب الهنشاك في أزمة حول البديل في اللحظات الأخيرة. اتفق الهنشاك والرمغافار ورياض الصلح على المحامي هراتش شامليان وهذا الأخير كان صديقاً لنا.

وفي أعقاب بيان علني لشامليان أعلن فيه تأييده للحريات الديموقراطية وأنه سوف يدافع عن حقوق الشغيلة، بعد هذا الإعلان أيّدنا نحن أيضاً ترشيحه حفاظاً على وحدة القوى الوطنية الأرمنية. وفي الوقت نفسه مضينا في المعركة الانتخابية بمرشحينا الرفيقين نقولا شاوي وسعد الدين مومنه.

كان من المؤكد فوز لائحة رياض الصلح، خصوصاً بعد انضمام

الأرمن إليها. ارتبك الحكم وبشكل خاص سلطة الانتداب الفرنسي حيث كانوا مصرّين على إنجاح لائحتهم. يوم الانتخابات انتشرت قوات الخيالة للجيش الفرنسي في الساحات، ومورس القمع والتزوير، وأعلن فوز لائحة السلطة!

أعلن رياض الصلح ولائحته والرفيقان نقولا شاوي وسعد الدين مومنة انسحابهم احتجاجاً على القمع والتزوير الذي شهدته عملية الاقتراع منذ بدايتها. وأصدرت جريدة «صوت الشعب» عدداً خاصاً بهذه المناسبة معلنة أن القناع قد سقط عن وجه سلطة الانتداب الفرنسي وعملائها الفاشيين، وفضحت أعمال القمع والتزوير والغش التي مورست في الانتخابات. كان عنوان الجريدة: «اخرجوا عملاء الفاشيين خارج البلاد!» (A la porte les agents fascistes!) فكان أن أصدر المفوض السامي قراراً يمنع بموجبه صدور الجريدة لمدة شهر.

وكان قد وزع حوالى خمسين ألف نسخة من جريدة «صوت الشعب» في بيروت.

رغم ما حصل في فترة الانتخابات لم تتأثر علاقة حزبنا برياض الصلح، بل توطدت وتطورت لاحقاً.

في أواخر عام 1937 انتشر الحزب بين فئات العمال والشغيلة وشرائح واسعة من شعبنا، كذلك في الأوساط الطلابية. وازدادت بشكل ملحوظ منظمات الحزب وتضاعف عدد المراكز الحزبية وتوطدت صلة الحزب مع الكتلة الوطنية في سوريا ومع الفئات الوطنية الديموقراطية والمثقفين الديموقراطيين في لبنان.

صوت الشعب «جوغوفورتي تساين»
أو جريدة علنية للشيوعيين الأرمن

وصدر في بيروت في 6 شباط 1938 أول جريدة علنية أسبوعية

باللغة الأرمنية للحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري، باسم «جوغوفورتي تساين» (صوت الشعب). وعينتُ رئيساً لتحريرها. واستحصل الرفيق نقولا شاوي على ترخيص خاص لإصدار جريدة بالأرمنية بهذا الاسم. وهكذا فمن «جوغوفورتي تساين» إلى «هاراتش» (إلى الأمام) ثم «غانتش» (النداء) توافرت لنا صحف تنطق باسمنا، وكنا نحن الشيوعيين والوطنيين الأرمن مدينين بذلك للحزب الشيوعي اللبناني.

كانت جريدة «صوت الشعب» الأرمنية جريدة للشيوعيين الأرمن في لبنان وسوريا، لعبت دوراً مهماً في تعبئة الجماهير الأرمنية للنضال على جميع الصعد الأرمنية واللبنانية والسورية، سياسياً وفكرياً.

حددت «صوت الشعب» الأرمنية موقفها منذ أول عدد لها حيث جاء في الافتتاحية: «صوت الشعب مع الشعب من أجل الشعب ولخدمة الشعب، سوف نناضل دون تردد. الصعوبات سوف تعزز إرادتها النضالية. سوف تعمل من أجل تنظيم الجماهير ومن أجل وحدة الأمة الأرمنية وسعادتها. وستناضل لتأمين الخبز والسلام. وستعمل لتعزيز الصداقة بين الأرمن والعرب. إن تحقيق مطالب الشعب الأرمني من خبز وازدهار مرتبط بتحقيق مطالب الشعب العربي وإدماج جهود شعبنا في جهود الشعب العربي من أجل تطوير البلاد وازدهارها.

«صوت الشعب» سوف تدافع عن الأرمن، عن العامل والفلاح والمهني وصاحب الحانوت والتاجر الصغير والمعلم، وحقوق الشباب. سوف تدافع عن المنتجين الأرمن والعرب ضد الرأسمالي الأجنبي واستغلاله.

«صوت الشعب» لها مهمة مقدسة هي تعزيز صلة الأرمن في لبنان وسوريا مع وطنهم الأم أرمينيا السوڤياتية.

إن «جوغوفورتي تساين» أفضل من يستطيع حماية التراث الوطني التقدمي للشعب الأرمني وتطويره والحفاظ على قيمته التاريخية وتعميمه على الشعب. صوت الشعب معادية للفاشية سوف تناضل ضد عملاء هتلر

وموسوليني. «صوت الشعب» سوف تناضل دون هوادة ضد الصراعات الطائفية التي تقسم شعبنا.

«صوت الشعب» جندي ديموقراطي لجمع الكلمة دون تفرقة بين الشيوعي، والرمغافاري، والعامل الطاشناكي».

وهكذا فقد بقيت «صوت الشعب» أمينة لمواقفها المعلنة من أول عدد حتى آخر الأعداد.

تضمن العدد الأول للجريدة مقالاً حول الخبز والبطالة جاء فيه: «أزمة الخبز، استمرارها يؤلم كل اللبنانيين. يتصاعد غلاء المعيشة، أصبحت إمكانية تدبير لقمة الخبز بمثابة معاناة يومية لشعبنا. الكثير من العائلات ينامون محرومين من هذه اللقمة حيث إن رب العائلة عاطل عن العمل».

عمل وحرر في جريدة «صوت الشعب» الأرمنية الرفيق أوهانس اغباشيان، وكان يكتب فيها كل من الرفاق هاكوب بربريان، ستراك أباجيان ونيشان ساحقيان، هاروتيون ماخيان، موسيس غازاريان وغيرهم.

ونشرت «صوت الشعب» قصيدة الشاعر فاهي فاهيان «الجسر الذهبي» وقد أُرسلت لنا من قبرص بطريقة خاصة، ونشرت أشعار لكريكور غوليان وسيروب سبتوكيان، وهاكوب كيومجيان من أميركا، والرفيق ديكران فاسيليان.

كان «الصوت الشعب» الأرمنية مراسلون عمال يكتبون حول ظروف عملهم ويطرحون مطالبهم، وكان لها مراسلون في دمشق وحلب واسكندرون، وبشكل متقطع من مرسيليا .

استُقبل صدور هذه الجريدة الأرمنية بترحاب لدى العمال والشغيلة وفئات واسعة من شعبنا، لدى الشباب والمثقفين في بيروت وطرابلس وزحلة وفي دمشق وحلب ولواء الاسكندرون، وبشكل محدود وإلى حدّ ما في مرسيليا وقبرص. وكان رفاقنا وأصدقاؤنا يشاركون في توزيع الجريدة.

عندما باشرنا بإصدار «صوت الشعب» كان في حوزتنا مبلغ لا يتعدّى العشر ليرات لبنانية، لكن ثقتنا برفاقنا وأصدقائنا كانت في محلها، فسرعان ما بدأت التبرّعات تصل إلى الجريدة بالإضافة إلى الاشتراكات والمبيع فتأمنت المصاريف الضرورية لاستمرار الجريدة.

بل أكثر من ذلك، ففي المرحلة الأولى لإصدار الجريدة وكذلك في الشهور الأخيرة بادر الرفاق إلى جمع التبرعات لإصدار الجريدة مرتين في الأسبوع، ولقد أمكن تأمين مبلغ من المال لا بأس به غير أن الجريدة أقفلت بأمر من السلطات الفرنسية.

كانت الجريدة في المرحلة الأولى تطبع في مطبعة جوزيف أجاميان في ساحة الشهداء، وهي مطبعة تحت الأرض معتمة ووسخة، ولكن لم يكن يوجد غيرها على استعداد لطبع جريدتنا، وكنت مضطراً للبقاء في المطبعة فترة طبع الجريدة حيث كانت أحرف الآلة تتعطل وكنت أعيد ترتيبها بنفسي. كان التعامل صعباً مع جوزف أجاميان، إذ كان يحاول دائماً ابتزازنا. اتصلت بهرانت دافاجيان صاحب الجريدة اليومية «أرافود» (الصباح)، ومالك مطبعة خاصة.

لم يكن هرانت دافاجيان في تلك الفترة منتسباً إلى الحزب الشيوعي، لكنه كان مثقفاً وطنياً نزيهاً، وقد اتفقت معه على طبع الجريدة في مطبعته. أما جوزف أجاميان فقد ندم على تصرفاته، ولكن بعد فوات الأوان.

لجأت السلطة الفرنسية إلى تعطيل «صوت الشعب» مرتين، كل مرة لمدة شهر، كنا نعمد خلالها إلى إصدار جريدة «هوريزون» الأرمنية وفق مضمون «صوت الشعب» نفسه لصاحبها جوزف أجاميان أيضاً وكانت متوقفة عن الصدور.

كان لـ «صوت الشعب» الأرمنية صداها الكبير على الصعيد الشعبي والسياسي والوطني. ومن بين ما نشرته مقررات المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي السوفياتي المنعقد في تلك الفترة، وقد ركزت على

سياسة الحزب الداخلية والخارجية في الدفاع عن السلام ومساندة نضال الشعوب من أجل التحرر. ونشرت «صوت الشعب» سيرة كارل ماركس، والمادية الديالكتيكيّة والمادية التاريخية، وقصّة حياة «غامو»، ومواضيع حول الماركسية والقضايا القومية من كُتّاب سوفيات.

ونشرت الجريدة في عدد 7 تشرين الثاني عام 1938 البيان الصادر عن الأممية الشيوعية والموجّه إلى شعوب العالم للتأهب ضد خطر الحرب العالمية. وأصدرت عدداً خاصاً في 24 نيسان 1939 مخصصاً لذكرى مذبحة الشعب الأرمني.

وكررت «صوت الشعب» الأرمنية المطالبة بالتصديق على المعاهدة السورية ـ الفرنسية والمعاهدة اللبنانية ـ الفرنسية من قِبل البرلمان الفرنسي. وهي في الوقت نفسه ارتبطت بمطالب العمال والشغيلة وقضايا الحركة النقابية كما دافعت عن مطالب سكان المخيمات الأرمنية ونضالهم من أجل الخبز وضدّ البطالة.

إلى ذلك، قامت «صوت الشعب» الأرمنية بدور طليعي في نضال الأمة الأرمنية، داعية لوحدة الأرمن دفاعاً عن لواء اسكندرون في وجه الاستفزازات التركية وضد إلحاقه بتركيا، كما دعت للإسراع بمساعدة النازحين الأرمن.

وفي المجال الدولي أوردت الجريدة مقالاً افتتاحياً في عدد 27 آب 1939 حول المعاهدة السوفياتية الألمانية «لعدم الاعتداء»، وممّا جاء في المقال:

«في الوقت الذي كانت فيه الرجعية اللندنية تماطل في إمكانية تشكيل جبهة من أجل السلام وتحاول تحريض ألمانيا على الاتحاد السوفياتي، وبعد خمسة أشهر من هذه المماطلة فإن مبادرتها العسكرية الأخيرة لم تغيّر شيئاً. كانت تسعى إلى ميونيخ جديدة بغية الوصول إلى لغة مشتركة مع هتلر.

لقد اقتنع قادة الاتحاد السوفياتي بأن سلطات لندن لا ترغب في الوصول إلى اتفاق مشترك معهم، بل إنها تلعب لعبة خطرة. لم تنطل

هذه اللعبة على القيادة السوڤياتية، تحركت دبلوماسياً وعقدت معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا كان لها تأثير عالمي، وكانت انتصاراً للسوڤيات..

لقد أعلنا نحن الأرمن في لبنان وسوريا، متضامنين مع الشعب العربي، وقوفنا إلى جانب فرنسا الديموقراطية دون تردد، ضد هتلر وموسوليني، والمطلوب من هذه السلطات أن تكون في مستوى المسؤولية، كما عبر عنها شعبنا».

هذا ما جاء في آخر عدد من «جوغوفورتي تساين» دون أن يمر على المراقبة العسكرية. هذه الافتتاحية صدرت في الجريدة التقدمية الأرمنية في أميركا «لورابير».

تعطيل الشعب «وصوته»

في 29 أيلول عام 1939 أصدر المفوض السامي الفرنسي مذكرة تحمل رقم 258 ر.ل.تقضي بـ «حلّ جميع تجمُّعات ما يسمى بحزب شيوعي وكل المنظمات والمؤسسات المرتبطة به ومنع جميع الاجتماعات في أراضي سوريا ولبنان وإغلاق جميع مراكزهم وحظر نشاطهم الإعلامي. وكل من لا يلتزم بهذا القرار سوف يعاقب حسب القانون».

على أثر القرار توقف صدور جريدة «صوت الشعب» وجريدة «جوغوفورتي تساين». وكان آخر عدد من «صوت الشعب» صدر في أول تشرين الأول 1939 ونُشرت فيه صورة طبق الأصل لقرار المفوض السامي.

نادٍ حزبي باسم «ميكويان»

في شباط 1938 أقام الفرع الأرمني مركزاً حزبياً باسم «ميكويان» في شارع النهر ـ قرب جسر الحديد، خلف السينما. وقد خصّص من قبل ظهر كل يوم أحد لإلقاء محاضرات سياسية وفكرية كان يعطيها الرفاق أرتين مادويان، أوهانس أغاباشيان، هاكوب بربريان وغيرهم.

هذا النادي كان مركزاً لرفاقنا وأصدقائنا وللشبيبة عموماً، أما المسؤول الإداري للنادي فكان الرفيق كيورك مهرجيان.

جمعية الصليب الأحمر للنساء الأرمنيات

وتأسس في بيروت في الشهر نفسه، وبمبادرة من الفرع النسائي الأرمني في الحزب، «جمعية الصليب الأحمر للنساء الأرمنيات في لبنان» بغية مساعدة المرضى وتقديم المعونة للأرمن المحتاجين، وتثقيف النساء الأرمنيات وتأمين التفافهنّ حول «جمعية الصليب الأحمر».

وصول الرفيقين جاك كريزا وڤرجيل باريل

في 16 آذار عام 1938 وصل إلى بيروت على متن الباخرة «باتزيا» الرفيقان جاك كريزا وڤرجيل باريل وهما عضوان في مجلس النواب الفرنسي وفي اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي. كان في استقبالهما في المرفأ الرفيقان فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي من قيادة الحزب ورئيس عصبة مكافحة الفاشية المهندس أنطون تابت وأكثر من ألف من الرفاق والأصدقاء.

وكانت لجنة الاستقبال مؤلفة من الرفيقين مصطفى العريس وسعد الدين مومنة وغيرهما. نزل الضيفان في فندق بسول وانتقلا في اليوم التالي إلى فندق سان جورج. المهمة: استطلاع ودراسة الوضع السياسي اللبناني والسوري ونشاط القوى الفاشية والرجعية وعملائها والتعديات الجارية ضد الحركات الديموقراطية وضد الحريات، والمؤامرات الحاصلة ضد الاتفاقية اللبنانية ـ الفرنسية والسورية ـ الفرنسية.

ذهبتُ في اليوم التالي مع الرفيق أوهانس أغباشيان إلى فندق سان جورج للترحيب بالضيفين، وأبلغناهما أن المطالب العربية هي نفسها

مطالب الشعب الأرمني، ولفتنا نظرهما إلى الوضع المتردّي في المخيّمات الأرمنية وقد وعدا بزيارة هذه المخيمات.

زار الرفيقان جاك كريزا وفرجيل باريل المفوضية الفرنسية برفقة الرفيقين فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي وقاما أيضاً بزيارة رئيس الجمهورية اللبنانية ورئيس الوزراء.

أقيم قبل ظهر الأحد مهرجان خطابي كبير في ساحة الشهداء في القاعة الكبيرة لنادي الشرق، بحضور 1500 شخص، افتتحه الكيميائي ميشال بدُّورة وألقى الشاعر ميشال طراد قصيدة، وألقى الأديب توفيق يوسف عوّاد كلمة بالمناسبة، ثم تكلم الرفاق فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي وخالد بكداش. ثم أخذ الكلام جاك كريزا وفرجيل باريل فتناولا مبادرتهما وتأييد الحزب الشيوعي الفرنسي لجميع المطالب المحقة.

حضر المهرجان عدد كبير من الشخصيات الاجتماعية والسياسية الوطنية والمثقفين ومراسلي الصحف.

وأقام يوسف يزبك باسم المثقفين الديموقراطيين مأدبة غداء في منزله بالحدث تكريماً للضيفين، حضرها، بالإضافة إلى قيادة الحزب، كلّ من أنطون ثابت، ألفرد نقاش، سعيد صباغة، الشاعر إلياس أبو شبكة، الكاتب محمد النقاش، الفنان مصطفى فروخ، رفيق براج، الكاتب الياس خليل زخريا وغيرهم.

بقي الوفد خمسة عشر يوماً في لبنان وسوريا زار خلالها مرجعيون وانطلياس وطرابلس وزحلة ودمشق، والغوطة في محيط دمشق، وجبل الدروز وحلب والجزيرة، وقد استقبل حيثما حلّ بحفاوة واستمع إلى آلام الشعب ومطالبه. وشملت جولته في دمشق زيارة قيادة الكتلة الوطنية.

دفاعاً عن لواء الاسكندرون!

في أواسط عام 1938 بدأت تتضح مؤامرة تسليم لواء الاسكندرون

إلى تركيا بضغط من بريطانيا وبتواطؤ من فرنسا، في محاولة لكسب تركيا بإعطائها لواء الاسكندرون قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

كان الوضع في غاية الدقة: الجيش التركي يقوم بأعمال استفزازية ضد لواء اسكندرون، وعملاؤه في الداخل يتحركون بحرية بموافقة السلطات الفرنسية. حزن في سوريا، والتظاهرات والاجتماعات الشعبية الاحتجاجية في كل مكان. ضمن هذا الإطار نظم الفرع الأرمني للحزب الشيوعي في دمشق وفرع حزب الهنشاك مهرجاناً في قاعة مقهى «قصر البلور» بحضور حشدٍ جماهيري. تكلم في المهرجان سكرتير فرع دمشق للحزب هاكوب بربريان وأحد قادة حزب الهنشاك هاكوب خشمانيان وأنا. وكنت مدعواً من بيروت للمشاركة في هذا المهرجان. وألقى كلمة أمين لجنة الدفاع عن لواء اسكندرون الشاعر الوطني الدكتور سيف الدين مأمون الذي قوّم عالياً الروح الوطنية للأرمن. أما كلمتي فقد أنهيتها بالشعارات التالية:

«ليتوحّد الحزب الشيوعي والهنشاك والرمغافار والوطنيون والطاشناك لمساعدة إخواننا في لواء اسكندرون مادياً ومعنوياً.

«لتتوحّد جهودنا ولنضمّها إلى جهود الشعب العربي.

«معاً من أجل الدفاع عن الديموقراطية والسلام ضد الفاشية والرجعية.

«معاً من أجل أن يكون الشعب الأرمني قوياً متقدماً محبوباً محترماً وسعيداً».

وافق الحاضرون بالإجماع على توصية تدعو للدفاع عن لواء اسكندرون كجزء لا يتجزأ من سوريا، وتستنكر المؤامرة الامبريالية ـ التركية المشتركة عليه.

نقابة جديدة ونادیان... وتحضيرات للشباب العالمي

تأسست خلال صيف 1938 نقابة عمال الأحذية، وما لبثت أن

دعت إلى إضراب عام لعمال الأحذية وطالبت بزيادة أجرة القطعة. لاحق الدرك المضربين واعتقل بعضهم، لكن الإضراب انتهى بتحقيق مطالبهم. أما مؤسسو النقابة وقادة الإضراب فكان من بينهم أرسين كريكوريان وهاكوب هارمنداريان.

في العام 1938 وبمبادرة من الفِرق الحزبية للفرع الأرمني في الأحياء تأسست كشافة «نالبنطيان» وفرق «دينامو» لكرة القدم.

نشطت في العام 1938 على النطاق العالمي حركات الشباب الداعية للسلام والمناهضة للحروب العدوانية. انعقد المؤتمر الثاني للشباب العالمي في نيويورك من 16 إلى 22 آب 1938 بمشاركة 22 ألف مستمع و500 مندوب يمثلون 54 بلداً و40 مليون شاب من أعضاء الهيئات والمنظمات الشبابية.

وكان أبرز قرارات المؤتمر:

1 ـ التأكيد على الوحدة الأممية وتطوير الأخوّة بين الشباب.

2 ـ إدانة السياسة التوسعية والعدوانية وتأييد حق الشعوب في الاستقلال.

3 ـ استقطاب الشباب في عمل نضالي ضد الحروب العدوانية والتوسعية.

4 ـ ممارسة ضغط على الحكومات لمساعدة ضحايا العدوان ومعاقبة المعتدين.

5 ـ العمل من أجل تقوية المنظمات العمالية لحلّ المشاكل العالقة بالطرق السلمية، ومواجهة التفرقة العنصرية.

وقد مثل شباب لبنان في مؤتمر الشباب العالمي الثاني الأديب رئيف خوري، بترتيب من الحزب، وقد كلفتُ بتنظيم سفره.

جمهورية ديموقراطية في فلسطين: شعارنا منذ 1938

خلال عام 1938 اشتد النضال المسلح للشعب العربي في فلسطين

ضد الصهاينة والانتداب البريطاني، وكانت تجري صدامات مسلحة مع قوات الاحتلال الصهيوني والبريطاني.

تجب الإشارة إلى أن الشيوعيين الأرمن اللبنانيين المقيمين في فلسطين قد شاركوا خلال تلك المعارك في الأعمال العسكرية إلى جانب الثوار العرب. وكان الرفيقان أرسين ماردليان وكوبوي هاكوب من بين الرفاق الذين شاركوا في تدمير خطوط أنابيب البترول.

وصدر في 26 آب 1938 بيان رسمي عن الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني أهم ما جاء فيه: من أجل إحلال السلام في فلسطين ولوضع حدٍّ نهائي للإرهاب الاستعماري البريطاني وللمجرمين الصهاينة، ولتحقيق الحقّ القومي للعرب وللحفاظ على الحريّات الشعبية، يجب إنشاء جمهورية ديموقراطية في فلسطين على أساس العدالة والمساواة بين جميع الفئات ومنع هجرة الصهاينة إلى فلسطين.

إنها الشعارات التي عادت واعتمدتها منظمة التحرير الفلسطينية في الستينيات وما بعدها.

اشتداد المؤامرات ضد سوريا

بناءً على الاتفاقية السورية ـ الفرنسية عام 1936 قامت في سوريا حكومة شارك فيها قادة الكتلة الوطنيّة، وقد استمرت في ممارسة سلطاتها حتى العام 1938. على أن من المؤسف القول إن حكومة البورجوازية الوطنية لم تحقق طوال السنتين المذكورتين المطالب الشعبية، وأحجمت عن القيام بإصلاحات وطنية، مخيّبة في ذلك آمال الشعب، على الرغم من تحذيرات حزبنا ومن الإلحاح الشعبيّ على المطالب.

استفاد من هذه الأوضاع كبار مفوضي الانتداب الفرنسي، والقوى الفاشية الموجودة داخل السلطة في باريس، والعناصر الرجعية المحلية وعملاؤهم فاستغلّوا حالة الاشمئزاز الشعبي وتحركوا لتوتير الأمن خلال

شهري تشرين الأول وتشرين الثاني في دمشق وفي حلب وأوجدوا حركات انفصالية في جبل الدروز ومنطقة العلويين وفي الجزيرة.

ولقد استفاد عملاء هتلر وموسوليني من هذه الأوضاع وعملوا لتبديد الأمن والاستقرار في البلاد. والمفارقة المؤسفة أن الدكتور شهبندر كان يعمل حينئذ ضد الحكومة في دمشق، وكانت سوريا قد دخلت مرحلة جديدة، هي مرحلة الأزمة. وغنيّ عن القول إن المستفيد من أوضاع كهذه هو الاستعمار الفرنسي وعملاؤه الرجعيّون والدعاية النازية والفاشية.

خطوة إلى الوراء على صعيد الحركات الوطنية العربية

كان ثمة إجماع على أنّ مطلب الوحدة العربية هو قضية الأمة العربية كلها، وهذا كان بمثابة الشعور السائد لدى المثقفين والطلاب وفئات واسعة من شعبنا في سوريا ولا سيّما في دمشق، فيما استمر وهج المؤتمر العربي المنعقد في زحلة في العام 1934، الذي قام حزبنا بدور أساسي في صياغة مقرراته وفي بلورة موقفه النضالي. فلقد بقي هذا المؤتمر يقوم بدوره الطليعي انطلاقاً من هذه المبادئ لغاية العام 1937 حيث تحول عن الدور القيادي، وبات دوره صامتاً وفي أفضل الأحوال أضحى في موقف الدفاع عن النفس، وبكلمة أخرى قد صار على هامش الأحداث.

في ظل هذه الظروف انعقد في 27 تشرين الثاني عام 1938 اجتماع موسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني السوري، في دمشق بحضور المسؤولين الأساسيين للمنظمات. ألقى الرفيق خالد بكداش تقريراً بعنوان «الشيوعيون العرب والحركة الوطنية العربية»؛ نشر التقرير في كراس بالعربية والأرمنية، طارحاً القضية الوطنية في إطارها الصحيح، ومما جاء في التقرير أن «تحقيق الوحدة العربية مهمة نضالية لشعبنا»، وأن «المهمة الأساسية في سوريا ولبنان وفي سائر البلدان العربية هي

الوحدة والتضامن بين جميع القوى الوطنية. من أجل تحقيق الاستقلال والحريات الشعبية ومن أجل الانتصار على الصعوبات الداخلية داخل كل بلد».

كما انتقد التقرير حركة المثقفين الشباب الذين يطرحون النضال من أجل الوحدة العربية منفصلاً عن معترك النضال اليومي لشعبنا، مبتعدين عن الواقع بأفكارهم المثالية، متأثرين بالنموذج الهتلري.

ومع الأسف فقد تجاهل التقرير مقررات المؤتمر العربي في زحلة عام 1934، الذي نظمه حزبنا وصدر عنه قرار بالإجماع يدعو للوحدة العربية. وتناسى التقرير أن هذه المقررات لا تزال صالحة حتى تاريخه، وأن شعار الوحدة العربية لا يتجزأ عن النضال اليومي الذي يخوضه شعبنا، ولا يمكن طرح شعارات مجردة عن الواقع، وأن الحؤول دون الاعتماد على الهتلرية إنما يتطلب بإخلاص مع سائر القوى الوطنية، خوض النضالات بشعارات محددة معادية للامبريالية، معادية للهتلرية، معادية للفاشية، وخوض النضال الثوري ضدّ الرجعية.

كان من شأن موقف كهذا أن يؤمن لحزبنا موقفاً نضالياً صحيحاً ويمنع استفادة الهتلريين والقوى الامبريالية ويتيح للحزب ممارسة دوره الطليعي، مع سائر القوى الوطنية الموحدة المناضلة ضد الاستعمار. وما حصل، هو أن حزبنا من أوائل عام 1937 حتى تقرير خالد بكداش والسنوات اللاحقة، تراجع على صعيد النضال من أجل الوحدة العربية بالنسبة إلى السنوات التي سبقت هذا التاريخ. ولقد ساعد موقف حزبنا هذا على نشوء الحركة البعثية عملياً.

والمعروف أن المؤتمر الثاني لحزبنا، عام 1968، صحح بعد ثلاثة عقود من السنين خط الحزب واضعاً منطلقات صحيحة ممّا جعله في قيادة العمل الوطني، في حين كانت الساحة متروكة لسوانا في هذا المضمار.

والمؤكد أن المسؤولية كانت جماعية، غير أنّ التبعة الأساسية إنما

تقع على المسؤول الرئيسي حيث، أن المناخ الذي ساد في تلك الآونة قد أتاح له التفرّد بتقرير مجمل سياسة الحزب.

موقف الحزب من الأقليات الأرمنيّة والقوميات الأخرى

نشير أيضاً إلى أن اجتماع اللجنة المركزية للحزب في 27 تشرين الثاني 1938، حدّد موقف الحزب من الأرمن والأقليات القومية الأخرى على الوجه الآتي: انطلاقاً من المبادئ الديموقراطية الصحيحة، وانسجاماً مع مبادئ الحركة القومية العربية، يجب تقديم التسهيلات كافة للحفاظ على ثقافة ولغة الأقليات القومية، وصيانة تراثهم التقدمي وإنشاء مدارس وأندية لتعليم اللغة العربية إلى جانب لغتهم القوميّة.

هذا التقرير صدر في كرّاس باللغتين العربية والأرمنية، وقد تولَّيت كتابة مقدمة الكرّاس في اللغة الأرمنيّة، وممَّا جاء فيها: إن حاضر ومستقبل الشعب الأرمني المقيم في العالم العربي مرتبطان بمدى صحة موقفه باتجاه الحركات التحررية في الوطن العربي.

اجتماع كادر الفرع الأرمني:
الأمميّة ووحدة الشعب الأرمني

كانت جريدة «جوغوفورتي تساين» قد نشرت في عددها الصادر في 18 كانون الأول 1938 التقرير الذي ألقيته في اجتماع كادر الفرع الأرمني للحزب بعنوان «وحدة الشعب الأرمني والأمميّة»، وأهم ما جاء في التقرير:

«سجّل اجتماع الكادر الحزبي بارتياح أن جهودنا لتحقيق وحدة الشعب الأرمني قد تجسّدت وتجلّت بمساعدة الأرمن في لواء اسكندرون.

إن الشيوعيين جاهزون للمساعدة وبذل جميع الإمكانيات بإخلاص

من أجل تحقيق وحدة الشعب الأرمني وازدهاره وصون أمنه وتطوير ثقافته، وأيضاً تطوير علاقة الصداقة بين الأرمن والعرب ومساعدة الأرمن في لواء اسكندرون بجميع الوسائل.

إن الشيوعيِّين الأرمن مع رفاقهم وإخوانهم الشيوعيّين العرب هم وحدة لا تتجزأ، وفي الوقت نفسه فإن منظمتنا الأرمنية هي من صميم الشعب الأرمني، والهدف الأساسي للشيوعيين الأرمن هو وحدة شعبهم وصيانة أمنه القومي وازدهار ثقافته. وهم الورثة الحقيقيّون لنضال الأمة الأرمنيّة من أجل التحرر والتقدم، وأفضل ممثّلين لتراثهم الوطني.

إن الشيوعيين الأرمن مقتنعون بأن سعادة شعبهم تتحقق في ظل الشيوعية، وكذلك سعادة جميع الشعوب. أممية الشيوعيين هي نتيجة العمل المشترك بين الشعوب، وهذا هو السبيل الوحيد لتقدم الشعوب ومنها الشعب الأرمني. إن هذه الحقيقة ليست نقيضاً لمصالح الشعوب القومية ولا تتنافى معها وأيّ تفسير آخر إنّما يعني الوقوع في الالتباس، أو محاولة لطمس الحقيقة».

من لينين إلى إبراهيم هنانو: نحن معكم...

إبراهيم هنانو، ابن مدينة حلب، هو أحد الأبطال المناضلين من أجل استقلال سوريا في العام 1920ـ1921 حيث نظّم وقاد الثورة الوطنية المسلحة ضدّ الاحتلال الاستعماري لسوريا. وكان يملك قرية في منطقة حلب. وقد استمر بعد ذلك في نضاله السياسي من أجل الاستقلال، وكان أحد قادة الكتلة الوطنية ومعارضاً للتفاهم مع الاستعمار الفرنسي.

في أحد لقاءاتي مع يوسف يزبك، أخبرني أنه التقى إبراهيم هنانو في صيف عام 1937 في بلودان (سوريا) وطلب منه هنانو صياغة سيرة حياته، وأخبره بهذه المناسبة أنه تلقى رسالتين من لينين خلال فترة قيادته

للثورة. عبّر لينين لإبراهيم هنانو عن تضامن ثورة أكتوبر مع الثورة الوطنية المعادية للاستعمار.

مع الأسف توفي إبراهيم هنانو باكراً ولم يستطع يوسف يزبك تحقيق وعده في إنجاز الكتاب، ولم يتمكن من الحصول على رسائل لينين.

فرنسا إلى اليمين..
والأرمن يتظاهرون لأجل استقلال سوريا

في الأشهر الأخيرة لعام 1938 اتجهت السياسة الفرنسية بشكل ملحوظ نحو اليمين، وكانت باريس تؤجل بشكل دائم تصديق المعاهدة السورية ـ الفرنسية في مجلس النواب الفرنسي رغم الجهود الاستثنائية للحزب الشيوعي الفرنسي. هذه المماطلة خلقت أزمة سياسية جديدة في سوريا. وقامت في 2 كانون الثاني 1939 تظاهرات شعبية احتجاجية ضدّ مماطلة فرنسا في التصديق على المعاهدة. شارك الأرمن في هذه التظاهرات بمبادرة من رفاقنا، وكذلك بادر رفاقنا إلى تقديم عريضة لمجلس النواب السوري موقعة من الأرمن السوريين تطالب بالتصديق على المعاهدة، وتعلن تضامن الأرمن مع سائر إخوانهم السوريين، ولقد حظيت مشاركة الأرمن في التظاهرات الاحتجاجية، والعريضة المقدمة إلى مجلس النواب بترحيب لدى رئيس البرلمان وأعضائه. وخلال الجلسة حيّا النائبان فخري بارودي وكدخودا تضامن الشعب الأرمني.

هذا الموضوع تطرقت إليه جريدة «الإنشاء» الدمشقية في عددها الصادر في 19 كانون الثاني من السنة نفسها.

إضراب عام ضد شركة مياه بيروت

قررت شركة مياه بيروت زيادة التعرفة بنسبة 25 بالمئة. أحدث هذا القرار استياء شعبياً وقد قاد الحزب حركة شعبية احتجاجية ضد هذا

القرار وتشكلت لجنة خاصة كان من أعضائها الشيخ حسن مكّي والرفاق مصطفى العريس وفؤاد ناصر الدين وسعد الدين مومنة وفاضل عقل ويوسف فرنسيس والياس حداد وجورج ناصيف وغيرهم، وبدأوا فوراً بجمع التواقيع على عريضة، وبتأليف لجان أحياء تحضيراً للإضراب العام.

نفذ الإضراب العام في 20 كانون الثاني وعمت التظاهرات أنحاء بيروت وتراجعت شركة المياه عن قرارها وانتصرت الحركة الشعبية. وقد بلغ وزير الداخلية آنذاك القرار المذكور إلى الشيخ حسن مكي ومصطفى العريس وفؤاد ناصر الدين وفاضل عقل.

يومئذ حاولت الكتائب تجيير هذا الانتصار لمصلحتها لكنها قوبلت بالسخرية من قِبل الرأي العام.

كيف نفهم الشيوعيّة

عندما تلبّدت الأجواء السياسية العالمية وبدأت الهجمة السوداء، شرعت الرجعية الأرمنية هي أيضاً في حملة مسعورة ضد الشيوعيّين الأرمن واتّهمتهم بأنهم ليسوا جديرين بانتمائهم الأرمني.

رداً على هذه الاتهامات كتبت مقالاً في جريدة «هوريزون» في 4 شباط 1939 جاء فيه: «إن الشيوعيين الأرمن ليسوا أرمن فحسب، وإنما هُم أرمن ممتازون. ليست الشيوعية إلا المثال الأفضل في جميع مجالات الحياة. إن الحركة الشيوعية تعمل للوصول إلى الأفضل، إنها حركة نظرية وعملية. هل من الممكن تخيّل الشعب الأرمني شعباً محترماً لولا وجود روّاد في جميع المراحل التاريخية عاملين من أجل التقدم الفكري، وفي جميع الصعد الحياتية مستبدلين الأفكار والأساليب القديمة بأفكار وأساليب جديدة تجاري العصر؟!».

في لواء اسكندرون.. في المواقع المتقدمة!

كان الحزب الشيوعي أقوى قوة جماهيرية بين الأرمن في لواء الاسكندرون بشكل عام وفي مدينة اسكندرون بشكل خاص، وأبرز قادة الحزب هناك الرفاق هاروتيون ماخيان، ستراك أباجيان، أوهانس ماجاريان وغيرهم. وكان مسؤول الفرق الحزبية في جبل موسى الرفيق هاكوب تشمينيان، كما تأسست فرق حزبية في مناطق العلويين.

زرت اسكندرون عام 1931 والتقيت كادر الحزب والمنظمة الحزبية وبحثنا الوضع السياسي والعمالي، واطلعت على نشاط منظمتنا، وقدّمت باسم اللجنة المركزية اقتراحات سياسية وتنظيمية. وخلال فترة وجودي في أنديوك التقيت المحامي فيروز خانزاريان وهو من قدماء حزب الهنشاك، وكانت قد جمعته علاقة حميمة مع حزبنا في السنوات الأخيرة. انتخب رئيساً لجمعية مساعدة أرمينيا. وفي اجتماع المندوبين في لبنان وسوريا أتيح لي أن أتعرّف عبر فيروز خانزاريان إلى مجموعة من الشبان الأتراك التقدميين في إنطاكية وحضرت أحد اجتماعاتهم، وهكذا فقد تأسست أول فرقة شيوعية بين الأتراك في لواء اسكندرون. أما قائد الفرقة الشيوعية التركية فهو الوجه المعروف والمثقف البعيد الرؤيا أحمد سري. بعد احتلال قوات الكماليّين للواء اسكندرون تعرض الشيوعيّون الأتراك للملاحقة وللسجن.

حسب المعلومات التي وصلت إلينا في تلك الفترة، فقد بقي رفاقنا الأتراك في مواقعهم المتقدمة. ولكن أخبارهم انقطعت عنا سنوات طويلة ولم نعرف شيئاً عن مصيرهم.

وكانت سنة 1939 سنة مصيرية بالنسبة إلى لواء اسكندرون. لقد وافقت فرنسا، تحت الضغط الإنكليزي، على سلخ لواء اسكندرون من الأراضي السورية وتسليمه إلى تركيا لإرضائها واجتذابها إلى جانبهم ضد الاتحاد السوڤياتي عشية التحضير للحرب العالمية الثانية.

بدأت لجنة صورية بإحصاء سكان لواء اسكندرون لتحديد انتمائهم القومي. استُنفر الحزب وعمل لإظهار حقيقة الأكثرية الأرمنية والعربية مقابل الأقلية التركية، كذلك استُنفر أبناء جبل موسى القاطنون في لبنان ومعظمهم من الشيوعيّين للمشاركة في الإحصاء. وعندما شعر الأتراك أن النتيجة ليست لمصلحتهم حيث تبيّن أن غالبية السكان سواء على صعيد العرب (علويين، روم أرثوذكس وسريان عرب) أم الأرمن، يعارضون إعطاء لواء اسكندرون إلى تركيا، ضغطت هذه الأخيرة على السلطات الفرنسية لوقف الإحصاء. كان ممثل فرنسا في لواء اسكندرون روجيه غارو، رجلاً ديموقراطياً متحرراً، معادياً للفاشية وصديقاً للاتحاد السوڤياتي ويعارض تسليم لواء اسكندرون إلى تركيا، وقد استبدلته السلطات الفرنسية بالكولونيل كوليه، المكلف بتنظيم تسليم لواء اسكندرون إلى الأتراك، وقد عقدت في 23 تموز اتفاقية رسمية بين فرنسا وتركيا لتسليم اللواء. هذا مع العلم بأن فرنسا ليس لها الحق في تسليم جزء من أراضي سوريا إلى الغير ضد إرادة سوريا.

على إثر توقيع الاتفاقية، دب الذعر بين الأرمن في لواء اسكندرون وبدأوا هجرة جماعية إلى باسيط، ومن هناك توزعوا في حلب وحماه وحمص ودمشق ولبنان خلال أشهر تموز وآب وأيلول.

انهمك الشيوعيون وحدهم في تقديم العون للمهجَّرين. وآخر من ترك لواء اسكندرون هم الشيوعيون الأرمن حيث تجمعوا في قرية «وقف» بمنطقة جبل موسى وبعضهم بقي هناك.

في ذلك الحين لجأ المتآمرون، تستيراً لفعلتهم وتمهيداً لتهجير الأرمن وإضاعة اللواء، إلى إعلان دولة «هاتاي» وقد تألف مجلس شكلي... ثم جرى إعلان الضمّ الرسمي والنهائي إلى تركيا.

قسم كبير من الأرمن المهجرين من لواء اسكندرون استوطن سهل البقاع على أرض قدمها لهم الفرنسيون وأسَّسوا قرية عنجر. ولقد استفاد الطاشناك من ظروف بداية الحرب العالمية الثانية في الفترة التي كانت

السلطات الفرنسية تلاحق فيها الشيوعيِّين والوطنيِّين، فطردوا جميع الشيوعيين والوطنيين الأرمن مع عائلاتهم من عنجر وفرضوا سلطة «الحزب الواحد».

«تفتيت» سوريا

بعد لواء اسكندرون استمرت السلطات الفرنسية بتآمرها على وحدة سوريا، رغم وجود معاهدة سوريّة ـ فرنسية، ولم تكن المعاهدة قد صدقت من قبل مجلس النواب الفرنسي، وعملت السلطات الفرنسية على إيجاد حركات انفصالية. وهكذا، فقد عيّنت حكاماً في جبل الدروز وفي منطقة العلويين بغية تقوية الحركات الانفصالية الرجعيّة ووضعها تحت إشرافها. ولهذه الأسباب قدم لطفي الحفّار استقالة حكومته في أواخر شباط.

تظاهرة ومؤتمر ضد الفاشية

أقام الحزب في شهر نيسان 1939 تظاهرة معادية للفاشية احتجاجاً على الاحتلال الفاشي الإيطالي لألبانيا. انطلقت التظاهرة من أمام مبنى العدلية القديم تجاه ساحة الشهداء، وانضمت إليها أمام التياترو الكبير تظاهرة آتية من ساحة المعرض، واتجه المتظاهرون إلى ساحة الشهداء، قدّر عدد المتظاهرين بحوالى 15 ألفاً، تقدمهم الرفاق: فرج اللّه الحلو، نقولا شاوي، رئيس لجنة مكافحة الفاشستيّة أنطون تابت، مصطفى العريس، سعد الدين مومنة، الشيخ مكي وغيرهم. خلال التظاهرة أطلقت الهتافات المعادية للفاشية، والمطالبة بالحرية لألبانيا.

مؤتمر معادٍ للفاشيَّة

بادرت عصبة مكافحة الفاشستية إلى الدعوة لمؤتمر عقد في القاعة

الكبرى لنادي الشرق في 6 و7 أيار 1939 بحضور عدد كبير من السياسيين والمثقفين والأدباء والصحافيّين والشخصيات الاجتماعية وألقى المهندس تابت رئيس لجنة مكافحة الفاشستية كلمة بالمناسبة، ثم تكلم الأدباء والكتاب الأساتذة رئيف خوري، توفيق يوسف عوّاد، الياس خليل زخريا، الياس أبو شبكة، صاحب جريدة «النهار» جبران تويني، الرفيق خالد بكداش، الرفيقة مقبولة الشلق، وألقيت بدوري كلمة شرحت فيها معنى النضال ضد الفاشية وطنياً وسياسياً، وأعربت عن تضامن الأرمن مع هذا النضال.

وقد نشرت كلمتي جريدة «ليبان» الفرنسية لصاحبها ومديرها المسؤول جوزف أعجميان.

ومن دمشق تلقى المؤتمر تحيات رئيس وزراء سوريا لطفي الحفار، وفارس الخوري وشكري القوتلي وأحمد اللحام وبدوي الجبل.

وصدر عن المؤتمر القرارات التالية:

1 ـ حل القضية الفلسطينية على أساس عادل والمحافظة على الحق العربي في فلسطين.

2 ـ النضال ضد الدعاية الفاشية والاستعمار في بلادنا.

3 ـ تأمين الحريات الديموقراطية وتحقيق المطالب الشعبية.

4 ـ دعوة المنظمات العربية للنضال ضدّ الفاشية وخطر الحرب.

5 ـ إدانة إجراءات السلطة التي تخدم الاستعمار وتمنع عن الشعوب حق تقرير المصير.

أول نظام داخلي...

عُقد في 11 حزيران 1939 اجتماع موسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني السوري، وذلك في حي مار الياس ببيروت في منزل جورج قازان. وقد أُلقي تقرير سياسي حول الوضع الراهن ثم بدأ نقاش مسودة النظام الداخلي للحزب.

كان الحزب حتى ذلك الحين يعتمد على نظام الأممية الشيوعية الثالثة، ولم يكن لدينا نظام داخلي خاص بنا. بعد مناقشة المسودة وإضافة اقتراحات جديدة تشكلت لجنة من الرفاق خالد بكداش، فرج اللّه الحلو، نقولا شاوي، أرتين مادويان، رشاد عيسى، فؤاد ناصر الدين والرفيقة أسمى غصن لصياغة أول نظام داخلي في تاريخ حزبنا.

حرب عالمية ومعاهدة.. واعتقالات

صباح الأول من أيلول عام 1939 بدأت ألمانيا الهتلرية هجومها على بولونيا، وقبل إعلان الحرب رسمياً كانت العمليات العسكرية في الأيام الأولى تدور بين بريطانيا وفرنسا من جهة والقوات الهتلرية من جهة أخرى. وكانت تلك بداية الحرب العالمية الثانية.

عشية خيانة ميونيخ وقبل الهجوم الهتلري على المجر بشهر ونصف الشهر، كانت إنكلترا وفرنسا قد رفضتا كل الاقتراحات المنطقية التي تقدَّم بها الاتحاد السوفياتي للدفاع عن السلام وتشكيل جبهة موحدة ضد التهديد العسكري الهتلري وإنقاذ السلام العالمي لمصلحة جميع الشعوب. حتى إنهم لم يكتفوا بتجاهل المقترحات السوفياتية، بل تآمروا على الاتحاد السوفياتي وقدموا تنازلات لألمانيا الهتلرية مشجعين إياها على شنّ الحرب ضدّ البلاد السوفياتية.

كان الاتحاد السوفياتي يراقب مجرى الأحداث ويتابع سياسته المرنة والصبورة بغية إنقاذ السلام العالمي إذا أمكن ذلك، وإلّا فالعمل لإنقاذ سلامه الخاص وتحاشي دخول الحرب منفرداً، وإرجاء المعركة قدر المستطاع لمعرفة القادة السوفيات بنيات الدول الامبريالية وعدم ثقتها بها وخصوصاً ألمانيا الهتلرية التي عاد السوفيات ووقّعوا معها اتفاقية عدم اعتداء.

في ظل هذه الأجواء فضّل هتلر الهجوم على بولونيا وبلدان أوروبا

الغربية، واقترح على الاتحاد السوڤياتي معاهدة عدم اعتداء. لم يستطع الاتحاد السوڤياتي رفض هذا الاقتراح أخذاً في الاعتبار السياسة التآمرية والعدائية لفرنسا وإنكلترا تجاهَهُ.

أثبتت الأحداث التاريخية أن مصلحة هتلر الحقيقية كانت تقضي بالمبادرة إلى شن مثل هذه العمليّات العسكرية، حيث كانت خطته تقضي بالسيطرة على مجمل قدرات أوروبا العسكرية، ثم الانقضاض على الاتحاد السوڤياتي. ومع ذلك فإن ألمانيا الهتلرية لم تمن بهزيمة ساحقة إلّا على يد الاتحاد السوڤياتي بالذات .

بعد اندلاع الحرب عقدت اللجنة المركزية في الرابع من أيلول اجتماعاً استثنائياً في عاليه للبحث في الوضع الراهن، ولتحديد موقف الحزب من المستجدّات .

كان الحزب قد أيّد دون تحفّظ المعاهدة السوڤياتية ـ الألمانية حول عدم الاعتداء التي اعتبرت بمثابة معاهدة سلام. أمّا بشأن الحرب الدائرة فقد قررت اللجنة المركزية إدانة ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية وتأييد البلدان المعتدى عليها. ووجهت الدعوة لوحدة الشعب.

كان موقفنا يتطابق مع موقف الحزب الشيوعي الفرنسي، أرسلنا باسم الحزب برقية تأييد للحزب الشيوعي الفرنسي وللرفيقين موريس توريز ومرسال كاشان.

السلطة الفرنسية في تلك الفترة وحكومة تشمبرلين في بريطانيا لم تكونا جادّتين في خوض حرب ضدّ ألمانيا الهتلرية. وقد جمّدتا العمليات العسكرية في أوروبا في فترة الشتاء، ممّا فسح في المجال أمام هتلر لتحضير الهجوم على البلدين.

حظّرت السلطات الفرنسية نشاط الحزب الشيوعي في فرنسا وفي لبنان، وبدأت الملاحقات الفاشيّة لاعتقال وسجن الشيوعيين الذين أعلنوا استعدادهم للدفاع عن الوطن ضدّ الغزاة الهتلريِّين.

بل أكثر من ذلك، فقد استقدمت فرنسا حوالى 70 ألف جندي من أوروبا إلى لبنان وسوريا للتخفيف من قواتها العسكرية هناك، ووضعتهم تحت إمرة الجنرال ويغان بغية القيام بهجوم عسكري مع الجيشين التركي والبريطاني لاجتياح القفقاس السوڤياتية. تمّ تحضير الخطة العسكرية في اجتماع مشترك للجنرال ويغان وقائد الجيش البريطاني في الشرق الجنرال وايويل وقائد أركان الجيوش التركية الجنرال فوزي شاكماك.

استطاع ضابط فرنسي وطني معادٍ للفاشية نقل هذه الخطة إلى السوڤيات. وأذاع راديو موسكو هذه الخطة لعدة أيام متتالية، قامت خلالها السلطات الفرنسية بمنع الاستماع إلى الإذاعات في لبنان وسوريا.

لم نكن مهيئين للعمل السرّي

بعد مرور عدة أسابيع على بدء الحرب، أصدر المفوض السامي الفرنسي في 23 أيلول أمراً بإلغاء الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا وأعلن حل جميع المنظمات التابعة للحزب وإغلاق مراكز حزبنا ووقف إصدار جريدة «صوت الشعب» و«جوغوفورتي تساين». كنا قد توقعنا بدء الاعتقالات غير أن الحزب لم يتخذ، حتى ذلك الحين ، الإجراءات الضرورية لاستمرارية النضال الحزبي وحماية الكادرات في الظروف السرّية. إن الحزب الشيوعي كحزب ثوري من واجبه حتى في ظروف العمل العلني أن يكون جاهزاً لكل الاحتمالات الطارئة لحماية كادرات الحزب ومن أجل استمرار النضال في الظروف السرية. هذه الإجراءات كان لا مناص منها فور استلام هتلر السلطة في ألمانيا حيث كان واضحاً أن عالمنا متّجه نحو الحرب، وفي هذا الوضع لا يمكن أن تبقى بلادنا بعيدة عن مسرح الأحداث. بالإضافة إلى ذلك كان المؤتمر السابع للكومنترن في تموز عام 1935 قد نبّه لخطر الحرب. الرفيق أركولي توكلياتي قدّم، من جهته، تقريراً في المؤتمر نبه فيه إلى خطر الحرب

العالمية داعياً الشعوب للتصدي لهذا الخطر وكشف مؤامرة ميونيخ التي تتستّر تحت شعار مزوّر لإنقاذ السلام العالمي. ثم إن سياسة فرنسا في تقسيم سوريا وتسليم لواء اسكندرون لتركيا ألم تحمل دليلاً كافياً على أن السلطة الفرنسية هي أبعد ما يكون عن فرنسا الديموقراطية التي امتدحناها؟! لقد حاولت فرنسا حينئذ كسب رضا ألمانيا الهتلرية وشرعت في التآمر على الاتحاد السوڤياتي والعداء للشيوعية عبر مخطط تشمبرلين.

كان حزبنا يعيش نشوة النجاح الداخلي ولم يفكّر للبعيد. يؤسفني أن أسجّل هذه الحقيقة ضمن إطار النقد الذاتي الذي يمارسه الشيوعيون. من الطبيعي أن تكون المسؤوليّة، في الظاهر، جماعية، انطلاقاً من المبادئ المعروفة، غير أن المسؤولية الرئيسية يتحملها المسؤول الذي كانت سلطة القرار الحقيقية في يده حيث إنه أوجد مناخ عبادة الفرد لشخصه. ممّا حدَّ من إمكانية المبادرة لدى الآخرين.

بالرغم من هذه الأوضاع لم يتراجع حزبنا عن نضاله السياسي، وخلال تشرين الثاني عام 1939 أصدر منشوراً بالطباعة الجيلاتينيّة في ظل العمل السري، يحدّد موقف الحزب انطلاقاً من مقررات اللجنة المركزية في 4 أيلول. وعقد عشية بدء الاعتقالات اجتماع في عين المريسة في منزل عم موسيس ماركاريان داخل غرفة صغيرة. شارك في الاجتماع الرفاق خالد بكداش، فرج الله الحلو، نقولا شاوي، أرتين مادويان ويوسف خطار الحلو. كانت النقطة الوحيدة على جدول الأعمال ضمان أمن الكادر المعرض للخطر، رغم الإمكانيات المحدودة للحزب. وتقرر عودة يوسف خطار الحلو إلى قريته في جبيل لإبعاد الخطر عنه، إضافة إلى أنه لم يكن معروفاً خارج الحزب، كما تقرّر إقامة فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي في منزل أحد الأصدقاء إلى حين تدبير منزل سري لهما، وأخيراً تأمين مكان لإقامة فرج اللّه في عيادة طبيب في خندق الغميق بمساعدة الرفيق ميسيا كوجايان، ولم يكن الطبيب يعرف هوية

فرج اللّه الحلو. وقد عاش هذا الأخير في ظروف صعبة جداً، إلى أن اعتقل هو ونقولا شاوي عندما كان الرفيق نقولا آتياً لزيارته.

استأجرنا منزلاً جديداً للرفيق خالد بكداش واحتفظ بصلة مع فؤاد ناصر الدين، وبعد اعتقال الأخير رأينا ضرورة إبعاد خالد بكداش عن هذا المنزل، وانتقل إلى غرفة صغيرة لرفيق أرمني من بلدة كسب بشمالي سوريا ومكث عنده 15 يوماً. هذا الرفيق كان يشتغل سائس خيل خلف السفارة الفرنسية في حرش الصنوبر حيث كان يسكن في مكان عمله عند عائلة بيهم.

زرت الرفيق خالد بكداش في الغرفة. كانت المعيشة صعبة جداً داخل هذا المكان فقرّرنا نقله إلى أنطلياس. اتّصلنا بالرفيق طنوس دياب الذي أمّن انتقاله إلى انطلياس حيث أقام في منزل العامل الرفيق أسد، إلى حين انتقاله إلى دمشق في أوائل حزيران 1941. الرفيقان مصطفى العريس وحنا الزرقا والآخرون اضطروا إلى تدبير أمورهم بأنفسهم، وبالنسبة إلي أمضيت يوماً واحداً في منزل رفيق على شاطئ البحر خلف شركة الكهرباء، وكان المنزل غير آمن، واتصلت بواسطة الرفيق بدروس بوغصيان (شاتول) بالرفيق نزار خاتشادوريان الذي تربطني به صداقة شخصية، وانتقلت إلى منزله فاستقبلني بكل ترحيب. يقع المنزل في الأشرفية خلف حي البدوي وهو مؤلف من غرفة «ودار» ومطبخ. كنت أمضي يومي في الغرفة وأنام في زاوية المطبخ. عملياً لم أكن في أمان بهذا الشكل، وحرصاً على أمن العائلة أيضاً فقد أنشأنا مخبأ سرياً داخل الغرفة لأحتمي فيه عند الضرورة. هذه الفكرة التي خطرت على ذهني قام بتنفيذها هاكوب دردريان صديق الحزب وصديقي الأمين منذ سنوات. لم يكن ممكناً كشف المخبأ إلا في حالة الخيانة فقط. كان هاكوب دردريان يزورني بانتظام ويشاركني في رفع معنويات العائلة التي أقيم عندها. وكان همزة الوصل مع عائلتي عبر دكان لبيع الخضار يملكه عمّي.

كان عندنا جار أمين، هو هاكوب آغادولوزيان صاحب محل لتصليح

الأحذية في باب إدريس، عبره كنا نؤمن الصلة بالمنظمات الحزبية وكنت على صلة دائمة بالرفيق يوسف خطار الحلو حيث عاد من قريته للاهتمام بنشاط الحزب وأولى الكادرات النقابية الحزبية عنايته. وبالطريقة نفسها كنت على صلة بالرفيق بانوس أرماسيان الذي اعتقل لاحقاً نظراً لعدم تقيّده بأسس العمل السرّي.

وقد أمّنت صلة دائمة بالرفيق خالد بكداش؛ أزوره في انطلياس وأحياناً يزورني ويبيت في غرفتي. وكنت أزور الرفيق أوهانس أغباشيان في مكان إقامته السري حيث اعتقل لاحقاً عندما كان على موعد مع أحد الأشخاص.

يجب أن نضيف أن الرفيقة ماري زوجة هاكوب آغا والرفيقة فارتوهيه عاملتاني معاملة حسنة، وقد بقيت هناك لغاية حزيران 1941 ثم انتقلت إلى دمشق.

في المحكمة العسكرية: 33 مناضلاً... و«عناد» فرج الله ونقولا

بين الأسبوع الأخير من تشرين الثاني عام 1939 ودخول قوات الحلفاء إلى لبنان وسوريا، تعرض الشيوعيّون لملاحقات قاسية من قبل السلطة الفرنسية، اعتقل 34 شيوعياً في لبنان وسوريا وصدرت مذكرات توقيف بحق أربعة رفاق آخرين بينهم خالد بكداش وأنا.

وأصدر النائب العام لدى المحكمة العسكرية الفرنسية «بوركير» أمراً في 21 حزيران عام 1940 بمحاكمة الرفاق التالية أسماؤهم:

1 ـ فرج اللّه الحلو

2 ـ نقولا شاوي

3 ـ خالد بكداش (سوري) (غيابياً)

4 ـ أرتين مادويان (غيابياً)

5 ـ مصطفى العريس (غيابياً)

6 ـ رشاد عيسى (سوري)

7 ـ رامز دميانوس

8 ـ حنا الزرقا

9 ـ ميشال عازار

10 ـ كيورك ماسرجيان

11 ـ أوهانس أغباشيان

12 ـ ريشارد استيفان

13 ـ حبيب طعمه

14 ـ حكمت ربو (سوري)

15 ـ قره بت بوغوصيان

16 ـ محمد الديب

17 ـ موسيس أغازاريان

18 ـ بانوس أرامايسيان

19 ـ سيروب سبيكيكيان

20 ـ لويس صعب

21 ـ ميشال طراد (غيابياً)

22 ـ فؤاد ناصر الدين

23 ـ جورج مصور

هؤلاء الرفاق «متّهمون في بيروت ودمشق وعلى أراضي الانتداب الفرنسي، بعد إعلان منع نشاط الحزب الشيوعي بنشر دعاية الأممية الشيوعية الثالثة بصورة مباشرة وغير مباشرة والقيام بنشاط ذي طابع شيوعي وتوزيع بيانات وصحف ومطبوعات بهدف نشر مبادئ الأممية الشيوعية الثالثة وتنظيم وتسهيل عقد اجتماعات سرية».

أصدر القاضي فرج أمراً خاصاً بإحالة رفاقنا للمحاكمة من العدليّة إلى المحكمة العسكرية في 18 حزيران 1940. جرت المحاكمة في 9

آب وفرض أثناءها جوّ إرهابي داخل المحكمة ومُنع رفاقنا من الدفاع عن النفس كشيوعيين. رغم هذه الأجواء استطاع الرفيقان نقولا شاوي وفرج اللّه الحلو الدفاع عن الحزب الشيوعي وسياسته خلال المحاكمة قائلين: «المفوض السامي الفرنسي ليس له الحق بحل الحزب الشيوعي لأنه ليس هو من أسَّس الحزب. تأسس الحزب من قبل العمال والفلاحين والمثقفين التقدميين والأحرار وهم يدافعون عن بقائه، وهم يعملون إلى جانب فئات واسعة من شعبنا ويقودون حزبنا».

حكمت المحكمة حضورياً بالسجن خمس سنوات على فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي وأوهانس أغباشيان وغيابياً على خالد بكداش وأنا ومصطفى العريس، أما الرفاق الباقون فحكم عليهم بما يراوح بين ثلاث سنوات وسنتين.

في وقت لاحق اعتُقل الرفيق مصطفى العريس في فلسطين حيث كان قد لجأ إليها من بيروت. وبعد أن استأنف القرار حُكم عليه بـ 3 سنوات.

بمناسبة محاكمة الشيوعيين وزع بيان مطبوع بواسطة الجيلاتين باسم اللجنة المركزية يدين بشدة العداء للشيوعية والملاحقات والاعتقالات الجارية، والمحاكمة القائمة ويطالب بإطلاق سراح الرفاق الذين يحاكمون. وقد وزع البيان في المدينة وأمام المحكمة.

وصدر دفاع الرفيقين نقولا شاوي وفرج اللّه الحلو في كرّاس بالطباعة الجيلاتينية بعد حصولنا على النص مكتوباً على ورق لف السجائر، مع تحيّة اللجنة المركزيّة للرفاق الذين دافعوا ببطولة أمام المحكمة العسكرية.

في 21 حزيران أمر المحقق بإطلاق سراح الرفاق:

1 ـ جان تابت

2 ـ سعد الدين مومنة

3 ـ انطوان سركيس

4 ـ بشارة خليل

5 ـ نظمي ملكي (سوري)

6ـ صاموئيل كوركيان (سوري)

7 ـ جورج قازان

8 ـ رفائيل جمكوتشيان

9 ـ بشير فنا

10 ـ صبحي النحاس (سوري)

11 ـ شكري كنج إدريس (سوري)

12 ـ محمد العياري (سوري)

13 ـ نظمي رفاعي

14 ـ مير مسعد

وقد أطلق سراحهم لعدم وجود أدلة، ونقل الرفاق الباقون إلى سجن الرمل في بيروت ومن ثم إلى سجن قلعة بيت الدين.

وكان الرفيقان فرج الله الحلو ونقولا شاوي يهتمان بتثقيف الرفاق في السجن. وكان الرفيق بوغوص ناتريان يزور السجناء ويهتم بهم.

وفي إحدى المرات أعطى الرفيق ناتريان الرفاق جميع ما معه من دراهم حتى المبلغ المخصص كأجرة نقل، وعاد إلى بيروت مسافة 60 كيلومتراً سائراً وسط البرد وتحت الأمطار.

بعد دخول قوات الحلفاء تحرك الحزب بنشاط لإطلاق سراح السجناء. نتيجة لهذا التحرك أصدر الجنرال كاترو باسم فرنسا المقاتلة أمراً بإلغاء محاكمة رفاقنا وإطلاق سراحهم، وذلك في أواخر آب 1941، وظهر للعلن الرفيق خالد بكداش وأنا.

... لكننا واصلنا نشاطنا

كان وضع الحزب صعباً، خصوصاً وأننا لم نكن مستعدّين للعمل

السري. لكن الحزب لم يتوان في مواصلة النضال رغم الملاحقات واعتقال الكوادر القياديّة في الحزب وموجة العداء للشيوعية. بقي من القيادة خارج السجون خالد بكداش وأنا. كنا ملاحقين من قِبل السلطة ونعمل في ظروف سرية جداً. طلبنا من الرفيق يوسف خطّار الحلو العودة من قريته. الرفيق خالد كان يمارس مهمته كأمين عام. كنت على صلة دائمة معه ومع الرفيق يوسف، وعلى صلة أيضاً بالرفاق الأرمن وأنظم المراسلات السرية مع دمشق وحلب. أما المراسل الأساسي فكان الرفيق نزار سنباتيان. الرفيق يوسف كان على اتصال بالرفاق العرب والنقابيين الذين هم خارج الاعتقال، ولا سيما منهم الرفيقان يوسف فريحة ويوسف شرتوني، وتجمعه علاقات إفرادية مع رفاق آخرين وبشكل خاص مع إدوار شرتوني. وعادت تصدر جريدة «نضال الشعب» الناطقة باسم اللجنة المركزية وذلك بطباعة جيلاتينية، فيحررها ويشرف عليها الرفيق خالد بكداش وتصدر بانتظام ولو في فترات متباعدة.

صدر أربعة أعداد من جريدة الحزب باللغة الأرمنية «سبارتاك» فكنت أحرّرها وأعدّها للطبع على الجيلاتين، كان يطبعها الرفيق ستراك اباجيان في منزل هوفسب كركريان في عين المريسة.

وكانت «نضال الشعب» والمنشورات الصادرة عن الحزب توزع على الشخصيات السياسية والوطنية بالبريد المغلق، ويقوم بتوزيعها الرفيقان إدوار شرتوني وبدروس بوغوصيان (تشاتول) أما «سبارتاك» فيوزعها الرفاق الأرمن على الشخصيات الأرمنية بوسائل سرية.

كنا نطلع على الوضع الدولي ومجريات الأحداث عبر إذاعة موسكو ونستلم جميع البيانات والنشرات بواسطة الرفيق باروير يرتسيان، حيث كان يعمل في تلك الفترة في «راديو أوريان» للاتصالات.

في تلك الفترة تركّز عملنا السياسي اليومي على تطوير نضالات شعبنا المطلبية الاقتصادية، وتنظيم وتطوير العمل النقابي العلني ضمن الإمكانيات المتوافرة، وفي الأحياء الشعبية حيث تفاقمت أزمة الخبز

والكاز وتدنى مستوى المعيشة بشكل حاد ولا سيّما بعد استسلام فرنسا وسيطرة «فيشي».

تشكلت هيئة عسكرية بقيادة الممثل التجاري لألمانيا في بيروت، خاضعة لألمانية الهتلرية، وهيئة للفاشيين الإيطاليين لمراقبة ووقف إطلاق النار. كانوا ينقلون القمح والمواد الغذائية والكاز إلى فرنسا وألمانيا ممّا يزيد الوضع سوءاً. أما الدقيق المتوافر في البلاد فكان حوالى ثمانين بالمئة منه مصنوعاً من دقيق العدس الفاسد وله رائحة كريهة ويشوبه العفن بسرعة.

مع رياض الصلح

كان ذلك أثناء فترة هجوم إيطاليا الفاشية على اليونان عندما قمت، بتوجيه من الرفيق خالد بكداش، بزيارة رياض الصلح في منزله عصر ذلك اليوم، وكنت على معرفة سابقة به. تحدثت باسم خالد بكداش، ناقشنا الوضع السياسي محلياً ودولياً وموقف الاتحاد السوڤياتي. اقترحت باسم الحزب تطوير نضالات شعبنا المطلبية والاقتصادية كمنطلق لتطوير نضالنا السياسي. أيّد رياض الصلح هذا الاقتراح ووافق عليه. وقد جرى اللقاء بجوٍّ من الصداقة والود، وأعربنا عن ضرورة استمرار اللقاءات.

انتفاضة الملح

في ظل الوضع السياسي والاقتصادي المتردي والضغط السلطوي، اشتدت النقمة الشعبية وتسارعت في جميع المناطق. وشهدت بلدة أنفه الشمالية أول تحرك صدامي غاضب، حيث يعيش السكان بشكل أساسي من إنتاج الملح البحري، وقد بدأ الانفجار الشعبي عندما حاول موظفو الضرائب معزّزين بقوّة من الدرك فرض ضرائب مرتفعة على إنتاج الملح، وكلّ من لا يدفع يُمنع من العمل. وحدث صدام عنيف وأصيبت إحدى

النساء المتظاهرات بجرح بالغ كما جرح واعتقل العديد من الأهالي. هذا الحدث خلق جواً من الاشمئزاز الشعبي ممّا اضطر السلطة للتنازل وإطلاق سراح المعتقلين وتلبية مطالبهم. أصدر الحزب بياناً خاصاً دافع فيه عن مطالب الشعب المحقة وأدان مقررات السلطة المعادية للجماهير وإجراءاتها القمعيّة .

... وبرج حمود الجائعة تقرع الأجراس

في أوائل ربيع عام 1941 قامت انتفاضتان شعبيّتان بمبادرة وقيادة رفاقنا المحليّين.

حصلت الانتفاضة الأولى في برج حمود للمطالبة بالكاز. تدخل ضباط الجيش الفرنسي. لم يتراجع الشعب فاضطرت السلطة إلى التراجع وضاعفت كمية الكاز المخصصة للمنطقة.

أما الانتفاضة الشعبية الثانية فقد جرت بعد وقت قصير من الأولى وذلك للمطالبة بالطحين. هذا التحرك كان على الصعيد الشعبي أكثر شمولية. كان الطحين يوزّع من مستودعات الدولة بإشراف سلطة الانتداب الفرنسي ويعطى الخبز ببطاقة الإعاشة حسب الكمية المحددة للشخص الواحد. لم يكن الدقيق المخصص لبرج حمود كافياً على الإطلاق، ولهذا السبب فقد صدر بيان باللغة الأرمنية يدعو سكان الحي للمشاركة في النضال. بادر رفاقنا في برج حمود إلى قيادة تظاهرة شعبية كبيرة للأهالي تطالب بزيادة كمية الطحين.

قرع رفاقنا أجراس الكنائس داعين الجماهير للمشاركة. تدخلت السلطة والجيش الفرنسي لقمع التظاهرة، وهذه المرة أيضاً لم يتراجع الشعب فاضطرت السلطة للتراجع، وبدلاً من 30 كيساً من الطحين خصص لبرج حمود 60 كيساً. وقد اعتقل خلال التظاهرة الرفيق شافرش ميهرانيان مع زوجته وآخرين ولكن الشعب طالب بإطلاق سراح المعتقلين.

وصدر بيانان باللغة الأرمنية يحيّيان الشعب وانتصاره ويطالبان بإطلاق سراح المعتقلين. وقد اضطرت السلطة نتيجة للضغط الشعبي والتحركات الجماهيريّة إلى إطلاق سراحهم.

وكنت كلّفت بتحرير البيانين بالأرمنية وأعددتهما للطباعة الجيلاتينيّة.

الخطة الهتلرية لاجتياح لبنان

في نيسان وأيار 1941 كان الهتلريون يحضرون لاجتياح لبنان حسب ما أبلغنا من الضباط الوطنيين الفرنسيين المعادين لهتلر «وفيشي»، حيث تبيَّن أن منطقة شكّا ستكون مسرحاً لإنزال القوات الهتلريّة.

بلّغنا هذه الخطة إلى قيادة الجيش الفرنسي الحر في فلسطين. هذا الخبر أزعج كثيراً قيادة قوات الحلفاء في المنطقة، حيث كانت تخشى استخدام الطيران الهتلري للمطارات السورية لقصف مراكز بترول البصرة في العراق.

ولهذه الأسباب أسرعت فرنسا الحرة وبريطانيا في التدخل العسكري في لبنان وسوريا لإزالة خطر الوجود الهتلري وإزاحة جيش «فيشي» الفرنسي المتحالف مع الهتلريين وتحرير لبنان وسوريا منهم. وفي 8 حزيران رمت الطائرات البريطانية فوق بيروت ودمشق بيانات أعلنت تصميم بريطانيا وفرنسا الحرة على تحرير لبنان وسوريا ووعدت بضمان استقلالهما الوطني. بالرغم من عدم الثقة بهذه الوعود غير أنها خلقت ارتياحاً لدخول قوات الحلفاء لبنان وسوريا. تضعضعت القوى المتحالفة مع ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية واختارت طريق الفرار.

اجتماع في دمشق تحت أزيز الطائرات

تقرر انتقال الرفيق خالد بكداش وأنا إلى دمشق بالطرق السرية. وعقد اجتماع موسع للجنة المركزية ضمن الإمكانيات المتاحة، على أن

يذهب الرفيق يوسف خطار الحلو إلى دمشق بشكل علني لحضور اجتماع اللجنة المركزية.

أول من سافر كان الرفيق خالد بكداش وقد وصل إلى دمشق بأمان. ثم تبعته فقمت باجتياز الحدود اللبنانية حوالى منتصف الليل حيث لا وجود لقوى عسكرية وكانت ليلة خالية من ضوء القمر. وعند نقطة الحدود السورية اغتنمت ساعة تبديل الحرس أمام مخفر الدرك حيث لم ألتقِ الحراس... ووصلت إلى دمشق بأمان. السائق الذي نقلني كان اسمه ناربي باشابزيان.

وقادني الرفاق في 24 حزيران إلى منطقة الغوطة في دمشق داخل البساتين إلى المكان الذي انعقد فيه الاجتماع الموسع للجنة المركزية بحضور الأعضاء غير المعتقلين والكادرات الحزبية الأساسية في المنطقة. أما المسؤول عن أمن وتنظيم الاجتماع والطعام فكان عامل النسيج الشجاع والمتفاني الرفيق حسين عاقو «أبو سعيد». ومع الأسف فقد استشهد في 29 تشرين الثاني 1947 خلال الهجوم على مركز اللجنة المركزية في دمشق.

بحث الاجتماع الوضع السياسي والتنظيمي مصحِّحاً المواقف من هذه المواضيع ومحدداً المهمات الآنيّة. وقد تقرَّر بناء على تحليل الوضع السياسي وخطر الاجتياح الهتلري، تشكيل وحدات قتالية لمقاومة الاحتلال الهتلري. وتقرر فوراً عودة الرفيق يوسف خطّار الحلو إلى بيروت لتنفيذ هذه المهام وتحضير ما يلزم.

مباشرة بعد انتهاء الاجتماع سمعنا قصف الطيران البريطاني، وشعرنا بهجوم قوات الحلفاء على أراضي لبنان وسوريا عبر حدود فلسطين والأردن والعراق.

استمرت المعارك إلى 14 تموز حيث استسلمت السلطة الفيشية، على أساس أن يسمح لكل من يرغب من الجيوش الفيشية ومن كبار المسؤولين الفرنسيين بمغادرة البلاد إلى فرنسا.

وهكذا، أصبح لبنان وسوريا في ظل احتلال الحلفاء، وتولّت فرنسا الحرة إدارة شؤون البلاد. فرَّ من البلاد أعضاء لجان الهدنة العسكرية الهتلريون والإيطاليّون. فتحت الحدود مع فلسطين والعراق. بدأ الوضع الاقتصادي بالتحسن. ومع دخول جيوش الحلفاء توافر عمل للعمال ونشطت المؤسسات الإنتاجيّة.

إبان دخول جيوش الحلفاء دمشق وقبلها أثناء القصف الجوّي الممهّد لهذا الدخول كنت أسكن في منزل رفيق في دمشق، يتحلى بالصفات الجيّدة ويؤسفني أن اسمه غاب عن ذاكرتي. بعد احتلال الحلفاء انتقلتُ إلى مقربة من خالد بكداش حيث كان يقطن منزلاً يقع عند طرف المدينة على سفح جبل قاسيون، مع عائلة الرفيق سليم أبو كرم من انطلياس والمكلّف بمهمة خاصة.

يومئذ كنا نستعد للظهور العلني.

وبقرار من الحزب بعثت بكتاب إلى قائد القوات الفرنسية الجنرال كاترو، تناولتُ فيه أسباب محاكمتنا لافتاً نظره إلى أن ما استجد في الوضع السياسي يتطلب تحديد مواقف جديدة، موضحاً موقفنا الدائم المعادي لألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية، وطلبت إلغاء قرار المحكمة لأنه يمثّل قرار السلطة الفيشية. وقرر الحزب في بيروت إرسال كتاب مماثل إلى الجنرال كاترو باسم زوجتي فرجيني. وكنا ننتظر عودتنا بسرعة إلى بيروت.

الهجوم الهتلري على الاتحاد السوفياتي

هاجمت ألمانيا الهتلرية الاتحاد السوفياتي في 21 حزيران 1941 ناقضة الاتفاقية ودون إعلان مسبق للحرب. كانت أنظارنا وأنظار شعبنا مركّزة على أخبار المعارك المتوافدة من الجبهات السوفياتيّة ـ الألمانية وكانت الأخبار غير واضحة، ولا سبيل إلى تصديق ما يُنشر من قِبل الهتلريين حول العمليّات الحربية.

رغم ما يجري على الجبهات في تلك الفترة، كنا نحن على قناعة بأن الانتصار النهائي سوف يكون للاتحاد السوڤياتي لا محالة. وكنا نؤمن إيماناً راسخاً بحتميّة سقوط ألمانيا الهتلرية. ولقد رافقنا هذا الشعور طوال الحرب السوڤياتية ـ الألمانية.

جاء خطاب ستالين في الثاني من آب ليضع الأمور في نصابها، وأصدر الحزب على هذا الأساس بياناً أدان هجوم ألمانيا الهتلرية وإخلالها بالاتفاقية، وأعرب عن إيمانه العميق بحتمية انتصار الاتحاد السوڤياتي مؤكداً وقوفه إلى جانب السوڤيات في مواجهة النازية التي تشكّل خطراً على الشعوب كلها وعلى الشعوب العربية بوجه خاص. وأهاب البيان بالشعب أن يقف ضد هذا الخطر إلى جانب الاتحاد السوڤياتي.

«التسلل» إلى بيروت... والحرية للرفاق

في أواخر شهر آب عدت إلى بيروت، لكنّنا لم نكن واثقين بأننا أحرار. أخذنا في الاعتبار شتّى الاحتمالات واخترنا العودة دون أن نمر على المخافر العسكرية. لهذا السبب فقد كلف الرفيق خالد بكداش صديقاً كردياً كان يسكن في قرية محاذية لمخفر الحدود بإيصالي بسيارته. وخرجنا من القرية دون مراقبة، لكونه معروفاً لدى المخفر كأحد أبناء القرية ولا داعي لتفتيشه. وأوصلني إلى بيروت حيث ظهرت للعلن.

كانت مهمة الحزب الأساسية تقتضي بالعمل من أجل إطلاق سراح الرفاق المسجونين. للوصول إلى هذا الهدف قمنا بنشاط واسع لدى الشخصيات السياسية الفاعلة والأوساط الشعبيّة. توجهت برسائل إلى الجنرال كاترو تطالب بإطلاق سراح المعتقلين. وقام بدور مثمر في هذا الإطار الرفيق أنطون تابت الذي يتمتع باحترام كبير لدى الشخصيات البارزة. وأعطى تحركنا نتائج إيجابية. أطلق سراح الرفاق فرج اللّه الحلو

ونقولا شاوي ومصطفى العريس، ثم أُفرج عن سائر رفاقنا على دفعات. وفي أواخر شهر آب وخلال شهر أيلول أُطلق سراح الجميع. كما أُلغي أيضاً قرار المحكمة بالنسبة إلى الرفيق بكداش وبالنسبة إلي، حيث وقّع الجنرال كاترو مرسوماً خاصاً بهذا الغرض.

وهكذا، أصبحنا أحراراً.

في العلن

عملياً عاد الحزب إلى العمل العلني وأمامه آفاق جديدة للعمل السياسي. وعاد الرفيق خالد بكداش إلى بيروت.

انعقد اجتماع اللجنة المركزية للحزب بحضور أعضائها كافة في عين المريسة. كان خطنا السياسي واضحاً. الخطّ الجديد الذي أعقب عملية تقويم المرحلة الماضية ودراسة الوضع السياسي الراهن. تقرر الوقوف دون تحفّظ إلى جانب الاتحاد السوڤياتي وبريطانيا وأميركا وفرنسا الحرة وتأييد الجبهة المعادية لألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشيّة، وفي الوقت نفسه الدفاع عن الحريات الديموقراطية والمطالبة بتأمين الحاجات الضرورية للشعب. انطلاقاً من هذه المبادئ بدأنا تحركنا السياسي والتوجيهي عبر صحافتنا، داعين لخوض نشاط جماهيري على أساس شعاراتنا السياسية الجديدة، ولا سيّما لجهة تضامننا مع الاتحاد السوڤياتي. كما تقرّر إعادة إصدار جريدة «صوت الشعب» و«جوغوفورتي تساين» يومياً. وأعيد انتخاب سكرتارية الحزب: الرفيق خالد بكداش أميناً عاماً والرفيقان فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي عضوي السكرتيرية. وشرع الحزب على الفور، في العمل السياسي والشعبي على نطاق واسع في صفوف العرب والأرمن في كل أنحاء لبنان وسوريا.

عصبة الدفاع عن أرمينيا

أوجد هجوم ألمانيا الهتلرية على أراضي الاتحاد السوڤياتي شعوراً

استثنائياً لدى الأرمن في لبنان وسوريا (ما عدا الطاشناك) بأن مصير وطنهم الأم أرمينيا السوفياتية مرتبط بمصير الاتحاد السوفياتي. كل أرمني كان يؤمن بحتمية انتصار الاتحاد السوفياتي ويتمنى أن يقوم بواجبه للمشاركة في هذا النصر. أما قادة حزب الطاشناك في تلك الفترة فكانوا مقيمين في برلين معلّقين مصيرهم على انتصار هتلر. في هذه الأجواء ولدت فكرة إنشاء «عصبة الدفاع عن أرمينيا السوفياتية»، على أن تشمل مهماتها المشاركة في الدفاع عن الاتحاد السوفياتي، وتحقيق التفاف الأرمن جميعاً حول هذه الأهداف باستثناء أوساط الطاشناك.

تحقيقاً لهذه الفكرة أجرينا اتصالات مع قادة حزبي الرمغافار والهنشاك ومع شخصيات مستقلة لنيل موافقتهم ومشاركتهم. وعقد في أوائل تشرين الثاني عام 1941 اجتماع تأسيسي في حي وادي أبو جميل في منزل الرفيق هيكاز فرتيفريان، حيث اتسعت قاعة الجلوس الفسيحة للحضور الحاشد إذ حضر الاجتماع التأسيسي لعصبة الدفاع عن أرمينيا السوفياتية شيوعيون وهنشاك ورمغافار وعدد مهم من الوطنيين المستقلين. وبالإجماع قرر المجتمعون إنشاء العصبة وانتخبوا هيئة تنفيذية مركزية على الشكل الآتي: أرتين مادويان رئيساً، الكدتور اطام مانوليان (مستقل) نائباً للرئيس، وسكرتارية مؤلفة من بكراد سينيك (مناضل قديم في حزب الهنشاك)، الرفيق ستراك أباجيان، فارتان كنتوني (رمغافار) أميناً للصندوق ، وغيرهم.

أرسلت برقيات باسم العصبة إلى الاتحاد السوفياتي وفي الدرجة الأولى إلى ستالين، وأمين عام الحزب في أرمينيا السوفياتية كريكور هاروتيونيان، وكذلك للجنرال كاترو وللجنرال البريطاني قائد قوات الحلفاء في المنطقة ولسفير الولايات المتحدة، معربين عن تضامن عصبة الدفاع عن أرمينيا السوفياتية مع الحلفاء في معركتهم ضد ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية.

استلمنا رسائل شكر من قائد القوات البريطانية ومن السفارة الأميركية ومن الجنرال كاترو. أنشئت فروع للعصبة في دمشق وزحلة وحلب، وتألفت الهيئة التنفيذية في حلب من الدكتور روبرت جابجيان، الدكتور خاتشادوريان، الدكتور كنطرجيان، هوفسيب سيرادريان، هارتيون ماخيان وغيرهم.

وأقمنا مباشرة بعد تأسيس العصبة مهرجاناً خطابياً كبيراً في شهر تشرين الثاني وذلك في ملعب مدرسة ساحقيان الأرمنية بحضور جمع غفير وفي جوّ حماسي. وتكلّم في الحفل أرتين مادويان، بكراد سينيك، والبروفوسور باروناك طوماسيان من قادة حزب الرمغافار، وكتبت عن المهرجان صحيفة «بلستاين بوست» الصادرة باللغة الإنكليزية في فلسطين. كما أقيم مهرجانان خطابيان آخران، في دمشق بقاعة المدرسة الأرمنية، وفي حلب بقاعة سينما كبيرة.

حضر هذين المهرجانين الأوساط الأرمنية كافة. مهرجان دمشق أقيم في 7 شباط 1942 ثم مهرجان حلب في نهاية الشهر نفسه، وقد قمت بإلقاء كلمة في كل منهما. وصوت الحضور في كل مرة على المقررات التالية: وحدة شعبنا وتصميمه على النضال إلى جانب الاتحاد السوفياتي وقوات الحلفاء المعادية لألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية. وأرسلت برقيات بهذا المعنى إلى ممثلي فرنسا الحرة وبريطانيا والولايات المتحدة، وإلى الاتحاد السوفياتي وأرمينيا السوفياتية عبر السفارة السوفياتية في طهران.

فكرة أساسية طرحتُها في المهرجانات الثلاثة، إن الهتلريين والفاشيين يريدون استعباد البشرية والأمم والشعوب كافة، وانتصارهم يشكّل خطراً مميتاً للشعب الأرمني ولآماله التحررية التي تحققت في وطنه الأم أرمينيا السوفياتية، وعلى وجود الشعب الأرمني، والخطر سيحدق أيضاً بوطنينا لبنان وسوريا.

وأشرتُ إلى أن انتصارات ألمانيا الهتلرية في هذه الأيام هي

انتصارات مؤقتة والنصر النهائي سيكون حتماً للاتحاد السوفياتي ولقوات الحلفاء، وهذه الفترة تتطلب منّا وقفة موحدة ضد الخطر الماثل أمامنا؛ يجب الدفاع عن وطننا الأم أرمينيا السوفياتية والمساعدة على انتصار الاتحاد السوفياتي، حيث إن سلامة أرمينيا رهنٌ بسلامته وبمساعدة قوات الحلفاء لدحر الهتلريين بأسرع وقت.

وبادرت العصبة إلى تنظيم جمع التبرعات لمساعدة جرحى الجيش السوفياتي.

عام 1942 مرحلة جديدة في نضال الحزب

خاض الحزب في أوائل العام 1942 غمار النشاط العلني الجماهيري الواسع رغم مضايقات السلطة الفرنسية الجديدة وعراقيلها. كان الحزب الشيوعي اللبناني السوري في تلك الآونة بمثابة المنظمة السياسية الوحيدة في لبنان وسوريا، التي وقفت بشكل حازم إلى جانب الحلفاء. وكان هو الحزب الوحيد الذي باستطاعته توحيد صفوف الجماهير الشعبية والقوى الوطنية والديموقراطية حول الحلفاء ضد ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية.

لن أفشي سراً إذا قلت إن هدفنا كان جمع هذه القوى إلى جانب الاتحاد السوفياتي بالذات، موضع ثقتنا ولضمان الانتصار على التحالف الهتلري الفاشي الياباني.

ركّز الحزب منذ اليوم الأول على إعادة تنظيم وتوسيع صفوفه بين الجماهير، في صفوف الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين وفي الأوساط الوطنية والديموقراطية، وركّز عمله على الحركة النقابية والعمالية. عمل من أجل تعزيز الحريات الديموقراطية وناضل من أجل تأمين الخبز للشعب وطالب بمكافحة الغلاء. ناضل على الصعيد السياسي ضد الطابور الخامس ودعاة الترقّب والانتظار.

استمر الحزب في نضاله من أجل تعزيز الصداقة بين الأرمن والعرب وتطوير النضال المشترك. وعلى صعيد الأرمن في لبنان وسوريا فقد تعزّز نضالنا المشترك مع الهنشاك والرمغافار والوطنيين المستقلين والقوى الديموقراطية والوطنية داخل الكنيسة، وتحققت الوحدة الوطنية تحت الشعارات الآتية: الدفاع عن أرمينيا السوڤياتية وعن الاتحاد السوڤياتي، وتحرير الكنائس من سيطرة الحزب الواحد (الطاشناك) المدعوم من قِبل سلطات الانتداب، ممّن أساؤوا إلى مصالح الشعب الأرمني وحدّدوا الآن مواقفهم على المكشوف وتحالفوا مع ألمانيا الهتلرية .

وانتفضت البورجوازية الأرمنية ضد سيطرة الطاشناك التي كانت متحالفة معهم. وفي الواقع فالوضع السياسي الجديد في البلاد فرض على هذه الأوساط الابتعاد عن الطاشناك صوناً لمصالحها، وتقرّبت وتعاملت مع القوى الوطنية الأرمنية ومع الشيوعيّين.

«صوت الشعب» تعود إلى الصدور يومياً

بعد الاجتماع الأخير للجنة الحزب المركزية كانت المهمة الملحة إصدار «صوت الشعب» بصورة يومية وهي الجريدة المركزية للحزب باللغة العربية. مباشرة بعد إصدارها صدرت «جوغوفورتي تساين»، الجريدة المركزية للحزب باللغة الأرمنية وذلك بتاريخ 15 شباط 1942. أُعيد إصدارها بشكل يومي وواصلتُ القيام بمهمة رئاسة تحريرها. شارك في التحرير في البداية وبوقت لاحق الرفاق أوهانس أغباشيان، هارتيون ماخيان، ستراك أباجيان (ساتور)، وفيما بعد شارك إلى هذه الدرجة أو تلك الرفيقان بارور يرتسيان وقره بت بتشابزيان.

في العدد الأول لجريدة «جوغوفورتي تساين» كتبت المقال الافتتاحي بعنوان «دائماً في الطليعة»، ومما جاء فيه:

«اليوم أيضاً نزلت إلى المعركة «جوغوفورتي تساين» صرخة نضالية لشعبنا. وستصدر منذ اليوم بصورة يومية.

«إنها تعود اليوم وفقاً لشعارها خدمة للشعب الأرمني والعمل من أجل وحدته وتقدمه وأمنه. تقف بحزم إلى جانب جبهة التحرر المعادية لتحالف النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين وهواة الحرب اليابانيين وعملائهم. فقط بدحر هذه الدول وبتصفية أنظمتها الدامية بالإمكان تحرير الشعوب المستعبدة وإنقاذ أرمينيا من الدمار وتحقيق تطورها وازدهارها؛ كذلك أيضاً بالنسبة إلى لبنان وسوريا وسائر البلدان العربية.

«جوغوفورتي تساين» ستعمل من أجل ازدهار لبنان وسوريا وتعزيز العلاقات مع بلدان الحلفاء وتعزيز الصداقة بين الأرمن والعرب».

وصدر في العدد نفسه مقال للرفيق فرج اللّه الحلو حول «الطابور الخامس» جاء فيه: أن هذا اللقب يطلق على أولئك الناس الذين يخونون وطنهم ويعملون لحساب أعدائه، وإن عملهم ليس التجسس فحسب، وإعطاء معلومات عسكرية للعدو بل الأخطر من ذلك عملهم السياسي بين شعبنا.

ستالين يشكر عاطفتكم...

ونشرت الجريدة في العدد نفسه الرسالة الجوابية التي بعث بها سفير الاتحاد السوفياتي في طهران، رداً على كتاب عصبة الدفاع عن أرمينيا (كانت العصبة قد أقامت، كما ذكرنا سابقاً، احتفالاً كبيراً في مدرسة ساحقيان في شهر تشرين الثاني وأرسلت خلاله برقيتين عبر السفارة السوفياتية في طهران. وقد حملت البرقيتان توقيع نائب رئيس عصبة الدفاع عن أرمينيا الدكتور أطام منوليان، الذي رأس المهرجان أيضاً).

فيما يلي نص الرسالة الجوابية:

«طهران 2 ـ 1 ـ 1942

«السيد منوليان،

«نشكركم على عاطفتكم النبيلة نحونا، وعلى البرقيتين المرسلتين من

جانبكم عن الأرمن في لبنان وسوريا والموجهتين إلى السيد ستالين ورئيس مجلس السوڤيات الأعلى في أرمينيا. لقد أرسلنا البرقيتين فوراً إلى صاحبيهما.

«وتفضلوا بقبول فائق الاحترام»

التوقيع (...)

صدر أيضاً في العدد الأول من الجريدة مقال للرفيق ستراك أباجاجيان بتوقيع «ساتو»، جاء فيه أن الأساتذة الأرمن كان دورهم مشرّفاً في جميع مراحل التاريخ وملقى على عاتقهم تربية الأجيال المقبلة وهم الآن في وضع متردٍّ على الصعيد المعيشي. ولا يمكن السكوت على إهمالهم من قِبل الهيئات الأرمنية المسؤولة. نطالب باتخاذ الإجراءات الضرورية لتحسين وضعهم المادي والمعنوي.

حل المجلس الملي الأرمني... غير الموجود

خلال شهر شباط 1942 بدأت المؤسسات الكنسية الأرمنية إعادة تنظيم نفسها على أسس سليمة. شاركت شخصياً في أعمالها إلى جانب ممثلين عن حزبي الهنشاك والرمغافار والوطنيين المستقلين. بهذه المناسبة أوردت «جوغوفورتي تساين» في عددها الصادر في 17 شباط 1942 مقالاً بعنوان «يجب احترام قرارات الهيئة المركزية الأرمنية»، قلت فيه: «انطلاقاً من مصالح الأرمن في لبنان من وطنيين مستقلين ولجان الكنائس في الأحياء ورجال الدين وعامة الناس، والرمغافار والهنشاك والشيوعيين وذوي المنطق السليم من الطاشناك، أعلنت غالبية الصحف الأرمنية الصادرة في لبنان، بدورها، موافقتها على قرار الهيئة المركزية الأرمنية حلّ المجلس الملّي الأرمني الذي توقف عن العمل منذ بضعة أشهر.

لا بدَّ من تنفيذ هذا القرار على الفور».

رد على تنبؤات جريدة صادرة في أميركا

في 17 شباط 1942 كتبت مقالاً في جريدة «جوغوفورتي تساين» بعنوان: «ماذا تقولون لهؤلاء؟»، قلت فيه:

أوردت جريدة «هايرنيك» الصادرة في بوسطن والناطقة باسم حزب الطاشناك افتتاحية جاء فيها: «من حسن الحظ أن الاتحاد السوڤياتي ليس قوياً لكي ينتصر على ألمانيا ولا يملك مقومات الصمود أمام ألمانيا.

ولكن، مهما قال هؤلاء الخونة لوطنهم، ومهما كتبوا فمن حسن الحظ أن الاتحاد السوڤياتي وحلفاءه سوف ينتصرون، وأن ألمانيا وحلفاءها من أصحاب النزعة العسكرية سوف ينهزمون، ومن حسن الحظ أن هذا سيحصل حتماً مهما كان الوضع العسكري الآني في بعض الجبهات». في 24 شباط 1942 صدر مقال في الجريدة للرفيق ستراك أباجيان بتوقيع «ساتو»، خصّ به مناسبة ذكرى تأسيس الجيش الأحمر.

وحذرت الجريدة في 27 شباط من الأخطار التي تهدد المدارس الأرمنية وانتقدت اللامبالاة وإهمال أوضاع المعلمين مما اضطرهم إلى إعلان الإضراب عن التدريس.

وحمل العدد نفسه مقالاً ينتقد ويستنكر عدم تنظيم توزيع الطحين، ومقالاً آخر يُطالب بتدخّل السلطة لوضع حدٍّ سريع لتصاعد غلاء المعيشة.

«شهر لجمع التبرعات للمدافعين عن الوطن»

جاء في «جوغوفورتي تساين» في 11 آذار 1942:

بادرت عصبة الدفاع عن أرمينيا إلى القيام بحملة تبرعات في بيروت وأعلنت شهر آذار «شهر التبرع للمدافعين عن الوطن».

تشكّلت لهذه الغاية لجنة من: المطران اتشاباهيان رئيس الكنيسة

الأرمنية في سوريا ولبنان رئيساً فخرياً، مكرديش مصرليان أميناً للسر، ميساك فاهوني أميناً للصندوق، نرسيس شرينيان محاسباً، هرانت دفدجيان سكرتيراً، يبرم الليزيان سكرتيراً ثانياً، النائب السابق فاهران ليلاكيان والنائب هاراتش شامليان ومهران بابازيان مستشارين، وأرتين مادويان ممثلاً عصبة الدفاع عن أرمينيا.

اجتماع المجلس الملّي الجديد

في سبيل رفع الهيمنة السياسية لحزب الطاشناك عن المؤسسات الأرمنية دُعي لانتخاب مجلس ملّي جديد.

جاء في عدد 8 آذار 1942 من «جوغوفورتي تساين»: «تألف المجلس الملي الأرمني الجديد في لبنان من السادة دكران مافيسكليان، هاكوب أبدجيان، كيورك تشاتلباشيان، كيورك بابازيان، ابرو ابرويان، أونيك شركزيان ونيشان دمرجيان».

وكتبتُ في 20 آذار 1942 مقالاً افتتاحياً للصحيفة بعنوان «من أجل التضامن الوطني الدائم»، وحرّرتُ مقالاً في 21 آذار طالبت فيه بتأمين خبز للمواطن، داعياً للنضال من أجل تأمين رغيف الشعب.

اعترافات صحيفة تركيّة

نشرت «جوغوفورتي تساين» في عددها الصادر في 23 آذار 1942 نقلاً عن جريدة «بني صباح» التركية الصادرة في اسطنبول، ما يلي: «إن حكام برلين بذلوا جهدهم لدفعنا إلى الحرب، ولتحقيق أهدافهم وعدونا بإعطائنا سوريا والعراق والقفقاس».

وفي العدد نفسه وجهت الدعوة لتصعيد النضال ضد لصوص الطحين.

وكتبتُ في نيسان 1942 مقالاً افتتاحياً بعنوان «افتحوا الجبهة الثانية»[1].

ابتداءً من 20 نيسان 1942 كتبتُ ثلاث مقالات افتتاحية متتالية في الجريدة بعنوان «من أجل إعداد المفكرين الأرمن في لبنان وسوريا»، فدافعتُ عن وجهة نظري التي تقول بعدم الانقطاع عن الواقع الأرمني وعدم الانحصار فيه، بل الاتصال في الوقت نفسه بالواقع اللبناني والسوري في جميع المجالات الحياتية، وبما يتيح للأرمني اللبناني والأرمني السوري أن يتطورا في المجال الوطني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وفي المجال الفكري، وذلك بمقدار ما نكون على معرفة بهذه المجالات؛ وبناءً عليه فبإمكان المفكرين الأرمن في لبنان وسوريا تطوير وتكوين فكرهم على أساس جديد ومتين، أساس تقدمي ووطني.

إحياء ذكرى 24 نيسان

في عدد أول أيار عام 1942 تناولت «جوغوفورتي تساين» الاحتفال الذي جرى بمناسبة 24 نيسان في قاعة مدرسة دادريان في كمب حاجن وذلك بدعوة من حزبنا. وقد ألقى كلمة الافتتاح عريف المهرجان الرفيق أوهانس اغباشيان ثم تحدث الرفيق هارتيون ماخيان. وألقيتُ كلمة في ختام المهرجان، وبعد أن تكلمت عن مذابح 24 نيسان وعبرت عن

---

(1) يشار أيضاً إلى أن في 9 نيسان بدأت تصدر وكالة «تاس» من موسكو وفيها مقالات باللغة الأرمنية. وفي 10 نيسان كتبت «جوغوفورتي تساين» مقالاً لأرتين مادويان بعنوان: «على الهيئات الأرمنية أن تقترب أكثر من الشعب». ونشرت الجريدة في 11 نيسان مقابلة مع الشاعر كريكور غوليان. وهو قد عيّن فيما بعد مذيعاً باللغة الأرمنية في الإذاعة اللبنانية التي يشرف عليها الفرنسيون. ثمّ سافر إلى وطنه أرمينيا السوفياتية حيث خدم بإخلاص إلى أن وافته المنية.

إكبارنا للشهداء استنتجت قائلاً: «إن قتالنا ضد الهتلريين هو استمرار لحياة شعبنا. بقتالنا ضد الهتلريين نكون قاتلنا من أجل استمرار شعبنا وحمايته وتحقيق حريته. ونكون قد دافعنا عن أرمينيا وعن أحلام مليون شهيد سقطوا وهم يحلمون بوطنهم. القتال من أجل الديموقراطية يعزّز أمن شعبنا وازدهاره. وإذا دعت الحاجة فالشعب الأرمني سيستمر في القتال المسلح هنا أيضاً ضدّ ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية».

وكتبتُ في أول حزيران مقالاً افتتاحياً دعوت فيه لتشديد النضال ضد «الطابور الخامس».

احتفال شعبي كبير وكلمة فرج الله الحلو للأرمن

أقامت عصبة الدفاع عن أرمينيا في 28 حزيران 1942 في ملعب مدرسة ساحقيان، مهرجاناً كبيراً بحضور خمسة آلاف شخص بمناسبة مرور سنة على هجوم ألمانيا الهتلرية على الاتحاد السوڤياتي، وبمناسبة توقيع اتفاقية بين السوڤيات وبريطانيا.

كان عريف المهرجان الرفيق هارتيون ماخيان، بحضور فرج اللّه الحلو وأنطون ثابت، كما حضر المهرجان قادة حزب الهنشاك والرمغافار وأعضاء من الطاشناك. تكلم في الحفل الدكتور أطام منويليان، بغدسار دراكجيان (رامغافار)، وأنا بدوري تكلمت عن حتمية النصر النهائي للاتحاد السوڤياتي وشددت على أن «سرّ قوته في نظامه».

ثم ألقى الرفيق فرج اللّه الحلو كلمة موجهة إلى الأرمن وممّا قال فيها: «نحن الديموقراطيين العرب نفرح عندما نرى علم الوحدة يرفرف فوق الشعب الأرمني. نحن نؤمن بأن مصير العرب والأرمن هو مصير واحد في هذه البلاد. نحن في هذه البلاد لا نعتبر الشعب الأرمني غريباً أو جاراً، بل اعتبرناه جزءاً عزيزاً وحياً من الشعب السوري واللبناني. نحن نعتبره أخاً ورفيقاً ومساعداً عزيزاً في نضالنا من أجل التحرر والاستقلال».

«نحن هكذا اعتبرناه حيث له في قلوبنا محبة واحترام كشعب ناضل قروناً طويلة من أجل الدفاع عن وجوده وحريته، وسجل صفحات رائعة في تاريخ الإنسانية حيث انتشرت شرارتها في أرجاء عالمنا. نحن على ثقة بأن الشغيلة الأرمن، العمال والمفكرين، سيبقون أمناء لتاريخ شعبهم ولن يخونوا أبداً تراثهم الثوري المشرق. نحن على ثقة بهم حيث لنا أصدقاء بين الأرمن نحبهم ونحترمهم، ناضلوا في ظروف صعبة جداً وقدموا مساعدات لا تنسى للحركة الديموقراطية العربية».

«إن لأرمينيا السوفياتية في قلوبنا المحبة والمكانة نفسيهما اللتين لسوريا وللبنان. إن كل العرب الواعين يرون مستقبلهم المشرق من خلال أرمينيا السوفياتية. إن الأرمن الذين يحبون أرمينيا السوفياتية هم دون شك وطنيون مخلصون لسوريا ولبنان».

وختم كلمته بالقول: «تحيا وحدة الشعب الأرمني! تحيا وحدة الشعب الأرمني والعربي في النضال من أجل الخبز والحرية وضد الفاشية!»[1].

مهرجان في سينما ريالتو: الثورة الفرنسية وتراثنا

من أجل توسيع نطاق عمله السياسي والتنظيمي وسعياً لإطلاق شعاراته السياسية المعادية للنازية والفاشية، والنضال ضد الطابور الخامس ومن أجل كسب أوسع تأييد للاتحاد السوفياتي القوة الأساسية الأمينة في معركتها للانتصار على النازية والفاشية، وبغية استنفار العمال والجماهير والمفكرين التقدميين والفئات الواسعة المخلصة من شعبنا.. لهذه الأهداف كان حزبنا يقيم المهرجانات الجماهيرية في جميع المناسبات دعماً للسوفيات وللحلفاء: ثورة أكتوبر، تأسيس الجيش

(1) راجع «صوت الشعب» الأرمنية (جوغوفورتي تساين)، عدد 2 تموز 1942.

الأحمر، أول أيار، ذكرى الثورة الفرنسية، يوم المرأة العالمي، وبعدها مناسبة الاستقلال الوطني، وما إليها من مناسبات.

في هذا الإطار بادر الفرع الأرمني للحزب في 26 تموز 1942 إلى إقامة مهرجان في قاعة سينما «ريالتو» بمحلة الزيتونة بمناسبة ذكرى الثورة الفرنسية. افتتح المهرجان الرفيق هارتيون ماخيان وكنت الخطيب الأساسي ومن أهم ما جاء في كلمتي: «إن الثورة الفرنسية هي إحدى الحلقات التي لا تنفصل عن تاريخ شعبنا. مبادئها الحرية ـ المساواة ـ الأخوّة، هذه المبادئ كانت هدف شعبنا منذ نشوئه».

أعطيت مثلاً معركة البطل القومي هايك ضد الملك بل، وساسون تسي ناڤيت ضد مماليك مصر، ماميغونيان وانتصاره على الفرس، وأيضاً نضال تاڤيت بيغ الوطني التحرري ضد تركيا.

وأضفت قائلاً: «إن شعبنا اليوم أيضاً منحاز إلى جانب قوى التحرّر، حيث إننا نريد المحافظة على وطننا أرمينيا السوڤياتية وازدهارها. إننا بذلك ندافع عن وجود أمتنا وحريتها. لا مناص لنا من تعزيز صلاتنا مع إخوتنا العرب وحركتهم التحررية، حيث حريتنا وخبزنا مرتبطان بحرّيتهم وخبزهم.

سنبقى مخلصين لتراثنا العظيم الذي يعلّمنا أنّ «كل من يرفع سيفاً لاضطهاد الشعوب سوف يرى الشعب الأرمني يقاتل إلى جانب الشعب المضطهد».

وختمت كلمتي بالشعارين الاستنتاجيين الآتيين: «افتحوا الجبهة الثانية»، و«عزّزوا النضال ضد الطابور الخامس». («جوغوفورتي تساين»، 29 تموز 1942).

في هذه المناسبة نعود ثلاثة سنوات إلى الوراء، لنذكر أن في شهر تموز 1939 أقام الفرع الأرمني للحزب مهرجاناً في مدرسة ساحقيان بمناسبة مرور 150 سنة على الثورة الفرنسية.

حضر المهرجان ممثل السلطة الفرنسية المستشار لدى الحكومة اللبنانية البارون لاڤون، جلس إلى جانبه الرفيق يبرم الليزيان وترجم له

الخطب. كان عريف المهرجان الرفيق قره بت باشابزيان، وألقى الرفيق أوهانس أغباشيان كلمة، ثم أخذت الكلام وأشرت في كلمتي إلى تأثير مبادئ الثورة الفرنسية في حركة التحرر الأرمنية، وتطرقتُ إلى خطر النازيّة والفاشيّة وأوضحت في ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى قد حققت مبادئ الثورة الفرنسية من خلال النظام الاجتماعي الجديد الذي أنشأته. البارون لافون ألقى بدوره كلمة شكر فيها منظمي المهرجان وامتدح الشعب الأرمني.

وقد تضمّن العدد نفسه مقابلة مع مكرديش زنكيفيتش ممثل توزيع الأفلام السينمائية السوڤياتية في الشرق، الذي وصل إلى بيروت وأحضر معه فيلماً عرض في العاصمة اللبنانية، وقام بتأسيس ممثليّة للسينما السوڤياتية في لبنان.

مباراة في كرة القدم

في 2 آب 1942 جرت مباراة في كرة القدم على ملعب «دي.ش.ب» (D.H.P.) الرياضي في فرن الشباك، تحت رعاية النائب البطريركي العام المطران أتشابهيان وبإشراف جريدتنا «جوغوفورتي تساين».

اشترك في المباراة أهم فرق كرة القدم في لبنان: الراسينغ، رنيسانس، هومنمن وانترانيك، وجرت مباراة بين فِرق مختلقة من أرمن وعرب.

ديغول يشكر مادويان على ترحيبه

بمناسبة قدوم الجنرال ديغول إلى لبنان، أرسلت برقية باسم عصبة الدفاع عن أرمينيا إلى قائد فرنسا الحرة أرحب بقدومه.

جواباً على البرقية تلقيت من الجنرال ديغول البرقية الآتي نصها:

«السيد أرتين مادويان
رئيس عصبة الدفاع عن أرمينيا
بيروت
تأثرت كثيراً بتمنّياتكم، أشكركم للثقة التي منحتمونيها تجاه دوري في فرنسا. تقبّلوا أفضل تمنياتي القلبية.
«ديغول»[1].

أما البرقية التي كنت قد بعثت بها إلى الجنرال ديغول فقد جاء فيها:

«إن عصبة الدفاع عن أرمينيا نيابة عن أرمن لبنان وسوريا ترحب بزيارة قائد الوطنيين الفرنسيين. تحييكم وتحيّي من خلالكم الشعب الفرنسي البطل المناضل من أجل التحرر من البرابرة النازيين، وتؤكد لكم أن الأرمن سيناضلون ضدّ الفاشية والنازية إلى جانب فرنسا والحلفاء حتى النصر.
عصبة الدفاع عن أرمينيا
الرئيس أرتين مادويان
أمين السر هارتيون ماخيان»[2].

هذا وقد تلقّى الجنرال ديغول برقيتين مماثلتين من الرفيقين خالد بكداش وفرج اللّه الحلو وأجاب عليهما.

من البطريركية الأم إلى الأرمن في العالم:
الخزي والعار لخونة شعبنا!

كانت قيادة حزب الطاشناك في تلك الآونة متمركزة في برلين كما أسلفنا، تخدم ألمانيا الهتلرية. لقد اختارت الخيانة الوطنيّة.

---

(1) «جوغوفورتي تساين»، 17 آب 1942.
(2) المصدر نفسه، عدد 14 آب 1942.

كان الطاشناكي تروكانايان وغيره يقاتلون تحت لواء هتلر ضد الاتحاد السوڤياتي وضد أرمينيا السوڤياتية، وكانوا يعملون في أسرى الحرب من الأرمن السوڤيات قمعاً وتهديداً عبر الوسائل كافة لإجبارهم على خيانة وطنهم.

ولكن، يجب أن نسجل بفخر واعتزاز أن غالبية الأسرى الأرمن السوڤيات قد تمكنوا من الفرار والانخراط في حركة الأنصار في المناطق التي يحتلها الهتلريون في فرنسا ويوغوسلافيا وهنغاريا واليونان وسلوفاكيا.

وصدر نداء عن الكرسي البطريركي لعموم الأرمن ايتشميازين وجّهه القيّم البطريركي العام المطران كيورك إلى عموم الأرمن في العالم، وأهم ما جاء فيه: «الخزي والعار لهؤلاء الذين يخونون مصالح وطنهم، هؤلاء يخونون شعبهم ووطنهم مثل تسافاك ويوضاس، هؤلاء يخدمون الأعداء. ولسوف يعاقبهم الشعب الأرمني كما يعاقب الخونة، كما عوقب الخائن تسافاك»[1].

في حلب: أرمينيا وهتلر... ونحن؟

سافرت إلى حلب في أوائل 1942 والتقيت فرع عصبة الدفاع عن أرمينيا، وكان يتألف من الدكتور خاتشادوريان، الدكتور كيلاجيان، الدكتور جباجيان، زافين سيرايداريان وغيرهم وكانت مناسبة لتبادل وجهات النظر معهم.

وأقيم في 16 آب مهرجان في قاعة سينما «أورينتال» بدعوة من عصبة الدفاع عن أرمينيا بحضور حشد كبير داخل القاعة وخارجها.

---

(1) المصدر السابق، 4 آب 1942، وتجدر الملاحظة بأن «تسافاك» كان وزيراً في أرمينيا وقد خان الشعب الأرمني وتعامل مع الغزاة الفرس، وعوقب بالإعدام بقرار من الشعب الأرمني.

بدأ المهرجان بكلمة للرفيق أوهانس أغباشيان ثم قدمني حيث كنت الخطيب الرئيسي وقد بدأت كلمتي بفقرة من إحدى أناشيدنا الوطنية تقول: «بعد تحقيق أهدافي يعلّقونني على حبل المشنقة، ومن على حبل المشنقة بصوت مخنوق سأنادي آهٍ أرمينيا».

وتابعت كلمتي: «الآن أرمينيا موجودة وهتلر يهدد وجودها، هتلر يهدد أمننا الوطني هنا ويهدد وجود وطننا سوريا ولبنان».

واستدركت قائلاً: «لا يمكن الانتصار على أرمينيا السوڤياتية حيث هي مصونة من قبل الاتحاد السوڤياتي، الاتحاد السوڤياتي سوف ينتصر حتى لو لم تُفتح جبهة ثانية».

في تلك الأيام كانت بعض أوساط الطاشناك تعلن أنها ضد هتلر، فوجهت كلامي إليهم فقلت: «إذا كنتم ضد هتلر، مع أرمينيا ومع الشعب الأرمني فنحن على استعداد لتناسي الجروح الماضية وأيدينا ممدودة إليكم».

هذا الموقف السياسي كان ضرورياً في تلك المرحلة من أجل تعبئة الشعب الأرمني كلّه حول أرمينيا السوڤياتية ضد الخطر الهتلري واستقطاب الجماهير في المواقع الوطنية.

انتهى المهرجان ببرنامج فني قدمته الفرقة الموسيقية بقيادة الموسيقار هامبارتسوم بربريان[1].

ضد الفوضى التموينية في برج حمود

في تلك الفترة كانت جريدتنا «صوت الشعب» الأرمنية عنيفة في محاربتها للفوضى السائدة على صعيد التموين في برج حمود، كما كان النضال الشعبي يشتد في الأحياء بمبادرة وقيادة رفاقنا.

(1) المصدر السابق، عدد 26 آب 1942.

وقد اضطرت الحكومة لتلبية المطالب، ودعا وزير الداخلية رئيس تحرير الجريدة وأبلغه أن الحكومة قررت ذلك[1].

«ليست للروس وحدهم..»

بمناسبة مرور 25 سنة على ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى أقيم مهرجان كبير في قاعة مدرسة ساحقيان..

كان عريف المهرجان أوهانس أغباشيان والخطباء: رئيس تحرير جريدة «أرارات» الناطقة باسم الهنشاك أرسين جيدور، الرفيق خالد بكداش، صاحب ورئيس تحرير جريدة «أراڤون» التقدمية الأرمنية هرانت دفدجيان، بغدسار داراكجيان عن حزب الرمغافار، وقد كنت الخطيب الأخير وأهم ما جاء في كلمتي: «إن ثورة أكتوبر لا تخصّ الشعب الروسي وحده بل هي ملك جميع الشعوب، والشعب الأرمني بالذات. إنّ هذه الثورة جسّدت وحققت آمال واماني كل الشعوب ومنها الشعب الأرمني الذي حقّق أفضل أهدافه الوطنية والاجتماعية. إن ثورة أكتوبر بالنسبة إلى الشعب الأرمني هي استمرار لنضالنا الوطني والتحرري على مستوى أعلى وعلى أساس علمي، إن ثورة أكتوبر كما تخص الشعب الروسي الكبير والإنسانية جمعاء تخصّ أيضاً أمتنا، كما أن حضارتنا ملك للإنسانية جمعاء، بعيداً عن هذا الطريق لا يمكن لأية أمة أن تسمو وأن تتطور. لقد ألغت الاشتراكية استثمار الإنسان للإنسان وأنهت وجود الانقسامات الطبقية، ووحّدت أمتنا وأصبح لنا وطن قومي».

احتفال بعيد أرمينيا

وبمناسبة مرور 22 عاماً على تأسيس أرمينيا السوفياتية، أقيم احتفال

---

(1) المصدر السابق، عدد 2 تشرين الثاني 1942.

شعبي في 29 تشرين الثاني في سينما «ريالتو» في بيروت نظّمته ودعت إليه عصبة الدفاع عن أرمينيا. وقد رأست الاحتفال وألقيتُ الكلمة الأولى.

خطب في المهرجان أوهانس أغباشيان، هرانت دفدجيان، بغدسار داراكجيان (رامغفار)، وتلا الرفيق ستراك أباجيان كلمة تحية موجهة إلى الشعب الأرمني من ممثل المناضلين الفرنسيين في موسكو روجيه كارو حيث سافر عبر دمشق إلى موسكو صباح اليوم نفسه. وقد قمت بقراءة كلمة الرفيق خالد بكداش مترجمة إلى الأرمنية يحيي فيها الشعب الأرمني.

حضر الاحتفال النائب البطريركي العام للأرمن الأرثوذكس في سوريا ولبنان، ولجنة الأوقاف الأرمنية، وحضرت أيضاً شخصيات تمثل جميع الفعاليات الأرمنية .

وجرى بالمناسبة نفسها احتفالان شعبيان في حلب ودمشق.

جمعية أصدقاء أرمينيا السوفياتية

ما لبثت «عصبة الدفاع عن أرمينيا» (تأسست أواخر عام 1941) أن توسعت وتطورت. وقامت هذه الحركة بدورها، وكانت الضرورة تقضي بتوسيع قيادتها بعد أن سمحت الظروف بذلك. وعلى قاعدة أوسع تحولت عصبة الدفاع عن أرمينيا إلى «جمعية أصدقاء أرمينيا السوفياتية».

وقد شارك في تأسيس هذه الجمعية النائب البطريركي العام اتشاباهيان، هرانت دفدجيان، مارديروس ألطونيان (مهندس)، يبرم الليزيان (كهربائي)، بارور يرتسيان (الكترو ميكانيك)، مكرديش مصرليان (عضو في الهيئة المركزية للأوقاف الأرمنية)، كراكين فارطابديان (طبيب) هاكوب تافتيان (مهندس) هارتش بوجيكانيان (أستاذ)، فهران ليلاكيان (نائب سابق)، أطام منوليان (طبيب)، ليون ألطونيان (صيدلي)، باروناك

توماسيان (مهندس)، هيكازون بوياجيان (طبيب أسنان)، ميساك فيهوني (تاجر)، كريكور بكراجيان (محرر).

وقد انتخب هرانت دفدجيان رئيساً للجمعية ويبرم الليزيان أميناً للسر.

لقاء نسائي

في 27 كانون الأول عام 1942 عقد لقاء نسائي علني أقامته السيدات الأرمنيات المعاديات للفاشية في برج حمود ـ حي التيرو في صالة المدرسة الأرمنية بحضور حشد نسائي كبير. تكلمت في هذا اللقاء الرفيقتان زاروهي أرامايسيان وفرجيني مادويان.

وسجل الحزب خلال العام 1942 نجاحات كبيرة على الصعيد السياسي والتنظيمي والنقابي والعمالي، دفاعاً عن الحريات الديموقراطية والشعبية ومن أجل تطوير الوحدة الوطنية، ودفاعاً عن حق الشعب في الخبز والتموين على مستوى العرب والأرمن.

عودة الحياة الدستورية إلى لبنان وسوريا

في عام 1942 توسع الحزب وقوي نفوذه، وفي أوائل شباط قرّرت السلطات الفرنسية إعادة الحياة الدستورية إلى لبنان وسوريا. وهذا فسح في المجال أمام حزبنا لتطوير عمله السياسي.

وصدر في 9 شباط 1943 بيان سياسي باسم المكتب السياسي للحزب بتوقيع خالد بكداش وفرج الله الحلو.

يحيّي البيان عودة الحياة الدستورية إلى البلاد ويطالب باتخاذ الإجراءات الضرورية لتأمين حرية الانتخابات النيابية وحرية الاجتماعات، والصحف. ودعا المواطنين الغيورين على وطنهم، للمشاركة في تقدّمه وازدهاره.

كتاب جديد لفرج الله الحلو

في تلك الفترة صدر كتاب من تأليف فرج اللّه الحلو مهدى إلى روسيا السوفياتية وأرمينيا السوفياتية. وقد تولّيتُ إعداد الجزء الذي يختص بأرمينيا السوفياتية.

التبرعات في حلب للمدافعين عن الوطن

في تلك الأيام تألفت في حلب لجنة لجمع التبرعات «للمدافعين عن الوطن»، تألفت من الدكتور روبرت جبجيان، هارتيون ماخيان، وهران كلفايان، السيدة جوزفين سيرايداريان، زافين سيرايداريان وغيرهم.

صندوق «مدرعات ساسون تسي تافيت»

وقد كتبت مقالاً في جريدة «جوغوفورتي تساين» في 15 شباط 1943 بعنوان «الوحدة تحت لواء محبة الوطن»، فوجّهت نداء إلى جميع الأرمن للتبرع المالي للمشاركة في صنع دبابات «ساسون تسي تافيت» للجيش السوفياتي[1]. بادرت إلى جمع التبرعات «جمعية أصدقاء أرمينيا السوفياتية». الدفعة الأولى من التبرعات أرسلت إلى السفارة السوفياتية في طهران.

وقامت الجمعية باتصالات واسعة في جميع الأوساط الأرمنية لتأمين أفضل مشاركة في هذه التبرعات.

---

(1) وهي الدبابات الجديدة التي قرر الجيش السوفياتي إنتاجها، على اسم البطل الأرمني الأسطوري «ساسون تسي تافيت» الذي قاتل لتحرير أرمينيا ضد اضطهاد المماليك وعدوانهم.

عمر فاخوري وشمس أرمينيا

في 14 شباط 1943 جرى لقاء كبير في قاعة أوتيل «نورماندي» دعت إليه جمعية أصدقاء أرمينيا. توالى على الكلام عمر فاخوري، هرانت دفدجيان ويبرم الليزيان. وقد أنهى الكاتب العربي الكبير عمر فاخوري كلمته قائلاً: أتمنى سطوعاً دائماً للشمس على أرمينيا السوڤياتية وأن لا تنتزع منها هديّة ثورة أكتوبر العظمى.

هيئة نسائية: جمعية الصداقة مع أرمينيا السوڤياتية

في 24 شباط 1943 تأسست في بيروت «جميعة الصداقة مع أرمينيا» للنساء الأرمنيات، وكان من أهم أهدافها التعرّف عن كثب على أرمينيا السوڤياتية وعلى المرأة الأرمنيّة السوڤياتية، ومشاركة الوطن في حربه الوطنية. أصدرت الجمعية نداء موجهاً للنساء الأرمنيات في لبنان وسوريا، دعتهنّ فيه للانتساب إلى الجمعيّة.

وقعت البيان العضوات المؤسسات السيدات: انيك اشجيان، أرشالوس أيوازيان، ادرينه بوجيكانيان، سيروارت الليزيان، فرجيني مادويان، ماري باشابزيان، السيدة ألطونيان، آنا منوليان، أرمينه دفدجيان، روزا دردريان ونوارت زانازنيان.

«وُلد من حضن شعبنا..»

أقيم في 21 شباط 1943 احتفال شعبي في بيروت في مقهى الباريزيانا بحضور حوالى عشرة آلاف شخص انتشروا داخل القاعة وخارجها، بمناسبة ذكرى تأسيس الجيش الأحمر. ألقيت الخطب في جوّ حماسي وقد تكلّم الرفاق خالد بكداش وفرج اللّه الحلو ونقولا شاوي.

الرفيق فرج اللّه الحلو قال في كلمته: «وُلِد من حضن شعبنا حزب

ديموقراطي وشعبي يعمل ليستحق أن يكون أحد أخوة الحزب اللينيني البلشفي، مرتكزاً في سياسته وخطه الوطني على خصائص بلادنا، من أجل ازدهار وطننا اقتصادياً وسياسياً على أساس خصائص شعبنا. إن حزبنا ليس حزب فئة. بل حزب كل الجماهير من عمال وفلاحين ومثقفين، حزب كل الوطنيين الشرفاء والمخلصين الذين يعملون من أجل ازدهار شعبنا ووطننا»[1].

مع الجيش الأحمر.. وديموقراطية بلادنا

وجرى بالمناسبة نفسها (تأسيس الجيش الأحمر) وبحضور حشد شعبي كبير من الأرمن، احتفال في القاعة الكبرى في مدرسة ساحقيان في 28 شباط 1943. تكلم في المهرجان خالد بكداش وأوهانس أغباشيان وأنا.

بعد أن أثنيتُ على الجيش الأحمر وتكلمت عن انتصاراته ودور المقاتلين الأرمن في صفوفه، تحدثت عن عودة الحياة الدستورية إلى البلاد قائلاً: «أحيي عودة الحياة الدستورية كخطوة ديموقراطية، ولكن من أجل إكمال هذه الخطوة ومن أجل تطوير علاقتنا مع بلدان الحلفاء ينبغي أن تجري الانتخابات النيابية المقبلة في جوّ ديموقراطي. نطلب:

1 ـ تعزيز الحياة الديموقراطية.

2 ـ تأمين خبز نظيف ورخيص للشعب، والنضال ضد الغلاء ولتحسين معيشة الشعب .

3 ـ تعزيز الصداقة بين الأرمن والعرب بالنضال المشترك ضد الفاشية والنازية، وفي النضال من أجل الحرية والخبز وتحسين معيشة الشعب.

---

(1) جريدة «صوت الشعب» بالأرمنية، 25 شباط 1943.

4 ـ تعزيز الروابط بين لبنان وسوريا».

ثم دعوت لتعزيز الوحدة الوطنية بين الأرمن على أساس الشعارات التي حددتها وتجمعنا حول أرمينيا السوفياتية(1).

وأيضاً بمناسبة ذكرى تأسيس الجيش الأحمر جرى احتفال في حلب تكلم فيه خالد بكداش وهارتيون ماخيان. قال الرفيق بكداش متوجهاً إلى الأرمن: أنتم لستم غرباء، أنتم إخوتنا. إن آلاف آلاف العرب عمالاً وفلاحين ومثقفين وطلاباً وتجاراً يكنّون لكم المحبة والاحترام ويعتبرون قضيتكم الوطنية الخاصة قضيتهم.

انتخاب مجلس نواب جديد

في 19 آذار 1943 أذاع الجنرال كاترو من الإذاعة بياناً رسمياً أعلن فيه: «خلال ثلاثة أشهر سوف تجري انتخابات نيابية ثم ينتخب المجلس الجديد رئيساً للجمهورية وستنشأ حكومة دستورية. لقد اتُخذ هذا القرار بعد مشاورة بريطانيا العظمى. وتمّ تعيين حكومة مؤقتة لتشرف على الانتخابات برئاسة أيوب تابت».

تبرعات شاملة للدبابة الجديدة

في 26 آذار عام 1943، وبمبادرة من جمعية أصدقاء أرمينيا السوفياتية، بدأ جمع التبرعات بين الأرمن في لبنان وسوريا لدعم الجيش السوفياتي في صناعة دبابات «ساسون تسي تافيت». وأصدرت بطريركية كيليكيا الأرمنية بياناً خاصاً بالمناسبة وقعه رئيس الأساقفة أشباهيان. وكان أول المتبرّعين هو مطران الطائفة الأرمنية في لبنان أردافست

(1) المصدر السابق، 4 آذار 1943.

سيراميليان. تجدر الملاحظة أن في تلك الأيام كان قد انتهى جمع التبرّعات في فلسطين وجمع الأرمن الفلسطينيون 2670 جنيهاً فلسطينياً بمبادرة من عصبة الدفاع عن أرمينيا.

ذكرى ساسون تسي تافيت... وإعلان مرشحي الحزب للانتخابات

في 18 نيسان 1943 جرى احتفال في مقهى الباريزيانا بحضور خمسة آلاف مواطن، في جو حماسي بمناسبة ذكرى مرور ألف سنة على ساسون تسي تافيت.

افتتح المهرجان هرانت دفرجيان، وكان المتحدثون خالد بكداش وأوهانس أغباشيان وأنا. وقد تركزت كلمتي على ساسون تسي تافيت، وتكلم خالد بكداش عن الانتخابات المقبلة وأعلن أسماء مرشحي الحزب وهم عمر فاخوري، فرج اللّه الحلو، نقولا شاوي وأرتين مادويان، واستدرك قائلاً: «في ما يتعلق بالنائب الأرمني في مجلس النواب، فهو لا يمكن أن يكون إلا الابن البار للشعب الأرمني رفيقنا الكبير أرتين مادويان»[1].

وجاء في «صوت الشعب» في عددها الصادر في 11 نيسان 1943 «إن الصحف العربية كتبت بأن أقوى مرشح أرمني للانتخابات النيابية هو أرتين مادويان».

«كونفرانس» استثنائي

عقد في 18 نيسان 1943 اجتماع وطني للحزب في بيروت بمشاركة 112 مندوباً من أنحاء لبنان كلها. وتركّز البحث في الاجتماع على

---

(1) المصدر السابق، 21 نيسان 1943.

انتخابات المجلس النيابي في لبنان. ألقى التقرير الرفيق فرج الله الحلو ثم توالى على الكلام الرفاق خالد بكداش، نقولا شاوي، أرتين مادويان وآخرون. وافق المجتمعون بالإجماع على اقتراح فرج الله الحلو على أسماء الرفاق مرشحي الحزب في الانتخابات النيابية فرج الله الحلو، نقولا شاوي، أرتين مادويان، والصديق عمر فاخوري[1].

مباشرة بعد الاجتماع بدأنا بتنظيم الحملة الانتخابية داخل الأحياء الشعبية.

وأقيم في الإطار نفسه احتفال شعبي في أول أيار، وفي الوقت عينه قررت اللجنة المركزية خوض الانتخابات النيابية في حلب وترشيح الرفيق هرانت ديفرجيان .

وأقيم في 16 أيار 1943 وبمبادرة من الفرع الأرمني للحزب مهرجان في باحة مدرسة ساحقيان بمناسبة انتصار قوات الحلفاء في شمالي أفريقيا، وكانت المعركة الانتخابية في أوجها وحضر الاحتفال ستة آلاف شخص. كانت الوفود تأتي إلى المهرجان من مختلف الأحياء وهم ينشدون ويطلقون الشعارات الانتخابية. افتتح المهرجان الرفيق هرانت دفرجيان وتوالى على الكلام كلّ من نقولا شاوي، أوهانس أغباشيان، عمر فاخوري وكنت الخطيب الأخير.

وجرى في اليوم نفسه وللهدف نفسه مهرجان شعبي آخر في صالة أوتيل «نورماندي». ألقيت فيه كلمات من فرج الله الحلو، وأنطون تابت عن عصبة مكافحة الفاشستيّة، عمر فاخوري، الكاتبة إميلي فارس إبراهيم وإلياس خليل زخريا[2].

---

(1) المصدر السابق، 24 نيسان 1943.

(2) المصدر السابق، 19 نيسان 1943.

القرار التاريخي: حل «الكومنترن»
بيان لفرج اللّه الحلو وقرار للمكتب السياسي

عقد المكتب التنفيذي للأممية الشيوعية اجتماعاً في 15 أيار 1943 وقرر حلّ الأممية الشيوعية. وقّع هذا القرار أعضاؤها ديمتروف، اركولي (توغلياتي) فلورينغ، غوتوالد، جدانوف كولاروف، كوبلينيك، كوسينن، مانويلسكي أندريه مارتي، وليم بيك وموريس توريز. أذيع هذا النبأ من إذاعة موسكو في اليوم نفسه. وافق على حل الكومنترن كلّ من بيانكو (إيطاليا)، دولاريس ايباروري (اسبانيا)، لاهاتيتي (فنلندا)، آنّا بافكير (رومانيا)، وراكوشي (المجر).

بهذه المناسبة نشر مقال في جريدة «البرافدا» في 22 أيار 1943 جاء فيه:

«قبل الحرب العالمية الأولى كانت الغالبيّة الساحقة من الأحزاب العمالية أحزاباً انتهازية؛ وتأسس الكومنترن في العام 1919 ولعب دوراً تاريخياً وحرر الماركسية والحركة العمالية من التحريفيين والانتهازيين، وساعد الطبقة العاملة على إعادة تنظيم أحزابها وتطوير كادراتها الوطنيّة.

وجاء التطور التاريخي في بلدان العالم والفروقات الشاسعة بين بلد وآخر على صعيد النظام الاجتماعي والسياسي لتفرض على الأحزاب العمّالية مهمات محددة داخل كل بلد.

إن الأسس التي حددها الكومنترن للحركات العمالية لم تعد ملائمة وباتت تعيق إمكانية التطور المقبل للأحزاب العماليّة.

وأخذا في الاعتبار تطور ونضج قيادات وكادرات الأحزاب الشيوعية ودورها السياسي، ومن أجل تعزيز وحدة الأمم والشعوب في حربها ضد النازية والفاشية، فإن الضرورة التاريخية اقتضت حلّ الأممية الشيوعية «الكومنترن».

ارتباطاً بحل الكومنترن أصدر الرفيق فرج اللّه الحلو بياناً قال فيه:

«إن قرار رئاسة اللجنة التنفيذية القاضي بحل الأممية الشيوعية أمر سهل الفهم وقد قابلناه بارتياح كبير. فهو عدا أنه تقرير لأمر واقع، يُعدُّ تتمة طبيعيّة للخطة التي انتهجتها الأممية الشيوعية منذ سنين، وهي خطة قائمة على ترك الاستقلال التام لكل حزب شيوعي في تقرير سياسته الوطنية وخطته وأساليب العمل التي يتبعها في كل مرحلة لتحقيق أهدافه.

وأبرز ما يدلُّ عليه قرار رئاسة اللجنة التنفيذية هو أن معظم الأحزاب الشيوعيّة قد بلغت من النضج السياسي ومن غنى في التجارب درجة كافية.

وأولى نتائج هذا القرار هي تسهيل السبيل، في كل بلد من البلدان، لتوحيد جميع القوى الوطنية المناضلة ضد الفاشستية. وهو يقطع السبيل على الدعاية الفاشستية التي كانت تحاول تضليل الكثيرين من الوطنيّين المخلصين وعرقلة التعاون بينهم وبين الشيوعيين. وإذا كان النضال ضد الفاشستية قد قوّى ولا يزال يقوّي روح التضامن بين الشعوب المحبّة للحريّة والمقاتلة لأجل الحرية، فإن هذا القرار من شأنه أن يزيد هذا التضامن قوّة بين جميع الشعوب وبين الأحزاب الشيوعية في العالم كله»[1].

وفي الإطار نفسه، قرر المكتب السياسي للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، في اجتماع استثنائي عقده مساء 25 أيار 1943، الموافقة على اقتراح اللجنة التنفيذية الذي ينصّ على «حل الأممية الشيوعية كمركز قيادي لحركة العمال الأممية، وبتحرير فروع الأممية الشيوعية من الالتزامات الناتجة عن أنظمة وقرارات مؤتمرات الأممية الشيوعية».

والمكتب السياسي «واثق بأنه بموافقته على هذا القرار يعبّر عن إرادة جميع الشيوعيّين والديموقراطيّين والوطنيين المخلصين في سوريا ولبنان، فإن هذا القرار التاريخي يعطيهم قوة جديدة في متابعة مهمتهم الوطنية

---

(1) جريدة «صوت الشعب» (بالعربية)، 26 أيار 1943.

الكبرى في النضال ضد النازيّة والفاشستية إلى جانب جميع الشعوب الشغوفة بالحريّة والقوى التقدمية في أقطار العالم كله.

ولا ريب في أن الوضع الناشئ عن هذا القرار يساعد على تعبئة جميع القوى الشعبيّة في سبيل تحقيق الاتحاد الوطني لأجل حرية وطننا وهناء أبنائه لأنه يزيل كثيراً من العقبات التي كانت تحول دون توحيد الصفوف القومية، وتضافر العناصر المخلصة وتعاون جميع الكفاءات الوطنيّة في خدمة البلاد».

وقرر المكتب السياسي دعوة اللجنة المركزية لعقد اجتماع استثنائي بحضور المسؤولين الأساسيين في منظمات الحزب لاتخاذ القرارات الضرورية، وما يترتب من إجراءات سياسيّة وتنظيمية ناتجة عن قرار المكتب التنفيذي للأمميّة الشيوعية[1].

بيان الشيوعيين الأرمن في سوريا ولبنان

أصدر الشيوعيون الأرمن في سوريا ولبنان بياناً حول حل الأمميّة الشيوعية، جاء فيه: «نحن الشيوعيين الأرمن في لبنان وسوريا نعبّر عن موافقتنا التامة على قرار حل الأممية الشيوعيَّة. نحن على قناعة بأن هذا القرار سيتيح لنا آفاقاً لتعزيز وحدة الشعب الأرمني للنضال ضدّ النازية والفاشية، وسوف يعزز الصداقة بين الشعبين الأرمني والعربي ويحقق مصالح شعبنا وجهوده المبذولة من أجل حياة أفضل.

هذا القرار هو دليل ساطع على أن الشيوعيين مستمرون وسوف يستمرون إلى جانب شعوب الحلفاء في النضال المشترك ضد الهتلرية

(1) القرار صدر بتاريخ 26 أيار 1943 ونشرته «صوت الشعب» (العربية) في 30 أيار، وقد حمل توقيع كل من: خالد بكداش، فرج الله الحلو، نقولا شاوي، أرتين مادويان، رشاد عيسى، يوسف خطّار الحلو.

والفاشية، وسوف يعززون الجبهة العسكرية للإسراع في الانتصار على الهتلرية وعودة السلام».

التوقيع: أرتين مادويان، أوهانس أغباشيان، هارتيون ماخيان،

التاريخ: 27 ـ 5 ـ 1943[1].

الاجتماع الاستثنائي الموسع للجنة المركزية

انعقد الاجتماع الاستثنائي الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، في 27 أيار في بيروت بحضور مندوبين عن المنظمات الأساسية للحزب.

افتتح الاجتماع سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني الرفيق فرج اللّه الحلو، وقد تضمَّن جدول الاجتماع ما يلي:

1 ـ اقتراح حل الكومنترن ونتائج هذا القرار.

2 ـ دعوة الحزب لعقد مؤتمر.

3 ـ الانتخابات النيابية في سوريا ولبنان.

ألقى السكرتير العام للحزب الرفيق خالد بكداش تقريراً حول حلّ الأممية الشيوعيّة واقترح إصدار بيان بالموافقة عليه.

أقرّ المجتمعون هذا الاقتراح بالإجماع وصدر بيان جاء فيه أن اللجنة المركزية عقدت اجتماعها الاستثنائي الموسع في 27 أيار 1943 بحضور مندوبين عن المنظمات الأساسية، وبحثت اقتراح المكتب التنفيذي للأممية الشيوعية حول حلّ الأممية الشيوعية، المركز القيادي للحركة العمالية في العالم، وانسجاماً مع مقررات الكومنترن الذي يطلب، حسب نظامه الداخلي، موافقتنا على قرار مكتبه التنفيذي.

وجاء في البيان أن اجتماعنا باسم جميع شيوعيي سوريا ولبنان، يعبّر عن تقرير المكتب التنفيذي للكومنترن، وقيادته التي عملت لسنوات

---

(1) «صوت الشعب» بالأرمنية، أواخر أيار 1943.

ولفتت أنظار العالم إلى الخطر الذي يهدد السلام العالمي، وقدمت خدمات كبيرة من أجل الحفاظ على السلام العالمي إلى جانب الشعوب المناضلة من أجل الاستقلال الوطني.

ورأى الاجتماع أن قرار حل الكومنترن هو نتيجة لتطوره المنطقي واستمرار لخطه السياسي، حيث إن نهج الكومنترن كان دائماً يأخذ في الاعتبار خصائص البلدان والشعوب.

وأكد أن قرارات الكومنترن هي دليل واضح على صحة ممارسة الحزب، حيث كان قد اتخذ قراراً مبدئياً في مؤتمر الكومنترن عام 1935 بالعمل من أجل استقلالية الأحزاب الشيوعية. مباشرة بعد هذا القرار عمل حزبنا بخطوات سريعة وتحول إلى حزب مستقل قبل بداية الحرب، وعملياً لا توجد صلة مع الكومنترن.

ورأى الحزب أن حلّ الكومنترن يشكل خدمة كبيرة من أجل تحرير العالم وتعزيز وحدة القوى المقاتلة ضد الهتلرية، ويضع حداً للتآمر الرجعي عليها، ومحاولات تخريب هذه الوحدة مستغلين وجود الأممية الشيوعية «الكومنترن». ولقد وفّر هذا القرار ظروفاً جديدة للحزب في سوريا ولبنان، وأعطى دفعاً جديداً للحركات الوطنية والشعبية. ثم قرر الاجتماع الدعوة لعقد اجتماع وطني (كونفرانس) للحزب في غضون شهرين، وانتخب بالإجماع هيئة تحضيرية، أعضاؤها: خالد بكداش، فرج اللّه الحلو، نقولا شاوي، رشاد عيسى، يوسف خطّار الحلو، أرتين مادويان، مصطفى العريس، عبد الجليل سريس، عبد القادر إسماعيل، مير مسعد.

وأكد الاجتماع على مرشحينا للانتخابات النيابية، ورشح الرفيق خالد بكداش في دمشق[1].

---

(1) أوردت «صوت الشعب» (العربية) ملخصاً للتقارير التي قدّمت في الاجتماع الاستثنائي الموسع للجنة المركزية، وكذلك بالنسبة إلى «صوت الشعب» الأرمنية التي نشرت القرارات في عدد 21 أيار 1943.

اجتماع جماهيري في حلب: نحن حزب وطني

في 6 حزيران عام 1943 أقيم مهرجان شعبي كبير في ملعب مدرسة «الليسه لاييك» الفرنسية في حلب، حضره الرفيق خالد بكداش وقيادة الحزب. افتتح المهرجان سكرتير الفرع الأرمني لمنظمة حلب الرفيق هارتيون ماخيان، فتكلّم عن الانتخابات النيابيّة المقبلة وأكد ترشيح هرانت دفرجيان معلناً أن التصويت له إنّما هو واجب وطني. ثم أخذ الكلام هرانت دفرجيان وأعلن برنامجه الانتخابي. بعده ألقيتُ كلمتي مؤكداً على ضرورة العمل لإنجاح هرانت دفرجيان في الانتخابات، ثم ركزت على مسألة حلّ الكومنترن. وقد نشر هذا الجزء من كلمتي في عدد 12 حزيران 1943 في «جوغوفورتي تساين» بعنوان: «الحزب الشيوعي حزب وطني في سوريا ولبنان». وقد قلت إن هتلر استغلّ وجود الكومنترن لزرع الفتن بين شعوب الحلفاء بغية تفرقتهم وإضعاف الجبهة المعادية للهتلرية. هذا السلاح الأخير نزع من يد هتلر.

إن حلّ الأممية الشيوعية يسهل عمل الشيوعيين الأرمن من أجل تعزيز الجبهة الداخلية، واشتراك كل الأرمن في النضال إلى جانب الحلفاء والاتحاد السوفياتي، ووطننا أرمينيا السوفياتية ومن أجل تعزيز العمل المشترك بين الشيوعيين الأرمن وسائر القوى الوطنية الأرمنية التي كانت تقدّر دائماً جهدنا، ولكنها تتردّد في العمل المشترك معنا بحجة أننا على اتصال وارتباط بقوة خارجية.

ولقد بذل الكومنترن جهوده وكان هدفه الرئيسي العمل على إنشاء أحزاب شيوعية وطنية مستقلة على أساس المبادئ العلمية لماركس وأنجلس ولينين.

نحن الشيوعيين الأرمن بعد مرور عشرين سنة على وجودنا، تعلمنا من الأممية الشيوعية حب شعبنا بلا حدود، وتعلمنا تطوير ثقافتنا الوطنية والتزوّد من أفضل ما في تراثنا الوطني للانطلاق في عملنا السياسي من

مصالح الشعب الأرمني الحقيقية على الدوام. إن الحزب الشيوعي باقٍ وسوف يعمل من أجل الأفضل. ومن أجل غد مشرق وحياة أفضل للشعب الأرمني، لشعب ساسون تسي تاڤيت. هذا الطريق يؤمّن للشعب الأرمني تحقيق أهدافه وأحلامه.

لقد أدّت الأساليب القديمة كلّها إلى الخراب والدمار، إلى خراب ودمار الأرمن وأرمينيا. وحده الحزب الشيوعي أنقذ الشعب الأرمني وأرمينيا من هاوية الهلاك، وأعطانا أرمينيا السوڤياتية العظيمة.

وإذا نظرنا إلى حال سوريا ولبنان فمَنْ مِن الأحزاب يعمل حقاً من أجل وحدة الشعب الأرمني ووحدة قواه ضد الخطر الفاشي والهتلري؟ ومن يعمل من أجل ربط شعبنا كلّه بوطننا الأم ارمينيا السوڤياتية؟ ليس سوى الحزب الشيوعي.

مَنْ من الأحزاب يعمل لتحقيق الصداقة بين الشعبين الأرمني والعربي، وهي ضرورة لحياتنا في سوريا ولبنان ومن أجل أمننا وازدهارنا والأمن الوطني للشعب الأرمني في حلب؟ ليس سوى الحزب الشيوعي.

من هو الحزب الذي يعمل بشكل أفضل من أجل الشغيلة والصناعيين وأصحاب الدكاكين والتجار والمنتجين والمفكرين ويدافع عن مصالحهم؟ سوى الحزب الشيوعي.

من هو الحزب الذي باستطاعته تعريف المفكرين الأرمن بثقافة أرمينيا والثقافة العربية وأفضل ثقافات العالم، ويعمل بجدية لازدهار الثقافة الأرمنية الوطنية في سوريا ولبنان؟ إنه الحزب الشيوعي.

الحزب الشيوعي ليس للشيوعيين فقط، بل إنه ملك الشعب كله ووجوده ضرورة وطنيّة وتطوّره مهمة وطنية. الأهداف التي يناضل الحزب الشيوعي من أجلها تشمل أفضل المبادئ التي ناضل من أجلها شعبنا في الماضي وتحقيق أمنه اليوم، وأفضل أمانيه لمستقبل أفضل.

الحزب الشيوعي هو الحزب الوحيد الذي يقدّر الأحداث بشكل

صحيح وينطلق دائماً من مصالح شعبنا الوطنية دون تردد، ودون انتظار موافقة السلطة.

رسائل من الأحياء الأرمنية

وصلتني هذه الرسالة من برج حمود وطراد تؤيد ترشيحي للانتخابات النيابية:

«عزيزنا الرفيق أرتين مادويان

شعبنا ثقته كبيرة بكم حيث لم تنسوا شعب برج حمود في أيامه الصعبة، ولقد اهتممتم بنا في وقت كان الآخرون يأخذون موقف السلطة المعادي للشعب ويخدمونها.

هاكوب بيدويان

هاكوب هارمان داريان

هاجي تاكيسيان

أرزومانيان»[1].

ووصلتني رسائل بالمحتوى نفسه من أحياء التيرو، نورسيس ونورماراش (برج حمود) مار مخايل، نور حاجن، خليل البدوي، الأشرفية، هاياشين، هيكاشين، عين المريسة، ومن الأحياء الأرمنية الأخرى.

مهرجان انتخابي في تيرو بيجو

بمبادرة من منظمة الحزب الشيوعي في برج حمود، أُقيم مهرجان شعبي كبير في 20 حزيران 1943 في برج حمود في ملعب تيرو بيجو بالتحديد، بحضور خمسة آلاف شخص وبمشاركة مرشحي الحزب

---

(1) «صوت الشعب» بالأرمنية، 5 حزيران 1943.

للانتخابات النيابية أرتين مادويان عن بيروت، فرج اللّه الحلو عن جبل لبنان، نقولا شاوي عن بيروت، عمر فاخوري عن بيروت، مير مسعد عن الجنوب، وكان من المشاركين أيضاً أوهانس أغاباشيان ويوسف خطّار الحلو... وقد ألقيتُ كلمة إلى جانب الآخرين وممّا جاء في كلمتي: «نحن نحب وطننا أرمينيا السوڤياتية؛ فيها تحققت أماني شعبنا العظيم، تحققت آمال أبطال وشهداء حاجن وأرفا وزيتون وساسون وجبل موسى وفان، وعين تاب والمعارك البطولية التي خضناها في شابين كاراهيسار التحررية، وهكذا فقد تحققت آمال مليون ونصف مليون شهيد أرمني.

إن محبة أرمينيا السوڤياتية وفرحتنا بها وحنيننا إليها واستشهادنا من أجلها إنما هي مهمة مقدسة للشعب الأرمني كلّه، ولكن نحن الأرمن اللبنانيين لا نعيش في السماء، بل نعيش على أرض لبنان، حيث أُعطيت لنا حقوق سياسية متساوية مع حقوق أبنائه الأصليين.

قبل 22 عاماً كنا في البحر حيث كنّا مرفوضين من الجميع، استقبلنا لبنان وفتح صدره لنا كأخوة. إننا نعتزّ ونعبر عن أفضل أمانينا للبنان.. ولبنان وطن للأرمن اللبنانيين وسلطته سلطتنا، أرضه أرضنا، خبزه خبزنا، حرّيته حريّتنا واستقلاله استقلالنا.

لبنان ينادينا بسرعة للمشاركة في انتخاباته النيابية، وعلى كل أرمني خدمة لبنان من أجل ازدهاره، وواجبنا القيام بالمسؤولية السياسية بأمانة وانتظام .

نحن الشيوعيين أقوى تنظيم حزبي بين الأرمن اللبنانيين. هذه الحقيقة مطلقة حتى إن الشرفاء من خصومنا لم ينكروها. هدفنا العمل متحدين مع الأرمن غير الشيوعيين لخدمة لبنان ولتحقيق ازدهاره. إذا خدمنا لبنان ونحن على قناعة نكون قد خدمنا الأرمن في لبنان.

إن لبنان وطننا، فالدفاع عن استقلاله وأرضه وحريته مهمة وطنية للشعب الأرمني في لبنان.

لننطلق إلى الانتخابات وفي داخل المجلس النيابي سوف نبذل جهودنا كلها لخدمة الحركات الديموقراطية وتحقيقها وتعزيزها وتطوير الإنتاج في البلاد وتنمية التجارة، والاهتمام بالمفكرين والشباب، وتعزيز المستوى الحياتي للمهنيّين وأصحاب الدكاكين والعمال والفلاحين وصغار الموظفين والعمل من أجل تطوير الاقتصاد الوطني. في لبنان نحن نعمل إلى جانب المسيحيّين والمسلمين من أجل تعزيز الصداقة والأخوة بين الأرمن والعرب وترسيخ وحدة العائلة اللبنانية .

إن مجلس النواب القادم يعبِّر عن إرادة شعبنا عندما يحتله ممثلو الحزب الشيوعي من الأرمن والعرب إلى جانب الآخرين، لأنهم يمثلون الجماهير الواسعة من شعبنا وإرادة كل القوى التقدمية.

لقد كنّا نحن الشيوعيين الأرمن خلال عشرين سنة من النضال نعبّر عن المصالح الحقيقية للشعب الأرمني في لبنان، وها نحن نواصل اليوم، بقوة أكبر من الماضي، النضال على هذا الطريق وليس ثمّة قوة تستطيع منعنا عن هذا الطريق الآيل إلى خدمة المصالح العليا للشعب الأرمني في لبنان. مسيرتنا الماضية والحاضرة معروفة دائماً. إن جبيننا عال ولسوف نستمر هكذا. وفي الختام أدعوكم لتعزيز ورص صفوف الأرمن مهما كانت نتائج الانتخابات»[1].

ثم دعوتهم لانتخاب المرشحين الشيوعيِّين.

ولقد ألقى الرفيق فرج اللّه الحلو خطاباً مهماً ولافتاً للنظر، وممّا جاء في هذا الخطاب:

إخواني الأرمن،

نحن في لبنان لا نعتبركم غرباء بل اعتبرناكم دائماً أخوة متساوين معنا. ليست الانتخابات النيابية هي التي دعتنا للصداقة والأخوة معكم، بل منذ سنوات طويلة ونحن نناضل معاً في لبنان من أجل الخبز وحقوق

---

(1) المصدر السابق، 23 حزيران 1943.

شعبنا. دافعنا معاً عن الحريات الديموقراطية في هذا البلد. المناضلون الأرمن والعرب لوحقوا معاً في لبنان من أجل الخبز والحريات وسُجنوا معاً.

انتم في لبنان قسم غال من سكانه. إنّ التعامل والأخوّة فيما بيننا يخدمان مصلحتكم ومصلحتنا. أنتم لكم وطن عزيز مشرق، أرمينيا السوفياتية، من حقكم وواجباتكم أن تحنّوا إلى وطنكم وتفتخروا به. نحن نشارككم في الاحترام والمحبة تجاه وطنكم حيث نعتبر أن أرمينيا السوفياتية ليست وطناً حراً للأرمن فحسب، بل إنها رمز لكل الشعوب المستضعفة والمناضلة من أجل التحرّر.

إلى جانب هذا فلبنان وطنكم الثاني حيث تشاركون في بناء هذا الوطن إلى جانب إخوانكم العرب اللبنانيين، معاً نتحمل المآسي والفرح.

كل أرمني يحب أرمينيا السوفياتية يجب أن يحب لبنان، وكل عربي يحب لبنان يجب أن يحب أرمينيا السوفياتية. إن محبة لبنان وأرمينيا يجب أن تقودكم إلى الانتخابات المقبلة. يجب أن تدلوا بأصواتكم للمرشحين الديموقراطيين من العرب والأرمن ممّن يحبّون لبنان وأرمينيا السوفياتية. يجب أن تنتخبوا المرشحين العرب والأرمن الذين ناضلوا لتعزيز الأخوة بين العرب والأرمن. يجب أن تنتخبوا هؤلاء الذين دافعوا عن لقمة العيش وعن الحرية الأرمنية والعربية.

فلتحي الأخوّة الأرمنية ـ العربية.

تحيا أرمينيا السوفياتية ـ يحيا لبنان[1].

تبرعات شعبية أخرى لصنع الدبابات

نشطت بمبادرة من جمعية أصدقاء أرمينيا السوفياتية حملة التبرعات

---

(1) «صوت الشعب» بالأرمنية، 27 حزيران 1943.

لصناعة دبابات «ساسون تسي تاڤيت»، وشكّلت لجان التبرعات في كل أنحاء لبنان وسوريا. وفي بيروت وحدها شكّلت وعملت أكثر من عشرين لجنة لجمع التبرعات.

الحملة الانتخابية في دمشق

الانتخابات النيابية في سوريا تجري على مرحلتين. كان موعد المرحلة الأولى في 9 تموز 1943 على أن تجري المرحلة الثانية في 25 تموز.

كان مرشح الحزب للمرحلة الثانية الرفيق خالد بكداش. كانت مهمتنا الأساسية تأمين مرشحين مؤيدين لخالد بكداش منتخبين في المرحلة الأولى من الاقتراع (أي ناخبين ثانويين).

انتقلت إلى دمشق بقرار من الحزب للمشاركة في العمل التحضيري. كانت مهمتي تأمين مندوبين أرمن مؤيدين للرفيق بكداش في المرحلة الأولى. كانت قد شُكِّلت لائحة نازاريت يعقوبيان المرتبطة بالكتلة الوطنيّة وتتمتع بدعم شكري القوتلي. وفي الواقع فإن يعقوبيان وأعضاء قائمته كانوا يتحلّون بالوطنية لكنهم ليسوا على استعداد لأن يوافقوا، في حال نجاحهم في الانتخابات على تأييد ترشيح بكداش ومعارضة الكتلة الوطنية وشكري القوتلي.

الأجواء غير مشجعة ولكن كنا مضطرين لتشكيل لائحة ثانية هي عملياً معارضة للائحة نازاريت يعقوبيان.

هكذا كان قرار الحزب. لتنفيذ هذا القرار التقيت أسقف الأرمن يبريم دوهموني، وقيادات حزبي الهنشاك والرمغافار وعناصر وطنية غير ملتزمة. عملنا مع قيادة الفرع الأرمني للحزب في دمشق وكانت شعاراتنا وحدة صف الشعب الأرمني دفاعاً عن مصالحه الحقيقية.

كانت أجواء اللقاءات مشجعة. وقد دعا أحد قادة حزب الهنشاك

الرفيق افاك شيكشينيان إلى مأدبة غداء في منزل علي شرفي، حضر الحفل قيادتا حزبي الهنشاك والرمغافار والقيادة الأرمنية لحزبنا في دمشق وأصدقاء وطنيون مقربون.

كان الجو حماسياً وأقيمت مأدبة غداء أخرى في الصالحية، في باحة منزل الرفاق آزادفيشيان وسركيس مارديريان وسركيس ميليدونيان. ألقيت كلمات، وقد حضر الرفيق خالد بكداش هذه الحفلة وقال: إن فئات واسعة من الشعب العربي تعرف جيداً الشعب الأرمني وتحبّه وتحترمه وفي طليعته الرفيق أرتين مادويان[1].

نجحنا في تشكيل لائحة من 35 مندوباً أرمنياً للمرحلة الأولى من الاقتراع، برئاسة المحامي الوطني بوغوص بشيريان. على أن يتولى أعضاء هذه اللائحة (لائحة التحالف الشيوعي ـ الهنشاك ـ الرمغافار والوطنيين المستقلين) بعد نجاحهم في المرحلة الأولى الإدلاء بأصواتهم في المرحلة الثانية لمصلحة خالد بكداش.

استغل الطاشناك هذه الأجواء وأعلنوا تأييدهم لنازاريت يعقوبيان. لم يكن هذا الأخير على علاقة جيدة مع الطاشناك في ما مضى، ولكن خلال فترة الحملة الانتخابية كان بحاجة لأصوات الناخبين من أية جهة كانوا. استغل الطاشناك علاقتهم الانتخابية مع نازاريت يعقوبيان للخروج من عزلتهم وأنشأوا صلة مع السلطة الوطنية.

بدأت عملية الانتخاب في التاريخ المحدد. حصلنا في اليوم الأول على أكثرية الأصوات وفي اليوم التالي تدخلت الشرطة ضد مصلحتنا.. وانتهت الانتخابات بفوز لائحة يعقوبيان.

كنا قد أغفلنا إمكانية استخدام وسائل مختلفة من قبل الكتلة الوطنية وشكري القوتلي لمنع انتصار اللائحة الأرمنية المنافسة لهم.

ولقد أثبتت الأحداث أن موقفنا لم يكن صحيحاً، في تشكيل لائحة

---

(1) «صوت الشعب» بالأرمنية، 21 حزيران 1943.

أرمنية مؤيدة لخالد بكداش في وقت لم يستطع بكداش تشكيل لائحة في الأوساط العربية في المرحلة الأولى تضمن له النجاح.

ومهما يكن من أمر، فقد بذلنا بعد الانتخابات جهوداً خاصة لفصل نازاريت يعقوبيان وقائمته عن الطاشناك كيما يعود إلى المواقع الوطنية وإلى التعاون معنا. ونجحنا في هذه المبادرة، (سوف نوضح هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحات الآتية).

بعد انتهاء عملي عدت إلى بيروت.

سقوط القناع

بمبادرة من الفرع الأرمني في الحزب، تقرر إقامة مهرجان شعبي في باحة مدرسة ساحقيان في 14 تموز 1943 ضمن إطار الحملة الانتخابية. أخذنا موافقة إدارة المدرسة حيث كان يتولاها الوطني ميساك فيهوني، من قدماء حزب الهنشاك، وهو إنسان محترم وشريف في مدينتنا، تربطنا به صداقة منذ أواخر عام 1922.

انزعج من مبادرتنا هذه أرمين غريب وبعض محبي الصيد في الماء العكر، ورأوها مناسبة لخلق توتر وصراع بيننا وبين حزب الهنشاك، وضغط هؤلاء على إدارة المدرسة لمنع قيام المهرجان في باحتها. واقترح ميساك فيهوني، تطويقاً للمحاولات التخريبية بيننا وبين الهنشاك، أن يلقي حزب الهنشاك كلمة في المهرجان. وافقنا على هذا الاقتراح للمحافظة على وحدة الصف. ثم قُدم اقتراح يطالب بأن يكون المهرجان برعاية حزب الهنشاك. لا يسعنا القبول بهذا الاقتراح؛ فالمهرجان برعايتنا وبمبادرة منا. رفضنا هذا الاقتراح، على أن إدارة المدرسة احترمت وعدها وقدمت لنا باحة المدرسة.

استدعيتُ من قبل رئيس الشرطة السرية عارف بك، فأبلغني أن إدارة المدرسة لم توافق على تنظيم المهرجان فيها بحسب زعمه، وإذا قمنا بالمهرجان فمن الممكن أن تحصل أحداث غير محمودة.

أبلغتُ عارف بك أن معلوماته غير صحيحة ونحن أخذنا الموافقة الرسمية من إدارة المدرسة ولا مجال لأي حدث غير مرغوب فيه. ومن أجل تأكيد ما قلته، عدت مع مسؤول إدارة المدرسة ميساك فيهوني إلى مكتب عارف بك. فأكد فيهوني صحة افادتي، وفي تلك اللحظة فتح عارف بك درج مكتبة واحضر معلومات مكتوبة باللغة الفرنسية تقول إننا لم نحصل على موافقة إدارة المدرسة وسوف تحصل أحداث غير مرغوب فيها!

استغرب ميساك فيهوني هذا الزعم، أما أنا فقد بادرتُ إلى القول: نحن نتنازل عن القيام بالمهرجان في ساحقيان، ونرجئ موعده إلى الأحد المقبل في سينما «غراند تياتر».

من المؤسف أن نؤكد أن لعبة أرمين غريب وجماعته كشفت لاحقاً. لقد شكلوا لائحة انتخابية موحدة مع مرشح الطاشناك موسيس دير كالوستيان، وللوصول إلى هذه الغاية حاولوا توتير العلاقة بين الشيوعيين والهنشاك. وقد تبيَّن لاحقاً وحسب شهادة هارتيون كوجوني (جيريجيان)، فإن المكتب الثاني الفرنسي كان له دور في هذه الأحداث عبر عملائه.

بعد هذا الحادث بحثت إدارة مدرسة ساحقيان التي كانت مؤلفة من الهنشاك والوطنيين الشرفاء، في اجتماع لها «الموقف الشريف للشيوعيين وتصرّفهم المتسامح»، وقرروا تقديم استقالاتهم الجماعية استنكاراً للضغوط غير المشرفة وبشكل خاص ذلك الكتاب الذي أُرسل إلى عارف بك. («جوغوفورتي تساين»، 26 تموز 1943).

مهرجان شعبي وبرنامجي الانتخابي

المهرجان المؤجل عاد وأقيم في أول آب في سينما «غراند تياتر» بحضور شخصيات سياسية ووطنية واجتماعية وحشد جماهيري كبير. افتتح المهرجان بكلمة الرفيق سيتراك اباجيان، ثم ألقى الرفيق أوهانس

أغباشيان كلمة. وقد تحدث الرفيقان عن أهمية ترشيحي في الانتخابات. ثم أخذتُ الكلام، وبعد مداخلة سياسية تقدمت ببرنامجي الانتخابي المؤلف من النقاط الآتية:

1 ـ من أجل لبنان حر مستقل ديموقراطي.

2 ـ وحدة كل الطوائف داخل العائلة اللبنانية.

3 ـ تطوير الصداقة الأرمنية ـ العربية.

4 ـ تنظيم التموين الغذائي وبشكل خاص في برج حمود.

5 ـ النضال ضد الغلاء والمستغلين.

6 ـ النضال ضد البؤس والتخلف.

7 ـ تنظيم الاهتمام الصحي بالأحياء الأرمنية.

8 ـ مساعدة المدارس الأرمنية.

9 ـ مساعدة الأندية الأرمنية الرياضية والثقافية.

10 ـ الدفاع عن أصحاب البيوت الفقراء من استغلال أصحاب الأملاك.

11 ـ حرية أكبر للكلمة، والصحف، والاجتماعات، والتنظيمات والحريات الديموقراطية.

12 ـ الدفاع عن المصالح الحياتية للشعب من عمال وفلاحين وصناعيين، وأصحاب المصالح والمنتجين، لتطوير الاقتصاد الوطني في لبنان.

ثم دعوتُ الشعب إلى انتخاب هذا البرنامج.. إلى انتخاب فرج اللّه الحلو وعمر فاخوري وأنطون تابت. وأنهيت كلمتي مؤكداً أن مصلحة الشعب الأرمني في لبنان فوق كل مصلحة، مصلحة وطني لبنان فوق كل مصلحة، ووطننا الأم أرمينيا فوق كل مصلحة[1].

---

(1) المصدر السابق، 4 آب 1943.

قرار انتخابي جديد

قرر المكتب السياسي للحزب بعد أن بحث في الوضع الانتخابي، الاستمرار في المعركة الانتخابية عبر مرشحيه: الرفيق فرج الله الحلو في جبل لبنان، الرفيق أرتين مادويان في بيروت (مرشح الأرمن)، وقرر دعم ترشيح عمر فاخوري في بيروت وسحب ترشيح نقولا شاوي عن مقعد الروم الأرثوذكس في بيروت ودعم المرشح شفيق علم الدين في طرابلس، ودعم المرشحين الوطنيين في سائر المناطق[1].

البرنامج الانتخابي لفرج اللّه الحلو

أعلن الرفيق فرج اللّه الحلو برنامجه الانتخابي المؤلف من 23 نقطة. ركّز على الاستقلال الوطني والحريات الديموقراطية، وعلى مطالب العمال والفلاحين والمطالب الاقتصادية والاجتماعية وعلى تطوير الصناعة الوطنية من أجل تطوير الاقتصاد. هذا البرنامج الانتخابي ما زال صالحاً ليومنا هذا في بنوده الأساسية[2].

جبهة انتخابية موحدة بين الهنشاك والطاشناك

المفاجأة الانتخابية بين الأرمن لم يكن بالإمكان تصديقها. هذا الانقلاب هو إعلان تحالف حزب الهنشاك وحزب الطاشناك لخوض الانتخابات في جبهة واحدة!

كان مرشح حزب الهنشاك، كما هو معروف، مرديروس إسكندريان ومرشح الطاشناك موسيس دير كالوستيان. وقد أشاع هذا التحالف الانتخابي جواً متوتراً بين الأرمن.

---

(1) المصدر السابق، 8 آب 1943.

(2) المصدر السابق، 9 آب 1943.

كنت في هذه الأثناء مستمراً بحملتي الانتخابية، أقوم بزيارات انتخابية داخل الأحياء والتقي شخصيات مستقلة واستقبل الوفود القادمة من الأحياء التي كانت تعبر عن تأييدها لترشيحي[1].

مهرجانا الأشرفية والدورة وفاخوري يعلن برنامجه

أقيم في الأشرفية، بحضور حشد كبير، مهرجان تحت شعار: «انتصار أرتين مادويان انتصار للوطنيين العرب وانتصار عمر فاخوري انتصار للوطنيين الأرمن».

ألقى عمر فاخوري كلمة جاء فيها أن الأرمن اللبنانيين يناضلون لبناء وطننا، وبعملكم هذا تسجلون في صفحات التاريخ صفحات جديدة من أجل التحرر. نشرتم الفكر التحرّري في العالم وتستمرون في نشره. من تلك الأيام التي طردتم فيها من بلادكم على يد العثمانيين، تحوّلتم إلى أعداء للاستعباد وأبطال للتحرر في البلدان التي تقيمون فيها. إن حبكم الدائم للتحرر جعل الوطنيين العرب أخوة لكم[2].

وفي الخامس عشر من آب شهدت حديقة «كازينو سعاده» في الدورة بمحيط برج حمود، مهرجاناً كبيراً بمشاركة حوالى 15 ألف شخص تأييداً لترشيح فرج الله الحلو حيث كان مرشحاً عن تلك المنطقة. تكلم في هذا المهرجان رئيف خوري، خالد بكداش، فرج الله الحلو، عمر فاخوري، هارتيون ماخيان والدكتور اطام مانويليان وجلسنا وإيّاهم جميعاً إلى منصة المهرجان.

أعلن عمر فاخوري برنامجه الانتخابي المؤلف من النقاط الآتية:

1 ـ استقلال وطني حقيقي.

---

(1) المصدر السابق، 9 آب 1943.

(2) المصدر السابق، 16 آب 1943.

2 ـ جمهورية دستورية.

3 ـ حريات ديموقراطية على جميع الصعد لجميع المواطنين دون تفرقة.

4 ـ تعزيز الروابط الأخوية ـ العدالة والمساواة بين جميع المواطنين لأي مذهب أو طائفة انتموا.

لقائي الرئيس إميل اده

كان إميل اده رئيساً للجمهورية في ذلك الوقت، وكان يطمح لتجديد ولايته في حال انتصر مؤيدوه في الانتخابات النيابية المقبلة. وكان متحمّساً للانتداب الفرنسي و«للبنان الكبير» وتربطه وشائج حميمة بالفرنسيين، وترتكز سياسته على المحافظة على لبنان «المسيحي» وعلى امتيازات المسيحيين الموارنة. وكانت لديه قاعدة شعبية واسعة بين الموارنة.

ارتباطاً بالانتخابات النيابية، أعرب الرئيس إميل اده رغبته في لقائي وحدّد الموعد.

جرى اللقاء في منزله الكائن قرب محطة التلفزيون حالياً في تلة الخياط. رغب الرئيس إميل إده في لقائي بصفتي أرمنياً مسيحياً وصاحب قاعدة انتخابية شعبية واسعة. قال لي إن الانتخابات النيابية المقبلة مصيرية بالنسبة إلى لبنان، فإذا خسرت جبهته في الانتخابات وانتصرت الجبهة المعادية له فسوف يتّجه لبنان نحو العرب، وسوف يفقد استقلاله ووجوده المنفصل، واقترح أن أؤيده في المعركة الانتخابية. وتحدث أيضاً عن «محبته» للأرمن و«الخدمات» التي قدمها لهم.

كنت في وضع صعب، لا أستطيع أن أرفض اقتراحه مباشرة، كان من الواجب عليّ أن أحافظ على موقفي السياسي، وأعلنت أن هذه الاقتراحات سوف تُبلغ للحزب لبحثها ولاتخاذ القرار المناسب... وهكذا افترقنا.

انسحابي من المعركة الانتخابية

صدر في صحيفة «جوغوفورتي تساين» في 28 آب 1943 البيان اللآتي للمرشح المنسحب أرتين مادويان:

«لخدمة المصلحة الوطنية العليا للشعب الأرمني في لبنان، كانت منطلقاتي منذ سنوات طويلة خلال عملي السياسي خدمة الشعب الأرمني في لبنان وتحقيق وحدته وتعزيز الصداقة بين الأرمن والعرب.

بعد التشاور مع المكتب السياسي للحزب الشيوعي، أتقدم بسحب ترشيحي من الانتخابات النيابية الجارية في لبنان. إنني أدعو جميع الأرمن للتعبير عن وحدتهم والتحلي بالروح الديموقراطية، وأهيب بجميع الأرمن دون تفرقة حزبية أن ينتخبوا المرشح الأرمني الذي يرتؤونه، على أن يقترعوا لأصدقاء الشعب الأرمني المجربين والمخلصين للأخوّة بين الأرمن والعرب والمدافعين عن الخبز والحرية، وفي طليعتهم عمر فاخوري عن بيروت وفرج اللّه الحلو عن جبل لبنان».

وأقيم في الليلة نفسها في حي خليل البدوي، وبحضور عشرة آلاف شخص، مهرجان كبير تكلّم فيه أرتين مادويان وخالد بكداش وعمر فاخوري وأوهانس أغباشيان. وقد حاولت في كلمتي بلورة محتوى البيان الذي صدر.

افتتح المهرجان الرفيق هاروتيون ماخيان، وقال أوهانس اغباشيان في كلمته: «نحن من أجل وحدة شعبنا ومن أجل خبزه لم نوفر أي جهد إلا بذلناه. نحن من أجل وحدة شعبنا ومن أجل خبزه تعرضنا لجميع أنواع التعذيب والتضحيات، وأكبر تضحية كانت سحب ترشيح الرفيق أرتين مادويان من الانتخابات النيابية. أرتين مادويان أحد قادة حزبنا ـ شيوعي ملتزم بقرارات حزبه، أرتين مادويان وضع ترشيحه تحت تصرف الحزب»

لماذا هذا القرار؟

صدر هذا بتوجيه من خالد بكداش، حيث اعتبر أن انتصار عمر فاخوري أو حصوله على أصوات مرموقة سيكون له معانٍ سياسية أكثر أهمية للحزب وللقضية الأرمنية وللمطالب الأرمنية.

من المؤكد أن انتخاب عمر فاخوري سوف يكون له معانٍ سياسية كبيرة ولكن، في الحقيقة، كان حزبنا يأخذ دائماً في الاعتبار المشاعر الوطنية للشعب الأرمني ويهتمّ بها، لكن تقديره لم يكن هذه المرة صحيحاً.

ولهذه الأسباب ونتيجة للتقدير الخاطئ، فلم يحصل عمر فاخوري على أصوات الناخبين بما يستحق.

ولا شك أنه كان بإمكانه الحصول على أصوات أكثر بكثير لو كان إلى جانبه مرشح أرمني مرتبط بشعبه ومعروف لديه. إنَّ تبيان هذه الحقيقة أمام الحزب لم يكن من واجبي ، حيث كنت المرشح الأرمني وطرحها من طرفي يمكن أن يفسر على غير حقيقته، ولم يكن من الممكن تغيير القرار لأن خالد بكداش كان مقتنعاً وسوف يصر على موقفه. وفي كل حال فنتائج الانتخابات أثبتت خطأ التقدير القائل إن الهنشاك والطاشناك والرمغافار سوف يدلون بأصواتهم إلى جانب عمر فاخوري .

يجب أن نضيف أن الإجراءات الجدية لم تتخذ في الأوساط العربية لإنجاح الحملة الانتخابية لعمر فاخوري.. لم تنظم الحملة جيداً ولم تجر الاتصالات الضروريّة «بالمفاتيح» الانتخابية.

في تلك الأيام أقيم مهرجان انتخابي كبير في مقهى «الباريزيانا» في ساحة البرج، حضره حوالى 15 ألف شخص توزعوا داخل المقهى وخارجه. جلس عند المنبر خالد بكداش، نقولا شاوي، الدكتور جورج حنا، رئيف خوري، عمر فاخوري، أرتين مادويان ومصطفى العريس.

بيان مزوّر باسمي

صباح يوم الانتخاب وزع بين الشعب بيان مزوّر يدعو الناخبين

باسمي لانتخاب مارديروس اسكندريان. ومن المؤسف أن أشير إلى هذه الحقيقة، ولكن هذا التزوير كان من صنع الذين يصطادون في المياه العكرة ممّن ذكرناهم سابقاً. إنني أعتبر حزب الهنشاك، كحزب، غير مسؤول عن هذا التصرف المشين

نجاح استثنائي لفرج الله الحلو

سجل فرج اللّه الحلو منفرداً نجاحاً استثنائياً في الانتخابات النيابية في منطقة جبل لبنان، في 144 صندوق اقتراع ومن ضمنها برج حمود، حصل فرج اللّه الحلو على 9060 صوتاً، بينما اللائحة الفائزة والمؤلفة من 17 مرشحاً حصلت على عشرين ألف صوت. رغم ذلك، ففي تلك الظروف لم ينتخب فرج اللّه الحلو رسمياً إلّا أنه حصل على ستة أضعاف ما ناله كل مرشح فائز داخل اللائحة!

انتصار فرج اللّه الحلو كان انتصاراً سياسياً كبيراً للحزب وقد أحدث صدى عظيماً لدى الرأي العام.

في بيروت من أصل 43781 ناخباً شارك فقط 11429 في الانتخابات. خسرت لائحة تحالف الهنشاك والطاشناك المؤلفة من مارديروس اسكندريان وموسيس دير كالوستيان، وبدت ملامح فوز لائحة سامي الصلح التي كانت تضم قائد الرمغافار مكرديش مصرليان والوطني المستقل مسؤول جمعية فيرازنونت المهندس هراتش شامليان.

ولكن عندما اقترب الانتهاء من فرز الأصوات وأصبح شامليان ومصرليان واثقين بالانتصار، إذا بهذا الأخير من شدة فرحه يتوقف عن مراقبة فرز صناديق الاقتراع الباقية. فأفاد خصومه من هذه الفرصة فلعبوا لعبتهم وأعلنوا انتصار شامليان... وعلق فوز مصرليان بحجة أنه ينقصه سبعة أصوات للفوز، وتقرر إعادة الانتخاب (بالوتاج).

جرى الانتخاب الفرعي في الاسبوع التالي. انتخب دير كالوستيان

بمساعدة الفرنسيين وفشل مصرليان لعدم مساعدة زملائه له في لائحة الصلح.

تبيّن أن مصرليان وشامليان حصلا على أصوات تفوق قدراتهما الحزبية داخل الواقع الأرمني؛ ذلك أن الناخبين الأرمن صبّوا أصواتهم لمصلحة مكرويش مصرليان وهراتش شامليان لمجرد معاداتهما للجبهة المشتركة بين الهنشاك والطاشناك .

وفي الواقع فإن مصرليان وشامليان بقيا صديقين لنا على الدوام ولم يتخلّيا عن موقعهما الوطني.

إلى الاستقلال الوطني

أفضَتْ نتائج الانتخابات النهائية إلى انتصار ساحق لمؤيدي الشيخ بشارة الخوري، حيث كانوا يشكلون جبهة سياسية موحدة مع رياض الصلح من أجل تحقيق الاستقلال الوطني، حيث عقد ميثاق وطني بين اللبنانيين: الشيخ بشارة الخوري باسم المسيحيين ورياض الصلح باسم المسلمين على أساس أن لبنان "لن يكون للاستعمار ممراً ولن يكون له مقراً»، وفي المقابل اعترف المسلمون بحدود ووحدة أراضي لبنان انطلاقاً من الاستقلال الوطني. قبل هذا الميثاق كان مسلمو لبنان يرفضون الاعتراف «بدولة لبنان الكبير» التي أعلنت من قبل الجنرال غورو في مطلع الانتداب الفرنسي. فلقد كانت الغالبية الساحقة من سكان «لبنان الكبير» من المسلمين في مناطق طرابلس والبقاع وصيدا وسواها، تطالب بإعادته إلى سوريا كما كانت الحال قبل الاحتلال الفرنسي.

للحقيقة التاريخية نقول إن المبادئ الأساسية للميثاق الوطني والخطوط الأولى لهذا التوجه، كان قد طرحها حزبنا في عام 1925 بحضور ممثل المسيحيين المحامي والوجه الوطني يوسف السودا، وممثل المسلمين الوطني والثوري علي ناصر الدين.

اتفق بموجب هذا الميثاق على أن يكون رئيس الجمهورية مسيحياً مارونياً ورئيس الوزراء مسلماً سنياً ورئيس مجلس النواب مسلماً شيعياً (أو من الروم الأرثوذكس؟) وأن يتألف مجلس النواب من أكثرية مسيحية، وتوزع المقاعد على أساس طائفي. واتفق أن تكون الطوائف جميعها ممثلة في الحكومة.

أعطي المسيحيّون وخصوصاً الموارنة أفضلية، لوضع حد لمخاوفهم إزاء الطوائف الأخرى وبهدف فصلهم عن الانتداب الفرنسي وحثهم على التوجه وجهة الاستقلال.

وهكذا كان لبنان يمر في مرحلة انتقالية بتفاهم مسيحي ـ إسلامي وعلى أساس موحد باتجاه الاستقلال الوطني. ولقد لعب الحزب الشيوعي في هذه المرحلة التاريخية دوراً أساسياً وثابر على هذا الدور بأمانة، ومن مواقع نضالية ثابتة .

الحكومة الجديدة.. وإعلان الاستقلال

عقد مجلس النواب المنتخب جلسته الأولى وانتخب رئيساً له من الطائفة الشيعية هو الرئيس صبري حماده. وانتخب المجلس النيابي في جلسته المنعقدة في 21 أيلول، الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية بحضور 47 نائباً فحصل على 44 صوتاً، وتغيب عن الاجتماع ثمانية نواب. تشكلت الحكومة الجديدة برئاسة رياض الصلح وعضوية الوزراء حبيب أبو شهلا (روم أرثوذكس) سليم تقلا (روم كاثوليك)، المير مِجيد أرسلان (دروز)، كميل شمعون (موارنة)، عادل عسيران (شيعة).

تحوّلت جلسة مجلس النواب في 7 تشرين الأول 1943 إلى أول عمل تشريعي لتحقيق الاستقلال الوطني. خلال هذه الجلسة أعلن الرئيس رياض الصلح استقلال لبنان الوطني ووحدة أراضيه، والصداقة مع البلدان العربية. وطرح تعديل الدستور وإلغاء البنود التي تعطي الانتداب

الفرنسي حقوقاً وتجيز للفرنسيين التدخل في الشؤون اللبنانية وفرض ما يرتؤونه من مقررات على لبنان، كما طرح تعديل القانون الانتخابي وإلغاء التوزيع الطائفي في الدولة وتطوير مستوى معيشة الشعب.

وقال الرئيس الصلح: «إننا نريد هذا الاستقلال استقلالاً صحيحاً، ونريد سيادتنا الوطنية كاملة، نتصرف بمقدراتنا كما نشاء وكما تقتضي مصلحتنا الوطنيّة دون سواها»، داعياً لـ «تنظيم الاستقلال تنظيماً محكماً»، معتبراً أن «القلوب الوطنية هي خير سياج للوطن»، فالمطلوب «تأليف قلوب جميع اللبنانيين على حب وطنهم». ووعد بـ «إصلاح الدستور اللبناني بحيث يصبح ملائماً كل الملاءمة لمعنى الاستقلال الصحيح».

اللغة العربية ـ قال الصلح ـ ستكون اللغة الرسمية الوحيدة للدولة، سوف نعمل من أجل وحدة الدولة، ونطوّر الإدارات والمحاكم ونحسن التموين الغذائي والتبادل التجاري.

وهو، إلى ذلك، وعد بتطوير السياحة والاصطياف ووسائل النقل وتطوير قضايا المالية، وتشجيع الزراعة، والنضال ضد الغلاء وتنظيم الصحة العامة.

وبعد أن وعد اللبنانيين بتقريب «الساعة التي يمكن فيها إلغاء الطائفية»، مؤكداً بصورة خاصة على التقدم في وقت قريب بتعديل لقانون الانتخاب يضمن تمثيلاً شعبياً حقيقياً، انتقل الصلح إلى تأكيد ضرورة إصدار قوانين تضمن العدالة والمساواة في الحقول كافة. وقال إننا سننشئ وزارة للإعمار، ونجري إحصاء عاماً للسكان، ونعمل لإنشاء نقابة للصحافيين... ونهتم بالحركات الرياضية والشباب، وسوف نعمل لتعزيز العلاقة مع المغتربين اللبنانيين في الخارج، كما سنعير الاهتمام للمعتقلين والمنفيين السياسيين اللبنانيين.

كان خطاب الرئيس رياض الصلح برنامجاً للحكومة الجديدة، حازت بموجبه ثقة مجلس النواب.

إن خطاب رياض الصلح هو في مضمونه كان أول برنامج وطني حكومي لتنظيم لبنان. غير أنه، مع الأسف، لم يتحقق على الإطلاق وخصوصاً ما يتعلق بالإصلاح السياسي والدستوري والإنمائي.

في الجلسة نفسها ألقى النائب رشيد بيضون كلمة طالب فيها بما يلي:

1 ـ أن تتولى الحكومة الاهتمام بالشؤون الاجتماعية لشعبنا، وهو ما كانت تتولّاه سلطات الانتداب الفرنسي.

2 ـ وضع حد لبعض الموظفين العاملين في مكتب الحبوب، ولموقفهم من المزارعين الفقراء.

3 ـ تحسين سلوك الدولة إزاء مزارعي التبغ وعمال الريجي وعموم الفئات الشعبية.

4 ـ تنظيم تموين المواد الغذائية للشعب.

5 ـ إطلاق سراح السجناء السياسيين.

في الحقيقة جاء خطاب رئيس الوزراء والمطالب الاجتماعية والمعيشية التي طرحها رشيد بيضون لتعبر عن المشاعر الوطنية لدى الناس عموماً.

ولقد قام الحزب الشيوعي والحركة الشعبية التي كان في قلبها، بدور بارز وأساسي في مجريات الأحداث، وفي العمل لتركيز أسس دولة الاستقلال ولوضع الوعود موضع التطبيق.

بهذه المناسبة يجب أن نذكر أن الرئيس رياض الصلح كان قد تبرع بمبلغ ألفي ليرة لبنانية لصندوق الدخان لجنود الجيش الأحمر حيث بادرت بهذه الحملة الأميرة إريغ.

في 17 تشرين الأول 1943 صدر في «صوت الشعب» بالأرمنية مقال افتتاحي بعنوان «بيان رياض الصلح واللبنانيون الأرمن».

كتبت في هذه الافتتاحية: «إن من واجب كل أرمني لبناني أن يقرأ البيان باهتمام، ولمرّات عديدة، وهو يهمّ حياة اللبنانيين، والأرمن بشكل

خاص، وعليه يتوقف تطورهم المقبل. اللبنانيون الأرمن إذا لم يتطوّروا بشكل طبيعي مع تطور لبنان يكونون ضد مصالحهم بالذات. كل من يبقى بعيداً عن التطور التاريخي يكون هو الخاسر الأكبر.

هذا هو طريق التطور والازدهار للأرمن اللبنانيين. على هذا النحو بإمكانهم أن يتطوروا ويزدهروا أكثر فأكثر. كذلك فعلى المفكرين الأرمن أن يسيروا على الطريق الآيل إلى التطوّر التاريخي».

من أجل تطوير مؤسسات الطائفة الأرمنية

جاء في عدد 4 تشرين الأول 1943 من «جوغوفورتي تساين» مقال افتتاحيّ لي بعنوان «الانتخابات الشعبية أفضل وسيلة لتطوير مؤسسات الطائفية الأرمنية»، وممّا جاء في هذا المقال:

«ليس من السهل تناسي المأساة التي ورثناها من الماضي وحذفها من ذكرياتنا. ولكن يجب علينا الانتصار عليها، وبإمكاننا الانتصار وتذليل المصاعب عبر اشتراك جماهيرنا الأرمنية في قيادة مؤسسات الطائفة الأرمنية، وأفضل وسيلة لإشراك الجماهير هي تشكيل هيئة شعبية للطائفة الأرمنية في داخل الأحياء ومجلس مركزي للطائفة الأرمنية عبر انتخابات شعبية حسبما جاء في قوانين الطائفة الأرمنية الأرثوذكسية. إن ربط الجروح الملتهبة يجب أن يستبدل بعملية جراحية.

يجب وضع حدٍّ نهائي للمماطلة، وتنفيذ القوانين التي تفرض مشاركة الجماهير في هذه المؤسسات».

فرنسا الديغولية ترفض الاستقلال!

رفض المجلس الفرنسي الحر (فرنسا المحاربة) برئاسة الجنرال ديغول، ومركزه الجزائر، الاعتراف بحق مجلس النواب اللبناني في إجراء تعديلات في الدستور، واعتبره بمثابة إجراء «من جانب واحد».

وهذا يعني رفض الاعتراف بالاستقلال الوطني للبنان، والتمسك بالانتداب الدائم لفرنسا على هذا البلد؛ وبكلمة أخرى، الحفاظ على السيطرة الاستعمارية الفرنسية. غير أن الحكومة اللبنانية رفضت قرار المجلس الوطني الفرنسي من غير تردّد، واعتبرته غير شرعي.

واستمر الفرنسيون في ممارسة شتى أنواع التهديد وبدأوا بتحريك عملائهم من جميع الألوان، ونشأ وضع شديد التأزّم وقابل للانفجار.

لقائي رياض الصلح

في 8 تشرين الثاني دعاني رياض الصلح إلى منزله، وأبلغني أن موسيس دير كالوستيان يهدد السلطة باسم حزب الطاشناق المؤيد لفرنسا. وسألني ما هو موقفنا ورأينا، فأجبته حاسماً: «لا تخافوا أبداً من تهديدات موسيس دير كالوستيان والطاشناك، لأن الشعب الأرمني يؤيدكم». وهكذا كان.

اعتقال الحكومة.. وعاصفة في البلاد

كانت الأجواء حامية أيضاً داخل الحكومة اللبنانية الجديدة حيث كانت مصممة على تحقيق الاستقلال الوطني للبلاد، في حين تشبثت السلطات الفرنسية بعدم الرغبة في التخلّي عن دورها الإمبريالي كدولة منتدبة. ومساء 11 تشرين الثاني 1943 أمر المفوض الفرنسي «هيللو» الجيش الفرنسي باعتقال رئيس الجمهورية المنتخب الشيخ بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح، واعتقل أيضاً أعضاء الحكومة عادل عسيران، سليم تقلا، كميل شمعون ونائب طرابلس المناضل الوطني الكبير عبد الحميد كرامي، كما أمر باعتقال سائر القادة ممن استطاعوا الإفلات من الاعتقال. ولجأ إلى تعليق الدستور وحلّ المجلس النيابي والحكومة، وعين إميل إده رئيساً للجمهورية وكلفه تشكيل حكومة جديدة.

وأعلنت حالة الطوارئ في البلاد ومنع التجوال بعد الساعة السادسة مساء.

كان الجو عاصفاً في أنحاء البلاد كلها. أعلن إضراب عام في سائر الأراضي اللبنانية. وبدأت التظاهرات العارمة في كل مكان، وهُوجمت سيارات النقل العسكرية الفرنسية وأحرقت. ومزقت صور ديغول عن الجدران، دون أن تُمزق صور ستالين الكائنة إلى جانبها. وكان على أحد أسطح الأبنية في شارع اللنبي صورة كبيرة لديغول رماها الجمهور على الأرض.

وساد مناخ من العمل الموحّد من أجل الاستقلال الوطني بين المسيحيين والمسلمين بمشاركة كل التنظيمات الوطنية وبينها الحزب الشيوعي.

لم تأبه الجماهير للأوامر الصادرة بل داستها تحت الأقدام. وانطلقت في اليوم نفسه تظاهرة نسائية احتجاجية كبيرة في بيروت. حاول النواب الدخول إلى مبنى البرلمان لعقد اجتماع، فمنعتهم الجيوش الفرنسية، فاجتمعوا في مكان آخر وعقدوا جلسة سرية قرَّروا فيها عدم الدخول في مفاوضات مع السلطات الفرنسيّة قبل إطلاق سراح جميع المعتقلين، وعودة الحياة الدستورية، وإلغاء جميع المراسيم الصادرة خلال هذه العاصفة. وعينوا حكومة مؤقتة بمشاركة حبيب أبي شهلا والأمير مجيد أرسلان. وفي الجلسة نفسها أقرّ العلم اللبناني. عقدت الحكومة الجديدة جلسة في بلدة بشامون. فشل إميل إده في تشكيل حكومة، فلم يجد مَنْ يوافق على المشاركة في الوزارة التي يسعى لتأليفها.

وأعربت سوريا وسائر البلدان العربية عن استنكارها للإجراءات القمعية للسلطات الفرنسية، وأعلنت تضامنها مع نضال الشعب اللبناني من أجل الاستقلال الوطني. وسارت تظاهرات شعبية كبيرة معادية لفرنسا في القاهرة والقدس وبغداد ودمشق.

«المؤتمر الوطني» لقيادة النضال

ولأجل قيادة النضال الوطني من أجل الاستقلال، شكل «مؤتمر وطني لبناني» وكان بين مؤسسيه مصباح سلام، أحمد الداعوق، عمر بيهم، ميشال فرعون، الدكتور جورج حنا، الرفيق فرج اللّٰه الحلو، تقي الدين الصلح، ألفرد نصر، جورج كرم، إيلي خياط، الرفيق أنطوان تابت، الرفيق أرتين مادويان، محيي الدين نصولي، والرفيق مصطفى العريس.

تألفت الهيئة التأسيسية من 44 عضواً. أما من اقترح عضويتي في الهيئة التأسيسية فهو تقي الدين الصلح حيث قام بزيارتنا في مكتب تحرير «جوغوفورتي تساين». ولا شك أن السبب الأساسي لاشتراكي في هذه اليهئة جاء نتيجة الدعم الذي لقيته من جانب الحزب، وكنت العضو الأرمني الوحيد في المؤتمر.

حاولت القوات الفرنسية اقتحام بشامون لكنها فشلت. وقمعت المتظاهرين في طرابلس بوحشية؛ استخدمت الدبابات؛ سارت الدبابات على أجساد المتظاهرين. وانفجرت النقمة الشعبية في كل أنحاء البلاد ضدّ هذه المجزرة.

وقف اللبنانيون الأرمن بقواهم الأساسية إلى جانب النضال من أجل الاستقلال، وذلك نتيجة لدور حزبنا وبشكل خاص الفرع الأرمني وعمله البنّاء. قادة حزب الطاشناك لم يشتركوا في هذا التحرك ولم يجرأوا حتى على إعلان موافقتهم على هذه الحركة.

بناء على اتفاق مسبق مع البطريركية الأرمنية في انطلياس، توجهت مع وفد من المؤتمر إلى هناك. استقبلنا النائب البطريركي العام اتشاباصيان وتحدث إلى الوفد بكلام قيّم. تكلّم باسم الوفد محيي الدين النصولي فامتدح الشعب الأرمني ومواقفه الوطنية الصحيحة. شارك في الاستقبال الرفيقان يبرم الليزيان وبارور يرتسيان. هذه الزيارة أحدثت صدى كبيراً لدى الرأي العام لمصلحة الأرمن.

المؤتمر يهنئ مادويان

بعدها صدر عن المؤتمر قرار جاء فيه: «يعرب المؤتمر الوطني اللبناني عن شكره للعضو الأرمني في المؤتمر أرتين مادويان للجهود التي بذلها لتعزيز الصداقة الأرمنية العربية»[1].

كانت جلسات المؤتمر تنعقد في منازل صائب سلام، ميشال فرعون، أحمد الداعوق، جورج كرم، وفي منازل أخرى.

وأخذ الوضع يتأزم من يوم إلى يوم ويشتد النضال المعادي للفرنسيين. كانت السلطات الفرنسية في مأزق كبير.

المطامع الإنكليزية

كان الجنرال البريطاني سبيرس يعمل بحيوية بغية إبدال النفوذ الفرنسي بالنفوذ البريطاني على بلادنا، وليس من أجل استقلالنا، مع أنه كان يحاول الظهور بمظهر المؤيد لنا. ووضعت بريطانيا وفرنسا شروطهما لسحب قواتهما من لبنان، ومنها توقيع معاهدة معه، وذلك في محاولة جديدة لفرض انتداب جديد على بلادنا. وأفشل الاتحاد السوڤياتي هذه المحاولة عبر استخدامه حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن الدولي.

في تلك الأيام طلب الاتحاد السوڤياتي من الهيئة الوطنية الفرنسية في المنفى، ومركزها الجزائر، وضع حدٍّ نهائي للأحداث الجارية واحترام المطلب الوطني اللبناني.

في لبنان كما في سوريا وفي بلدان أخرى، اشتد النضال الوطني من أجل الاستقلال وكان يتصاعد ويأخذ طابعاً أكثر حدة، حيث حقق الجيش الأحمر السوڤياتي آنذاك انتصاراً ساحقاً في ستالينغراد على أقوى الجيوش الهتلرية وقام بإبادتها. هذا الانتصار أقنع الشعبين اللبناني

---

(1) «صوت الشعب» بالأرمنية، 20 تشرين الثاني 1943.

والسوري وسائر الشعوب المضطهدة بأن الاتحاد السوفياتي سوف يخرج من الحرب منتصراً؛ إنها الدولة التي تؤيد نضال الشعوب المضطهدة. وحقها في الاستقلال وتدعم نضالها التحرري؛ أما الامبريالية فسوف تخرج ضعيفة، وهي التي تضطهد الشعوب وتحرمها من استقلالها. جاء أوان النضال الجدي ضد الاضطهاد الاستعماري، من أجل الاستقلال الوطني ومن أجل التحرر.

ولا نكشف سراً إذا قلنا إن رياض الصلح وغيره من الزعماء كانوا يتابعون برضى انتصار الجيش الأحمر السوفياتي ويضعون آمالهم العريضة على مجرى التطورات.

الفرنسيون يضطرون للتراجع

الفرنسيون يضطرون لتقديم تنازلات. اجتماع طارئ للمجلس الوطني الفرنسي في الجزائر برئاسة الجنرال ديغول يبحث في الوضع القائم ويقرّر التعجيل في إنهاء الأزمة اللبنانية.

وصل إلى بيروت الجنرال كاترو وبدأ اتصالاته الأولية، برفقة الجنرال سبيرس، والتقى البطريرك الماروني والعديد من الشخصيات الأخرى.

مذكرة الحزب للجنرال كاترو

قدم الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني الرفيق فرج اللّه الحلو مذكرة باسم الحزب إلى الجنرال كاترو في 16 تشرين الثاني 1943. جاء في المذكرة:

«فخامة الجنرال كاترو.

منذ أيام ولبنان مسرح لحوادث جسيمة، ونرى من واجبنا كلبنانيين يحبون وطنهم ويغارون على كرامته وحريته، وكوطنيين يعلمون أن

مصلحة بلادهم مرتبطة بقضية النضال العالمي ضد الهتلرية، أن نطلعكم على حقيقة الموقف.

إن التدابير التي اتخذت بحل المجلس النيابي وتعطيل الحياة الدستورية واعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وغيرهم قد أثارت لدى الشعب اللبناني موجة استنكار لم يعرفها من قبل، فقد كانت طعنة أليمة سدّدت إلى صميم كرامة لبنان الوطنية وحقوقه ولا يعرف أحد لهذه التدابير مثيلاً في التاريخ.

وهذه الإضرابات والتظاهرات القائمة في البلاد، مظهرٌ من مظاهر الاحتجاج والاستنكار، وفورة شعور وطني مهان، وليست من صنع نفر من المحرضين المهيجين، كما يريد بعضهم أن يصورها. ومن ينظر إلى الحوادث نظرة مجرّدة برغبة معالجتها معالجة فعّالة يتحقق دون ريب، من أن المسؤولية الرئيسية فيها تقع قبل كل شيء على عاتق سياسة استعمارية رجعية قديمة لا يريد أصحابها أن يفهموا أن العلاقات بين الشعوب يجب أن تقوم بعد اليوم على أسس جديدة أقرب إلى العدل والمساواة في الحقوق، وهي سياسة لا يتمسك بها كثير من العناصر ذات العقلية الفيشيّة.

إن هذه السياسة فضلاً عن كونها تتجاهل مطامح اللبنانيين الوطنية في التحرر والتقدم، تضر بسمعة الشعب الفرنسي في كل الشرق العربي وتسهل مهمة الذين يريدون جعل لبنان ضحية تطاحن استعماري مخجل يتناسى القائمون به أن حرب الشعوب على الهتلرية لا تزال مستمرة، ولم تصل بعد إلى النصر المنشود.

إننا لا نريد إلقاء بلادنا في مغامرات لا فائدة منها. إننا لا نريد أن تكون بلادنا بؤرة للتناحر الاستعماري ومسرحاً للدسائس بين الطامعين. إنما نريد حريتنا الوطنية واستقلالنا.

وإنه لافتراء ما تزعمه بعض الأوساط، من أن هذه الحركة الوطنية الشعبية التي تشترك فيها الجماهير اللبنانية الواسعة على اختلاف ميولها

وأديانها وعناصرها، تستهدف استبدال نفوذ أجنبي بآخر. فإن جميع الوطنيين الصادقين ليس لهم سوى هدف واحد هو استقلال لبنان وحريته وصون كرامته.

فليس اللبنانيون خصوم الشعب الفرنسي، بل يريدون تبديل سياسة فرنسية معيّنة لا تتفق مع أمانيهم القومية وحقوقهم الوطنية بسياسة جديدة قائمة على احترام حقوقهم وأمانيهم وكرامتهم.

لذلك نحتج على تلك التدابير الشاذة المناقضة لجميع الوعود والعهود والمخالفة لمبادئ الثورة الفرنسية، والمغايرة لروح الحرية التي تغمر صدور ملايين المحاربين الذين يبذلون نفوسهم سخية في سهول أوكرانيا السوفياتية، وفي جبهة إيطاليا، وفي جبال السافوي وغابات بولونيا وفي سماء ألمانيا، ولا ريب أن الشعب الفرنسي بعماله وفلّاحيه وأحراره، الذين يعانون النير النازي ويقاسون فظائع الإرهاب الهتلري ويناضلون لتحرير وطنهم، يقدرون قيمة الحرية وقيمة النضال من أجلها ولو تيسرت لهم وسيلة للتعبير عن رأيهم لاستنكروا معنا هذه التدابير واحتجوا عليها.

ونحن نرى أن هذه التدابير إنما تخدم مآرب الدعاية النازية وتؤثر في سير الحرب وتؤخر تحرير الشعوب من نير الهتلرية. ونعلن أن العلاج الوحيد لحل هذه الأزمة والمحافظة على مستقبل العلاقات بين لبنان وفرنسا، هو في تحقيق مطالب الشعب اللبناني المشروعة التالية:

1 ـ إطلاق سراح جميع المعتقلين؛

2 ـ إعادة الحياة الدستورية؛

3 ـ إلغاء التدابير والقرارات الاستثنائية التي اتخذت بعد تعطيل الدستور، وإبعاد العناصر الرجعية الفيشية من لبنان.

وتفضلوا يا فخامة الجنرال بقبول الاحترامات.

الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني

فرج اللّه الحلو».

ترجمت هذه المذكرة إلى اللغة العربية ووزعت على الشعب اللبناني فكان لها صدى عظيم لدى الوطنيين ولدى الرأي العام.

هدأت الحالة في 17 تشرين الثاني وبدأت الجيوش الفرنسية بالانسحاب من الساحات العامة وأعيدت الاتصالات الهاتفية.

أجرى الجنرال كاترو لقاءات مع ممثلي الطوائف الإسلامية، بينها لقاء مع المفتي وآخر مع أحمد الداعوق.

وفي 22 تشرين الثاني غادر بعض الموظفين الفرنسيين الكبار لبنان واستدعي المفوّض السامي الجنرال «هيللو» وعين مكانه إيف شاتينيو.

الانتصار وتظاهرة الحزب أمام البرلمان

في 22 تشرين الثاني هزت البلاد التظاهرات العارمة... وأطلق سراح جميع المعتقلين السياسيين. وأعيدت الحياة الدستورية إلى البلاد، وأعيدت السلطات إلى مجلس الوزراء وألغي العمل بموجب قانون حالة الطوارئ، وكذلك بالنسبة إلى جميع المراسيم الصادرة خلال فترة تعليق الدستور.

في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم نفسه، وصل رئيس الجمهورية إلى قصر مجلس الوزراء في ساحة البرج، واستقبل وفداً من أعضاء «المؤتمر الوطني اللبناني» يضمّني والرفيق فرج اللّه الحلو، وكانت الجماهير في هذه الأثناء محتشدة أمام القصر احتفالاً بهذا الانتصار.

احتفاء بولادة الاستقلال نظم الحزب في 23 تشرين الثاني تظاهرة كبيرة أمام مجلس النواب توجهت بعدها إلى القصر الحكومي. كان المتظاهرون يحملون يافطات كتب عليها: «يحيا الدستور، يحيا لبنان حراً مستقلاً، تحيا الوحدة الوطنية اللبنانية دفاعاً عن حرية وكرامة لبنان واستقلاله».

في 24 تشرين الثاني عقد «المؤتمر الوطني اللبناني» جلسة في منزل أحمد الداعوق، احتفالاً بالنصر، حضر هذه الجلسة الدكتور يني

كوموشيان وطابوريان، واتصل بنا مكرديش مصرليان وتبرع بمبلغ مالي مهم. وتجدر الملاحظة أن الدكتور ألطونيان الرجل الوطني والتقدمي وقف إلى جانب المؤتمر دون أن يشارك فيه. وحضر الجلسة أيضاً أوهانس أغباشيان.

... ومصيرية بالنسبة إلى الأرمن!

بعنوان: «تحت تأثير الأحداث الأخيرة في لبنان: الطريق الوحيد للعمل الوطني البناء»، كتبت افتتاحية في جريدة «جوغوفورتي تساين» في 28 تشرين الثاني جاء فيها:

«ترتدي الأحداث التي جرت في لبنان معاني تاريخية ومصيرية بالنسبة إلى الأرمن في لبنان وسوريا وفي سائر البلدان العربية. إن موقف الأرمن اللبنانيين من الأحداث الأخيرة، إيجاباً كان أم سلباً، ناتج عن قناعات ومنطلقات حفاظاً منهم على مستقبل الأرمن وأمنهم وتطورهم في هذا البلد.

ونحن الشيوعيين الأرمن نعبر عن ارتياحنا لتعزيز الصداقة بين الشعبين الأرمني والعربي، والجهود التي بذلناها من أجل تعزيزها أعطت ثمارها. ولم يعد في الإمكان المس بالصداقة الأرمنية ـ العربية، الزاخرة بأرحب الآفاق وأجمل الأحلام.

وفي عملنا هذا إنّما نعبِّر عن قناعتنا بأننا نعمل من أجل خير الأرمن في لبنان. إن تعزيز وتطوير الصداقة الأرمنية ـ العربية هما أفضل خدمة لمصالح الشعب الأرمني في وطنه لبنان، وخيره هو خير لنا أيضاً».

استقبال حافل لعبد الحميد كرامي..
وثناء على الشيوعيين والأرمن

في أول كانون الأول 1943 بدأ مجلس النواب أعماله وعقد أولى

جلساته، بحضور عبد الحميد كرامي بعد إطلاق سراحه، وقد كان للشخصية الطرابلسية والقائد الوطني البارز استقبال حافل في انطلياس وفي الأحياء الأرمنية، وبشكل خاص في كمب حاجن وفي الجميزة. وأمام مدخل مجلس النواب ألقى الرفيق فرج اللّه الحلو والنائب صائب سلام والأستاذ إميل لحود كلمات ترحيب بعبد الحميد كرامي.

وأقام المؤتمر الوطني مساء ذلك اليوم حفل استقبال في منزل ميشال فرعون تكريماً لعبد الحميد كرامي، وقمت خلال الحفلة بإلقاء كلمة ترحيبية باسم الشعب الأرمني أجاب عليها كرامي بالقول: «لقد تأثرت كثيراً للاستقبال الذي خصّني به الشعب الأرمني أثناء قدومي إلى بيروت» وقيّم بإيجابية نضال الأرمن في السنوات الماضية من أجل الحرية. وأعلن أن استقلال لبنان هو لخير الأرمن أيضاً.

وبعد نهاية الاحتفال وأثناء وداع الرفيقين فرج اللّه الحلو ومصطفى العريس له قال عبد الحميد كرامي موجهاً كلامه لمن حوله من الناس: «لن أنسى أبداً الشعور الطيب الذي أحاطني به الشيوعيون. حقاً إنهم، قبل كل شيء، وطنيون» .

ودعا المؤتمر الوطني إلى حفل غداء في أوتيل النورماندي تكريماً لعبد الحميد كرامي بحضور جميع أعضاء المؤتمر فضلاً عن عدد كبير من الشخصيات الوطنية والسياسية. وألقى الرفيق فرج اللّه الحلو كلمة، وتحدث محيي الدين النصولي باسم المؤتمر محيّياً وطنية الشيوعيين الصلبة وانضباطيّتهم ودورهم في النضال الوطني. وتطرق إلى الحرب العالمية وقال: لولا وجود الاتحاد السوفياتي لما كان باستطاعتنا التجمع هنا ولما كان لنا جمهورية ولا استقلال.

وقوبلت كلمة النصولي هذه بالتصفيق الحار.

ذكر أرمينيا السوفياتية

في 23 كانون الأول 1943 جرى احتفال بالذكرى الثالثة والعشرين

لأرمينيا السوفياتية في قاعة سينما «ريالتو» تحت وهج أجواء الاستقلال وبحضور حشد كبير.

قامت بتنظيم هذا الاحتفال جمعية أصدقاء أرمينيا السوفياتية برعاية وحضور رئيس الوزراء رياض الصلح. تحول المهرجان إلى تظاهرة كبيرة للصداقة الأرمنية ـ العربية، وقد حضرت المهرجان شخصيات سياسية وطنية وقادة الحزب الشيوعي من عرب وأرمن، وكذلك أعضاء المؤتمر الوطني اللبناني منهم الدكتور خالد، الدكتور جورج حنا، نقولا بطرس، ايلي خياط، ووفد من قيادة حزب الطاشناك برئاسة غارو ساسوني، والعديد من الوفود والشخصيات الأخرى.

افتتح المهرجان الرفيق يبرم الليزيان، وألقى الكلمة الأولى رئيس جمعية أصدقاء أرمينيا السوفياتية هرانت دفرجيان، تلاه البروفسور باروناك طوماسيان والرفيقان أرتين مادويان وأوهانس أغباشيان، وقد ألقى هذا الأخير كلمته باللغة العربية.

رياض الصلح يحيّي حكومة يريڤان

ثم رغب الرئيس رياض الصلح في إلقاء كلمة في هذا المهرجان. رافقته إلى المنبر حيث ضجت القاعة بالهتاف والتصفيق، حيا الصلح الشعب الأرمني بكلمة استقبلها الحشد بحماسة وحرارة. ومما جاء في كلمته:

أنا مسرور جداً وأشكر كل الذين نظموا هذا الاحتفال ومنحوني شرف التحدث إليكم بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثالثة والعشرين لتأسيس أرمينيا السوفياتية. لقد تعرفت إلى الأرمن، وهم يخوضون النضال من أجل الحرية والاستقلال، على طريق المنفى، على حبال المشنقة... هم كانوا معنا ويعتبرون منا وهم أحد المداميك الأساسية لتكوين وطننا لبنان.

وفي ختام كلمته قال الرئيس رياض الصلح:

باسم جميع الحاضرين في هذا الاحتفال أرسل أفضل تمنياتي إلى حكومة يريڤان.

انتهى الاحتفال ببرنامج فني قدمته فرقة تشسكينوف المؤلفة من أفضل فناني المدينة.

... وفي حلب بحضور الأحزاب الأرمنية

وأقيم احتفال أيضاً في مدينة حلب بالذكرى الـ 23 لتأسيس أرمينيا السوڤياتية، وذلك في مدرسة «ميسيون لاييك» بحضور أكثر من 3500 شخص. أقامت هذا الاحتفال جمعية أصدقاء أرمينيا السوڤياتية في حلب وقد شاركت فيه جميع الأطراف الأرمنية تحت شعار الوحدة الوطنية، وكان الدكتور روبير جبيدجيان عريف الاحتفال وألقى كلمة حزب الهانشاك يراونت بابايان، وكلمة حزب الرمغافار اديس شاكليان، وباسم الطاشناك مهران هيدارديان، وأنهى هذا الأخير كلمته قائلاً: «يعيش الجيش الأحمر العظيم»، و«تحيا أرمينيا السوڤياتية»، و«كانت أمنيتنا دائماً أن لا نرى أحداً ينتصر في هذه الحرب على روسيا».

وكانت كلمة الختام للرفيق هارتيون ماخيان. وانتهى المهرجان بالموافقة الجماعية على التوصية التالية: «إن الأرمن السوريين جاهزون دائماً إلى جانب إخوانهم العرب للنضال من أجل تحقيق الاستقلال الكامل لسوريا».

وقد أرسلت هذه التوصية إلى رئيس الوزارة السورية آنذاك سعد اللّه الجابري.

محاولة فرنسية للحفاظ على الوصاية

حاول الفرنسيون خلال المفاوضات مع لبنان وسوريا رفض تسليم الجمارك والخدمات العامة. وتصرفوا كأوصياء. ولكن رئيس الوزراء

اللبناني رياض الصلح ورئيس الوزراء السوري سعد اللّه الجابري أعلنا بوضوح: «نحن نرفض دور الوصي وجميع الاقتراحات الفرنسية». وفي النهاية سُلمت إلى لبنان وسوريا جميع الخدمات الاجتماعية. وبدأ مجلس النواب اللبناني البحث بتشكيل الجندرمة الوطنية، وبكلمة أخرى تنظيم الجيش الوطني، الذي كان في تلك الفترة تحت أمرة القيادة الفرنسية.

تعييني عضواً في مجلس نقابة الصحافة

بقرار من رئيس الوزراء رياض الصلح شكل مجلس نقابة الصحافة في 26 كانون الأول، وعين أعضاؤه من السادة: محيي الدين النصولي، جبران تويني، رامز سركيس، جورج نقاش وأرتين مادويان.

إلى المؤتمر الأول للحزب

تقرر عقد المؤتمر الأول للحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري في بيروت ابتداء من 31 كانون الأول 1943 حتى 2 كانون الثاني 1944.

أما جدول أعمال المؤتمر فهو على الوجه الآتي:

1 ـ السياسة الوطنية للحزب الشيوعي اللبناني والسوري، الوضع الدولي، الوضع الداخلي في ظل المتغيرات الداخلية، الموقف بعد حل الأممية الشيوعية، والميثاق الوطني للحزب.

2 ـ حول الوضع التنظيمي للحزب، والتعديلات المقترحة على النظام الداخلي: ألقى التقرير فرج اللّه الحلو.

3 ـ انتخاب لجنة مركزية للحزب: ألقى التقرير رشاد عيسى.

حول مهمات المؤتمر كتبت مقالاً افتتاحياً بجريدة «جوغوفورتي تساين» جاء فيه: «سوف يرتكز المؤتمر على التجربة الغنية للنضالات الوطنية التي خاضتها الجماهير الشعبية الواسعة، من أجل تحويل الحزب إلى قوة جماهيرية كبيرة للنضال التحرري الوطني.

إن الحزب الشيوعي هو حزب من أجل التحرر الوطني قبل أن يكون حزباً من أجل إصلاحات اجتماعية. أمامنا مراحل مهمة من أجل الوصول إلى الاستقلال الحقيقي للبنان وسوريا، ومن أجل سعادة شعبينا. ومن أجل الوصول إلى المراحل الوطنية اللاحقة فإن من المهمات الآنيّة لمؤتمر الحزب الشيوعي دراسة وإصدار الميثاق الوطني للحزب، حيث سوف يكون ميثاقاً وطنياً للبنان ولسوريا من أجل تحقيق الاستقلال الكامل والتحرر الكلي من التأثيرات الخارجية».

شعار للمرة الأولى: «وطن حرّ وشعب سعيد»

انعقد المؤتمر الوطني الأول للحزب الشيوعي اللبناني والسوري في بيروت من 31 كانون الأول 1943 حتى 2 كانون الثاني 1944، في قاعة مدرسة مار الياس للروم الأرثوذكس في المصيطبة ببيروت.

شارك في المؤتمر 165 مندوباً عربياً و25 مندوباً أرمنياً، يمثلون سبعة آلاف شيوعي منظم في لبنان وسوريا و50 منظمة حزبية للحزب الشيوعي. كنت أحد المندوبين المنتخبين للمؤتمر وأحد أعضاء اللجنة السياسية.

افتتح المؤتمر الرفيق نقولا شاوي، حيث أطلق للمرة الأولى في البلاد وفي تاريخ الحزب شعار «وطن حر وشعب سعيد». هذا الشعار تبنته أيضاً أحزاب وطنية تقدمية أخرى.

وألقى خالد بكداش تقرير اللجنة المركزية أمام المؤتمر وشرح سياسة الحزب الوطنية وأهدافه وميثاقه الوطني.

وألقى فرج الله الحلو التقرير التنظيمي وشدد على أهمية وضرورة إجراء تعديلات في داخل الحياة التنظيمية وإدخال تعديلات في النظام الداخلي.

بعد المناقشة وافق المؤتمر بالإجماع على التقريرين اللذين قدمهما

خالد بكداش وفرج اللّه الحلو، وعلى الميثاق الوطني للحزب والنظام الداخلي الجديد. وانتخب أعضاء اللجنة المركزية، وهم: خالد بكداش، فرج اللّه الحلو، نقولا شاوي، رشاد عيسى، طنوس دياب، مصطفى العريس، عبد القادر إسماعيل، يوسف خطّار الحلو، مير مسعد، عبدالجليل سيرس، فوزي شلق، أرتين مادويان، أوهانس اغباشيان، هارتيون ماخيان.

وانتُخب كأعضاء مرشحين في اللجنة المركزية كل من حسن قريطم، سلام الراسي وخورشيد صليبا.

وانتخب خالد بكداش رئيساً للحزب الشيوعي السوري وفرج اللّه الحلو رئيساً للحزب الشيوعي اللبناني، كنت أحد أعضاء رئاسة المؤتمر وكان المندوب العمالي في المؤتمر من بيروت الرفيق بوغوص ناتريان والرفيق حسين عاقو من دمشق.

وقد شارك في جلسات المؤتمر كمستمعين العديد من الشخصيات النيابية والسياسية والأدباء ومن أعضاء المؤتمر الوطني اللبناني، وصحافيون وشخصيات معروفة من المثقفين والتجار والعمال، وأيضاً النائب هراتش شامليان والدكتور ليفون ألطونيان. وفي يوم انتهاء المؤتمر دعت منظمة الحزب في بيروت إلى حفلة شاي بعد الظهر في مقهى الليدو في بيروت على شرف المؤتمر. حضر إلى جانب المندوبين شخصيات من أعضاء المؤتمر الوطني اللبناني، منهم ميشال فرعون، الدكتور حسن إدريس، محمد علي بيهم، نقولا بسترس.

وقد حضر الجلسة الختامية للمؤتمر نائب رئيس مجلس الوزراء السيد حبيب أبي شهلا.

وبعث المؤتمر ببرقيتين إلى رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري ورئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي.

وصادق المؤتمر على القرار الصادر عن الحزب بالموافقة على حل الأممية الشيوعية «الكومنترن».

ووافق المؤتمر بالإجماع على تسمية الحزب في لبنان باسم الحزب الشيوعي اللبناني فحسب، وتسمية الحزب في سوريا باسم الحزب الشيوعي السوري.

وافقت اللجنة المركزية على أن كلاً من الحزبين يقرّر خطه السياسي على الصعيد الداخلي لكل من البلدين.

قرر المؤتمر اعتبار العلم اللبناني والنشيد الوطني اللبناني علم ونشيد الحزب الشيوعي اللبناني. والعلم السوري والنشيد الوطني السوري هما علم ونشيد الحزب الشيوعي السوري.

الميثاق الوطني للحزب الشيوعي اللبناني

أما أسس ومطالب الميثاق الوطني الذي أقره الحزب، فهي:

1 ـ استقلال لبنان وسيادته وتعزيز كيانه وتحريره الوطني الكامل.

2 ـ نظام ديموقراطي صحيح.

3 ـ توثيق صلات التضامن الأخوي بين لبنان وسوريا وبقية الأقطار العربية وتوطيد الروابط الاقتصادية والثقافية بينه وبينها.

4 ـ المساواة بين جميع اللبنانيين على اختلاف أديانهم وعناصرهم وتمتين روابط الإخاء والتضامن بينهم.

5 ـ بسط السيادة الوطنية على المؤسسات المالية والصناعية والتجارية الأجنبية.

6 ـ تأمين الحريات الديموقراطية العامة والفردية وفي مقدمتها حرية المعتقد والكلام والصحافة والنشر والاجتماع والجمعيات والأحزاب والنقابات وحرية العبادة واحترام عقائد الناس الدينية.

7 ـ تنظيم شؤون الإدارة والقضاء بروح ديموقراطية صحيحة والسهر على تسهيل مصالح المواطنين ونشر العدل بين الجميع.

8 ـ تربية النشء تربية وطنية والعناية بالشباب وتشجيع الرياضة البدنية وتعميمها ونشر الثقافة في البلاد وإحياء التراث الفكري القومي.

9 ـ تعزيز مكانة رجال الفكر والعلم والفن وحماية الأساتذة والمعلمين.

10 ـ تعميم المدارس الرسمية في المدن والقرى وتوحيد برامج التعليم بروح وطنية ديموقراطية، وجعل التعليم الابتدائي مجانياً إجبارياً.

11 ـ العناية بالصحة العامة وضمانة المعالجة والمداواة مجاناً للمواطنين المعوزين.

12 ـ حماية العائلة اللبنانية من أخطار البؤس والجهل ورفع مستوى المرأة والعناية بصحة الأم والطفل.

13 ـ رفع مستوى البلاد الاقتصادي وتنشيط التجارة وترقية الزراعة وتعميم الري وحماية المشاريع الصناعية الوطنية وتشجيع الاصطياف وتحسين المواصلات .

14 ـ حماية صغار المنتجين في المدينة والقرية ومساعدتهم.

15 ـ معالجة البطالة ومكافحة البؤس والفقر وتأمين معيشة الشعب.

16 ـ حماية العمال بوضع تشريع للعمل يحفظ حقوقهم ويسوّي العلاقات بينهم وبين أصحاب العمل على أساس العدل والمصلحة الوطنية.

17 ـ العناية بحالة الفلاح اللبناني وتحريره من البؤس والجهل والتأخر.

18 ـ رفع مستوى الموظفين والمستخدمين وتعزيز شأن المهن الحرة.

19 ـ توزيع الضرائب توزيعاً عادلاً بين المكلفين وتخفيف العبء عن صغار التجار وصغار المنتجين بوجه عام.

نجاح جماهيريّ.. لكننا «نسينا» الاشتراكية!

انضم إلى صفوف الحزب بعد المؤتمر، وبشكل خاص بعد إقرار الميثاق الوطني للحزب، أفواج كبيرة من المثقفين والطلاب وفئات

واسعة من العمال والفلاحين ومن المنتمين إلى كل الأوساط الشعبية. بهذه المناسبة توجه الدكتور جورج حنّا برسالة إلى الرفيق فرج اللّه الحلو يُعرب فيها عن رغبته في الانضمام إلى صفوف الحزب «بعد حل الأمميّة الشيوعية وإقرار الميثاق الوطني للحزب».

الميثاق الوطني الجديد للحزب هو بحد ذاته برنامج نضالي وحدث تاريخي مهم على الصعيد الوطني، وقد أعطى زخماً للحزب إلى الأمام سياسياً وتنظيمياً محوّلاً إياه إلى تنظيم جماهيري. ولكن عندما يطالعه القارئ باهتمام ودقة يلاحظ غياب فكرة الاشتراكية في هذا الميثاق، وتشُوبُه ميول للتنازل أمام البورجوازية وموقف يميني وروح إصلاحية.

صحيح أن ما طرحه الميثاق كان ضرورة سياسيّة في فترة استمرار النضال الوطني لتحرير البلاد من الجيوش الأجنبية والوصاية، وأن الوضع الداخلي كان يتطلب الحفاظ على وحدة كل القوى الوطنية في النضال السياسي، وبشكل خاص مراعاة البورجوازية المنتجة، إذ كان من الضروري أخذ وضعها في الاعتبار ضمن خطنا السياسي وفي شعاراتنا وفي تكتيكنا اليومي، وعدم تخويف البورجوازية المنتجة... وصحيح أيضاً أن تحقيق الاشتراكية لم يكن بالأمر المطروح كمهمة آنية أو في مرحلة قريبة... ولكن، مع كل هذا فليس صحيحاً تناسي الاشتراكية كلياً في ميثاقنا الوطني وفي إعلامنا، حيث أننا، عملياً، تنازلنا عن سلاح تعبوي في العمل اليومي وبشكل خاص داخل الطبقة العاملة وبين الجماهير الكادحة وفي صفوف المثقفين والشباب.

إن عدم ذكر الاشتراكية في الميثاق قد حرمهم التفكير باتجاه الاشتراكية والعمل من أجلها. هذا التوجه كان، عملياً، انحرافاً يمينياً وقد استمر هكذا لفترة ولا سيّما في سوريا. هذا مع العلم بأن حزبنا لم يتوقف في تلك الفترة وبعدها، عن النضال من أجل الاشتراكية. وفي كل حال فإن الاشتراكية ليست فكرة جامدة بل يمكن تطبيقها سياسياً

واجتماعياً بناء على تحليل علمي للواقع، وعلى هذا الأساس تتخذ المواقف وتوضع المهمات الآيلة إلى تحقيقها.

لم يكن هذا الانحراف اليميني من غير أسباب وخلفيات، حيث أن بعض أعضاء المكتب السياسي كانوا قد طرحوا في اجتماعات المكتب، وقبل انعقاد مؤتمر الحزب، تغيير اسم الحزب الشيوعي وتسميته «الحزب الاشتراكي». برز هذا الطرح عندما كان الحزب في طريق الصعود، وقد قوبل هذا الرأي برفض إجماعي لكن كان هناك استعداد لميول يمينية. يجب أن نعترف بأن أحداً من قيادة الحزب لم يتنبّه لذلك في حينه، نظراً للأجواء المسيطرة. أما بعد انعقاد المؤتمر فعلى الرغم من الدفع الكبير الذي شهده الحزب في صفوف الحركة العمالية والشغيلة، فقد لوحظ نوع من التراخي لجهة نشر المفهوم الاشتراكي والوعي الطبقي. ولا شك أن هذا الأمر كان نتيجة للانحراف اليميني الذي ذكرنا.

«الميثاق الوطني للحزب الشيوعي والطبقة العاملة»

تحت هذا العنوان كتبت مقالاً في «صوت الشعب» الأرمنية جاء فيه:

«يعطي الميثاق الوطني للحزب الشيوعي دفعاً للقوى الوطنية القائمة على الساحة اللبنانية ويدفعها إلى الأمام، وهذه القوى الوطنية توفر إمكانيات أفضل للطبقة العاملة من أجل الدفاع عن حقوقها. والدليل على ذلك، ما نراه يتحقق كل يوم، كحصول عمال ومستخدمي سكة الحديد وعمال الريجي وقطاعات أخرى على الترخيص بتنظيم اتحاداتهم النقابية».

الحزب الشيوعي والقضايا الأرمنية

أقيم في قاعة مدرسة ساحقيان الأرمنية مهرجان كبير بمناسبة صدور الميثاق الوطني للحزب. إلى جانب الخطباء الأرمن ألقى الرفيق فرج اللّه

الحلو كلمة موجهة إلى الأرمن، ومما قاله إن لبنان هو حق للأرمن شأنهم شأن العرب، فيقومون بمهماتهم الوطنية التحررية؛ كل قضية لبنانية قضية أرمنية، وكل قضية أرمنية هي قضية لبنان. إن الحزب الشيوعي لا يتجاهل القضايا ذات الطابع الأرمني، كما أننا لم نفكر في أي مرة في التدخل في هذه القضايا التي تخص الأرمن، وإنما نعتبرها قضايا داخلية تخص الأرمن فقط[1].

... والصلات مع الطاشناك

بعد انتصار الجيش الأحمر في ستالينغراد، وأيضاً بعد حصول سوريا ولبنان على الاستقلال، أظهرت قيادة الطاشناك في سوريا ولبنان منهجاً جديداً فبدأت بالتقرب وإنشاء صلات مع الحزب الشيوعي. وفي احتفال جرى في حلب بمناسبة ذكرى تأسيس أرمينيا السوفياتية، ألقى ممثل الطاشناك مهران هيرارديان كلمة في الحاضرين. كما حضر غارو ساسوني على رأس وفد من الطاشناك احتفالاً جرى في بيروت بمناسبة تأسيس أرمينيا السوفياتية، وكذلك بالنسبة إلى مهرجان أقامه الأرمن بمناسبة صدور الميثاق الوطني. وفي لقاء ودي مع غارو ساسوني أبلغني عن رغبة روبين «باشا» ديرميناسيان في التقائي شخصياً، وكان هذا موجوداً في ذلك الوقت في فلسطين ولا يسمح له الإنكليز بالخروج منها. وكانت لقيادة الهنشاك علاقة ودية مع الطاشناك في ذلك الوقت.

وفي هذا السياق، كان مكرديش مصرليان قائد حزب الرمغافار والرجل الوطني وصديقي الشخصي، يتولى بالاعتماد على قوتنا الحزبية إقامة صلات ومفاوضات مع الطاشناك ومع شخصيات وطنية أرمنية بغية إعادة تنظيم المؤسسات الوطنية الأرمنية. وكان مصرليان يرتكز، خلال محادثاته، على قدراتنا الجماهيرية وكان يثمر هذه المباحثات مجيّراً إياها

---

(1) «صوت الشعب» بالأرمنية، 10 شباط 1944.

لمصلحة حزبه، دون أن يشاركنا في التباحث والحوار، وقد جعلنا بعيدين عن نتائج تلك المفاوضات. وفي نهاية المطاف وانسجاماً مع حزبه كان مكرديش مصرليان يعمل من أجل توفير مواقع قيادية لحزبه، مرتكزاً على الأصدقاء؛ ولم يكن ممكناً أن نوافق على هذا المنحى الذي سلكه.

لم يكن لدينا، رغم تأثير تلك الظروف، أي شك في دجل حزب الطاشناك وأهدافه الحقيقية في إطار تبدل الأوضاع السياسية. كنا نعرف مسبقاً أنهم سيغيّرون موقفهم عندما تتغيّر الأوضاع، ومع ذلك فقد قرر حزبنا الموافقة على إقامة الصلات مع الطاشناك، وكلفني الحزب مع خالد بكداش القيام بهذا العمل. في هذا الإطار جرى اللقاء الأول مع غارو ساسوني في أوتيل لوكس.

كان هدف الحزب الإفادة من الوضع السياسي الناشئ آنذاك بغية توحيد كل فئات الشعب الأرمني في لبنان إلى جانب الاتحاد السوفياتي وأرمينيا السوفياتية ضد الفاشية والهتلرية، من أجل الوقوف إلى جانب تعزيز استقلال لبنان وسوريا وسعياً لتوفير الظروف لإعادة تنظيم المجالس الوطنية الأرمنية على أسس سليمة تضمن مشاركة جميع الفئات الأرمنية بمن فيهم نحن. وكان هدفنا خلق مناخ أمام هؤلاء الوطنيين المنساقين بدعاية الطاشناك إلى التوجه الصحيح.

لم تخطئ حساباتنا، وقام مناخ مؤيد لأرمينيا السوفياتية والاتحاد السوفياتي، وداعم لاستقلال لبنان وسوريا، وأعيد تنظيم المجالس الملّية لكنائس الأرمن الأرثوذكس في لبنان، والمجلس العام والهيئة المركزية لبطريركية كيليكيا للأرمن الأرثوذكس. وقد شارك حزبنا بالتساوي مع الفئات الأرمنية الأخرى في هذه الهيئات كلّها.

وأخذت عمليّة تسجيل أسماء الراغبين في العودة إلى الوطن أرمينيا السوفياتية، طابعاً قومياً أرمنياً شاملاً وشارك في هذا التسجيل تسعون بالمئة من الأرمن في لبنان وسوريا.

وكان لهذا الحدث الكبير معنى سياسي بالغ الأهميّة.

ولكن يجب أن نعترف أن حزبنا اتخذ في تلك الأيام موقفاً ركيكاً وخاطئاً في هذا المجال، بشكل خاص بقيادة خالد بكداش. ويكمن جانب الضعف في أننا لم نحاول، رغم ما أتيح لنا من ظروف مناسبة، حثّ الطاشناك وقيادتهم الموجودة هنا على إدانة قيادة الطاشناك المركزية الموجودة في برلين في خدمة هتلر. وبشكل خاص فقد كان مسؤول الطاشناك ترو مع قادة آخرين يقاتلون الاتحاد السوڤياتي تحت لواء هتلر، وهذا يعني أنهم يقاتلون أيضاً أرمينيا السوڤياتية.

أما الخطأ الثاني الذي ارتكبه خالد بكداش، فهو أنه في 27 شباط 1944 أعلن في خطاب باللغة الفرنسية ألقاه في فندق النورماندي بحضور قيادة الطاشناك وشخصيات أخرى، بمناسبة إعلان الميثاق الوطني للحزب، أن «بين الأرمن يوجد حزبان، الحزب الشيوعي وحزب الطاشناك». فلا شك أن وجهة النظر هذه تشكل إهانة واستفزازاً لحزبي الهنشاك والرمغافار. فمهما تكن الخلافات في وجهات النظر بيننا وبين هذين الحزبين فإنهما يبقيان حليفين دائمين لنا في الجبهة الوطنية، حتى في مواجهة الطاشناك. وكان حزبا الهنشاك والرمغافار من الحلفاء الأساسيين في جميع الأحوال، سواء كان حزب الطاشناك متعاوناً معنا أم عاد إلى مواقعه العدائية. وبالفعل ففي وقت لاحق عاد حزب الطاشناك إلى مواقعه العدائية لحزبنا ونحن شكلنا جبهة وطنية موحّدة معادية للطاشناك مع حزبي الهنشاك والرمغافار.

مطرانية الأرمن: تبرّعوا للدبابات السوڤياتية!

صدر عن مطرانية الأرمن الأرثوذكس البيان التالي: «قرَّرت مطرانية الأرمن الأرثوذكس في لبنان، بعد الاتصال بالقيادات الروحية للطوائف الأرمنية الأخرى، تشكيل لجنة وطنية لعموم الأرمن في لبنان لجمع التبرعات لصندوق فرقة مدرعات «تساسون تسي ثافيت»، وشكلت هيئة

مركزية مؤلفة من الأب بوغوص أريس والسادة دكران زافزاقاشيان، بارسيخ توبوزيان، المهندس إيلي خياط، أرتين مادويان، تاكور بالانضجيان، ميناك كاسبار، مكرديش مصرليان، هرانت دفدجيان، أونيك تشيركزيان، هايك باليان، الدكتور ارام بغداساريان، هاكوب بزجيان الدكتور كاراكين فارطابديان، نيشان دمرجيان، أونيك جامبوليان.

عقدت اللجنة اجتماعها الأول في 20 آذار 1944، بعد الظهر في دار المطرانية الأرمنية. رأس الاجتماع النائب البطريركي للأرمن الأرثوذكس الأسقف أردافست سيرمليان.

وقد بدأت اللجنة ممارسة أعمالها على صعيد الحملة.

بيروت، 18 آذار 1944[1].

وعقد في 2 نيسان اجتماع في نادي زاريه نوبار بمشاركة لجان الأحياء وسائر الأطراف المشاركة في حملة جمع التبرعات لتمويل قوات «ساسون تسي ثافيت».

في مساء اليوم نفسه أقيمت حفلة شاي في نادي زاريه نوبار بحضور مئتين من الشخصيات والمناضلين البارزين، وافتتحت حملة التبرعات في جو حماسي وقد جمع ثلاثون ألف ليرة لبنانية.

حضر اللقاء المطران آشاباهيان والمطران أردافست سيرماليان والمطران باتانيان والأب غوكوزيان، وممثلون عن جميع الأطراف، وقد تكلم في الحاضرين السادة هرانت دمرجيان رئيس جمعية أصدقاء أرمينيا السوفياتية، بنيامين جامكوشيان (هنشاك)، أرتين مادويان (شيوعي)، غارو ساسوني (طاشناك)، باروناك توفماسيان (رمغافار). وألقى الكلمة الأخيرة أمين سر اللجنة مكرديش مصرليان.

أشاد المتكلمون بأرمينيا السوفياتية وحاميتها روسيا السوفياتية وبالانتصارات العظيمة التي حققها ويحققها الجيش الأحمر.

---

(1) المصدر السابق، 20 آذار 1944.

افتتح حملة التبرعات المطران أرداڤست فتبرع بـ 500 ليرة والقس باتانيان 500 ليرة والقس غوكوزيان 100 ليرة.

وأسهم الكثيرون، بمبالغ مختلفة. ووجّه المطران اشاباهيان شكره لجمعية أصدقاء أرمينيا السوڤياتية التي شرعت في جمع التبرعات للهدف نفسه، واعتبر هذه التبرعات استمراراً لتلك الحملة.

وقد جُمع في حلب 20101 ليرة و35 قرشاً، وفي دمشق 6516 ليرة، في اللاذقية 633.50 ليرة، وقامت بجمع هذه التبرعات جمعية أصدقاء أرمينيا السوڤياتية. وسلمت المبالغ إلى المطران اشاباهيان وبدوره أرسلها إلى سفير الاتحاد السوڤياتي في القاهرة نوڤيكوف. أما الأموال الباقية التي جمعت من بيروت ومقدارها 4400 ليرة فقد أرسلت إلى سفير الاتحاد السوڤياتي في طهران. («جوغوفورتي تساين»، 5 و17 نيسان 1944).

وقامت في 7 أيار حملة تبرعات في برج حمود لمصلحة «ساسون تسي تاڤيت»، خلال لقاء جرى في باحة كنيسة مرعش.

افتتح التبرعات الخوري هارتيون كبنليان وتكلم في الحفل الأب بوغوص أريس، الأب هاسيسان، أرتين مادويان، موشيغ أشخان، بغدسار داراكشيان ومهران سيفريان. وجُمع في هذا اللقاء عشرة آلاف ليرة لبنانية.

واستمرت حملة التبرعات في الأحياء الأرمنية، ووصلت قيمة التبرعات خلال شهر حزيران إلى مئة ألف ليرة لبنانية.

بمناسبة استئناف حملة التبرعات كتبت مقالاً افتتاحياً في جريدة «جوغوفورتي تساين» في 15 نيسان 1944 بعنوان (حملة تبرعات ساسون تسي تاڤيت أخذت طابعاً قومياً). مما جاء فيه: «لقد جمع 45 ألف ليرة لبنانية وتستمر الحملة لتمويل فرقة مدرعات (ساسون تسي تاڤيت). بالإضافة إلى الأهمية المالية لهذا العمل فإنّه يرتدي أيضاً أهمية معنوية. بمساهمتنا في التبرع نعبر عن مشاركتنا في جهود إخواننا في أرمينيا،

ونكون قد عبرنا عن وعينا الوطني. هذه التبرعات كانت إحدى وسائل التعبير الوطنية للأرمن، ولوحدتهم تحت لواء واحد.

لقد توحدت الأمة الأرمنية خلال هذه الحملة. فلترسخ في نفوسنا روح الوحدة ولتستمر التبرعات لساسون تسي تاڤيت، ولتكن شكلاً من أشكال التعبير عن محبتنا لأرمينيا السوڤياتية. علينا دائماً تعزيز الوحدة الأرمنية في لبنان خدمة لأرمينيا ومن أجل تعزيز استقلال وطننا لبنان وازدهاره».

المطالبة بانتخاب المجلس الملّي الأرمني

في 19 نيسان 1944 كتبت مقالاً افتتاحياً في جريدة «صوت الشعب» الأرمنية طالبتُ فيه بإجراء انتخاب في لبنان للمجلس الملّي لطائفة الأرمن الأرثوذكس، حيث كانت تؤجَّل بشكل دائم.

كتبت بهذه المناسبة: «لقد صرح المسؤولون في الأحزاب الأرمنية خلال اتصالاتنا معهم، بأنهم لا يختلفون معنا حول ضرورة انتخاب المجلس الملي الأرمني وحول تركيبته. إذن، لماذا يرجئون على الدوام هذه الانتخابات؟؟».

لبنان يعلن الحرب

أعلن مجلس النواب اللبناني، في اجتماع استثنائي، الحرب على المحور وأعلن انضمامه إلى الحلفاء، كما قرر إقامة علاقات دبلوماسية وتبادل ممثلين مع الاتحاد السوڤياتي (قدم هذا الاقتراح النائب غبرييل المر والنائب أشقر). واقترح النائب جورج عقل إدانة مبدأ تأسيس وطن يهودي في فلسطين. أيد هذا الاقتراح رياض الصلح وأضاف قائلاً: «هذا يشكل خطراً على لبنان وعلينا الوقوف بكل قدراتنا إلى جانب فلسطين العربية».

تحية ستالين للمغتربين الأرمن

«إلى سيادة النائب البطريركي العام للأرمن الأرثوذكس في لبنان المطران أتشاباهيان:

جواباً على برقيتكم الثانية تلقينا من الماريشال الكبير ستالين البرقية التالية: (أرجو أن تبلغوا تحياتي وشكر الجيش الأحمر للمغتربين الأرمن وذلك لتوفيرهم الإمكانيات لتشكيل القوات المدرعة الثانية لساسون تسي تاڤيت).

إيشميازين ـ نيابة عن البطريرك تشوركجيان»[1].

لقد شهدتُ عملاً تخريبياً ضد البرلمان

بمناسة قدوم النائب الزغرتاوي يوسف كرم، المنتخب حديثاً، إلى بيروت لحضور جلسة مجلس النواب، قام الرجعيون بعملية تخريبية بتوجيه ومشاركة عملاء فرنسا. فقد شنوا هجوماً على المجلس النيابي عندما كان النواب مجتمعين بحضور وفد فرنسي.

أطلق المخربون نيرانهم على مجلس النواب وحاولوا تعليق علم لبنان القديم على مدخل المجلس، والعلم المذكور كان عبارة عن علم فرنسا مع أرزة في وسطه. على أن حراس المجلس قتلوا الرجل الذي حاول تعليق العلم. وأخذ العلم «المثلث الألوان» إلى داخل مبنى البرلمان وديس بالأقدام.

ما حدث كان تظاهرة ضد الاستقلال نظّمتها فئات مرتبطة بفرنسا والرجعية المحلية. كان هذا العمل ناجماً عن عدم «هضم» الفرنسيين للخسارة، ولخروج لبنان من تحت سيطرتهم الامبريالية.

خلال هذا الحدث كنت داخل المجلس النيابي مع الرفيق يوسف

---

(1) المصدر السابق، 19 حزيران 1944.

خطار الحلو الذي كان ممثلاً لجريدة «صوت الشعب» وأنا ممثلاً جريدة «جوغوفورتي تساين». استمرَّ إطلاق النار حوالى نصف الساعة، شوهد خلالها رئيس المجلس السيد صبري حماده يتنقل داخل مبنى البرلمان متنكباً سلاحه.

يومها عقد مجلس النواب الجلسة على الرغم من الاستفزاز. وأدلى النائب يوسف كرم بتصريح أدان فيه المستفيدين من قدومه إلى المجلس للقيام بأعمال تخريبية.

وأصدر مجلس النواب بياناً يدين فيه عمل المخربين ومن وراءهم. وقد قتل خلال هذه الأحداث خمسة أشخاص وجرح 25 واعتقل 60 من المخربين بينهم عدد من العسكريين.

بهذه المناسبة أصدر الحزب بياناً رسمياً يدين فيه هذا العمل التخريبي الموجه ضد الاستقلال ويدعو الشعب إلى اليقظة.

وأصدر المؤتمر الوطني اللبناني بياناً يدين المخربين وأعمالهم ويطالب بتصفية جميع الأعمال المعلقة مع فرنسا واتخاذ الإجراءات الضرورية من أجل حماية استقلال البلاد[1].

جاك غريزا في بيروت

وصل إلى بيروت النائب في الحزب الشيوعي الفرنسي ووزير القوة الجوية في حكومة فرنسا الحرة الموقتة المتمركزة في الجزائر، الرفيق جاك غريزا، للاطلاع على أوضاع بلادنا عن كثب. فأقام الحزب مهرجاناً كبيراً تكريماً له في سينما غراند تياتر (تياترو الكبير)، وتكلم في هذا المهرجان جبران تويني، عمر فاخوري، رئيف خوري، انطون تابت، والرفاق فرج اللّه الحلو، نقولا شاوي، خالد بكداش، وألقى الرفيق

---

(1) المصدر السابق، 27 نيسان 1944.

جاك غريزا كلمة بالمناسبة. وكانت بمثابة تظاهرة لبنانية ـ فرنسية لدعم استقلال لبنان الوطني. وكان الرفيق غريزا قد اعتقل في بداية الحرب، إلى جانب نواب شيوعيين آخرين، وبقي في سجون فرنسا ثم انتقل إلى الجزائر[1].

اتفاق لانتخاب المجلس الملي

نتيجة لدور فرع الحزب الأرمني وبمبادرة منه، وتحت تأثير الضغط الشعبي حصل اتفاق بين جميع الأطراف الأرمنية في لبنان لإجراء انتخاب المجلس الملّي للأرمن الأرثوذكس. وشكلت بموافقة جميع الأطراف قائمة انتخابية موحدة، تتألف من 12 عضواً حزبياً بمعدل ثلاثة عن كل حزب (الشيوعي، الهنشاك، الرمغافار والطاشناك) و12 عضواً غير ملتزمين حزبياً على أن يختار كل حزب من جانبه ثلاثة مستقلين، وكذلك أربعة كهنة.

جرى الانتخاب على أساس هذا الاتفاق، وقد مثل الحزب في المجلس الملي الرفاق يبرم الليزيان وبارور برتسيان وقره بت ناشابيزيان، بالإضافة إلى ثلاثة أصدقاء لنا[2].

ثم انتخب المجلس الملي الأرمني اللبناني هيئة سياسية جديدة، شارك فيها الأطراف جميعاً. بعد هده الانتخابات جرى انتخاب المجلس الوطني العام لكاثوليكوسية كيليكيا الأرمنية. وانتخب هيئة مركزية مؤلفة من داجار سرابيان (أميناً للسر)، كيورك بابازيان، نيشان دمرجيان، باروناك توماسيان، صارتيون فوسكرجيان، هراتش بابازيان والرفيق يبرم الليزيان.

---

(1) المصدر السابق، 11 حزيران 1944.

(2) المصدر السابق، 14 حزيران 1944.

جمعية رياضية باسم «باكراميان»

في أوائل العام 1942 استهلّ نادي أنترانيك نشاطه كمنظمة مستقلة لجمعية الشباب الأرمن، حيث افتتح مركزاً له في أول طريق كورنيش النهر، بإمكانيات مالية خاصة. كان للرفيق يبرم الليزيان دور مقرر داخل النادي وكان مرجعاً سياسياً وفكرياً فيه. وقد واظب منذ البداية على تأمين صلة دائمة معي بشكل خاص. وكان آخر أمين سر يخصنا في نادي أنترانيك هو الرفيق بارور يرتسيان. وقد بادرت الفرقة الشهيرة لكرة القدم لنادي أنترانيك وغالبية أعضاء النادي، في أوائل 1945 إلى تأسيس نادٍ باسم «جمعية باكراميان الرياضية» لكرة القدم ولقد أصبحت فرقة باكراميان لكرة القدم أقوى فرقة في لبنان في تلك الآونة، وأكثرها شعبيّة. وما لبث فريق باكراميان أن انتقل إلى أرمينيا مع بدايات سفر الأرمن إلى هناك، وانتقلت معه شهرته.

وكان الرفيق بارور يرتسيان قد قام بدور مهم في انضمام فريق انترانيك لكرة القدم إلى فريق باكراميان. أما آخر رئيس لفريق باكراميان فكان الرفيق بابكين بوياجيان الذي استشهد في عام 1958.

انتهاء حملة التبرعات

أصدر الأسقف أردافست سورمليان بالنيابة عن مطرانية الأرمن الأرثوذكس في لبنان، وباسم الهيئة المركزية لحملة التبرعات من أجل فرقة مدرّعات «ساسون تسي تافيت» في لبنان، بياناً رسمياً جاء فيه: «انتهت حملة التبرعات في لبنان بجمع 112.756 ليرة لبنانية. أرسل هذا المبلغ عبر سفير الاتحاد السوفياتي في القاهرة نوفيكوف إلى ايتشميازين ليد النائب البطريركي لعموم الأرمن الأسقف تشوركجيان[1].

---

(1) المصدر السابق، 29 تموز 1944.

اعتراف الاتحاد السوفياتي باستقلال لبنان

وصل إلى بيروت سفير الاتحاد السوفياتي في القاهرة نوفيكوف في 5 آب 1944، فاستقبل استقبالاً حاشداً من قبل القوى الوطنية والشعبية. وبلّغ السفير السلطات اللبنانية اعتراف الاتحاد السوفياتي رسمياً باستقلال لبنان. وما أن وصل نوفيكوف إلى القصر الحكومي حتى احتشدت جماهير غفيرة للترحيب به.

بهذه المناسبة أعلن رئيس الوزراء رياض الصلح أن الاعتراف باستقلالنا من قبل دولة عظيمة مثل الاتحاد السوفياتي يعتبر أعظم حدث بالنسبة إلى لبنان. بعد هذا الاعتراف باستقلالنا أصبح الاستقلال على أسس متينة وثابتة.

وقد تبادل وزير خارجية الاتحاد السوفياتي مولوتوف البرقيات مع وزير خارجية لبنان سليم تقلا بهذه المناسبة.

مكتب للنضال ضد الصهيونية

تأسست في بيروت هيئة دائمة باسم «مكتب فلسطين الدائم» وهو بمثابة مكتب للنضال ضد الصهيونية، قوامه من الأطباء سليم إدريس، جورج حنا، يوسف حتي، الياس الخوري، والمحامي حبيب ربيز والرفيق فرج اللّه الحلو والسادة إميل بستاني، محمد علي بيهم، شارل سعد وآخرون[1].

في دمشق.. «والمشاكل» مع خالد بكداش

انتقلت في شهر تموز عام 1944 مع عائلتي للسكن في دمشق بمهمة

(1) المصدر السابق، 19 آب 1944.

حزبية باقتراح من خالد بكداش. لم يكن لدينا منزل للسكن في دمشق. عرض عليّ خالد بكداش أن نسكن معاً. على أن زوجتي رفضت رفضاً باتاً اقتراح خالد بكداش فبقينا بلا مأوى. كان ولدي الرضيع مريضاً وكان لدي مشكلة تعليم ابنتي الاثنتين. لكن بكداش لم يهتم بنا، فانتقلت مؤقتاً إلى منزل أحد رفاقنا من جبل موسى وأقمت هناك مدة 15 يوماً مع عائلتي، كان خلالها هذا الرفيق غائباً عن المنزل. ثم اقترضت مبلغاً من المال من أصدقائي لاستئجار منزل. وفي الواقع فالمبلغ المالي الذي كنت أحصل عليه من الحزب كان لا يكفي للقمة الخبز، وأفضل شاهد على كلامي موزّع جريدة «جوغوفورتي تساين» في دمشق الرفيق سيروب سبكوكيان. ومع الأسف فهذا الأخير مات باكراً في أرمينيا السوڤياتية.

أما التفسير الذي أعطاه خالد بكداش لموضوع انتقالي إلى دمشق، فهو أن وجودي في بيروت يمكن أن يكون عائقاً أمام تطوير قدرات الشباب. ولكن الحقائق اللاحقة أثبتت أن سياسة خالد بكادش الشخصية وممارساته حتى أوائل 1948 خلقت نفوراً لدى جميع الذين انتسبوا إلى الحزب، ممّا دفعهم إلى الابتعاد عنه.

هؤلاء الرفاق الذين تركوا الحزب كانوا شيوعيين متفانين من أجل الحزب ومثقفين بروح كفاحية، ناضلوا في الظروف السرية وكانوا من الكادرات الذين حملوا على أكتافهم عمل الحزب الأساسي. وأيضاً ترك صفوف الحزب الرفاق الذين نُظموا في الحزب حديثاً وكانوا من الكادرات الجديدة وليس لهم تجربة تنظيميّة، جميعهم تقريباً فضلوا العودة إلى أرمينيا. وكانوا من الرفاق المتفانين، بينهم الرفيق بانوس أرامايسيان؛ انتفضوا ضد سلوك خالد بكداش وتصرفاته وقالوا لي: «نحن ذاهبون واللّه يحفظك». وهكذا كانت حالة الكادرات القديمة والجديدة. لم يكد يتطور أو ينضج أي كادر خلال تلك الفترة داخل الفرع الأرمني. كان هذا نتيجة لاهتمام خالد بكداش بالكادرات الأرمنية!

ويمكن اعتبار نقلي إلى دمشق نتيجة لمخططات خالد بكداش.

وفي الحقيقة فهذا ناتج بشكل أساسي عن سياسته الأنانية والأسلوب القائم على فرض عبادة الشخص. ما أبعد تلك السياسة عن الضمير الحزبي. مرّةً تجدُه يضطهد ويضطهد كل الكادرات العربية والأرمنية ومرة أخرى تجدُه يعود لإبرازهم، ثم يعود ليضطهدهم من جديد.

هذا هو، بوضوح، ما حصل إزاء جميع الكادرات والقيادات الأساسية مثلما حصل للرفيقين فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي وكثيرين سواهما. وسوف نركز على ذلك بصورة مفصلة في الصفحات القادمة وبالتسلسل. سوف أذكر أهم الأحداث، كوني مطلعاً عليها، ولدي معرفة تفصيلية بها.

فبكل مسؤولية أمام التاريخ وضميري الحزبي الشيوعي أعلن أن في لبنان وسوريا لا يوجد قائد في صفوف الحزب الشيوعي إلا تعرض للاتهامات والملاحقات والاضطهاد غير المبرر من قبل خالد بكداش. حقيقة مؤلمة ومُرَّة بلا شك. غير أنني لم أتأثر بهذا التصرف المجحف وبالاتهامات غير الواقعية. لم أتصرف بحقد. بذلت في سبيل العمل الحزبي كل جهودي بحماسة ومسؤولية، ولم يهزني كل ما حصل، فكنت أميناً للحزب ولخالد بكداش حيث كان قائد حزبنا وحياتي جزء من الحزب. بالنسبة إلي كان الحزب أمراً مقدساً، وتطويره من مهماتي. هكذا كان وعيي الحزبي، قناعاتي عميقة ومرتكزة على المبادئ الماركسية اللينينية حيث إن لدي اطلاعاً لا بأس به.

كنت سأرضى لو جرى انتقالي إلى دمشق، وكنت سأقبل بحماسة هذا الاقتراح كما حدث خلال الخمسينيات لو جاء هذا الانتقال نتيجة لقرار حزبي ولضرورة حزبية وليس ناجماً عن حسابات وسياسة شخصية لخالد بكداش. ولن أكون بعيداً عن التواضع إذا قلت: كان لي موقف شريف منذ اليوم الأول إلى العام 1968 حيث وقفت إلى جانب تطوير الكادرات الأرمنية والعربية وتقدمهم في مواقع مسؤولة في الحزب.

كيف عملت في سوريا

مكثت في دمشق لمدة سنتين. من الناحية التنظيمية ركزت عملي بشكل أساسي في الوسط الأرمني. حاولتُ، في البداية، التعرُّف عن كثب إلى الكادرات الأساسية في الحزب من الرفاق الأرمن. ودعوتهم بعدئذ إلى اجتماع لبحث الوضع التنظيمي ونشاطات الحزب، والاتصالات السياسية، واتفقنا على عقد اجتماعات دورية للكادر من أجل بحث الوضع السياسي والتنظيمي، وإجراء محاضرات سياسية تعالج الوضع الأرمني والعربي، إسهاماً في تحقيق المهمات المطروحة من قِبل الحزب. هذا فضلاً عن محاضرات تثقيفية في وقت لاحق. هكذا بدأ واستمر عملنا الحزبي.

شكلت هيئة مؤلفة من مسؤولي الفرق الحزبية الأرمنية، قوامها نزاريت ابوفيان (عامل) سكرتيراً، ميناس أوغلوكيان (عامل)، أغوب تشكشنيان (طبيب أسنان)، سركيس مرديريان (مستخدم)، ازادفيشيان (مستخدم)، وكان هؤلاء جميعاً يتمتعون بمستوى حزبي لا بأس به.

في ذلك الوقت كانت المنظمة النسائية الأرمنية للحزب تقوم بعمل نشيط وبنّاء بقيادة الرفيقة بارسيغيان والرفيقة غازاريان.

ارتفع عدد أعضاء الحزب بين الأرمن إلى 220، وكان يقطن دمشق واحد من أصل ستة. وتحولت منظمة الحزب الأرمنية إلى أقوى قوة تنظيميّة وسياسية في صفوف الأرمن. وجمعت حولها كل المفكرين من الشباب الأرمن. وأصبحت جريدة «جوغوفورتي تساين» الجريدة الأكثر انتشاراً بين الأرمن في دمشق، حيث كان يوزع منها يومياً مئتا نسخة.

إلى جانب اهتمامي اليومي بهذه النشاطات، فقد أقمتُ منذ قدومي صلات دائمة مع حزب الهنشاك وحزب الرمغافار ومع الشخصيات الوطنية الأرمنية، والجمعيات الأرمنية الصديقة وأقمت علاقات ودية مع

راعي مطرانية الأرمن الأرثوذكس في دمشق المطران يبرم دوهموني الذي كانت له دائماً مواقف وطنية.

المجلس الملي وهيئاته السياسية

قبل انتقالي إلى دمشق انعقد المجلس الملي للأرمن الأرثوذكس لمطرانية دمشق وانتخب هيئاته، وقد انتخب المجلس الملي بالإجماع من خلال قائمة موحدة شارك فيها الشيوعيون والهنشاك والرمغافار والطاشناك، لكل حزب ثلاثة أعضاء حزبيين و3 أعضاء من أصدقائه.

كان الطاشناك قد وافقوا منذ البداية على تشكيل لائحة وطنية موحدة لعضوية هذا المجلس في دمشق، لكونهم لم يتمكنوا من دخول المجلس الملي بوسيلة أخرى، بينما كانوا يرفضون تشكيل مثل هذه اللائحة في حلب لأنهم كانوا يسيطرون على المجلس الملي هناك بدعم من الاحتلال الفرنسي، وكانوا في بيروت يعملون على تأجيل هذا الانتخاب بشكل دائم. وفي الواقع فالطاشناك لم يكونوا مستقيمين على الدوام ولم يتوخّوا دائماً السبل المستقيمة، حيث استطاعوا أن يستميلوا نحوهم أحد أعضاء الرمغافار وأحد أصدقاء الهنشاك واستفادوا من الخلافات التي نشأت بيننا وبين عائلة يعقوبيان الوطنية أثناء الانتخابات النيابية عام 1943، وبنتيجتها استطاع الطاشناك تشكيل أكثرية داخل المجلس الملي الأرمني، فانتخبوا هيئة سياسية للمجلس الملي من لون سياسي واحد. وهذه النتيجة لا يمكن أن نقبلها لأنها تتناقض مع الواقع. وكان أحد ممثّلينا في المجلس الملي هرانت كريكوريان، الرجل المتفاني سياسياً ووطنياً والمخلص لانتمائه الوطني منذ نشأته وابن أقدم عائلة أرمنية سكنت دمشق ويحظى سياسياً بالاحترام لدى جميع الأوساط. أما العضو الثاني فكان الرفيق الدكتور كورك مانوشاكيان وهو طبيب أسنان وحزبيّ ذو مستوى سياسي وفكري رفيع، كان قد هاجر إلى لواء اسكندرون

وكان محترماً لدى الناس. والعضو الثالث هو الرفيق موسيس غازاريان من مدينة فان، نشأ يتيماً وقد انتسب إلى الحزب منذ العام 1925.

بعد البحث مع هؤلاء الأعضاء الثلاثة في المجلس الملي، وبعد التداول ضمن الكادر الحزبي، بدأنا نبحث عن سُبل تغيير هذا الواقع الأليم المفروض علينا.

شكلنا في البداية جبهة موحدة مع حزبي الهنشاك والرمغافار بغية قلب هذا الواقع، وحصلنا على موافقة المطران رئيس الأبرشية. نجحنا في إعادة عضو الرمغافار الذي استماله الطاشناك، كما ركزنا جهودنا لتصحيح العلاقات على أسس وطنية وعمل مشترك مع عائلة النائب نزاريت يعقوبيان.

كان يعقوبيان رئيساً للمجلس الملي ويحظى بنفوذ شعبي بشكل خاص بين أبناء مرعش. نجحنا في هذه المهمة وعملنا بين المستقلين لحثّهم على الانضمام إلى موقفنا، ونجحنا في تشكيل أكثرية معادية للطاشناك داخل المجلس الملي. كانت مهمتنا التالية إعادة انتخاب الهيئة السياسية للمجلس الملي. فانطلقنا من القوانين المرعيّة الإجراء التي تقضي بإجراء انتخابات جديدة في حال عدم وجود أكثرية كافية لتأمين النصاب. فعملنا على حث أغلبية أعضاء الهيئة السياسية على الخروج منها وهكذا كان.

كان قره بت أزميرليان أحد قادة حزب الطاشناك، إلا أنه كان مجمداً نشاطه الحزبي آنذاك. وانسجاماً مع توجّهه الوطني استقال من الهيئة السياسة متذرعاً بالانتقال إلى بيروت. وقد قام بدور بارز في استقالة المحامي أزميرليان الدكتور كيورك مانوشاكيان وكانت لي علاقة سياسية ووطنية ودية مع د.أزميرليان حتى مماته. وكنت أشاطره الرأي.

كذلك استقال المحامي اسطفازادور قتاليان من الهيئة السياسية، وهو قد انتخب عضواً في المجلس النيابي عن مدينة حلب عام 1947 بدعم

منّا ضد المرشح المنافس وهو هراتش بابازيان أحد قادة الطاشناك، فمُني هذا الأخير بالهزيمة.

بعد ذلك دعي المجلس الملي إلى انتخاب هيئة سياسية جديدة حيث اعتبر أن غالبية أعضائها مستقيلة. انتخبت هيئة جديدة مؤلفة من: فاهان كريكوريان (شقيق هرانت كريكوريان) رئيساً، أرتين مادويان أميناً للسر، هاغوب خاشمانيان نائباً للرئيس (هنشاك)، مهران دير استبانيان (رمغافار)، وواحد من عائلة يعقوبيان، وبقي الطاشناك خارج هذه الهيئة، وبذلك عادت الهيئة السياسية للمجلس الملي في دمشق تحت قيادة الوطنيين الأرمن، وأبقت صلاتها الدينية مع كنيسة اتشميازين (الكرسي الأم للأرمن الأرثوذكس في العالم)، وهذه العلاقات مستمرة حتى يومنا هذا.

وفد من كنيسة اتشميازين إلى لبنان وسوريا

بعد زيارة وفد الكرسي الرسولي لعموم الأرمن في اتشميازين إلى القدس برئاسة البروفسور آشوط كراكين ابراهميان وأمين سره أنوشاوان دير كريكوريان، وصل الوفد إلى بيروت في 12 أيلول 1944. وفي 18 أيلول ألقى البروفسور أبراهميان في باحة كاثوليكوسية كيليكية للأرمن الأرثوذكس في انطلياس، كلمة أمام حشد من ألوف المواطنين موجهة إلى الأرمن اللبنانيين من قبل الكرسي الأم، حاملة تحية الوطن الأم، مُعْرباً عن فخره وامتنانه للشعب العربي الصديق الذي مد يد العون للشعب الأرمني في أيام محنته. وأعلن توجيهات الكرسي الأم إلى الأرمن في المهجر، وهي:

أ ـ دعوة إلى إلى التوحّد حول الكرسي الأم.

ب ـ عدم تحويل الكنائس إلى مجالس سياسية.

ج ـ إلى جانب محبتكم وطنكم الأم يجب أن تكونوا مواطنين صالحين في وطنكم الثاني.

ووصل وفد باسم المجلس الملي الأرمني في دمشق لتحيّة وفد الكرسي الأم ودعوته إلى دمشق، ويتألف الوفد من أرتين مادويان والدكتور كيورك مانوشاكيان والدكتور ماركريان ومهران دير استبانيان، وحضر هذا الوفد حفلة غداء أقامتها مطرانية بيروت للأرمن الأرثوذكس على شرف وفد الكرسي الأم. وقد ألقى هرانت ديفرجيان كلمة في الاحتفال باسم الصحف الأرمنية، حيّا فيها الوفد والكرسي الأم والوطن الأم.

أقيم بعد ذلك مهرجان كبير في ملعب ساحقيان الرياضي بحضور 15 ألف مواطن، فالقى البروفسور آشوط أبراهميان كلمة أحدثت، من جديد، موجة وطنية عارمة من الحماسة نحو أرمينيا والمقر الكنسي العام.

وصل الوفد إلى دمشق في 21 أيلول واستقبل استقبالاً شعبياً حماسياً، وجرى احتفال في باحة كنيسة الأرمن بحضور جميع الأرمن الموجودين في دمشق تقريباً. وهناك ألقى البروفسور أبراهميان كلمة محيّياً الأرمن باسم المرجع الكنسي العالمي للأرمن وباسم وطنهم الأم، معبراً عن امتنانه أيضاً للشعب العربي وللحكومة الوطنية في سوريا، وتلا التوصيات المذكورة أعلاه كما تكلّم في هذا اللقاء الشعبي المطران يبرم دوهموني راعي أبرشية دمشق.

وقد حلّ الوفد خلال وجوده في دمشق ضيفاً على منزل نزاريت يعقوبيان، حيث استقبل القيادات السياسية في المدينة، بينهم الصحافي المعروف مانوك أرسلانيان الذي كان آنذاك في دمشق.

وبناء على رغبة البروفسور ابراهميان جرى لقاء بيني وبينه في منزل الدكتور كيورك مانوشاكيان، سأل مستفسراً عن موقف حزبنا في لبنان وعلاقته مع الطاشناك، فأجبته موضحاً موقف حزبنا من القضية. لست متأكداً من أنه اقتنع بصحة موقفنا حيث إنه لم يُبد وجهة نظره.

سفير الاتحاد السوڤياتي في سوريا

في الأسبوع الأخير من شهر تشرين الأول 1944 قدم السفير

السوڤياتي دانيال سولود أوراق اعتماده إلى رئيس الجمهورية السورية كسفير لبلاده لدى سوريا. كان لهذا الحدث وقعه الكبير وأحدث انعطافاً داخل الحياة السياسية في سوريا، وعزز استقلال سوريا الوطني وأرساه على أسس متينة، كما وطّد الصداقة السوڤياتية ـ العربية.

في 30 تشرين الأول قدم دانيال سولود أوراق اعتماده كسفير للاتحاد السوڤياتي في لبنان لرئيس الجمهورية اللبنانية، فكان سفيراً لبلاده في سوريا ولبنان في آن.

سوريا و«فرنسا المحاربة» في ذكرى أرمينيا

في خريف 1944 تشكلت في دمشق جمعية أصدقاء أرمينيا السوڤياتية وانتخبت رئيساً لها الدكتور كيورك مانوشاكيان.

وبادرت الجمعية في السنة نفسها إلى الدعوة لمهرجان في قاعة سينما «عايدة»، بحضور حشد كبير وذلك بمناسبة مرور 24 سنة على تأسيس أرمينيا السوڤياتية تحت رعاية وزير خارجية سوريا جميل مردم بك. حضر الاحتفال ممثل السفارة السوڤياتية في دمشق، ومحافظ مدينة دمشق، وممثل فرنسا المحاربة العقيد أوليغا روجيه، وعدد كبير من الشخصيات الوطنية والاجتماعية الأرمنية.

افتتح المهرجان د. مانوشاكيان وكان الخطيب الرئيسي هرانت ديفرجيان الذي جاء من بيروت لهذه المناسبة. وألقى هرانت تاتاريان كلمة بالعربية. كذلك نظّم مهرجان آخر في عام 1945 بالمناسبة نفسها وفي المكان عينه.

كما أقامت جمعية أصدقاء أرمينيا السوڤياتية في حلب مهرجاناً في قاعة سينما «روكسي» الفسيحة بحضور عدد كبير من ممثلي الأحزاب والشخصيات الوطنية بمناسبة الذكرى الـ 24 لتأسيس أرمينيا السوڤياتية. رعى الاحتفال محافظ حلب إحسان الشريف وتكلم فيه القس ديكران

خرولوبيان وبروانت توتونجيان باللغة العربية، ويبرم الليزيان الذي جاء من بيروت خصوصاً لهذه المناسبة.

أما القس خرولوبيان فإلى جانب كونه رجل دين محترماً عرف بنهجه السياسي الوطني الواضح، وتأييده غير المتحفظ لأرمينيا والاتحاد السوڤياتي. وكانت له جهود حميدة في حقل التربية. كما أنه ألقى كلمة في ذكرى تأسيس الجيش الأحمر السوڤياتي، وكان عضواً في الهيئة المركزية للبنان وسوريا في لجنة تنظيم عودة الأرمن إلى أرمينيا السوڤياتية. وقد عاد نجله كيورك خرولوبيان منفرداً إلى أرمينيا السوڤياتية حيث أصبح بروفسوراً في جامعة يريڤان يتولى تدريس مادة الفلسفة.

وفي 6 تشرين الثاني وجّه أمين سر جمعية أصدقاء أرمينيا السوڤياتية في لبنان يبرم اللزيان كلمة من الإذاعة اللبنانية في بيروت قال فيها: «ثورة أكتوبر أنقذت الشعب الأرمني».

كذلك أقامت جمعية أصدقاء أرمينيا السوڤياتية مهرجاناً في سينما «ريالتو» في بيروت بمناسبة الذكرى الـ 27 لثورة أكتوبر، برعاية وحضور رئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح. افتتح هذا الهرجان يبرم الليزيان وتكلم فيه أيضاً هرانت دفرجيان وعمر فاخوري.

الجمعية النسائية الأرمنية

وتأسست في دمشق في العام نفسه جمعية أصدقاء أرمينيا السوڤياتية للنساء الأرمنيات، برئاسة السيدة جوزفين سيرايداريان، وتولّت أمانة السر السيدة فرجيني مادويان. وفي 8 آذار قامت هذه الجمعية بتنظيم لقاء نسائي ناجح بحضور عدد كبير من النساء في قاعة مدرسة مار سركيس بدمشق. وألقت الرئيسة وأمينة السر كلمتين بالمناسبة.

مرحلة جديدة من معركة استقلال سوريا...
ومشاركتنا في حركة التطوع

خلال شهر أيار 1945 طلبت الحكومة الوطنية السورية من السلطات الفرنسية تسليم جميع الإدارات والمؤسسات والجيش الذي كان بإدارة الفرنسيين، إلى السلطات السورية بموجب الاتفاقات السابقة والوعود التي قطعتها فرنسا على نفسها. لكن السلطات الفرنسية لم تعر هذا الطلب أي اعتبار، مصممة على إعادة انتدابها على سوريا من خلال فرض اتفاق ثنائي بين سوريا وفرنسا. وكانت سوريا مصممة على تحقيق جميع المطالب من أجل تحقيق الاستقلال الوطني الكامل.

استنفار وطني عام في كل أنحاء البلاد بدعوة من الحكومة الوطنية لمواجهة التهديد الفرنسي.

حركات تطوع شعبي ووحدات تتألف على قدم وساق من أجل مواجهة التهديدات الفرنسية وتحقيقاً للمطالب الوطنية.

مرحلة وطنية جديدة في النضال شارك فيها حزبنا منذ البداية ومن غير تحفظ، فانضم الطلاب وأصدقاؤنا إلى حركة التطوع. نحن الشيوعيين الأرمن شكلنا مجموعة من 25 رفيقاً متطوعاً من بينهم الرفاق: أرتين مادويان، الدكتور مانوشاكيان، نزاريت أبوفيان، وتوجهوا إلى قائد حركة التطوع لأجل الانضمام إليها والمشاركة في هذا النضال من أجل الاستقلال الوطني لسوريا. وقد سجلت أسماء هؤلاء الـ 25 رفيقاً وقِيل لنا اذهبوا سوف نستدعيكم فيما بعد. هذا وقد لقيت خطوة الشيوعيين الأرمن هذه صدى سياسياً كبيراً على الصعيدين الرسمي والشعبي ولدى الرأي العام العربي.

كان الوضع يزداد خطورة وتفاقماً يوماً عن يوم وساعة بساعة، وكان الاصطدام منتظراً. في أواخر شهر أيار بدأ الجيش الفرنسي بقصف مدينة دمشق بمدافع الدبابات والطائرات. ودمر مبنى المجلس النيابي من جراء

هذا القصف وذبح بشكل وحشي جميع عناصر قوة الدرك المتمركزة عند حامية مبنى المجلس النيابي.

بدأ الهجوم في الساعة السابعة مساءً. وفي هذا الوقت كنت في مركز الحزب. اقترح خالد بكداش عليّ أن أعود إلى منزلي. وتحت وابل من النيران لجأت إلى أول بيت صادفته، ووصلت بعد ساعتين إلى منزلي الواقع في حي نوري شهلان.

استمر الرصاص والحرائق والقصف والمذابح الوحشيّة ثلاثة أيام تقريباً. ولجأ رئيس الجمهورية والوزراء والنواب إلى أماكن آمنة، ولجأ رئيس الوزراء سعد اللّه الجابري إلى «أوتيل أورينتال»، وهذا المكان لم يكن آمناً. وفي هذا الوقت وصل السفير السوڤياتي دانيال سولود إلى دمشق ونزل في «أوتيل أورينتال» ووضع على رأس سعد اللّه الجابري القبّعة الدبلوماسية السوڤياتية ونقله بسيارته الدبلوماسية بأمان إلى بيروت. وقد كان لهذا العمل الجريء للسفير السوڤياتي ودوره المنقذ، صداه السياسي الكبير ليس في سوريا ولبنان فحسب، وإنّما في أنحاء العالم العربي كلّه. وخلال تلك الأيام الثلاثة كان الجيش السوري الموجود حول دمشق بقيادة ضباط فرنسيين، قد انضم إلى المقاومة الوطنية بعد قيامهم بتصفية قادتهم الضباط الفرنسيين، وجرت صدامات دامية بين القوات الفرنسية وبين الجماهير المسلحة ورجال الشرطة في حماه ودير الزور وفي أنحاء أخرى من البلاد. وأخذت الأزمة طابعاً دولياً وطلب الاتحاد السوڤياتي من فرنسا وقف العمليات العسكرية فوراً واحترام المطالب الوطنية السورية لأنها محقة ومشروعة. ووجه تشرشل في الوقت نفسه تهديداً بتدخل القوات البريطانية علّها تستفيد من الفرصة لأجل إبعاد الفرنسيين من سوريا والحلول مكانهم. وغنيّ عن القول إن تشرشل لم يكن يوماً ولا يمكن أن يكون إلى جانب تعزيز استقلال سوريا.

إزاء هذه الأحداث اضطر الفرنسيون إلى وقف النار والموافقة على

سحب قواتهم من سوريا بحماية البريطانيين، وتنفيذ المطالب الوطنية السوريّة.

وقامت احتفالات شعبية وتظاهرات صاخبة في الشوارع احتفاء بهذا الانتصار التاريخي، ولاحقت الجماهير الغاضبة بقايا القوات الفرنسية والموظفين الفرنسيين وقضت عليهم.

بعد هذا الحدث زار راعي أبرشية الأرمن المطران يبرم دوهموني مبنى مجلس النواب المدمر وألقى كلمة عنيفة أدان فيها الهجوم الفرنسي والجريمة النكراء المرتكبة بحق الشعب السوري.

وأصدرنا باسم الفرع الأرمني للحزب بياناً يدين هذا العدوان والجريمة المعادية للإنسانية. حيَّينا الانتصار الوطني لنضال الشعب السوري من أجل الاستقلال، داعين الأرمن إلى البقاء دائماً إلى جانب الشعب العربي، إلى جانب سوريا واستقلالها.

المؤتمر القومي الكنسي لعموم الأرمن

في أواخر صيف 1945 انعقد المؤتمر القومي الكنسي لعموم الأرمن وذلك في مركز الكرسي الأم لعموم الأرمن في إتشميازين. شارك فيه وفود من أرمينيا السوفياتية ومن أبرشيات الاتحاد السوفياتي للأرمن الأرثوذكس ومن المهجر ومنها بطريركية كيليكيا برئاسة الكاثوليكوس كراكين هوفسبيانتس، وبحضور جميع رؤساء ووفود أبرشيات المهجر، وبطريركية القدس للأرمن الأرثوذكس. وكان ضمن وفد كاثوليكوسية كيليكيا الرفيق يبرم الليزيان مع كيورك بابويان ومكرديش مسرليان وآخرون. وتألف وفد أبرشية دمشق من راعي الأبرشية المطران يبرم دوهموني ورئيس المجلس الملي الأرمني النائب نزاريت يعقوبيان والدكتور غاريس كاراغوزيان.

في غضون ذلك، انتصر الاتحاد السوفياتي انتصاراً ساحقاً على جيوش ألمانيا الهتلرية. وأخذ على النطاق العالمي وزناً كبيراً مؤثراً. وفي هذه الظروف التاريخية الناضجة عقد المؤتمر الكنائسي لعموم الأرمن في اتشميازين، لانتخاب بطريرك لكرسي عموم الأرمن ولمعالجة مواضيع كنسيّة أخرى. وكان من أهم البنود الرئيسية على جدول الأعمال بند بعنوان «من أجل عموم الأرمن». يقضي بالتصويت على مشروع قرار يطالب بإعادة الأراضي الأرمنية المحتلة من قبل تركيا، إلى الأرمن وتوحيدها مع الوطن الأم. وجرت الموافقة على الاقتراح بالإجماع وفي جو عارم من الحماسة.

وعملياً، فقد كان المؤتمر مدعوماً دعماً كاملاً من قبل السكرتير الأول للحزب الشيوعي في أرمينيا السوفياتية الرفيق كريكور هاروتيان، وقد مَحَض تأييده الكامل لقرار المطالبة بإعادة الأراضي الخاضعة للاحتلال التركي إلى الوطن الأم.

كلمتان بينهما نصف قرن: التحرير بالقوة!

قبل هذا التاريخ، أي في عام 1922 عندما قامت شخصيات أرمنية من المهجر بزيارة إلى أرمينيا السوفياتية، أشاروا خلال لقاءاتهم إلى موضوع تحرير الأراضي المحتلة من قبل تركيا. عندئذ صارحهم السكرتير الأول للحزب الشيوعي في أرمينيا السوفياتية وأول رئيس وزراء في الجمهورية رافق لينين، القائد الشيوعي البارز الرفيق ألكسندر مياسنكيان، بالقول، وعلى رؤوس الأشهاد: «إن الأرض لا تسترد إلا بالقوة». وقد أدلى بهذه الكلمات باللغة الأرمنية الفصحى المستخدمة قديماً.

بعد ذلك بنصف قرن ونيف، ولدى لقائي في الكراملين الرفيق انستاس ميكويان قال لي بالحرف الواحد، وبوضوح قاطع في الموضوع نفسه: «الأرض إنما تسترد بالقوة».

إن هذا كله إن دلّ على شيء فإنَّما يدل على موقف أرمينيا السوفياتية الحقيقي، ومن البداية، إزاء المطالبة بالأراضي المحتلة.

ولا شك يجب أن يؤخذ في الاعتبار وضع القضية السياسي وقوتها الفاعلة في ظروف تاريخية مناسبة، إنطلاقاً من موقعها الدولي المسؤول، والقيام بهذا العمل في مرحلة تاريخية قابلة للتنفيذ وناضجة.

لكن هذه الحقيقة لا تمنع أبداً الأرمن في المهجر من النضال المتواصل والمطالبة الدائمة بتحرير الأراضي الأرمنية المحتلة.

إن الذين يتناسون أو يجهلون هذه الحقيقة التاريخية التي أشرنا إليها، إنما يقعون في خطأ أكيد، إذا لم يكن إغفالهم لهذه الحقيقة ناتجاً عن سوء نيّة.

مهرجان في دمشق للمطالبة بالأراضي الأرمنية المحتلة

عاد الوفد الدمشقي من مؤتمر اتشميازين مفعماً بحماسة كبيرة.

وبهذه المناسبة بادرت الهيئة السياسية للمجلس الملي الأرمني بتنظيم مهرجان في باحة كنيسة مار سركيس، حضره حشد كبير من جماهير الأرمن. وشاركت في هذا المهرجان الأحزاب الأرمنية كلها، بمن فيها قادة الطاشناك.

ألقى أعضاء الوفد العائدون من اتشميازين كلمات في المناسبة وكنا نحن قد أعددنا مشروع قرار من أجل طرحه على التصويت في هذا المهرجان، يتعلق بالمطالبة بإعادة الأراضي الأرمنية المحتلة، وكنت قد أعددت مشروع القرار هذا بصفتي أمين سر الهيئة السياسية، من أجل رفعه إلى ستالين وكريكور هاروتيونيان وبطريرك عموم الأرمن في اتشميازين. وكنت مكلفاً أن أطرح هذا المشروع من على المنبر من أجل التصويت عليه. وفعلتُ. ولكن، أثناء قراءتي الاقتراح اعتلى المنبر فجأة مسؤول الطاشناك في دمشق أوهانس تونجوكيان ليعلن عدم موافقته على

هذا المشروع. حينذاك، انتفض الحضور بوجهه. عندئذ حاولتُ تهدئة رفاقنا، وطلبت من تونجوكيان أن ينزل من على المنبر على الفور.

إن هذا المشروع ـ قلتُ له ـ يقرر من قبل الحضور وأنت لك الحق بأن تصوت عليه! معه أو ضده؛ ولكن ليس لك الحق بأن تمنع الحضور من التعبير عن رأيهم بحرية.

عاند، وعلت الصرخات من قبل الحضور بوجهه قائلين: «يا مخرب..، انزل لتحت» وإزاء ذلك استمر في تعنّته بعدم النزول. فصعد أحد الحاضرين من قادة الطاشناك القدامى ديكران كاببجيان إلى المنبر وأمسك بتونجوكيان من ثيابه قائلاً له: «انزل لتحت».

من الواضح أن تونجوكيان كان هدفه تخريب هذا المهرجان حتى لو كان الثمن أن يُضرب ضرباً مبرحاً من قبل الجمهور. فشلت محاولته هذه واضطر إلى إخلاء المنبر، وقد طلبت من رفاقنا الحزبيين الحاضرين عدم التدخل، والاكتفاء بإبعاد تونجوكيان من الباحة، وهذا ما حصل .

ووافق الحضور بالإجماع الكامل على الاقتراح . وفي هذه المناسبة أود أن أذكر أن تونجوكيان هذا، مع زمرة من الطاشناك، اعتدوا فيما بعد بالضرب على الكهنة المعادين للطاشناك في داخل كاثوليكوسية كيليكيا في إنطلياس. وهذا جرى بمساعدة عناصر الجيش والشرطة التابعين لسلطة كميل شمعون، واحتلت عناصر الطاشناك المركز البطريركي وقد تمّ اقتراف هذا العمل خلال الحرب الباردة بين الشرق والغرب وتحت تأثير الضغط الأميركي.

الحدث الكبير: عودة الأرمن إلى وطنهم الأم

كان لبنان وسوريا الوطن الأصيل الثاني بالنسبة إلى الأرمن المقيمين في هذين البلدين، حيث إنهم كانوا مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات مع سائر أبناء البلد، وقد خدموا هذا الوطن بأمانة وإخلاص.

وكنا نشعر بالاعتزاز والفخر نحو الشعب العربي الطيب الذي استقبلنا على أرضه وأعطانا حقوقاً متساوية.

ورغم ذلك، فإن الأرمن في سوريا ولبنان والمهجر يعتبرون جميعاً أن أرمينيا السوفياتية هي وطنهم الذي هو جزء محرَّر من أراضي الأجداد. وكانت أمنية الأرمن الدائمة العودة إلى وطنهم الأم.

وهذا الإحساس هو شيء طبيعي لدى الشعوب، كما هو موجود لدى اللبنانيين والسوريين والمنتشرين في بلاد الاغتراب الذين يتمتعون بحقوق متساوية مع شعوب البلدان التي يوجدون فيها.

وفي خريف 1945 اتخذت السلطة المركزية في الاتحاد السوفياتي قراراً تاريخياً، متمنّيةً على الأرمن في المهجر ومن ضمنهم أرمن لبنان وسوريا، العودة الجماهيرية إلى وطنهم أرمينيا السوفياتية.

لقد شكّل هذا القرار بالنسبة إلى الأرمن في لبنان وسوريا وبلدان الاغتراب والأمة الأرمنية كلها أكبر انعطاف تاريخي. إنهم لم يعرفوا، طوال قرون كاملة، إلّا الغزو بعد الغزو تتعرض له الأراضي الأرمنية، والنهب والتسلط والإرهاب وما إلى ذلك، وإجبارهم بالقوة على الرحيل بشكل جماعي عن الأرض الأم. وللمرة الأولى في التاريخ تحدث هذه العودة الجماعية إلى تراب الوطن المحرر. وهذا بفضل الاتحاد السوفياتي العظيم.

ولأجل تنظيم عودة الأرمن إلى أرمينيا السوفياتية من لبنان وسوريا، وبعد موافقة السلطات المحلية، شكلت هيئة مركزية للبنان وسوريا مقرها بيروت ومؤلفة من جميع الأطراف السياسية والحزبية والوطنية، ما عدا الطاشناك. وكنت أحد أعضاء هذه الهيئة، وشكل لها فرعان في حلب ودمشق. رأس فرع دمشق هرانت كريكوريان وتولى أمانة السر أرتين مادويان.

وجرى تسجيل الأرمن الراغبين في العودة في دمشق وضواحيها بشكل جماهيري. وحدث ذلك في كل أنحاء سوريا ولبنان. والجدير

بالذكر أن 90 بالمئة من الأرمن المقيمين في لبنان وسوريا سجلوا أسماءهم من أجل العودة إلى الوطن، بمن فيهم المحازبون الطاشناك.

ونظمت في صيف 1946 قوافل العودة إلى الوطن من الأرمن الدمشقيين، انطلقت إلى بيروت بالقطار الحديدي فيما كان غالبية الأرمن من سكان دمشق متجمهرين أمام محطة سكة الحديد من أجل وداع قافلة العائدين.

يا له من مشهد مأثر ومهيب، وأية مشاعر عظيمة هي التي بدت على وجوه المودّعين والعائدين.

وفي ذلك اليوم التاريخي ألقيتُ كلمة وداعية متمنياً السفر السعيد للعائدين.

انطلقت القافلة الأولى من بيروت يوم 23 حزيران على متن الباخرة ترانسلفانيا، وكان مسؤول القافلة الرفيق كيورك مانوشاكيان. وبذل الرفيق هرانت كريكوريان جهوداً كبيرة متفانية في تحضير وتنظيم هذه الرحلة لقافلة العائدين. وشاركت معه شخصياً في كل الأعمال. كذلك عمل بنشاط في هذا المجال أغوب تشكشنيان، وهو، على غرار كربيس تولومجيان أيضاً، عضو في الحزب الشيوعي منذ العام 1930. وكانا من مؤسسي وقادة فرع منظمة «هوغ» (جمعية مساعدة أرمينيا) في دمشق (مع الرفيق أرسين بارسخيان)، قبل أن يسافر كربيس تولومجيان في وقت لاحق إلى فرنسا حيث انضم إلى صفوف الحزب الشيوعي، وخلال الاحتلال الألماني لفرنسا انضم إلى المقاومة الوطنية الفرنسية، وللسبب نفسه اعتقل شقيقه على يد «الغستابو» الألماني واستشهد في المعتقلات الهتلرية. وبقي أغوب تشكشنيان، هو أيضاً، أميناً ومخلصاً يعمل في صفوف الحزب بدمشق وبيروت في الظروف العلنية والسرية إلى أن توفي عام 1983.

انتقلتُ في تلك الآونة مع عائلتي إلى بيروت بقرار من الحزب، ومن ثم سافرت إلى حلب للمساعدة على تحضير قافلة العائدين من

حلب إلى أرمينيا، وللمشاركة في الأعمال السياسية والتنظيمية المتعلقة بإعداد القافلة. وخلال عملي هناك أقمت علاقات ودية وحميمة مع مبعوث أرمينيا السوفياتية المختص بشؤون العائدين الرفيق هامو خاتشادوريان، وبعدئذ رجعت إلى عائلتي في بيروت.

وقد تشكلت خلال وجودي في دمشق هيئة مصغّرة من أجل تثقيف كادرات الحزب القيادية، وكانت هذه الهيئة تجتمع بشكل دوري للبحث بالقضايا الفكرية، وقوامها خالد بكداش ورشاد عيسى وأرتين مادويان وفوزي شلق. كلفت إلى جانب هؤلاء إلقاء محاضرات حول قضايا إيديولوجية تتناول أسس الماركسية اللينينية، وكانت المحاضرات تعدّ مسبقاً. وبدأت إثر عودتي إلى بيروت بالمشاركة في تنظيم قوافل العائدين الجديدة.

بعد تنفيذ برنامج قوافل العائدين الأرمن عام 1946، عقد اجتماع للهيئة المركزية المنظمة للقوافل من لبنان وسوريا لبحث ما تمّ تنفيذه وتصحيح بعض النواقص، ووضع برنامج عمل للسنة اللاحقة. وقد شاركت في أعمال هذه الهيئة بصفتي أحد أعضائها.

كانت قد شكلت قبل ذلك هيئة مركزية للقوى الوطنية الأرمنية يشارك فيها الشيوعيون والهنشاك والرمغافار وشخصيات وطنية مستقلة. كنت ممثلاً للحزب في هذه الهيئة وصارت اجتماعاتها تعقد في مركز نادي «فيراتزونونت» قبالة شركة كهرباء لبنان على طريق النهر، وقد أصبح يعرف فيما بعد بمقرّ «الحلقة الأدبية الأرمنية» في لبنان وكان مركزاً نشطاً، وما فتئ يقوم بدور نشيط وحيوي على الصعيد الثقافي الأرمني حتى بداية الحرب الأهلية في لبنان عام 1975.

وأقيم لقاء شعبي باقتراح من الحزب في مركز نادي باكراميان، تكلمت فيه عن الصعوبات الناشئة لدى الأرمن العائدين في داخل أرمينيا. وكانت هذه الصعوبات تستغل من قبل أعدائنا، حيث إنها خلقت غموضاً وضياعاً لدى البعض. أوضحتُ في كلمتي أن عودة الأرمن إلى وطنهم

الأم هي مهمة ملحة لا تحتمل التأجيل في المرحلة التاريخية من حياة الأرمن الراهنة، وعلينا أن نتحمل بعض الصعوبات الناتجة عنها. هذه الصعوبات ناتجة عن الحرب الوطنية الكبرى التي استمرت أربع سنوات، ولا شك أنها موقتة، وهذا الموضوع يجب أن ننظر إليه بوعي قومي أرمني وبروح وطنية عالية.

وتكلم بعض الحاضرين مؤيدين هذا الرأي. وانتهى اللقاء بجو مفعم بتفهُّم هذا الموضوع.

في أوائل صيف 1947 بدأ تنظيم المرحلة الثانية من قافلة العائدين إلى الوطن. وكان وفد قد عاد من أرمينيا السوڤياتية لاستئناف الإشراف على هذه القافلة، وهو يتألف من الرفيقين زافين تشارتشيان وسيرج كارابيديان بخصوص لبنان والرفيقين هامو خاتشادوريان وأغوبوف في ما يتعلق بسوريا، وقد حلّ أغوبوف مكان الرفيق الكسندر هاروتيونيان الذي أشرف على المرحلة الأولى ومكث حوالى السنة في سوريا.

وقد أُرسلتُ في عام 1947 إلى حلب لمساعدة رفاقنا هناك على أعمال تنظيم القافلة سياسياً وتنظيمياً.

وكما في السنة الماضية فقد تعاونت بشكل ودّي مع الرفيق هامو خاتشادوريان ثم عدت إلى بيروت مع القافلة للمشاركة في أعمال تنظيم القوافل الجديدة من هنا. وفي هذا المجال يجب أن أشير بشكل خاص إلى الدور الفاعل والمسؤول الذي قام به الرفيق يبرم الليزيان على نحو قيادي ووفقاً لمفهوم سياسي واضح.

وغادر مع القافلة الأخيرة رئيس الهيئة المركزية للعائدين الأرمن الرفيق هرانت ديفرجيان الذي تعرض لمحاولة اغتيال من قبل الطاشناك وأصيب بجروح خطيرة. وقد أثارت هذه المحاولة جواً من النقمة المعادية للطاشناك. وكان ديفرجيان يتمتع باحترام كبير في أرمينيا وقد انتُخب نائباً في الجمهورية. وكان عضواً في لجنة الاحتفالات بمناسبة ذكرى مرور 800 سنة على تأسيس مدينة موسكو. وكان يساعد العائدين الأرمن على

الصعوبات الناشئة لديهم. وقد توفي بحادث مؤسف. يجب أن نشير إلى أن القائم بأعمال السفارة السوڤياتية خانغولوف كان يهتم بتنظيم العائدين الأرمن ويحل ما يطرأ من صعوبات وبينها إشكال نشأ في آخر قافلة للعائدين، إذ كان عددهم أكثر بكثير ممّا تستوعبه السفينة «بوبيدا»، وكان الأمر صعباً على قبطانها حيث إن القانون لا يسمح بزيادة عدد الركاب على متن سفينته. كان المئات ضمن هذه القافلة قد قدموا من منطقة الجزيرة في سوريا، وكانت هذه آخر رحلة للعائدين في تلك السنة. اتصل خانغولوف عبر الباخرة بموسكو يطلب الإذن للسماح بصعود جميع الركاب إلى الباخرة. كان خانغولوف هذا صبوراً لا ينوء أمام صعوبة، وإنما يعالج الأمور برويّة.

خلال السنتين المذكورتين عاد إلى أرمينيا 12 ألف شخص من لبنان و20 ألفاً من سوريا، حيث غادر من بلدة عنجر وحدها أكثر من أربعة آلاف شخص. كما غادر جميع سكان الكامب الأرمني الذي كان في مدينة صور ممن هجّروا من لواء اسكندرون.

كانت جموع لا حصر لها من الأرمن توجد على المرفأ خلال توديع كل قافلة من قوافل العائدين حيث كانت تتداخل صيحات الوداع مع انهيار الدموع المفعمة بالشعور الوطني. وهذه المشاهد لا يمكن أن تمحى من ذاكرة المرء.

في أواخر العام 1947 انعقد اجتماع للهيئة المركزية لتنظيم قوافل العائدين. وبعد رحيل آخر قافلة في تلك السنة، وذلك لتقويم ما أنجز، ولوضع برنامج للسنة القادمة.

خلال هذا الاجتماع بحث موضوع إعادة تشكيل الهيئة التنفيذية، حيث أن رئيس الهيئة باكاراد باكاليان طلب إعفاءه من هذه المسؤولية. وهو الذي لعب دوراً كبيراً من أجل استئذان السلطة اللبنانية للسماح بعودة الأرمن إلى أرمينيا. وكان هذا الرجل وطنياً متفانياً ومحترماً وبقي على هذا النحو. وبعد المداولة حول طلب إعفائه انتخب المحامي

هراتش ستراكيان رئيساً جديداً للهيئة وأرتين مادويان أميناً للسر وأرميناك بولاديان أميناً للصندوق وعضوية هيغاشين أوزونيان، يبرم الليزيان، الدكتور هوفسيب يوزغاتليان، الدكتور بيلويان، ومن حلب القس خرلوبيان وأرشاك كالمكيريان والدكتور جبجيان، ومن بيروت كيورك بابويان ووهريج جرجيان.

كان عام 1948 عام الانتظار. وأخيراً أعلن وقف رحلات العودة إلى الوطن نظراً للظروف.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية جرى اتفاق بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا على إعادة أجزاء من الأراضي الخاضعة للاحتلال التركي، وبشكل خاص ولايتي غارس وارداهان وضمهما إلى أرمينيا السوفياتية. في ظروف كهذه، وبمبادرة من أرمينيا السوفياتية ومن الحكومة المركزية للاتحاد السوفياتي، أُقر مبدأ إعادة 400 ألف أرمني من بلدان الاغتراب لإسكانهم في غارس وارداهان والمناطق الأخرى في أرمينيا. ولكن، مرة أخرى خانت أميركا وبريطانيا الشعب الأرمني. لقد رفضتا الاعتراف بالاتفاقية وتنفيذها وأعلنتا أن حدود تركيا هي حدودهما، وهدّدتا الاتحاد السوفياتي بالحرب مرتكزتين على أن الولايات المتحدة الأميركية تملك القنبلة الذرية دون الاتحاد السوفياتي الخارج حديثاً من حرب مدمّرة.

وكانت الحرب الباردة ضدّ الاتحاد السوفياتي قد بدأت. رغم ذلك لم تتوقف كلياً عودة الأرمن إلى أرمينيا السوفياتية وإنما استمرت ضمن إطار التقدم بطلبات خاصة.

وفي إطار مراجعة نقدية حزبية حول حركة عودة الأرمن، يجب أن نشير إلى دور قيادة الحزب وبشكل خاص بقيادة خالد بكداش. إنها لم تعمل من أجل الإبقاء على الكادرات الأساسية الأرمنية والبنية التنظيميّة للحزب بين الأرمن. لم يُعيروا هذا الموضوع أية أهمية.

وهكذا فقد سافر نحو ثمانين بالمئة من كوادر ومناضلي الحزب الأرمن مع قوافل العائدين، نتيجة للتصرفات الخاطئة تجاههم. وهؤلاء سافروا خلال فترة النهوض السياسي للحزب وذلك نتيجة لعدم وجود تثقيف حزبي لكادرات الشباب الجدد. لقد رحل من برج حمود وحدها 300 رفيق شيوعي، وبسفرهم ضعف الحزب جدياً في هذه المنطقة. لم يفكر الحزب ولو في الحدّ الأدنى بأن كادرات الحزب ومناضليه يجب أن لا يكونوا من أوائل المسافرين. كانت مهمة صعبة بلا شك؛ لكنها لم تكن مستحيلة.

تغيير رئيس الحزب... لماذا؟!

في خريف عام 1946 بعد عودة الرفيق نقولا شاوي من أوروبا، عقد اجتماع للجنة المركزية للحزب في مكتب الرفيق أنطون ثابت بدعوة من الرفيق خالد بكداش، وقد تغيّب عن الاجتماع بعض أعضاء اللجنة المركزية.

كان على جدول أعمال الاجتماع تغيير رئيس الحزب. قدم الرفيق خالد بكداش اقتراحاً يطلب من رئيس الحزب فرج اللّه الحلو تسليم مسؤولياته للرفيق نقولا شاوي. أكيد أن الرفيق نقولا شاوي، شأنه شأن الرفيق فرج اللّه الحلو، يستحق هذا المنصب. لكن لم يكن ثمة سبب لهذا التغيير. رغم ذلك، وتحت تأثير الرفيق خالد وإصراره وافق المجتمعون مع الأسف، بمن فيهم فرج اللّه الحلو، على هذا الاقتراح. من الأكيد أن هذا التغيير الذي جرى كان يهدف إلى تحطيم الرفيق البارز، حتى يصار فيما بعد إلى تحطيم الرفيق الذي يبرز لاحقاً. وهذا كان أسلوب خالد بكداش في التعامل مع الكادرات القيادية، وبغية فرض سياسة عبادة الفرد داخل الحزب.

التمايز مقبول (؟)

عقدت اللجنة المركزية خلال عام 1946 اجتماعاً في مركز الحزب الكائن في خندق الغميق. وفي الاجتماع طُرحت إلى جانب مواضيع سياسية أخرى وجهات النظر المختلفة بين الاتحاد السوفياتي وأمين عام الحزب الشيوعي الفرنسي الرفيق موريس توريز حول منطقة روه في ألمانيا. هنا يجب أن أشير إلى ما قاله الرفيق خالد بكداش علناً: «ممكن أن تنشأ وجهات نظر مختلفة حول مواضيع عديدة مع الاتحاد السوفياتي».

عند هذه الواقعة رأيت من الواجب أن أسجل ما جرى حسب الترتيب التاريخي في الصفحات المقبلة لتأكيد بعض الحقائق.

الانتخابات النيابية في 25 أيار 1947

تحت تأثير الوزن السياسي للاتحاد السوفياتي على النطاق العالمي تصاعد النضال الوطني في عام 1947 كما في لبنان كذلك في سوريا من أجل تعزيز الاستقلال وتطوير الحريات.

ونتيجة لنضالات حزبنا منفرداً دفاعاً عن لقمة الشعب وعن مطالبه الاجتماعية وبشكل خاص في الأوساط الأرمنية (تحت تأثير دورنا الكبير في تنظيم عودة الأرمن)، وفي مرحلة كانت فيها البلاد كلها تعيش في نهوض سياسي متزايد وأصبح حزبنا حزباً جماهيرياً وازداد نفوذه السياسي والتنظيمي في جميع الأوساط ولا سيّما الشعبية منه...

في هذه الظروف السياسية قرّر الحزب تشكيل لائحة انتخابية موحدة مع القوى الديموقراطية الأخرى للمشاركة في الانتخابات النيابية الأولى في لبنان بعد الاستقلال وبعد انسحاب القوات الأجنبية، التي حدد يوم 25 أيار لإجرائها. كُلفت إجراء مفاوضات لتشكيل القائمة الانتخابية وقيادة الحملة الانتخابية وتنظيم ماكينة انتخابية بين الأرمن.

اتفق نتيجة للمفاوضات على عقد اجتماع في منزل رئيس الجمهورية السابق ألفرد نقاش. انعقد الاجتماع وتقررت اللائحة الانتخابية. وكانت مؤلفة من ألفرد نقاش (ماروني)، أمين بيهم (مسلم سني)، الرفيق مصطفى العريس (مسلم سني)، المهندس هراتش شامليان وكرنيك ميناسيان (أرمن أرثوذكس، غير حزبيين)، وبقي شاغراً مقعد المسلمين الشيعة ومقعد الأقليات.

كان الشعار الرئيسي للقائمة الموحدة تعزيز استقلال لبنان وحماية الحريات الديموقراطية. وأصدر الحزب بياناً أيد فيه الاتفاقية ودعا الجماهير لانتخاب هذه اللائحة. كان نادي فيرازنوت مركزاً للنشاط الانتخابي وكان يعمل معي أحد قادة حزب الهنشاك الرفيق هارتيون كوجوني (جيريجيان).

وحرصاً على حسن سير الحملة الانتخابية عقدتُ اجتماعات للكادر الحزبي داخل كل حي للبحث معاً في تنظيم الحملة الانتخابية. كانت توجهاتنا التنظيميّة تقضي بإشراك كل الرفاق في اللجان بغية «تشغيلهم» جميعاً، والاتصال بكل الناخبين في الأحياء. ويوم الانتخابات كان من المقرر أن يرافق الرفيقُ الناخبَ إلى صندوق الاقتراع للتأكد من أنه يصوّت إلى جانب لائحتنا. ويجب أن نشير إلى أن رفاقنا نجحوا في تحقيق هذه المهمات.

وأقيم في 16 أيار مهرجان كبير في ملعب ساحقيان الرياضي بحضور عشرين ألف شخص، بدعوة من «الجبهة الديموقراطية الأرمنية» وفي جوّ حماسي رائع، كانت هذه الجبهة مشكّلة من الشيوعيين والهنشاك والرمغافار ونادي «فيرازنوت». حضر الاحتفال كل المرشحين في لائحتنا. افتُتح المهرجان بالنشيد الوطني اللبناني وكلمة الافتتاح كانت للمهندس هراتش سيتراكيان (رمغافار). وقد ألقيتُ كلمة الحزب الشيوعي، وأهم ما جاء في كلمتي: «إن مشاركة هذا الحشد الكبير من الجمهور في هذا المهرجان إنما تدل على وحدة الشعب الأرمني. هذا

الشعب الذي أعطى مليون شهيد خلال المجازر، وحافظ على هامته مرفوعة فلم يركع أمام الجزارين الأتراك. وسوف لن يركع أمام التهديدات والإرهاب هنا في لبنان. هذه الانتخابات النيابية هي أول انتخابات بعد الاستقلال، وبعد انسحاب القوات الأجنبية من لبنان. وطالما المناخ الوحدوي يلف أبناء شعبنا من أرمن وعرب، فلن يستطيع الرجعيون هدم هذه الوحدة المقدسة».

وتكلم بعد ذلك كل من: ممثل حزب الهنشاك المفكر هوفسيت جريان، الرفيق مصطفى العريس، المحامي هراتشيا شامليان والرئيس ألفرد نقاش (راجع ما جاء في هذا الصدد في مذكرات مصطفى العريس، صفحة 298).

كان انتصار القائمة حتمياً في ظروف طبيعية. أما وأننا نواجه لائحة الحكومة فالأمر يختلف.

لقاء مع رئيس الوزراء رياض الصلح

قبل تشكيل قائمتنا الانتخابية بصورة نهائية طلب الرئيس رياض الصلح من جبهتنا اللقاء معه والتباحث في القضايا الانتخابية وبشكل خاص حول المرشحين الأرمن. كان رياض الصلح منهمكاً ومشغول البال إزاء وضع القائمة الانتخابية الحكومية. كان يعمل لتأمين جميع الأصوات الأرمنية إلى جانب لائحة الحكومة. من المؤكد ومن البديهي القول إذا تمَّ ذلك فهو يؤمن له انتصاراً مؤكداً بالانتخابات. كنت في هذا اللقاء مع ممثل حزب الهنشاك. اقترح رياض الصلح أن يكون أحد المرشحين الأرمن في لائحته من جبهتنا والثاني موسيس دير كالوستيان من حزب الطاشناك. فرفضنا نحن ترشيح دير كالوستيان وطالبنا تمثيلنا بمرشحين من جبهتنا الأرمنية. فأصرّ رياض الصلح على اقتراحه، مع تهديد ضمني. ومن جهتنا أكدنا على اقتراحنا رافضين فكرته، وقلت له: «أنتم تعرفون

جيداً، رياض بك، أننا لن نتراجع. نحن مرتكزون على الشعب، والشعب يقرّر إرادته الانتخابية».

وقد جاءت كلمتي في مهرجان ملعب ساحقيان بمثابة ردّ على تهديدات رياض الصلح... وهكذا فأمام هذا الواقع لجأت الحكومة إلى إجراءات تعسفية بحق الشعب، من قمع وتزوير توخّياً لتأمين نجاح لائحة أهل الحكم.

.. وبدأت الاستفزازات والتحديات.. والإجرام

وما إن اقتربت الانتخابات حتى لجأ الطاشناك الذين انضموا إلى اللائحة الحكومية، مع حلفائهم وبعض المأجورين إلى القيام بتظاهرة استفزازية بالسيارات، فمرّوا على طريق النهر من أمام مركزنا الانتخابي «فيرازنوت» وهم يطلقون الشعارات الاستفزازية. تصرفنا بأعصاب باردة في مواجهة هذه التعديات فقرّرنا القيام بتظاهرة سلمية ضخمة بالسيارات في اليوم التالي.

كنتُ في منزل ألفرد نقاش حيث كان مقرراً أن يحضر أعضاء اللائحة الانتخابية جميعاً لتوقيع الاتفاق الأخير. كانت مسيرتنا بالسيارات جاهزة للانطلاق. وقام قره بت باشابيزيان وأوهانس اغباشيان، بناء على إلحاح الشرطة، بإبلاغ السلطات الرسمية وجهة سير التظاهرة دون أن يشكّوا في احتمال حصول عمل تآمري من قبل الشرطة. ولم يأخذوا، في الوقت نفسه أي إجراء احتياطي. حتى إنهم لم يفكروا في هذا الموضوع على الاطلاق.

وعندما وصلت المسيرة إلى برج حمود تعرضت لإطلاق النار من أحد كمائن الطاشناك في حي نورسيس، فجُرح الرفيق بوغوص ناتريان. أحد الرفاق العرب جورج عيان ظن أنه جريح أيضاً. وصاح منادياً: «من أجلك أيها العلم الأحمر». نُقل الرفيق ناتاريان إلى المستشفى الفرنسي

«أوتيل ديو» وتوفي هناك. قبل وفاته بساعتين قالوا لنا في المستشفى إن حالته قد تحسنت. وقد تولَّدَ شك لدينا عما إذا كانت وفاته ناتجة عن جريمة ثانية داخل المستشفى؟؟ إلّا أننا بقينا في إطار الشك.

ولقد وقع خبر جريمة اغتيال الرفيق بوغوص ناتريان وقْعَ الصاعقة لدى الرأي العام الشعبي والوطني. وشارك في تشييعه أكثر من ثلاثين ألف مواطن، في جو من الاشمئزاز والغضب، وقد ووري في الثرى في مدافن الأرمن الأرثوذكس في فرن الشباك .

يوم «25 أيار» الأسود

كان يوم 25 أيار يوم الانتخابات. كنا قد تأكدنا صباح ذلك اليوم، في الـ 24 ساعة التي سبقته، من صحة وحركة جهازنا الانتخابي في الأحياء الأرمنية، وأعطيت التوجيهات الأخيرة. ولكن قوات الجيش والدرك كانت قد احتلت الشوارع بالملّالات منذ الصباح. وأغلق مسلحو الطاشناك مع مأجورين من العرب مداخل مراكز الاقتراع أمام ناخبينا وسمحوا لناخبيهم فقط بالاقتراع.

قرب منزلي في حي مار مخايل كان يوجد أحد مراكز الاقتراع، داخل مدرسة كنيسة مار مخايل، وقد استطعت الدخول إلى باحة المدرسة منفرداً ولم يسمحوا بدخول رفاق آخرين معي. أما السماح لي بالدخول فكان مرتبطاً بقرار مسبق ولتأدية عمل ما. حاولت أن أقترب من مدخل غرفة الاقتراع لتأمين دخول مؤيدينا للإدلاء بأصواتهم ولكني لم أنجح. رجال الدرك والجيش لم يسمحوا لي بالدخول. أحد المسلّحين المأجورين من الطاشناك اقترب مني، وكنت أعرفه، نصحني بالابتعاد عن المكان.

بدأت عملية الاقتراع ببطء، ولم يسمح بالدخول إلا لمؤيديهم. بحسب القانون ينبغي قبل بدء الانتخاب أن يُفتح الصندوق أمام

الحاضرين للتأكد من خلوّه من أية أوراق انتخابية. لكن الصناديق لم تُفتح، فقدمت احتجاجاً وطلبت فتح الصناديق. أخرجني الدرك عنوةً من غرفة الاقتراع. كنت أتجول في داخل الباحة محاطاً بالشرطة وبالمسلحين المأجورين. كنتُ أحاول تجنّبهم لعدم فسح المجال لأي حادث ولعدم إعطائهم ذريعة لإطلاق النار عليّ. اقترب منّي أحد الناخبين وسألني عن مكان غرفة الاقتراع. أرشدته إلى الغرفة ففوجئتُ بالهجوم علي، واتُهمتُ بأنني أحاول تغيير ورقة الناخب. وكانت هذه حجة باطلة. ناديتُ الرجل وطلبتُ منه أن يبرز ورقته الانتخابية، وصودف أن الورقة التي أبرزها كانت لائحتهم! في تلك اللحظة اقترب مني أحد الموظفين العرب، وكنت أعرفه، فتدخل لمصلحتي. وهكذا فقد أحبطت محاولتهم الاستفزازية، ولكنهم مكثوا حولي استعداداً لاستفزاز جديد. نصحني صديقي الموظف العربي بأن ابتعد. لم يكن ثمة مخرج آخر. عدتُ إلى منزلي الذي كان مركزاً لنشاطنا الانتخابي، وفي تلك اللحظة وصلتنا معلومات تفيد بأن أمام أحد المراكز الانتخابية قرب مخفر الشرطة أطلق الجيش النار على أحد رفاقنا هاكوب اداجيان، من جبل موسى، فقُتل. في الحقيقة كانت هذه الجريمة موجهة ضد الرفيق بارور يرتسيان الذي كان واقفاً أمام المخفر وتحت إبطه حقيبة يد.

الرفيق بارور لدى صعوده إلى المخفر سلّم الحقيبة للرفيق الذي كان يرافقه، فحملها هذا الأخير أيضاً تحت إبطه ووقف في المكان عينه، وهكذا قُتل هاكوب اداجيان بدلاً من بارور يرتسيان.

هكذا كان الوضع الانتخابي في أنحاء المدينة كلها. في كل المراكز الانتخابية ساد الإرهاب والتزوير. أمام هذا الواقع، انسحبت لائحتنا الانتخابية احتجاجاً على هذه الممارسات التعسفية والتزوير الفاضح، وحملت السلطة المسؤولية، مطالبة بإلغاء الانتخابات غير الشرعية. اتخذ الموقف نفسه جميع المرشحين المستقلين خارج لائحة الحكومة.

وشهد عصر اليوم المذكور مهرجاناً احتجاجياً في مدرسة ساحقيان

حيث أَلْقَيْتُ كلمة شرحت فيها الوضع معلناً رفضنا الاعتراف بهذه الانتخابات التي جرت في ظلّ الإرهاب والتزوير، وطلبتُ إلغاء هذه الدورة الانتخابية ثمّ طلبت من الشعب النضال من أجل حماية الاستقلال والحريات الديموقراطية، وضد الإرهاب والتزوير وضدّ نتائج هذه الانتخابات.

حضر المهرجان أمين عام حزب الكتائب جوزف شادر (شادريان، وهو من الأرمن الكاثوليك)، مع مجموعة من حزبه كانوا ضد السلطة. وقد رغب شادر في إلقاء كلمة من على منبر المهرجان فرفضنا رغم إصراره.

وسَرت في جسد البلاد كلها قشعريرة من السخط والحزن. احتجاجات في كل مكان. «المؤتمر الوطني»، نقابة الصحافة، الأطباء، المثقفون وعدد كبير من الشخصيات السياسية والاجتماعية أعلنوا استنكارهم. وجرى المهرجان في مدرسة الحكمة بحضور 15 ألف شخص وطالب الجميع بإلغاء هذه الانتخابات.

أصبحت الحكومة معزولة كلياً. الشيخ بشارة الخوري أمن أكثرية داخل مجلس النواب وأعيد انتخابه رئيساً للجمهورية، ولكن النقمة التي بدأت منذ 25 أيار تبلورت وتعمقت، وتحولت إلى انتفاضة شعبية، وفُرض على الشيخ بشارة الخوري الاستقالة من الحكم في العام 1951.

كان يوم الخامس والعشرين من أيار عام 1947 يوماً أسود في حياة لبنان.

.. ومعركة انتخابية في حلب

بعد الانتخابات النيابية التي جرت في 25 أيار سافرتُ بقرار حزبيّ إلى حلب لمساعدة رفاقنا في المعركة الانتخابية التي سوف تجري هناك. وكان عملي مع الرفيق هارتيون ماخيان مسؤول المنظمة الحزبية ورفاق آخرين.

كان مرشح حزب الطاشناك هراتش بابازيان على لائحة الكتلة الوطنية. وكان من المفروض أن نجد مرشحاً تلتقي حوله جميع القوى الوطنية الأرمنية المعادية للطاشناك، الحزبية منها والمستقلة. وعلى هذا المرشح أن يكون مقبولاً في لائحة قوية لضمان الفوز.

كان هدفنا الأساسي إسقاط مرشح الطاشناك هراتش بابازيان.

نجحنا في مهمتنا.

اتفقنا مع القاضي السابق اسطفازادور فتال (فتاليان) لترشيحه في مواجهة مرشح الطاشناك بابازيان على لائحة حزب الشعب.

جرت الانتخابات في جو محموم في الوسط الأرمني. وانتصرت لائحة حزب الشعب فهزم هراتش بابازيان ونجح فتاليان.

وقد تبيّن أن اسطفازادور فتاليان لم يحصل فقط على غالبية الأصوات العربية، بل على غالبية الأصوات الأرمنية أيضاً.

كان هذا انتصاراً سياسياً على النطاق الأرمني.

وعدت إلى بيروت.

تغيير جديد في موقف الطاشناك واغتيال الرفيق يغيايان.

عندما كنت في حلب قرأت في جريدة «جوغوفورتي تساين» نبأ اغتيال الرفيق أطام يغيايان غدراً في بيروت على يد عصابات الطاشناك. كانت جريمة دنيئة ومفجعة تعرّض لها الرفيق الشاب أطام يغيايان، ابن العائلة العمالية، الشيوعي النشيط والمتفاني من أجل الحزب. كان بطلاً ومقاتلاً جريئاً، يخاف منه أعداء الشعب والحزب. اغتياله خلق اشمئزازاً وحزناً لدى فئات واسعة من الوطنيين الأرمن المعادين للطاشناك. إن الاغتيال الدنيء للرفيق أطام يغيايان لم يكن وليد الصدفة، وإنما كان هو نتيجة اتجاه جديد في سياسة الطاشناك.

قبل حادثة الاغتيال جرى لقاء بين أحد قادة الطاشناك المعروفين

غارو ساسوني مع الرفيق يبرم اللزيان. وقد صارحه ساسوني سلفاً بأنه ستحدث اغتيالات وهناك احتمال دخول «مرحلة جديدة من العلاقات».

وفي العام 1947 بدأ الطاشناك في مدينة حلب ينشدون في الشوارع نشيد: «نقبّل خنجرك أيها الرفيق المجهول الذي قتلت الكلب «ثوريان»».

أما ثوريان فهو أحد أساقفة كنيسة عموم الأرمن، اغتيل على يد الطاشناك بواسطة خنجر سام في داخل الكنيسة الأرمنية في نيويورك أثناء قيامه بترؤس قداس احتفالي، وذلك بسبب رفضه الانصياع لهم.

كما وزع الطاشناك في حلب بيانات مناوئة لعودة الأرمن إلى أرمينيا.

وكانت الحرب الباردة قد بدأت في عام 1947. في المؤتمر الذي عقده الطاشناك في القاهرة عادت «حليمة» إلى مواقفها القديمة. وبكلمة أخرى ففي عام 1947 قرر الطاشناك نهائياً الالتحاق بالحملة الغربية المعادية لروسيا الشيوعية، مشاركين في العمل التخريبي المنظم من قبل أميركا في مؤتمر ميونيخ. وأرسلوا عدداً كبيراً من الشبان الأرمن من لبنان وسوريا إلى ميونيخ لتدريبهم على الأعمال التخريبية، على أن لا تقتصر هذه الأعمال التخريبية على بلدان الشرق الأوسط خدمة للمصالح الأنكلو ـ أميركية بل تشمل التجسس على جبهات القفقاس تحضيراً للحرب التي لا مفر منها. من أجل هذا العمل كان الطاشناك مدعوين للقيام بأعمال تخريبية في الداخل بناء على استطلاعات مجهزة من قبل القوات الأميركية في الخارج إلى جانب تركيا التي هي الموقع الأمامي ضد الاتحاد السوفياتي. (فوتونتجيان. في كتابه «حرب المركز (المقر الأعلى) والأهداف الحقيقية لحزب الطاشناك»، ص 76ـ78).

وأرسل إلى لبنان في السياق نفسه أحد قادة عصابات الطاشناك المعروفين تروغانيان. كان هذا الشخص قد قاتل ضمن القوات الهتلرية ضد السوفياتية، وبعد اندحار ألمانيا الهتلرية استسلم إلى الأميركيين وعمل في خدمتهم.

لم أكتب هذه الكلمات من أجل خلق البلبلة والحساسية بل من أجل

تحويل هذه الحقائق ملكاً للأجيال الصاعدة، فلا سبيل إلى طمس هذه الوقائع.

مؤتمر عموم الأرمن في نيويورك

اتخذ مجلس عموم الأرمن في اتشميازين قراراً بعقد مؤتمر شامل للأرمن في المهجر، وذلك في مدينة نيويورك. كان من مهمات المؤتمر إقرار بيان يطالب بإعادة الأراضي الأرمنية التي تحتلها تركيا إلى الوطن الأم. وتسليم هذا البيان إلى هيئة الأمم المتحدة متمنياً أن توافق عليه.

وأرسلت جميع مراكز التجمعات الأرمنية في المهجر مندوبيها إلى نيويورك. كان مندوبو لبنان وسوريا كيفورك بابويان عن الهنشاك، الموسيقار همبارسوم بربريان عن الرمغافار، أرشاك كالمكريان (مستقل) من حلب، وأرتين مادويان عن الحزب الشيوعي.

ونجح هؤلاء جميعاً في الحصول على تأشيرة دخول أميركية وسافروا إلى نيويورك. أما بالنسبة إلي فقد رفضت السفارة الأميركية إعطائي «فيزا» لهذه الغاية.

كانت الحرب الباردة قد اشتدت قبل موعد انعقاد المؤتمر. وأعلن البريطانيون والأميركيون توليهم مسؤولية الدفاع عن الحدود التركية مهدّدين الاتحاد السوفياتي بالحرب. ضمن هذه الأجواء، لم يستطع المؤتمر تحقيق أهدافه، واكتُفي خلال جلسات المؤتمر بإقرار بيان ما، وتسليمه إلى الأمم المتحدة.

وقد كتبت آنذاك ثلاث مقالات افتتاحية في جريدة «جوغوفورتي تساين» دفاعاً عن الطلب المتعلق بإعادة الأراضي الأرمنية.

هجمة إمبريالية ـ رجعية ضد حزبنا

عشية 29 تشرين الثاني عام 1947 كان مجلس الأمن يبحث مشروع

تقسيم فلسطين المقدم من قبل أميركا وبريطانيا، وكان الوضع السياسي عصيباً.

في يوم الأحد 29 تشرين الثاني عقد اجتماع موسع للجنة المركزية للحزب في مركزه بخندق الغميق. لم يكن على جدول أعماله بند القضية الفلسطينية، التي كان القضية الرئيسية آنذاك.

وأقيم في اليوم نفسه مهرجان قبل الظهر في قاعة سينما روكسي احتفالاً بذكرى أرمينيا السوفياتية واستقلال لبنان ، برعاية وحضور نائب رئيس الوزراء جبرايل المر، كما حضر سفير الاتحاد السوفياتي وأركان السفارة وعدد كبير من الشخصيات السياسية والاجتماعية وحشد جماهيري كبير. وألقى الرجل الوطني الأرمني الكبير بطريرك كيليكيا للأرمن الأرثوذكس كراكين هوفسبيانس كلمة ألهب فيها القاعة بالحماسة الوطنية.

من أجل حضور هذا المهرجان رفعت اللجنة المركزية اعمالها إلى ما بعد الظهر. وحضر الاحتفال الرفاق خالد بكداش، وفرج اللّه الحلو، ونقولا شاوي، ونحن الأرمن.

وأثناء المهرجان تلقينا اتصالاً هاتفياً من مركز الحزب بدمشق يعلن أن المركز يتعرض لهجوم مسلح من قِبل مأجورين، وأنهم أضرموا فيه النار واستشهد خلال هذا الصدام الرفيق حسين عاقو. كما هوجم ودمّر مركز الصداقة السورية السوفياتية في دمشق، ودمر أيضاً مركز الحزب في حلب. وكانت الذريعة واضحة، حيث إن مجلس الأمن أقر بالإجماع مشروع تقسيم فلسطين إلى شطرين يهودي وعربي، وكون الاتحاد السوفياتي قد صوت إلى جانب هذا المشروع.

وكان لدى الامبرياليين والرجعيين قرار مسبق بشن هجمة شاملة ضد حزبنا، خصوصاً في ظل المشاركة والتأييد الضمني من قبل السلطات المحلية آنذاك.

إن ما حصل كان نتيجة للسخط الشعبي والوطني ضد تقسيم فلسطين

وضدّ الصهيونية، ولكن مع الأسف فقد استفاد عملاء الامبريالية والرجعية من هذا الانفجار الشعبي الذي انحرف في اتجاه شوفيني، فقاموا بتجييره ضد حزبنا وضد الاتحاد السوڤياتي وليس ضد أميركا وبريطانيا.

خرج الرفاق من المهرجان وعادوا إلى مركز الحزب للبحث في الوضع الناشيء، من أجل اتخاذ الإجراءات الضرورية لمواجهته. وفي اليوم التالي حصل انفجار أمام المركز الرئيسي في خندق الغميق، تأكد أنه كان مفتعلاً ومنظماً من قبل رجال الدولة. وبحجة وقوع هذا الانفجار اتهم الحزب واقتحم رجال الأمن المركز ففُتش وأغلق. ومنعوا صدور جريدتي «صوت الشعب» و«جوغوفورتي تساين». كان المسؤول الإداري عن المركز في تلك الأثناء الرفيق كيفورك بالطاليان الذي واجه رجال الأمن بجرأة مثالية نادرة. وفيما بعد خدم هذا الرفيق ضمن الجهاز المركزي السري للحزب، وبعد سنوات انتقل إلى أرمينيا السوڤياتية.

وهكذا، فقد دخل الحزب عملياً مرحلة العمل السري، دون أن يكون قد اتخذ إجراءات تنظيمية مسبقة كما حصل في عام 1939. لقد سها عن بالنا في هذه الفترة التفكير في الحرب الباردة وأبعادها بالنسبة إلينا. لم نفكر في ملابسات اجتماع مجلس الأمن والقرار الذي قد يصدر وتأثيره بالنسبة إلينا.

حسب شهادة الرفيق يوسف خطّار الحلو، قال له الرفيق خالد في تلك الفترة: «من الآن وصاعداً لم يعد يحتمل قيام حرب، وليس من الضروري التفكير في اتخاذ إجراءات من أجل العمل السري». وعملياً هكذا كانت التوجّهات الحزبية. وبكلمة أخرى، تناسى حقيقة أن خطر الحرب قائم بشكل دائم ما دامت الامبريالية موجودة. والامبريالية موجودة وقوية.

بدأ الحزب، على وجه السرعة، بتنظيم عمله السري وكانت لي في هذا الإطار مهمة محددة.

كان للرفيق فرج الله الحلو في تلك الفترة علاقات واسعة بأوساط

القيادات الوطنية ولعب دوراً مهماً من أجل عدم عزل الحزب داخل الحركة الوطنية. وسعياً مني للإفادة من الصداقة القديمة مع رياض الصلح فقد زرته في منزله بغية إعادة إصدار جريدة «جوغوفورتي تساين» لكنني تلقيت وعوداً عامة لم تنفذ، وكنت متأكداً، مسبقاً، من أن هذه الوعود سوف لن تنفّذ.

اتهام غير محق لفرج اللّه الحلو

لقد بدأ الهجوم الامبريالي الرجعي ضد الحزب من أجل عزله، مستفيداً من قرار مجلس الأمن بشأن تقسيم فلسطين. وبهاجس إنقاذ الحزب، وحسب ما قال خالد بكداش فإنّ فرج اللّه الحلو فكّر بأن يدلي بتصريح علني باسم الحزب الشيوعي اللبناني السوري، يدين تقسيم فلسطين وقرار مجلس الأمن. وعلى الفور استغل خالد بكداش وجود هذه الفكرة لدى فرج اللّه الحلو، كما أنه عاد واستخدمها في سنوات لاحقة لاتهامه بأنه «معادٍ للسوفيات».

في الحقيقة كانت هذه ضربة ثانية من خالد بكداش لفرج اللّه الحلو.

هذا في الوقت الذي نسي فيه خالد بكداش ما أفصح عنه خلال اجتماع اللجنة المركزية عام 1946، حيث وافق على مبدأ وجود اختلاف في وجهات النظر بين الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي موريس توريز، وبين الاتحاد السوفياتي حول مصير منطقة روه الألمانية. ولم يُتّهم خالد بكداش حينذاك بأنه معاد للسوفيات. بالإضافة إلى ذلك، كان خالد بكداش في سنة 1958 وفي السنوات التالية غير موافق على سياسة الاتحاد السوفياتي تجاه عبد الناصر. بمناسبة زيارة عبد الناصر إلى سوريا كتب الرفيق فرج اللّه الحلو افتتاحية في جريدة «النور» تحت عنوان: «أهلاً وسهلاً بعبد الناصر في سوريا». فما كان من خالد بكداش الذي كان موجوداً آنذاك في براغ، إلّا أن انتقد فرج اللّه الحلو بلهجة شديدة، على هذه الافتتاحية.

إن فرج اللّه الحلو لم يقم بعمل غير محق، وكان نزيهاً بمنطلقاته ولا يوجد أي مبرر للتشكيك فيه وجعله في موقع معاد للسوفيات، لقد كان فرج اللّه الحلو في كل حياته السياسية، الصديق والأمين المخلص وأفضل معبّر عن الصداقة مع الحزب الشيوعي السوفياتي، في الوقت الذي نجد أن خالد بكداش نفسه إلى جانب أنه أمين ومخلص للصداقة مع الحزب الشيوعي السوفياتي والاتحاد السوفياتي والثقة الموضوعة به، كان يستخدم دائماً هذه الثقة وهذه الصداقة لتعزيز مواقعه الشخصية، وصار يطلق، على مدى سنوات متواصلة، الاتهامات عن غير حق لتحجيم الرفاق الآخرين داخل الحزب.

حلُّ الفرع الأرمني

كانت الظروف التاريخية قد نضجت لحل الفرع الأرمني ووجوده منفصلاً داخل الحزب على الصعيد التنظيمي، حيث وصل الحزب سياسياً وتنظيمياً ووصلت الكادرات العربية في داخله إلى مستوى من النضج لا يستطيع أحد معها اتهام الحزب بأنه بمثابة منظمة أرمنية.

لقد بُحث هذا الموضوع بالتنسيق مع اللجنة المركزية وأعلن حَلُّ الفرع الأرمني للحزب. وصدر في كانون الثاني عام 1948 بيان يشرح ملابسات هذا القرار وحيثيّاته، موقع من قبل الرفاق أرتين مادويان، أوهانس أغباشيان، يبرم الليزيان، بارور يرتسيان، غارابيت باشابزيان، ستراك أباجيان، هارتيون ماخيان وأغوب تشكشنيان. شرح البيان دور الشيوعيين الأرمن في الماضي في الوسط الأرمني والوسط العربي والمهمات المطروحة أمامهم في المرحلة المقبلة.

هذا الإجراء التنظيمي الجديد اتُخذ خوفاً من انغلاق الشيوعيين الأرمن مع الوسط الأرمني على أنفسهم. ومن جهة أخرى فلا ريب لو لم يتخذ هذا القرار، لكانت قدرات الشيوعيين الأرمن وإمكاناتهم النضالية

لخدمة القضية الأرمنية والمصلحة اللبنانية المشتركة ستضعف. وهذا الإجراء سيحوّل الفرق الأرمنية في الأحياء الأرمنية إلى جزء لا يتجزأ من الحزب، وسوف يعزز بنية الحزب التنظيمية، ويعزز القدرات الكفاحية للفرق الأرمنية، موطّداً الوحدة النضالية العربية الأرمنية لخدمة مصالح الشعبين المشتركة، ومن أجل المصالح الخاصة للأرمن اللبنانيين.

ورغم ذلك فإن الحزب لم يتوقف قطّ عن العمل دفاعاً عن المصالح الخاصة بالشعب الأرمني. إلّا أن المكتب السياسي للحزب عاد وشكل، مع الأسف، في فترة لاحقة هيئة تابعة له تختص بالبحث والاهتمام بقضايا الشعب الأرمني، فإذا بهذه الهيئة السياسية الأرمنية العليا قد شكّلت كلياً من الأرمن.

تحسن الوضع بشكل لا يقاس بالماضي، والهيئة السياسية الأرمنية العليا كان لها برنامج خاص مقر من قبل المكتب السياسي. وسوف نتحدث عنها لاحقاً.

رداً على الكاردينال اغاجانيان

في أواخر عام 1947 بدأت الامبريالية، بزعامة أميركا، بشَنّ الحرب الباردة على الاتحاد السوڤياتي والمنظومة الاشتراكية، وكان يجري إعداد حرب ساخنة ضد الاتحاد السوڤياتي بزعامة الولايات المتحدة وبمشاركة بريطانيا وتركيا، عبر أراضي الأخيرة وذلك على حدود أرمينيا السوڤياتية. بدأت حملة مسمومة ضد أرمينيا السوڤياتية، وضد عودة الأرمن وقد تزعّم هذه الحملة، مع الأسف، الكاردينال اغاجانيان. رداً على هذه الحملة كتبت في أوائل عام 1948 كراساً بعنوان: «أجوبة على الكاردينال أغاجانيان»، مبيّناً فيه أهداف الحملة العدوانية ضد الاتحاد السوڤياتي، وعدم صحة اتهاماته، وأشرت إلى المعاني الوطنية والتاريخية لعودة الأرمن إلى وطنهم. ووجهت نداء من أجل تعزيز وحدة الأرمن

ضد الحرب والأعمال التخريبية، دفاعاً عن الاتحاد السوفياتي وعن حركة عودة الأرمن إلى وطنهم.

قرار مزاجي وغير شرعي

خلال أحد لقاءاتي مع الرفيق هارتيون ماخيان، تحدثت معه عن المرحلة السرية الجديدة وعن عدم وجود تدابير مسبقة بشأنها، ووضعت بعض ملاحظاتي حول الأعمال التحضيرية للعمل السري، وكيفية عدم اتخاذ إجراءات ضرورية لاستخدام القدرات العربية بشكل جدّي، وإنما جرى الارتكاز فقط على القدرات الأرمنية. وعلى ما أظن فقد كنت على حق، وبقيت وجهة نظري هذه على حالها، في تلك الفترة، وكذلك في ما سبقها وما أعقبها. وبالرغم من ذلك، أعتبر نفسي ارتكبتُ خطأ بتحدُّثي عن هذا الموضوع مع الرفيق ماخيان. كان ينبغي التحدّث بهذا الموضوع مع الرفيق خالد بكداش دون سواه، لكن الرفيق بكداش كان في ذلك الوقت في حالة عصبية حادّة ولم يكن يسمح بالتحدث معه بهدوء.

كان الرفيق هارتيون ماخيان قد أبلغ خالد بكداش بالموضوع الذي يشغل بالي. ولكن ما هو مدى دقّة نقله لهذا الموضوع؟ حتى الآن بقيت هذه القضية غير واضحة بالنسبة إلي. ولقد أصدر الرفيق خالد بكداش قراراً بحقي بعد الاستماع إلى ماخيان ودون أن يسمع مني أو أن يطلب منّي توضيح ذلك، وإنما اتخذه بناء على مزاجه الخاص ومن غير حق شرعي، ودون البحث مع الهيئة الرسمية الحزبية. هذا القرار كان، عملياً، تجميدي وإبعادي عن الأعمال القياديّة حتى أواخر عام 1949. ولكنني استمررت بعملي الحزبي على صعد مختلفة، وتبين لاحقاً أن في تلك الفترة نفسها كان العمل المشترك بين فرج الله الحلو ونقولا شاوي وبين خالد بكداش في حالة لا يُحسد عليها، نتيجة للسلوك الفظّ لهذا

الأخير. وخلال خريف عام 1949 أرسل خالد بكداش فرج اللّه الحلو لتبليغي اتهامات مصطنعة إزائي، وهي الاتهامات التي لم يكن فرج اللّه الحلو نفسه مقتنعاً بها. ورداً عليها بعثتُ برسالة موجهة إلى اللجنة المركزية نفيتُ فيها صحة ما هو موجّه ضدّي. وأشرت في الوقت نفسه إلى مسلك خالد بكداش الفظ تجاه كادرات الحزب، حيث إنه يرفع هذا الرفيق الكادر أو ذاك إلى السماء، وبعد فترة يعود ويضربه بالأرض ومن ثم يرفعه إلى الواجهة مجدداً، وهكذا دواليك! وأبديتُ احتجاجي على التصريح الجارح الذي تفوه به خالد بكداش حيث قال: «إن الرفاق الأرمن ما بيمشوا إلا بالعصا»!.

وكتبت بعد فترة وجيزة رسالة ثانية موجهة إلى اللجنة المركزية، أشرت فيها بشكل خاص في ذلك الظرف، إلى أهمية النضال ضد انغلاق جماهير الأرمن على أنفسهم. وفي الوقت نفسه دوَّنتُ ملاحظاتي على الأخطاء المرتكبة بحق القضايا الأرمنية وبعض القناعات والتصرفات الخاطئة تجاهها. لم تسلّم هاتان الرسالتان إلى الأرشيف. بعد الرسالتين عقد معي الرفيق بكداش لقاء في كرم الزيتون بالأشرفية، في غرفة منفردة فوق تلة مشرفة على الوادي، وهناك دعاني لمساعدة قيادة الحزب. وافقتُ دون تردّد. عدت إلى القيادة حيث كنتُ أحد الأعضاء المنتخبين من قبَل المؤتمر ومن أعضاء القيادة الأصليين. كان هذا في أوائل عام 1950.

... وبدأت الاعتقالات

كان الوضع السياسي يزداد سوءاً، يوماً بعد يوم. في 15 أيار 1948 أعلن إنشاء دولة إسرائيل في فلسطين، وبدأ اعتقال الشيوعيين. اعتقل 26 رفيقاً بينهم يبرم الليزيان، ستراك اباجيان، بارور يرتسيان، يوسف خطار الحلو، حنا الزرقا، محمد الديب، ومن طرابلس الدكتور سميح علم

الدين، محمد عدره، موريس دوماني وفاروق معصراني، ومن الجنوب سلام الراسي والرضي الرضي وعبد اللطيف حماده، وغيرهم.

كان رجال الأمن قد حضروا، بقصد اعتقالي، إلى المركز الرئيسي مكان تسجيل قوائم العائدين الأرمن، ومن ثم إلى منزلي. بالطبع لم يحظوا بي. كنت قد لجأت إلى منزل أحد أصدقاء الحزب وصديقي الشخصي الأمين أغوب دردريان في غرفة صغيرة، وكنت أخرج في الليل من أجل الاتصال بالحزب. ووضعت في الغرفة نفسها آلة طباعة. كنت أطبع الجريدة المركزية للحزب باللغة الأرمنية، «نضال الشعب»، وفي تلك الفترة كتبتُ بمناسبة مرور 28 سنة على تأسيس أرمينيا السوفياتية كرّاساً بتوقيع مستعار «هايورتي»، عالجتُ فيه قضايا سياسيّة وفكرية تاريخية وآنية.

نقل الرفاق المعتقلون إلى معتقل بعلبك، وكانت المراسلات السرية بين المعتقلين وقيادة الحزب تتم عبر الرفيقة سيرفارت الليزيان زوجة الرفيق يبرم الليزيان.

ثم أعلن رفاقنا المعتقلون الإضراب عن الطعام مطالبين بإطلاق سراحهم. وبعد مرور ثمانية أشهر على اعتقالهم أطلق سراحهم، وخرجت أنا من مخبئي. قبل إطلاق سراح الرفاق وخروجي من المخبأ لجأت موقتاً خلال شهر أيلول إلى منزل الرفيق آبيك أزنافوريان في محلّة البسطة التحتا حيث كان مع عائلته في الاصطياف. وكان الرفيق آبيك يؤمن لي المواد الغذائية. وعقد في هذا الشهر وفي المنزل نفسه الاجتماع الأول للجنة المركزية في الظروف السرية. كان الاجتماع موسعاً بحضور رفاق مسؤولين آخرين. وقد تناول البحث الوضع السياسي والتنظيمي والمستجدات الحاصلة واتخذت القرارات المناسبة. وقد ألقيت التقارير من قبل الرفيقين خالد بكداش وفرج اللّه الحلو. وعبّر بعض الرفاق وفي الدرجة الأولى هاشم الأمين، عن اشمئزازهم من تصرفات الرفيق خالد بكداش، وكان الرفيق رشاد عيسى منزعجاً. كانت هناك حقائق كثيرة تبرر

انزعاج هؤلاء الرفاق، وهذه الحقائق كان يجب أن نأخذها في الاعتبار. رغم ذلك، ففي تلك الظروف السياسية وانطلاقاً من وضع الحزب، كان يجب عدم السماح بتحويل الاجتماع إلى مناقشات مطولة حول القضايا التي هم منزعجون منها، فهذا من شأنه أن يعيق اتخاذ قرارات سياسيّة وتنظيمية ملحّة مطروحة أمام هذا الاجتماع. ولهذه الأسباب اتخذت موقفاً حاسماً في الوقوف ضد هؤلاء الذين أصروا على بحث موضوع شكواهم، وقد شاطرني الموقف نفسه الرفيقان فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي وذلك رغم قناعاتنا بصحة انتقادات هؤلاء الرفاق.

لقد قمتُ في هذه الفترة (عام 1949) بتحرير ثلاثة كراريس بتوقيع «هايزافاك»، (أي: ابن الأرمن)، دفاعاً عن الاتحاد السوڤياتي وأرمينيا السوڤياتية ضد الاتهامات الموجهة من قبل ذوي النزعة الحربية العدوانية.

إلى حلب فبيروت.. فالترقّب!

بعد عودتي إلى العمل في القيادة، ذهبتُ بقرار من اللجنة المركزية إلى حلب، مهمة معيّنة. حضرتُ اجتماع هيئة قيادة المدينة وألقيت تقريراً عن الوضع السياسي، ومن ثم استمعتُ إلى تقارير مقدمة من قبل المنظمات الحزبية في المدينة حول نشاطاتهم، وإلى التقرير المقدّم من قبل سكرتير منظمة المدينة. كان هناك بعض الآراء وأعطيت التوجيهات الضرورية. وخلال الاجتماع أعلن في الإذاعة عن بدء الحرب الكوريّة.

وجرت في اليوم نفسه وفي ساحة باب الفرج بحلب تظاهرة ناجحة بدعوة من الحزب، أطلقت خلالها شعارات معادية للأحلاف الامبريالية وأهدافها، رافضة إلحاق سوريا ولبنان بهذه الأحلاف. يومئذ اصطدم المتظاهرون برجال الأمن، واعتقل بعض الرفاق ومنهم الرفيق بيار شادرفيان. كان الرفيق بيار المراسل الصحافي لجريدتنا العربية وكان رفيقاً جريئاً ومتفانياً. وفي وقت لاحق، بعد إعلان الوحدة السورية ـ المصرية

وقيام حملة ملاحقات معادية للشيوعية اعتقل الرفيق شادرفيان مرة أخرى، واستشهد تحت التعذيب.

مساء اليوم نفسه عُقد اجتماع لكادر الحزب، حضرتُه وألقيت تقريراً سياسياً. وبعد المناقشة قوّم الاجتماع تقويماً عالياً التظاهرة التي جرت.

عدت من ثمّ إلى بيروت، وعند مروري إلى البيت أخبرتني زوجتي بأن رجال الشرطة جاؤوا يسألون عني. فذهبت فوراً إلى منزل الرفيق فرج اللّه الحلو حيث كان عنده الرفيق خالد بكداش، وكانا ينتظرانني. ومنزل الرفيق فرج اللّه الحلو الكائن في رمل الظريف، مؤلف من غرفتين صغيرتين لهما مدخلان مستقلّان حيث كان يعيش في ظروف سرية. وهناك عدت إلى ممارسة حياتي الجديدة من العمل السري.

وانتقلت إلى مكان إقامة خالد بكداش ونقولا شاوي السري على طريق فرن الشباك، قرب شركة الكهرباء في شقة فسيحة تقع في الطبقة الثانية من المبنى وكان صاحبها في الاصطياف مع عائلته فمكثنا فيها بصورة موقتة.

حرب كوريا

بمناسبة الحرب الكورية أصدر الحزب بياناً يدافع فيه عن كوريا الديموقراطية ويدين الامبريالية الأميركية وعدوانها على كوريا، ويعلن تضامنه مع الشعب الكوري ودعوة شعبنا للتعبير عن تضامنه مع الشعب الكوري (كتب البيان الرفيق فرج اللّه الحلو).

ودعا الحزب بالمناسبة، وتحت الشعارات المذكورة أعلاه، إلى تظاهرة شعبية انطلقت من البسطة التحتا ـ شارع خلف صيدلية حماده ـ ووصلت إلى ساحة البرج حيث أطلق رجال الدرك النار هناك على المتظاهرين فأصيب بجروح بالغة الرفيق هارتيون باوكيان، كما جرح رفاق آخرون، واعتقل البعض. كان المتظاهرون يحملون عدداً كبيراً من

اليافطات تتضمن الشعارات التي ذكرت، وشعارات أخرى معادية للامبريالية.

وكان لهذه التظاهرة صدى سياسي كبير. وقد شاركتُ بشكل فعّال في تنظيم هذه المسيرة.

مع الجناح اليساري في حزب الهنشاك

في هذا الوقت كان قد نشأ في حزب الهنشاك جناحان يساري ويميني، وكان الجناح اليساري يتعاون بودّ مع حزبنا ويتزعم هذا التيار الرفيق هارتيون غوجوني (جرجيان) وكنت على صلة دائمة به.

لقد بادر هرانت دفدجيان قبل عودته إلى أرمينيا السوفياتية إلى تحويل ملكية جريدته الخاصة «دارافوت» إلينا. وبدورنا سلمنا ترخيص إصدار هذه الجريدة إلى هارتيون غوجوني لإصدارها، بعد إغلاق جريدة «جوغوفورتي تساين» وفي ظروف الحرب الباردة وفي ظل حملة ملاحقة الشيوعيين. وكانت هذه الجريدة تصدر بصفة «مستقلة» ومحرّراها الرئيسيّان الرفيقان ستراك أباجيان وبدروس ميناسيان. ولكن السلطة أغلقت هذه الجريدة بعد صدور بضعة أعداد منها.

كوادر أرمنية جديدة

انضمّ إلى صفوف الحزب في تلك الأيام عناصر من اليساريين الهنشاك منهم الرفاق كيفورك ديرنيكوغوصيان «أبو علي»، هارتيون باوكيان، وبوغوص توتونجيان، وقد انضموا إلى الكادر الأرمني للحزب، وانتخب الرفيق كيفورك ديرنيكوغوصيان فيما بعد عضواً في اللجنة المركزية وذلك في المؤتمر الثالث للحزب. والمؤلم أنه استشهد في عام 1976 خلال الحرب الأهلية.

اجتماع اللجنة المركزية

انعقد في شهر آب 1950 اجتماع للجنة المركزية بحث فيه الوضع السياسي القائم، وكانت الحرب الباردة على أشدها، والامبريالية بزعامة الولايات المتحدة تعزز هجماتها داخل بلداننا بغية التحضير للحرب ضد الاتحاد السوفياتي، هكذا كان تقويمنا في الاجتماع. وبناءً على هذا التقويم اقترحت في الاجتماع، من أجل تعزيز النضال ضد الامبريالية في سوريا ولبنان، تشكيل قيادة موحدة، حيث تبيَّن لي ضرورة تشكيل مثل هذه القيادة للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. وافق الرفيق خالد بكداش والمجتمعون دون تردّد، ولكن الأحداث اللاحقة دلت مع الأسف، أن الرفيق خالد استفاد من هذه القيادة الموحدة الجديدة لتشديد سيطرته على الحزب الشيوعي اللبناني. والحقيقة هي أن جميع أعضاء القيادة الجديدة يتحملون مسؤولية الفسح في المجال أمام خالد بكداش لفرض سيطرته على قيادة الحزب. أما كيف حدث ذلك، فسوف نتناول هذه الظروف في الصفحات القادمة. وانتخب الاجتماع سكرتاريا جديدة للجنة المركزية، مؤلفة من خالد بكداش وأرتين مادويان وحسن قريطم. وانتخب خالد بكداش أميناً عاماً. وانتخبت أنا أيضاً عضواً في المكتب السياسي للحزب. وكان المكتب السياسي يسمّى آنذاك، القيادة المركزية، ومن أعضائه الرفاق: خالد بكداش، نقولا شاوي، فرج اللّه الحلو، أرتين مادويان، حسن قريطم. وقد تولّيتُ في الوقت نفسه مسؤولية أرشيف الحزب، تنظيمه والمحافظة عليه.

وبقرار من سكرتاريا الحزب كتبت تعميماً داخلياً بغية مساعدة منظمات الحزب والعمل لتعزيز كفاحيتهم.

وانتقل الرفيق خالد في شهر أيلول إلى منزل سري جديد، وانتقلت مع الرفيقين فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي إلى منزل سري آخر. ومن هناك، كنا ننظم صلاتنا مع منظمات الحزب عبر رفاق مسؤولين. وفي ما

عدا ذلك، كنت أشارك بشكل دائم في اجتماعات الهيئة السياسية القيادية لمدينة بيروت، وكان من أعضائها الرفاق الياس البواري، مصطفى العريس، سعد الدين مومنة، نقولا اللحام وغيرهم. كان الرفيق خالد يزور دائماً منزل هذا الأخير، حيث كان يعقد هناك اجتماعات السكرتاريا والمكتب السياسي، أي «القيادة المركزية».

خلال عام 1950 وبقرار من خالد بكداش أُرسل الرفيق نقولا شاوي إلى طرابلس بحجة مساعدة منظمة الحزب هناك. وفي الحقيقة كان هذا بمثابة إجراء ضده ونوعاً من «النفي». ولا شكّ أنه إجراء غير محقّ. وعاد الرفيق نقولا شاوي بعد أربعة أشهر إلى بيروت وسكن معي. وتسلمتُ في العام 1951 المسؤولية المالية لدى اللجنة المركزية للحزب، حتى عام 1972.

ترومن والحلفاء: مشاريع مشاريع...

نظرت الامبريالية بزعامة الولايات المتحدة وبمشاركة الاستعمار البريطاني نظرة عداء إلى استقلال لبنان وسوريا. وإلى موجة تصاعد حركات التحرر الوطني في الشرق الأوسط. وبكلمة أخرى في الشرق العربي. وما أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى بدأوا بوضع مخططات لإعادة سيطرتهم على الشرق الأوسط.

بعد إعادة انتخاب ترومن رئيساً للولايات المتحدة الأميركية وضعَ في خطابه الشهير في 2 كانون الثاني عام 1949 أمام الكونغرس، برنامجه «السلمي» شارحاً السياسة الأميركية ودورها اللاحق. قال عن الشرق الأوسط: يجب أن نحرر الشرق الأوسط من البولشفية، ومن المبادئ الهدّامة الأخرى، والوصول إلى منابع النفط، وفتح أسواق جديدة أمام الرأسمال الأميركي وتسويق المنتجات الأميركية، وتحويل البلدان العربية إلى مصدر رئيسي للمواد الخام للصناعة الصهيونية حيث يجب أن تتحول فلسطين إلى مركز صناعي كبير بمشاركة الرأسمال الأميركي.

وأعطي وزير خارجية بريطانيا، بيفن، موافقته على برنامج ترومن، آملاً أن يكون له حصة في برنامج ترومن للنهب[1] ولم تؤخذ فرنسا في الاعتبار في هذا الصدد، حيث إنها خرجت ضعيفة من الحرب.

وفي الحقيقة، إن برنامج ترومن المذكور نابع من أساس الخطة التاريخية للصهيونية في إنشاء دولتها على أرض فلسطين.

وكما بالنسبة إلى ترومن، فمن الواضح أن حلفاءه لم يكونوا راضين عن حصول لبنان وسوريا على الاستقلال، وكذلك لجهة اشتداد النضال الوطني التحرري للشعوب العربية في الشرق الأوسط. ولم يكونوا يتصورون تصاعد هذا النضال إلا من خلال الدور «التخريبي» للبلاشفة، بدل أن يروا فيه نتيجة تطور طبيعي لحركة التحرر الوطني في ظروف عالمية ملائمة، وخصوصاً بفعل تأثير انتصار الاتحاد السوفياتي في الحرب وبفعل حركات التحرر الوطني في العالم.

واليوم، ألم تنعت الامبريالية الأميركية نضال الشعب العربي الفلسطيني من أجل قضيته الوطنية المحقة «بالإرهاب الدولي»؟

وهكذا، ففي ضوء المشاريع الامبريالية التي وضعت من قبل ترومن، وعلى هدي أهداف الولايات المتحدة الأميركية التي شاركت فيها بريطانيا بشكل رئيسي، فقد طُرحت منذ عام 1949 مشاريع امبريالية في منطقة الشرق الأسط بغية السيطرة عليه، كمشروع «سوريا الكبرى»، «الهلال الخصيب»، «الدفاع المشترك»، حلف «البحر الأبيض المتوسط»، «حلف بغداد»، «مشروع مارشال»، إلخ...

كان هناك خطر جدي على استقلال سوريا ولبنان وعلى حركة التحرر الوطني العربية، حيث أن الامبريالية كانت تعمل من أجل السيطرة على منطقة الشرق الأوسط وعلى لبنان وسوريا وضرب حركة التحرر

---

(1) جريدة «الوسواس» اللبنانية، عدد 6/ 7/ 1949.

الوطني في هذه المنطقة؛ ولقد عملت في هذا السبيل عبر تحقيق أحد مشاريعها وجعل هذه المنطقة ضمن إطار تحركاتها العسكرية بإقامة قواعد فيها، ونهب الثروة البترولية والثروات الطبيعية الأخرى، وتحويل هذه البلدان إلى سوق لتصريف منتجاتها.

ويجب أن نشير إلى أن المستعمرين خلال مساعيهم لفرض مشاريعهم، أنشأوا «حلف بغداد» الذي أطاحته الثورة المسلّحة والشعبية في تموز 1958. وخلال الفترة عينها فرض الامبرياليون الأميركيون بمشاركة كميل شمعون «مشروع إيزنهاور» على لبنان، وهو قد أفشلته عام 1958 الانتفاضة الشعبية المسلحة العامة في لبنان.

ولتحقيق الأهداف التي أشرنا إليها. فإن الامبريالية الأميركية راحت تستخدم، ولا تزال، الدولة الصهيونية الإسرائيلية ضدّ البلدان والشعوب العربية، بعد أن حولتها إلى قوة عسكرية جدّية، وقدّمت لها جميع الإمكانيات العسكرية والسياسية والماديّة.

ضمن هذا الإطار وقعت جميع الحروب العدوانيّة الإسرائيلية ضد البلدان العربية واحتلال لبنان ونهب الأراضي العربية وفرض اتفاق 17 أيار 1983 على لبنان مع إسرائيل.

شهيد بمواجهة الأحلاف

ويمكن أن نسجل بفخر أن في مواجهة هذه الأحلاف الامبريالية وأخطارها منذ أول مشروع ومنذ اليوم الأول، نزل الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري إلى ساحة النضال ضد هذه المشاريع والأحلاف. ففي أواسط تموز 1951 دعا حزبنا إلى تظاهرة شعبية في بيروت ضد هذه الأحلاف ضمت حوالى 4000 متظاهر، انطلقت من البسطة التحتا من شارع خلف صيدلية حماده ووصلت إلى أول ساحة البرج. أطلق الدرك

نيرانه على المتظاهرين حيث استشهد الرفيق أنور العش وإحدى النساء؛ وجرح آخرون، واعتقل يوسف خطار الحلو الذي كان على رأس التظاهرة، واعتقل الرفيق كيفورك ديرنيكوغوصيان الذي كان مشاركاً في التظاهرة أيضاً.

كان المتظاهرون يحملون عدداً كبيراً من اليافطات المعادية لمشروع «حلف البحر الأبيض المتوسط» وكانوا يهتفون بالشعارات نفسها. وخلال سير التظاهرة انضم إليها عدد كبير من العمال والشباب ومن أوساط وطنية. ولقيت هذه التظاهرة صدى سياسياً كبيراً لدى الرأي العام الوطني والشعبي. وهي قد نشّطت النضال المعادي للامبريالية في البلاد دفاعاً عن الاستقلال.

يوم قيام التظاهرة كانت اللجنة المركزية مجتمعة في أحد المنازل في الأشرفية (منزل يحيي بيضون) حيث كانت أخبار التظاهرة تصلنا تباعاً.

وصدر عدد خاص من «نضال الشعب»، الجريدة المركزية للحزب في الظروف السرية، مخصصاً للحدث البارز. أما العمل من أجل تحضير هذه التظاهرة سياسياً وتنظيمياً فقد قمنا به معاً أنا والرفيق نقولا شاوي.

في السنوات اللاحقة قام الحزب بتظاهرات عديدة مناوئة للامبريالية، كما حصل ضد زيارة رئيس تركيا جلال بايار، وضدّ المشروع التركي ـ الباكستاني عام 1953، وضدّ مشروع حلف بغداد عام 1954 وضدّ زيارة وزير خارجية فرانكو الفاشي إلى لبنان، وقد قُتل خلال التظاهرة الأخيرة النقابي المتفاني الرفيق جورج عرّو، وأصيب الرفيق كيفورك ديرنيكوغوصيان بجروح بالغة، وأيضاً تظاهرة ضد زيارة وزير الخارجية الأميركية دالاس عام 1957، وأخرى دفاعاً عن كوبا عام 1960 رفعت فيها شعارات «نعم لكوبا، لا لليانكي». وقد تقدمت التظاهرة من البسطة التحتا إلى ساحة رياض الصلح ثم نحو البرج (ساحة الشهداء). وكان الرفيق جورج حاوي مسؤولاً عن تنظيم هذه التظاهرة وقيادتها.

كانت التظاهرات كلها، تقريباً، تصطدم بالشرطة بأشكال مختلفة. وجرت تظاهرة شعبية ضخمة بالاشتراك مع القوى الوطنية تضامناً مع مصر في مناسبة تأميم قناة السويس. كما جرت تظاهرات شعبية ضخمة تضامناً مع الثورتين التحرريتين الوطنيَّتين الجزائرية واليمنية. وأيضاً حصلت تظاهرات عديدة كان لها مضمون مطلبي.

انحراف باتجاه الجمود العقائدي والانعزال

ألقى الرفيق خالد بكداش في كانون الثاني 1951 تقريراً في اجتماع القيادة المركزية الموسع، عرض فيه توجهات الحزب وميدان عمله بعنوان: «نحو حزب العمال والفلاحين، نحو السلم والحرية والاستقلال». وفي آب 1951 اتخذت القيادة المركزية بناءً على التوجيهات التي صدرت عن اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني في حزيران 1951، اتخذت قراراً بعنوان: «الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين».

هذا القرار الأخير هو أيضاً كتبه خالد بكداش.

صدر هذا التقرير والمقررات ضمن كراريس باللغتين الأرمنية والعربية.

نتيجة الأحداث التي جرت بعد 29 تشرين الثاني عام 1947 نشأ وضع سياسي سيئ في داخل الحزب تميَّز بعدم الوضوح السياسي وعدم وجود موقف واضح تجاه الأحداث، حيث إنها لم تكن مأخوذة بالحسبان بسبب قصر النظر.

كان الرفيق خالد بكداش يقترح معالجة هذا النقص ولكن كيف؟

في تقريره يقول: أمام حزبنا مهمات كبيرة يجب أن تكون دائماً أمام أعيننا، ويجب أن ننطلق منها خلال عملنا اليومي.

منطلق صحيح ينسجم مع المبادئ اللينينية ويفترض أن يحول دون الوقوع بالانعزال.

غير أنه نسي في التقرير تحديد المنطلقات السياسية والأولويات وما يصحح فعلاً خطنا وتوجهاتنا، من أجل «المهمات الكبيرة لحزبنا» وحسن تنفيذها.

إن تحديد المهمات الواضحة قد غاب عن تقرير خالد بكداش. لقد قال في تقريره إن هدفنا الأساسي في هذه المرحلة التاريخية هو إنهاء الوجود الامبريالي وسيطرة عملائه على البلاد، وتصفية بقايا الإقطاعية في بلادنا، وتحقيق الحريات الوطنية والديموقراطية وتحرير شعبنا من ظل القوى الاستعمارية، ومن بقايا القرون الوسطى، وإنشاء سلطة شعبية ديموقراطية.

كمنطلقات أساسية كانت هذه المطالب صحيحة، رغم أنها ليست كاملة إذ لا وضوح فيها بشأن توزيع الأراضي مثلاً، على أن الشيء الأساسي هو أن المهمّات المطروحة غير مرتبطة مباشرة بالنضال الوطني العام من أجل حماية الاستقلال وتعزيزه ومن أجل التطور الاجتماعي في البلاد.

وحتى لا ينعزل نضال العمال والفلاحين عن النضال الوطني العام بالرغم من أنهم الأكثر ثورية، فقد كان يجب التوجه نحو تشكيل جبهة تضم كل القوى الوطنية والديموقراطية مع العمال والفلاحين، لإعطاء إمكانية أفضل لتحقيق هذه الأهداف، وعزل القوى البورجوازية المتعاملة مع الامبريالية، ومواجهة بقايا الإقطاعية والرجعية وإزالة تأثيرهما تدريجاً في شعبنا.

كان من شأن موقف من هذا النوع أن يساعد على تعزيز مواقع العمال والفلاحين وبين فئات واسعة من شعبنا. إلّا أن الذي حصل هو أن تقرير الرفيق خالد بكداش قد جمع كل القوى السياسية خارج حزبنا من اليسار والديموقراطيين واليمين في خانة واحدة!

واقترح خالد بكداش أيضاً مهمة الثورة الوطنية الديموقراطية، «تحت قيادة البروليتاريا». ومن الواضح أن هذه المداخلة كانت منطلقة من الجمود العقائدي لدى الرفيق خالد بكداش.

هل يجوز أن تُطرح في العام 1951، في ظروف سوريا ولبنان، مهمات يشوبها الجمود وتدفع بنا إلى مزيد من الانعزال؟

وفي ما عدا ذلك، ففي تقرير الرفيق خالد يغيب كلياً موضوع حركة التحرر الوطني العربية والخطر الإسرائيلي الصهيوني وقضية الشعب العربي الفلسطيني. لقد كان ذلك كلّه بمثابة خطوة إلى الوراء عن مواقع حزبنا السياسية السابقة.

في الحقيقة، إنّ تقرير الرفيق خالد بكداش المذكور واعتماد هذا الموقف السياسي، ليس من النوع الذي سيخلق مناخاً إيجابياً في عمل حزبنا. لا شك في أن «الموقف الحازم إلى جانب العمال والفلاحين»، هو موقف ضروري وصحيح. لكن الحقيقة الملموسة هي أن حزبنا استطاع تعزيز مواقعه بين العمال والفلاحين عندما كان يناضل من أجلهم رابطاً ذلك بنضاله في سبيل الاستقلال والديموقراطية والمطالب الوطنية الأخرى.

إن تقرير الرفيق خالد في تلك الأيام كان انحرافاً باتجاه الجمود العقائدي والانعزال.

نشير أيضاً إلى أنه، في سياق تقريره، كان يربط كل المعوقات السياسية والتنظيمية بالمظاهر البورجوازية والقومية الضيّقة داخل الحزب. فلقد أورد بكداش في تقرير صدر باسم الحزب، ما يلي: «يجب أن نعترف بأن القيادة المركزية لم تأخذ التوجهات الضرورية لتنفيذ توجيهات الأمين العام (المقصود بكداش نفسه) ولوضعها موضع التنفيذ وتوزيع المهمات على الكادر على النطاق الوطني على أساس المهمات الناتجة عن التقرير، وتوضيح هذه التوجّهات عبر صحيفة ونشرات الحزب، والاستفادة من التجارب خلال العمل في وسط العمال والفلاحين». («توجيهات الحزب نحو العمال والفلاحين» باللغة الأرمنية، صفحة 12).

وخلافاً لما أشيع في حينه، فإن جميع المقترحات التي كانت تقدم من قبل الرفيق خالد كان يوافق عليها بالإجماع أعضاء القيادة المركزية،

وقوله إنه «أعطى التوجيهات العلمية الصحيحة والضرورية». وإن عدم تنفيذها يتحمل مسؤوليته كل أعضاء القيادة المركزية ما عداه، وإنهم يتكلون على الأمين العام ولا يبذلون جهوداً (...) بحسب تعبيره في تقرير لاحق، هذا ناتج عن أن عبادة الفرد قد بلغت ذروتها لدى خالد بكداش. صحيح أن خالد هو المسؤول الرئيسي سياسياً وتنظيمياً عن تحديد وتنفيذ هذه المهمات التي ذكرناها أعلاه. ولكن جميع التوجهات والاقتراحات من قبل خالد كانت تقر بالإجماع، وهنا فإن المسؤولية جماعية، وأنا أشارك فيها أيضاً.

ولكن كيف كانت تصدر القرارات الجماعية؟

هذا هو السؤال الجدي. يرتبط الأمر بسلوك بكداش الفردي في قيادة الحزب والأجواء التي كان يخلقها داخل اجتماعات القيادة. حول هذا الجانب أذكر الأدلة في صفحات مقبلة.

الانتخابات النيابية

كنت والرفيق مصطفى العريس مرشحين للانتخابات النيابية في بيروت.

كانت انتخابات بيروت ستجري في 15 نيسان 1951، ولكوني مرشحاً لهذه الانتخابات فقد أصدرت بياناً موجهاً إلى الناخبين الأرمن في بيروت جاء فيه: «هذه المعركة الانتخابية ستكون إحدى الحلقات النضالية الموحدة للعمال والفئات الشعبية المختلفة الأرمنية والعربية. إنها أحد الأشكال الجديدة في النضال من أجل السلم والاستقلال والديموقراطية والخبز، ومن أجل تعزيز الأخوة بين الأرمن والعرب ضد الامبريالية وقواعدها العسكرية. على هذا الأساس أتقدم لخوض المعركة الانتخابية ملتزماً بالبرنامج التالي:

1 ـ السلم، الاستقلال والديموقراطية، وعلى هذا الأساس قد

دعوت إلى التعاون بين جميع البلدان العربية، ومع القوى المدافعة عن السلم العالمي، مع الاتحاد السوڤياتي والبلدان الديموقراطية الشعبية.

2 ـ ضد الاحتلال الأجنبي والدعاية للحرب. لا للقواعد الأجنبية والامبريالية.

3 ـ من أجل تعزيز العلاقات الأخوية بين سوريا ولبنان.

4. النضال ضد الغلاء والبطالة، العمل من أجل زيادة الأجور للعمال والعاملات على أسس متساوية.

5 ـ الحرية الكاملة للحركة النقابية والعمالية. وضد الإجراءات القمعية لأجهزة السلطة. من أجل اتحاد عمالي يدافع عن حقوق العمال وعن السلم.

6 ـ ثماني ساعات عمل للعمال وللشغيلة في المدينة وفي الريف. تنفيذ بنود قانون العمل. التعويض عن نهاية الخدمة. دفع الأجور في أيام المرض والفرصة السنوية مدفوعة الأجر، والتعويض عن العطل والضرر الناتج عن العمل.

7 ـ توزيع أراضي الإقطاعيين والملاكين العقاريين الكبار على الفلاحين.

8 ـ التعليم المجاني، وبهذا الإطار تأمين المساعدات المالية الضرورية للمدارس الأرمنية من خزينة الدولة.

9 ـ الماء والكهرباء والطرقات والنظافة في الأحياء الشعبية، بشكل خاص في الكرنتينا والتيرو وحي شرشبوك وبرج حمود وفي سائر الأحياء، وتوفير منزل نظيف من قبل الدولة للفقراء.

10 ـ تخفيض إيجارات البيوت والمحال.

11 ـ دفاعاً عن الصناعة الوطنية من المضاربة الأجنبية.

12 ـ تأميم الشركات الأجنبية الامبريالية وتحويلها ملكاً للشعب.

13 ـ إعطاء المرأة الحقوق السياسية والاقتصادية المتساوية والاهتمام بالأمهات والأطفال.

14 ـ النضال ضد الانقسامات الطائفية.

15 ـ إلغاء تأمين 5000 ليرة للحصول على الترشيح للانتخابات.

16 ـ العمل من أجل تعزيز وحدة العمال والفلاحين وتعزيز الصف الوطني الديموقراطي والأخوة الأرمنية العربية من أجل تحقيق هذه المطالب.

وجرى في ملعب مدرسة ساحقيان مهرجان شعبي كبير تأييداً لمرشحي حزبنا. تحدث في المهرجان الرفاق: أوهانس اغباشيان، كيفورك ديرنيكوغوصيان، مصطفى العريس، والرفيقة ليندا مطرا. كما ألقى الرفيق أسعد سعيد قصيدة زجلية، ثم ألقيت كلمة شارحاً فيها برنامجي الانتخابي وأهمية خوض الانتخابات مع الرفيق مصطفى العريس، وأعلنت الهدف من خوض معركتنا الانتخابية وهو من أجل خدمة الشغيلة وكل الفئات الشعبية دون استثناء، ودعوة الشعب الأرمني للانتخاب لمصلحة مرشحينا.

رغم أن هذه الانتخابات جرت كما في الانتخابات الماضية عام 47 بتدخل من قبل السلطة ضد مرشحينا وبوسائل القمع والتزوير وشراء الأصوات علناً، فضمن هذه الأجواء وبإمكاناتنا المحدودة جداً تمكنت من الحصول على 2400 صوت مقابل 7000 للقائمة التي فازت والمؤلفة من سبعة أشخاص.

«الانتقاد الذاتي» المفروض على فرج اللّه الحلو

كان الرفيق خالد بكداش مستمراً في حملته على الرفيق فرج اللّه الحلو جهاراً ودون أن يرتكز على أسس واقعية. هذه الحملة المتلاحقة فرضت على الرفيق فرج اللّه الحلو القيام «بانتقاد ذاتي». إن أول وثاني «انتقاد ذاتي» مقدّمين منه قد اعتبرا «غير كافيين»، أما ثالث انتقاد ذاتي فاعتبرِ «مقبولاً».

كان الرفيق فرج اللّه الحلو حزبياً ذا وعي إيديولوجي عميق، خلّاق، صافي الذهن، مخلصاً لحزبه دون حدود، يتحلى بصفات ديموقراطية في ممارسة عمله القيادي. في تلك الآونة كان يعيش في حالة حزن وكان خوفه من أن تؤدي حملة خالد بكداش عليه إلى طرده من الحزب . ضمن هذه الأجواء النفسية توجّه نحو خالد بكداش راجياً منه عدم طرده من الحزب حتى لا يراه أبناؤه مطروداً. هذا «الانتقاد الذاتي» المفروض على فرج اللّه الحلو وزع في ذلك الوقت كنشرة داخلية على منظمات الحزب!!

بالإضافة إلى ذلك، كان الرفيق خالد بكداش يفكّر في إبعاد الرفيق فرج اللّه الحلو عن بيروت ونقله إلى زحلة بحجة الضرورة الحزبية والتنظيمية هناك. في الحقيقة كانت هذه حجة وشكلاً من أشكال النفي، وإجراء بحق فرج اللّه الحلو. ولكن الفكرة لم تنفذ، بسبب صدور النشرة العربية لجريدة الكومنفورم «في سبيل سلم دائم، في سبيل ديموقراطية شعبية»، وهذا يتطلب ضرورة وجود فرج اللّه الحلو في بيروت ليتسلمها ويشرف على ترجمتها من اللغة الفرنسية إلى العربية. ولكن الحقيقة داخل الحزب الشيوعي لا تضيع وفي النهاية سوف تنتصر.

وهكذا ففي اجتماع اللجنة المركزية المنتخبة من المؤتمر الثاني للحزب وفي جلستها الأولى قررت بالإجماع إلغاء «الانتقاد الذاتي» المفروض على الرفيق فرج اللّه الحلو، وسحبه من أرشيف الحزب.

وبمناسبة الذكرى الخمسين لنشوء الحزب، أقيم له تمثال رائع فريد في نوعه في ساحة قريته حصرايل في قضاء جبيل. وأزيح الستار خلال مهرجان شعبي كبير بحضور 30 ألف شخص.

لقد بني هذا التمثال في لينينغراد وكان هدية من الحزب الشيوعي السوفياتي، ومن أجل نصب هذا التمثال جاء اختصاصيون سوفيات خصوصاً، وشاركوا مع الوفد السوفياتي في الاحتفال بمناسبة إزاحة الستار عن التمثال.

«في سبيل سلم دائم
في سبيل ديموقراطية شعبية»

في عام 1951 بدأ الحزب بإصدار جريدة «الكومنفورم» باللغة العربية: «في سبيل سلم دائم، في سبيل ديموقراطية شعبية»، بموافقة هيئة مكتب الجريدة ومقرها بوخارست، فأنشأنا لهذه الغاية مطبعة سريّة وكان لي دور في تأسيسها. كانت الجريدة مؤلفة من ثماني صفحات كبيرة أسبوعية وتصدر كل يوم سبت. وكانت تترجم من الفرنسية إلى العربية ويقوم الرفيق فرج اللّه الحلو بدور رئيسي في هذه الترجمة يساعده الرفاق: إلياس شاهين و«أبو هاني» وصوايا صوايا. وكنت على اتصال يومي بالمطبعة وأزورها بشكل دوري تقريباً، وكنت ألتقي العمال وألقي عليهم تقارير سياسية وأبحث معهم قضايا مختلفة، كما اهتم بشؤونهم الحياتية وأناقش ما يقدمونه من اقتراحات في سبيل إنجاح العمل. كنت أتولى تنظيم نقل الجريدة إلى خارج المطبعة وتوزيعها سرّاً، إلى سوريا والسودان والمغرب ورومانيا وبلدان أخرى. وكان الرفيق انترانيك بلاصانيان يتولى إرسال الجريدة عبر البريد.

استمر صدور الجريدة بشكل دوري حتى عام 1956 حين حُلَّ «الكومنفورم»، فتوقّف إصدارها.

وكانت بعض المقالات تترجم إلى اللغة الأرمنية وتصدر بشكل مستقل.

وفي هذه المطبعة أيضاً، كانت تطبع الجريدة المركزية السرية للحزب «نضال الشعب» (جوغوفورتي بايكار) ومنشورات أخرى.

مراسلون سريُّون..
وإدخال المطبوعات إلى سوريا

كانت بيروت حتى خريف عام 1954 مقراً للقيادة المركزية للحزب،

وتتمّ الاتصالات مع سوريا وكذلك مع طرابلس بواسطة مراسلين سريّين يقومون أيضاً بنقل المطبوعات إلى سوريا بأساليب سرية خاصة، ولقد كنت مكلفاً مسؤولية تنظيم المراسلات وإرسال المطبوعات السرية.

وكان يشارك في نقل المطبوعات إلى سوريا رفاق من طرابلس ومن القرى المجاورة للحدود السورية.

كما لعب دوراً كبيراً في نقل المطبوعات السرية إلى سوريا الرفاق: وارطان بيدينيان، ميشال فتح اللّه، حنا صعيب، غارو داراكجيان، أوهانس كستانيان، كرْبت مركريان، موسيس مركريان، أغوب كيلاجيان، وأخيراً لعبت دوراً مهماً في هذه المراسلات الرفيقة استفيك أغازاريان التي اعتُقلت وسجنت لمدة سنة بعد محاكمتها في لبنان.

أما حنا صعيب وأوهانس كاستانيان وغارو داراكجيان فقد اعتقلوا في سوريا نتيجة لاستخفاف المسؤول الحزبي في دمشق بمسؤوليته الحزبية.

ويجب أن نشير إلى أن الرفيقة ثريا خوري مع شقيقها كمال وزوجته الرفيقة ماري قامت بدور مهم في تأمين نقل المراسلات السرية للحزب بين بيروت ودمشق خلال عامي 1950 و1951 (لاحقاً استمرت الرفيقة ثريا في تقديم خدماتها للحزب).

وقد تولى الرفيق فرج اللّه الحلو تنظيم العلاقة مع هؤلاء الرفاق.

الرفيق فوزي شلق

كان الرفيق فوزي شلق عضواً مرشحاً في اللجنة المركزية للحزب منتخباً من قِبل المؤتمر الأول. وهو مهندس لدى بلدية دمشق، تولّى في الفترة الممتدة من عام 1939 إلى تموز 1941 رعاية قيادة الحزب السرية في دمشق. كان رفيقاً أميناً، متفانياً، ودؤوباً في خدمة الحزب. عام 1950 عندما بدأت مرحلة جديدة من العمل السرّي استقال من وظيفته

في بلدية دمشق وانتقل بقرار حزبي مع عائلته إلى بيروت من أجل العمل الحزبي وقد سكن خالد بكداش مع عائلته، حيث كان الرفيق فوزي يؤمن صلات خالد بكداش السرية. وكان مسؤولاً عن المستودع السري لمطبوعات الحزب. وبما أنه لم يستطع تحمل تصرفات خالد بكداش السيئة فقد غادر إلى دمشق دون أن يأخذ موافقة الحزب، مما حمل خالد بكداش على وضع شكوك إزاءه، من غير حق، ودونما عدل، حيث انتقل بكداش من المنزل إلى مكان آخر، ونقلت في الليلة نفسها جميع مطبوعات الحزب السرية إلى مكان آخر وعيّن رفيق أرمني آخر (أ.أ.) مسؤولاً عن مستودع المطبوعات الحزبية، وقد ظلّ أميناً لمسؤوليته حتى النهاية. ولا بدَّ من التنويه بأن الرفيق فوزي شلق بقي أميناً ومخلصاً للحزب.

بالإضافة إلى الرفيق فوزي شلق، استدعي إلى بيروت أيضاً الرفيق المحامي مصطفى أمين للعمل لدى القيادة المركزية للحزب، حيث لعب دوراً كبيراً في «حركة أنصار السلم» الموجهة من قبل الحزب، إلى جانب الرفيق المحامي نجاة قصاب حسن، الذي كان خالد بكداش يعمل من أجل دفعه إلى مواقع قيادية في الحزب.

ولقد عاد هذان الرفيقان بدورهما إلى دمشق دونما قرار من الحزب، لأنهما لم يتحمّلا تصرفات خالد بكداش.

تأييداً لنداءي استوكهولم وبرلين

في العامين 1951 و1952 قام حزبنا بعمل جماهيري واسع في لبنان وسوريا من أجل جمع التواقيع تأييداً لنداء استوكهولم ضد القنبلة الذرية، ولنداء برلين ضد القنبلة الهيدروجينية. وقد وقع عريضة نداء استوكهولم 180 ألف شخص، وعريضة نداء برلين 220 ألفاً. هذا في لبنان، أما في سوريا فقد وقع النداءين زهاء 600 ألف شخص، من

ضمنهم أربعون نائباً سورياً. وفي لبنان وقعها بالإضافة إلى بعض النواب عدد كبير من الشخصيات السياسية والاجتماعية والفكرية. ولقد لقي هذا العمل صدى عالمياً كبيراً، واستُنفرت من أجل إنجاحه قدرات الحزب كلّها.

التثقيف

في الأعوام 51ـ52ـ53 أقيمت في بيروت ثلاث دورات تثقيفية متتالية لكادرات الحزب. كنا نطلق عليها اسم: المدرسة الحزبية. شملت هذه الدورة رفاق الكادر من محافظات لبنان وسوريا. كانت تلقى المحاضرات في ظروف سرية، على مرحلتين يومياً قبل الظهر وبعده.

كان المحاضرون الرفاق نقولا شاوي، فرج اللّه الحلو، أرتين مادويان ويوسف فيصل. وكنت ألقي محاضرات عن تاريخ حزبنا، وعن القواعد اللينينيّة في عمل الحزب.

إرغام الشيخ بشاره على الاستقالة

قابل شعبنا بالنقمة العارمة والاشمئزاز، عمليّة فرض إعادة انتخاب بشارة الخوري مرة ثانية لرئاسة الجمهورية. ومما ضاعف هذه النقمة على «التجديد»، كابوس الانتخابات المزورة التي جرت يوم 25 أيار عام 1947 واستخدم خلالها القمع من قِبل السلطة، وبشارة الخوري على رأسها، ولا سيما لجهة أساليب القمع وكبت الحريات، والرشى وأعمال التزوير، وكانت تمارس من قِبل كبار الموظفين الموالين له.

هذه الحركة الشعبية الناقمة كانت بقيادة كمال جنبلاط وبمبادرة منه.

وقد بدأت أوائل ربيع 1952 إضرابات عامة احتجاجية، وتظاهرات شعبية شارك فيها حزبنا بشكل فعّال.

وأضطر بشارة الخوري، رغم «الثقة» التي منحه إياها مجلس

النواب، إلى الاستقالة من رئاسة الجمهورية، وانتخب كميل شمعون رئيساً جديداً.

لقاء الرفيق (سلام عادل)

في صيف عام 1952 التقيت والرفيق فرج اللّه الحلو أمين عام الحزب الشيوعي العراقي الرفيق سلام عادل في منزل فتح اللّه في شارع مار الياس حيث كان مسافراً عبر بيروت إلى أوروبا. سادت اللقاء أجواء ودية، وكان الرأي موحداً خلال المباحثات حول المواضيع الأساسية التي طرحت، وخصوصاً الموقف من إسرائيل والقضية الفلسطينية. وجرى لقاء ثانٍ مع الرفيق سلام عادل أثناء عودته من أوروبا.

والمعروف أن سلام عادل مع قادة آخرين في الحزب الشيوعي العراقي علّقوا على حبل المشنقة في بغداد إبان الحركة الانقلابية ضد سلطة عبد الكريم قاسم. لقد استشهدوا من أجل خدمة وطنهم وشعبهم.

انتساب سهيل يموت ومجموعته إلى الحزب

كان سهيل يموت مع مجموعة من المثقفين يجتمعون بشكل دوري خلال عام 1952 وينكبّون على دراسة الماركسية. في تلك الفترة أقامت منظمتنا الحزبية في حي عائشة بكار لقاء سياسياً حضره سهيل يموت الذي عرّف عن نفسه بأنه شيوعي وتحدث من منطلق تطرف يساري يضر بعمل حزبنا بين السكان في هذا الحي، مما اضطرنا إلى نشر مقال في جريدة «صوت الجماهير» السرية الصادرة عن منظمة الحزب في بيروت ننتقد فيه الحديث الذي جاء على لسان سهيل يموت في ذلك اللقاء. بعد نشر المقال أبدى سهيل يموت رغبته في اللقاء مع الحزب من أجل طرح وجهة نظره. وجرى هذا اللقاء مع نقولا شاوي. وفي حصيلة النقاش معه اتفق على الاجتماع مع مجموعة سهيل يموت حيث عقد الاجتماع في

الأشرفية في منزل الرفيق جورج أبو نادر بحضوري وحضور الرفيق نقولا شاوي. بعد المناقشة قرر أعضاء هذه المجموعة الانضمام إلى صفوف الحزب. تألفت المجموعة من سهيل يموت، نخلة المطران، إدمون عون، مصطفى مكاوي، وشخصية مهمة أخرى.

سفر بكداش إلى الاتحاد السوفياتي

منذ أوائل عام 1951 كانت تنتاب خالد بكداش بين حين وآخر، نوبات عصبية وتفاقمت حالته الصحية في عام 1952 وكان يهتم به وبشكل سري الرفيق الدكتور أنترانيك انجيان الذي كان على مستوى فكري وسياسي رفيع ويتحلّى بالأمانة وله خدمات للحزب.

وقد أبلغت الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، عبر اتصالاتنا الحزبية الخاصة، بشأن حالة خالد بكداش الصحية. وسافر خالد بكداش بدعوة خاصة إلى الاتحاد السوفياتي في عام 1952 للراحة والاستجمام، ومن ثم شارك في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي ممثلاً الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري وعاد إلى بيروت في تشرين الأول 1953. وكنت قد قمت بإعداد جميع الوثائق الضرورية لسفره.

الانتخابات النيابية الجديدة

حلّ المجلس النيابي في صيف 1953 وجرت انتخابات نيابية جديدة، حيث إن رئيس الجمهورية المنتخب كميل شمعون كان يرغب في الإتيان بأغلبية نيابية مؤيدة له. ولقد درج الرؤساء الجدد على استخدام هذا الأسلوب في كل مرة.

قرر الحزب، رغم عدم موافقتي، ترشيحي للانتخابات مرة أخرى في منطقة برج حمود ـ المتن. ولكن السلطة الجديدة مارست هي أيضاً التقليد الانتخابي في التزوير والقمع ضد المرشيحن غير المرغوب فيهم

من قبل الحكم. وبديهيّ القول إن في ظل هذا الجوّ ليس بالإمكان الفوز، غير أننا كنا سنستخدم الحملة الانتخابية كمنبر سياسي من أجل حماية الاستقلال وتعزيزه، وكشف موقف السلطة المعادي للحريات الديموقراطية معربين عن مواصلة نضالنا من أجل حقوق جماهير شعبنا.

«مؤتمر شعوب الشرق الأوسط»

في صيف عام 1953 عقد في بيروت بمبادرة من الحزب، «المؤتمر الأول لشعوب الشرق الأوسط المعادي للامبريالية»، وقد شاركت في أعماله التحضيرية.

اشتركتْ في المؤتمر وفود من لبنان وسوريا والعراق وإيران والأردن ومصر، تتألف من أوساط سياسية وطنية مختلفة وشخصيات لها وزن سياسي كبير.

قرر المؤتمر بالإجماع العمل ضد الوجود الامبريالي وضد توسعه في الشرق الأوسط، وضدّ ما بعده من مشاريع أحلاف ومن خطط «دفاعية»، والعمل لأجل تعزيز نضال شعوب الشرق الأوسط من أجل الاستقلال الوطني ودفاعاً عن الحريات الديموقراطية.

الوفود التي حضرت من الخارج كانت على صلة دائمة بمكتب انطون تابت الذي لعب دوراً كبيراً في التحضير للمؤتمر.

برنامج سياسي جديد

في سبيل التوجه إلى العمل العلني للحزب، صدر في ربيع عام 1954 برنامج سياسي جديد للحزب في لبنان، موقع من قبل الرفاق نقولا شاوي، فرج اللّه الحلو، أرتين مادويان وحسن قريطم. الأسس التي ارتكز عليها البرنامج السياسي منطلقة من صيانة وتعزيز الاستقلال، والحريات الديموقراطية، ورفض انتماء لبنان إلى أحلاف امبريالية، وضد

دخوله اتفاقية «الدفاع المشترك»، والعمل لتطوير الصناعة الوطنية على أساس صيانة حقوق العمال. الدفاع عن قانون العمل. ومن أجل إيجاد قانون الضمان الاجتماعي للشغيلة وكل الفئات الشعبية. دفاع عن حقوق المرأة. استصلاح الأراضي في القرى وتطوير الزراعة.

وقد لجأت السلطة، بسبب هذا البرنامج، إلى الحكم غيابياً على الموقعين عليه بالحبس لمدة شهر مع وقف التنفيذ.

وزع هذا البرنامج بشكل واسع في جميع أنحاء البلاد حيث نشر في عدد خاص من جريدة «نضال الشعب».

وقد صدر برنامج شبيه بذلك في سوريا بتوقيع خالد بكداش.

في حملة الانتخابات السورية

جرت الانتخابات النيابية في سوريا في عام 1954 فاستنفر حزبنا في لبنان كل قدراته، وانتقلتُ إلى سوريا للمساعدة في الحملة الانتخابية.

كلفت بالذهاب إلى منطقة الجزيرة بمحافظة القامشلي، شمالي سوريا، ووصل إلى هناك قادماً من دمشق الرفيق إبراهيم بكري، وهو مرشح الحزب، للعمل معاً بغية تنظيم وقيادة الحملة الانتخابية. كان في قيادة الحزب في القامشلي الرفيق اراكيل تولبنديان والرفيق رمو.

قمنا بعمل انتخابي واسع بين الأرمن والأكراد والأشوريين والعرب وكانت تعوزنا الإمكانيات المالية، ونظراً لبعد المسافة بين القرى بعضها عن بعضها الآخر وإزاء عدم وجود وسائل النقل لدينا من أجل نقل الناخبين إلى مراكز الاقتراع، اضطررنا إلى اللجوء إلى الحنكة باستخدام سيارات المرشحين الآخرين لنقل ناخبينا. ونتيجة فرز الأصوات نال الرفيق إبراهيم بكري ألفي صوت حيث كان مرشحاً فردياً، مقابل اللائحة التي فازت، والمؤلفة من أربعة مرشحين وقد نالت أربعة آلاف صوت. وقد قام الحزب بعمل انتخابي كبير في الأماكن التي كان لنا فيها مرشحون في مختلف المناطق السورية.

في دمشق انتخب الرفيق خالد بكداش نائباً، وبأصوات مشرفة. جاء هذا الانتخاب انتصاراً كبيراً لحزبنا ولدوره السياسي ليس في سوريا فقط، بل أيضاً في العالم العربي وعلى الصعيد العالمي.

تمركز قيادة الحزب في دمشق

نشأ في سوريا وضع سياسي جديد ومناخ إيجابي، اتجهت السياسة السورية في منحى معاد للامبريالية، مما خلق ظروفاً جديدة باتجاه تطوير الحريات الديموقراطية، وازداد وزن العمال والفئات الشعبية في حياة البلاد السياسية والاجتماعية، ونشأت ظروف ملائمة لتنمية الحزب سياسياً وتنظيمياً، وتضاعف نفوذه السياسي وتعززت مكانة سوريا في النضال العام ضد الاستعمار.

وقد رأى الحزب، إزاء هذه التطورات، أن من الضروري إعطاء الأولوية والأهمية لعمله في سوريا. كان هذا الموقف صحيحاً. وبناء على هذا الاستنتاج انتقل الرفيق خالد بكداش إلى دمشق، وكان يجب أن ينتقل إلى هناك قبل البدء بالانتخابات النيابية. غير أنه انتقل نهائياً بعد الانتخابات الرفاق نقولا شاوي، فرج اللّه الحلو، أرتين مادويان وحسن قريطم. وبكلمة أخرى كل قيادة الحزب، ولا شك في أن هذا القرار لم يكن صائباً. وبقي في لبنان يوسف خطار الحلو الذي كان من الطبيعي أن لا يتمكن من الإحاطة بالعمل الحزبي برمته في لبنان والحفاظ على مستواه. ولقد تضرّر الحزب في لبنان من هذا القرار، وأثبتت الحياة أن من الأصلح لو كانت تسلّمت الكادرات السورية قيادة عمل الحزب في سوريا ويبقى أعضاء قيادة الحزب اللبنانية في لبنان؛ فعندئذ كان بإمكانهم مساعدة سوريا وتعزيز عمل الحزب في لبنان، وتبيَّن أن قرار انتقالهم إلى سوريا كان خاطئاً، وكان مُراءاة لسياسة الرفيق خالد بكداش الخاطئة إزاء كوادر الحزب في لبنان.

وقد واصلتُ إبان وجودي في دمشق، القيام بمهمة المسؤول المالي لدى اللجنة المركزية للحزب.

كنتُ أشارك في اجتماعات السكرتاريا صباح كل يوم والقيادة المركزية (المكتب السياسي) الذي كان يجتمع بشكل دوري. وكنت أهتم بالعمل التنظيمي والسياسي والفكري في الحزب بين الأرمن.

إلى بوخارست

في خريف عام 1954 سافرت إلى بوخارست لالتقاء هيئة تحرير جريدة «في سبيل سلم دائم، في سبيل ديموقراطية شعبية»، ولبحث القضايا الإدارية المتعلقة بإصدار الجريدة باللغة العربية.

في هذا الوقت كان الرفيق نقولا شاوي في بوخارست ممثلاً الحزب في هيئة تحرير الجريدة. يجب أن نضيف أن الرفيق نقولا شاوي انتقل إلى بوخارست بتوجيه من خالد بكداش.. مع العلم أن وجوده في بيروت كان ضرورياً، وأكثر فائدة للحزب.

انعقد آنذاك في بوخارست المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي الروماني وقد شاركت والرفيق نقولا شاوي فيه موفدين من قبل الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري.

... وكان «المؤتمر العشرون»

في آذار 1956 كان موعد المؤتمر العشرين التاريخي للحزب الشيوعي السوفياتي في موسكو. شاركنا في هذا المؤتمر بوفد من الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري قوامه أربعة أشخاص هم الرفاق خالد بكداش، نقولا شاوي، أرتين مادويان ويوسف فيصل.

ولقد أحدث هذا المؤتمر انعطافاً كبيراً في الاتحاد السوفياتي وعلى النطاق العالمي.

على الصعيد السياسي أقرّ المؤتمر مبدأ التعايش السلمي وضرورة تطبيقه وإمكانية «درء خطر الحرب»، والوسائل المختلفة للانتقال إلى الاشتراكية، وكشف انهيار النظام الامبريالي وتفوق النظام الاشتراكي، كما أدان عبادة الفرد وأسلوب العمل المبني عليه. وثبَّت عمل القيادة الجماعية في حياة الحزب وأعيد الاعتبار إلى مبادئ اللينينية والحياة الديموقراطية في أسلوب عمل الحزب.

التقينا خلال انعقاد المؤتمر الأمين العام للحزب الشيوعي الإسرائيلي في تلك الفترة ميكونيس، وانتهت مباحثاتنا معه دون أيّ تفاهم سياسي. واللافت للنظر أن خلال حديثي مع ميكونيس على انفراد قال لي: «غداً سيتم السلام بين البلدان العربية وإسرائيل، إسرائيل لديها قدرات مالية وتكنيكية واختصاصيّون فنيّون، حيث بإمكان البلدان العربية الاستفادة منها»! عارضته وقلت له: «إذن ، نحن أمام كولونيالية جديدة». امتعض ميكونيس، ولكنني كنت أكثر امتعاضاً منه بسبب كلامه هذا.

والمعروف أنه في وقت لاحق ألقي به خارج الحزب الشيوعي الإسرائيلي، نظراً لانحرافه الصهيوني، وتولى قيادة الحزب القائد الأممي ماير فلنر، الذي انتهج خطاً شيوعياً حقيقياً يدين سياسة إسرائيل التوسعية وسياسة العداء للعرب، مطالباً بإيجاد دولة وطنية مستقلة للشعب العربي الفلسطيني على أرضه فلسطين، وقد أدان الغزو الوحشي الإسرائيلي للبنان والموجه ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني، مطالباً بالانسحاب الفوري لقوات الاحتلال الإسرائيلي دون شروط، من لبنان ومن كل الأراضي العربية المحتلة.

قبل مغادرة الوفود المشاركة في المؤتمر العشرين توفي أمين عام الحزب الشيوعي البولوني، الرفيق بياروت. وقد شاركت والرفيق نقولا شاوي من قبل حزبنا، في مأتمه في وارسو.

وكان للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي تأثير فاعل في نظرة حزبنا الأمميّة.

واتخذ الاجتماع الدوري للجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني السوري، المنعقد في دمشق عام 1956، من 22 إلى 25 نيسان وفي 6 و7 أيار، جملة من المقررات انسجاماً مع توجّهات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوڤياتي.

وتحدّدت سياسة الحزب الشيوعي والمهمات في لبنان على الشكل التالي:

ـ تعزيز الاستقلال الوطني وتحريره من النفوذ الاستعماري، ومن أجل خلق ظروف أفضل لتطوير الاقتصاد الوطني.

ـ الحريات الديموقراطية بالنسبة إلى لبنان هي من المسلّمات الضرورية.

ـ طريق التطور السلمي للبنان.

ـ أسس الجبهة الوطنية في لبنان.

وتحدَّدت سياسة الحزب في سوريا على الأسس التالية:

ـ إعطاء الأولوية للحفاظ على الاستقلال الوطني وتعزيزه.

ـ إمكانية التطور السلمي والاستفادة من الطريقة البرلمانية لتحقيق التغيير الجذري الذي تحتاج إليه سوريا.

ـ أسس تشكيل الجبهة الوطنية في سوريا.

وقرر المجتمعون التوجّهات التالية:

ـ موضوع تشكيل الجبهة الوطنية المعادية للامبريالية ودور البورجوازية الوطنية على ضوء الأوضاع المستجدة في العالم.

ـ حول الوحدة العربية.

ـ حول القضية الفلسطينية.

واتخذ الاجتماع أيضاً القرار التالي:

«من مهمات الحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري تحقيق القيادة الجماعية داخل الحزب وتنفيذ الديموقراطية في داخله ورفع المستوى السياسي والفكري للحزب».

لكن الرفيق خالد بكداش أورد ضمن هذه المقررات، العبارة الآتية:

«في داخل الحزب وعلى حميع الصعد، إن مسؤولية العمل القيادي والتوجيهي ملقاة على أحد أعضاء القيادة وحده، يعني على عاتق الأمين العالم للحزب». بكلمة أوضح: على الرفيق خالد بكداش فقط! (نشرت هذه المقررات في كراس «نحو آفاق جديدة» ص ـ 44).

وفي هذا الإطار وقعت حادثة لا تصدق، ولكن، مع الأسف، فما حصل هو الحقيقة بعينها!

فبعد اختتام المؤتمر العشرين، وكانت قد انتهت احتفالات استقبال الوفود الأجنبية، كان لا بدَّ من عودة الرفاق المشاركين في المؤتمر إلى البلاد. ولكن، كان هناك موضوع اللقاء مع الرفاق السوڤيات. يومها قال الرفيق خالد بكداش، وكنت شاهداً على ذلك، إن الرفاق السوڤيات غير مستعدين للقاء معي بحضور أعضاء الوفد، بل أكثر من ذلك، فإنهم لن يستقبلوني إذا لم يغادر باقي أعضاء الوفد موسكو!!

هذا غير صحيح مطلقاً. وهو مختلق من قبله. فلقد بقي الرفاق السوڤياتيون فيما بعد، وعلى الدوام، يلتقون وفدنا بجميع أعضائه.

وحصل حادث آخر. فقد تعرَّف وفدنا أثناء المؤتمر إلى وفد الحزب الشيوعي في أرمينيا السوڤياتية. ورغبتُ من هذا التعارف في إقامة علاقات صداقة ودية بيننا. فنظمتُ بموافقة خالد بكداش لقاء مع وفد أرمينيا حيث كانوا مقيمين في أوتيل موسكو. ولكن ما حدث؟ في اليوم المحدّد ذهب الرفيق بكداش صباحاً والتقى بمفرده وفد أرمينيا.

فيما بعد أعرب لي وفد أرمينيا عن اشمئزازهم من تصرف خالد بكداش. خجلت. وصودف أن دعاني الوفد لزيارة أرمينيا السوڤياتية. وعند تلبيتي هذه الدعوة استقبلت استقبالاً حاراً من قبل الحزب والدولة على أرض المطار عند وصولي؛ وكذلك جرى لي وداع حار عند مغادرتي. مكثت أسبوعاً في أرمينيا والتقيت أعضاء المكتب السياسي للحزب الذي أقام حفل غداء تكريماً لي. وأقمت في الفيلا الخاصة باللجنة المركزية. والتقيت هناك الرفاق القدامى ممّن كانوا في لبنان وغادروه مع قوافل

العائدين إلى الوطن. وكنت أول أرمني يزور أرمينيا بعد العام 1947 من بلدان الاغتراب. بالإضافة إلى يريڤان زرت أيضاً مدينة لينيناغان وأقام سكرتير منظمة الحزب في هذه المدينة مأدبة غداء تكريميّة.

وكانت مناسبة في لينيناغان لزيارة أقربائي الذين عادوا إلى الوطن الأم في عام 1946.

جريدة علنية جديدة بالأرمنية

بدأ في العام 1957 صدور جريدة «هاراتش» (إلى الأمام)، كجريدة للحزب باللغة الأرمنية. كان يرئس تحريرها الرفيق كرنيك عطاريان ويعمل فيها رفاق آخرون، وكانت تصدر كل أسبوع بثماني صفحات كبيرة. وقد كتبتُ في السنة الأولى مجموعة مقالات افتتاحية دون توقيع حيث كنت أرسل هذه المقالات من دمشق. وحررت في السنوات التالية بعض المقالات. ظلّت هذه الجريدة تصدر لمدة ثماني سنوات. وقد توليت رئاسة تحريرها في الشهرين الأخيرين من العام الأخير لصدورها، بسبب غياب الرفيق كرنيك، كان امتياز الجريدة مسجلاً باسم نسيب نمر. وانسجاماً مع دوره التكتُّلي المعادي للحزب فقد عمل على وقف إصدار الجريدة مستفيداً من «ملكيته» لامتيازها. والمؤسف أن نذكر أن مسؤولية وقف إصدار الجريدة يتحملها أيضاً أوهانس اغباشيان وكسبار دردريان اللذان كانا ضمن العمل التكتلي المعادي للحزب، وقد طرد هؤلاء الثلاثة من الحزب.

«الانتقاد الذاتي» المفروض على الرفيق شاوي

في عام 1957 عادت الحملة على نقولا شاوي؛ وبإلحاح من خالد بكداش فرض على الرفيق شاوي كتابة «انتقاد ذاتي» وزع كتعميم داخلي على منظمات الحزب. إن ما حصل كان اتهاماً غير محق حول أسلوب عمل الرفيق نقولا.

وفرض في الوقت نفسه «انتقاد ذاتي» أيضاً على حسن قريطم بإصرار من خالد بكداش.

أشير هنا، حفاظاً على الحقيقة والإنصاف، إلى أن المطلوب من اللجنة المركزية لحزبنا اليوم في أحد اجتماعاتها، إعلان إلغاء رسالة «الانتقاد الذاتي» المفروض على نقولا شاوي، على غرار ما حصل بالنسبة إلى رسالة فرج اللّٰه الحلو.

الوحدة السورية ـ المصرية و... المفاجأة!؟

في عام 1957 كما في السنوات اللاحقة، كانت سوريا والنظام المصري بقيادة جمال عبد الناصر في مواقع نضالية متقدمة معادية للامبريالية. وقد أقام هذان البلدان علاقة صداقة وودّ مع الاتحاد السوڤياتي. وتصاعد النضال الوطني الوحدوي لدى شعوب الأقطار العربية ولا سيما في سوريا. وكان من أوائل من حمل لواء التحرر الوطني لدى الشعوب العربية بشكل خاص المفكرون المسيحيّون اللبنانيون.

لقد رأى المتحمّسون لمبادئ الوحدة العربية في سوريا ومصر، في ذلك الوقت أن الوقت قد آن لتحقيق الوحدة العربية بدءاً بالوحدة بين مصر وسوريا. ولكن التوجه في هذا المنحى لم يكن منظوراً وملموساً على الأقل لدى قيادة حزبنا .

عاد الرفيق خالد بكداش من الخارج في أواخر خريف 1957 بعد مشاركته في مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني.

كنت في منزل الرفيق خالد. وخرجتُ وإياه إلى حديقة المنزل وكان معنا الرفيقان فرج اللّٰه الحلو ونقولا شاوي. تحدثنا عن الوضع السياسي القائم. لفتُّ انتباه الرفاق إلى ما جاء في حديث وزير الخارجية السورية صلاح الدين البيطار بعد عودته من زيارة إلى القاهرة، وقد قال فيه: إن الوحدة السورية ـ المصرية ستتحقق بسرعة.

توقف الرفيق بكداش لحظة واستغرق في التفكير حتى دخلنا المنزل. وغادر بكداش المنزل للقيام بالاتصالات للتحقق من هذه المعلومات. وانتظرناه في البيت. ثم عاد الرفيق خالد ليبادرنا بالقول: «سوريا انتهت»... إذ بمبادرة من الجيش أعلن رئيس الجمهورية شكري القوتلي وجميع الوزراء موافقتهم على إقامة الوحدة بين سوريا ومصر.

كانت تلك «مفاجأة» لحزبنا

هناك حدث جديد لافت للنظر كان له تأثير شديد فينا ولا سيما في تلك الفترة الأخيرة.

عصر كل يوم وحتى آخر الليل كان يجتمع كل من ميشال عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني وخالد بكداش، ورئيس تحرير جريدة «الرأي العام»، لبحث المجريات السياسية في البلاد ولتحديد الموقف السياسي. وقد تبادر لنا أن الرفيق خالد بكداش يلعب دوراً أساسياً في هذه الاجتماعات. ولكن، تبين فيما بعد أن المشاركين الأربعة في هذه اللقاءات كانوا مصممين ومخططين للوحدة السورية ـ المصرية دون أن يدعوا مجالاً للرفيق خالد بأن يعرف أو يحس بذلك.

وهكذا فحزبنا لم يعرف أيضاً. وفوجئ خالد بكداش.. والحزب!

اجتماع استثنائي للجنة المركزية وقرارات..

انعقد اجتماع استثنائي للجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري للبحث في المستجدات الطارئة ولأجل إقرار ما يلزم من توجّهات وقرارات. بعد المناقشة وتداول الآراء قرر الحاضرون بالإجماع الموافقة على تحقيق الوحدة السورية ـ المصرية، حيث إن حزبنا منذ البدء عمل دون انقطاع من أجل تحقيق وحدة الأقطار العربية من أجل التحرر الوطني ومن أجل الاستقلال والحرية وضد الامبريالية والرجعية.

ولكن الحقيقة أن جواً ثقيلاً كان يسيطر على اجتماع اللجنة المركزية، ناتج عن السرعة التي تجري فيها عملية الوحدة السورية ـ المصرية واستبعاد حزبنا عن المشاركة في التحضير لهذه الوحدة، وعدم الحصول على ضمانات من قبل مصر بشأن الحريات الديموقراطية.. مما خلق لدى الحزب قلقاً حيال حريته وحيال مصير الحريات الديموقراطية في البلاد، حيث إن السرعة في تحقيق هذه الوحدة ناجمة عن خوف بعض المسؤولين السوريين من تصاعد نمو الحزب الشيوعي في سوريا ومن «الخطر الشيوعي على سوريا». هذه الأسباب أفصح عنها علناً فيما بعد.

ابتعاد خالد بكداش عن سوريا

رغم صدور بيان رسمي عن الحزب يعلن موافقته على الوحدة السورية ـ المصرية، غادر الرفيق خالد بكداش على عجل دمشق في اليوم الذي سينعقد فيه مجلس النواب السوري للتصديق على الوحدة. إن موقفاً كهذا اعتبره مؤيّدو الوحدة موقفاً معادياً وهنا يطرح السؤال الآتي: أَفَلَمْ يكن من الأفضل لو بقي الرفيق خالد بكداش في البلاد وشارك في جلسة مجلس النواب وصوّت لمصلحة الوحدة مشيراً في الوقت نفسه إلى أسلوب تحقيق هذه الوحدة، ومشدداً على حماية الحريّات الديموقراطية، منطلقاً في ذلك من هاجس الحرص على أهداف الوحدة وتعزيز أسسها؟

الاستمرار في العمل العلني المحدود.. والإشكالات مع عبد الناصر

في أعقاب قيام الوحدة السورية ـ المصرية، وفي ظل الوضع المستجدّ استمر الحزب في عمله العلني، بشكل محدود وواصل إصدار جريدته «النور». بقي الرفيق فرج اللّه الحلو في دمشق لقيادة العمل

الحزبي والإشراف على إصدار «النور»، وكان يرئس هيئة تحريرها، وهي، الجريدة اليومية للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، صاحبها ومديرها المسؤول عبد الباقي جمالي. وكان للجريدة المذكورة وزن بارز على صعيد الرأي العام والأوساط السياسيّة والشعبية(*).

ولكن، كان لدى الحزب ما يدعوه إلى التفكير بأن هذا الوضع سوف لن يستمر. غير أن إصرارنا على إبقاء الصيغة المعتمدة كان ناتجاً عن الوضع اللبناني وارتباط السلطات اللبنانية آنذاك بمشروع أيزنهاور، واندلاع الانتفاضة. وحيث أن هذه الثورة كانت تحظى بتأييد جمال عبدالناصر، فلم يكن الوضع مؤاتياً لمنع علنيَّة الحزب ونشاطه في سوريا.

ولكن بعد انتهاء الانتفاضة المسلحة في لبنان، أرسل عبد الناصر ممثلاً خاصاً من قبله (كان اسمه شعيتو سيفو، على ما أذكر) والتقى عدة مرّات الرفيق فرج اللّه الحلو في دمشق مقترحاً تجميد عمل الحزب الشيوعي وتسليم جريدة «النور» للسلطة مقابل تعويض مالي. وقدّم مثيلاً لهذا الاقتراح إلى حزب البعث في سوريا حيث حظي بالموافقة. أما الرفيق فرج اللّه الحلو فقد رفض الفكرة باسم الحزب، وأكد استمرار الحزب في الوقوف إلى جانب الوحدة، كما أنه طالب باحترام الحريات

(*) أوردت «النور»، على صفحاتها، تعريفاً بنفسها هو: «لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، تأسست سنة 1955، صاحبها ومديرها المسؤول عبدالباقي جمالي. اتجاهها السياسي: تقوية الاستقلال الوطني والدفاع عنه، الدفاع عن الحريات الديموقراطية، مواصلة التطور الديموقراطي للبلاد، الدفاع عن حقوق النقابات الديموقراطية، المطالب الاجتماعية للعمال والجماهير الشعبيّة، مواصلة التطوّر الاقتصادي والاجتماعي في الاتجاه الوطني الديموقراطي، استخدام الإمكانيّات السلميّة، البرلمانية، لتحقيق الإصلاحات الجذرية الضرورية. وعلى أساس ها التوجّه، تعزيز الجبهة الوطنية وخاصة مع حزب البعث العربي الاشتراكي».

الديموقراطية والعمل العلني للحزب، ممّا يخدم تعزيز أسس الوحدة لدى شعبنا وفي العالم العربي.

عودة بكداش إلى سوريا

انتهت الانتفاضة المسلحة في لبنان خلال أيلول 1958، وفي تلك الفترة عاد الرفيق خالد بكداش إلى دمشق. انعقد الاجتماع الدوري للجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني ـ السوري في دمشق وأعيد البحث بالوضع السياسي القائم في سوريا ووضع الوحدة السورية ـ المصرية. وباقتراح من خالد بكداش فقد أُقرّت نقاط سياسية جديدة حول الوحدة من 13 بنداً.

وأعيد طرح موضوع وحدة الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا وضرورة فصلهما نتيجة المستجدات الحاصلة في الوضع السياسي الناشئ. وتقرَّر تسمية الحزب الشيوعي في سوريا «الحزب الشيوعي السوري» وتسمية الحزب الشيوعي في لبنان «الحزب الشيوعي اللبناني». وتشكلت لجنة مركزية في سوريا من الرفاق أعضاء اللجنة المركزية السوريين واللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني تشكلت من أعضائها اللبنانيين. بكلمة أخرى، فقد أعيد تنفيذ قرار المؤتمر الأول للحزب.

تألفت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني من الرفاق نقولا شاوي، فرج اللّه الحلو، أرتين مادويان، حسن قريطم، يوسف خطار الحلو، مصطفى العريس، أوهانيس أغباشيان، طنوس دياب.

وتألفت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري من الرفاق خالد بكداش، يوسف فيصل، إبراهيم بكري، ظهير عبد الصمد، موريس صليبا، عبد الجليل سيريس وفوزي شلق.

هذه النقاط السياسية الجديدة أعادت تأكيد موقف الحزب الشيوعي السوري المؤيد للوحدة السورية، لكن الحزب كان في الوقت نفسه يقترح

تحقيق هذه الوحدة تدريجاً عبر مجموعة من الإجراءات الديموقراطية، مع التشديد الكامل على احترام الحريات الديموقراطية. ولكن هذه النقاط السياسية والمطالب المطروحة كان لها طابع شكلي. إلا أن وضعاً جديداً كان قد نشأ. وكان من المطلوب التعامل معه موضوعياً، على أساس المبادئ اللينينية الخلاقة. وأثبتت الأحداث أن المطالب والنقاط الـ 13 لم تكن تنطبق على الواقع، وإنما اتسمت بالجمود، حيث إن الوحدة كانت قد تحقَّقت فعلاً. ولا شك أن طرح إعادة النظر في قيام الوحدة سيحدث رد فعل لدى عبد الناصر، ولم يكن وارداً أن يتقبّل آنذاك مثل هذا الاقتراح.

هل من الممكن، في حال التطلّع إلى القضية برؤية سياسية بعيدة المدى، ومن خلال نظرة هادئة ومعمّقة وخلّاقة، أن نوافق على افتعال صدام شديد بين الحزب الشيوعي السوري وجمال عبد الناصر الذي كان يقف في موقع معاد للامبريالية، وخصوصاً في طليعة النضال ضد الامبريالية الأميركية في العالم العربي، ويقيم علاقات صداقة ودية وحميمة مع الاتحاد السوفياتي. وفي ما عدا ذلك، لم يكن حزبنا بحاجة إلى صدام من هذا النوع، وهو الذي لم يكن لديه استعداد للخوض في مثل هذه المواجهة. ناهيك عن أنه لم يكن مستحيلاً الخروج من هذه الأزمة وإعداد حلّ آخر لها. وبما يؤمّن العمل العلني للحزب لو تجنّبنا الصدام مع عبد الناصر والوحدة.

ونشير، هنا، إلى أن الحزب الشيوعي السوري عاد واستفاد خلال السبعينيات من تجربة 1959.

حصل ما كنا نتجنّبه!

أصدر الحزب بياناً يتضمن البنود الـ 13 وذلك في اليوم نفسه الذي انتقل فيه الرفيق خالد بكداش إلى بيروت، وبعد فترة وجيزة سافر إلى أوروبا حيث أمضى بضع سنوات.

وحدث ما كنا نتجنبه.

في عصر يوم صدور البيان ألقى جمال عبد الناصر خطاباً بثّته إذاعة دمشق أعلن فيه الحرب على الحزب الشيوعي السوري. وبدأت ملاحقة عامة بحقّ الشيوعيّين وحملة اعتقالات. فانتقل الحزب إلى أقصى درجات العمل السري في ظروف لم يكن لدينا فيها أي استعداد لمواجهة هذا الوضع.

فرج اللّه الحلو في دمشق واستشهاده فيها

باقتراح من خالد بكداش عاد الرفيق فرج اللّه الحلو سراً إلى دمشق، لقيادة عمل الحزب الشيوعي السوري بمفرده في ظل الوضع السّري السائد هناك. حيث إن قيادة الحزب الشيوعي السوري كانت كلها موجودة في بيروت.

وفي شهر أيار 1959 رجع الرفيق فرج الله الحلو إلى بيروت وعقد لقاء ضم الرفاق نقولا شاوي، ارتين مادويان وحسن قريطم، ألقى خلاله الرفيق فرج الله الحلو تقريراً عن الوضع السوري، وإمكانية استمرار عمله في سوريا.

كان خالد بكداش في تلك الآونة يقيم في براغ ويسألنا من هناك: «لماذا يتأخر فرج اللّه الحلو عن العودة إلى دمشق؟» وفي حزيران، عاد فرج اللّه الحلو إلى دمشق... واعتُقل نتيجة خيانة رفيق رضا الذي كان مسؤول منظمة دمشق للحزب وبقي مسؤولاً عنها في الظروف السرية. وتبيَّن فيما بعد أن هذا الخائن تحوّل إلى عميل لقائد المكتب الثاني السوري عبد الحميد السراج قبل أن ينتقل الحزب إلى العمل السري.

واستشهد الرفيق فرج اللّه الحلو أثناء التحقيق نتيجة التعذيب الوحشي بحضور الخائن رفيق رضا.

وقوف الحزب الشيوعي اللبناني
إلى جانب الحزب الشيوعي السوري

استنفر الحزب وعبأ قدراته كلها لمساعدة الحزب الشيوعي السوري. وتشكّلت هيئة خاصة من قيادة الحزب الشيوعي السوري ـ مقيمين في بيروت ـ ومن الحزب الشيوعي اللبناني أنا والرفيقان نقولا شاوي وحسن قريطم.

كلفت بتنظيم عمل المراسلين السريين ونقل المطبوعات وانتقال الرفاق من سوريا وإليها من أجل العمل الحزبي، حيث لجأ العديد من الرفاق السوريين وبينهم طلاب في هذه الفترة، إلى بيروت حيث تولّيتُ تنظيم إقامتهم لدى العائلات الأرمنية بمشاركة فعالة من الرفيقين كيفورك ديرنيكوغوصيان وبوغوص توتونجيان وغيرهما، حيث توزّع معظمهم في حي البدوى وكمب حاجن وسكن فريق آخر منهم في أحياء أخرى لدى عائلات رفاق عرب.

العمل لترتيب وضع الطلاب السوريين

بناء على قرار الحزب سافرت في العام 1959 إلى صوفيا ومن ثم إلى برلين بغية ترتيب وضع رفاقنا السوريين في الجامعات هناك. كنت أحمل لائحة تضم ثلاثين طالباً لتأمين دراستهم في صوفيا، وعدداً مماثلاً إلى برلين. وقد أجريتُ اتصالات مع مسؤولي الحزب في كل من بلغاريا وألمانيا الديموقراطية. وشرحت المهمة الموكلة إليّ من قِبل الحزب الشيوعي السوري والحزب الشيوعي اللبناني متمنّياً الحصول على الموافقة. وبكل ترحاب وافق الرفاق البلغار والألمان على دخول هؤلاء الطلاب جامعات البلدين. ولقد أنجزت المهمة الملقاة على عاتقي بنجاح.

النتائج في لبنان

إن الصدام المؤسف الذي نشأ بين الحزب الشيوعي السوري وبين السلطة الوحدوية وجمال عبد الناصر، والدعم العملي المطلق من الحزب الشيوعي اللبناني للحزب الشيوعي السوري، ألحق ضرراً سياسياً بالحزب الشيوعي اللبناني.

ذلك أن سياسة الحزب الشيوعي اللبناني خلال أعوام 1956 ـ 1957 ـ 1958 كانت قد اكتسبت تأثيراً ووزناً سياسياً كبيرين لدى الأوساط الوطنية والشعبية ممّن كانوا مؤيدين لسياسة عبد الناصر ومتأثرين بشخصيّته. أما في أعقاب الوضع السياسي الجديد في سوريا وموقف الحزب الشيوعي السوري إزاءه، وما حظي به من تأييد مطلق من قبل الحزب الشيوعي اللبناني، فقد حصل نوع من التباعد بيننا وبين القوى الوطنية والشعبية. وبكلمة أخرى، بيننا وبين القوى التي كنا نقف معها في صف واحد. ولقد بقيت آثار هذا الشرخ السياسي العميق قائمة حتى انعقاد المؤتمر الوطني الثاني لحزبنا حيث جرى فيه انعطاف تاريخي.

ولنضع السؤال التالي أمام التاريخ: أَفَلَمْ يكن من الأفضل والأنفع للحزب الشيوعي اللبناني، والأحرى للحزب الشيوعي السوري، لو تركناه وحده في موقفه السياسي الجديد، ولو لم نمحضْهُ التأييد والدعم المطلق دون أيّ تحفظ؟! .

الانتفاضة المسلحة في لبنان

وكان قد نشأ في لبنان آنذاك، وبالتحديد في العام 1957، وضع سياسي متفجر ضد سياسة الرئيس كميل شمعون الداخلية والخارجية، وموقفه المساند لحلف بغداد الامبريالي وتعامله مع تركيا التي هي عضو في هذا الحلف. في تلك الفترة كان جمال عبد الناصر في مواقع معادية ومناوئة للامبريالية، مناصباً أميركا العداء بوجه خاص. ولقد جاءت

النجاحات التي حقّقها بعد العدوان الثلاثي الإسرائيلي ـ الفرنسي ـ البريطاني عام 1956 على مصر، ومواجهة الشعب المصري البطولية لهذا العدوان، وموقف الاتحاد السوفياتي الحازم وما نزل بالمعتدين من هزيمة نكراء... جاءت هذه التطوّرات لتخلق لدى الرأي العام اللبناني جواً نضالياً متصاعداً معادياً للامبريالية. لمواجهة هذا التيار الشعبي العارم لجأ كميل شمعون إلى التحالف الكليّ مع القوى الرجعية والامبريالية.

في خريف 1957 قامت تظاهرة شعبية ضخمة جوبهت بالرصاص من قبل الشرطة والجيش والملالات التابعة لسلطة كميل شمعون، وقمعت التظاهرة بشكل وحشي وجرى اعتقال المئات من المتظاهرين. وتفاقم الوضع وازداد تفجُّراً على النطاق الوطني العام بسبب موافقة كميل شمعون على مشروع أيزنهاور مستفيداً من المادة 52 من الدستور اللبناني التي تخوله هذه الصلاحية، وإعلانه ذلك أمام الكونغرس الأميركي، إنه المشروع الذي يمنح أميركا حق التدخل في شؤون لبنان الداخلية، وأيضاً الحق بإقامة قواعد عسكرية على أرضه.

انفجر الوضع في 8 أيار 1958 على أثر اغتيال صاحب جريدة «التلغراف» المناضل الوطني نسيب المتني على يد زمرة مجرمة بقيت هويتها غامضة غير أن هذه الزمرة معروفة لدى الجميع. وبدأت الانتفاضة المسلحة في جميع أنحاء البلاد ضد سلطة كميل شمعون وضد مشروع أيزنهاور. أصدر الحزب بياناً بالعربية والأرمنية يدعو فيه الجماهير إلى المشاركة في الانتفاضة المسلحة. انخرط الشيوعيون في العمل المسلح بشكل بنّاء وفي الصفوف الأمامية، في بيروت الغربية وفي بيروت الشرقية... في حي البدوي وحاجن الأرمنيّين جنباً إلى جنب مع رفاقنا الهنشاك، وأيضاً في طرابلس وبعلبك وصيدا وجنوب لبنان وفي مناطق أخرى. وقد وصل عدد الشيوعيين المنخرطين في العمل المسلح للانتفاضة إلى نحو ستمائة رفيق. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أرسل الحزب إلى المختارة وبطلب من كمال جنبلاط، عدداً كبيراً من المقاتلين

المسيحيين من بينهم ثلاثون أرمنياً، فيقوم هؤلاء المسلحون الشيوعيون بمعاونة القوى المسلحة الدرزية أثناء دخولها القرى المسيحية. ونرى من غير الجائز إيراد أسمائهم بالنظر إلى دواع أمنيّة راهنة، تتعلق بالوضع في مناطق السيطرة الكتائبية.

خلال الانتفاضة انضم حزب الطاشناك إلى جانب كميل شمعون فسلّمهم هذا بطريركية كيليكيا للأرمن الأرثوذكس في انطلياس بتدخل عسكري رغم إرادة الأكثرية الساحقة للشعب الأرمني.

نتيجة لتحالف الطاشناك مع كميل شمعون بدأ الصراع الدامي بين الأرمن. حيث سقط من الجانبين 80 شاباً أرمنياً بينهم الكثير من الرفاق شهداء حزبنا. ولقد توليتُ والرفيق نقولا شاوي تنظيم إدخال السلاح من الخارج إلى قواتنا المسلحة. وشارك في نقل السلاح الرفاق: جورج بطل، كرويت مركريان، شبلي حيدر. أما نقله من بيروت إلى الأحياء الأرمنية فقد تولاه الرفيق كيفورك ديرنيكوغوصيان حيث كنت أسلّمه السلاح شخصياً.

في آخر مرحلة من المعارك انضم إلى الانتفاضة 217 عنصراً من الجيش، قائدهم صف الضابط الرفيق إسبر البيطار. وقد لعب الشيوعيون دوراً مهماً في حث هؤلاء الجنود على الانضمام. والجدير بالذكر أن فريقاً من الجنود وصفوف الضباط قد انتسب خلال عام 1944-1945 إلى حزبنا، وكنتُ ابتداء من العام 1951 أنظم الصلة الحزبية معهم. وكان إسبر البيطار بين هذه المجموعة. واستمرت صلتي بهم حتى 28 آذار 1963 حيث اعتقلت قبل وقت قصير من موعد لقائي بيطار، بتهمة انتمائي إلى الحزب الشيوعي الممنوع، حيث لم يكن مرخصاً للحزب في تلك الفترة .

كنا خلال الانتفاضة نجتمع صباح كل يوم أنا والرفيقين نقولا شاوي وحسن قريطم لبحث الأوضاع المستجدة واتخاذ التدابير الضرورية ضمن الإمكانيات.

في 14 تموز 1958 حدث انقلاب في العراق ضدّ النظام الملكي العميل للامبريالية، وخرج العراق من حلف بغداد ونشأ وضع جديد، أصيب معه الامبرياليّون الأميركيون والبريطانيون بالذعر، ودخلت القوات البريطانية الأردن متذرعة بـ «طلب» من الملك حسين. واستقدم كميل شمعون الأسطول السادس الأميركي، حيث أنزل 14 ألف جندي في بيروت وضواحيها.

وتعقدت الأوضاع. انتهت مدة ولاية كميل شمعون وتراجع عن إعادة ترشيح نفسه لولاية ثانية. وانتخب قائد الجيش اللبناني فؤاد شهاب رئيساً جديداً للجمهورية.

انتهت الانتفاضة تحت شعار «لا غالب ولا مغلوب» ولكن، عملياً، خرج لبنان من مشروع أيزنهاور وهذا يعد انتصاراً سياسياً كبيراً. وأبعد كميل شمعون عن المسرح السياسي لمدة 12 سنة.

إن مشاركة حزبنا الفعالة في الانتفاضة وتأثيره السياسي فيها عزّزا مواقعه في الأوساط الوطنية والشعبية.

المجر ورومانيا فأرمينيا..

شاركت في عام 1959 باسم الحزب الشيوعي اللبناني في المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي المجري في بودابست حيث ألقيت كلمة حزبنا. وفي تلك الفترة أيضاً شاركت أنا والرفيق حسن قريطم باسم الحزب الشيوعي اللبناني في مؤتمر الحزب الشيوعي الروماني في بخارست وألقى الرفيق حسن كلمة الحزب. وفي ذلك الوقت أيضاً شاركت، باسم لبنان، في اجتماع مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» في براغ بحضور الأحزاب الشيوعية والعمالية المشاركة في المجلة، وألقيت كلمة في هذا الاجتماع.

في تشرين الثاني عام 1960 وتلبية لدعوة خاصة، سافرنا إلى يريڤان

أنا والرفيق كرنيك عطاريان والرفيق كيغام سيوان للاشتراك في احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس أرمينيا السوفياتية.

بعد وصولنا إلى يريفان بلغنا بأن الاحتفالات تأجلت عدة أشهر. وقد عقد لقاء ودي بيننا وبين أمين عام الحزب الشيوعي في أرمينيا السوفياتية الرفيق سورين توماسيان.

وأقام مجلس السوفيات الأعلى في جمهورية أرمينيا حفلة غداء تكريماً لوفدنا، وكانت لنا لقاءات أخرى، كما قمنا بزيارة الأماكن الأثرية والسياحية قبل أن نعود إلى البلاد.

محاولة اغتيالي

نهار 31 كانون الأول عام 1960 جرت محاولة لاغتيالي قرب «حديقة الصنائع» والمدرسة المهنية. كنت في السيارة إلى جانب السائق، وفي المقعد الخلفي كان ابني مارديك، وفجأة أطلق علينا حوالى 35 طلقة من سيارة كانت وراءنا. فتحطم زجاج سيارتنا برمته، وأصيبت قبّعتي برصاصتين وسقطت ثلاث رصاصات في كتف معطفي الأيسر، فيما لامست رصاصة أخرى رأسي من جهة اليسار فجرحت أذني، ولم أصب بجرح آخر أما السائق، الرفيق كره بت مركريان فقد أصيب في طرف إبهامه بإحدى الطلقات، ولم يصب ابني بأيّ جرح. ونجونا بأعجوبة من هذا الاعتداء.

ترجل أفراد العصابة المعتدية أرضاً وفرّوا هاربين. نزل نجلي من السيارة ونزلت بعده، واتّجهنا إلى عيادة أحد الأطباء في أول شارع الحمراء. حيث تبيّن أنني كنتُ وإيّاه زميلين أيام الدراسة في المعهد الطبي. وقد أجرى لنا فحصاً دقيقاً ومتأنياً فلم يجد أية جروح أخرى. ورفض أن يأخذ بدل أتعابه، وعدنا إلى منزلي.

لقد كانت محاولة اغتيالي منظمة من قبل المكتب الثاني السوري عبر

عملائه الموجودين في بيروت، وذلك رداً على عملي الحزبي في سوريا، حيث إن الخائن رفيق رضا كان على معرفة بعملي داخل سوريا وأبلغ المكتب الثاني السوري بكل المعلومات عني.

لم نكن نشعر بملاحقة سيارة هؤلاء المجرمين لنا. فالمناسبة كانت عشية رأس السنة الجديدة والشوارع مزدحمة بالسيارات، وكان من الصعب الشك بأن ثمة سيارة تتعقّبنا.

انتقال الهاربين وسفرهم

عام 1961 عنيتُ بتنظيم سفر رفاقنا السوريّين المقيمين في أماكن مختلفة في لبنان إلى الخارج، وأيضاً تنظيم انتقالهم إلى سوريا عبر لبنان بعد عودتهم إلى الخارج. أما في ما بعد فقد اهتم الرفيق نقولا شاوي بهذا العمل في 1963ـ1964، عندما كنت في السجن.

... إلى المدرسة الحزبية

في العام 1961 سافر إلى المدرسة الحزبية العليا في موسكو الرفيق نقولا شاوي للدراسة هناك مع مجموعة أخرى من الرفاق بينهم الرفيق كيفورك ديرنيكوغوصيان.

«أنت الوحيد الذي بقيت دون معاقبة حزبية»
هكذا قال لي خالد بكداش

في تشرين الثاني عام 1960 التقيت خالد بكداش في موسكو في طريقي إلى أرمينيا السوفياتية. وخلال هذا اللقاء تطور الحديث بيننا إلى درجة أنه قال موجهاً كلامه لي: «أنا وكل الرفاق الآخرين، تلقّينا عقوبات حزبية سجّلت في تاريخ الحزب، ولكن أنت الوحيد الذي بقيت دون معاقبة».

إن قول خالد بكداش «كل الرفاق الآخرين» كان يقصد به فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي وحسن قريطم وغيرهم ممّن كانوا من ضحاياه.

كان خالد بكداش مصمماً على جعلي أنال عقوبة حزبية تسجل في تاريخ الحزب. وبدأ يستعد لخلق مناخ «يتيح» لي أن أنال هذه العقوبة. ودأب في السنتين التاليتين يمهّد لمثل هذا التدبير خلال لقاءاته مع الرفاق الذين كانوا يتوجّهون إلى موسكو. وعلى هذا الأساس فبعد عودته من موسكو شرع حسن قريطم في التفتيش عن رفيق مؤهّل لتوقيع رسالة انتقاد تطالني، ممّا يفتح الباب لاتخاذ إجراء بحقّي.

وعام 1962 في اجتماع للمكتب السياسي ووجهتُ «بتهمة كبيرة». وهذه «التهمة» هي الآتية:

أ ـ في يريڤان جرى نقاش حاد بيني وبين أحد الموظفين السوڤيات. هذا النقاش الحاد مع الموظف السوڤياتي اعتبر «جريمة» حتى لو لم يكن من كبار الموظفين .

ب ـ في طريق عودتي من أرمينيا السوڤياتية بقيتُ عشرة أيام في براغ وبالرغم من أن ابنتي كانت في حالة صحية شديدة الخطورة، وعدم قدرة زوجتي على التصرف في حالة كهذه، ذهبنا إلى المطار بغية العودة إلى لبنان. وبسبب عطل فني طرأ على الطائرة الهندية التي كانت الوحيدة العاملة على خط براغ ـ بيروت آنذاك، وهذا العطل استغرق تصليحه أسبوعاً، فقد نقلتُ ابنتي على حمالة من المطار للمعالجة، بعدما تبيّن عدم إمكاننا السفر. وبقينا في براغ ننتظر انتهاء إصلاح الطائرة.

لقد اعتُبر تأخري في براغ أمراً مشيناً رغم عدم وجود قرار حزبي يحدد مدّة سفري، ناهيك أن تأخري بضعة أيام عن بيروت لم يكن سبباً بإعاقة عمل الحزب.

ج ـ كان حسن قريطم قد استحصل على «رسالة عدم الرضى» عنّي، وقد وقّعها أحد الرفاق وتحمل اتهامات مختلفة بحقي، وتمت كتابتها

بتحريض من حسن. كان هذا الأخير يفتش عن أي شخص لاستخدامه ضدّي، فوجد ضالته في أحد ضعفاء النفوس... ومن المفارقات أن الرفيق الذي ارتضى ذلك، عاد وطرد من صفوف الحزب في العام 1964 وذلك بموافقة حسن قريطم بالذات، لقيامه بأعمال تخريبية داخل الحزب .

لم يكن في هذه الاتهامات «الكبيرة» ما يقنعني بأن أقوم «بانتقاد ذاتي» كما كان مطلوباً مني. وعلى مدى ثلاث جلسات خيمت عليها اجواء مناوئة لي، طلب مني كتابة رسالة "انتقاد ذاتي" قسري، موجهة إلى الحزب. كانوا يصرون على اتخاذ قرار بفرض عقوبة تسجل بحقي في تاريخ الحزب، كما كان مهيأ من قبل خالد بكداش.

وقرَّروا بعد مناقشة حادة، فصلي من المكتب السياسي! هكذا، بكل بساطة، كي لا يقال في تاريخ الحزب أنني بقيتُ في منأى عن عقوبة ما!!

وبعد مرور ثلاثة أشهر أعادوني إلى هيئة المكتب السياسي بقرار جديد من الهيئة نفسها... حيث إن القرار الذي اتخذ بحقي اعتُبر غير واقعي!

قلت للمحكمة: هل الشيوعية جريمة؟

في عام 1963 أطاح انقلاب عسكري نظام عبد الكريم قاسم الذي كان يدعمه الحزب الشيوعي العراقي، وذلك رغم وجود خلافات بينه وبين الحزب. وبدأت السلطة الجديدة بحملة وحشية ضد الحزب الشيوعي العراقي. وشنت اعتقالات بشكل جماعي في صفوفه، ورفع على حبل المشنقة أمين عام الحزب الشيوعي العراقي الرفيق سلام عادل مع رفاق آخرين من قيادة الحزب.

نظم حزبنا تظاهرة شعبية صاخبة احتجاجاً على التدابير القمعية التي

شنتها السلطات الجديدة بشكل وحشي ضدّ الحزب الشيوعي العراقي. انطلقت التظاهرة من ساحة الدباس في بيروت. وفجأة أطلقت النار على المتظاهرين وجرت صدامات عنيفة مع رجال الأمن واعتقل بعض المتظاهرين. وكان المسؤول عن تنظيم التظاهرة وقيادتها الرفيق جورج حاوي.

قدمت السلطات العراقية الجديدة احتجاجاً لدى السلطة اللبنانية بشأن التظاهرات المعادية لها. فاتخذت السلطة اللبنانية، إرضاء للنظام العراقي الجديد، إجراءات ضد الحزب الشيوعي اللبناني. وفي هذا الإطار جرى اعتقالي من قبل الأمن العام اللبناني في 28 آذار 1963 وحوكمتُ أمام المحكمة العسكرية وصدر بحقي عقوبة بالسجن لمدة سنة.

يومئذ جاؤوا أمام المحكمة «بدليل اتهاميّ» بحقي، هو كناية عن رسالة موجهة لي صودرت من البريد بشكل غير شرعي، يستنتج من خلالها أنني شيوعي. واتُّهمت بانتمائي إلى «تنظيم شيوعي سرّي غير شرعي». وكان من الطبيعي أن لا أنكر أنني شيوعي، ولم أنكر. وأعلنت أمام المحكمة العسكرية دفاعاً عن نفسي ما يلي: «إن الحزب الشيوعي اللبناني ناضل ويناضل من أجل الاستقلال الوطني للبنان وحريته وتقدمه ومن أجل سعادة شعبه. إن سياسة الحزب ليست سراً على أحد. لذلك، فلا يمكن اعتباره «منظمة سرية غير شرعية»، وإن نشاطات وأعمال الحزب هي غير معادية لمصالح الوطن كي يستحق عليها المحاكمة. وبانتمائي إليه لم أرتكب جريمة. نعم. أنا عضو في الحزب الشيوعي اللبناني. ومنتخب في لجنته المركزية من قبل المؤتمر الوطني للحزب الذي عقد علناً، حيث حضر آنذاك جلسات أعماله نائب رئيس مجلس النواب، ووزراء، ونواب وأعضاء بارزون في «المؤتمر الوطني اللبناني». وبصفتي شيوعياً فقد كنتُ أحد مؤسسي المؤتمر الوطني اللبناني الذي قاد النضال الوطني من أجل الاستقلال. وأيضاً بصفتي شيوعياً فقد عُيّنت من قِبل أول حكومة في عهد الاستقلال عضواً في مجلس نقابة الصحافة

اللبنانية. لم تتغيّر صفتي الحزبية. أنا لم أتغيّر. باقٍ كما كنت. ولا أعتبر نفسي مذنباً بانتمائي إلى الحزب الشيوعي. الانتماء إلى الحزب الشيوعي ليس جريمة، وأطلب إطلاق سراحي فوراً».

وبهذا المضمون، رافع عني أمام المحكمة أحد أعضاء المؤتمر الوطني اللبناني المحامي البارز حبيب ربيز والرفيق فاروق معصراني.

وبالرغم من ذلك فقد حكم عليّ بالحبس لمدة سنة. وهكذا، من العام 1926 بلغ مجموع ما سجنته مدة خمس سنوات. كذلك فحتّى عام 1963 عشت ثلاث عشرة سنة في ظروف سريَّة بعيداً عن عائلتي. وكنت لا ألتقي زوجتي إلّا مرة واحدة في الشهر تقريباً وبشكل سري أيضاً.

مؤامرة تخريبية في داخل الحزب

في 28 آذار عام 1964 انتهت مدة اعتقالي وخرجت من السجن.

وبعد ساعتين من إطلاق سراحي التقيت الرفيقين نقولا شاوي وحسن قريطم، حيث وضعاني في أجواء مؤامرة تخريبية تجري داخل الحزب، يتولى قيادتها أوهانس أغباشيان ونسيب نمر مشكّلين تكتلاً داخل الحزب ويقومان باجتماعات سرية وتآمرية خارج إطار هيئات الحزب الشرعية. هذا التكتل التخريبي كان يضم أيضاً كاسبار دارداريان ونخله مطران، وبعض المضللين. وكان هذا التكتل على صلة وتأييد من خالد بكداش الذي كان يبتغي المجيء بقيادة للحزب الشيوعي في لبنان تابعة له، حيث كان واضحاً لدى خالد بكداش في أواخر عام 1962، وبشكل خاص أوائل عام 1963، أن قيادة الحزب الشيوعي اللبناني آنذاك غير خاضعة له. يفكرون ويعملون بشكل مستقل عنه.

أما الذي كشف هذا العمل التخريبي التكتلي داخل الحزب فهو أمين الأعور، الذي أبلغ قيادة الحزب أن أوهانس أغباشيان دعاه للمشاركة في هذا التكتل. لقد قام أمين الأعور بهذا التبليغ انطلاقاً من حساباته الخاصة لاكتساب ثقة الحزب.

عندما التقينا أنا والرفيق نقولا شاوي وحسن قريطم، مع أوهانس أغباشيان للتحقيق معه وطرحنا وإيّاه موضوع مشاركته في العمل التكتلي التخريبي المعادي للحزب، أنكر ذلك. قلنا له إن أمين الأعور يشهد على هذا الأمر وأنت أبلغته بوجود تكتل سري ودعوته للمشاركة فيه. قال أوهانس اغباشيان بالحرف الواحد: «حول هذا الموضوع لم أتحدث معه أنا، بل هو الذي حدثني عنه». طرحت عليه سؤالاً: «إن أمين الأعور ليس له مسؤوليات في الحزب ولكنه رأى من الضروري إبلاغ القيادة بوجود عمل تكتلي داخل الحزب. أما أنت فعضو في اللجنة المركزية، لماذا لم تبلغ الحزب عن الحديث التآمري هذا؟»...

لم يتمكن أوهانس أغباشيان من الإجابة، واكتفى بهزّ رأسه وبالصمت. والجدير بالذكر أن أمين عام اللجنة المركزية للحزب، الرفيق نقولا شاوي كان في أواخر عام 1963 وأوائل عام 1964، بمفرده في بيروت، أما بالنسبة إلى باقي أعضاء السكرتاريا فقد كنتُ أنا في السجن وحسن قريطم خارج البلاد بشكل موقت. وكان خالد بكداش في تلك الفترة مقيماً في بيروت بشكل سرّي، حيث كان يطلب ويلح أن تكون صلته مع الرفيق نقولا شاوي دون سواه.

كانت هذه الصلة تستغرق وقت الرفيق نقولا شاوي وتشلُّ تحركه، وبما هو خارج عن إرادته، ونتج عنها بعض الفراغ والنقص في عمل قيادة الحزب، وهذا كان يجب أن لا يحدث. وقد استغل أغباشيان هذه الحقيقة فحاول أن يخلق جواً من عدم الرضى داخل الحزب، وأن يستفيد منه مع نسيب نمر لتنظيم النشاط التكتلي التآمري.

يجب أن نشير في هذا السياق، إلى أن من واجب كل رفيق حزبي، وبشكل خاص الرفيق المسؤول ليس عدم السكوت عن النواقص والأخطاء فحسب، بل يجب عليه أن يشير إليها وينتقد الرفاق المسؤولين عنها، خصوصاً أن النظام الداخلي للحزب ينص على الإشارة إلى

الأخطاء والنواقص وانتقاد المسؤولين عنها من أجل تصحيحها، شرط أن تجري ضمن الهيئات الحزبية المعنيّة، وفي إطار صيانة وحدة الحزب عبر اتباع أطر الحزب التنظيمية، من أجل رصّ صفوفه وتصحيح الأخطاء والحؤول دون تكرارها. والنظام الداخلي للحزب يعطي الحق لكل رفيق ويؤمن له حقه في ممارسة هذا النقد داخل اجتماعات الهيئة الحزبية التي ينتمي إليها، وبإمكانه أن يطرح رأيه وكلمته ويدلي بانتقاده واحتجاجه أمام أعلى هيئة قيادية في الحزب، بروح بناءة وبما يخدم تعزيز عمل الحزب. إن الحفاظ على وحدة الحزب ورص صفوفه والإفادة من الحياة الديموقراطية والإشارة إلى النواقص والأخطاء، وممارسة النقد بروح بناءة، شيء، أما القيام بعمل تكتلي داخل الحزب فشيء آخر تماماً، لأنه خطأ كبير وعمل تخريبي مهما كانت الحجة بذلك؛ والنظام الداخلي يمنع قيام مثل هذا العمل التكتّلي.

وبالنسبة إلى العمل التخريبي الذي قام به أوهانس أغباشيان ونسيب نمر والأعضاء الآخرون في التكتل، فإن هؤلاء أشاروا إلى النواقص وتذرعوا بالعمل على تصحيحها، إلّا أنهم لم يقوموا بانتقادهم على أساس تنظيمي وبروح بناءة، بل توخّوا السبل المخالفة للنظام الداخلي والمعادية للحزب فنشطوا على أساس تكتلي ونشدوا التآمر والتخريب.

إلى ذلك، فقد ارتكب أوهانس أغباشيان إثماً كبيراً آخر لا يغتفر.

لقد فوجئتُ بعد خروجي من السجن، بالرفيقين نقولا شاوي وحسن قريطم في أول لقاء لي بهما، وهما يبلغانني اتهاماً موجهاً إلى الرفيق كرنيك عطاريان بأن له ارتباطاً مع الأمن العام اللبناني. ورغم أنهما استغربا هذه التهمة ولم يصدقاها، ولم يفسحا في المجال للنقاش معه بها، فإن أغباشيان كان يلح، وطوال شهر كامل، على طرح هذا الموضوع مع الرفيقين شاوي وقريطم مصراً على التهمة الموجهة إلى كرنيك عطاريان. وبناء على إلحاح أوهانس أغباشيان اضطر الرفيقان

شاوي وقريطم لإجراء تحقيق بهذا الموضوع مع الرفيق كرنيك بحضور اغباشيان.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرفيق المتهم كرنيك عطاريان، كما كان في السابق، لا يزال على الدوام مخلصاً وأميناً، ومتفانياً أصيلاً يعمل بشكل مثمر من أجل رفع الراية خفّاقة أمام الرأي العام. وكان أحد الكادرات الرئيسية والأساسية في الحزب. وفي الحقيقة فمنذ بدء صدور جريدة «إلى الأمام» كان الرفيق كرنيك عطاريان يرئس تحريرها، وكان الهدف من إبعاده هو الاستيلاء على الجريدة، وهذه العملية كانت جزءاً من المؤامرة المعدّة ضد الحزب.

لقد راعني ما سمعت من الرفيقين شاوي وقريطم عن التهمة الموجهة إلى الرفيق كرنيك عطاريان، وعبرت لهما عن قناعتي بأن هذه التهمة غير صحيحة، وبأن هناك مؤامرة مغلّفة بهذه التهمة. وطلبت من الرفاق إذناً لأجل لقاء الرفيق المتهم. والتقيتُ الرفيق كرنيك في منزله. في اللحظة الأولى للقائي معه رأيته غارقاً في حزنه. طلبت منه أن يخبرني بكل ما عنده. في البدء رفض بألم التهمة الموجهة إليه، ومن ثم شرح لي التحقيق الذي أجراه معه الرفيقان نقولا شاوي وحسن قريطم بحضور أوهانس أغباشيان. وقال: عندما خرجت أنا وأوهانس أغباشيان من جلسة التحقيق وعلى درج البناية طرحت سؤالاً على أغباشيان: «رفيق أغباشيان، ممكن أن يكون رفاقنا العرب على غير معرفة جيدة بي. أما أنت الذي تعيش معي ليل نهار، فهل تصدق هذه التهمة؟ هل تظن بأن لها أي أساس؟». أجابني قائلاً: «لست أنا، بل هما». (يقصد الرفيقين شاوي وقريطم).

كل شيء كان واضحاً لي.

رفعت تقريراً للرفيقين نقولا شاوي وحسن قريطم بشأن لقائي الرفيق كرنيك، وأبلغتهما اقتناعي دون تردّد، بأن الاتهام الموجه إلى الرفيق كرنيك مصطنع كلياً ومؤامرة ضد الحزب. إن المتهم بريء وضحية. وافق

الرفيقان على وجهة نظري هذه. وأعيد الاعتبار والثقة إلى الرفيق كرنيك عطاريان، وانتخب فيما بعد عضواً في اللجنة المركزية للحزب.

هناك حدث آخر لا يقل خطورة عن هذا.

لقد كنت، قبل سجني، في هيئة تحرير جريدة الحزب الأرمنية «إلى الأمام»، وبعد خروجي من السجن لم أُدعَ إلى الاجتماع الدوري لهيئة تحرير الجريدة، ودون دعوة حضرت اجتماع هيئة التحرير بناء على طلب من الرفيق نقولا شاوي، وقد احدث حضوري ضجة لدى المجتمعين، بحجة انني لست عضواً في هيئة تحرير الجريدة، وأن اللجنة المركزية ليس لها حق التدخل. بل إن أحد الحاضرين قال بلؤم واضح: «أنت بولشيفيكي-معروف، وحضورك يشكل خطراً على الاجتماع والمجتمعين». لم أتراجع، وأصررت على الحضور. وانعقد الاجتماع في جو عاصف. وكان أوهانس أغباشيان ساكتاً، ثم وقف إلى جانب المحتجين على حضوري وأعلن استقالته من هيئة تحرير الجريدة، وفي اليوم التالي تراجع عنها.

في الحقيقة، كان من أعضاء هيئة تحرير الجريدة الرفيقان المخلصان للحزب، ستراك أباجيان وبارور يرتسيان، اللذان لم يكونا يدعيان إلى اجتماعات هيئة التحرير وإنما استبعدا عنها دون معرفة قيادة الحزب وموافقتها.

لقد شكلوا هيئة تحرير جديدة للجريدة وكان هدفهم تحويلها إلى جريدة ناطقة باسم هذا التكتل. مستغلين غياب الرفيق كرنيك عطاريان وهو رئيس تحرير الجريدة. خلال هذه الفترة كانت تصدر مقالات سياسية وفكرية يشُوبها الانحراف. وكان هدف التكتل التخريبي استقطاب الرفاق الأرمن في الأحياء والسيطرة على «الحلقة الأدبية الأرمنية».

ولكن الحزب لم يدع مجالاً لهؤلاء، وإنما اتخذ من أجل تصفية العمل التخريبي تدابير سياسية وتنظيمية حازمة وعاجلة . وعقدت اللجنة المركزية بحضور أوهانس أغباشيان ونسيب نمر اجتماعاً استمرّ طوال الليل لبحث ما يقومان به من عمل تكتلي في الحزب.

واتّخذ الاجتماع قراراً بإجماع الحاضرين باستثناء هذين الاثنين، يقضي بإقصائهما عن اللجنة المركزية وطردهما من صفوف الحزب.

ثم تقرر طرد أوهانس أغباشيان، وكسبار دارداريان وأغوب بوغوصيان من هيئة تحرير جريدة «إلى الأمام»، وكلفت برئاسة تحرير الجريدة وبقي في هيئة التحرير الرفيقان ستراك أباجيان وبارور يرتسيان.

لم يتمكن المخربون من الدخول إلى الأحياء الأرمنية، حيث وقف نشطاء الحزب موقفاً صلباً موحداً إلى جانب قرار اللجنة المركزية.

واستعادت «الحلقة الأدبية الأرمنية» نشاطها وأنشأت لها مركزاً رئيسياً في المدينة وتحولت إلى أحد المراكز الثقافية الأساسية للأرمن، وتميّزت بحركة ناشطة ودائمة.

وانتخب رئيساً لـ «الحلقة الأدبية الأرمنية» الشاعر والأديب الرفيق كرنيك عطاريان، والكاتب الرفيق مارديروس كوشاكجيان أميناً للسر، ولعضوية الهيئة الإدارية الكاتب أرمين طاريان والصحافي ستراك أباجيان وغيرهما.

وهكذا، فقد تمت تصفية التكتل التخريبي في الحزب خلال مدة وجيزة.

وجرت محاولات من هؤلاء المطرودين للتصدي للحزب من الخارج، إلّا أن وجودهم انتهى على الساحة بعد محاولة عقيمة للملمة فلولهم.

وكان لي دور أساسي وحازم منذ البداية في كشف وتصفية التكتل الخياني المعادي للحزب، وبما يؤدي إلى تطوير الحزب بروح بناءة على جميع الصعد.

خالد بكداش «بلا رتوش»

لخالد بكداش مكان خاص في تاريخ الحزب الشيوعي السوري - اللبناني.

وما جاء في الصفات الماضية عن خالد بكداش كان له ارتباط بمذكراتي وجزء معين من تاريخ الحزب. ولكن، ما سوف أذكره هنا هو، في اعتقادي، جزء مكمل من تاريخ الحزب، وله صلة أيضاً بمذكراتي عن دور خالد بكداش الذي له طابع في ما يتناول الوضع الداخلي للحزب. قليلون هم الأشخاص الذين لهم إلمام بهذا الدور، كما أن بعض التصرّفات لم يعرف بها أحد سواي ويجب أن يطلع عليها الحزب، حيث إنها ستبقى مجهولة في تاريخ الحزب إذا بقيتُ ساكتاً ولم أدوِّنها في هذه المذكرات. وأرى أن عليّ أن أسجل بجرأة هذه الحقيقة المطلقة، حيث إنني الشاهد الوحيد على ذلك من الباقين على قيد الحياة. وفي النهاية، فقيادة الحزف وحدها تقرر نشر هذا الجزء أو الأجزاء التي ذكرت في الصفحات الماضية، علناً أو إلقاءها ضمن أرشيف الحزف حسب الظروف السياسية.

إذن، ما هي تلك المواضيع؟

إن لخالد بكداش شخصياً دوراً كبيراً في نضج الحزب الشيوعي اللبناني السوري سياسياً، وفي ازدياد وزنه، ووصوله إلى مواقع معيّنة في حركة التحرر الوطني العربية، وتعزيز حياته التنظيمية والدخول في أوساط الجماهير الشعبية، وعلى صعيد تعريب الحزب، وذلك إلى جانب قادة الحزب الآخرين في ظل عمل قيادة جماعية.

ولكن، مع الأسف، فابتداء من العام 1937 بدأت ملامح عبادة الفرد تظهر لديه، وفي داخل الحزب، فظهرت في أسلوب التفكير وعلى صعيد الممارسة، وفي تصرفاته إزاء العاملين معه. وتفاقم الوضع فيما بعد وبشكل تدريجي واتضح مقدار الضرر اللاحق بالحزب على جميع الصعُد.

عبادة الفرد، هذا الجانب السيئ من شخصية خالد بكداش قد خلق عند كل القادة الآخرين قناعة بما لديه من قدرات فائقة. وهو بغية إيجاد هذه القناعة استخدم جميع الوسائل، متخطياً مبادئ اللينينية في القيادة

الجماعية. تصرف تصرفات لا تحتمل، مع العاملين معه وفي الهيئات القيادية وفي الاجتماعات، خالقاً نوعاً من الأجواء التي تمنع التعبير الحرّ عن الرأي. إذا عبّر أحد المجتمعين أو أحد العاملين معه عن رأيٍ ما، ولم يره صحيحاً فإنه كان يستنتج «ويتعمق» ويفسّر، على النحو الذي يخمد اندفاع أي رفيق بادر إلى طرح رأي ما. حرصاً على عدم الوقوع في أي اتهام من قبله؛ كان أي رفيق يفقد، إزاء ذلك، جرأته فلا يطرح أي رأي أو مبادرة.

كان أسلوب خالد بكداش يهدف عملياً، إلى جعل عمل القيادة الجماعية مجتمعاً بشخصه.وكان يمارس عبادة الفرد بشكل خاص على القيادات والكادرات الرئيسية في الحزب.

حتى أن زوجة خالد بكداش، الرفيقة وصال التي كانت ذات مستوى قيادي في الحزب، قالت لي حرفياً عن خالد، في منزلها بدمشق في العام 1957: «يا رفيق، هذا من يحطّم الكادرات» (Camarade, C'est un destructeur de cadres).

عملياً، مع الأسف، كانت الرفيقة على حق. حيث إن خالد بكداش يعمد دائماً إلى تحطيم كل كادر حزبي بارز بغية إخضاعه لسيطرته. وكان من أجل الوصول إلى هدفه يستخدم إزاء العاملين معه سياسة «فرّق تسد». هكذا كان يتصرف مع الرفاق الكادرات من عرب وأرمن. عندما يقع خلاف بين الرفاق لم يكن يعمل من أجل جمعهم وتعزيز العمل المشترك في ما بينهم، بل كان يعمل على الاستفادة من هذا الخلاف لتقوية الشقاق بينهم وتفرقتهم ليستقطب بعضهم إلى جانبه، وهذا إلى حين قيام خلاف جديد، وهكذا دواليك!

وكان خالد بكداش يركز ضربته على رفيق بمفرده بعد أن يخلق مناخاً لدى الرفاق الآخرين يسمح بضرب هذا الرفيق. وما هي إلّا فترة وجيزة حتى يوجه، وبالأسلوب نفسه، ضربته للآخر، محوّلاً الذي تلقى الضربة من قبل، إلى مؤيد له، مستخدماً الضحية القديمة ضد الضحية

الجديدة. وهكذا كان يصل إلى هدفه، المرّة تلو الأخرى. وفي هذا الإطار كانت تلقى على الرفيق المسؤول الانتقادات، ويُفرض عليه القيام «بانتقاد ذاتي».

(هذا الموضوع تحدثنا عنه في الصفحات السابقة).

هناك اتهامات مرعبة وآثمة.

كان خالد بكداش يشكك في الجميع وإلى حدٍّ غير معقول، حيث إن هذا ناتج عن مرض نفسي يصيب كل شخص يمارس عبادة الفرد. وهو قد أوجد في حياة الحزب بدوره مرض وأجواء الشك الدائم. والشيء الذي لا يمكن أن يتبادر إلى الذهن، أن خالد بكداش كان يضع الشك في الرفاق المجرّبين والمتفانين في خدمة الحزب. هؤلاء الذين ناضلوا في أقسى الظروف والذين هم من الأركان الأساسية في قيادة الحزب.

عندما كنت مسافراً إلى بوخارست عام 1954 عرّجتُ بطريقي على براغ بأمر من خالد بكداش لألتقي ممثل الوفد السوفياتي في مجلس السلم العالمي الرفيق غولاييف وأبلغه ما يلي: «الرفيق خالد بكداش لديه شكوك بأن أنطون تابت مرتبط بالبريطانيين».

استغرب الرفيق غولاييف وبدا الضيق على وجهه، وحدّق إليَّ بنظرة جامدة وكان واضحاً أنه لا يصدق هذه التهمة. ممّا جعلني في وضع حرج أمام هذا الموضوع. يشهد على ذلك الرفيق يوسف فيصل، الذي كان في ذلك الوقت ممثل سوريا ولبنان في مجلس السلم العالمي، وهو الذي عرفني إلى الرفيق غولاييف وقد انتظرَنا في الخارج.

ولكن ما لبث الرفيق أنطون تابت أن نال جائزة لينين للسلام، من قِبل أعلى سلطة في الدولة السوفياتية.

وفي تلك الآونة، بعث الرفيق خالد بكداش إلى مكتب النقابات العالمي في براغ برسالة يبلغ فيها مثل هذا الاتهام المشين أيضاً بحق... الرفيق مصطفى العريس! وهو الذي حصل على الوسام الذهبي من قبل

المنظمة نفسها بمناسبة مرور 35 سنة على تأسيسها. كان الرفيق مصطفى العريس مناضلاً دؤوباً في سبيل الدفاع عن حقوق الطبقة العاملة وجميع الشغيلة. وهو قائد نقابي محترم ومحبوب في أوساط الجماهير. كان رئيساً لنقابة عمال المطابع في بيروت ورئيس «الاتحاد العام لنقابات العمال في لبنان». وبقيادة مصطفى العريس ناضلت الطبقة العاملة اللبنانية وأجبرت الدولة على إقرار قانون العمل اللبناني. وكان أحد مؤسسي اتحاد العمال العالمي وعضواً في هيئته القيادية.

قبل أيام من سفره لحضور مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني في عام 1957، حدّثني خالد بكداش في غرفة صغيرة بمنزله متسائلاً: «أرتين، ما رأيك؟ فرج اللّه الحلو أليس إنكليزياً؟» (يقصد أنه مرتبط بالإنكليز!!) فاستغربتُ هذا السؤال الذي لم أكن أتخيّله على الإطلاق.

كنت على علم بأنه يعمل على وضع الشكوك تجاه الرفاق الآخرين على التوالي... إنهم، جميعاً، «إنكليز»!!

وكان يضع الشك أيضاً في الرفيق نقولا شاوي بحجة أن له قرابة عائلية مع مؤسسي الحزب القومي السوري وقياديّيه في تلك الفترة. ويتهم الرفيق ظهير عبد الصمد بأنه بعثي، ويطرح حوله شكوكاً سياسيّة.

لم يستطع رشاد عيسى من جهته، مقاومة التصرفات المهينة التي كان يتعرض لها من جانب خالد بكداش، فقطع علاقاته بالحزب، وحيّد نفسه. وقد كان رشاد عيسى مناضلاً شيوعياً قديماً، وبقي خلال سنوات أحد سكرتيري اللجنة المركزية للحزب.

أبسط ما يمكن استنتاجه هو أن العبادة الشخصية لدى خالد بكداش وممارسته لها على الصعيدين الفكري والعملي ألحقت أضراراً كبيرة بالحزب في جميع المجالات، حيث كانت تمنع الحزب من أن يوسع صفوفه ويطوّر سياسته بشكل خلّاق. وبقي الحزب على هامش الأحداث السياسية الأساسية، ومنها ما يتعلق بحركة التحرر العربي ولم يكن له موقف سياسي واضح إزاء التطورات السياسية في الوقت المناسب،

وارتكب أخطاء سياسية كبيرة في المواقف التي اتخذها. ولم يتمكن من استشراف الأحداث الكبيرة التي يمكن أن تحصل، بل إنه واجهها دون استعداد مسبق.

وبشكل عام، قد فقد الحزب بُعد النظر السياسي، ووقع في الجمود العقائدي، وضعفت لديه المبادرة الخلاقة في تطبيق الماركسية اللينينية، ممّا تسبّب بأضرار فادحة في مجال تطوير الكادرات كما تسبب بإحداث قلاقل داخل الحزب مضعفاً إيّاه في سوريا كما في لبنان.

مجموعة من الكادرات الشابة إلى المدرسة الحزبية

بغية رفع مستوى الكادرات الشابة الفكري والتنظيمي وبغية استقطابهم للعمل القيادي في الحزب، قررت اللجنة المركزية في عام 1965 إرسال مجموعة كبيرة من الرفاق الشباب إلى المدرسة الحزبية. وبعد عودة هؤلاء الرفاق إلى البلاد في أعقاب انتهاء دراستهم ألحقوا بمراكز مسؤولة في الحزب وفي اللجنة المركزية والمكتب السياسي والسكرتاريا. وكانت هذه المجموعة تضم ستة رفاق أرمن من كادرات الحزب الشابة.

توسيع اللجنة المركزية بالرفاق الشباب

حصل خلال عام 1965 نهوض سياسي كبير في الحزب وعلى صعيد العمل الجماهيري، ولعبت الكادرات الشابة دوراً كبيراً في ذلك.

لم يكن الوضع في القيادة طبيعياً. وكانت هناك حاجة إلى استكمال ذاتي داخل اللجنة المركزية بحيث غابت عنها كوادر أساسية من الرفاق الشباب. كانت الحاجة ملحة لاتخاذ إجراءات ضرورية لإنهاء هذه الحالة غير الطبيعية، ولتعزيز اللجنة المركزية بالعناصر الشابة وما تتمتع به من قدرات من أجل استمرار المهمات الجديدة للحزب وتلبية متطلّباتها.

انطلاقاً من هذه الحاجة الملحة قررت اللجنة المركزية للحزب، بناء على النظام الداخلي الذي يمنحها هذا الحق، زيادة عددها بضم هؤلاء الرفاق الشباب المجربين وهم الرفاق: جورج حاوي، نديم عبد الصمد، كريم مروه، خليل الدبس، غسان الرفاعي، خليل نعوس وغيرهم. هذا كان قراراً صحيحاً وكانت له معانٍ انعطافية في حياة الحزب وتطوره اللاحق.

مؤامرة جديدة آثمة خلقت أزمة جديدة داخل الحزب

خلال عام 1967 وفي ظل أجواء متوترة، انفجرت أزمة كبيرة داخل اللجنة المركزية وعلى غاية من الخطورة، وللمرة الأولى في تاريخ حزبنا حيث تحولت إلى أزمة عامة في الحزب.

نشأت هذه الأزمة نتيجة مؤامرة كبيرة ضد الحزب. وهي موجهة أيضاً إلى أحد أفضل الكادرات الشابة في الحزب عضو اللجنة المركزية الذي كان يتطور بسرعة، الرفيق جورج حاوي، إذ وجهت له تهمة لا يمكن أن يتخيلها أي إنسان مخلص للحزب وليس لها أي أساس. من المؤكد أنها كانت مؤامرة منظمة. ورفضت هذه التهمة ووووجهت بغضب من قبل الأكثرية الساحقة من أعضاء اللجنة المركزية و99.5% من أعضاء الحزب.

كان أبرز المصممين والمنفذين لهذه المؤامرة ضد الحزب عضوا اللجنة المركزية حسن قريطم وصوايا صوايا، وثبت لاحقاً أن خالد بكداش كان وراءهما.

ولكن، لماذا هذه المؤامرة؟

في عام 1966 سافر أمين عام اللجنة المركزية للحزب الرفيق نقولا شاوي مع حسن قريطم لحضور مؤتمر الحزب الشيوعي السوفياتي كوفد يمثل الحزب الشيوعي اللبناني في المؤتمر. أثناء السفر أصيب الرفيق

نقولا شاوي بمرض خطير في إحدى عينيه ولم يتمكن من حضور المؤتمر، ومكث ثمانية أشهر في المستشفى للمعالجة. وبعد خروجه لم تكن عينه قد عادت إلى وضعها الطبيعي. نشأت قناعة لدى حسن قريطم وصوايا صوايا بأن الرفيق نقولا غير قادر على ممارسة دوره كأمين عام اللجنة المركزية، وتساءلا هل يمكن أن يستبدل الرفيق نقولا شاوي؟ وكان لديهما قناعة بأن أحدهما يجب أن يحل مكانه... وبشكل خاص الرفيق حسن قريطم (حيث إنه أكثر أمانة وثقة). ولكن، كان يشغل بالهما أن الانتخابات إذا جرت بالطرق الديموقراطية، وحسب النظام الداخلي، فيمكن أن يُستبدل الرفيق نقولا بالمرشح الأكثر احتمالاً وهو الرفيق جورج حاوي. ولهذا السبب وضعا هذه التهمة الملفّقة لعدم الفسح في المجال لوصوله إلى أعلى موقع قيادي في الحزب. واستخدم هذان أساليب خاصة في ممارسة عبادة الفرد وافتعال اتهامات مصطنعة وملفقة. نشير أيضاً إلى أن حسن وصوايا استخدما هذه الوسيلة بشكل خاص لعلمهما بأن بينهما وبين الرفاق الكادرات الشباب فجوة كبيرة وعميقة. الرفاق الشباب لم يكونوا يرون لدى حسن قريطم وصوايا صوايا ذلك المستوى القيادي، خلال صلاتهم وعملهم اليومي معهما. بل أكثر من ذلك: كان رفاقنا الشباب يرون ويؤكدون أن نظرتهم إلى القضايا أصحّ بكثير. وكانوا عمليّين، وبالفعل فإن الثقل الأساسي لتنفيذ عمل الحزب كان على أكتافهم. وكانت لديهم روح المبادرة، في الوقت الذي كان فيه حسن وصوايا يحجمان عن المشاركة في أي عمل وكانا ينظران إلى الأمور «من فوق» وبروح بيروقراطية.

ولا شك أن هذه الأسباب هي التي حدت بهما إلى تلفيق التهمة التآمريّة. وبعد الفشل الذريع الذي لقياه في اللجنة المركزية تقوقعا كلياً وتوجّها للقيام بعمل تكتلي داخل الحزب وإشاعة اتهاماتهما أمام أعضاء الحزب، بتضليل الرفاق الذين ليس لديهم اطلاع، سعياً لإنجاح عملهما التخريبي. وراحا يشيعان التهمة بين أولئك المنقطعين عن عمل الحزب،

وبين الرفاق القدماء. وكان بين المضلّلين رفاق مخلصون منذ البداية، ولكن هؤلاء الذين يعدّون على أصابع اليد سيطر الوهم عليهم إزاء هذا الاتهام الملفق. وهذه التهمة الخطيرة كانوا مقتنعين بأنها «صحيحة» نتيجة لدور عبادة الفرد المؤثرة في تفكيرهم. ووقعوا، بسهولة، فريسة هذا التضليل. كان يمكن أن ينشأ انقسام داخل الحزب وتمس وحدته لو لم تتخذ تدابير عاجلة، على مستوى الحدث، ضد هذا الاتهام التآمري والتخريبي، والنشاط التخريبي لحسن وصوايا المدعوم من قبل خالد بكداش.

اتخذ الحزب تدابير حازمة وضرورية للنضال ضد هؤلاء المتآمرين وإحباط الخطة وعزل حسن وصوايا وخنق العمل التخريبي وتصفيته في مهده بغية حماية وحدة الحزب.

وقد قوّم الحزب في وقت لاحق، تقويماً عالياً موقف الرفيق نقولا شاوي وموقفي المعادي لهذه المؤامرة، ليس انطلاقاً من النظام الداخلي فحسب، بل بشكل خاص انطلاقاً من موقعنا السياسي الذي لعب الدور الحاسم ضد المؤامرة المنظمة من قبل حسن وصوايا وتهمتهما الملفقة، وضد عملهما التخريبي، بوقوفنا إلى جانب الكوادر القيادية من الشباب وحفاظاً على وحدة الحزب.

وأؤكد، في هذا الإطار أنني منذ البدء حتى النهاية، عملت، أنا والرفيق نقولا شاوي، بشكل حازم ومن غير انقطاع من أجل وحدة الحزب.

ويجب أن ننوّه هنا بمن عمل إلى جانبنا في النضال من أجل وحدة الحزب، وهم الرفاق يوسف خطار الحلو والياس البواري ومصطفى العريس، ويجب أن نشير بشكل خاص إلى الدور الحازم والناجح الذي قام به الرفيق كريم مروة من أجل حلّ الأزمة الناشئة في الحزب.

ومن أجل إنهاء الأزمة بنجاح قام بالمساعدة، بشكل خاص، الرفيق الذي كانت التهمة موجهة إليه خلال الأزمة، والموقف المثالي الذي اتخذه منها.

ويجب أن نشير أيضاً إلى أن الرفاق القادة الشباب: نديم عبدالصمد، خليل الدبس، جورج البطل وغيرهم، ساعدوا بدرجة كبيرة على حل الأزمة والتعامل معها.

ضمن هذه الأجواء انعقد اجتماع اللجنة المركزية الذي استمر يوماً كاملاً في جو مشحون. وكنت، من جهتي، مصرّاً على أن يحضر هذا الاجتماع حسن وصوايا. وقد رافقتهما إلى مكان الاجتماع، وكان جدول الأعمال: أزمة الحزب.

استمرّ حسن وصوايا في تعنتهما ومواقفهما من التهمة، ولم يقوما بأي انتقاد ذاتي. ثابرا على عنادهما، وعلى التهمة التخريبية وعملهما المعادي للحزب. جميع الرفاق المجتمعين، ما عدا طنوس دياب وبطرس عيد وبشكل طبيعي المتهمين، أدانوا الاتهامات والعمل التخريبي الذي يقوم به حسن وصوايا. وبناء على تعنّتهما والاستمرار بعملهما المذكور، قرّر المجتمعون بالإجماع طرد حسن وصوايا من اللجنة المركزية ومن صفوف الحزب أيضاً.

اتخذ طنوس دياب وبطرس عيد موقفاً سلبياً، مؤيداً عملياً لموقف حسن وصوايا. وقد أنذر الاجتماع طنوس وبطرس بعدم القيام بأيّ عمل ضد قرارات اللجنة المركزية وبالكفّ عن العمل التخريبي وتوجيه التهم المصطنعة. وفي النتيجة لم يستطع طنوس وبطرس الخروج من تأثير عبادة الفرد وتوهُّمهما بأن التهمة التآمرية صحيحة. وفيما بعد انضم هذان الاثنان بشكل فعّال إلى العمل التكتّلي لحسن وصوايا، مستمرين بالعمل التخريبي وموزعين التهم ضد الحزب.

وعقدت اللجنة المركزية اجتماعاً جديداً لبحث نشاط طنوس وبطرس المعادي للحزب، بحضورهما، وقد وجهت أنا التهمة لهما. بقيا على عنادهما بالموقف المعادي للحزب ، ومن ثم قرر اجتماع اللجنة المركزية بالإجماع بناء على اقتراحي، طردهما من اللجنة المركزية ومن الحزب.

يرتبط بهذه الأزمة موضوع ذو طابع بالغ الجديّة. ذلك أن المؤامرة كانت كبيرة وكان يمكن أن تخلق نوعاً من عدم الثقة، بين الحزب الشيوعي السوفياتي والحزب الشيوعي اللبناني، حيث من المؤكد أن رفاقنا السوفيات لا يتمنون هذا الأمر ولا نتمناه نحن الشيوعيين اللبنانيين أيضاً.

والحقيقة التي لا يسع أحداً إنكارها، أن الحزب الشيوعي اللبناني هو حزب وطني مستقل. وهو وحده يقرر خطه وتوجّهه السياسي، ولا أحد يستطيع بأي شكل من الأشكال التدخل في شؤونه الداخلية، مهما كانت علاقاتنا به.

ولذلك، فإن العلاقة بين الحزب الشيوعي السوفياتي والحزب الشيوعي اللبناني قائمة على أسس متينة لا يمكن زعزعتها. علاقتنا مبنية على أساس موقف واحد من القضايا التي تهم الإنسانية جمعاء. وتنطلق علاقة السوفيات معنا من دعمهم للمصلحة الوطنية اللبنانية التي يفهمها الشيوعيون اللبنانيون فهماً سليماً.

ولعدم الفسح في المجال لأي التباس، وحسماً لأي إشكال فقد بعثنا برسالة توضيحية إلى الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي الرفيق ليونيد بريجينف، موقعة من قبل الرفيق نقولا شاوي بصفته أمين عام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني، ومنّي بصفتي سكرتير اللجنة المركزية للحزب. وأعطت هذه الرسالة النتيجة الإيجابية المرجوّة.

تلقينا دعوة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي لزيارة موسكو. تألف الوفد من الرفاق نقولا شاوي، كريم مروه وأرتين مادويان. استقبل الوفد سكرتير اللجنة المركزية عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي الرفيق سوسلوف، والعضو المرشح للمكتب السياسي الرفيق بونوماريوف. وألقى الرفيق نقولا شاوي خلال اللقاء تقريراً مفصلاً حول الأزمة التي نشأت في حزبنا والطريقة التي حلّت بها، شارحاً بعض

التفاصيل، وأخذت الكلام وعبّرت عن موافقتي المطلقة على التقرير الذي قدمه الرفيق نقولا شاوي، واضعاً ثقتي المطلقة بالقيادات الشابة الجديدة لحزبنا.

انتخب الرفيق جورج حاوي أميناً عاماً مساعداً للجنة المركزية للحزب في عام 1976. وانتخبه المؤتمر الرابع للحزب بالإجماع أميناً عاماً للجنة المركزية.

نحن فخورون بهذه الثقة المتبادلة والعلاقات الأخوية التي تعززت وسوف تتعزز على أسس قوية ومتينة ولا يمكن فصمها بين الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي اللبناني.

المؤتمر الثاني للحزب كان انعطافاً تاريخياً

بعد تصفية المؤامرة والأزمة الداخلية في الحزب ومعاقبة المتآمرين بالطرد من صفوف الحزب، بدأت اللجنة المركزية بالإعداد لعقد المؤتمر الثاني وإعداد وثائقه. وأنجزت وثائق مشروع تقرير اللجنة المركزية وبرنامج الحزب ونظامه الداخلي في أعقاب عمل دؤوب استغرق أشهراً برمتها.

بعد مناقشة هذه الوثائق من قبل منظمات الحزب، وطرح الآراء ووجهات النظر بشأنها في جوّ ديموقراطي، انتخب بالاقتراع السري المندوبون إلى المؤتمر (120 مندوباً). وكنت أحد المندوبين للمؤتمر منتخباً من منظمة بيروت. انعقد المؤتمر في أواخر تموز عام 1968 في إحدى مناطق جبل لبنان، بشكل سري واستمر يومين.

كان جدول أعمال المؤتمر على الوجه الآتي:

1 ـ تقرير اللجنة المركزية.

2 ـ برنامج الحزب.

3 ـ النظام الداخلي.

4 ـ انتخاب اللجنة المركزية.

ألقى تقرير اللجنة المركزية أمين عام الحزب الرفيق نقولا شاوي. شمل التقرير نشاط الحزب منذ المؤتمر الأول وأعماله لفترة 25 سنة، على جميع الصعد، مسجلاً النجاحات التي تحققت. وتضمن في الوقت نفسه انتقاداً ذاتياً وافياً، وبروح شيوعية حقة، منتقداً النواقص والأخطاء خلال السنوات الماضية من حياة الحزب، وبشكل خاص الانحرافات اليمينية في سياسته والانحراف عن الأسس اللينينية في ممارسة حياة الحزب الداخلية والابتعاد عن الديموقراطية وعدم ممارسة القيادة الجماعية كما يقضي بذلك النظام الداخلي. وحدد التقرير الخط السياسي للحزب وعمله المقبل مستفيداً من التجربة الماضية وعدم تكرار الأخطاء في المستقبل. وقد وضع التقرير المنطلقات الجديدة لسياسة الحزب ولحياته الداخلية، طارحاً التوجّهات على أسس سليمة.

(صدر هذا التقرير فيما بعد بكراس منفصل).

استمع المؤتمر إلى تقرير مشروع البرنامج والنظام الداخلي الذي كان مدروساً ومناقشاً في جميع هيئات الحزب.

شارك عدد كبير من المندوبين في المناقشة في جوّ ديموقراطي حر داخل المؤتمر. وبعد الإدلاء بآرائهم وملاحظاتهم صدّق المؤتمر بالإجماع تقرير اللجنة المركزية وبرنامج الحزب والنظام الداخلي.

ومن ثم انتخب المؤتمر بالاقتراع السري وبالإجماع لجنته المركزية الجديدة، مؤلفة من الرفاق: نقولا شاوي، جورج حاوي، نديم عبدالصمد، كريم مروه، خليل الدبس، يوسف خطار الحلو، مصطفى العريس، جورج البطل، رفيق سمهون، جورج الهبر، الياس البواري، أحمد المير، محمود الواوي، رشيد يوسف، خليل نعوس، أرتين مادويان، عدنان دغيدي، سهيل طويلة، علي العبد، ألبير فرحات، حسين مروة، فاروق المعصراني، موريس نهرا.

وانتخبت اللجنة المركزية بالإجماع في جلستها الأولى الرفيق نقولا

شاوي أميناً عاماً للجنة المركزية، وانتخبت بالإجماع المكتب السياسي ويتألف من الرفاق: نقولا شاوي، جورج حاوي، نديم عبد الصمد، كريم مروة، أرتين مادويان، خليل الدبس، يوسف خطّار الحلو، جورج البطل، رفيق سمهون، جورج هبر، الياس البواري، رهيف فياض، أحمد المير، فاروق المعصراني. كذلك انتخبت بالإجماع لجنة رقابة مركزية برئاسة الرفيق الياس البواري.

لقد شكّل المؤتمر الثاني انعطافاً جديداً في تاريخ الحزب، في سبيل تقدمه وتطوره.

وكان من حصيلة المؤتمر الثاني أن حزبنا، للمرة الأولى في تاريخه، أصبح لديه برنامج، يؤكد فيه وجود نظامين متناحرين في عالمنا، النظام الرأسمالي الامبريالي من جهة، ومن الجهة الأخرى النظام الاشتراكي الذي تدخل حركة التحرر الوطني ضمن جبهته، وأن الصراع بين النظامين يجري على مختلف الصعد، وتطوره يحدّد التطور المقبل لعالمنا في نهاية المطاف. وأكد في برنامجه على الأزمة العامة للامبريالية وانهيار سيطرتها الكولونيالية، ومن ثم استنتج حتمية انتصار الاشتراكية والنضال التحرري وحتمية انتقال العالم من الرأسمالية والامبريالية إلى الاشتراكية، والانتصار النهائي للنضال التحرري.

ومن ثم، بعد الخطوط الرئيسية انطلق البرنامج بشكل خلّاق من أسس الماركسية اللينينية محللاً التطور التاريخي للبنان سياسياً واجتماعياً واقتصادياً. وحدد موقعه الوطني واضعاً تطوره المقبل بإطار التطور العالمي، محدداً موقف الحزب من سمة العصر الرئيسية.

والمؤتمر الثاني وجّه الحزب باتجاه ثوري خلّاق وديناميكي ومن أجل تحويله إلى حزب جماهيري واسع. وفتح أمام الحزب آفاقاً جديدة ورحبة مع قوى وطنية وتحررية عربية أخرى، لقيادة الحركة التقدمية والوطنية التحررية في العالم العربي من أجل تعزيز ثورة التحرر الوطني المعادية للامبريالية وتطويرها بمضمون ديموقراطي، وعلى هذا الأساس

تعزيز وتطوير وحدة جميع القوى. وفي الحقيقة، كان حزبنا حتى المؤتمر الثاني يشارك في هذه الحركة بشكل هامشي، منغلقاً على نفسه نتيجة الانحرافات اليمينية.

انطلاقاً من التوجهات المحددة من قبل المؤتمر الثاني تحرر الحزب من المنطلقات الانعزالية التي كان يحمل لواءها قريطم وصوايا خالقين هذه الأجواء بين حزبنا وبين كمال جنبلاط والحزب التقدمي الاشتراكي الذي يرئسه، والذي له خط مستقيم ووزن سياسي كبير لبنانياً وعربياً وأيضاً على النطاق العالمي.

لقد أتيح أثناء التحضير للمؤتمر وخلال انعقاده، ومن ثم عبر ممارسته اللاحقة في المجالات كافة على أساس إعادة الاعتبار إلى المبادئ والأسس اللينينية في الحياة التنظيمية. وبكلمة أخرى، قد عادت الديموقراطية في الممارسة، والقيادة الجماعية، والانتقاد الذاتي في أجواء حرة ومن أجل التطوير الدائم للحزب والحفاظ على وحدته.

وهكذا فقد عادت الشرعية في الحياة الحزبية بانعقاد المؤتمر الثاني للحزب بعد مرور 25 سنة على المؤتمر الأول، حيث لم يعقد أي مؤتمر في تلك الحقبة. وفي الحقيقة، قد توافرت فرص وإمكانيات لتنظيم مؤتمر للحزب وخصوصاً خلال أعوام 1955 ـ 1956 ـ 1957 حيث اعترض الرفيق خالد بكداش بحزم على انعقاد المؤتمر بحجة «الأوضاع»، قائلاً إن هناك مؤامرة ضد سوريا بصورة خاصة، من قبل الامبريالية الاميركية التي تهوّل «بالخطر الشيوعي»، وأن انعقاد مؤتمر للحزب الشيوعي سيثير ضجة يستفيد منها الامبرياليون لتنفيذ تآمرهم على سوريا بمشاركة الرجعية المحلية. لذلك استنتج الرفيق خالد أن أمام هذا الواقع لا يجوز عقد مؤتمر!

وفي الواقع، كان خالد بكداش يفكر تفكيراً خاطئاً، حيث كان بالإمكان عقد مؤتمر دون مظاهر ودون ضجة، والتركيز على محتوى سياسي يؤكد أمام الرأي العام عدم وجود «الخطر الشيوعي» المزعوم.

ومثل هذا التوجه كان سيعزّز وحدة القوى الوطنية المناضلة ضد الامبريالية، مسهماً في رص صفوفها.

كان الرفيق خالد بكداش يواجه كل هؤلاء المخلصين المطالبين بعقد مؤتمر، ويتّهمهم بمعاداة الحزب. وكان يضع في المستوى نفسه هؤلاء المخلصين إلى جانب غير المخلصين ممّن كانوا يطالبون بعقد مؤتمر في أوقات غير مناسبة، ويحاولون الاستفادة من عدم انعقاد مؤتمر منذ مدة طويلة. إن هذه العناصر المعادية ذات الأهداف البالية قد اكتشف أمرها وبانت مؤامرتها وأعمالها التخريبية المعادية للحزب والموجهة ضد قيادته في تلك الآونة. وكانوا يستفيدون، بلا شك لو انعقد المؤتمر في ظروف غير مناسبة.

ترخيص للحزب بقرار للوزير كمال جنبلاط

لقد عمل الحزب الشيوعي اللبناني منذ تأسيسه، دون ترخيص من السلطة. واعتبر دائماً بمثابة حزب غير شرعي واستمر في معظم مراحل حياته السياسية يعمل في ظل الملاحقات، كما عمل أيضاً خلال سنوات محددة في مناخ من العلنية إلى هذه الدرجة أو تلك.

كان أعضاء الحزب، أمام القانون، مهدّدين بشكل دائم ومعرضين للاعتقال والسجن والمحاكمة بصفتهم «أعضاء في تنظيم غير شرعي»، وذلك تبعاً للوضع السياسي القائم والأجواء المسيطرة وموقف السلطة السياسي، وما كان يتحقق من مكتسبات على صعيد الحريات الديموقراطية.

وخلال فترات الملاحقة اعتقل المئات من الرفاق الشيوعيين وحوكموا بالسجن بتهمة الانتماء إلى «تنظيم سرّي ومحظور». وقد تناولنا هذا الموضوع مفصّلاً في الصفحات السابقة.

عشية عام 1970 وفي أوائله كانت البلاد أمام أوضاع سياسية جديدة، وفي إطار الحريات الديموقراطية المكتسبة نتيجة النضالات

الجماهيرية الواسعة من أجل الحريات الديموقراطية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمالية وجميع القضايا التي تهم جميع الكادحين من فئات شعبنا.

إن الأجواء التي نشأت بفضل نضال جماهير شعبنا وقد فرضت مجيء حكومة جديدة يتسلم حقيبة وزارة الداخلية فيها رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي كمال جنبلاط، الذي كان حزبنا على علاقة وطيدة معه، وشخصياً الرفيق جورج حاوي.

كانت البلاد أمام انتخابات رئاسة الجمهورية. وقد جرت العادة بعد انتخاب رئيس الجمهورية الجديد واستلام مهامه، أن تقدم الوزارة القديمة استقالتها لتشكيل حكومة جديدة. وكان كمال جنبلاط قبل انتخابات رئاسة الجمهورية وقبل أن تستقيل الحكومة، وزيراً للداخلية، بناءً على الصلاحيات القانونية المعطاة له كوزير للداخلية أصدر مرسوماً بالترخيص للأحزاب والتنظيمات السياسية التي كانت قد تقدمت بطلبات الترخيص. وهكذا، ولأول مرة في تاريخ عمله حصل الحزب الشيوعي اللبناني على الترخيص الرسمي من السلطة، في شهر تموز 1970. وتحقق إنجاز كبير بإطلاق الحريات الديموقراطية من قبل كمال جنبلاط، وهذا كان أيضاً انتصاراً للشغيلة جميعاً، ولجماهير شعبنا.

كنا قد قدمنا الطلب إلى وزير الداخلية للحصول على الترخيص الرسمي للحزب، مرفقاً ببرنامج حزبنا ونظامه الداخلي وموقعاً من الهيئة التأسيسية للحزب الشيوعي اللبناني الرفاق نقولا شاوي، أرتين مادويان، مصطفى العريس ويوسف خطار الحلو. واعتُبر هؤلاء الرفاق الأربعة رسمياً أمام السلطة، مؤسسين للحزب الشيوعي اللبناني.

انتخاب رئيس الجمهورية الجديد ودور جنبلاط

كان لقرار الترخيص لحزبنا بشكل خاص وللأحزاب والمنظمات السياسية الأخرى بشكل عام، دور حازم في الانتخابات الرئاسية.

كان قد ترشح للانتخابات الرئاسية سليمان فرنجية والياس سركيس، ومجلس النواب هو الذي سينتخب الرئيس الجديد، وكان ثمة توازن معيّن في أصوات النواب وإلى درجة جعلت موقف كمال جنبلاط وكتلته النيابية العنصر المقرّر في من سيفوز بهذه الانتخابات.

عقد الياس سركيس خلال الحملة الانتخابية لقاء مع كمال جنبلاط بغية كسب تأييده. حضر اللقاء الرفيق جورج حاوي بدعوة من كمال جنبلاط. خلال اللقاء اقترح الرفيق جورج على كمال جنبلاط أن يسأل الياس سركيس ماذا سيكون موقفه، في حال انتخابه، من الأحزاب المرخص لها حديثاً ونشاطها. وبشكل عام من الحريات الديموقراطية. طرح جنبلاط هذا السؤال على الياس سركيس. لم يكن جواب المرشح الرئاسي سلبياً تماماً غير أنه لم يعطِ موافقته الصريحة على مسألة الحريات. لم يكن كمال جنبلاط مرتاحاً لهذا الجواب. ولم ينجح الياس سركيس في كسب تأييد كمال جنبلاط له.

بعد ذلك، وعشية لقاء كمال جنبلاط مع سليمان فرنجية، التقى الرفيق جورج حاوي مع فرنجية وأعلمه بأمر اللقاء الذي جرى مع المرشح الآخر الياس سركيس وما جرى في هذا اللقاء، مقترحاً أن يأخذ في الاعتبار ما جرى فيه. وعقد لقاء سليمان فرنجية وكمال جنبلاط، وأيضاً بحضور جورج حاوي وطُرح على فرنجية ما طُرح على سركيس من أسئلة قبلاً، ودون تردّد أجاب سليمان فرنجية بموافقته على الترخيص الذي أعطي للأحزاب والتنظيمات، والحفاظ على الحريات الديموقراطية.

نجح سليمان فرنجية في الامتحان. كان جنبلاط راضياً عن جواب فرنجية وقرر منحه صوته وأصوات كتلته. وانتخب رئيساً للجمهورية. وفي الواقع ورغم كل أشكال التدخلات والجهود التي بذلها المكتب الثاني، وحتى بداية الأحداث عام 1975، فقد سيطرت خلال عهد سليمان فرنجية أجواء ديموقراطية وعاشت البلاد في مناخ الحريات الديموقراطية واحترم قرار الترخيص للأحزاب والمنظمات ومن ضمنها حزبنا.

وجرت احتفالات شعبية كبيرة بمناسبة الذكرى الخمسين لنشوء الحزب الشيوعي اللبناني في 24 تشرين الأول 1974، بمشاركة وفد الحزب الشيوعي السوفياتي والأحزاب الشيوعية وحركة التحرر الوطني وحشود وطنية وسياسية وشعبية واجتماعية ومبادرات فنية وثقافية على مدى عدة أسابيع.

ويجب أن نشير إلى أن سليمان فرنجية بعد انتهاء مدة رئاسته اتخذ على الصعيد السياسي خطاً مستقيماً معادياً لإسرائيل ولأميركا وللكتائب.

المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي الفرنسي

قرر المكتب السياسي للجنة المركزية لحزبنا المشاركة في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي الفرنسي بوفد مؤلف مني ومن الرفيق جورج بطل، عقد المؤتمر في خريف العام 1970 في نانت بضواحي باريس. وألقيت باسم حزبنا كلمة في هذا المؤتمر.

وقد انعقد المؤتمر، حقاً، في جو ديموقراطي، وأقرّ في جلسته الختامية بالإجماع تقرير اللجنة المركزية والتوجّهات السياسية، وانتخب بالإجماع أيضاً أعضاء اللجنة المركزية. كما كان على جدول أعمال المؤتمر: التوجهات السياسية والإيديولوجية المدانة والدور التخريبي لروجيه غارودي الذي شارك في المؤتمر شخصياً.

كان غارودي يصر على حدوث تحولات كبيرة في الطبقة العاملة، وأن الطبقة العاملة ضعفت ولم تعد تتمكن من القيام بدورها التاريخي كقوة أساسية كبيرة في المجتمع. وما من شك بأن هذا خطأ أساسي، ولا يتطابق مع الحقيقة مطلقاً، عدا عداءه للماركسية وخلوّه من أي نظرة علمية. وإن تبني مثل هذا التوجه من قبل الشيوعيين يمكن أن يؤدي بهم إلى الابتعاد عن قاعدتهم ويضعفهم بشكل كبير، وإذا لم يفقدهم دورهم كلياً داخل الطبقة العاملة التي كانت ولا تزال وسوف تبقى القوة

الأساسية في عملية التحوّل التاريخي للانتقال إلى الاشتراكية، وهي القوة الأساسية وقاعدة الحزب الشيوعي في عملية انتصار الشيوعية .

إن آراء روجيه غارودي الإيديولوجية منطلقة من معاداة اللينينية ومناقضة لموقف قيادة الحزب على الصعيد الإيديولوجي، وعملياً كان لها طابع معاد للحزب. رغم ذلك أعطي روجيه غارودي مجالاً في المؤتمر للدفاع عن نفسه إزاء التهم الموجهة إليه وأن يدلي برأيه بهذه الاتهامات. حتى إنه تحدث بشكل استفزازي ضد قيادة الحزب، وضد الحزب الشيوعي السوفياتي. ولكن المؤتمر أدان، بصخب وبالإجماع، نظرية روجيه غارودي واتهاماته الموجهة ضد قيادة الحزب . واستمر روجيه غارودي بعمله المناوئ للحزب ولهذا السبب فقد طرد نهائياً من صفوفه .

التقيت في باريس رفيقاً فرنسياً يدعى بارون، وكان يقيم في بيروت في عامي 1934 ـ 1935 ويمارس التدريس وقد ساعد حزبنا مساعدة كبيرة آنذاك، وأمضيت يومين في منزله مع عائلته في باريس. والتقيت أيضاً في باريس الرفيق طافيت طافيتيان الذي كان أثناء الاحتلال الهتلري لفرنسا أحد قادة المقاومة الفرنسية في مارسيليا خلال الاحتلال واعتقله الألمان، وسجن وعذب في المعتقلات، وفرّ بأعجوبة من الاعتقال قبل فترة قصيرة من التحرير.

والتقيت أيضاً رئيس تحرير مجلة «أشخار»، من اسطنبول وهو الرفيق القديم افاديس الكسانيان، والتقيت أيضاً رفاقاً آخرين من الأرمن.

الهيئة الأرمنية العليا

في إطار التوجّهات الخلاقة للمؤتمر الثاني للحزب، ومن أجل تنظيم عمل الحزب واهتمامه بالشؤون ذات الطابع الأرمني حيث إنها جزء لا يتجزأ من سياسة الحزب وجزء من ميدان عمله ونضالاته، وبغية تطوير المطالب الأرمنية الخاصة والعمل لتنفيذها، ومن أجل قيادة العمل،

شكّلت في أوائل عام 1970 هيئة أرمنية عليا لدى اللجنة المركزية للحزب للاهتمام بالقضايا الأرمنية الخاصة وتنظيم عمل منظمات الحزب الأرمنية. وأبرز المهمات هي الآتية:

1 ـ دراسة القضايا التي تتعلق بالحياة السياسية للبنانيين الأرمن انطلاقاً من توجهات الحزب العامة.

2 ـ تحديد موقف من الأحزاب والتنظيمات الأرمنية وإقرار صيغة للعلاقة معها.

3 ـ قيادة العلاقة مع أرمينيا السوڤياتية وتحديد واختيار الوفود (الأساتذة، الوفود الطلابية، الأشبال، المالية، والثقافية) وتولّي تنظيم الدعوات الموجهة للشخصيات والوفود من أرمينيا إلى لبنان، ضمن إطار تعزيز العلاقة مع أرمينيا السوڤياتية بشكل خلّاق.

4 ـ تعزيز العلاقات الثقافية بين العرب والأرمن، وتشجيع المبادرة في مجالات مختلفة.

5 ـ دراسة وتوضيح القضايا الإيديولوجية المختلفة المرتبطة بالقضية الأرمنية.

6 ـ تنظيم وتحديد مواعيد الاحتفالات التاريخية المختلفة.

7 ـ الاهتمام بالأندية والجمعيات الأرمنية المرخص لها وتوجيهها.

8 ـ اتخاذ إجراءات لإصدار كتب ومنشورات باللغة الأرمنية.

9 ـ دراسة المواضيع التثقيفية، وبشكل خاص إمكانية إنشاء مدرسة أرمنية.

تشكلت الهيئة الأرمنية العليا من الرفاق: أرتين مادويان، كرنيك عطاريان، بارور يرتسيان، كيفورك ديرنيكوغوصيان، يبرم الليزيان، هارتيون بافوكيان. وشكل مكتب للهيئة من الرفاق: أرتين مادويان سكرتيراً، وعضوية كرنيك عطاريان وبارور يرتسيان. وبعد وفاة الرفيقين يبرم الليزيان وكيفورك ديرنيكوغوصيان عُيّن مكانهما بوغوص توتونجيان ومرديك مادويان.

استمرت الهيئة بعملها بناء على قرار جديد من اللجنة المركزية في الفترة الأخيرة يقضي بالاهتمام ومساعدة الفرعيات الأرمنية في الحزب، وتكون هذه الهيئات في الوقت نفسه تابعة سياسياً وتنظيمياً لمنطقيات أماكن وجودها.

مشاركتي في الذكرى الخمسين لأرمينيا السوفياتية

دُعينا في أواخر تشرني الثاني 1970 أنا والرفيق كرنيك عطاريان، إلى يريڤان للمشاركة في الاحتفالات الرسمية بمناسبة مرور خمسين سنة على تأسيس أرمينيا السوفياتية في 29 من الشهر المذكور.

خلال الاحتفالات الرسمية تشرّفت بإلقاء كلمة المغتربين الأرمن. بدأت كلمتي بالتحية قائلاً: «أعظم سعادة لكل أرمني أن يرى أن دماء المليون شهيد لم تذهب هدراً، وأن الأبطال من أبناء شعبنا لم يذهب قتالهم سدى في سرادارباد، وفان، وأورفا، وزيتون، وحاجن وشابيه وكراهيسار وفي مرتفعات جبل موسى. لم يبق دون أثر صراخ هؤلاء الوطنيين الأرمن من على حبل المشنقة «آخ أرمينيا!». لقد تحققت آمال الشعب الأرمني الوطنية والاجتماعية، التي ناضل من أجلها منذ قرون. تحقق بفعل التحرير الوطني لأرمينيا تحت راية لينين على طريق ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى.

... واليوم، كل أرمني يحق له أن يفتخر عندما يرى وطنه الأم أرمينيا السوفياتية في المكان الذي تستحق بين البلدان المتقدمة.

نحن الأرمن في الاغتراب ننظر باعتزاز إلى وطننا الأم، وكيف ينمو على نحو خلّاق في ظل سلام دائم، بفضل نظامه، ووجوده ضمن شعوب الأسرة السوفياتية الجبّارة .

إن الأرمن المشتّتين في بلدان العالم يشعرون بفرح عظيم وتغمر روحهم السعادة عندما يرون التطور المتصاعد لأرمينيا وتحول الأرمن

فيها إلى أمة أرمنية اشتراكية متراصة. وأن يروا وطنهم الأم وقد تحول إلى مركز لتوحيد الشعب الأرمني المشرد في العالم. كما أن الأرمن في الاغتراب يلتفون حول وطنهم التقدمي وهذا يشكل ضمانة روحية لوحدتهم التي لا تتزعزع.

فلتتعزّز وحدة الأرمن في الاغتراب للالتفاف حول وطنهم الأم أرمينيا السوڤياتية.

ولتتطور علاقة الصداقة بين أرمينيا السوڤياتية ولبنان وجميع البلدان العربية».

تقويم الرفيق ليونيد بريجنيف

يومئذ شكل وفد رفيع المستوى للمشاركة في احتفالات الذكرى الخمسين لتأسيس أرمينيا، رأسه شخصياً أمين عام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوڤياتي ورئيس مجلس السوڤيات الأعلى الرفيق ليونيد بريجنيف، الذي ألقى كلمة من على منبر الاحتفالات حيا فيها الذكرى الخمسين لأرمينيا السوڤياتية وشعبها، في خطاب تقويمي جاء فيه:

«الشعب الأرمني ذو تراث ثقافي عريق وهذا التراث لعب دوراً في تطوير ثقافة العالم.

تمر القرون، ولكن الإرادة الجبارة لدى الشعب الأرمني لا تضعف، كا هو البطل الأسطوري تساسون تسي تاڤيت، ولا تفقد قيمتها أعمال الشاعر والمغني الكبير سايات نوفا الذي خط كلماته قبل 200 سنة. إن الذين يزورون بلادكم الرائعة يندهشون أمام روعة النقوش والآثارات التي لا مثيل لجمالها وأمام قدرة البنائين الأرمن على تشييدها. وبقدر ما تتعمق في درس هذا التاريخ يترسخ لديك القول إن انتصار النظام السوڤياتي في أرمينيا أنقذ ثروتها الثقافية منذ قرون. وأيضاً بانتصار النظام السوڤياتي في أرمينيا أنقذ العلاقات الروحية لدى الشعب الأرمني وخلق له إمكانيات ازدهاره على جميع الصعد».

بعد ذلك، شاركنا أنا والرفيق كرنيك عطاريان في الاحتفالات التي أقيمت في قاعة مجلس السوڤيات الأعلى لأرمينيا السوڤياتية، وشارك فيها أيضاً الرفيق ليونيد بريجنيف والرفيق انستاز ميكويان والمارشالات أوهانس بغراميان، باباجانيان، وخاميريان، والقيادة الحزبية والحكومية لأرمينيا السوڤياتية، وبطريرك عموم الأرمن فاسكين الأول، ووفود أرمنية من الاغتراب. وكنتُ من الخطباء في هذا الاحتفال أيضاً.

وقد شاركت أنا والرفيق كرنيك عطاريان في الوقوف على المنبر الرسمي الرئيسي لمشاهدة الاحتفالات الرسمية بالعرض العسكري الكبير والتظاهرة الشعبية التي أُقيمت في ساحة لينين وأمام تمثاله.

كما شارك في احتفالات الذكرى الستين لأرمينيا السوڤياتية وفود رسمية من جميع جمهوريات الاتحاد السوڤياتي برئاسة الأمناء العامين للأحزاب الشيوعية في هذه الجمهوريات.

مع البطل الماريشال بغراميان

الماريشال أوهانس بغراميان هو أحد مفاخر الجيش السوڤياتي العظيم؛ وقاد على جبهات الحرب العالمية الثانية معارك مصيرية ضد أقوى الفيالق الهتلرية والهجوم على مواقعها بقيادته، وحققت قواته انتصاراً ساحقاً عليها. والماريشال أوهانس بغراميان الابن البار للشعب الأرمني هو فخر لهذه الأمة.

في مطلع شبابه في العمل الوطني انضمّ اوهانس بغراميان، في بداية الحرب العالمية الأولى، إلى حركة التحرير الأرمنية كمقاتل فدائي ضمن وحدات البطل الوطني الأرمني انترانيك، وشارك في المعارك ضد الجيوش التركية الغازية، الهادفة إلى تصفية الشعب الأرمني، هذه المعارك التي هزمت جيوش الغزو العثمانية، وفيما بعد انضم إلى الجيش الأحمر السوڤياتي بقوات الخيالة برتبة نقيب.

وقد شارك النقيب بغراميان مع قواته الخيالة، في معارك حاسمة من أجل بقاء أرمينيا والشعب الأرمني، خلال أيام 22 ـ 26 أيار 1918 في سرداراباد، هذه المعارك المصيرية التي حققت الانتصار على الجيوش التركية الغازية. وفي عام 1920 بدءاً من شهر أيار شارك النقيب بغراميان في الانتفاضة الشعبية بقيادة البلاشفة ضد حكم الطاشناك المعادي للشعب في مدينة الكسندرابول (حالياً لينيناغان) من أجل انتصار النظام السوفياتي في أرمينيا، حيث كانت لديه قناعة تامة بأن أرمينيا ستنهار وتتفكّك بسبب ارتباط حكم الطاشناك بالدول الامبريالية وسياسته المغامرة وعزلته الخارجية. وحيث إنه كان يرى بوضوح الانهيار الحتمي لأرمينيا، ومن أجل إنقاذها ومن أجل تحقيق سلام دائم لها، ومن أجل البناء الخلاق وفي سبيل تحقيق آمال الشعب الأرمني عبر القرون ومن أجل تحرير أرمينيا من سياسة الطاشناك المغامرة والمعادية للشعب، فقد شارك في الانتفاضة الهادفة لتحقيق النظام السوفياتي في أرمينيا، وقد تحقق هذا الانتصار في 29 تشرين الثاني 1920.

في صيف عام 1970 كنت موجوداً في موسكو في أوتيل «أكتوبرياسكايا» الخاص باللجنة المركزية للحزب، حيث كان المارشال بغراميان يسكن في منزل قريب من هذا الفندق، وبالنسبة إلي كان اللقاء معه واجباً، وإحساساً داخلياً. طلبت من الممثل الدائم لأرمينيا السوفياتية في موسكو الرفيق زافين تشارتشيان راجياً منه نقل رغبتي هذه إلى الماريشال بغراميان، وفي حال موافقته فأرجو أن يحدد الموعد الذي يريد حيث رغبت في أن أزوره بمنزله. لَبّى الرفيق تشارتشيان رغبتي في إبلاغ الرفيق بغراميان، فوافق وحدد لي الموعد، مفضلاً أن يكون اللقاء في المكان الذي أقيم فيه أنا، بسبب أعمال الصيانة التي كانت تجري في بيته.

كان يوماً مثلجاً. استقبلت الماريشال أمام الفندق وجلسنا في قاعة الاستقبال في ركن منفرد. تحدثنا عن الماضي والحاضر والمستقبل،

تحدثنا عن لبنان والعالم العربي، تحدثنا عن أرمينيا وعن الأرمن في بلدان الاغتراب وعن قضايا أرمنية خاصة، متمنياً أن أطلع على رؤيته السديدة من خلال تجربته في الأحداث التاريخية ذات الطابع المصيري لأرمينيا.

قال لي: «ارتكب الطاشناك أكبر جريمة بحق أرمينيا عندما رفضوا تسليم السلطة للشيوعيين في أيار 1920، وبتوقيعهم معاهدة «الكسندر بول» غير الشرعية، وكذلك بالنسبة إلى الذين شنّوا «ثورة شباط» المعاكسة، ذات النزعة المغامرة» .

استمر لقاؤنا ساعتين في جوّ حار وودي، وسلمني نسخة عن مذكراته في الحروب، أهداها إلي موقعة منه.

التقيت الماريشال بغراميان للمرة الأخيرة في يريڤان بمناسبة الاحتفال بالذكرى الستين لأرمينيا السوڤياتية. قلت له: «أيها الرفيق الماريشال، أنتم فخر الشعب الأرمني».

لقاء الرئيس ميكويان

الرفيق انستازي. ميكويان تولى لسنوات عديدة مسؤوليات عليا، وكان من القيادات الرئيسية في الحزب الشيوعي السوڤياتي وفي الدولة السوڤياتية، وكان قد تولى في ظروف صعبة مفوضية الشعب (وزارة) الشؤون الداخلية والخارجية والتجارة الخارجية... وفي قطاعات أخرى. ونفذ بنجاح العديد من المهمات الملقاة على عاتقه سياسياً وقام بمبادرات ناجحة على صعيد توجيه السياسة الخارجية. شارك أنستاز ي. ميكويان عام 1918 بقيادة الرفيق استبان شاهوميان في الانتفاضة العمالية في باكو (كومونة باكو). وشارك في العمل على مستوى قيادي سياسياً وتنظيمياً لانتصار السلطة السوڤياتية، ومن ثم شارك في قيادة أعمال عسكرية دفاعاً عن الثورة.

في عام 1920 رأس مع سيرجي م. كيروف وسيرجي أورجيفدزة الجيش الأحمر الحادي عشر لمساعدة شعوب القفقاس. فساعدوا، في البداية، العمال والفلاحين على تحرير باكو عاصمة أذربيجان ومن ثم أرمينيا وأخيراً ساعدوا العمال والفلاحين في جيورجيا، وأيضاً معارك ضدّ الجيوش التركية الغازية والمدعومة من قبل الامبريالية الفرنسية والبريطانية.

منذ اليوم الأول للغزو الهتلري الغاشم على الاتحاد السوڤياتي عام 1941، تولى انستاز ميكويان مع عدد من أعضاء المكتب السياسي للحزب ف.م.مالكنوف، أ.أ.ندرييف. غ.ي.فوروشيلوف وأ.ن.كوسيغين هيئة طوارئ قيادية للاتحاد السوڤياتي تعنى بمسؤولية الإجراءات الاقتصادية من أجل تأمين مستلزمات الحرب الدفاعية .

وانتخب ميكويان فيما بعد رئيساً للسوڤيات الأعلى للاتحاد السوڤياتي.

انستاز ميكويان، الأممي اللينيني الأمين والابن البار لشعوب الاتحاد السوڤياتي وأيضاً الابن البار وأحد مفاخر الشعب الأرمني، كان يهتم عن كثب بلبنان وسوريا وبالأحداث الجارية في البلدان العربية.

كنت في موسكو خلال صيف 1973 وكان من الطبيعي، بصفتي لبنانياً أرمنياً، أن أشعر، سياسياً ونفسياً، بحاجة للقاء ميكويان. هذه المرة أيضاً جرى ترتيب لقائي هذا بواسطة الرفيق زافين تشارتشيان، وعبر الممثل الدائم لأرمينيا السوڤياتية لدى الحكومة المركزية للاتحاد السوڤياتي الرفيق ملكوميان، اللذين رافقاني إلى قصر الكرملين حيث كان الرفيق ميكويان بانتظاري. وكانت قد انتهت مدة رئاسته لمجلس السوڤيات الأعلى وبدأ يشرع في كتابة مذكراته.

وكان اللقاء معه ودياً وحاراً. جرى الحديث حول القضايا الدولية، ولبنان وسوريا والعالم العربي.. وأرمينيا والقضايا الأرمنية لدى بلدان

الاغتراب، كما تناولنا الأراضي الأرمنية المحتلة، وأرمينيا الغربية المحتلة ومصيرها.

حول الموضوع الأخير تحدث الرفيق ميكويان وقال: «إن الأرض لا تسترد إلا بالقوة. وعظمة الاتحاد السوڤياتي هي أيضاً، عظمة أرمينيا السوڤياتية». في نهاية لقائنا قدم لي الجزء الأول من كتاب مذكراته موقعاً باسمه. وتتضمن المرحلة الأولى حتى نهاية عام 1920 عام انتصار النظام السوڤياتي في أذربيجان، وكان يعدّ الجزء الثاني من مذكراته. إلّا أن المنيّة وافته، مع الأسف، قبل أن يتمكن من إنجازها.

كنت قد التقيت الرفيق انستاز ميكويان في يريڤان عام 1970، إبان الاحتفالات الخمسينية لأرمينيا السوڤياتية.

جريدة «غانتش»

منذ 21 شباط 1971 بدأ صدور جريدة «غانتش» الأسبوعية الناطقة باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني باللغة الأرمنية، حيث عيّنت رئيساً لتحريرها.

إن إصدار جريدة «غانتش» ملأ فراغاً سياسياً في لبنان وإلى حدٍّ ما في الاغتراب الأرمني، كجريدة شيوعية أرمنية تعالج القضايا السياسية والقضايا الخاصة بالأرمن. كانت «غانتش» تصدر أسبوعياً كعدد ملحق «للنداء»، إذ في هذا الوقت لم تكن توجد وسائل قانونية أخرى لإصدار مثل هذه الجريدة. وهكذا فقد صدرت «غانتش» بفضل إجراءات خاصة. وكان في هيئة تحرير جريدة «غانتش» بشكل رئيسي الرفيق كرنيك عطاريان يشاركه الرفيق بارور يرتسيان، وانضم إلى هيئة التحرير فيما بعد الرفيق الدكتور مارديروس كوشاكجيان، كما شارك بشكل منظم في أعمالها الرفيق أرمين تاريان.

كانت جريدة «غانتش» تنشر بانتظام جميع الوثائق الصادرة عن

الحزب الشيوعي اللبناني وتعنى بصورة خاصة بإبراز نشاطاته. ولقد استمرت «غانتش» في الصدور منتهجة بأمانة خط الشيوعيين منذ البداية: «مع الشعب، من أجل الشعب». وانطلقت الجريدة بصدق، وبنهج متفان من أجل المبادئ الوطنية والسياسية والفكرية والاجتماعية للحزب الشيوعي اللبناني، فعملت لأجل المواطن عربياً كان أم أرمنياً، منطلقة بشكل خلاق من النظرية العلمية للماركسية اللينينية.

ولا شك أن الخط الذي سلكته «غانتش» كان انطلاقاً من مبادئها الشيوعية، محددة موقفها من الفهم الصحيح لجميع القضايا اليومية على الصعيد الوطني والسياسي والفكري والاجتماعي، راسمةً، بالتالي، موقفاً سليماً من التوجهات المستقبلية. وبكلمة أخرى، هذا النهج الصحيح، قد ساهم وساعد على توحيد الجهود وعدم هدر القدرات الوطنية، واستخدام كل القدرات، فقط، من أجل العمل الوطني المجدي لمصلحة الشعب.

وقد واجهت «غانتش»، على أساس قناعاتها هذه، التوجهات المتخطية للواقع والمعتمدة على قفزات متسرعة إلى الأمام وغير المرتكزة على المعطيات الملموسة في مرحلتها المحددة على جميع الصعد. فحتّى الأهداف النزيهة والمحقة تبقى محكومة بالفشل إذا لم تأخذ في الاعتبار كل الظروف الداخلية والخارجية، وعلى أساس دراسة واقعية وموضوعية. إن مواقفنا ومفاهيمنا المحددة للوصول إلى النجاح يجب أن تلتمس الواقع الحقيقي كما هو.

وبقيت «غانتش» دون كلال، على خط مستقيم ومتواصل وقالت الحقيقة بجرأة وحزم، الحقيقة المبنية على المعطيات الموضوعية فقط، خدمة للشعب وللوطن. إن المنطلقات الحقيقية على الصعيد الوطني والسياسي والاجتماعي للشعب الأرمني في لبنان كجزء لا يتجزأ من الأرمن ككل، تخدم في الأساس مصالح لبنان الوطنية والاقتصادية عاملة لأجل تقدمه الاجتماعي، حيث إننا مخلصون ومواطنون شرفاء في هذا

البلد، نعدّ أنفسنا أشقاء للشعب العربي في لبنان. والجريدة واصلت من موقعها حمل لواء رص الصفوف بين الأرمن والعرب من أجل الاستقلال الوطني للبنان وسيادته ووحدته أرضاً وشعباً، ومن أجل تطوره بسلام وديموقراطية، وفي سبيل المساواة بين كل الفئات الاجتماعية، والحفاظ على انتمائه العربي. واستمرت «غانتش» على هذه التوجهات أيضاً بعد13 نيسان 1975 وخلال الحرب الأهلية.

ودون تلكؤ واصلت «غانتش» دفاعها عن المصالح الوطنية والسياسية والفكرية والاجتماعية للأرمن اللبنانيين، وعملت من أجل وحدة صفوفهم الوطنية موجهة لهم لاتخاذ المواقف الوطنية السليمة داخلياً وخارجياً وذات الطابع الأرمني العام، كذلك ذات الطابع الأرمني اللبناني، هذا فضلاً عن القضايا العالمية التي تؤثر في مجتمعنا.

وواصلت الجريدة تحليلها وتفسيرها السليم للأحداث والمجريات السياسية في البلاد، أسبابها وتطورها والآفاق التي ستفضي إليها، والمهمّات الموضوعية أمام شعبنا وقواه الوطنية والتقدمية لمواجهة هذه التطورات. وكشفت خطر مؤامرات إسرائيل وعملائها في الكتائب وغيرها، والتدخل الأميركي لمصالحهم ولمصلحة أهدافهم الأساسية التي تسببت بتدمير البلاد وتهديم اقتصادها وضرب وحدتها الوطنية عن طريق تجزئتها أرضاً وشعباً وإلحاقها بالاحتلال الإسرائيلي ومن ثم الأميركي «والأطلسي»، الأمر الذي يجعل استقلال لبنان وسيادته الوطنية في مهبّ الرياح، ويضرب عرض الحائط بمبدأ السيادة الوطنية للدولة وإمكانية بقائها.

وفي ما عدا ذلك، استمرت «غانتش» كسلاح للأرمن اللبنانيين وفق المنطلقات والتوجهات الصحيحة، التي تخدم اللبنانيين جميعاً بمن فيهم المواطنون الأرمن. وفي الإطار نفسه، كان الأرمن في الاغتراب يطلعون على الأحداث الجارية في لبنان وعلى أسبابها الحقيقية عبر جريدة «غانتش».

وعملت «غانتش» بشكل متواصل من أجل الوحدة الوطنية، ووحدة

الأرمن اللبنانيين صيانة وحماية لاستقلال وطنهم لبنان وسيادته ووحدة أراضيه، ومن أجل تطوره الاقتصادي والاجتماعي والديموقراطي. وعملت أيضاً من أجل التلاحم بين الأرمن في لبنان وتوحّدهم حول الوطن الأم أرمينيا السوفياتية، منطلقة من الحقيقة القائلة إن شعباً غير مرتبط بوطنه الأم غير قادر على أن يتوحد ويتفاعل مع وطنه الثاني حيث يقيم.

وضمن هذا الإطار دأبت «غانتش» على العمل في سبيل علاقات واعتراف متبادل بين لبنان وأرمينيا السوفياتية، وتنميتها لما فيه مصلحة تعزيز الوحدة الأرمنية، ومحبة الأرمن لوطنهم لبنان وتعلّقهم به.

ولقد حرصت الجريدة، في المقدار نفسه، على العمل لإرساء الوحدة الوطنية للأرمن في لبنان من أجل صيانة وجودهم الوطني والحفاظ على استقلاليتهم وتطوير ثقافتهم الوطنية، وحماية مصالحهم الوطنية وصون قضيّتهم الوطنية العليا والعمل في سبيلها ومن أجل ازدهار مؤسساتها الثقافية.

كما ثابرت «غانتش» على بذل قصارى جهدها لأجل توسيع الصداقة بين لبنان والاتحاد السوفياتي وتطويرها وتعزيزها، وهي تخدم، بلا شك، تعزيز استقلال لبنان وسيادته الوطنية والذود عن سلامته وأمنه.

كذلك فقد تابعت «غانتش»، ومن غير كلال، دفاعها عن السلام في العالم وفي لبنان، منددة وكاشفة أهداف سياسة ريغان التي تهدّد المجتمع العالمي بالتدمير النووي وتنذر بخطر نشوب الحرب العالمية الثالثة. هذه السياسة المغامرة، المجرمة وغير المسؤولة إنما هي ناتجة عن اشتداد الأزمة العامة للرأسمالية وللنظام الامبريالي، كما في أميركا كذلك في العالم عموماً، ساعية لتأخير أزمتها العامة ومن ثم للتخلص منها على حساب الشعوب الأخرى، ولوقف عملية التطور التاريخي للعالم والعودة به إلى الوراء.

إنها مطامع وتصورات لا سبيل إلى تحقيقها، لكن عدم التخلي عنها والحرص على إطلاقها وتطويرها إنما يهدد مجتمعنا بأسره، ويهدد عالمنا والإنسانية في وجودها.

في هذا السياق واصلت «غانتش» مساندتها للحركات المدافعة عن السلم في جميع بلدان العالم. وبشكل خاص السياسة الخارجية السلمية للاتحاد السوفياتي كأساس للنضال من أجل انتصار السلام العالمي الذي هو أمنية أمم العالم وشعوبه قاطبة.

كتبت في جريدة «غانتش» عدداً من المقالات الافتتاحية والتعليقات السياسية، ومواضيع نظرية وسياسية بعناوين من مثل: «الطبقية والقومية» و«القومية والأممية»، وحول مواضيع وطنية تاريخية، ومسألة الاستقلال الوطني... ومقالات عديدة توضح وتفسر الرؤية في جميع المجالات.

توقفت «غانتش» عن الصدور نهائياً في 28 آب 1983 بسبب صدورها بشكل مستقل عن جريدة «النداء». وكانت قد صدرت دون انقطاع إبان الحرب الأهلية وخلال أعنف المعارك والقصف على بيروت الغربية من قِبل القوات الغازية الإسرائيلية، وأثناء فترة الحصار، وهي لم تنقطع قطّ عن الصدور رغم ضيق فترات (بل لحظات!) وقف إطلاق النار أو الهدوء النسبي، على الرغم من القصف الجهنمي المستمر، الجويّ والبري والبحري.

وهذه المرة أيضاً اتخذت ترتيبات من قِبل الحزب لاستبدال «غانتش» بجريدة تصدر بصورة مستقلة، باسم «أسكايين مشاغويت»، (الثقافة الوطنية)، وذلك وفقاً للخط السياسي نفسه والتوجّه نفسه، على أن تبقى هيئة التحرير عينها، فيكون لدينا جريدة أرمنية أسبوعية قائمة بذاتها.

ولقد أتيح لنا قبل ذلك، في كتابات ومواضيع متعددة على صفحات «غانتش»، أن نوضح الأفكار والتحديدات الأساسية والمنهجية ونردّ على الكثير من التساؤلات المطروحة آنذاك... والمطروحة اليوم!.

كلمتنا على صفحات «غانتش»

النضال الطبقي والأمة... وقضيتنا القومية والأممية

على الرغم من كثرة مروّجي نظريات الرأسمالية، على اختلاف ألوانهم، وإصرارهم على التطور غير العلمي للمجتمع، ومحدوديّة نظريتهم إزاء قضايا المجتمع والأمة، فإن الصراع الطبقي لا يتجاهل الأمة ولا ينفيها ولا يقلل من أهميتها.

إن السؤال يطرح: في أيّ اتجاه ستوجّه أعمال الأمة، ومن قبل أية طبقة؟ أمِن قبل طبقة أقلية مستثمرة منها، أم من قبل قيادة الأكثرية العظمى، العاملة، من الشعب؟ وأيّ من هذين التوجهين وأية طبقة من هاتين الفئتين هي حقاً وطنية وديموقراطية؟

... إن المجتمعات القائمة على الصراع الطبقي وحتى ضمن كل أمة بكل مراحلها التاريخية، يكون فيها الصراع الطبقي القوة المحركة لتطورها. وفي هذا الصراع فإن الطبقة العاملة وكل من يعمل بيده وفكره هم، بكلمة وحدة، أمة حقاً؛ وبإمكانهم أن ينتصروا ويكونوا أمة على مستوى عال ويقتربوا من قضاياهم، من منطلقاتهم الطبقية الخاصة. هذا هو المفهوم الطبقي الصحيح.

(«غانتش»، 12 حزيران 1971).

القومية والأممية

«(...) إن هذا الموضوع مترابط جدلياً مع القضية الوطنية، حيث إن القومي الحقيقي والأممي الحقيقي هو الشيوعية في منطلقاتها وفي حركتها وفي تنظيماتها في العالم كله، وفي كل بلد على حدة، ولدى أية قومية وأي شعب».

الأممية والوطنية

«(...) الأممية الحقيقية والوطنية الحقيقية غير منفصلتين. لا يوجد تناقض بينهما مطلقاً. بل على نقيض ذلك، فلا يمكن أن توجد أممية حقيقية دون وطنية حقيقية. وكذلك لا يمكن تصور وطنية حقيقية دون أممية.

وفي الحقيقة، يمكن القول إن الأمميّة تفقد مبرّر وجودها وحركتها ما لم تكن مستندة أساساً إلى التطور التاريخي لنشوء القومية ووجودها الواقعي. والقومية لا يمكن أن تتحرر حقاً، وأن تحصل على أمنها وتطور اقتصادها وثقافتها وازدهارها دون أن تشق طريقها مستفيدة من الإنجازات العالمية.

إن طريق الأممية تقود الأمة للوصول إلى أعلى مستويات التطور الحياتي على جميع الصعد، ويوفّر لها مكاناً مرموقاً ضمن سلَّم القيم على النطاق الدولي دون أن تنسلخ من جذورها الوطنية، بل هي تعزز هذه الجذور، أكثر فأكثر، على أسس التأثر المتبادل فتزداد الأمة غنى».

الشيوعية هي البوصلة للتقدم..

«(...) إن الأممية التي نتبناها هي الشيوعية.

الشيوعية هي فلسفة وعلم وحركة وتنظيم حزبي. الفلسفة الشيوعية تسمّى المادية الديالكتيكية: حيث إنها ترشدنا وفقاً لآخر المنجزات والمعطيات العلمية، من خلال الحقيقة الأكثر صحة ودقَّة، إلى معرفة الطبيعة ونشوئها وعبر مراحل تطورها الدائم، حيث إن الكائن الإنساني هو جزء من الطبيعة.

إن الشيوعية هي أيضاً اقتصاد سياسي، يوضح لنا ويزودنا بقوانين التطور الاقتصادي للحياة، ودور هذه القوانين في التغيير وانتقال المجتمعات من علاقة أجتماعية معيّنة إلى علاقة أجتماعية أخرى

والشيوعية هي علم فلسفة التاريخ، أي المادية التاريخية أو المعرفة المادية للتاريخ، حيث ترشدنا إلى قوانين وأسس نشوء وتطور التاريخ.

«إن الشيوعية هي الطريق العلمي لمعرفة الطبيعة وظاهرتها» ـ هكذا أكد لينين العظيم في عام 1920.

إن الشيوعية كعلم هي نتيجة ثمرة الحضارات الإنسانية وإنجازات وإبداع جميع الأمم والشعوب.

والشيوعية ملك للإنسانية كلها، ولكل أمة ولكل شعب، كما هو حقل العلم في إطاره المحدد من طب وعلم فلك، وعلوم طبيعية، وهندسية، وكيمياء، وما إلى ذلك. الشيوعية، كعلم، هي البوصلة للتقدم، ولا بديل عنها لكل الإنسانية كما لكل أمة ولكل شعب من أجل تحقيق أهدافهم وتقدمهم في جميع الحقب التاريخية، وفي المراحل المعقدة بين صعود وانحدار.

وبكلمة أكثر تبسطاً، فالشيوعية، كعلم، ضرورة حياتية للإنسانية جمعاء، ولكل أمة ولكل شعب من أجل أن تعرفهم بشكل أدقّ إلى الماضي والحاضر وتحديد الهدف المستقبلي بدقة، وخطواتهم المقبلة ومراحل تنفيذها بنجاح من أجل التقدم نحو الأفضل والأكثر تكاملاً.

الشيوعية، كعلم، لا تهرم ولا تفقد قوتها بمرور الزمن لأنها مرتكزة على الأسس الديالكتيكية، التي هي في حال تجدد دائم، ومكملة ذاتها بالتجارب والنجاحات الجديدة التي يكتشفها العلم والحياة.

والحقيقة الملموسة أن الشيوعية منذ نشوئها قبل 125 سنة وحتى اليوم، مرّت بتطورات وتغيرات تاريخية كبيرة. هذه التطورات والتغيرات جرت ضمن إطار النظرة الشيوعية إلى المستقبل».

الحركة الشيوعية مكملة لمراحل التطور التاريخي على أسس علمية

في المجتمعات الطبقية، السلطة التي في قبضة الطبقة المستثمرة تقف

وتواجه بشكل دائم عملية التطور التاريخي وتخلق الأزمات، وتسبب للإنسانية أحداثاً مفجعة كالحروب، حتى إنها تدمر المقومات الاجتماعية إذا كانت الطبقة المستثمرة والجماهير الشعبية غير مؤهلة ولا يمكنها قلب نظام الطبقة المستثمرة وفرض نظام المستثمرين، كما حدث في روما القديمة وفي بلاد الأشوريين والممالك العربية القديمة.

تسير الحركة الشيوعية على الأسس العلمية لتطور المجتمع، بناء على معرفتها واستنتاجاتها العلمية للماضي والحاضر وتطرح أسس التوجهات المستقبلية.

إن الحركة الشيوعية هي أيضاً، ضمن كل أمة وكل شعب، مكمّل تاريخي لتطور كل منهما، وأيضاً على أسس علمية في إطار معرفة المعطيات التاريخية لخصائص هذه الأمم والشعوب.

الحركة الشيوعية تسير على أسس قوانين التقدم التاريخي للمجتمع حيث تؤدي إلى إزالة استغلال الإنسان للإنسان. وهي أيضاً أساس لإنهاء اضطهاد الأمم. الحركة الشيوعية مرحلة طبيعية في التطور التاريخي حيث تؤدي إلى وضع حدٍّ نهائي، على صعيد الإنسانية وضمن كل أمة على حدة، لوجود طبقات متناحرة واضطرابات داخلية، وتقيم وحدة متراصة في داخل كل أمة وتطرح أسس الصداقة والأخوة والعمل المشترك المتساوي بين الأمم، وتؤمن سلاماً دائماً للمجتمع البشري بأسره.

إن الحركة الشيوعية مرحلة طبيعية في التطور التاريخي، حيث ترشد الإنسانية والأمم نحو التحرر الحقيقي سياسياً واجتماعياً، ونحو إلغاء الأسباب السياسية والاجتماعية للتفرقة والقهر والتخلف الاقتصادي والثقافي والاجتماعي للإنسانية ككل وفي داخل كل أمة كبيرة كانت أم صغيرة. في الواقع تكون الأمة قد تحررت حقاً، وتتقدم إلى الأمام دون موانع، وتتعزز في الوقت نفسه بانتصار المهمات والتوجهات التي ذكرنا. وإن طريق الانتصار هذه هي طريق الحركة الشيوعية، ولهذه الأسباب فإن

الشيوعية، والحركة الشيوعية هي أممية حقاً وفي الوقت نفسه فهي حقاً وطنية وقوميّة حقيقية.

إن الوطنيين الحقيقيين هم مطالبون، بالأمم التي ينتمون إليها أن تكون أمّتهم محترمة ومحبوبة من قِبل الأمم الأخرى، ومن أجل تقدم وطنهم وازدهاره، والاستفادة المنطقية من تجارب واختراعات الآخرين وإمكانية الحصول على المساعدة والدعم بروح أخوية في الميادين الضرورية.. كل هذا بالإمكان تنفيذه فقط عندما تنظر هذه الأمة بالشعور نفسه نحو الأمم الثانية وهذه هي الوطنية الحقيقية والقومية الحقيقية، المبنيّة على الأسس الأممية الحقيقية. تلك هي الأممية المبنية على الأسس الوطنية الحقيقية والقومية الحقيقية.

إن الموانع الحقيقية الأساسية دون الوصول إلى القومية الحقيقية إنما تأتي من الطبقات المستثمرة الحاكمة في إطار كل أمة وفي إطار الإنسانية كلها على الصعيد العالمي.

ولهذه الأسباب، ومن أجل الوصول إلى القومية الحقيقية، فإن الطريق الوحيد هو الاقتراب فكرياً من المنطلق الطبقي والصراع الطبقي.

ومن هذه المنطلقات فإن الاستيعاب الصحيح لموضوع الصراع الطبقي والاقتراب من المنطلقات الطبقية للقضايا ومن النهج العملي للنضال الطبقي، هو أفضل وسيلة للوطنية والنضال الوطني الحقيقي.

أن لا ترى هذه الحقيقة المطلقة وأن تنكرها وتواجهها، لهو جريمة حقاً، وعلى الأقل فهي تعتبر غباوة في النظرة إلى التطور التاريخي، وعداء للعلم وللقومية الحقيقية.

بعد كل هذه الأدلة الواضحة فالاستنتاج الحقيقي هو أن الوطنيِّين الحقيقيين هم الشيوعيون المتواصلون في الوقت نفسه في أمميتهم».

(«غانتش»، 15 أيلول 1973).

أيّ منطلق حقاً هو المنطلق القومي الصحيح؟

«إن القضية القومية هي من أهم القضايا السياسية والفكرية ويجب التركيز على أهميتها بشكل دائم. إن الحل الصحيح للمسألة القومية يخدم التطور المقبل للإنسانية. أما عدم إعطائها الأهمية وارتكاب أي خطأ حيالها، والنظر إليها من منطلق يساري متطرف، فإنه يخلق صعوبات واضطرابات في تطورها المقبل، وأن حلها على الوجه الصحيح مرتبط بمنطلقات ودراسات موضوعية وعلمية، وبفهمها فهماً صحيحاً.

إن القضية القومية هي قضية حساسة، ولها جذور متشعبة ولها معايير وأوتار مختلفة وكل وتر منها يؤثر بشكل مباشر في سائر الأوتار، ويعطي رد فعل بمقاييس مختلفة حيث يتحول إلى شعور قومي».

الحس القومي والاستفادة منه سلباً أم إيجاباً

«الحس القومي ليس ظاهرة سلبية، فهو مرتبط بشكل لا يمكن فصله عن الواقع المادي. الحس القومي مرتبط بعمق بالأرض، بالتراث، بالتاريخ، اللغة والثقافة. والأمنية الدائمة لهذا الشعب أن يعيش في وطنه بحرية وبسلام. وأن تتأمن له قيادة وفقاً لتوجّه اجتماعي يؤمن له التقدم الدائم والازدهار، وهذه الظاهرة طبيعية.

لقد نشأ الحس القومي وتطور عبر القرون وأوجدَ قوة نفسية جبّارة لدى الأمة .

هذه القوة يمكن أن تخدم لتحقيق أهدافه القومية. كما أنها أيضاً يمكن أن تسبب له الفشل الجدي. ويرتبط هذا الأمر بمفهوم هذا الحس، وبأي توجه تقوده، ومن قبل من يقاد ويوجَّه».

الطبقة المستغلة والحس القومي

«بغية تمتين وتعزيز سيطرتها السياسية والطبقية وتعزيز استثمارها

المتزايد للعمال والفئات الشعبية، تتوجه الطبقة المستثمرة دائماً للاستفادة من الحس القومي لدى الجماهير الشعبية واستغلاله. ويوجهون ويقودون هذا الحس انطلاقاً من مصالحهم الطبقية. ودائماً لتغطية مصالحهم الطبقية يرفعون شعار «المصلحة القومية».

عندما يتبنّى أعداؤنا الفكريون المصالح الطبقية للطبقة المستثمرة ويدافعون عنها، فإنهم، يخدمون بالعمق مصالح هذه الطبقة عندما ينكرون ويتجاهلون وجود طبقات متناحرة داخل القومية. إن هذا الموضوع ليس موضوع نيات. بل هو موضوع التوجّه».

أيّ منطلق هو حقاً المنطلق القومي الصحيح؟

«إن الاعتراف بوجود طبقات متناحرة داخل القومية، وبوجود تناقض مصالح في العمق داخلها، والارتكاز بالتالي على هذه الأسس السياسية لا يعني إنكار القومية والقضايا القومية. فالقضية يجب أن نراها حقيقة كما هي. لا يمكن أن نقترب من القضايا ونتعرف إليها بشكل صحيح ونقدم المقترحات الإيجابية في الوقت الذي نحن منقطعون عن الحقيقة ونركن إلى تحاليل ذاتية».

(«غانتش». 3 آذار 1973).

الأرمن في الواقع اللبناني

«الانقطاع عن المعطيات الحقيقية وعن الواقع الموضوعي والتوجه من منطلق ذاتي سياسياً، هو انقطاع عن الأسس العلمية والموضوعية ومحكوم عليه حتماً بالفشل كما حدث لشعبنا دائماً في التاريخ الماضي.

وبالنسبة إلى الأرمن اللبنانيين، فانسجاماً مع المعطيات الحقيقية والموضوعية نجد أن السياسة المثمرة هي، فقط، تلك التي تتركز على أسس الواقع اللبناني الحقيقي، الواقع الذي نعيش بالارتباط به ونعمل،

آخذين في الاعتبار الأحداث التاريخية التي أثرت في مصير شعبنا. إن أبسط إنسان لا بد أن يرى واقع حياة اللبنانيين الأرمن مرتبطاً، في جميع ثناياه وعلى الصعد كافة، بالوضع الحياتي العام في لبنان، فهو جزء لا يتجزأ من هذا الواقع.

«لقد توجهت حياة الأرمن اللبنانيين، منذ البداية، وهي مستمرة في التوجه بما يزيد في تأقلمها مع التطور الحياتي العام في لبنان.

الحياة اليومية للإنسان الأرمني كانت تربطه وتوحده مع حياة الإنسان العربي. والتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي للشعب العربي في جميع مراحله هو ذاته بالنسبة إلى الأرمن في لبنان.

ولعلّ الشيوعيين الأرمن هم من أوائل الذين أشاروا، منذ اليوم الأول لانطلاقهم في عام 1924، إلى أنْ لا مفر أمام التطوّر التاريخي المقبل، وقد حدّدوا على هذا الأساس منطلقاتهم السياسية دفاعاً عن الحق الوطني للشعب الأرمني في لبنان ومصالحه السياسية والاجتماعية على أساس المعطيات الحقيقية،

«مضرة لأمتنا ليس لها آفاق، أية محاولة تقوم بها لإبعاد الأرمن عن العمل والنضال المشترك مع العرب، حتى لو كنت تتابع قضاياك القومية، كما الواقف على فرع الشجرة ويضرب بالفأس على جذعها، وذلك مهما كانت حجتك إزاء المستقبل».

(«غانتش»، 14 تشرين الأول 1973).

حزب الأرمن الأصيل حقاً

«إنه لفخر لنا، نحن الشيوعيين الأرمن اللبنانيين، أننا أعضاء الحزب الشيوعي اللبناني، أسهمنا بتأسيسه وبانتشاره في البلاد وتحويله إلى قوة لها نفوذ ووزن كبيران على الصعيد الوطني والسياسي والاجتماعي، مقدمين من أجله قسطنا الشريف منذ نشوئه إلى اليوم. وعلى هذا الطريق سقط شهداء لنا.

لقد اهتدينا نحن الشيوعيين الأرمن في لبنان، إلى طريق الحزب الشيوعي اللبناني والانخراط في صفوفه، انطلاقاً من فهمنا للمصالح الحقيقية لشعبنا، الشعب الأرمني، ودفاعاً عن مصالحه القومية والاجتماعية، ومن أجل تقدمه وازدهاره، وسعياً منّا لأجل الوصول إلى نتائج حقيقية. ولم نكن على خطأ.

لم يهمل الحزب الشيوعي مطالبنا القومية. إن طريق النضال المشترك للشعبين الأرمني والعربي ووحدة صفوف القوى الوطنية والتقدمية، هي خط الحزب الشيوعي اللبناني، الطريق الوحيد لتحقيق الانتصار للأرمن وللعرب.

إن الحزب الشيوعي اللبناني بأهدافه النضالية ونهجه السياسي وتوجُّهاته وممارسته في الوقت الذي هو حقاً أممي فهو بالمقدار نفسه قوميّ أصيل للشعبين العربي والأرمني».

(«غانتش»، 25 آب 1973).

التعصب القومي لا يسمح بالوصول إلى خط وطني صحيح

«التعصب القومي لا يسمح بانتهاج خط وطني صحيح حتى لو كان صاحبه ذا نيّة صادقة.

التعصب القومي هو منهج مغلق وذو آفاق ضيقة فلا يمكن من خلاله رؤية الحقيقة كلها. ولا يمكن أن يبنى عليه القرار الصحيح والمنطلق السليم. وهو يؤدِّي إلى إلحاق الضرر والفشل للقومية. بالرغم من ادعاء التشبّث بالقومية والعمل من أجلها».

(«غانتش»، أول أيلول 1973).

ضرورة الدراسة النقدية لتاريخ حركة التحرر الوطني الأرمني

«في المرحلة الجديدة من النضال الوطني، كما في المرحلة القديمة، لم تنقص الشعب الأرمني البطولات والتضحيات والاستشهاد. لقد انطلق من حضن الشعب الأرمني آلاف وآلاف الأبطال الذي أنكروا ذواتهم، تركوا عائلاتهم، وتحولوا إلى فدائيين تسلقوا الجبال واستبسلوا في الشهادة، ولم يلقوا السلاح من أيديهم في مواجهة العدو الغاشم، ذوداً عن كرامة الأرمن وممتلكاتهم ووجودهم وفي سبيل انتزاع حريتهم.

لقد خاض الشعب الأرمني نضالات بطولية. ويؤسفنا أن نؤكد أن النضال المحق للشعب الأرمني والبطولات والتضحيات والخسائر الجسيمة التي كابدها في المعارك غير المتكافئة في نضاله التحرري، قد أفضت إلى نكسة لحركة التحرر الأرمنية، وقد ألحقت بالشعب الأرمني تلك الكارثة الكبيرة التي عاش في كابوسها حتى 29 تشرين الثاني 1920.

«إن من غير المسموح أن تتجاهل عدوك وإمكانياته. وأن تستصغر وتتجاهل السياسة الرهيبة الهادفة إلى ذبح الشعب الأرمني.

وإذا نظرنا إلى المذبحة التي ارتكبت بحقّ شعبنا، ومسبّباتها ودروسها، فهل يسعنا قبول واقع عدم وجود مفرّ ممّا حصل، وبالحجم الذي حدثت فيه هذه المجازر؟

وهل لم ترتكب أخطاء جسيمة أسهمت في الوصول إلى الكارثة، على الصعيد السياسي والتنظيمي والدبلوماسي، من قبل قيادة حركة التحرر الوطني الأرمنية، غير الجديرة على الإطلاق، والمرتبكة في نهجها كما تبيّن فيما بعد؟

«يمكن القول دون شك، إنها قد ارتكبت أخطاء جسيمة سياسياً وتنظيمياً ودبلوماسياً من قبل أولئك غير الجديرين بالتنظيم الثوري.

وبشكل خاص خلال فترة الحكم العثماني «الدستوري»، ممّن عبثوا من موقع قياديّ بمصير الشعب الأرمني .

نعم، هناك ضرورة لإعادة النظر والدراسة العلمية والجادّة لتاريخ حركة التحرر الوطني الأرمني. ويجب أن تكون الحقائق التاريخية أوضح وأكثر ملموسية، من أجل أن تستطيع الحركات السياسية للأرمن الذين هم في الاغتراب انتهاج خط قومي سليم».

(«غانتش»، 17 شباط 1973).

المؤتمر الثالث للحزب

انعقد المؤتمر الثالث للحزب ابتداء من 7 كانون الثاني 1972 إلى العاشر منه، في أكبر فنادق بيروت، في إحدى أكبر قاعات أوتيل كارلتون، في احتفال سياسيّ خيّم عليه جوّ حماسي عارم وكانت النتائج نادرة في أهميّتها.

افتتح المؤتمر الرفيق مصطفى العريس، ثم تكلّم سكرتير اللجنة المركزية الرفيق جورج حاوي محيياً ومرحباً بالضيوف المشاركين في المؤتمر.

جلس على منبر رئاسة الضيوف كل من الرفاق: غينادي سيزوف رئيس لجنة الرقابة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوڤياتي، كمال جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، ريمون غيو من الحزب الشيوعي الفرنسي، يوسف فيصل من الحزب الشيوعي السوري، إبراهيم زكريا من الحزب الشيوعي السوداني، عزيز محمد من الحزب الشيوعي العراقي، لطفي الخولي من مصر، الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك، والأخ كمال ناصر من منظمة التحرير الفلسطينية... وانتخبت هيئة رئاسة المؤتمر من الرفاق نقولا شاوي، جورج حاوي، أرتين مادويان، كريم مروة، مصطفى العريس، فؤاد قازان، وفرجيني الحلو.

وشاركت في المؤتمر وفود الأحزاب الشيوعية والعمالية من قبرص، الهند، بلغاريا، ألمانيا الديموقراطية، المجر، تشيكوسلوفاكيا، بولونيا، يوغوسلافيا، الولايات المتحدة الأميركية، منغوليا، إيطاليا، وحزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا وفي العراق، وجبهة التحرير الوطني الجزائري، وممثلو أحزاب اشتراكية وتقدمية أخرى.

حضر المؤتمر مندوبون من قبل 56 حزباً شيوعياً وعمّالياً ومن حركات التحرر الوطني.

وألقى هؤلاء المندوبون جميعاً كلمات من على منبر المؤتمر. كما تلقى المؤتمر تحيات من 33 حزباً شيوعياً وعمالياً وحركة تحرر وطني، من بينها تحية الحزب الشيوعي التركي والحزب الشيوعي السعودي وتنظيمات وحركات تحررية في البحرين والخليج العربي، وتحية عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي المستشرق جاك كولان، الاختصاصي في شؤون الشرق العربي.

وألقى كلمتي تحية كل من نقيب الصحافة اللبنانية رياض طه ونقيب المحررين ملحم كرم.

وكان من بين الضيوف الحاضرين في المؤتمر سفير الاتحاد السوفياتي سرفار عظيموف وجميع سفراء البلدان الاشتراكية في لبنان.

ولقد حضر المؤتمر حشد سياسي وحكومي ونيابي وحزبي ونقابي وقطاعي، ومن مختلف أوساط الشعب اللبناني، يتقدمه قادة الأحزاب الوطنية والتقدمية ورئيس مجلس الوزراء رشيد كرامي ونائب رئيس مجلس النواب نسيم مجدلاني ورئيس اللجنة الخارجية في مجلس النواب أمين الحافظ، والنواب شفيق الوزان وهاشم الحسيني وفريد جبران وعبداللطيف الزين وجعفر شرف الدين وزاهر الخطيب وعلي الخليل، وقادة نقابيون وأدباء ووجهاء عديدون وممثلو الصحافة المحلية والعالمية.

أما جدول أعمال المؤتمر فكان على الوجه الآتي:

أولاً: تقرير اللجنة المركزية قدمه الأمين العام للجنة المركزية الرفيق نقولا شاوي.

ثانياً: الموضوعات السياسية بعنوان «في سبيل حكم وطني ديموقراطي يفسح في المجال أمام الانتقال إلى الاشتراكية»، قدّمه سكرتير اللجنة المركزية الرفيق كريم مروة.

ثالثاً: تقرير حول مشروع البرنامج الزراعي قدمه الرفي يوسف خطّار الحلو.

رابعاً: انتخاب اللجنة المركزية.

الوثائق التي طرحت في المؤتمر جاءت حصيلة نقاش استمر أشهراً في اجتماعات جميع الهيئات الحزبية، التي انتخب أثناءها المندوبون إلى المؤتمر.

بعد أن أنهى الرفيق نقولا شاوي تقريره، ألقى الرفيق غينادي سيزوف كلمة أبلغ فيها تحية الحزب الشيوعي السوفياتي للمؤتمر. ثم ألقى كمال جنبلاط كلمة تحية.

وأُلقيت خلال المؤتمر كلمات من قِبل الرفاق:

1 ـ سكرتير اللجنة المركزية للحزب الرفيق نديم عبد الصمد حول الوضع العربي وموقف الحزب، بعنوان: «في سبيل وحدة القوى الوطنية والتقدمية العربية المعادية للاستعمار».

2 ـ كلمة سكرتير اللجنة المركزية الرفيق جورج حاوي عن الوضع السياسي الداخلي في لبنان وموقف الحزب من الانتخابات النيابية المقبلة.

3 ـ كلمة الرفيق جورج بطل حول القضايا الأساسية في العالم، بعنوان «في سبيل وحدة جميع القوى المعادلة للامبريالية في العالم».

4 ـ كلمة الرفيق جورج هبر حول القضايا العمالية بعنوان: «وحدة الطبقة العاملة اللبنانية شرط أساسي للدفاع عن مصالحها».

وألقيتُ من جانبي كلمة محيياً المؤتمر والقيادة الشابة الناشئة للحزب، ومن ثم ألقى الرفيق بارور يرتسيان كلمة بعنوان «في سبيل تعزيز التعاون والوحدة بين الجماهير الشعبية الأرمنية والعربية».

وألقى الرفيق فؤاد قازان كلمة حيّا فيها المؤتمر. كما تحدَّث كلّ من الرفاق: موريس نهرا باسم مندوبي منظمة جبل لبنان، رفيق سمهون باسم منظمة بيروت، محمود الواوي باسم منظمة طرابلس والشمال، علي العبد باسم منظمة الجنوب، عدنان الدغيدي باسم منظمة البقاع، الدكتور حسين مروة باسم المثقفين، وغيرهم.

ومن ثم ألقت شريكة حياة قائد حزبنا الشهيد فرج اللّه الحلو الرفيقة فرجيني الحلو كلمة تحية للمؤتمر أحدثت جواً حماسياً عاطفياً لدى كل المؤتمرين، وعندئذ ارتجل الرفيق نقولا شاوي الكلمة التالية:

«نعاهدك يا فرج الله اننا سنحافظ على حزبك، حزبنا، كحدقات عيوننا. نعاهدك بأننا سنواصل بناءه على صخور لبنان، وأن نشدّ إليه المزيد من جماهير الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين والنساء والطلاب... المزيد من جماهير شعبنا الصامدة».

ثم جرى انتخاب اللجنة المركزية وانتخب بالإجماع الرفاق: نقولا شاوي، جورج حاوي، أرتين مادويان، نديم عبد الصمد، خليل الدبس، يوسف خطار الحلو، مصطفى العريس، جورج بطل، إلياس البواري، عدنان دغيدي، رفيق سمهون، سهيل طويلة، علي العبد، ألبير فرحات، حسين مروة، كريم مروة، أحمد المير، موريس نهرا، جورج هبر، محمود الواوي، رشيد يوسف، خليل نعوس، كيفورك ديرنيكوغوصيان وغيرهم.

وانتخبت اللجنة المركزية بالإجماع الرفيق نقولا شاوي أميناً عاماً لها.

وانتخب المكتب السياسي للحزب من الرفاق: نقولا شاوي، جورج حاوي، نديم عبد الصمد، كريم مروة، خليل الدبس، أرتين مادويان، يوسف خطار الحلو، رفيق سمهون، أحمد المير، الياس البواري، محمود الواوي، جورج هبر، علي العبد وغيرهم .

وانتخبت سكرتارية الحزب من الرفاق: جورج حاوي، نديم عبدالصمد، كريم مروه، خليل الدبس.

ثم أعلنت المقررات التي اتخذت بالإجماع في المؤتمر:

1 ـ قرار حول تقرير اللجنة المركزية.

2 ـ قرار حول الموضوعات السياسية.

3 ـ قرار حول مشروع البرنامج الزراعي.

4 ـ البيان السياسي العام.

5 ـ قرار حول فلسطين.

6 ـ قرار حول برنامج عمل مشترك للقوى التقدمية في لبنان.

7 ـ قرار حول الاحتفال بالذكرى الخمسين للحزب وإقامة تمثال للرفيق فرج اللّه الحلو.

وقبل انتهاء أعمال المؤتمر صدر بيان عن الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية العربية الملتقية في المؤتمر. موقع من الأحزاب والتنظيمات الآتية:

ـ الحزب التقدمي الاشتراكي.

ـ الحزب الشيوعي اللبناني.

ـ حزب البعث العربي الاشتراكي.

ـ حزب العمل الاشتراكي العربي.

ـ القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي.

ـ الاتحاد الاشتراكي العربي في مصر.

ـ الحزب الشيوعي العراقي.

ـ الحزب الشيوعي الأردني.

ـ الحزب الشيوعي السوري.

ـ حزب التحرر والاشتراكية في المغرب.

ـ حزب الطليعة الاشتراكية الجزائري.

ـ الاتحاد العام لعمال فلسطين.

ـ الاتحاد العام لنقابات عمال الأردن.

ـ منظمة السلفي للشبيبة اليمنية الديموقراطية.

ـ منظمة فتح الفلسطينية.
ـ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.
ـ الجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين.
ـ الجبهة العربية لتحرير فلسطين.
ـ قوات الأنصار.
ـ وحدة القوى الناصرية في لبنان.
ـ الحزب الديموقراطي الكردستاني.
ـ اتحاد القوى الشعبية في المغرب.

وأنهى المؤتمر أعماله في جو حماسي لا مثيل له. ولقد شكّل المؤتمر الثالث للحزب خطوة تاريخيّة جديدة في تاريخه.

أنهى المؤتمر الثالث للحزب أعماله بنجاح كبير مرتكزاً على البرنامج السياسي والمقررات والتوجّهات التي أقرت في المؤتمر الثاني.

وأظهر المؤتمر الثالث الأهمية الكبرى لقدرة حزبنا على الصعيد اللبناني وعلى الصعيد العربي العام. وتعززت وتطورت قواعده التنظيمية بشكل واسع في كل أنحاء البلاد في صفوف العمال والفلاحين والطلاب والمثقفين وبين الفئات الشعبية الواسعة، وقد لعب الدور الأساسي في تحقيق هذا النجاح الكادرات القيادية الشابة للحزب.

كان المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي اللبناني أبرز الأحداث السياسية التي عاشها لبنان في تلك الفترة، واحتل على المستوى العربي مكاناً بارزاً من اهتمام الجماهير والقوى التقدمية. وحظي في المجال الدولي أيضاً بقسط وافر من الاهتمام، حيث إنه:

ـ أول مؤتمر في نوعه على صعيد الحركة الشيوعية والتقدمية في لبنان والعالم العربي.

ـ مؤتمر لحزب الطبقة العاملة اللبنانية، الحزب الذي يحتل مركزاً أساسياً وسط قوى التقدم في لبنان، ويشكل فصيلة من الفصائل الطليعية لحركة التحرر الوطني للشعوب العربية وجزءاً من الحركة الشيوعية والثورية العالمية.

ـ يعقد في وقت يشتد فيه الصراع على الصعيدين الوطني والاجتماعي في الداخل. ويبلغ احتدام المعركة ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية على الصعيد العربي ذروته، ويشهد العالم اتساعاً وغنى لا سابق لهما في نضال قوى الاشتراكية والتحرر الوطني والسلم ضد قوى الامبريالية والاستعمار والعدوان. وقد جاء يعالج جملة من المواضيع التي ترتبط مباشرة بمعيشة وحياة العمال والفلاحين والمستخدمين والمثقفين والطلاب والشباب والنساء وسائر الكادحين في لبنان، وبنضال كل التقدميين الوطنيين في لبنان والعالم العربي. وقد حظيت طروحاته باهتمام بالغ في أوساط الحركة الثورية العالمية.

ـ يطرح أسلوباً جديداً من العمل في حياة الحركة التقدمية اللبنانية والعربية، أسلوب النقاش الديموقراطي أمام الجماهير وما بين القوى التقدمية التي تمثلت فيه أوسع تمثيل، فيتحول إلى منبرٍ لها ويشكل تظاهرة رائعة توحّد نضالها.

ـ النجاحات الكبيرة التي سجلها المؤتمر على الصعيد اللبناني، حيث برز الحزب الشيوعي كقوة طليعية وثيقة الارتباط بالطبقة العاملة والفلاحين والجماهير الشعبية الأخرى، تعالج قضاياها، وتناضل من أجل مطالبها ومطامحها الاقتصادية والاجتماعية والوطنية.

ـ المؤتمر الثالث للحزب درس ووضع حلولاً للعديد من المسائل الوطنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية المطروحة.

ـ لقد حقق المؤتمر نجاحاً كبيراً على الصعيد العربي. ففي ظلّ البلبلة واتساع التناقض ما بين القوى الوطنية والتقدمية، جاء مؤتمر حزبنا من حيث أبحاثه ومقرراته، ومن حيث أوسع مشاركة عربية تقدمية في أعماله، ليشكّل خطوة تاريخية بالنسبة إلى الجماهير العربية، للحركة الشيوعية العربية، وللقوى التقدمية العربية الأخرى. لقد وجه ضربة قوية لمخططات الاستعمار والصهيونية والرجعية، وساعد على زيادة التمايز

داخل حركة التحرر الوطني العربية باتجاه فضح وعزل أجنحتها اليمينيّة والمحافظة، وخصوصاً دعاة محاربة الشيوعية.

ـ لعب المؤتمر دوراً مهماً في تعزيز نضال الشعوب العربية، بما فيها الشعب العربي الفلسطيني في المعركة المشتركة لتصفية الاحتلال الإسرائيلي، ولإحباط العدوان الاستعماري الصهيوني وصيانة مكتسبات حركة التحرر الوطني للشعوب العربية وتطويرها، وضمان الحقوق القومية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني .

ـ لقد رفع المؤتمر عالياً راية الأممية البروليتارية ووحدة الحركة الثورية العالمية والحركة الشيوعية العالمية.

ـ كان المؤتمر منبراً للأحزاب الشيوعية العربية وللقوى التقدمية العربية على اختلافها، وأتاح إمكانية إظهار الشيوعيين والوطنيين والتقدميّين الآخرين في لبنان والعالم العربي بالتمسك بالصداقة مع الاتحاد السوڤياتي العظيم .

هكذا كان المؤتمر التاريخي الثالث للحزب الشيوعي اللبناني.

المؤتمر الثالث والأرمن في لبنان

أسجل هنا ما جاء في الموضوعات السياسية التي أقرت في المؤتمر الثالث للحزب بالنسبة إلى الأرمن في لنبان، حيث أنّني كتبت مسودة هذه الموضوعات بتكليف من اللجنة المركزية:

«إن الحزب الشيوعي اللبناني سيناضل، كما ناضل دائماً، من أجل مساهمة أكبر لهذه الأقليات وأكثرها تأثيراً، وهم أبناء الشعب الأرمني الكادح النشيط (170 ألفاً حسب التقديرات)، وكذلك مساهمة الأكراد والسريان والأشوريين والكلدان وسائر الأقليات، في مجمل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في لبنان، ومن أجل الدفاع عن حقوقهم. كما سيعمل كل جهده ليساعد على ازدهار ثقافتهم

وتقاليدهم الوطنية، اقتناعاً منه أن ذلك من شأنه أيضاً أن يساهم مساهمة بارزة في تطور وتقدم شعب لبنان كله. والشيوعيون اللبنانيون يثمّنون عالياً ما قدّمه أبناء الشعب الأرمني ومناضلوه من إسهام كبير في نضال الشعب اللبناني في سبيل الاستقلال والتحرر والتقدم والاشتراكية (وقد استشهد منهم العشرات في صفوف الحزب الشيوعي)، وما حملوه معهم إلى لبنان من تراث وخبرة ونشاط شعبهم الذي بنى بنجاح دولته الاشتراكية المزدهرة أرمينيا السوفياتية. كما يقدر الشيوعيون اللبنانيون عالي التقدير تقاليد وتراث سائر الأقليات من أكراد وسريان وغيرهم».

تقليدي وساماً بمناسبة بلوغي السبعين

في 9 نيسان 1974 جاء في جريدة «البرافدا» الرسمية الصادرة في موسكو مرسوم صادر عن رئاسة مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي:

«تكريماً للخدمات التي قدمها للحركة الشيوعية، ومشاركته في النضال الوطني التحرري بشكل فعال ضد الامبريالية، والخدمات التي قدّمها والتي تكرست من أجل تعزيز الصداقة بين الجمهورية اللبنانية وشعوب الاتحاد السوفياتي، وبمناسبة بلوغه السبعين من العمر، يمنح عضو اللجنة المركزية والمكتب السياسي في الحزب الشيوعي اللبناني الرفيق أرتين مادويان وسام الصداقة بين الشعوب».

ونشرت «البرافدا» في العدد نفسه، وإلى جانب المرسوم الصادر عن مجلس السوفيات الأعلى، مقالاً عن سيرة حياتي جاء فيه:

«أرتين مادويان هو أحد مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني الذي نشأ في تشرين الأول عام 1924، وانتخب عام 1925 عضواً في أول لجنة مركزية للحزب. عام 1943 انتخب عضواً في أول مكتب سياسي للجنة المركزية وشارك بشكل فعّال في بناء المنظمات الديموقراطية والاجتماعية

وفي تأسيس النقابات وانتخب عضواً في هيئاتها التنفيذية. كما شارك كمندوب في المؤتمر الخامس للنقابات العمالية العالمية المنعقد في موسكو عام 1930 (بروف انترناسيونال).

وبسبب مشاركته النشيطة في الحركات المعادية للامبريالية ونشاطه الشيوعي تعرض أرتين مادويان في كثير من الأحيان لملاحقات السلطات الكولونيالية (قوات الاحتلال)، ومن قبل قوى الرجعية اللبنانية. وعام 1960 تعرض لمحاولة اغتيال بتدبير من أوساط رجعية وأصيب بجراح.

أرتين مادويان صديق كبير للاتحاد السوفياتي، زار الاتحاد السوفياتي مراراً عديدة وقام بنشاطات كبيرة لدى الرأي العام اللبناني من أجل تعزيز الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية والتعاون فيما بين البلدين».

وبهذه المناسبة تلقيتُ برقيات تهنئة من الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا الرفيق أنطون كوتشونيان، ومن رئيس السوفيات الأعلى في أرمينيا الرفيق ناكوش هاروتيونيان، ومن رئيس اللجنة الثقافية مع الأرمن في الاغتراب الرفيق وارتكس هامازاسبيان.وبهذه المناسبة أيضاً قُلّدتُ «وسام غيورغي ديمتروف الذهبي» من قبل الدولة البلغاريّة.

العيد الخمسون للحزب الشيوعي اللبناني

السبت 19 تشرين الأول 1974 بدأت احتفالات الذكرى الخمسين للحزب الشيوعي اللبناني واستمرت حتى مساء 27 تشرين الأول. كان أسبوعاً استثنائياً حافلاً، فريداً في نوعه وفي ظلّ حالة غليان لا مثيل لها في تاريخ لبنان وقواه السياسية. كان أسبوعاً زاخراً بالمهرجانات الشعبية واللقاءات ومعارض الصور والبرامج الثقافية والفنية...

بدأت احتفالات الذكرى الخمسين للحزب الشيوعي اللبناني في الساعة الخامسة من مساء السبت 19 تشرين الأول 1974 في المركز

الكبير «عروس البحر»، وقد ضاق هذا المكان بالذين جاؤوا زرافات ووحداناً يشاركون في إحياء احتفالات حزبهم، حزب شعبهم.

وكان وفد الحزب الشيوعي السوفياتي للمشاركة في افتتاح الاحتفالات برئاسة عضو اللجنة المركزية ايفان يوناك. كما شارك في الافتتاح سفراء البلدان الاشتراكية وعدد كبير من ممثلي البلدان العربية وقادة الثورة الفلسطينية وممثلو حركات التحرر العربية والأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية العربية، وحشد من الشخصيات السياسية والاجتماعية والنواب وممثلي الصحافة والقيادات النقابية والفنانين والمثقفين وألوف من الرفاق والأصدقاء وأبناء الشعب.

افتتح الاحتفال بالنشيد الوطني والنشيد الأممي ونشيد الذكرى الخمسين للحزب. وأعلن أمين عام الحزب الرفيق نقولا شاوي بدء الاحتفالات مرحباً بجميع المشاركين في الاحتفال. وزار أقسام الاحتفالات والنشاطات ومعرض الصور الذي يدل على مراحل في تاريخ نضال الحزب.

وافتتح في مساء اليوم نفسه الساعة السابعة، في أوتيل الكارلتون معرض صور لمئات الفنانين اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين والمصريين والعراقيين البارزين.

إزاحة الستار عن تمثال فرج اللّه الحلو

صباح الأحد الواقع فيه 20 تشرين الأول 1974 جرى الاحتفال بإزاحة الستار عن تمثال الشهيد فرج اللّه الحلو في مسقط رأسه بلدة حصرايل (بلاد جبيل)، بحضور أكثر من عشرين ألف شخص توافدوا من شتّى أنحاء لبنان. كان التمثال يجسد شخصية فرج اللّه الحلو مع عامل وفلاح يحملان منجلاً ومطرقة، بالحجم الطبيعي.

وقد شاركت في المهرجان فئات من جميع أوساط الشعب اللبناني

والأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية وممثلي الثورة الفلسطينية، وأيضاً الوفد السوڤياتي برئاسة الرفيق ايفان يوناك، والعديد من الشخصيات السياسية ورئيس الكتلة الوطنية ريمون إده والوزير روحانا صقر وقيادات الحركة النقابية.

بعد إزاحة الستار عن التمثال، توالى على إلقاء الكلمات الرفيق يوسف خطار الحلو، الرفيق نقولا شاوي، الرفيق إيفان يوناك، النائب فريد جبران، الوزير السابق إميل بيطار، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية شفيق الحوت، وعن عائلة الشهيد الرفيقة فرجيني الحلو.

من برنامج الاحتفالات

في إطار برنامج الاحتفالات بالذكرى كان يعرض يومياً في عروس البحر وفي قاعة سينما ستاركو الفسيحة، برامج فنيّة بمشاركة فرقة الرقص والغناء السوڤياتية «فورونيج» والفرقة المجرية «رايكو» والفرقة الشعبية العراقية، وفرق «حب مصر» الثنائية، وفنانين من أرمينيا السوڤياتية جاؤوا خصوصاً للمشاركة في هذه الاحتفالات: روبين ماتوسيان، روبين أهارونيان، الفينا صاغاريان، روبين آميربيغيان، ومن الفنانين اللبنانيين نصري شمس الدين وفيلمون وهبي وزياد الرحباني وشوشو وعدد كبير من الفِرق الفنية والعاملين في الفن والثقافة والإبداع.

مشاركة أرمينيا السوڤياتية في احتفالات الذكرى الخمسين

للمشاركة في احتفالات الذكرى الخمسين للحزب الشيوعي اللبناني حضر الفنانون الأرمن بناء على الإجراءات الخاصة للحزب الشيوعي في أرمينيا، وقد رحب الشعب اللبناني من عرب وأرمن ترحيباً حاراً برئيس الوفد الفني، الدكتور البروفسور الرفيق هراتش سيمونيان، وبعازف الكمان العالمي روبين أهارونيان والمغنّي المعروف روبين ماتسوسيان

والمغنية الاستعراضية الشابة الفينا ماغاريان وعازف البيانو الشهير روبين آميربيغيان...

تكريماً لقدامى الشيوعيّين الأرمن

يوم الخميس 17 تشرين الأول 1974 أقيم في كازينو «لوس أمورس» على أوتوستراد انطلياس احتفال تكريمي لقدامى الشيوعيين الأرمن بمشاركة الرفاق نقولا شاوي، أرتين مادويان، وكرنيك عطاريان وبارور يرتسيان وبحضور زهاء 400 شخص من الرفاق والرفيقات الأرمن.

افتتح الاحتفال الرفيق كيفورك ديرنيكوغوصيان، ثم تكلّم الرفيق بوغوص توتونجيان باسم المنظمات الأرمنية والرفيق برج ديربوغوصيان باسم اللجنة المنطقية.

بعد إلقاء الكلمات تولى الأمين العام للحزب الرفيق نقولا شاوي تقليد أوسمة لـ125 رفيقاً ورفيقة من الأرمن في لبنان.

وألقى الأمين العام كلمة مؤثرة حيث قوّم عالياً دور الرفاق القدامى من الأرمن في كل الظروف، موجهاً الأجيال الجديدة في الحزب لمتابعة هذا الطريق.

وأختتم الاحتفال بحفلة كوكتيل وانتهى في جو وديّ، حميم ومثاليّ.

تقليدي وسام «الصداقة بين الشعوب»

وأقيم احتفال كبير يوم السبت 26 تشرين الأول 1974 في عروس البحر، بمناسبة الذكرى الـ50 لتأسيس الحزب وعلى شرف الرفاق القدامى للحزب، وخلال هذا الاحتفال علّق رئيس وفد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي الرفيق إيفان يوناك وسام «الصداقة بين الشعوب» على صدر الرفيق أرتين مادويان بحضور نحو خمسة آلاف

شخص، وبحضور الوفود الضيفة والقادة السياسيّين وشخصيّات اجتماعية وممثلي الصحافة.

تحدث في الاحتفال الأمين العام للجنة المركزية للحزب الرفيق نقولا شاوي، فقوّم تقويماً عالياً دور الرعيل الأول من الشيوعيين اللبنانيين في تنظيم وازدهار الحزب. ثم تكلم الرفيق إيفان يوناك، ومما جاء في كلمته:

«الرفيق أرتين مادويان هو أحد مؤسسي الحزب وأحد رافعي رايته وترائه عالياً. والشعوب السوفياتية تعرفه كمناضل صلب مدافع عن حقوق الشغيلة وعن استقلال لبنان وتقدمه الاجتماعي.

«إن سيرة حياة أرتين مادويان مرتبطة بنضال الحزب منذ خمسين سنة. شارك منذ العام 1924 في حركات الشبيبة المعادية للاحتلال الأجنبي، وخلال الحرب العالمية الثانية وخلال فترة الممارسة العلنية للحزب كان ثابتاً في موقفه الوطني اللبناني، وأمميّاً لا يتزعزع. ناضل دائماً ضد الانتهازية في مسيرة الشيوعيين اللبنانيين ومن أجل وحدة الحركة الشيوعية العالمية.

«بتكريم الرفيق أرتين مادويان نكرّم كل الشيوعيين اللبنانيين والحركة الوطنية اللبنانية.

«باسم الاتحاد السوفياتي وباسم الرفيق ليونيد بريجنيف نهنئ الرفيق أرتين مادويان متمنّين له الصحة والعافية، وأن يبق قدوة منيرة للشعب اللبناني وللشغيلة».

ثم أخذتُ الكلام معرباً عن شكري للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وللرفيق ليونيد بريجنيف ولرئاسة مجلس السوفيات الأعلى لمنحي هذا الوسام. قلت في كلمتي:

«بفخر وبشرف سأحمل هذا الوسام. هذا الوسام الذي هو قبل كل شيء للحزب الشيوعي اللبناني حيث ناضلت في صفوفه وتحت لوائه لمدة 50 سنة متواصلة. وبكل تواضع أقول إنني كنت أحد المكافحين فيه

وتثقفت وتبلورت تنظيمياً في صفوف الحزب الشيوعي اللبناني. هذا الشرف يخص في الوقت نفسه الرفاق العرب والأرمن، الأحياء منهم والمتوفّين، الذين ناضلت وإيّاهم من موقع واحد. وأنا مدين بهذا الشرف الذي قدم لي من جانب ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى لإشعاع مبادئ لينين العظيم، بوَهج هذا الإشعاع تعرفت لأول مرة على الحقيقة وتعرّفت على طريق النضال العظيم من أجل الشيوعية، الطريق الشريف باتجاه النضال الأرمني والعربي الموحد المعادي للامبريالية، ومن أجل الاستقلال الوطني والتحرر ومن أجل انتصار الاشتراكية في لبنان».

وأختم الاحتفال بكلمة الشيوعيين القدماء ألقاها الرفيق الياس البواري.

الاحتفالات الختامِية

لقد جاءت احتفالات العيد الخمسين لتأسيس الحزب التي استمرت أكثر من عشرة أيام، لتكرّس مدى الاحترام والتأثير اللذين يحظى بهما الحزب الشيوعي اللبناني لدى الجماهير الشعبية بين العمال والشغيلة والمثقفين وبشكل خاص بين الشباب. عشرات الألوف شاركوا في هذه الاحتفالات معبرين عن إيمانهم العميق وارتباطهم بحزبهم. عشرات الآلاف أعربوا بحزم عن مواصلتهم النضال على الطريق الذي اختطّه الحزب منذ خمسين سنة.

بهذه الأجواء جرى الاحتفال الختامي نهار الأحد في 27 تشرين الأول، الساعة العاشرة في الحديقة الكبيرة «العروس البحر»، افتتح هذا الاحتفال الرفيق جورج حاوي، كما تكلم فيه كل من الأستاذ كمال جنبلاط، الرفيق إيفان يوناك، الرفيق يوسف إبراهيم يزبك، نايف حواتمة من قبل الثورة الفلسطينية، والرفيق نقولا شاوي.

بعد أن قوّم الاحتفالات الخمسينية وأعرب عن شكره لجميع الذين شاركوا فيها أو ساهموا في إنجاحها، تابع الرفيق جورج حاوي قائلاً:

«في حزبنا نحن ننطلق من تلك الحقيقة، إن أي حزب وأي قوة تقدمية لا يمكن أن تأخذ من قوة وجماهيرية أي حزب آخر، بل هي قوة لكل حزب أو قوة تقدمية أخرى، قوة لحركة التغيير. حزبنا يعمل من أجل التغيير الجذري ومن أجل هذا يتوجه بالنداء لكل التقدميين والوطنيين والقوى الديموقراطية للنضال المشترك من أجل بناء لبنان الجديد».

وفي الختام ألقى الرفيق نقولا شاوي كلمة شدد فيها على أهمية وحدة كل القوى التقدمية والوطنية، مستنتجاً أن الاحتفالات الخمسينية دلت على مدى عمق الحزب الإيديولوجي واستعداده للعمل مع كل الذين يرون أهمية عملية التغير وإعادة بناء لبنان جديد.

وقال إن عملية التغيير وإعادة بناء لبنان جديد ليست مهمة حزبنا فحسب، بل هي مهمة قوى تشكل جبهة عريضة تتلاقى على حد أدنى ببرنامج موحد.

أما الوفود التي شاركت في الاحتفالات الختامية وهي: الحزب التقدمي الاشتراكي، منظمة العمل الشيوعي السوداني، الحزب الشيوعي الأردني، حزب الطليعة الاشتراكية الجزائري، سفراء العراق ومصر واليمن الديموقراطية، ممثلو الحركة النقابية، اتحاد الكُتّاب اللبنانيين، وشخصيات سياسية واجتماعية وفكرية وصحافية أخرى.

وكان للاحتفالات الخمسينية صدى كبير على صفحات الجرائد. وبهذه المناسبة كتبت مجلة «الحوادث» الأسبوعية مقالاً تحت عنوان: «روحية غيورغي ديمتروف في احتفالات الشيوعيين»، جاء فيه أن الاحتفالات الخمسينية للحزب الشيوعي اللبناني حققت ثلاثة أهداف وهي:

1 ـ كانت الاحتفالات منبراً دعائياً واسعاً للحزب الشيوعي اللبناني ولذكراه الخمسين. كما هي تظاهرة سياسية كبرى جاءت لتؤكد الالتفاف الكبير للبنانيين حول الحزب الشيوعي اللبناني.

2 ـ هذه الاحتفالات حققت نجاحاً كبيراً وعظيماً على الصعيد الفني.

3 ـ جاءت لتؤكد أن الحزب الشيوعي اللبناني له دور طليعي على الصعيد الثقافي والفني.

الاحتفالات الخمسينية على الصعيد الأرمني

يوم 28 تشرين الأول 1974 هو يوم لا يمحى من ذاكرة مئات الأرمن اللبنانيين. هذا اليوم الذي تحول إلى رمز جديد للأخوّة بين الأرمن والعرب، حيث إن الحزب الشيوعي اللبناني أفضل مجسّد لطموحات الجماهير من عرب وأرمن على السواء، ولأمانيهم الوطنية الاجتماعية ويناضل بشكل دائم ومستمر من أجل تحقيقها.

في 28 تشرين الأول 1974 امتلأت قاعة سينما ريفييرا في بيروت بالرفاق القدامى والشغيلة والمثقفين والشباب. حضر الاحتفال شخصيات وطنية وسياسية وممثلون عن حزب الرمغفار، وممثل السفارة السوڤياتية الرفيق أ.كوتشويان. ووصل المئات من الأرمن اللبنانيين وكلهم حماسة للمشاركة في ذكرى حزبهم الخمسينيّة، ملبّين دعوة المنظمات الأرمنية للحزب.

افتتح الاحتفال بالنشيد الوطني اللبناني ثم النشيد الأممي ونشيد الخمسين، واستهل المهرجان بكلمة المنظمات الأرمنية للحزب ألقاها باللغتين الأرمنية والعربية الرفيق كيفورك ديرنيكوغوصيان، ثم تكلم كل من الرفيقين كرنيك عطاريان وبارور يرتسيان، وباسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا السوڤياتية مسؤول في اللجنة المركزية الرفيق البروفسور هراتشيا سيمونيان. وتحدث عضو المكتب السياسي للحزب الرفيق كريم مروه نيابة عن أمين عام الحزب الرفيق نقولا شاوي الذي تغيّب بسبب وفاة أحد أقاربه. وألقيتُ كلمة في هذا المهرجان قلت فيها:

«إن الحزب الشيوعي اللبناني هو حزب وطني أصيل للشعب الأرمني بمقدار ما هو للعرب».

«في عام 1924 تجاهلت كوكبة من الثوريين الظلام المخيم في ذلك الوقت، تجاهلوا الملاحقات والكبت على يد قوى السلطة الامبريالية، تجاهلوا كل الوسائل القمعية للقوى الرجعية المحلية العربية والأرمنية، وتوجهوا على طريق ونُور ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى. آمنوا بصحة مبادئ الماركسية ـ اللينينية كطريق موجهة نحو الانتصار. آمنوا بالطبقة العاملة وجماهير الشغيلة والفلاحين والمثقفين الطليعيين. ناضلوا من أجل استقلال لبنان الوطني وتحرره الاجتماعي ومن أجل إلغاء استثمار الإنسان لأخيه الإنسان، من أجل تحقيق الاشتراكية في لبنان أسسوا الحزب الشيوعي اللبناني. ولقد تحوّل هذا الحزب اليوم إلى منظمة طليعية للعمال والفلاحين والمثقفين والطلاب وسائر الفئات الشعبية العاملة. له وزن وقوة مؤثرة في البلاد وطنياً وسياسياً وفي جميع المجالات الاجتماعية.

«إن الشيوعيين الأرمن في لبنان كانوا من الأوائل واستمروا في خوض النضال الموحد للشعبين العربي والأرمني في لبنان ضد الامبريالية ومن أجل الاستقلال الوطني والتحرر والتقدم الاجتماعي، ومن أجل القضايا الوطنية للأرمن اللبنانيين والدفاع عن حقوقهم السياسية والاجتماعية.

«إن الشيوعيين الأرمن اللبنانيين كانوا من الروّاد ولا يزالون، عاملين من أجل الوحدة الوطنية الأرمنيّة في لبنان ملتفين حول وطنهم الأم أرمينيا السوفياتية ومن أجل ملاحقة قضيتهم الوطنية الأرمنية المحقة.

«إن الحزب الشيوعي اللبناني يعتبر التعلّق الوطني والارتباط الحيّ من جانب الأرمن اللبنانيين بوطنهم الأم أرمينيا السوفياتية، قضية من التزاماته.

«إن الحزب الشيوعي اللبناني يعتبر قضيته ذلك النضال الوطني الذي

يخوضه الأرمن ضد المجازر العرقية التركية والنهب الحاصل، وفي سبيل إعادة الحق الوطني، ويشكل الحزب الشيوعي اللبناني القاعدة الأوثق والأكثر إخلاصاً لهذا النضال الأرمني».

وبعد استراحة قصيرة قُدّم برنامج فني شارك فيه فنانون عالميون من أرمينيا .

إن يوم 28 تشرين الأول 1974 قد فتح مرحلة جديدة في حياة المنظمات الأرمنية للحزب الشيوعي اللبناني، وأرسى انطلاقة جديدة لتحقيق نجاحات وإنجازات جديدة.

البروفسور هراتشيا سيمونيان في المركز الرئيسي للحزب

ظهر يوم الاثنين استقبلنا، الرفيق نقولا شاوي وأنا، وفد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا برئاسة الرفيق الدكتور هراتشيا سيمونيان الذي شارك في احتفالات الذكرى الخمسين للحزب، حضر الاستقبال أيضاً الرفاق: الشاعر كرنيك عطاريان، كيفورك ديرنيكوغوصيان وبيرم الليزيان.

رحب الرفيق نقولا شاوي بحرارة بالرفيق هراتشيا سيمونيان، وعبره حيّا السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب في أرمينيا السوفياتية الرفيق انضون كوشونيان، ومن ثم قوّم الرفيق شاوي عالياً دور الشيوعيّين الأرمن في لبنان خلال خمسين سنة من تاريخ الحزب الشيوعي، مشيراً إلى دور الأرمن الكبير في بناء الحزب. وقوّم عالياً دور الشيوعيّين الأرمن في لبنان في النضال لتوجيه اللبنانيين الأرمن بتوجّه وطني وبناء علاقات أخوية بين العرب والأرمن ولما فيه مصالح الأجيال الطالعة. ولهذه الأسباب وقف الأرمن اللبنانيون في مواقع نضالية في سبيل الاستقلال الوطني والديموقراطية والعدالة الاجتماعية .

في كلمته الجوابية كرّر الرفيق هراتشيا سيمونيان، مرة أخرى، تهانيه

للحزب الشيوعي اللبناني بمناسبة ذكراه الخمسين، شاكراً الاستقبال الحار الذي خُصَّ به، وأشار بشكل خاص إلى أن الشعب الأرمني، مهما طال الزمن سيتذكر دائماً وأبداً كيف احتضنه الشعب العربي واستقبل بقايا الشعب الأرمني التي نجت من المجازر، وسيعمل دائماً للحفاظ على الصداقة العربية الأرمنية وتعزيزها .

وأكد الرفيق سيمونيان أن شعوب الاتحاد السوڤياتي تعرف جيداً تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني وهي مرتاحة لشعبيته ونجاحاته.

وقدَّم الرفيق هراتشيا سيمونيان في هذا اللقاء الرفاقي الودّي، هدية قيّمة إلى الرفيق نقولا شاوي من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا، وهي عبارة عن سجادة مصنوعة من قبل العمال في منطقة ابتشيفان مرسوم عليها صورة لينين.

صدور كتاب «القضايا القومية الأرمنية وقضايا فكرية»

بمناسبة احتفالات الذكرى الخمسين للحزب صدر كتاب بعنوان «القضايا القومية الأرمنية وقضايا فكرية»، ويحوي مجموعة كتاباتي من التي نشرت في جريدة «غانتش» الأسبوعية في أول سنتين ونصف السنة من حياة الجريدة.

تاريخ الحزب حتى العام 1930

وبمناسبة الذكرى الخمسين صدر أيضاً كتاب تاريخ الحزب حتى أواخر عام 1930، تنفيذاً لقرار أصدره مؤتمر الحزب. كان اسم الكتاب «جذور السنديانة الحمراء»، أعدّه الكاتب الرفيق محمد دكروب بأسلوب أدبي. كان عملاً مباركاً. عالج الكتاب الجذور الحقيقية لنشوء الحزب وارتباطه بجذور التطور الفكري اللاحق في البلاد الذي أثبت صحة عمل الحزب، وقد أنجز الكتاب بأناقة وعناية، وبشكل خاص لجهة البحث

بشرف وضمير عن المصادر التاريخية، وفي نطاق الإمكانيات المتوافرة، وهذا الكتاب كان بمثابة محاولة في تحضير كتابة تاريخ الحزب.

وبخصوص نشوء الحزب الشيوعي اللبناني منذ انطلاقته الأولى والسنوات اللاحقة من أعماله والنضالات التي خاضها حتى أواخر عام 1930، فإنني أقول بكل تواضع إني شاركت في إنجاز هذا الكتاب، وبناء على اقتراحه وضعت بتصرف الرفيق محمد دكروب تصميماً له، أو بالأحرى هيكلاً للكتاب كنت قد أعددتُه وأنجزته قبل سنوات.

في يريڤان... وستينية أكتوبر

وصلت إلى يريڤان في مطلع تشرين الثاني 1977 للمشاركة في احتفالات الذكرى الستين لثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى. وألقيتُ كلمة في المركز الثقافي خلال حفلة بهذه المناسبة.

مع الرفيق نيقولاي تشاوشيسكو

في العام 1978 وصل إلى بيروت أمين عام الحزب الشيوعي الروماني ورئيس الدولة الرفيق نيقولاي تشاوشيسكو بناء على رغبته.

ذهبنا إلى القصر الجمهوري في بعبدا كوفد من الحزب الشيوعي اللبناني للقائه. تألف الوفد من الرفيق نديم عبد الصمد وأنا والرفيق ألبير فرحات. في إطار البحث بالوضع القائم في المنطقة تناولنا زيارة رئيس مصر أنور السادات لإسرائيل وقراره توقيع اتفاق منفرد معها. الرفيق تشاوشيسكو أعرب عن وجهة نظره القائلة إن خطوة أنور السادات تخدم تعزيز السلام في المنطقة.

نحن اختلفنا معه في هذا الرأي وطرحنا رأياً معاكساً كلياً.

الحرب الأهلية والمرحلة التاريخية الجديدة

نهار الأحد 13 نيسان 1975 بدأ الفاشيون الكتائب بتنفيذ أبشع مؤامرة في تاريخ لبنان وأطولها، وأكثرها هدراً للدماء وتدميراً للبلاد. إنها مؤامرة الحرب الأهلية الذي ذهب ضحيتها مئة ألف قتيل، وفقد الكثيرون منازلهم وهُجّر أكثر من ستمائة ألف إنسان ووصل اقتصاد البلاد إلى الهاوية وأضحى الوضع السياسي والاجتماعي في منتهى الخطورة، وبما يضع لبنان أمام خطر يتهدّد وجوده ومصير كيانه الوطني فضلاً عن تهديد وحدة الأرض والشعب.

لقد جاءت هذه المؤامرة الدامية والمدمرة التي نفذها الفاشيون الكتائب، كإحدى الحلقات غير المنفصلة عن الهجمة الامبريالية الأميركية والإسرائيلية، في إطار السياسة التوسعيّة العاملة للسيطرة على لبنان وسوريا وعلى الشرق العربي كله وما هو أبعد من ذلك أيضاً.

كان الهدف الأساسي من المؤامرة الفاشية الكتائبية الوصول إلى رأس السلطة في لبنان، وهذا ما تحقق في أيلول 1982 بفعل اجتياح القوات الإسرائيلية واحتلالها للأراضي اللبنانية، مما أتاح لإسرائيل في «مقابل» ذلك، فرض سيطرة سياسية ومالية وتجارية واقتصادية. والاجتياح الإسرائيلي كان يهدف إلى عزل لبنان عن سوريا وعن العالم العربي وتحويله إلى بلد مناوئ للعرب.

وهكذا فلو سمح لهذا المخطط بالنجاح فإنه كان سيؤدي، عملياً، إلى تصفية لبنان وإنهائه كدولة مستقلة وتصفية دوره كموقع مالي وتجاري واقتصادي وكمركز للترانزيت في الشرق الأوسط، وتدمير الصناعة اللبنانية والتجارة والاقتصاد الزراعي والحياة الاجتماعية لمصلحة إسرائيل.

كان ضمن أهداف الفاشيين التآمريّة تجزئة لبنان إلى «دويلات» طائفية صغيرة تحت هيمنتهم الفاشية، ومنع تحقيق الوحدة الوطنية ومنع إعادة توحيد لبنان، ومنع تطوره الديموقراطي.

وتتالت حلقات المخطط الكتائبي بالتحالف مع الامبريالية، متذرعاً بصيانة «أمن لبنان المسيحي». تحت هذا الشعار المصطنع عملوا لاستقدام المستعمرين الأميركيين والأطلسيين إلى الأرض اللبنانية لإنشاء قاعدة عسكرية، وفي الحقيقة فقد كان هذا موجهاً ضد الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانيّة، ومن ثم ضد سوريا وضد البلدان العربية والتقدمية، ضد الشعب الفلسطيني وثورته والحركات التحررية الأخرى، وضد أقطار المشرق العربي امتداداً لما هو أوسع وأشمل.

كانت بداية تنفيذ المرحلة الجديدة من المخطط (بعد اجتياح 1982) عندما استدعى رئيس الجمهورية أمين الجميل القوات الأميركية والأطلسية، الفرنسية والإيطالية والبريطانية، «ونيوجرسي» أكبر المدمرات الأميركية و«أثقلها»، حيث قصف الطيران الأميركي والفرنسي مواقع القوات الوطنية في مناطق مختلفة...

المحتلون اضطروا للفرار من الأراضي اللبنانية تحت ضربات القوات الوطنية. لكن الكتائب وعملاءهم والقوى الامبريالية لم يتنازلوا عن أهدافهم بصورة نهائية. وها هي الكتائب وما يسمى بـ «القوات اللبنانية» الفاشية، تستمر في تآمرها كإحدى الحلقات في مشاريع أميركا وإسرائيل، عاملةً بشكل رئيسي على تعميق الشرخ في العالم العربي للضغط عليه حتى يستسلم أمام أميركا وإسرائيل على غرار ما حصل مع أنور السادات حيث وقع باسم مصر اتفاقية كمب ديفيد التي سمّيت باتفاقية «السلام».

كان لبنان وبلدان عربية أخرى بين هذه الأهداف، وصولاً إلى تجزئة البلدان العربية وخلق دويلات طائفية بغية تقوية سيطرة إسرائيل وأميركا على هذه البلدان.

هل نسينا أن حلم الصهاينة العنصريين لا يزال قائماً وهو تحقيق مشروع إنشاء «دولة إسرائيل من الفرات إلى النيل»؟!.

في سياق هذه المشاريع كان هدف تصفية القضية الوطنية الفلسطينية المحقة ونضال الثورة الفلسطينية الوطني، وذلك بمشاركة ياسر عرفات

ومؤيديه من جماعة الاستسلام، في أوساط اليمين المنحرف والرجعية العربية.

بديهيّ أن يشكل هذا التحرك المتعدّد الأشكال خطراً جدياً على لبنان.

الحرب... لماذا؟

لماذا وقعت هذه الحرب الأهلية؟

في الواقع، خلال فترة الانتداب فرضت السلطات الاستعمارية الفرنسية على لبنان بنية الدولة ودستورها المبني على الأسس الطائفية. كان هدف الامبرياليين الفرنسيين عدم السماح بإنشاء وتنظيم وتطوير دولة وطنية لبنانية، وطمس الحس الوطني، وإبقاء البلاد فريسة صراعات طائفية وجعلها دائمة التفكك، سعياً لإيقاف النضال من أجل الاستقلال الوطني، وفي نهاية المطاف الحفاظ على السيطرة الامبريالية الفرنسية الدائمة على لبنان.

استخدمت السلطات الامبريالية الفرنسية، من أجل تحقيق هذه السياسة الوسائل كافة على الصعيد السياسي وعلى صعيد أجهزة الدولة والاقتصاد والثقافة.. ومن خلال الامتيازات المعطاة لأوساط في الطائفة المارونية، وبشكل خاص قيادتها الرجعية، حيث كانت السلطات الفرنسية منذ القدم تعنى «عناية خاصة بالمسيحيين» في لبنان الذين كانوا أفضل قاعدة لهم «لانتدابهم» وسيطرتهم على لبنان. وبالرغم من أنها تشكل أقلية من السكان وحتى بين المسيحيين، فإن الطائفة المارونية وبشكل خاص الرجعية المهيمنة فيها تعتبر نفسها «صاحب الامتياز الوحيد» على كل لبنان، بعد ارتكاز السيطرة الفرنسية عليها.

إن هذه الطغمة كانت دائماً تستخدم الفئات الشعبية من الموارنة المؤمنين بغية تضليلهم وتعميق هذا الطرح سياسياً وتحويله إلى قناعات

لديهم، وبما يجعل منهم قاعدة سياسية للحفاظ على مصالح الطغمة الرجعية وامتيازاتها في الدولة، ليس على كل لبنان فحسب، بل أيضاً في الوقت نفسه الحفاظ على سيطرتهم السياسية على الموارنة واستثمار الفئات الشعبيّة منهم. كانت هذه السياسة تخدم الامبريالية الفرنسية بالعمق وهي تشكّل اليوم، أكثر مما مضى الخطر الأساسي على سلامة هذه الطائفة في الواقع. هذه السياسة موضوعة اليوم في خدمة مشاريع السيطرة الإسرائيلية والأميركية على لبنان.

وفي عام 1943 جاء انتصار الاستقلال الوطني اللبناني وذلك في ظروف الانتصارات الساحقة التي أحرزتها الجيوش السوڤياتية في الحرب العالمية الثانية، ونتيجةً لفشل النازية والفاشية، وإضعاف الامبريالية العالمية وخصوصاً الامبريالية الفرنسية، وبذلك نشأت ظروف إيجابية لانتصار شعب لبنان في معركة الاستقلال. غير أن البنية الدستورية للدولة بقيت على الأسس الطائفية ذاتها، مع الحفاظ بثبات على امتيازات الرجعية المارونية على الدولة. أما الإقطاع السياسي من الطوائف الأخرى فكان يشارك في السلطة تحت كنف هذه الهيمنة، وكان ممثلوه يعلنون أحياناً معارضتهم لها استياءً منهم من أصحاب الامتيازات، وهذه الأسباب تسببت بمنع التطور الديموقراطي للبلاد والحؤول دون تطوير كيانها الوطني، ومنع دخول ممثلي القوى الوطنية التقدمية والديموقراطية مجلس النواب.

لقد أعلن أول رئيس وزارة بعد الاستقلال، رياض الصلح، في بيانه الوزاري أهمية توجّه البلاد نحو تعزيز وتطوير كيانها الوطني. إلّا أن هذا التوجّه ما لبث أن لفّه النسيان، حيث لم يكن في الإمكان تحقيقه في ظل الحفاظ على البنية الطائفية للدستور.

وفيما بعد تطورت وتعمقت التناقضات الاجتماعية والسياسية في البلاد وتعمقت أكثر فأكثر، ونشأت أزمتها العامة، وتوسّع وتعمّق الاشمئزاز العام. وقد أدى هذا المناخ، والإضراب العام وما إلى ذلك

من نضالات شعبية ووطنية إلى إرغام بشارة الخوري على الاستقالة من رئاسة الجمهورية. وانتخب كميل شمعون رئيساً جديداً. بيد أن الأزمة الناشئة بقيت، في الواقع، دون حل. بل تطورت وتعمقت حتى أدّت إلى انتفاضة شعبية مسلحة في أيار عام 1958. لمواجهة هذه الانتفاضة استند الرئيس شمعون إلى الدعم الامبريالي الأميركي و«مشروع أيزنهاور»، وبناء عليه طلب تدخل القوات الأميركية في البلاد للحفاظ على سلطاته المهددة بالسقوط. وانتخب رئيساً جديداً للبلاد قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب الذي فكر في القيام ببعض الإصلاحات ولم يصل إلى هدفه.

منذ ما قبل السبعينيات جرت تغييرات كبيرة في بنية البلاد الاجتماعية. حصل نموّ سريع في الرأسمال وأفضى إلى نشوء الاحتكارات وبشكل خاص في أيدي الطغمة المارونية المرتبطة بالرأسمال الأجنبي. واتخذت التناقضات الاجتماعية مزيداً من الحدة وتفاقم بشكل ملحوظ حرمان كل الفئات الشعبية، والشرخ الكبير بينها وبين الطغمة الحاكمة. ففي سياق التغيُّر في بنية القوى الاجتماعية في البلاد وصل عدد العمال إلى 320 ألفاً. هذا الرقم الكبير زاد بشكل ملحوظ وزن الطبقة العاملة في الحياة السياسية للبلاد وفي الحياة الاجتماعية...

ضمن هذه المجريات السياسية والاجتماعية خلال تلك السنوات تطورت وتصاعدت النضالات التي خاضتها الطبقة العاملة والشغيلة وسائر الفئات الشعبية، على صعيد المطالب الاجتماعية والسياسية والنضالات التي خاضتها ضد الغلاء، ومن أجل زيادة الأجور وتحسين أوضاعها الاجتماعية وانتزاع الحقوق المهملة لهذه الفئات. وقد أدت هذه النضالات كلها إلى وضع سياسي ديموقراطي جديد، ونشأت مرحلة تاريخية جديدة.

ويمكن القول إنّ موجة النهوض التي شهدها النضال العمالي والشعبي، كانت تحمل في طيّاتها توجهاً متنامياً نحو إجراء تحوّل سياسي

يدفع البلاد إلى تغيير جذري على النطاق العام، باتجاه وطني وتقدمي وديموقراطي، وما لبث التغيير الجذري أن تحوّل إلى مطلب وطني مع نضج هذه النضالات، بحيث فُتحت، للمرة الأولى في تاريخ لبنان، مرحلة نوعية جديدة للتغيير.. مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية.

أصابت هذه التطورات الكبيرة على الصعيد الاجتماعي والسياسي، فكر أصحاب الامتيازات الرجعيين بالبلبلة، وبشكل خاص الرجعية المارونية. فلجأوا إلى استخدام الوسائل القمعية للسلطة وراحوا يطلقون نيرانهم على العمال المضربين وعلى المزارعين والطلاب.. ولكن، استمر تصاعد النضال وانتشر في أنحاء البلاد كافّة.

ضمن هذه المجريات بدأت الرجعية المارونية وأصحاب الامتيازات السياسية والطبقيّة، بغية الدفاع عن مصالحهم السياسية والطبقيّة، بالتحرك بشكل موحّد مع حزب الكتائب الفاشي، فشرعوا، بدعم وتشجيع من المؤسسات الرئيسية للدولة، في القيام بتدريبات عسكرية على عجل، وفتح مراكز علنية للتدريب العسكري، وإعداد العدة لحرب أهليّة تهدف، بين ما تهدف إليه، إلى ضرب النضال المطلبي الشعبي وذلك عبر عملائهم الفاشيين. وهذا ليس للحفاظ على امتيازات الرجعية المارونية فحسب، بل بغية فرض الهيمنة الفاشيّة على البلاد كلها مستخدمين شعارات مصطنعة ابرزها «الدفاع عن المسيحيين ضد الأخطار المحدقة بهم».

أما وقد تأكدوا من عدم قدرتهم على تحقيق الانتصار بوسائلهم المتوافرة، فقد طلب الفاشيون الكتائب مع حلفائهم المتسابقين معهم، الشماعنة، مساعدة إسرائيل التي هي رسمياً في حالة حرب مع لبنان، حيث كان لهم معها علاقات مشبوهة من قبل، وعملوا في الوقت عينه على استدرار المساعدات الأميركية.

وضعوا أنفسهم في خدمة إسرائيل وحصلوا منها على السلاح والخبراء وعلى أشكال كثيرة من المساعدة. ولكن هذا لم يوصلهم إلى

مبتغاهم، بل وصلوا إلى الهاوية التي لا مفر منها، وفي نهاية المطاف، وافقوا على الغزو الإسرائيلي للبنان. وكان هذا مخططاً من قبل إسرائيل، فوجدتها أفضل فرصة لتحقيق أمنياتها في احتلال لبنان وتمزيقه وإلزامه بسياسة متحالفة مع الصهيونية.

وهكذا، فقد أفادت إسرائيل من «دعوة» الكتائب والشماعنة، فاجتاحت وطننا لبنان بتفاهم وتنسيق مع الولايات المتحدة، ووصلت بدباباتها إلى بيروت وبعبدا، لتفرض على البلاد «سلطة» فاشية عجز الإسرائيليون وأميركا وقوات حلف الأطلسي عن حمايتها وهي محكومة ولا مفّر، بالفشل والزوال كسلطة كتائبية فاشية، من جرّاء اشتداد النضال الموحد للأكثرية الساحقة من أبناء شعبنا المصمّم على إسقاط هذه السلطة الفاشية.

إذا تهددت امتيازاتهم يرتكبون الخيانة!!

وفي الواقع، فمن الثوابت التاريخية أن الطبقة الحاكمة وأصحاب الامتيازات عندما يحدق الخطر بسلطتهم من قبل الشعب في وطنهم، لا يتردّدون في ارتكاب الخيانة الوطنية باستدعائهم أعداء الوطن لمساعدتهم ضد الوطن وضد شعبهم، للحفاظ على سلطتهم أو لاستعادة امتيازاتهم، وصولاً حتى إعطاء العدو امتيازات سياسية وجغرافية. وهذا ما حصل في لبنان.

منذ اليوم الأول لاندلاع الحرب الأهلية، والحزب الشيوعي اللبناني لا يزال يقف عسكرياً في المواقع الأمامية مع كل القوى الوطنية والتقدمية في مواجهة الفاشيين الكتائب والشماعنة ومن ثم القوى الفاشية الإسرائيلية الغازية وضد قوات الاحتلال الأميركية والأطلسية.

وفي هذا المجال، على الصعيد الأرمني بادر الشيوعيون الأرمن بالتفاهم مع الأحزاب الأرمنية الأخرى إلى تشكيل جبهة وطنية أرمنية

لتوحيد الموقف من الأحداث الجارية وذلك على أسس الحياد الإيجابي. وأعلن الحزب الشيوعي اللبناني موافقته مسبقاً على هذا الموقف الأرمني.

وفي الواقع فسياسة الحياد الإيجابي كان لها معنى بالنسبة إلى اللبنانيين الأرمن، ألاَ وهو الامتناع عن المشاركة في الحرب الأهلية، وعدم السماح لأية فئة أرمنيّة بأن تتحول إلى قوة متحالفة مع الفاشيين الكتائب والشماعنة، وعدم السماح لهؤلاء بالتحدث باسم المسيحيين الأرمن في لبنان؛ وبشكل خاص عدم الفسح في المجال لنشوب قتال بين الأرمن كما حدث، مع الأسف، إبّان أحداث عام 1958 .

هذا الموقف الحيادي الإيجابي من جانب الأرمن كان حقاً موقفاً سليماً، ولعلّه هو الأسلوب الصحيح الوحيد للمحافظة على وحدة الأرمن في لبنان، وكان موقفاً سليماً إزاء وطننا لبنان، وقد قوبل بالتفهم والارتياح من قبل جميع القوى الوطنية والتقدمية في لبنان.

أشير هنا إلى أن الرفيقين كرنيك عطاريان وبارور يرتسيان كانا يشاركانني في الاجتماعات التي تعقد بين الأحزاب الأرمنية خلال الأحداث.

غير أن الحياد الإيجابي لم يكن ينفي أو يمنع اتخاذ الإجراءات الضرورية للدفاع عن الذات ضد أي هجوم فاشي، حيث هذه المخاطر كانت واردة دائماً.

وعلى هذا الأساس وعلى غرار سائر الأحزاب الأرمنية، فقد شكّل الشيوعيون الأرمن وحداتهم القتالية دفاعاً عن النفس في احياء خليل البدوي وبرج حمود. كانت المجموعة العسكرية في البدوي بقيادة الرفيق البطل هراتش كازانجيان («سيمون») الذي كان المعتدون يرتجفون منه ويلقي في قلوبهم الرعب. هذه المجموعة كانت على صلة دائمة مع الوحدات العسكرية للرفاق الهانشاك في كمب حاجن. وكانت مشرفة على أمن الحي. ومُنيت بالفشل المحاولات العديدة من قِبل الفاشية لاقتحام هذا الحي، وقد أُسر العديد من أفرادها من قبل رفاقنا.

أما المسؤول السياسي عن الوحدات الأرمنية في برج حمود فكان الرفيق بوغوص توتونجيان.

في أواسط عام 1976 وبعد أن حاصر الأعداء برج حمود ثم بعد حصار تل الزعتر الذي استمر خمسين يوماً بالصمود البطولي، وتحت النيران الغزيرة للعدو سقط مخيم تل الزعتر وبرج حمود والنبعة. وقبل فترة وجيزة كان قد سقط حي الكرنتينا المجاور لكمب حاجن، وفي الفترة نفسها حاصر الأعداء قوّتنا في حي البدوي .

وفي أوائل آب 1976 قامت القوى الفاشية الكتائبية التي كانت من حيث العدد تفوق قوتنا أضعافاً عديدة، بمهاجمة حي البدوي. فواجه رفاقنا الغزاة ببسالة وقاتلوا بقيادة قائدهم الرفيق هراتش كازانجيان. واستشهد الرفيق هراتش ببطولة بعد أن قضى على عنصرين وجرح ثلاثة من الفاشيّين. وببطولة أيضاً، استشهد في هذه المعركة مساعد الرفيق هراتش الرفيق كيفورك كازانجيان. ونجح الرفاق المقاتلون الآخرون في الانتقال إلى المنطقة الغربية من بيروت متابعين مهامهم.

وكان قد قُتل على يد الطاشناك الرفيق أوهانس كريكوريان، الذي كان في السابق عضواً في صفوف الطاشناك، فاستشهد في إحدى المعارك في محلة برج حمود قبل سقوط تل الزعتر. كان الرفيق أوهانس شيوعياً صلباً وأميناً، وطنياً مخلصاً ومقاتلاً متفانياً وكان يقوم بمهمات تموينية لبرج حمود وبمهمات أخرى مخاطراً بحياته.

هذه الأسطر أخطُّها خلال السنة الحادية عشرة من الحرب الأهلية والأزمة اللبنانية مستمرة دون حل، متحوّلة إلى عقدة لا يمكن حلها بل تزداد تعقّداً وتشتد مخاطر الانفجارات الجديدة في لبنان. يمكن أن تحدث انفراجات لمرحلة قصيرة أو طويلة إلّا أن الحل الوطيد إنما يتطلب إحداث إصلاحات ديموقراطية جذرية؛ وبناء على الحقائق الملموسة والمعطيات التاريخية للتطور التي لا تقبل النقاش، فسيلقى في

مزبلة التاريخ بالنظام السياسي والاجتماعي اللبناني الذي أكل عليه الدهر وشرب ويعيش حالة من النزاع، وهو الذي يشكل الخطر الأساسي على استقلال لبنان وعلى سيادته وعلى وجوده، ويعيق وحدته وتطوره الاجتماعي.

إن لبنان على عتبة مرحلة تغيير جذري سياسياً واجتماعياً وديموقراطياً، وبكلمة أخرى أمام مرحلة تاريخية هي الثورة الوطنية الديموقراطية، الآتية لا محالة، فليس ثمة حلّ آخر ينهي الأزمة الراهنة «من جذورها».

خلال مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية سيولد لبنان الجديد؛ ولا مفرّ من سلوك هذا الطريق وهي حقاً ستقيم الاستقلال الحقيقي للبنان سيداً وموحداً لا يتجزأ، ديموقراطياً، عصرياً، تقدّمياً، لا يفرق بين بنيه. وعلى أسس المساواة سوف يبنى لبنان العربي الجديد.

وممّا يدل على أن أصحاب الامتيازات الطبقية هم في حالة الاحتضار، إنهم يواجهون أيّ حل وطني بشراسة ولدرجة المخاطرة بوجود الوطن وتعريض شعبهم لشتى الأخطار، فيقاتلون لوقف عجلة التاريخ والحؤول دون ولادة لبنان الجديد، وإرجاع عجلة التاريخ إلى الوراء وهذا مستحيل، ففي الواقع لا يوجد قوة مهما قاتلت بشراسة، ومهما كانت وسائلها، وبأية مساعدات خارجية استنجدت، يمكنها أن توقف عجلة التاريخ.

وما من شك بأن ولادة لبنان الجديد ستتم ولا مناص منها، ولو بعد مخاض عسير وأوجاع رهيبة، ويجب أن لا نستبعد في اللحظات الضرورية إجراء العملية الجراحيّة اللازمة.

فقديماً قالت العرب إن آخر الدواء الكَيّ.

الموقف الأممي للحزب الشيوعي اللبناني من الأرمن ومن قضيتهم العادلة

كونه لا يفرّق بين اللبنانيين، وكونه حزباً أصيلاً للجميع، فقد ناضل الحزب الشيوعي اللبناني ويناضل على الدوام ليس من أجل الحقوق المدنية الكاملة للبنانيين الأرمن وحرياتهم الديموقراطية وقضاياهم الخاصة في لبنان فحسب، بل إنه عبّر أيضاً، كحزب أممي حقيقي، عن فهمه الصحيح وتأييده السياسي الكامل للقضية الأرمنية. وهكذا فقد أصدر الحزب الشيوعي اللبناني باسم لجنته المركزية بيانين بمناسبة الذكرى الستين ثم الذكرى السابعة والستين لقيام المذابح ضد الشعب الأرمني. صدر هذان البيانان في عام 1975 وعام 1982 وكان لهما صدى عالٍ، حيث يعبّر الحزب الشيوعي اللبناني عن شعوره بالانحناء لذكرى شهداء المجزرة الأرمنية التي نظمتها السلطة الرجعية والعنصرية التركية، ويدين هذه الجريمة ويعبّر عن تضامنه مع القضية الأرمنيّة التي هي في صلب نضال الأرمن في لبنان.

ومما جاء في البيان الأول:

«إن القضية الأرمنية قضية وطنية محقة، وشرعيتها لاتفقد معناها مع مرور الزمن بالرغم من المحاولات التضليلية للتاريخ التي يقوم بها المؤرخون الرجعيون الأتراك بهدف التأثير على الرأي العام العالمي وتغيير فهمه للقضية الأرمنية... القضية الأرمنية لها محتوى تقدمي بارتكازها على الوقائع التاريخية الحقيقية انطلاقاً من مبادئ المساواة بين الأمم وحقها بتقرير مصيرها دون أي إكراه، وحقها بتقرير المصير ضمن إطار العملية الثورية ولخدمتها. وهذا المحتوى التقدمي له أهمية في ازدياد دور الجماهير الأرمنية ونضالهم ضد الذين سلبوا حقهم في الأرض. إنه، بكلمة أخرى، النضال الموجّه ضد الرجعية التركية والقوى الفاشية المهيمنة فيها وسياستها التي تشكل خطراً على المنطقة وعلى

النطاق العالمي كإحدى أدوات الامبريالية الأميركية وكأحد الأعضاء في حلف شمالي الأطلسي»[1].

كذلك، بمناسبة مرور 60 سنة على المجازر الأرمنية صدر في 24 نيسان 1975 عدد خاص من جريدة «غانتش». وقد شارك في كتابة صفحاتها مديناً الدولة التركية والمجازر العنصرية التي قامت بها، العلّامة الشيخ صبحي الصالح وأكثر من عشرين شخصية لبنانية، وإسلامية ومسيحية، وكُتّاب وأدباء وفنانون وصحافيون وشخصيات سياسية واجتماعية، وأمين عام الحزب الشيوعي اللبناني الرفيق نقولا شاوي والرفيق جورج حاوي، وشارك فيها أيضاً رئيس العلاقات الثقافية بين أرمينيا السوڤياتية والأرمن في الاغتراب فارتكس هامازاسبيان، والشاعر هاموساهيان والشاعر اللبناني فاهي فاهيان والكاتب سيمون سيمونيان.

وقد صدرالعدد الخاص لجريدة «غانتش» في ظروف الحرب الأهلية القاسية.

بمناسبة ميلادي الخامس والسبعين

أقامت قيادة الحزب مأدبة غداء في شهر نيسان 1979 بمناسبة الذكرى الخامسة والسبعين لولادتي، حضرها الأمين العام للجنة المركزية للحزب الرفيق نقولا شاوي وعدد من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية وقادة المنظمات الأرمنية. وقد ألقى الرفيق نقولا شاوي الكلمة الآتية في الحفل:

«الرفيق مادويان بدأ نضاله كشيوعي في تركيا سنة 1922، ثم انتقل إلى لبنان بعد المجازر التي ارتكبت ضد الأرمن في تركيا. وفي لبنان

---

(1) هذان البيانان سيصدر نصهما الكامل ضمن إطار كتاب المذكرات في حال صدوره في اللغة الأرمنية.

أنشأ تنظيم «شبيبة سبارتاك» الذي التحم بالحزب الشيوعي الناشئ في لبنان وتأسس الحزب الشيوعي اللبناني. معرفتي الأولى بأرتين مادويان تعود إلى سنة 1932 عندما شاهدته في محكمة الاستعمار الفرنسي، ولا أنسى موقفه الجريء الشجاع في المحكمة.

لقد مرّ الرفيق أرتين بكل الظروف، شرد ونفي ودخل السجن عدة مرّات وتعرض للتعذيب لكنه ظل صامداً دائماً، وتميز بالأمانة الكاملة لمبادئ الماركسية ـ اللينينة، وثقته الراسخة بالصداقة والتعاون مع الاتحاد السوڤياتي وحزب لينين. وشارك في المعركة الوطنية معركة الاستقلال، وفي المؤتمر الوطني اللبناني إلى جانب قائدنا الشهيد فرج اللّه الحلو، وعمله الدائب لتعزيز التلاحم بين الجماهير العربية والأرمنية ووقوفه في مناسبات عديدة ضد محاولات التفرقة الطائفية التي كان يسعى إليها الاستعمار.

إن الرفيق مادويان كان ولا يزال من الصحافيّين اللامعين في الحزب».

وقال في ختام كلمته: «إن الرفيق مادويان هو الوحيد الباقي بيننا من مؤسسي الحزب، وأول شيوعي لبناني نحتفل بعيده الخامس والسبعين.».

وهنأني بالعيد وقدّم لي هدية تذكارية باسم قيادة الحزب.

ثم ألقيت كلمة أعربتُ فيها عن شكري للجميع، مشيراً إلى أن «هذا التقدير الشخصي هو شرف كبير لي، وقبل كل شيء لجميع الذين ناضلوا في صفوف الحزب الشيوعي. وهو يخص كل الرفاق الذين ناضلت وإياهم، منهم مَنْ هُم على قيد الحياة ومنهم الذين استشهدوا أو الذين قضوا نحبهم في النضال.

«وهو تقدير يخص أيضاً ثورة أكتوبر حيث على ضوئها توجّهتُ بخط الشيوعية. وهو تقدير أيضاً لمبادئ الماركسية اللينينية التي ساعدتني على التعرف إلى الطريق الحقيقي في الحياة. صحيح أنني شاركت وساعدت

على تأسيس وبناء حزبنا ولكن، في الحقيقة فإن تطوّري التنظيمي ونضجي قد حصلا في صفوف الحزب».

ثم تكلم أيضاً الرفاق خليل الدبس، يوسف خطّار الحلو، وكرنيك عطاريان[1].

في 10 نيسان 1980 بمناسبة عيد مولدي السادس والسبعين تلقيتُ بطاقة تهنئة من الرفيق نقولا شاوي كتب عليها الاهداء الآتي:

«رفيقي العزيز أرتين مادويان.

«بهذا اليوم السعيد الذي بلغت فيه عامك الـ 76، أسمحُ لنفسي بصفتي الشخصية وبالصداقة التي تربطني بشخصكم، أن أعبِّر لكم باسمي وباسم جميع الشيوعيين، عن أحرّ التهاني بصفتك من أبطالنا القدماء ومن قادة حزبنا المجرّبين وأحد المؤسسين لمسيرتنا الشيوعية في لبنان.

«إننا نعرب لك في هذه المناسبة السعيدة عن أفضل تمنياتنا لك بالسعادة والنجاح والصحة الجيدة والعمر المديد».

(ن. شاوي، 10 نيسان 1980)».

المؤتمر الوطني الرابع للحزب

عقد المؤتمر الوطني الرابع للحزب في 9 تموز 1979 في ظروف سياسية وأمنية معقدة توجّبت اتخاذ إجراءات استثنائية. كانت البلاد لا تزال في ظل الحرب الأهلية، في ظل القصف المدفعي الكتائبي وانفجارات السيارات الملغومة في بيروت الغربية، وفي ظلّ خطر قصف الطيران الإسرائيلي في أي وقت.

رغم ذلك جرى تنظيم أعمال المؤتمر بناء على قوانين خاصة بالعمل السري مرتكزة على دراسة الواقع الموضوعي في المراحل التي نظم فيها المؤتمر، لضمان سلامته في كل الأحوال.

---

(1) «النداء»، 15 نيسان 1979.

وإن اتخاذ الإجراءات الأمنيّة الضرورية لتنظيم عقد المؤتمر، قد أمّن أيضاً إمكانيات المناقشة الديموقراطية للوثائق السياسية للمؤتمر وانتخاب المندوبين.

كانت النقطة الأولى في جدول أعمال المؤتمر تقرير اللجنة المركزية أمام المؤتمر عن الوضع السياسي والخطوط السياسية المقبلة. وكان هذا التقرير قد بحث في كل الهيئات والمنظمات الحزبية خلال مرحلة تحضير المؤتمر وعلى امتداد بضعة أشهر، وانتخب المندوبون إلى المؤتمر. وكنت مندوباً من قبل منظمة برج حمود التي تعمل في ظل ظروف سريّة.

المؤتمر الرابع قوّم المرحلة السابقة لعمل الحزب على الوجه الآتي:

«منطلقاً من البرنامج السياسي المقر في المؤتمر الثاني للحزب، ومن الموضوعات السياسية المقرة في المؤتمر الثالث، متسلحاً بهذه القرارات والتوجيهات ومرتكزاً على نظامه الداخلي ومستفيداً من الإجراءات الاستثنائية المتخذة في الاعتبار في النظام الداخلي التي بلورها المؤتمر الثالث، فإن حزبنا الشيوعي في لبنان خاض معارك عنيفة منذ المؤتمر الثالث الذي مضى عليه سبع سنوات حتى يومنا هذا.

شارك بشكل فعّال في المعارك المسلحة وفي النضالات على مختلف الأشكا، دفاعاً عن مصالح الطبقة العاملة والفئات الشعبية وأمانيها ودفاعاً عن ثورة الشعب العربي الفلسطيني وحقه الشرعي. تحول حزبنا إلى حزب جماهيري يناضل ويقوم بواجباته على جميع الصعد وتعززت وحدته على أسس متينة إيديولوجياً وسياسياً وتنظيمياً.».

قدّم التقرير السياسي للجنة المركزية والتوجهات السياسية للحزب الرفيق جورج حاوي حيث كان منذ أواسط عام 1976 منتخباً أميناً عاماً مساعداً للجنة المركزية.

وافق المؤتمر بالإجماع على تقرير اللجنة المركزية والتحليل السياسي والتوجهات السياسية المقبلة.

ومن ثم أضيفت إلى النظام الداخلي للحزب مادة تجيز إمكانية انتخاب رئيس للحزب عند الضرورة.

وانتخبت اللجنة المركزية الجديدة وأُعيد انتخابي مجدداً فيها. كما انتخب الرفيق كرنيك عطاريان عضواً في اللجنة المركزية. وانتخب في لجنة الرقابة المركزية الرفيق بارور يرتسيان.

وانتخب المؤتمر بالإجماع أميناً عاماً للحزب الرفيق جورج حاوي.

انتهى المؤتمر في أواخر الليل في جو سياسي حماسي متمسك بوحدة الحزب. وضمن الإجراءات التنظيمية المتخذة لعقد المؤتمر قبل انتهاء أعماله، عقدت اللجنة المركزية المنتخبة جلستها الأولى وترأست جلسة أعمالها بصفتي العضو الأقدم فيها، وبناءً على اتفاق مسبق اقترحت انتخاب الرفيق نقولا شاوي رئيساً للحزب، وقبل اقتراحي بالإجماع. ومن ثم جرى انتخاب المكتب السياسي الجديد.

لأجل حزب جماهيري مقاتل

وصدر بيان حول مقررات المؤتمر جاء فيه:

«اتخذ المؤتمر مجموعة من القرارات التنظيميّة لتساعد على استمرار النضال الثوري وبناء حزب شيوعي جماهيري مقاتل مسلح فكرياً وسياسياً على أسس طبقية عالية وبروحيّة كفاحية متفانية، وعلى أسس تنظيمية حديديّة ومستعد لخوض النضال على جميع الصعد في كل الظروف مهما كانت الصعوبات».

في السنوات اللاحقة، بعد المؤتمر، كان نضالنا في ظروف جدّ معقدة وصعبة. مئات الشيوعيّين من صفوف الحزب استشهدوا ببطولة في معارك غير متكافئة. وعمل الحزب بنجاح لتنفيذ مقررات المؤتمر الرابع في ظل الظروف التي ذكرناها، موحداً إيديولوجياً وسياسياً وتنظيمياً في صفوف متراصة حول قيادة الحزب في وحدة صلبة.

وثمة سبب سياسي أساسي لا بدَّ من الإشارة إليه.

لقد عزز حزبنا بإخلاص، وبصورة مطردة، تحالفه على جميع الصعد مع الحزب التقدمي الاشتراكي، ونجحا معاً بإرادة موحدة في تأسيس جبهة وطنية تقدمية ركيزتها هذان الحزبان. ولعب هذا التحالف دوراً أساسياً وحاسماً في بلورة حركة وطنية تقدمية تحررية.

ولقد شكّل هذا التيار، مع حركة «أمل» ومع كل القوى الوطنية وبالتحالف في جبهة موحدة مع سوريا، إطاراً جبهوياً واسعاً للنضال ضد إسرائيل وضد الاحتلال، وفي مواجهة أميركا وحلف الأطلسي وصدّ مخطط الكتائب الفاشية وأهدافها في السيطرة على الدولة والبلاد. هذا التحالف فرض إلغاء اتفاقية 17 أيار المخزية بين لبنان وإسرائيل، وطرد من لبنان قوات الاحتلال الأميركي والأطلسي، وفرض تغييراً جذرياً في المجالين الداخلي والخارجي لمصلحة هذه الجبهة الوطنية المناضلة، وأيضاً على الصعيد العربي متيحاً فتح طريق جديد لحركة التحرر العربية وآفاقاً جديدة لقيادة هذه الحركة لفرض الانتصار.

مرحلة الاجتياح الإسرائيلي

في 6 حزيران 1982 بدأ الاجتياح الإسرائيلي للأراضي اللبنانية بقوات ضخمة برّاً وبحراً وجواً، وكان هذا ما تنتظره وتعمل لأجله أوساط الفاشيين والشماعنة وفريق من الطغمة الرجعية المارونية. وقد أشرنا إلى هذا الموضوع في الصفحات الماضية.

بقرار من القيادة العليا الأرمنية في الحزب، وبموافقة قيادة الحزب أعددتُ بياناً نشرته جريدة «غانتش» بعد مناقشته مع الرفيقين كرنيك عطاريان وبارور يرتسيان، وهو موجه إلى الأرمن اللبنانيين، وقد جاء فيه:

«نداء إلى الأرمن اللبنانيين»

«وطننا لبنان ضحية للعدوان ولاحتلال الغزاة الإسرائيليين والأميركيين.

«القوى الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية منذ أكثر من 7 سنوات أحبطت المحاولات التآمرية الإسرائيلية والأميركية ونتيجة لفشل تآمرهما المتكرر، فها إن إسرائيل بدأت الآن بشنّ اجتياح وحشي مسلح، مدعوم أميركياً، لتنفيذ مخطط معدّ سلفاً وبدعم عسكري ومادي وبالارتكاز على الولايات المتحدة، لتحقيق الأهداف التالية:

1ـ فرض شروطهم على لبنان، وبكلمة أخرى ضمه إلى كمب دايفيد وإرغامه على توقيع اتفاقية استسلامية مع إسرائيل.

2 ـ فرض مرشحهم لرئاسة الجمهورية.

3 ـ فرض نظام رجعي فاشي معاد للديموقراطية، على لبنان كلّه.

4 ـ تصفية الثورة الفلسطينية وقضيتها الوطنية وتصفية الحركات الديموقراطية في لبنان وضرب القوى الوطنية اللبنانية.

5 ـ قطع علاقة لبنان مع سوريا وجعله معادياً لها.

6 ـ وأخيراً، تفتيت لبنان.

«إن الاجتياح الإسرائيلي الأميركي موجه أيضاً ضد سوريا وضد العالم العربي، ولخلق واقع جديد في الشرق الأوسط لمصلحة السيطرة الأميركية ولأهدافها.

«إن مؤامرة الولايات المتحدة الإجرامية هذه إنما تخدم أيضاً حليفتها تركيا وسوف يبرز خطر جديد على وطننا الأم أرمينيا السوڤياتية، وسوف يتعزز أكثر موقف الرجعية التركية لطمس قضيتنا وحقوقنا القومية.

«في هذه الأيام العصيبة يتقرر مصير لبنان، مصير شعبه، وأيضاً يتقرر مصير الشعب الأرمني في لبنان. ولهذه الأسباب يتوجب على الأرمن اللبنانيين بمعزل عن انتماءاتهم السياسية والفكرية، وانطلاقاً من واجبهم

القومي، التعبير عن الإدانة الحازمة للاجتياح الإسرائيلي ـ الأميركي والوقف صفاً واحداً ضد الصهاينة البرابرة والتصدّي ببطولة للأعداء المهاجمين، والقتال بتفانٍ إلى جانب القوى العربية ودعمها على جميع الصعد وبالوسائل كافة.

بيروت 7 حزيران 1982.»

قيادة المنظمة الأرمنية في الحزب.

ووصلت قوات الاحتلال الإسرائيلي إلى مشارف بيروت الغربية والضاحية الجنوبية، بعد حصار محكم وقطع للكهرباء والمياه استمر 87 يوماً في ظل قصف مستمر ليل نهار، براً وبحراً وجواً، وراحت تدكّ الأحياء والقُرى والمؤسسات بحقد جهنمي، بما ألحقَ خراباً ودماراً كبيرين في بيروت الغربية والضاحية الجنوبية.

على أن المدينة وضاحيتها المطوقة كانتا تعيشان أياماً بطولية في ظل الحصار.

فرغم القصف وهجوم الدبابات بأعداد كبيرة فلم يتمكن الغزاة من التقدم خطوة واحدة على أي جبهة.

ثم جرت اتفاقية بين إسرائيل والسلطة اللبنانية في حينه بضمانات أميركية معلنة وبموافقة الثورة الفلسطينية، اتفق بناءً عليها أن تنسحب من لبنان قوات المقاومة الفلسطينية، وفي الوقت نفسه عدم دخول إسرائيل إلى المناطق المحاصرة ورفع الحصار ودخول الجيش اللبناني لحفظ الأمن.

غادرت القوات المسلحة الفلسطينية البلاد، ودخل الجيش اللبناني المناطق المحاصرة بعد إزالة الألغام وتنظيف الطرقات من العوائق بموافقة القوى الوطنية. ولكن الإسرائيليين لم يلتزموا بالاتفاق، فاجتاحوا المنطقة المحاصرة على الطرقات المنظفة من الألغام والعوائق، والخاضعة لإشراف الجيش اللبناني، دون أية مقاومة رسمية واعتراض، كي لا أقول بالتواطؤ معهم.

وازداد الوضع خطورة. ونشأت حالة سياسية ومعنوية متردّية. ولكن، منذ اليوم الأول للاحتلال الإسرائيلي شرع المقاتلون الأبطال من الكومندوس الشيوعيين بعملياتهم الجريئة والمتتالية على مواقع الاحتلال وعلى مراكزهم، وهؤلاء الأبطال الأوائل كانوا بمفردهم في البداية. ثم اتسعت المقاومة فارضين على المحتل الانسحاب السريع من بيروت الغربية، كانت تلك العمليات العسكرية منطلقاً لاستعادة المواقع المفقودة سياسياً ومعنوياً، ثم بالتعاون مع سائر القوى الوطنية والتقدمية وبشكل خاص مع الحزب التقدمي الاشتراكي وحركة «أمل» بدأ النضال الوطني الساحق في جبل لبنان وفي بيروت الغربية وضاحيتها الجنوبية، فارضين الانتصار على عملاء إسرائيل من الكتائب الفاشيّين، وعلى الجيش الفئوي.

انطلقوا في الطريق لتحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلي. وتصاعد هذا النضال فطرد جيوش الاحتلال الأميركي وحلف الأطلسي من لبنان. ومال ميزان الوضع الداخلي لمصلحة جبهة الخلاص الوطني وقواتها. وفي النهاية ألغى لبنان رسمياً اتفاقية 17 أيار الموقعة بين لبنان وإسرائيل والمفروضة من قِبل أميركا.

وواصل المقاتلون والمقاتلات الشيوعيون في المقاومة الوطنية، العمل من أجل تعزيز وتطوير النضال التحريري، ببطولة وإنكار ذات مثاليين لا سابق لهما وهم في الصفوف الأولى بالمعارك، يقدّمون التضحيات والشهداء في جنوب لبنان، وفي البقاع الغربي، ومنطقة صيدا، وفي الجبل، وأماكن أخرى عديدة.

وفي الحقيقة فخلال فترة الحصار والقصف الجهنمي، كان الشيوعيون الأرمن في بيروت الغربية خلف متاريس الدفاع إلى جانب رفاقهم من العرب. بالإضافة إلى ذلك فقد عملوا في الوقت عينه على توفير الخبز والماء لأبناء الحي الذي يوجدون فيه، دون أية تفرقة.

في تلك الأيام القاسية بادر الشيوعيون، مع فريق من الأطباء

الشيوعيين وغيرهم وبمساعدة «النجدة الشعبية» إلى تأسيس مستشفى ميداني في ملجأ مبنى نادي اليك مانوكيان لمساعدة جرحى الأحداث.

نشير أيضاً إلى أن اللجنة المركزية للحزب عقدت أثناء فترة حصار بيروت الغربية اجتماعين تحت الحصار والقصف والدمار، شاركتُ فيهما مع الرفاق الموجودين في تلك الفترة.

وسام أرمينيا السوڤياتية

في 2 كانون الأول 1982 جاء في وكالة أنباء «أرمين برس» في يريڤان الخبر الآتي:

«صدر مرسوم من مجلس السوڤيات في جمهورية أرمينيا السوڤياتية جاء فيه: «مكافأة لعمله الدؤوب من أجل السلام ولتعزيز العلاقات مع الوطن الأم، يمنح وسام رئاسة مجلس السوڤيات الأعلى في الجمهورية للخطيب والمناضل الاجتماعي أرتين مادويان».

بعثت برسالة جوابية معبراً عن شكري العميق، وأشرت إلى أن «هذا شرف كبير لي، يخالجني الفخر والسعادة لاستحقاقي وسام هذا الوطن الأم. واعتبر هذا الشرف ملكاً لجميع الذين ناضلوا معي للأهداف نفسها وعلى الطريق نفسه، وأيضاً لجميع المغتربين الأرمن الوطنيين ممّن اعتبروا مهمتهم الإنسانية والوطنية هي النضال دفاعاً عن السلام وعن وحدة الأرمن في الاغتراب وجمعهم حول وطنهم الأم أرمينيا السوڤياتية».

الشهداء الأرمن في صفوف الحزب الشيوعي اللبناني

■ استشهد على يد عصابات الطاشناك:

1 ـ هاريثون كيلبنكيان 1945.

2 ـ بوغوص نائريان 1947.

3ـ اطام يفييان 1947.
4 ـ هاكوب اداجيان (قتل على يد الشرطة) 1947.
5 ـ ليون كدجويان 1957.
6 ـ بادروس كدجويان 1957.
7 ـ جيرار ماداغجيان 1957.
8 ـ بادروس خاتشادوريان 1957.
9 ـ كريكور غاتانسيان 1957.
10 ـ بابكين بوياجيان 1958.
11ـ أراكيل مسروبيان 1958.
12 ـ افاديس ثافيتيان 1958.
13 ـ كريكور ثافيتيان 1958.
14 ـ مارديروس كشكيريان 1958.
15 ـ شراك ديربوغوصيان 1958.
16 ـ ابرهام اكمكجيان 1958.
17 ـ جان بانبوكجيان 1958.
18 ـ طوروس دمرجيان 1959.

■ استشهد خلال الحرب الأهلية اللبنانية:

19 ـ هراتش كازنجيان (سيمون).
20 ـ كفورك كازنجيان.
21 ـ سركيس جيدرجيان.
22 ـ انترانيك طوماسيان.
23 ـ قره بث كيزريان.
24 ـ ازاد عجميان.
25 ـ بانوس سيمونيان.
26 ـ كفورك ديرنيكوغصيان.
27 ـ هاكوب جوجيكيان.

28 ـ ينوفك هاربويان.

29 ـ اغفني كوشكيريان.

30 ـ انترانيك بابويان.

31 ـ بدروس كوجوغلنيان.

32 ـ هوفنس كريكوريان (قتل على يد الطاشناك).

33 ـ طوروس استرجيان.

34 ـ هارتيون هوفانسيان.

35 ـ انترانيك بوياجيان.

36 ـ نيشان نيشانيان (استشهد في طرابلس 1983).

«الكثير من الرفاق الأبطال استشهدوا.

ولكن ذكراهم باقية إلى الأبد».

كلمتي الأخيرة: إلى الطبيعة أعود!

مذكراتي، ذكرياتي ومشاهداتي، أنهيتها اليوم في 10 نيسان عام 1984 الموافق يوم ميلادي الثمانين، في نهاية المطاف وبناء على قوانين الطبيعة سأعود إلى الطبيعة حيث أنا جزء منها.. ومن المادة التي تتغيّر من شكل إلى شكل آخر دون نهاية ومن هذه المظاهر مولدي وتطوري وحياتي ككل.

لست منهمكاً بفكرة الموت. في النهاية لا مفر منه، ولا يدعو للخوف إذا اقتربنا من الموضوع بمنطق وتروٍّ. فمن الطبيعي أنني، مثل كل إنسان، كنت أتمنى أن تكون حياتي أكثر طولاً، ويكون لديّ إمكانية الاستمرار للقيام بواجباتي الإنسانية والاجتماعية والوطنية.

خلال حياتي حصلت على تجارب متنوعة ومتعددة وبناءً عليه فقناعاتي ثابتة ونهائية، وإذا ما حصل في الطبيعة ما لا يحصل وعادت حياتي من جديد، فبكلّ تأكيد ودون تردّد كنت سأتابع الحياة التي مارستها حيث أنني مقتنع بها.

هي طريق الانتصار النهائي ومصدر لانتصار السعادة، ارتباطاً بتطوّر الشعوب وكل الأمم وكل الأوطان والإنسانية جمعاء، تتحقق أهداف الأمة ضمن إطار علاقات جدلية يغني بعضها بعضاً في المجال الحضاري وتتطور وتزدهر في ظل السلام.





صورة لعام 1908 في 'أضنة'

لقطات من حياة أرتين مادويان

الصف الخلفي وقوفاً من اليسار:

1 ـ ستيبان توتونجيان خالي، اغتيل عام 1909 في 'أضنة'.

2 ـ ميهران توتونجيان خالي، هاجر إلى الولايات المتحدة في بداية عام 1909.

3 ـ أخي الصغير، اغتيل في مذابح 1909.

4 ـ خاتون، والدتي من عائلة توتونجيان، توفيت عام 1974.

5 ـ مارديروس مادويان، والدي، توفي عام 1954.

الصف الثاني جلوساً من اليسار:

1 ـ كوزيل توتونجيان والدة أمي، اغتيلت في مذابح 'دير الزور' عام 1916.

2 ـ ماردیروس توتونجيان، والد أمي، اغتيل في مذابح 'دير الزور' عام 1916.

3 ـ حاريم اربدجيان (من عائلة توتونجيان)، عمتي، اغتيلت في مذابح 'دير الزور' عام 1916.

4 ـ كريكور أربدجيان، زوج حاريم، اغتيل في مذابح 'أضنة' عام 1909.

5 ـ الطفل الصغير في الصف الأمامي ماسكاً القبعة ـ أرتين مادويان



عام 1922، في اسطمبول

في ثانوية 'بربريان'

من اليمين: أرتين مادويان، أردشيس ترزيان وبوخشليان.



أرتين مادويان أمام المنزل حيث عقد أول مؤتمر وطني للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا. أول يو أحد من شهر كانون الأول عام 1925.

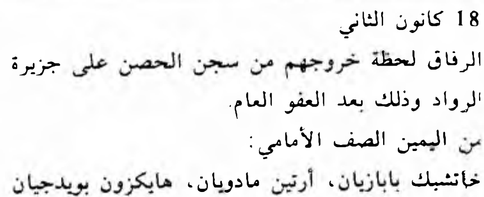


أرتين مادويان في اسطمبول، آذار عام 1922.



عام 1925، في جامعة الطب الفرنسية برفقة الطلبة الأرمن. أرتين مادويان وقوفاً الأول من اليسار





18 كانون الثاني
الرفاق لحظة خروجهم من سجن الحصن على جزيرة الرواد وذلك بعد العفو العام.
من اليمين الصف الأمامي:
خاتشبك بابازيان، أرتين مادويان، هايكزون بويدجيان وكريكور.
الصف الخلفي من اليمين: نسيم شمالي، فؤاد شمالي، زهران غريب، بدروس برديزبانيان

افادة من الجامعة الفرنسية الطب. في بيروت



مجموعة من الرفاق الأرمن أمام نبع نهر الكلب.
أرتين مادويان في وسط

أمام المحكمة العسكرية الفرنسية من اليسار: أرتين مادويان، هاكوب دربدروسيان، زاديك دادوريان، باتوس أرامايسيان.

1931، مؤتمر نقابي في منطقة بيروت. وقوفاً في الصف الخلفي من اليمين: خالد بكداش، أرتين مادويان، فؤاد شمالي.



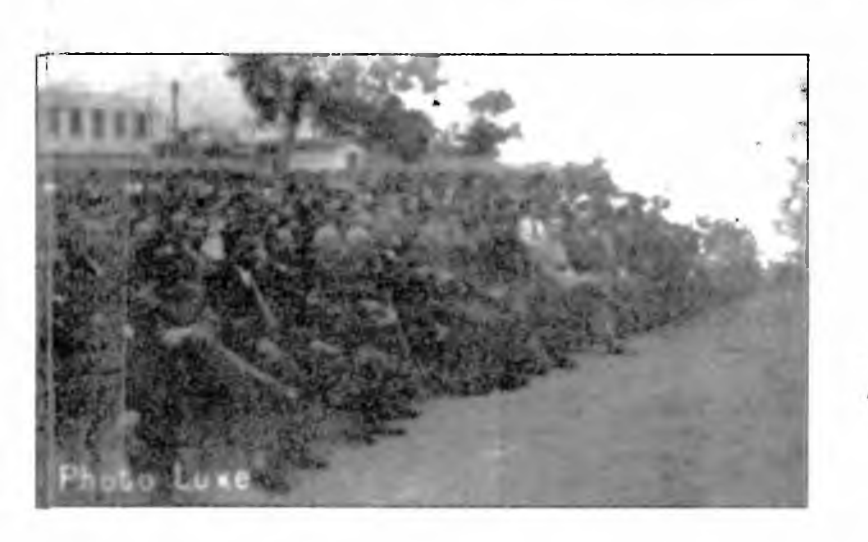
1932، في سجن الرمل في بيروت،
أرتين مادويان (على اليسار)
برفقة أحمد أفيوني.



1938، أرتين مادويان برفقة أنطوان ثابت.



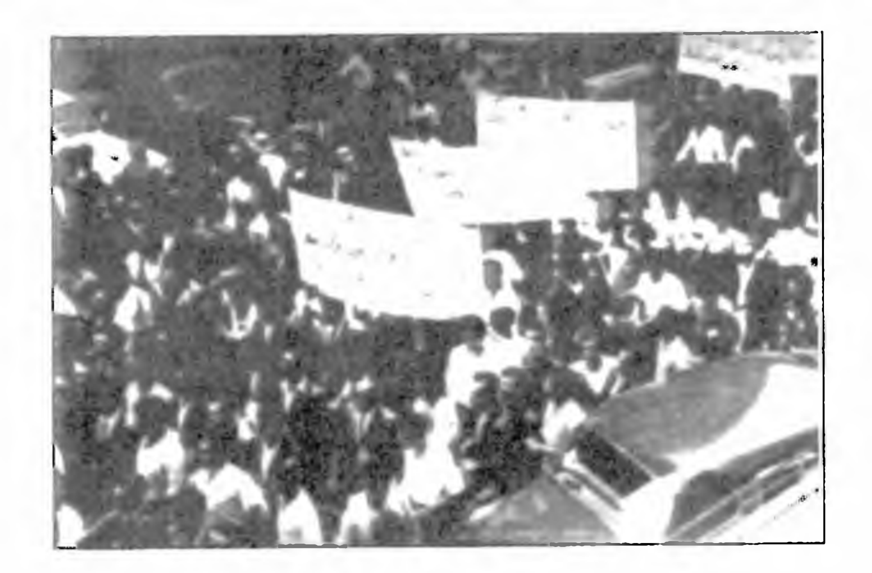
أرتين مادويان يخطب في مهرجان انتخابي في ملعب سهاكيان في عام 1947.



1947، مهرجان انتخابي في ملعب سهاكيان



1951، إحدى المظاهرات (في ساحة الشهداء) التي نظمت ضد المشروع الامبريالي للدفاع المشترك.



مقدمة المظاهرة المذكورة.



عام 1951 من اليسار: نقولا شاوي، أرتين مادويان وخالد بكداش.



مهرجان انتخابي في ملعب سهاكيان عام 1953.

أرتين مادويان في مهرجان انتخابي في الشام.

مهرجان انتخابي عام 1953 في ملعب سهاكيان.



1956، في موسكو خلال المؤتمر الـ 20 للحزب الشيوعي السوفياتي من اليسار: نقولا شاوي، خالد بكداش، يوسف فيصل وأرتين مادويان.

1959، مظاهرة من أجل الدفاع عن كوبا.



1960، بعد محاولة اغتياله مع عقيلته.



1971، في راشيا الوادي من اليسار: الملحق الثقافي السوفياتي ماتوزوف، أرتين مادويان، جورج حاوي،

في 4/ 12/ 1959 في بوداسبت، أرتين مادويان ملقياً كلمته أمام المؤتمر الثاني للحزب العمالي الاشتراكي الهنغاري.



1970، مهرجان سينما ريفييرا في حي أرمني بمناسبة الذكرى المئوية لولادة لينين.
في وسط الصورة من اليمين السفير السوفياتي سرفر عظيموف، نقولا شاوي، أرتين مادويان.

1974. مهرجان في حي أرمني بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني. الشعار: المجد للحزب الشيوعي اللبناني بمناسبة عيده الخمسين.



في أرمينيا السوفياتية أمام تمثال البطل الوطني الجنرال "انترانيك"، من اليسار البروفسور كيفورك خرلوبيان، أرتين مادويان، شاهه دادوريان.



في سنة 1980 برفقة الماريشال هوفنيس بغرميان في يرڤان.

من اليسار، انترانيك مرديروسيان نائب رئيس لجنة العلاقات الثقافية الأرمنية، البروفسور كيفورك خرلوبيان، البرفسور جون كيراكوسيان وزير العلاقات الخارجية في أرمينيا. نورا هاكوبيان رئيسة لجنة العلاقات الثقافية الخارجية، كارلين دالاكيان سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا، أرتين مادويان.



في الأول من تشرين الأول من عام 1984، حلقة خاصة بمناسبة الذكرى الثمانين لميلاد أرتين مادويان، البروفسور نيقولا أوهنسيان يلقي الكلمة.



أرتين مادويان يلقي كلمته
في الحلقة الخاصة في أرمينيا



1974، مهرجان خطابي أرمني في سينما ريفييرا بمناسبة الأول من ايار، أرتين مادويان يلقي كلمته.

في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي اللبناني، من اليسار أرتين مادويان، الرفيق سيزوف رئيس وفد الحزب الشيوعي السوفياتي، الرفاق نقولا شاوي، فؤاد قازان، نديم عبدالصمد.

في الذكرى الخمسين للحزب الشيوعي اللبناني أرتين مادويان يتقبل وسام الصداقة بين الشعوب من قبل الرفيق "ايڤان بوناكا" رئيس الوفد السوڤياتي وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوڤياتي.



في تشرين الأول من 1974، يوسف يزبك
وأرتين مادويان أمام المنزل في
الحدث، حيث عقد الاجتماع الأول للحزب
في تشرين الأول من عام 1924.



في الأول من تشرين الأول عام 1984 في يرفان في قاعة هيئة السوفيات الأعلى لأرمينيا. نائب رئيس الهيئة يقلد أرتين مادويان أعلى وسام في أرمينيا السوفياتية.



حفلة استقبال أقامها الحزب. نقولا شاوي، جورج حاوي، أرتين مادويان ورفيق سمهون يستقبلون منير أبو فاضل.



استقبال وليد جنبلاط في الحفلة نفسها.

حفل استقبال بمناسبة الذكرى الستين للحزب الشيوعي في أوتيل البوريفاج. كريم مروة، أرتين مادويان والياس البواري يستقبلون الرئيس تقي الدين الصلح.

السراي الصغير حيث يوجد السجن في طابق تحت الأرض.

أنهى أرتين مادويان كتابه قائلاً: «مذكراتي، ذكرياتي ومشاهداتي، أنهيتها اليوم في 10 نيسان عام 1984 الموافق يوم ميلادي الثمانين، في نهاية المطاف وبناء على قوانين الطبيعة سأعود إلى الطبيعة حيث أنا جزء منها.. ومن المادة التي تتغيّر من شكل إلى شكل آخر دون نهاية ومن هذه المظاهر مولدي وتطوري وحياتي ككل.

لست منهمكاً بفكرة الموت. في النهاية لا مفر منه، ولا يدعو للخوف إذا اقتربنا من الموضوع بمنطق وتروٍّ. فمن الطبيعي أنني، مثل كل إنسان، كنت أتمنى أن تكون حياتي أكثر طولاً، ويكون لديّ إمكانية الاستمرار للقيام بواجباتي الإنسانية والاجتماعية والوطنية.

خلال حياتي حصلت على تجارب متنوعة ومتعددة وبناءً عليه فقناعاتي ثابتة ونهائية، وإذا ما حصل في الطبيعة ما لا يحصل وعادت حياتي من جديد، فبكلّ تأكيد ودون تردّد كنت سأتابع الحياة التي مارستها حيث أنني مقتنع بها.

هي طريق الانتصار النهائي ومصدر لانتصار السعادة، ارتباطاً بتطوّر الشعوب وكل الأمم وكل الأوطان والإنسانية جمعاء، تتحقق أهداف الأمة ضمن إطار علاقات جدلية يغني بعضها بعضاً في المجال الحضاري وتتطور وتزدهر في ظل السلام».

يرحل الأشخاص ولا تفنى الأفكار والنضالات. كل شيء يتغير نحو الأفضل أو الأسوأ لكن لا يمكننا تغيير التاريخ وتزويره. ولأن ليس في إمكاننا صنع المعجزات أردنا إحياء أرتين مادويان عبر الطبعة الثانية من كتابه ومذكراته التي هي ليست جزءاً أساسياً من تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني فحسب، بل هي جزء أساسي من تاريخ لبنان والمنطقة.

مؤسسة جورج حاوي


ISBN 978-9953-71-614-5
9 789953 716145